

تأليف

الشيخ سيدي المختار الكنتي الشنقيطي

المتوفى عام ١٢٢٦ هجرية

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

مأمون محمد أحمد

الطبعة الثانية

١٩٩١ /٧-٥٠٠٠



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين :

اللهم علمنا ماينفعنا وانفعنا بما علمتنا وارزقنا الإخلاص يا أرحم الراحمين:

وبعد

فإليك أيها القارىء الكريم أقدم الطبعة الثانية من كتاب [فتح الودود شرح المقصور والممدود]

أولاً ــ إن هذا الكتاب ألفه الشيخ سيدي المختار الكنتي قبل أكثر من ٢٠٠ عام شارحاً فيه منظومة الإمام محمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة ــ المعروفة باسم (المقصور والممدود) والتي تقع في ١٥٧ بيتاً سوى المقدمة، وكل بيت منها يحتوي على أربع كلمات الأولى مقصورة والثانية ممدودة وفي العجز كذلك متحدة في اللفظ ومختلفة في المعنى ــ كقوله في البيت الأول :

أَطَعْتَ الْهَوَى فَالْقَلْبُ مِنْكَ هَوَاءُ   قَسَا كَصَفاً مُذْ بَانَ عَنْهُ صَفَاء

تلاحظ أن في الشطر كلمتي ــ الهوى ــ والهواء ــ وفي العجز الصفا والصفاء ــ وهكذا .

فهذه الكلمات المتنافرة صيغت بأسلوب أدبي رفيع ظاهره لغوي وباطنه صوفي تزهيدي .

وهذا الجانب لايتحكم فيه إلا من له باع طويل في اللغة وأساليبها والتصوف وإشاراته فمن أراد شرح ــ الهوى ــ والصفاء ــ مثلاً ــ لابد له من خوض غمار هذا الفن ــ وهذا ماحدى بالشيخ رحمه الله إلى التوغل أحياناً في إشارات القوم لتوضيح هدف المؤلف ــ فقد ذكر في المقدمة ان المنظومة لم تشرح قبله لصعوبة ألفاظها ودقة إشاراتها.

ثانياً ــ أريد أن أوضح ــ وإن لم أكن أهلاً لذلك ــ بعض الجوانب المتعلقة بالصوفية ــ لما لهذا الموضوع من أهمية ــ فأقول وبالله التوفيق .

لقد تعودنا على النفور من كلمة ــ الصوفية ــ لكثرة ما قيل عنها وفيها ــ من المثالب ــ فقول يجردها من الاسلام ــ وآخر يردها إلى مجوسية الهند وثالث ينسبها إلى اليونان إلى غير ذلك مما هو معروف .

وبعد التأمل والدراسة وصلت إلى قناعة مفادها أن تجريد فن التصوف من أصله الاسلامي وإطلاق الكفر أو الزندقة على أهله جميعاً باطل ولايخلو من التعصب والعدوان .

والحقيقة أن هذا الفن أو المسلك، مذهب إسلامي هدفه في الأصل إصلاح القلوب وتخليصها من أمراضها ورعوناتها :

وقد اعتنقه كثير من العلماء والأولياء والعباد والزهاد على امتداد تاريخنا الاسلامي العظيم وادعاه آخرون رياء ودون اقتناع وارتكبوا تحت مظلته الكفر كالاتحاد والحلول والبدع كالرقص والاختلاط إلى غير ذلك .

والموقف السليم ــ إن شاء الله ــ هو أن من ظهر منه أو عليه ــ من أهل هذا الفن ــ شيء يخالف نصاً شرعياً يُحْكَمُ عليه بظاهر مخالفته أولازمها ــ ولا كرامة ــ ومن لم يظهر منه شيء يخالف شرع الله يحكم له بالفضل حسب درجته في العلم والصلاح والاستقامة .

لقد كان الامام أحمد رحمه الله يجل المحاسبي ويتأثر بكلامه وكان شيخ الاسلام ابن تيمية يحترم الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله ويسميه شيخ الاسلام ــ تكرر ذلك في فتاواه ــ وكان تلميذه ابن القيم رحمه الله يعظم عبد الله بن محمد الهروي ويسميه كذلك شيخ الاسلام وشَرَحَ كتابه منازل السائرين وهو أهم كتاب في فن التصوف ــ وغير هذا كثير وكثير .

ثالثا ــ لم ينقل ــ حسب علمي ــ عن أحد من العلماء تكفير أهل التصوف على العموم ــ وإنما ورد تكفير أشخاص أو طوائف منهم بأعيانهم بسبب أشياء قالوها أو نسبت إليهم .

بل إن بعض العلماء كشيخ الاسلام ابن تيمية قال إن الذين تفوهوا بالعبارات التي ظاهرها كفر يمكن أن يلتمس لهم عذر إذا كانوا في حالة فناء ولم يسعوا إليه .

واسمع ياأخي مايقوله الامام ابن القيم في مدارجه في هذا المجال:

قال صاحب المنازل: (يعني الهروي)

الرجاء أضعف منازل المريدين لأنه معارض من وجه واعتراض من وجه وهو وقوع في الرعونة في مذهب هذه الطائفة :

قال ابن القيم بالحرف تعليقاً على هذا الكلام:

شيخ الاسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ونحن نَحْمل كلامه على أحسن محامله ثم نبين مافيه اهـ .

فانظر يأخي هذا الكلام الرفيع إنه يبدأ باعلان حبه للهروي ويبين ثانياً أن الحق فوق المحبة ويعلن ثالثاً أن كل إنسان غير معصوم معرض للخطأ ورابعاً يبحث له عن أحسن المخارج هذا والله هو الصدق والاخلاص .

ثم يستمر رحمه الله في تبرير كلام الهروي فيقول هذا ونحوه من الشطحات التي تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد ولم تُضمَن العصْمة لبشر بعد رسول الله ﷺ .

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس إحداهما حُجبَتْ بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بهم مطلقاً وهذا عدوان وإسراف .

فلو كان كل من أخطأ أو غلط تُرِكَ جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها .

وطائفة ثانية حُجبوا بما رأوا من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصها فسحبوا عليها ذيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها واستظهروا بها في سلوكهم .

وهؤلاء أيضاً معتدون ومُفرِطُونَ .

والطائفة الثالثة، وهم أهل العدل والانصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح بل قبلوا مايقبل وردوا مايرد انتهى (٢جـ ٣٩ص) مدارج .

رحمك الله ياشمس الدين ما أعدل كلامك .

ولابأس هنا أن أنقل تعليقاً على كلام قريب من كلام الهروي لبعض متأخري المتأخرين هو (الشيخ محمد حامد الفقي) قاله تعقيباً على كلام في مدارج السالكين .

قال بالحرف:

ليس في الاسلام صوفية بل كل منهما مستقل بنفسه فللإسلام مصادره من الكتاب والسنة وعقائده وشرائعه وللصوفية مصادرها وعقائدها وطقوسها من كتب فلاسفة الهند واليونان وكتب ابن عربي والسهروردي وأشباهما (١جـ ٩٦ص) مدارج .

لاحظ ياأخي الفرق بين العلم والورع وبين التعصب والتحامل كلام تكاد حروفه تنطق بالحق يلوح بين أسطره نور التوفيق والإنصاف وآخر باهت لا نور ولا حياة فيه إنه التعصب .

ثم إن هناك قاعدة إسلامية جليلة سندها قوله ﷺ (إذا قال المسلم للمسلم ياكافر فقد باء بها أحدهما) الخ .

ثم إن الاسلام اليوم محارب من جميع أهل الأرض وبلا استثناء وكل شيء يؤدي إلى تقارب أبنائه يعد خدمة كبرى للإسلام وأهله ولاأقصد أن يكون ذلك التقارب على دخَلٍ ــ لا ــ بل بعد تدقيق وتحكيم شامل لكل نصوصه وبالله التوفيق .

ثالثاً ــ الكتاب نافع جداً للخاصة من حيث اللغة والاقتباس من الأسلوب ونافع كذلك لفئات من العامة لما فيه من الحث على المثل العليا من صدق وإخلاص وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر والأدب الرفيع والقصص الشيقة والأمثال والحكم إلى غير ذلك فهو بحق موسوعة مع أن فيـه أشياء لانُقِرها كالقصص الخرافية والاسرائيليات والمبالغات ــ إلا انها لاتعد شيئاً بالنسبة لفوائد الكتاب .

فإلى أولئك الذين يتتبعون هذه القصص ويعدونها أخطاء من الشيخ رحمه الله ويريدون حجب الكتاب بسببها أعيد ماقاله الامام ابن القيم في مدارجه (فلو كان كل من أخطأ أو غلط تُرِكَ جملة وأُهدرت محاسنه لفسدت العلوم) اهـ .

رابعاً ــ عند ظهور الطبعة الأولى وردتِ عليَّ ملاحظات وانتقادات حادة من فئتين الأولى تدَّعي مناصرة الشيخ رحمه الله على اعتبار أني قسوت عليه في بعض التعاليق على القصص والأحاديث وأن الشيخ أجل وأسمى من أن يعلق عليه .

والثانية تقول إن التعاليق غير كافية وأني أهملت عن عمد أوتقصير التعليق على جانب التصوف من كلام الشيخ وكان الأولى أن أبين خطأ ماذهب إليه .

وأقول لهؤلاء وأولئك (إن أردتُ إلا الإصـلاح ما استطعت وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

قد أكون قصرت في توضيح بعض الأفكار وقد يكون مرد ذلك لقصور إلا أنه من المؤكد أني لم أعلق على شيء من منطلق النيل من الشيخ رحمه الله لأني لاأقبل ذلك ولاأريده ولو أردته (والله يعصمني من ذلك) لما استطعت، أين الثرى من الثريا .

وإنه لمما يسعدني أن أجد رداً علمياً يبين خطأ ما اعتمدت ــ فالحق أحق أن يتبع وهو لايعرف بالرجال وإنما الرجال هم الذين يعرفون به والله الموفق .

منهج التحقيق

أولاً ــ بالإضافة إلى ماذكر في مقدمة الطبعة الأولى من التخريج والترقيم والتصويب.

فقد امتازت هذه الطبعة بزيادة التعاليق على المواضيع التي لم يعلق عليها سابقاً مع حذف يسير في التعاليق السابقة وعناية خاصة بتخريج الأحاديث مع أنها لم تشمل جميع الأحاديث لصعوبة ذلك .

ثانياً ــ تم التغلب على جميع الأخطاء ــ التي كانت في الطبعة الأولى وأرجو أن يكون التوفيق في ذلك شاملاً .

ثالثاً ــ تغير حجم الكتاب من حيث عدد الصفحات إلى أقل ومن حيث الحجم ونوع الورق والحرف إلى الأحسن وسوف تلاحظ ذلك عندما تطالعه .



المؤلف

هو الشيخ الكبير (سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكُنْتِيُّ) ولد عام ١١٤٢ هجرية في مكـان يدعى (كثيب أوغال) ضمن الأطراف الشـرقيـة من بلاد شنقيط جنوب الصحراء الكبرى ـــ ويعرف (بأزواد) ويتبع حالياً جمهورية مالي ـــ وهذه المنطقة الآن صحراوية قاحلة ليس فيهـا عمران بسبب الجفـاف الذي ســاد المنطقة مؤخراً وكانت في عهد المؤلف تزخر بالحياة والنشاط الانساني .

نســــبه

ينتسب الشيخ إلى قبيلة (كُنْتَه) إحدى القبائل العربية وهي منتشرة الآن في موريتانيا ومالي وجنوب الجزائر والمغرب ويرجع نسبها إلى (عقبة بن نافع) فاتح افريقيا .

نشــأته

ولد رحمه الله وعاش في بيئـة صحراوية في وسط ثقافي رفيع المستوى فقد كانت أسرته وأجداده على جانب كبير من العلم والتقوى وقد ظهرت علامات نبوغه وهو صغير .

طلبـه للعلم

درس القرآن وهو صغير على أخيه الأكبر ثم على جده لأمه ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره ذهب عن حيه مُتنقلاً بين علماء عصره مستوعباً ما عندهم من علوم وأثناء ذلك درس الفقه والتفسير والحديث والنحو والبلاغة والأصول حتى استقر به المطاف أخيراً عند الشيخ (سيدي علي بن النجيب) وعنه أخذ الطريقة القادرية مع ما لم يتحصل عليه قبله من العلوم وهو الذي لعب الدور الأساسي في تكوين شخصيته العلمية والروحية فيا بعد .

حيــــاتـه

عاش الشيخ رحمه الله حياة كلها علم وعمل وإصلاح وإرشاد ــ وقد أفرد ولده الشيخ (سيدي محمد) رحمه الله لسيرته الرائعة كتاباً ضخماً سماه (الطرائف والتلائد) ولما لهذه السيرة العطرة من تعدد الجوانب والمواهب يصعب إعطاء فكرة عنها في أسطر وباختصار شديد فقد كان رحمه الله المرشد الأكبر والعالم العامل والمصلح المطاع في غرب افريقيا عامة وبلامنازع .

ألّف مايربو على ثلاثمائة كتاب في جميع العلوم المتداولة في زمنه وأخذ عنه العلم والسلوك خلائق لايحصون كثرة وصاروا مصدر إشعاع في بلادهم ولايزال بعض ذلك النور ساطعاً حتى اليوم ومن أمثلته (آل الشيخ سِيْدِيا) في (أبي تيليميت) .

وفــــاتـه

توفي رحمه الله يوم الأربعاء الخامس من شهر جمادى الأولى عام ١٢٢٦ هجرية عن عمر يناهز ٨٤ عاماً قضاها في التعلم والتعليم والتأليف والتربية ودفن في مكان يدعى (بولنوار) رحمه الله رحمة واسعة .

المدينة المنورة في ١٤١١/١٠/١٥

مأمون محمد أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله وسلَّمَ على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وسلم تسليماً:

الحمد لله ذي الكرم والجود، الذي لاشريك له في الوجود، إذ أتحفني بِفَيْضه المجدود[1]، حتى تيسَّر ما قصدتُه من شرح « تحفة المودود ». حسبما طَلب مني ذلك أخٌ في الله ودود.

والصلاة والسلام على النبيِّ المحمود، المخصَّص بقصر جميع الممدود من أهل الكفر والجحود.

فجاء بحمد الله وعَونه على المنية والمقصود، بل زاد بهاءً وبهجةً على كل شارح جيء به في المقْصور والممدود، إذ جاريت مصنِّفه أبا عبد الله محمد بن مالك، وطاولتُه في جميع المسالك. حتى غطَّى بحري نَهْرَهُ، واجتاح ثمري زَهْرَهُ، إلا أن دهري لا يوازي دَهْرَهُ، إذْ له رتبة السابق، كما آن لي مزية اللاحق.

فأبرزت مُخدَّرات عرائسه، والتقطت من قاموس بحره يواقيت نفائسه، وهذَّبتُ ما فيه من دسائسه[2] وأجهزت على كل ما أثخنه من فرائسه، فأربيت على كل شارح يزعم أنه من مكائسه[3] إذ جاريته على متُون الأعوجيات، حين جارَوْهُ على البرذان والسُّكَيْنَات[4] فلما تراكَت بنا الرُّكبان، وظَنَّ الجاهل القرب والتَّدان، خُضْتُ به بحر الحقائق والمعان. فكَّع[5]

(١) الواسع:العظيم.

(٢) الدسائس جمع دسيسة: دفن الشيء تحت الشيء لاخفائه والمراد هنا الاشارات الخفية الموجودة بكثرة في المنظومة .

(٣) المكائس مصدر ــ وهو تمكين النفس من استنباط ماهو أنفع .

(٤) السُّكَيْنات جمع سُكَينة كَجُهَيْنة : الأتان الخفيفة السريعة، وسُكَيْن كُزَبيْر: الحمار السريع الخفيف. والبرذون دابة الحمل الثقيلة .

(٥) كَعَّ:ضعف وجبن .

جواده عن خوض ما رمتُه، ولم يَحُمْ حول ما حُمْتُه، فحبَّرت كتابه بآي التنزيل تحبيراً، وطرّز
بغرائب اللغات تنويراً، فجئت فيه بالمواعظ الهائلة، والغرر[1] السائلة، والمذاهب المائلة ع
الطريق الباطلة، وبحكايات الأمجاد، وروايات الأجواد، وبنفائس الأعراب، وغرائب الإعراب
ونُبَذ من الآداب والأدباء، وقصص الأنبياء والأولياء،وكيفية بدء الخلق والانتهاء، والزَّجر ع
الظلم والاعتداء، ومايَجُرَّان إليه من البلاء والجَلاَء[2] ونُكَت من الترغيب والترهيب، مما يُذي
أو يكاد ذهن اللبيب، ومن غرائب المسائل الفقهية، وبصوص[3] نصوص الدلائل العقلية،
يفوق ويروق، ويوجب على من سمعه أن لايقابله بالعقوق، ومن الحِكَم الطِّبِّيَّة والنفحا
الغيبية[4] ما يشوق كل مشوق، وإليه النفوس الزكية تتوق .

ورتَّبتُ طوالعه وبيَّنت لوامعه، تَرتيب المنازل الفلكية بالأحاديث النبوية، فَجَرَيْتُ في
بَيْنَ الإسهاب والإطناب، وصنتُه عن التطويل المُمِلّ، والتقصير المُخِلّ، والهَذَيان المُزِلّ، فصا
أذكى من الزبد، وأحلى من الشهد، إذ لاتنقضي نفيسة من نفائسه، إلا أسفرت لك عن وج
عروس من عرائسه. ثم ختمته بشذى مسك سيرته الشريفة والتفجُّع بوفاته المنيفة، وذكر آ
وأصحابه، والصلاة عليه وعلى آله.

فجنيتُ فيه من كل ثمرة فقهية أحلاها، ومن كل نفحة صوفية أذكاها، ومن كل حقيق
رَبَّانية أعلاها، ومن كل نبعة نبوية أجلاها، ومن كل حِكمة قرآنية أشهاها، ومن كل حكاي
إسرائيلية أبهاها.

واختصرَته مع ذلك غاية الاختصار، واقتصرت على كثير مما يحصل به الانتفاع كا
الاقتصار، ليكون على القدر الكافي وليشرب منه متناوله المشرب الصافي، حتى يكون لذ
الغُلّة[5] والعلة كالترياق الشافي وليكون ساتراً لعورات الجهل كالثوب الضَّافي.

---

(١) الغُرر جمع غرة ــ سيد القوم ــ بياض في جبهة الفرس ــ أول كل شيء ــ وهو هنا كناية عن الحس
الموجود في الآي والحديث والحكم .

(٢) الجُلَّى بالضم، والقصر جمع جلل مؤنث الأجل الأمر الشديد والخطب العظيم وبالفتح والمد الجلاء ع
الأوطان .

(٣) البصص : البريق واللمعان .

(٤) الغيب لايعلمه إلا الله وقد أطلع أنبياءه على بعضه على سبيل الاعجاز والتأييد .

(٥) الغُلَّة ــ العطش الشديد ــ تجمع على غلل وهي بضم الغين .

ولقد أجاد صاحب المنظومة وأفاد، وسهَّل السبيل للسالكين بل زاد، فَلْيَسْلُكِ القادر إن شاء أو أراد، إذ أتى بها على أسلوب لم يُسبق إلى مثاله ولم يَنْسج أحد بعده على منواله، فأتقن العبارة، ودقق الإشارة، حتى صارت أخفى من دبيب النمل على الصفا، بل هي أدق من الإبر، وأرق من الشعر، إذ أكثرها أمثال وحقائق وأحوال ــ وحقيقة الأمثال الإتيان باللفظ الوجيز على وجه التعجيز ــ إذْ المراد به غير ما يدل عليه صريح لفظه، ولذلك نفى الله عِلمها عن غير العالِمين بها فقال: ﴿ **وتِلْكَ الأمثالُ نضربها للنَّاس وما يَعْقِلها إلا العالِمون** ﴾ [العنكبوت: ٤٣] حتى قيل: إن فهمها وتَحقيقها على ما وضعت له من نوع الإلهام، بل من نوع الكشف والإعلام.

ومن الدليل على وسع باعه، أن جاء بمنظومته هذه، فألَّف فيها بين ما ينبغي تأليفه من نوعي المقصور والممدود، فحشاها بأنواع العلوم من القرآن والحديث وعلم التَّصوف والوعظ وأنواع الأدب والفقه واللغة على أوجز عبارة وأدق إشارة، فلا يُنكِر شذاه إلا مزكوم، ولا يستمرُّ[1] طعمه إلا محموم، أو معاند غشوم، ولايحجب عن ضوء شموسه إلا أرْمَد أو مطموس البصيرة أكمد[2]. لكن لما تصعب مسلكه،وعزَّ مطلبه ومدركه، قلت شروحه، إذ توعر عليهم وضوحه، قال الشاعر:

إذا عَظُم المطلوبُ قَلَّ المساعدُ[3]

فلو أني تتبّعت إشاراته على ما فتح الله به علي، لأتَيت عليه بدفاتر تقصر دون تناول النزر منها همم أهل العصر لقصور الهمم اليوم عن التتبُّع لما طال، فانكمشت لذلك على قدر ذلك ليقع الإمتاع بما هو هنا دون ما هنالك.

[قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي نسباً] :

(١) يستمر ــ أي لايكون مراً إلا عند المحموم .

(٢) الأكمد : مريض القلب .

(٣) الشاعر هو أحمد بن الحسين الجعفي المعروف بالمتنبي ولد سنة ٣٠٣ بالكوفة ومات عام ٣٥٤ هجري، وشطر البيت هو:

وحيد من الخلان في كل بلدة

وهو من قصيدة يمدح بها سيف الدولة مطلعها :

عواذلُ ذاتِ الخال فيَّ حواسد وإنّ ضجيع الخود مني لماجد

وهم حيّ مِنْ مَذْحج انفصلوا عنهم تفرق أيادي سبأ حين أصابهم سَيْل العَرِم، فَجاوروا مضر، وحالفوا أسداً وغطفان، فسموا من يومئذ بالأحلاف، وفي ذلك يقول الشاعر يمدح الحارث بن عوف وحَرْمَلَة لما ضمنا الضمانات وتحمّلا الحمالات في صلح حرب داحس والغبراء:

همـا ألفيـا الأحلاف قد ثُلَّ عرشها ... وذبيـان قد زلت بأقدامهـا النَّعْـلُ

(الأندلسي إقليماً الجيّاني وطناً)[1] وله الرحلة المشهورة في طلب العلم وتحصيل فنون الأدب، وكان مشهوراً بالزهد، معروفاً بالمروءة والرشد، حج مرات، وجاور وطاف الشام والموصل وديار بكر والسواد، فلما تجهبذ[2] قطن جيان حتى توفي بها رحمه الله وهو من رجال القرن الخامس وقيل الرابع[3] له القدم الراسخ في فنون العربية والأدب وجميع العلوم. لكن أشهر تواليفه، ما كان في العربية لاعتنائه بفنونها لأنه أدرك زمن تغلب العُجمة ودخول الأعاجم في الإسلام، ولا سبيل إلى معرفة حقائق الكتاب والسُّنَّة إلا بمعرفة الأساليب العربية والتوغّل في فنونها وإتقان قوانينها.

يروى أن الزندقة لم تكثر حتى أسلمت الأعاجم، واستعجمت العرب، وسبب ذلك الجهل بلسان العرب، إذ من أعظم معجزاته ﷺ القرآن الكريم، ولذلك تحدَّى الله العرب أنْ يأتوا بمثله، في حسن تأليفه، وغرابة فصَاحته، وغزارة معناه، وجميل براعته، وجودة بلاغته، وحلاوته وبهجة طلاوته، فجاء الله به على الأسلوب الذي يأخذ بمجامع القلوب، لاتمجُّه الأسماع، ولا تملُّه الطِّباع، فلمّا لم يكن في وسعهم الإتيان بمثله جملةً، تحدَّاهم على أن يأتوا بسورة من مثله، إذ الإتيان بالبعض أسهل في العادة من الإتيان بالكل[4]، فسجَّل عليهم العجز قبل وقوع العجز، ليكون ذلك أبلغ في الحجة، وأظهر في المعجزة، فقال: ﴿ **فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا** ﴾ [البقرة: ٢٤] فلم يفعلوا كما أخبر عنهم سبحانه، وكانوا أحرص شيء على إبطاله وتكذيبه بما هو من مقدورهم، إذ هم فرسان البلاغة وأرباب الفصاحة، يتعاطَوْن فنونها

(١) الجيّاني بفتح الجيم وتشديد الياء قاعدة إقليم جيان بإسبانيا .

(٢) تجهبذ : صار جهبذاً، وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء ، والجمع جهابذة .

(٣) محمد بن عبد الله بن مالك ولد في جيان قرية من قرى الأندلس عام ٦٠٠ وتوفي في دمشق سنة ٦٧٢ هجرية وهو قطعاً من رجال القرن السابع، لا الخامس ولا الرابع، ولم يمت بجيان والله أعلم .

(٤) تعريف الكل والبعض، غير معروف في اللغة العربية وينكره بعض قدماء اللغويين .

ويحقِّقُون شؤونها، فمنهم الخطيب المصقع، والشاعر المبدع، وذو البيان الساحر، فهو فيه كالبحر الزاخر.

فلما علموا أنه ليس من جنس ما تعاطَوْهُ من فصيح المقال، تيقَّنوا أنه من تنزيل الملك الحق ذي الجلال، فأسلم أكثرهم بمجرد سماعه إياه، وأقر المكابر الكافر أنه ليس من جنس كلام البشر، فمنعه من الإيمان النافع الخذلان، والشقاوة السابقة له والحرمان، كأبي طالب، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة.

روى محمد بن كعب القرظي قال: حدّثت أن عتْبة بن ربيعة وكان سيداً مُطاعاً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش: ألا أقوم إلى محمَّدٍ فأكلِّمه وأعرض عليه أموراً فلعله يقبل منا بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا، قالوا: بلى يا أبا الوليد، وكان النبي ﷺ جالساً وحده، فقام عتبة حتى جلس إلى النبي ﷺ، فقال: يا بن أخي إنك منا حيث علمت من التوسط في العشيرة، والمكان في النسب، فإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقْت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، فلعلك تقبل منا بعضها، فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا، وإن كان هذا رَئِيّاً[1] تَراه لاتستطيع رده، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه أو نعذر، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قَال: أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ **حم. تَنْزِيلٌ من الرحمن الرحيم. كَتَابٌ فُصِّلت آياتُه قرآنا عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً** ﴾ إلى ﴿ **فاعمل إننا عاملون** ﴾ [فصلت: ١ــ٥] ومضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنْصت لها وألقَى بيديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: أسمعته يا أبا الوليد ؟ قال: قد سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله

---

(١) الرَّئي : جني يريه كهانة أو طباً، أو يلقي على لسانه شعراً، وأصل الرَّئي كغَنِيّ بالفتح، وقد يكسر: مَسُّ الجن يقال: به رئي من الجن أي مس .

ماسمعتُ مثله قَطُّ، والله ماهو بالشعر، ولابالسحر، ولابالكهانة، كما تزعمون، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأً، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فَعِزُّه عِزُّكم، ومُلكه مُلككم، وكنتم أسعد الناس به، فقالوا له: لقد سحرك يا أبا الوليد بلسانه، فقال هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم[1].

ويروى أن أعرابياً سمع رجلاً يقول (فاصْدَعْ بما تُؤْمَر) [الحجر : ٩٤] فخرَّ ساجداً، فقيل له: لم سجدت ؟ قال: سجدتُ لفصاحة هذا القول.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينما هو جالسٌ، إذ قام على رأسه بِطْريق[2] من بَطارقة الرُّوم يُحسن العربية، فإذا هو يَشهد بشهادة الحق، فسأله عمر عن سبب إسلامه، فقال: سمعت رجلاً من المسلمين يقرأ آية من القرآن، فإذا هي قد جمعت ما جاء به موسى في توراته، وما جاء به عيسى في إنجيله، قال: وما هي ؟ قال قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمرُ بالعَدْل والإحسان** ﴾ إلى ﴿ **تذكَّرون** ﴾ [النحل: ٩٠] فأسلم وحسنَ إسلامه، وكان بعد ذلك له باع في العلم واجتهاد في العبادة، ذاتية وبصيرة وتحقيق[3]:

(١) هذه القصة رواها أبو بكر الأنباري عن محمد بن كعب القرظي وهي موجودة في أغلب التفاسير بألفاظ متقاربة .

(٢) البطريق، القائد من قواد الروم، وجمعه بطارقة .

(٣) بدأ الشيخ رحمه الله هنا في أول باب من المنظومة وترك مقدمتها مع أن بعض الناس ينكر نسبها إلى المؤلف واستكمالاً للفائدة أثبتها وهي:

١ ــ بَدَأْنَا بحَمْدِ اللهِ فَهُوَ سَنَاءُ	وللنُّطْقِ مِنْهُ بَهْجَةٌ وَبَهَاءُ
٢ ــ وأهْدَيْتُ مُخْتَارَ السلاَّمِ مُصَلياً	عَلَى المصطفَى الموحَى إليهِ شفَاءُ
٣ ــ وبالآلِ والأصْحاب ثَنَّيْتُ مُثْنِيَاً	بخَيْرِ الثَّنَا إذ هـمْ به جُدَراءُ
٤ ــ وَبَعْدُ فإنَّ القَصْرَ والمدَّ مَنْ يُحِطْ	بلفظَيهِمَا تَسْتَسْنِه النُّبَهاءُ
٥ ــ وقد يسَّرَ اللهُ انتهاجَ سبيلهِ	بنظْمٍ يَرَى تَفْضيلَهُ البصَراءُ
٦ ــ له تحفةُ المودودُ تسميةً فقد	تأتَّى بهذا للمراد جَلاءُ
٧ ــ حَوَى كلُّ بَيْتٍ مِنهُ لَفْظينِ وجْهَا	بوجهين في الحكمين فهو ضياءُ
٨ ــ دعا فأجابته المعاني مطيعةً	وقد كان منها منعةٌ وإباءُ
٩ ــ وها أنا بالمنويّ وافٍ وإنما	علامةُ صدق العازمين وفاءُ
١٠ ــ ويارب عوناً فالمعان مؤيد	وما لأمرىءٍ إن لم تُعنه كفاءُ

قال رحمه الله:

باب
ما يفتح أوله فيقصر ويمد باختلاف المعنى

فالمقصور عبارة عَمَّا حبس آخره عن ظهور حركات الإعراب فيه من غير بناء فيتسبب عن ذلك ختمه بألف لفظاً قبلها فتحة لازمة، وإنما قُلت لفظاً لأنه ليس بألف حقيقية ، وإنما هو صفة لما يشاكل الفتحة عند الإشباع، وهو الألف، كما تشاكل النون التَّنوين لقصد التمكين، ولذلك يرسم تارة بألف، وتارة بياء، مراعاة لأصله، وهو فعله أو تثنيته أو جمعه أو مفرد مؤنثه، فإن ظهرت الواو في هذه المواضع، رسم ألف المقصور ألفاً، وإن ثني أو جمع بواو أو ياء معاً، حمل على الأغلب منهما، فإن لم يكن له شيء من ذلك اختُبر بالإمالة والتفخيم، فالممال يرسم بالياء، وغيره بالألف، ويرسم من ذوات الياء بالألف ما أضيف، كهدا الله، ويرسم بالألف باجتماع ياءين ما كان كالحيا والزكا، ويرسم ألف ما كان كهوى ياء لظهور الياء في فعله، وهو هويت بكسر الواو، ولأن ذلك يدل على أن الألف في الرسم ياء.

وهذا التفصيل إنما يعتبر في المقصور الثلاثي، وهو الغالب، وأما الزائد على الثلاث منه، فيرسم بالياء وإن انقلبت ألفه عن واو، لأن أقوى دليل على أن أصله من الواو هو ظهورها في الفعل الثلاثي، وذلك مفقود فيما زاد على ثلاثة أحرف من الأفعال، نحو أغزيت، واستغزيت، وغازيت، لأن الياء في هذه الأفعال أصلها واو، بدليل الغزو، وعلة انقلاب الواو ياءً في هذه الأفعال وقوع الواو في مضَارعها إثر كسرة، وهو عند العرب مستقبح، ووقُوع الواو إثر كسرة كوقوع الضمة بعد كسرة، إذ الواو متولدة من الضمة، والخروج من كسرة إلى ضمة ثقيل، وكذلك الخروج من الكسـرة إلى ما يتولد من ضمة وهو الواو، فترك من أجل فتحه، وهو الموجب لقلب الواو ياءً.

فإن قلت: إنما وجد ذلك في المضارع فقط، فلم حمل عليه الأمر والماضي ؟

قلت: لقربه من المصدر الذي هو أصل الجميع، ولمضارعة الاسم واعتباره في البنية، وكثرة دورانه على المعتبرات من قواعد الأصول، فتقول: غزا يغزو غَزْواً، فاتفق المضارع مع المصدر في رد اللفظ إلى أصله وبقي الماضي ملازماً لما دعا إليه التخفيف ونفي الاستثقال ولو خالف أصل البنية، فإذا وصلته بضمير رفع بارز متحرك، قلت: غزوت، وكسوت، وقسوت،

وصبوت، ودنوت، وغدوت، وحبوت، بخلاف نوى وثوى وعتى [1]، فإنك تقول في ذلك ومثله ثويت، ونويت، وعتيت، وبغيت، وعسيت، فإذا جمعت في الأول، قلبت الواو ألفاً، كما في مواضعها، فتقول: غزاة في جمع غازٍ، وغَدوات في جمع غداة، فلم يعتبر الماضي في حالتيه، بل اعتبر الجمع والمضارع، وكذلك كساة وصباة، ولذلك حمل الماضي والأمر عليه، فيرسم آخر المقصور المبني منها بالياء من أجل التلفظ بها في فعله، وما ليس له فعل يحمل على ما له فعل في الرسم، كالهنا، فإنه يحمل على ما له فعل كالخبا، إذ هو مشتق من الخباء أو الخبو، وهو الإخفاء والسكوت. قال الأعرابي للنبي ﷺ: خبأت لك خبيئاً. قال له النبي ﷺ: إني لست بكاهن، فقال له الأعرابي: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: أرأيت إن دَعَوْتُ تلك الشجرة فأقبلت تسعى،أتعرف أني رسول الله؟ قال: نعم، قال له: اذهب إليها، وقل لها: إن رسول الله يأمركِ أن تُقبلي إليه، فأقبلت... الحديث[2].

أو هو من خبا يخبو: إذا خمد فنام، لأن الإنسان إذا نام فقد خبا، أي خمد، كما أن النار إذا خمد لهبها يقال لها: خبت.

وما تمحضت فيه الياء من نوع المعتل يقال له: منقوص، قيل: لنقص حرف الياء المعوض منها التنوين في غير النصب، وقيل لقصره عن رتبة صاحبيه كقاضٍ، ورامٍ، وداعٍ، وناعٍ، وغواشٍ، وباغٍ وطاغٍ، ويقال لها حروف اللين، أي الضعف، لأنها ليست بحروف عمدة كما قال المبرد،ويقال لها حروف العلة، وهي ضد الصحة، لكونها بالتقدير تمنع أواخر الكلم من ظهور علامات الإعراب ظهوراً يرى ويسمع فما كان منها على الألف سُمي تعذراً وهو مالا يوجد البتة وما كان على واو أو ياء سمي استثقالاً، لصحة وجوده والنطق به، لكن مع الثقل لكون ذلك لغة لبعض العرب، وهي لغة رديئة، فإذا كانت العلامة خفيفة، ساغ ظهورها على الواو والياء لخفة الفتحة، وخفة حرفي اللين، إذ اجتماع الخفيفين يؤدي إلى إسقاط الكلّ، بخلاف الألف لشبهه بحروف الإصالة وتمام رتبته في اللين، لكونه يمد تارةً، ويقصر أخرى.

---

(١) عتا ــ استكبر وجاوز الحد فهو عاتٍ، ويجمع على عتاة وهو واوي ويائي ــ والمصدر عتواً وعتياً ــ واوي، ولايكتب إلا بالألف، ولعل الشيخ يقصد عنى بالنون التي تكتب بالياء لاعتا بالتاء، والله أعلم.

(٢) حديث قال اعرابي الخ رواه الحاكم في المستدرك بلفظ قال جاء أعرابي للنبي ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله قال أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله قال نعم إلخ (٢/٦٢٠) وقال صحيح على شرط مسلم ووفاقه الذهبي ورواه عبد الرزاق وعنه ابن كثير في البداية (٦ــ١٢٤).

فإن قُلت: لِمَ لَمْ يكن خفيفاً كالواو والياء، وهما يَنْشآن عن حركتين ثقيلتين، وهو ينشأ عن حركة خفيفة ؟

فالجواب: أنه صار وصفاً لحرف هو عمدة الحروف التي يعتمَد عليها، إذ الحروف كلها تألفت عنه، ولذلك سمي ألفاً، فاكتسب بذلك عدم الخفة، إذ للصفة ما لموصوفها من الحكم.

قال الشاعر: من بحر الخفيف

أربع بهــا قــد تــألَّه قــلبــي.. واستنــارت بهـا همـوم بِسـرِّي
ألف قــد تــألَّف الكــون منــه ثم لام إلى الحقــيقــةَ تَسْــري
ثم لام مخصــوصة بــالمعــاني ثم هــاء بهـا حيـاتي وسُـكْـرِي

وقيل: إنما ظهرت الفتحة على الواو والياء دون الضمة والكسرة، لمجانسة الفتحة الواو والياء، لأنهما حرفان هوائيان، كما أن الفتحة حركة هوائية، إذ إنما سميت الفتحة فتحة، لانفتاح الشفتين عند التَّفوُّهِ بها، وسُمِّيت الضمة ضمة لانضمام الشفتين عند النطق بها، وسُمِّيت الكسرة كسرة لإنكسار الحلقوم عند استخراجها، فمنشأ كلتا الحركتين من الشفتين، فتذهب الضمة صاعدة، ولذلك سُمِّيت حركة إعرابها رفعاً ، وتذهب الكسرة منخفضة نحو الحلقُوم ، ولذلك سُمِّيت حركة إعرابها خفضة، فالضم والفتح والكسر والسكون أصول، والرفع والنصب والخفض والجزم فروع، إذ هي أوصاف لأحوال الكلم حال الانتقال من الأصول إلى طوارىء انتقالات الإعراب بالعوامل الداخلة عليه لفظية كانت أو معنوية،فإذا بقي الكلم على أصله من غير موجب انتقال، فلا رفْع ولا نَصَب ولا خفض ولا جزم.

والحاصل أن التوغُّل والإمعان في هذه المباحث، يخرج بنا عن قصد الاختصار، فمن أراد شفاء الغليل، فلينظر في شارح التسهيل شفاء العليل، يرى من ذلك العَجب العُجاب.

وأما المد، فهو ختم الكلمة بهمزة قبلها ألف لازمة، في حال كون ذلك على أسلوب يختلف فيه المعنى المدلول عليه بالمقصور والممدود المتفقين في المادة وترتيب الحروف، فأخرج بقوله: ما يفتح، ما يكسر وما يضم، وأدخل بقوله: ما يمد، اشتراك المقصور والممدود في فتح الأول، فالذي لايشارك فيه المقصور الممدود، هو أن يكون المقصور مفتوحاً، والممدود مكسوراً، أو العكس، أو يكون المقصور مضموماً، أو مكسوراً، أو العكس، أو مع فتح المقصور، وأخرج بقوله: باختلاف المعنى، ما اتَّفقا في معناه، وذلك أن المقصور والممدود المتفقين في اللفظ قسمان، قسم مختلف في المعنى، وقسم متفق فيه، وبدأ الناظم بالكلام على

المختلف المعنى، لكثرة أنواعه، وتنوُّع جزئياته بالنسبة إلى المتفق في المعنى، وكل من القسمين قد يتفق في الحركة، وقد يختلف فيها، فالمتفق في الحركة ثلاثة، والممدود أنواع، في كل منها أنواع، وهي فتح المقصور، وفتح الممدود، وعكسه، وفتح المقصور، وضم الممدود، وعكسه، وضم المقصور، وفتح الممدود، وعكسه، فمجموع الأنواع تسعةٌ، فكلها استوفاها المختلف المعنى، وجاء المتفق المعنى منها بنوعين، فتح المقصور مع ضم الممدود، وضم المقصور مع ضم الممدود، وضم المقصور مع كسر الممدود، فصار مجموع ذلك ستة عشر باباً.

ثم قال رحمه الله:

١١ ـــ أَطَعْتَ الْهَوَى فَالْقَلْبُ مِنْكَ هَواءُ قَسَا كَصَفَا مُذْ بَانَ عَنْهُ صَفاءُ

قوله: أطعت الهوى ، فيه نوع من البديع ، يقال له التجريد ، وهو أن يجرد ، الإنسان من نفسه شخصاً يخاطبه ، والطواعية الانقياد والإذعان معنى .

فان قيل الهوى معنى والمعنى لايتأتى منه الخطاب حتى يستحق الطواعية والانقياد ..

فالجواب : أن الأكوان كلها مرتبة على أربعة أنواع ، الحس ، والمعنى ، والعَرَض ، والجوهر .

ثم الحس على أربعة أقسام ، كثيف كجسم الإنسان ، وجرم الأرض وأنواع الناميات ، وخفيف كالهواء ، ومخلخل كالماء والنار ، وشفاف كالسماء والزجاج .

والأجسام منفعلة[1] للمعاني ولذلك صار الجسم تابعاً للقلب ، أي للمعنى الحاصل ، لاللمضغة الصنوبرية[2] .

قال رسول الله ﷺ : ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب[3])) .

وقال الله تعالى : ﴿ **فإنّها لاتعمى الأبصارُ ، ولكنْ تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ [الحج : ٤٦] ومعناه أن العمى المضر ليس هو عمى الأبصار المتعلقات بالمحسوسات ، وإنما هو عمى البصائر المتعلقات بالمعاني والمعنويات وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق الأكوان كلها

---

(١) يريد أن الجسم يتأثر بالأشياء المعنوية، كما هو مشاهد في السرور والحزن والأمراض وغير ذلك .

(٢) الصنوبري ما كان ـــ بهيئة ثمر الصنوبر مستديراً طويلاً او مخروطياً .

(٣) هذا جزء من حديث رواه الشيخان وغيرهما وأوله : ((الحلال بين والحرام بين)). وهو عن النعمان بن بشير ولم يرو صحيحاً إلا عنه، ذكر ذلك الحافظ في الفتح (جـ ١ ـــ ص ١٢٦) .

دفعةً ، ثم رتَّبها على حكمته في الأزل ، فأول شيء خلقه الذرة ، فجعلت تسبح ألف ألف عام حيث لا أرض ولاسماء ولا لوح ولاقلم ولاعرش ولا كرسي ، فلما أراد ظهور الأكوان نظر إليها بعين الجلال فتصدعت فانبجست[1] منها العناصر الخمسة ، وهي الماء ، والريح ، والنور ، والظلمة ، والنار ، فنظر إلى الماء ، فلما نظر إليه ذاب وجعل يرتعش : ثم جرى فصار بحاراً وأنهاراً ، وخلق العرش فنصبه على متن الماء ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ [هود : ٧] ثم خلق اللوح والقلم والنُّون[2] دفعةً ، فجعل القلم يمد من النون ، واللوح يمد من القلم ، وكل يمد من علم الله الأزلي ، قال الله تعالى ﴿ **ولو أنَّ مافي الأرض من شَجرةٍ أقلامٌ والبحر يمدُّه من بعده سبعةُ أبحر مانفدت كلمات الله** ﴾ [لقمان : ٢٧] وكان اللوح من ياقوتة حمراء ، والقلم من الذهب النفيس ، والمحبرة من النور الخالص ، فلما شرع القلم في الكتابة قال : أيّ رب ، وماأكتب قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة .

قيل : إن أول ماكتب اسم محمد ﷺ وأمته ، فقال : أمة مذنبة ، فلما كتب أمة مذنبة ، قال الله له : مه ياقلم تأدَّب ، فانشق هيبة لخطاب الله تعالى ، فقال : أُمَّةٌ مرحومة ، وربٌّ غفور ، فكتبَ مقادير كل شيء في يوم واحد ، وذلك قوله ﷺ : جف القلم بما هو كائن[3] .

---

(١) انبجست ــ انفجرت ــ وقيل الانبجاس أول الانفجار .

(٣) النون ــ الدواة ــ المحبرة .

(٣) قصة الخلق هذه أورد أغلبها كبار المفسرين كالقرطبي (٢ جـ ٢٢٥ ص) والرازي (٣جـ ٧٨ص) وابن كثير (٤جـ ٤٢٧ ص) والألوسي (١جـ ١٣٤ص) وابن جرير (٢٩ جـ ١٤ ص)

ولم يوافق واحد منهم لفظ المؤلف فالألوسي ــ مثلاً ــ وهو أكثرهم تفصيلا قال: إن أول مظهر للحق جل شأنه العما ولما صبغ بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيّمين الذين هم فوق عالم الاجساد الطبيعية ولا عرش ولا مخلوق تقدمهم فلما أوجدهم تجلى م باسمه الجميل فهاموا في جلال جماله فلما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير عين واحداً من هؤلاء وهو أول ملك ظهر من لائكة ذلك النور وسماه العقل والقلم وتجلى هم في مجلى التعليم الوهبي بما يريد ايجاده من خلقه لا إلى غاية ــ إلى أن قال ــ فانشق من ذا العقل ماسماه اللوح وأمر القلم أن يتدلى إليه ويودع فيه مايكون إلى يوم القيامة لاغير فجعل لهذا القلم ٣٦٠ سناً من كونه قلماً ن كونه عقلاً ٣٦٠ تجلياً ــ إلى ان قال ــ وهذا كله في عالم النور الخالص ثم أوجد الظلمة المحضة التي هي في مقابلة النور اهـ جـ ٢١٩ ص) تفسير الألوسي .

ويشهد البعض قصة الشيخ ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال أول ماخلق الله القلم قال اكتب قال وماذا أكتب قال =

فَإنْ قلت : فما وجه الموافقة بين الأثر والآية ؟ وهي قوله : ﴿ **كُلَّ يوم هو في شأن** ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

فالجواب أن القلم جف من الابتداءات ، وبقي سوق المقادير إلى المواقيت ، وهي التي سمع رسول الله ﷺ صرير الأقلام بها ليلة أسري به ، وهو قوله ((حتى ظهرتُ لمستوى أسمع فيه صرير الأقلام))[1] وهو استنساخ الملائكة من الأم .

ثم لما أكمل العالم كله خلق آدم ، لأن العالم مخلوق من أجل آدم ، فلما تمّ خلقه قال : ياآدم أتدري لم خلقتك ؟ فألهمه أن قال : خلقتني لأعبدك وأعرفك ، فقال له : صدقت فإني خلقتك من أجلي ، وخلقت الخلق من أجلك ، فلا يشغلنَّك ماخلق لك عما خلقتَ له ،

= اكتب القدر فجرى بما يكون من ذلك إلى قيام الساعة ثم خلق النور ورفع بخار الماء ففتقت منه السماء وبسطت الأرض واثبتت بالجبال وإن الجبال لتفخر على الأرض اهـ (جـ ٢٩ ص ١٤) تفسير ابن جرير وروى الترمذي حديثاً قريباً من هذا وقال فيه حسن صحيح غريب وكذلك أحمد وقال فيه ابن كثير غريب من هذا الوجه (٤جـ ٢ ٤٠ ص) وقال في البداية ــ الجمهور على أن أول المخلوقات العرش وقال آخرون الماء وقال آخرون النور والظلمة وقال ابن جرير أول المخلوقات القلم ثم الكرسي ثم العرش، باختصار .

ثم أعقب ذلك بقصة فيها بعض شبه بقصة الشيخ قال هذا الإسناد يذكر فيه السدى أشياء كثيرة فيها غرابة وكان كثير منها متلقى من الاسرائيليات فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر فاستجاز كثير من الناس نقل مايورده كعب الأحبار لهذا ولما جاء من الإذن في التحدث عن بني اسرائيل لكن كثيراً مايقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير (١ جـ١٨ ص) بداية ولعل بعض قصة الشيخ من هذا القبيل ــ وعلى الأخص قوله ــ فجعلت تسبح ألف عام ــ إلى ــ والنار

ملحوظة:
لم أورد قصة الألوسي للاستدلال بها على صحة قصة الشيخ ــ لأنها هي نفسها بعيدة عن الصحة.

ولكن لأنبه على أن مثل هذا الكلام يوجد بكثرة في الكتب القديمة المتداولة في جميع أنحاء العالم الاسلامي والله أعلم .

أما جف القلم بما هو كائن، فهو حديث حسن، روي بهذا اللفظ، وورد جزءاً من حديث طويل عن ابن عباس بلفظ: كنت رديف النبي ﷺ فقال ياغلام.. الخ رواه أبو القاسم بن بشران وكذا القضاعي عن أبي هريرة، ورواه الطبراني عن ابن عباس وهو حديث حسن وللقضاعي عن ابن مسعود بلفظ : جف القلم بالشقي والسعيد، ورواه الديلمي بلفظ جرى بدل جف اهـ والله أعلم .

(١) أسمع صرير الأقلام، جزء من حديث الإسراء الذي رواه الشيخان وغيرهما وهو عند البخاري بلفظ صريف بدل صرير. اهـ .

أخذ عليه العهد وعلَّمه الأسماء كلها ، وذلك مقدار أربعين يوماً من أيام الدنيا ، ثم خلق الله
ـارك وتعالى جسماً روحانياً نورانياً ، فأمرهُ أن يتوغَّل في جسد آدم ، وأن يكون حاكماً على
ـالمه، فلما أدخله قال[1] : إذ جعلتني حاكماً على هذا الجسم المخالف لنوعي، فأعني ، فقال له :
ـعينك بملَك من أكرم الملائكة يكون معك في بيتي ، وهو قلب آدم وقلوب بنيه ، فخلق العقل
ـرسله ، وأمره بسكنى القلب وإعانة الروح على من ناوأة ، ثم خلق النفس من عالم الشيطان ،
ـركبها بين نار وظلمة ، ثم أمرها بالتوغُّل في جسد آدم ، ووكلها على مصالحه الدنيوية وسياسة
ـعايشه البهيمية ، فقالت له : أي رب أجعل لي وزيراً من جنسي أستأنس به ، وأستعين به على
ـطالبي ، فقال لها : إني قد خلقت لك الهوى ، فبَعثه وأمره بسكنى الجانب الأيسر ، فقال
: أي رب إني أستوحش وأضعف إن لم تجعل لي وزيراً من أهلي ، فقال الله تَبارك وتَعالى :
ـي جعلت لك الشيطان وزيراً ، ولكن لم أجعل لكما سلطاناً على حزبي ومن أطاعني فجعلت
ـفس تشتهي ، والشيطان يعد ويمني ، والهوى يقود ويكايد ، ويدعو إلى نفسه . ثم الهوى على
ـلاثة أقسام ، هوى قرب ، وهوى حجب، وهوى سلب .

فهوى القرب هو الذي يورث التهتك وعدم التمالك .

قالت رابعة العدوية[2] : (من بحر المتقارب)

أحبك حُبَّيْن حُبَّ الهوى	وحُبّاً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حُب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له	فرفعك للحجب حتَّى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وهو حظّ المقربين ، قال الله تعالى : ﴿ **والسابقون السابقون ، أولئك المقرّبون** ﴾
ـواقعة : ١٠ و ١١] فإن قلت : ماالحكمة في التكرار ؟

(١) كذا في الأصل، ولعل العبارة، اي رب إذ جعلتني .
(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير مولاة آل عتيك صالحة مشهورة بصرية لها أخبار في العبادة والنسك
ـف في محل وسنة وفاتها، والأرجح أنها توفيت بالبصرة عام ١٨٥ هجرية، الاعلام ص (٣١ جـ ٣) .

قلت : السابقون أولاً الذين سبقت لهم منا الحسنى ، بأن رش عليهم الحق من نوره قال الرسول ﷺ : خلق الله الخلق في ظلمة ، فرَشَّ عليهم من نُوره ، فمن أصابه اهتدى ومن لم يصبه ضل[1] فسبقوا بذلك هوى الغواية والنفس الأمَّارة ، فما تَلَوَّثُوا بجرم ، وما تريش بظلم ، وماتدنسُوا بِهَمٍّ . لم يقرأوا من سطور الدنيا حرفاً ، ومامنحوها طرفاً ، وما اشتموا من شهواتها عَرْفاً ، فجوّزوا أن لايسمعوا للنار حسيساً إذ لم يباشروا محرّماً ولاخسيساً ، قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم مِنَّا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾ [الأنبياء : ١٠١ و ١٠٢] وأما السبق الأخير ، فهو السبق إلى الخير بامتثال كل الأوامر من غير كسل ولا تثاقل ، مقروناً بالبر والإخلاص ، عارياً عن الأغراض والرياء والسمعة[2] حتى يكون كأبي بكر[3] الصدّيق رضي الله عنه . روي أنه لم يسبق إلى مكرمة ولا إلى أمر خير حتَّى أن النبي ﷺ حثّ أصحابه يوماً على الصدقة ، وما كان ثَمَّ ، فقـال عمر[4] رضي الله عنه : لئن سبقتُ أبا بكر اليوم فلا أبالي أن لاأسبقه بعدها فذهب مبادراً أن يأتي بشطر ماله ، فبلغ ذلك أبا بكر ، فتجرد من جميع ماله ، فلما جاء عمر بشطر ماله ، وجده عند رسول الله ﷺ وقد تجرَّد منْ ماله ، فلم يترك إلا عباءة فتخلل فيها فقال عمر : إنك لاتُسْبَق ، إذ لم أسبقك اليوم ، فهم أصحاب الرفيق الأعلى .

---

(١) حديث خلق الله الخلق إلخ صحيح الاسناد . رواه أحمد بلفظ إن الله خلق خلقه ثم جعلهم في ظلمة أخذ من نوره ماشاء فألقاه عليهم فأصاب النور من شاء أن يصيبه وأخطأ من شاء فمن أصابه النور يومئذ فقد اهتـدى ومن أخطـأه يومئذ فقد ضـل فلذلك قلت جف القـلم بما هو كائن (٦٨٥٤) المحقق وأورده الهيثمي (١٩٣/٧) .

(٢) السمعة اسم المرة من سمع، يقال فعل الشيء رياءً وسمعة، أي ليراه الناس ويسمعوه .

(٣) أبو بكر هو عبد الله بن أبي قحافة كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فَسماه النبي ﷺ عبد الله، التيمي القرشي، وقيل كان اسمه عتيق وهو أول من أسلم من الرجال وأفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ وخليفته من بعده وصـاحبه في الغار وله من المآثر الشيء الكثير توفى في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وعمره ٦٣ سنة اهـ استيعاب مختصراً ص (٣٢ جـ ٢) .

(٤) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أمير المؤمنين ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وله من المآثر مالا يحصى، كان إسلامه فتحاً ، وسماه النبي ﷺ الفاروق، وبويع بالخلافة بوصية من أبي بكر الصديق وتوفي يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر ذي الحجة سنة ٢٣ شهيداً ودفن مع صاحبيه رضي الله عنه . استيعاب بتصرف ص (٤٥٩ جـ٢) .

وأما هوى الحجب ، فهو الذي يحجب أصحابه عن أن يدركوا بصفاء زجاجة القلوب
نوار مشكاة الغيوب ، فلا يلهمون علماً ، ولايشاهدون عَلَماً ، قال الرسول ﷺ : ((من
خلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه ، وجرت على لسانه))[1] وقال : إن
سأل عني أغبر اشعث رأى علماً فهو يطلبه حتى يدركه .

لكن هؤلاء حجبهم الران[2] قال تعالى : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا
يكسبون** ﴾ [المطففين : ١٤] من ارتكاب مباح الشهوات حتى أنتج سنوح[3] الغفلات
لمفضي إلى ارتكاب صغائر المحظورات ، فهؤلاء أصحاب المعاناة ، فتارة يستيقظون من نوم
لغفلة فيقدون[4] حجاب الشهوات ، ويقبلون على النفس باللوم ويقطعون مادتها بالذكر
الصوم ، لرقة الحجاب ، وقرب العهد بالمثاب ، فيخنس الشيطان المعاني ، ويظهر الملك
لروحاني . لخبر : إن الله وكلّ بالقلب ملكاً وشيطاناً ، فمسكن الملك جانب القلب الأيمن ،
مسكن الشيطان جانب القلب الأيسر ، فإذا ذكر المؤمن الله خنس الشيطان ، وظهر الملك ،
لا يزال يأمر بالخير ماذكر الله ، وإذا غفل العبد وسوس الشيطان وسلطت الأعوان ، قال الله
عالى : ﴿ **ومن يَعْشُ عن ذكْر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين** ﴾ [الزخرف : ٣٦]
هذا مُقتصد ، فإنَ جاهد نصر ، وإلا قهر ، قال الله تعالى ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم
سُبُلَنا ، وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

والثالث هو الظالم لنفسه ، لملازمة هوى السلب ، لأنه يسلبه حلية التقوى ، ويكسوه

(١) حديث « من أخلص لله إلخ.. » ضعيف جداً أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال: هذا حديث
لايصح عن رسول الله ﷺ ص (١٤٥ جـ ٣) وقال المناوي بعد أن ذكر كلام ابن الجوزي فيه وتعقبه المؤلف بأن
الحافظ العراقي اقتصر في تخريج الأحياء على تضعيفه وهو تعقيب لايسمن ولا يغني (ص ٤٤ جـ ٦) كما أورده
الألباني في موضوعاته تحت رقم (٣٨ جـ ١) ، قلت جميع الروايات التي عثرت عليها بلفظ ظهرت بدل تفجرت
طرق الحديث إلى أبي أيوب وأبي موسى وابن عباس كلها ضعيفة فرواية ابي أيوب فيها يزيد الواسطي قال فيه ابن
حبان كثير الخطأ فاحش الوهم وأما رواية أبي موسى ففيها عبد الملك وهو مجهول وقال ابن عدي إنه منكر الحديث
أما رواية ابن عباس ففيها سوار بن مصعب قال فيه أحمد ويحي متروك ولذلك فاقل درجات الحديث الضعف
الشديد والله أعلم .

(٢) الران: الغلبة، ران الشيء فلاناً وعليه وبه غلب عليه، تقول ران هواه على قلبه: غلب عليه .

(٣) سنح: عرض، ومراده ما يعرض للإنسان من الغفلات .

(٤) يقدون: يشقون .

جلباب البلوى ، إذ الهوى ، ضد التقوى ، قال الله تعالى ﴿ **وأمَّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى** ﴾ [النازعات : ٤٠] للمقتصدين ﴿ **فأمَّا من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى** ﴾ [النازعات : ٣٧ ـــ ٣٩] .

والطغيان لغة : مجاوزة حد الصلاح إلى الفساد ، قال الله تعالى ﴿ **فأما ثَمُود فأهلكوا بالطاغية** ﴾ [الحاقة : ٥] وهي الصيحة المجاوزة لحد الإمكان حتى قطعت نياط قلوب أمم عظيمة في أجوافها ، قال تعالى : ﴿ **إنَّا لمَّا طغا الماء** ﴾ [الحاقة : ١١] أي على الخزَّان ، أي بأنْ لَمْ يزنُوهُ ، واصطلاحاً : الكِبْر ، والإعجاب ، وبَطَر الحق ، واحتقار الخلق ، قال الله تعالى ﴿ **إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ [العلق : ٦] ويطلق ويراد به الظلم والكفر ، قال الله تعالى : ﴿ **وقومَ نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلمَ وأطغى** ﴾ [النجم : ٥٢] ويطلق ويراد به الغُلوُّ في الدِّين ، قال الله تعالى لبني إسرائيل ﴿ **ولا تَطْغَوْا فيه فَيَحِلَّ عليكم غضبي** ﴾ [طه : ٨١] وإنما ذكر النفس في كفة المقتصدين ، لأن زمامها بأيديهم ، إذ لم يتوغَّلوا في مزابل العاجلة ، ولم يمكنّوا الهوى من أنفسهم كل التمكين ، فهو ووزيره لم يزالوا منهم في عناءٍ !

وأما الطائفة الظالمة ، فقد اتخذت الهوى معبوداً ، والشيطان خلاًّ مودوداً ، والدنيا عذباً مورداً ، يمرحون في رياضها ، ويكرعون في حياضها ، ويتيهون في غياضها[1] مكنّوها من رقابهم ، فصارت سبباً لتبابهم[2] لايتقون شبهة ولا حراماً ، ولايخافون بغياً ولا آثاماً*.

(١) الغياض جمع غيضة مجتمع الشجر في مغيض الماء .

(٢) التباب : الهلاك .

* للامام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه رحمه الله تقسيماً للقلوب لايخرج في جوهره عن تقسيم الشيخ هذا وهو بعد أن قسّم الناس إلى ثلاثة أقسام قسم أعلى وهم الزهاد الذين نفضوا أيديهم من الدنيا ضبطاً أو ربطاً وأسكتوا اللسان عنها ذماً أو مدحاً وقسم دون ذلك وقسم ثالث دخلوها بالكلية واتخذوها وطناً وسكناً ـــ قال بالحرف ـــ بادئاً بالدرجة الثانية.

فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتي الداخل بكليته في الدنيا قد ركن إليها واطمأن إليها واتخذها وطناً وجعلها له سكناً وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه وتخلص من قيودها ورعوناتها وآثارها وارتقى الى مايَسُرُّ القلب ويحييه ويفرحه ويبهجه من جذبات العزة فهو في البرزخ كالحامل المقرب ينتظر ولادة الروح والقلب صباحاً ومساء فإن لم تولد روحه وقلبه ويخرج من مشيمة نفسه ويتخلص من ظلمات طبعه وهواه وإرادته فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا ومافيها. فهكذا هذا الذي بعد في مشيمة =

يروى أن الشيطان إذا رأى قوماً يبكون من الموعظة ، اعتزلهم وهو يقول : ياويلاه ، فتقول له الدنيا مالك ؟ فيقول : كيف لاأبكي وقد خاب كدي ، وبطل كيدي وجدي ، هؤلاء عبيدي كنتُ قد استحوذت عليهم ، يبكون من خشية الله ، فتقول له مهلاً ، ماهو إلا أن يتفرقوا من هذا المجلس ، فآخذ رقاب الكل ، فأمكنّك من نواصيهم ، فإني قد عرفت من حبي في قلوبهم مالم تعرفه ، فلا يفلحون أبداً ، وذلك قوله ﷺ : ((حبّ الدنيا رأس كل خطيئة[1])) .

يروى أن يحيى بن زكريا رأى الشيطان يوماً فقال : ماتبتغي مني يالعين ، فقال : إني لم آتك عن رضى مني ، ولكن الله اضطرني إلى الذهاب إليك ، وأمرني أن أصدقك ، فكان مما قال له : إن بني آدم على ثلاث طوائف ، أما اثنتان فقد استرحت منهما ، طائفة معصومة مثلك ، وطائفة قد كفتني مئونة أنفسها ، يركبون من الغي أكثر مما آمرهم به ، وأما الثالثة فإني منها في عناءٍ ومشقة ، فيوم أدال عليهم حتى أبلغ منهم الأماني ، ويوم يدالون عليَّ حتى لاأجد

النفس ــ والظلمات الثلاث هي ظلمة النفس وظلمة الطبع وظلمة الهوى ــ إلى أن قال ــ والمقصود أن القلوب في هذه الولادة ثلاثة قلب لم يولد ولم يأن له بل هو جنين في بطن الشهوات والغي والجهل والضلال وقلب قد ولد وخرج إلى فضاء التوحيد وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى فقرّت عينه بالله وقرّت عيون به وقلوب وأنست بقربه الأرواح وذكّرَتْ رؤيته بالله فاطمأن بالله وسكن إليه وعكف بهمته وسافرت همته وعزائمه إلى الرفيق الأعلى لايقر بشيء غير الله ولايسكن إلى شيء سواه ــ إلى أن يقول ــ وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الولادة صباحاً ومساء قد أصبح في فضاء التجريد وأنس من خلال الديار أشعة التوحيد تأبى غلبات الحب والشوق إلا تقرباً إلى من السعادة كلها بقربه والحظ كل الحظ في طاعته وحبه وتأبى غلبات الطباع إلا جذبه وإيقافه وتعريقه فهو بين الداعيين تارة وتارة قد قطع عقبات وآفات اهـ (اجـ ١٦ و ١٥ص) طريق الهجرتين .

فهذا الكلام الجميل يشبهه كلام الشيخ من حيث السجع والاستعارات ويختلف عنه في العبارات إلا أن الجوهر واحد والله أعلم .

(١) حب الدنيا ــ إلخ ــ ضعيف جدا ــ رواه البيهقي في الزهد له وأبو نعيم في الحلية، واورده السيوطي ورمز له بالضعف والارسال قال المناوي ــ قال البيهقي لا أصل له من حديث النبي ﷺ وقال العراقي هو من مراسيل الحسن وهي عندهم شبه الريح ومثل به في شرح الألفية للموضوع إلى أن قال وتعقبه ابن حجر بان ابن المديني أثنى على مراسيل الحسن ا هـ (ص ٣٦٩ جـ ٣) كما أورده صاحب كشف الخفاء وقال رواه البيهقي في « الشعب » له بإسناد حسن إلى الحسن البصري، ورواه البيهقي أيضاً في كلام عيسى، وقال ابن الغُرْسِ الحديث ضعيف ا هـ (رقم ١٠٩٩ جـ ١) كشف قلت أقل درجات الحديث الضعف الشديد والله أعلم .

إليهم سبيلاً حتى يفْسدوا عليَّ جميع ماتقدم ، ولست أدري لمن تكون العاقبة ، ولا أراهم إلا غالبيَّ . قال الرسول ﷺ : ((إنما بعثني الله داعياً إليه ، مبشراً ونذيراً وناصحاً ، وليس إليَّ من الهداية شيء ، وجعل الشيطان يعد ويمني ، وليس إليه من الضلالة شيء ، ومصداق ذلك في كتاب الله قوله : ﴿ **إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ [الأحزاب : ٤٥ و ٤٦] وقال في حق إبليس ﴿ **يَعِدُهم وَيُمَنِّيهم ، وما يَعِدُهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ [النساء : ١٢٠] فمن أراد الله هدايته تجلَّى عليه باسمه الهادي عند بعثة الرسول أو دعوة الولي أو أمر العالم ، وربما وقعت الهداية من غير واسطة كما لِقُس[١] وبحيرا[٢] وزيد بن نفيل[٣] .

ومن أراد إضلاله تجلّى عليه باسمه المانع فلا ينجع فيه رسولٌ ولا كتاب ولا دَعْوةُ ، ولا يرشده برهان ، قال تعالى ﴿ **إنك لاتهدي مَنْ أحببت ، ولكنَّ الله يهدي من يشاء** ﴾ وقال ﴿ **وما تغني الآيات والنُّذُر عن قوم لايؤمنون** ﴾ [يونس : ١٠١] .

فالهوى بمنزلة الملك ، والنفس زوجته ، والشيطان وزيره ، والشهوات حبائله وأسلحته ، وأعمال السوء جنده ، والدنيا محلُّ سِرِّه ومكره قال الشاعر :

إني بُليت بأربع يرمونني ... بالنَّبل عن قوس لها توتير

إبليس والدنيا ونفسيَ والهوى ... يارب أنت على الخلاص قدير

قال ﷺ ((لايزال المؤمن في جهد جهيد حتى يلاقي ربه)) لأنه لايزال بين منافق يؤذيه ، وكافر يعاديه ، وفاسق يحسده ، وشيطان يعده ، ونفس تشهيه ، ودنيا تستهويه ، وهوى

---

(١) هو قُس بن ساعدة بن جذامة الإيادي البليغ الخطيب عده بعضهم من الصحابة والصحيح انه مات قبل البعثة وكان من المعمرين وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا، وأول من قال أما بعد (إصابه ص ٢٦٤ جـ ٣) باختصار .

(٢) بحيرا الراهب: قيل إنه كان من يهود تيماء، وقيل كان نصرانياً من عبد القيس يدعى جرجيس، وله قصة مع النبي ﷺ حين خرج تاجراً إلى الشام ولا يعلم أأدرك البعثة أم لا ا هـ إصابة (ص ١٧٩ جـ ١) .

(٣) زيد بن عمرو بن نفيل العدوي (والد سعيد أحد العشرة المبشرين بالجنة) مات قبل البعثة بخمس سنين وكان على دين ابراهيم عليه السلام، إصابة (ص ٥٥٢ جـ ١) .

يكابده ، فإن جاهد الكل وصابره وتوكل على الله ، كفاه شرّهم ، ووقاه ضرّهم اقرأوا إن شئتم **﴿ ومن يتوكَّل على الله فهو حَسْبُه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قَدْراً ﴾** [الطلاق : ٣] المجاهدة تُيِّسرُ المشاهدة فيضْعُفُ كيدهم[١] .

قال تعالى **﴿ إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾** [النساء : ٧٦] ولكن لا مطلقاً بل بالنسبة إلى كيد الله ، لأنه لايدعو إلى حق ولاحقيقة، وقد بيّن الله قوة كيده بقوله: **﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتهُ لاتَّبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾** [النساء:٨٣] وذلك من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه موكول إلى ذلك ، معانٍ عليه إلا من عصم الله .

الثاني : أنه لاشغل له يشغله عن غواية بني آدم . وقد ركب الله في هذا النوع الإنساني من الحظوظ والكلف مالا يكاد يقوم بتدبره من مرمَّة[٢] معاشه ، وضروريات طبعه ، من منكح وملبس وغير ذلك ، فضلاً عن أن يقوم بمعاناة عدو غَوي[٣] مسلَّط عليه ، ومع ذلك يراه ولا يراه .

الثالث : أنه لايكابر ولا يأتي إلا في صورة صديق ناصح ، ولا يأمر النفس إلا بما يخف عليها ويوافق طبعها ، ولذلك صار الباطل خفيفاً . وجدير بميزان لايوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً ، وجدير بميزان لايوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً . قال الله تعالى **﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفَّت موازينه فأمُه هاوية ﴾** [القارعة : ٦ — ٩] وقال ﷺ : ((أكبر معبود عبد في الأرض الهوى))[٤] .

وقال الله تعالى : **﴿ أفرأيت من اتَّخذَ إلهه هواه وأضلَّه الله على علم ﴾** [الجاثية:٢٣]

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة في الأصل، وهي غير واضحة .

(٢) أصل المرمَّة — تناول الدابة العيدان بفمها — أو الأكل عموما — والمراد هنا مايجمعه الانسان لمعاشه .

(٣) الغوي الضال المنقاد للهوى .

(٤) حديث أكبر معبود عبد في الأرض الهوى موضوع أخرجه الخرائطي من طريق الحسن بن دينار عن خصيب وعنه أورده ابن الجوزي في موضوعاته بلفظ ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع وقال هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ والحسن والخصيب كذابان عند علماء النقل (١٣٩/٣) موضوعات .

وأما قوله[1] في المعاني : إنها لاتخاطب لأنها جماد فهو مذهب كلامي لاطائل تحته ، ومذهب القرآن والسُّنَّة والرسل والأولياء متفق على أن المعاني تؤمر وتنهى وتعقل حتى تدخل في ذلك الجمادات ، إذ لا تخصيص للحيوانات عن غيرها ، بل كل ذلك موكول إلى تخصيص الله ، قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ **إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء** ﴾ [يوسف : ٥٣] وقال النبي ﷺ ((يؤتى بالموت على صورة كبش أملح ، حتى يوقف بين الجنة والنار ، فيقال : ياأهل الجنة وياأهل النار هل تعرفون هذا فيقولون : هذا الموت فيذبح))[2] .

وأنه ﷺ قال : ((إن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة وكأنهما غمامتان أو غيايتان[3] يشفعان لقارئهما)) .

فبان من هذا واتضح أن المعاني تتشكّل وتخاطب وتعقل وتعرف الله وصالح عباده ، كخطاب أم ملدم[5] النبي ﷺ وأمره إياها أن تذهب إلى الجحفة ، ورؤية بعض الصحابة لها ، وكانوا سيارة ، فسألهم رسول الله ﷺ : ((هل رأيتم في مقدمكم هذا أحداً)) ؟ قالوا : لا ، إلا أنّا رأينا امرأة سوداء ثائرة الرأس ، فقال رسول الله ﷺ ((تلكم الحمى أمرتها أن تذهب إلى مهيعة)) وهي الجحفة كما في حديث : ((اللهم انقل حمى المدينة واجعلها بالجحفة)) ورؤية

---

(١) الضمير في عبارة: أما قوله، لأدري على من يرجع، ولعل العبارة: اما قول من قال إن المعاني لاتخاطب.. والله اعلم .

(٢) حديث يؤتى بالموت ، حديث صحيح رواه البخاري في كتاب التفسير (ص ٤٢٨ جـ ٨) وفي كتاب الرقاق (ص ٤١٥ جـ ١١ فتح) ومسلم في باب جهنم (ص ١٨٦ جـ ١٧) نووي والترمذي في تفسير سورة مريم (ص ٦٠١ جـ ٨ *) تحفة، وأوله في بعض روايات البخاري إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح الخ ..

(٣) الغمام السحاب الملتف ـــ والغياية إذا كانت قريباً من الرأس أ هـ .

(٤) حديث إن البقرة وآل عمران الخ.. صحيح رواه مسلم في باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (ص ١٩٧ جـ ٢) كما رواه أحمد . وأوله اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران الخ..

(٥) أم ملدم ـــ الحمى ـــ وقصة دعائه ﷺ بنقل الحمى إلى مهيعة ثابتة في الصحيح .

خالد بن[1] الوليد العزّى تدعو بالويل فضربها فجدلها باثنتين[2] وفي هذا الباب مجال رحب ، والحاصل ان قدرة الله صالحة لكل شيء فلا فرق بين ماتقدم وبين سماع العظم وإنطاق اللحم وإبصار الشحم .

والحاصل أن الهوى من حيث هو هوى ، عبارة عن جماع الشر حتى يدخل في ذلك الكفر ، وسمي الهوى بذلك ، لأنه يهوي بصاحبه في النار أو المهالك التي تؤدي إلى العطب .

قوله : فالقلب ، الفَاء استئنافية ، وسمي قلباً لكثرة تقلبُّه ، مبتدأ ، خبره هواء . قال اللهٰ تعالى ﴿ **ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرَّة** ﴾ الآية [الأنعام : ١١٠] فلما نزلت هذه الآية شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا : أنخشى سلب الإيمان بعدما خالطت بشاشته قلوبنا واطمأنت إليه أنفسنا ؟

قال : نعم ، إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها ظهراً لبطن)) فلما سمعوا ذلك تغشَّوا إحراماتهم ، وجعلوا يبكون ، فأنزل الله ﴿ **يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾[إبراهيم:٢٧][3] .

وقال ﷺ : ((لقلب ابن آدم أشدُّ تقلُّباً من ريشة ملقاة بأرض تقلِّبها الرياح ظهراً

---

(١) خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي سيف الله أبو سليمان شهد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحيديبية ثم أسلم سنة سبع بعد خيبر، شهد فتح مكة وما بعده في بلاد العرب والشام والعراق، مات بحمص سنة ٢١ هـ وقيل بالمدينة إصابة (ص ٤١٥ جـ ١) .

(٢) قصة العزى التي أشار إليها الشيخ رحمه الله هي كما نقل: أبو عبد الله القرطبي في تفسيره . كانت العزى شيطانةتأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال ائت بطن نخلة تجد ثلاث سمرات فاعْضُد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء إليه قال هل رايت شيئاً قال لا قال فاعضد الثانية فأتاها فعضدها ثم أتى النبي ﷺ فقال هل رأيت شيئاً ؟ قال لا قال فاعضد الثالثة فأتاها فإذا هو بحبشية نافشَة شعرها واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها وخلفها دُبَيَّةُ السلمي وكان سادنها فضربها ففلق رأسها فإذا هي حممة ثم عضد الشجرة وقتل دبية السادن ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال تلك العزى أ هـ (١٧ ص ١٠٠) قرطبي .

(٣) حديث إن قلوب العباد الخ.. صحيح رواه مسلم في باب تصريف الله تعالة القلوب (جـ ٨ ص ٥١) كما رواه أحمد والنسائي ورواية مسلم إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من اصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشار ثم قال ﷺ اللهم مقلب القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ا هـ .

لبطن))[٢] فالقلب بيت الله ، إذا صار قلباً بأن انسدت ثقب الرياح الأربع ببلاط التفويض ولَبنِ التسليم ، وأسكُف التقوى ، ومنازل اليقين ، فإذا لم تجد رياح الأهواء منفذاً إلى سويداء القلب ، اشتغل مصباح البصيرة ، لأن المصباح لايضيء مع هبوب الرياح فيأخذ القيم المصباح بيده فيقتل أفاعي الشهوة ، وعقارب الغفلة ، وقطّاع المعصية ، وجواسيس الهوى ، ثم تمده عساكر التقوى فيغُض بها جنود الهوى ، فيأخذه أسيراً ، فيسجنه ، ويَتَزَوَّجُ الروح النفس بعد إسلامها واستسلامها فيهذِّبها بعد ما عذَّبها ، وفي هذه الرياح وضدها والبصيرة نظمت فقلتُ :(من بحر الرمل)

أيها السالك نهج القوم لا	تَدَعِ الباب رهَّياً[٢] للرياحْ
وتدبَّر قوله تذروه إن	كنت ذا سرٍّ تصب عين الفلاحْ
فبماء العلم تحيا وبه	يخرج النبتُ رويَّاً بالبطاحْ
وإذا حلَّ الذوى ساحته	بسموم الغيظ تبدو بالصباحْ
أو بيات عن رياح أربع	شُرَّع تترى بحتف وارتياحْ
فَبِشُحٍّ ثم حرصٍ ونزا	عٍ وشكٍّ تتفرى وتُباحْ
فبذا يخمد مصباح الهنا	ويعود الليل بالويل البواحْ
فتعوَّذ بالعزيز الحقّ من	كلِّ شرٍّ تكف من كل التياحْ
واترك الخوف من الغير فما	ينفع الخوف فتيلاً بالصفاحْ
وتدرَّج بتيار الحق لا	تترك الحزم وبالعزم النجاحْ
ثم سلِّم للمليك الحق لا	تخلع الربقة من ذاك الملاحْ

فإذا ظهر أصحاب اليمين على أصحاب الشمال ، صار القلب كله يميناً فأمطرت سماء همته على ارض عزْمته فأنبتت حدائق ذات بهجة ، فانهمرت سيول العلم ، فجرت في بساتين الفهم ، فاستقلت الإشارة ، وكلت العبارة ، وشوهد حق اليقين ببصائر التمكين ، وانتفى الخلاف ، وثبت العدل والانصاف ، وأمنت الغوائل ، واتضحت الدلائل ، وأجريت

---

(١) حديث لقلب ابن آدم أشد تقلباً الخ.. حسن رواه الطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الايمان قال العراقي في تخريج الاحياء إسناده حسن وللبزار نحوه بإسناد ضعيف إلا أن أوله مثل القلب كمثل ريشة: (جـ ٣ ص ٤٥) قلت وروى أحمد نحوه بإسناد رمز له السيوطي بالصحة. وقال فيه الحاكم على شرط البخاري ورده الذهبي انتهى مناوي (ص ٢٨١ جـ ٥) .

(٢) رهياً ــ ضعيفاً .

على حقائقها الرسائل ، واتسع البيت ، وأثمر الزيت ، واتصلت الأنوار ، وزكت الأسرار ، وانعقدت بالأعمال الصالحة الثمار ، وتبسمت أزهار الأحوال وزالت الحجب بين العرش وطيبات المقال ، فثبتت الولاية ، ورسخت وأينعت[1] أغصانها فشمخت وشحنت البيت المعمور بالزوار ، وطافت به العمار وجرت شمس المعرفة في بروج القطبانية وقمر الأنس في منازل القدس ونجوم الاستدلال في مراكز أبدال الرجال ، ودارت أفلاك الجلال بطباق طبقات ذي الجلال ،وخطّ قلم التعبير في لوح محفوظ التذكير ، وسبَّحت رعود الغيم ، وسحت أصداف الحكم في بحار العلم ، وغرَّدت أطيار الشوق على أشجار الذوق ، وتظاهرت المعصرات ، وتواطأت المسرَّات ، وهبَّت رياح النشور مبشرات بالحبور ، وطاب الهوى ، وأينع الذوى ، وناب الاعتدال عن معالجة الدواء ، وساح بحر العين على بحر الرَّيْن ، فعذُب الأجاج ، وذهب اللجاج ، وخامرت الأنوار الزجاج ، وقلّ الفجاج ، وصفا الامتزاج ، وفقد الهرج ، إذا عدم المرج ، ولم يحاول الخرج ، فقرت العين وزال البين فصار القلب بحراً مسجوراً ، وبيتاً معموراً ، ورقَّاً منشوراً ، وسقفاً مرفوعاً ، وحمى ممنوعاً ، واسعاً لا موسوعاً ، قال الله تعالى : لاتسعني ارضي ولا سمائي ، ولا عرشي ولا كرسيي ، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن[2] أي لايعرفه حق معرفته إلا قلب عبده المؤمن ، وما ذاك إلا لما أودع الله فيه من لطائف المعارف والكشوفات والطرائف ، وهذا التنصيص بالتخصيص بلغ غاية التشنيف[3] بالتشريف* ، حتى يفضلوا بذلك عالم الملائكة الكرام ، وظهر ذلك ليلة الإسراء ، لما جاوز جبريل سدرة المنتهى ، أقام فقال رسول الله ﷺ أيترك الخليل خليله في مثل هذا الموضع ؟

---

(١) أينعت الثمرة، نضجت ولم أجد من وصف الغصن بالنضوج .

(٢) حديث لاتسعني أرضي ولا سمائي.. الخ قال فيه العراقي لم أر له أصلا ولفظه في الأحياء لم تسعني أرض ولا سماء ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع ا هـ (ص ١٤ جـ ٣) إحياء وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٢٥٦ وقال فيه قال ابن تيمية هو مذكور في الاسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ والله أعلم .

(٣) التشنيف ــ تزيين الكلام ــ واصله كل مايعلق في أذن الجارية من الحلى .

* الكلام المتقدم عبارة عن سجع قصصي قوامه الاستعارات المتلاحقة من تمثيلية وترشيحية وغير ذلك وليس فيه شيء ظاهر يخالف نصاً شرعياً وإنما هو إشارات يستعملها أهل هذا الفن إما لأنهم يهدفون من ورائها إلى أشياء لاندركها وإما لأنها أسلوب لتقريب المعاني للأذهان وهذا هو الأقرب تمشياً مع حسن الظن بهم وعلى الأخص المؤلف الذي قضى حياته الطويلة داعياً إلى تطبيق =

فقال : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : ١٦٤] فلو تجاوزته قيد شبر لاحترقت ، فسار رسول الله ﷺ في خفارة سره حتى مزق جميع الحجب ، وحتى بلغ إلى قاب قوسين أو أدنى ، فتواطأ قلبه وقالبه ، وبصره وبصيرته ، وهمه وهمته ، وليلة المكر [(١)] .

آخى الله بين جبريل وميكائيل ، ثم قال لهما : إني قد جعلتكما أخوين ، وإن عمر أحدكما أطول من عمر الآخر ، فهل فيكما من يؤثر أخاه بفضل عمره ؟ فقالا : إن لم تكن عزيمة منك فلا .

فقال لهما : اذهبا إلى محمد وأعلماه أن قومه قد همُّوا أن يمكروا به ليثبتُوه أو يخرجوه أو يقتلوه ، فلا يبتْ على فراشه ، وليأمر عليًّا فليبت على فراشه يبشر نفسه بنفسه ، فإنه يرضى بذلك ، فاحرساه ولا يصلوا إليه بمكروه ، فلما فعل عليٌّ ذلك ، جلس جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، وهما يقولان بخ بخ [(٢)] من مثلك يابن أبي طالب ؟

= السنة ذاباً عن الشريعة حياته كلها علم وتعليم وعبادة لم تنقل عنه هفوة في قول ولا عمل ــ حسب علمي ــ يشهد بذلك أهل منطقته كلها حتى الذين خالفوه اهـ

واسمع ياأخي مايقوله ابن القيم رحمه الله في هذا المجال: قال: قال الشبلي المحب إذا سكت هلك والعارف إذا لم يسكت هلك والتحقيق أن هذا هو حال المتمكن في حبه الذي تزول الجبال الراسيات وقلبه على الود لايلوي ولايتغير والأول حال المريد المبتدىء الذي قد علقت نار المحبة في قلبه ولم يتمكن اشتعالها فهو يخاف عليها عواصف الرياح أن تطفئها فهو يخبئها ويكتمها ويسترها من الرياح جهده فإذا اشتعلت وتمكن وقودها في القلب لم تزدها كثرة الرياح إلا وقوداً واشتعالاً اهـ (١جـ ٢١٣ ص) طريق الهجرتين ولابأس كذلك أن أورد للمقارنة فقط ماجاء في تفسير الألوسي عند قوله تعالى ﴿ثم قست قلوبكم﴾

قال القلوب جمع قلب وهو في الأصل مصدر سمي به الجسم الصنوبري المودع في التجويف الأيسر من الصدر وهو مشرق اللطيفة الانسانية ويطلق على نفس اللطيفة النورانية الربانية العالمة التي هي مهبط الأنوار الالهية الصمدانية وبها يكون الانسان إنساناً وبها يستعد لاكتساب الأوامر واجتناب الزواجر وهي خلاصة تولدت من الروح الروحاني ويعبر عنها الحكيم بالنفس الناطقة ولكونها هدف سهام القهر ومظهر الجمال والجلال ومنشأ البسط والقبض ومبدأ المحو والصحو ومنبع الأخلاق المرضية والأحوال الرديئة (١جـ ١٣٤ص) الألوسي، وبالجملة فإن هذه الأساليب المعتمدة على الاستعارات والتعاريف لايكاد يخلو منها كتاب قديم له علاقة بفن السلوك

(١) ليلة المكر: هي الليلة التي همّ المشركون فيها بقتل النبي ﷺ وأقام علياً مكانه ولم يصبه سوء لحماية الله له .

(٢) بخ بخ ــ اسم فعل معناه عظم الأمر ــ ويكون للاعجاب بالشيء والمدح ويكرر للمبالغة ا هـ .

وكذلك لمّا زُج بابراهيم في المنجنيق[1] ضجت ملائكة السبع فقالوا إلهنا ليس لك في الأرض إلا خليل واحد ، وقد أجمع أهل الأرض على أن يرموه في النار فيك ، فقال لهم : إن استغاث بكم فأغيثوه ، فأتاه ملك المياه فقال : إن شئت فجرّت لك الأرض عيوناً ، فأطفأت نارهم ، فقال لا أستغيث بغير ربي ، فرجع وهو يبكي ، ثم أتاه ملك الظلال فقال له : إن شئت أطفأت لهيبها بالظلال ، فقال له : لا ، فرجع كذلك فأتاه جبريل حين زُج به فقال له :

ألك حاجة ؟ فقال له أمّا إليك فلا . وأمّا إلى الله فبلى ، فقال : سله ، فقال علمه بحالي أغناني عن سؤاله ، فلما رفع همته الشريفة عن الخلق أقبل عليه الحق فقال ﴿ **يانار كوني برداً وسلاماً** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] فبطلت النيران في ذلك اليوم ، فلم ينتفع بها أحد ، ولو لم يقل وسلاماً لمات إبراهيم من البرد اهـ ، فلايزال القلب يتقلّب حتى تثقله صنوج[2] اليقين ، ومع ذلك فينبغي للمؤمن أن لايزال خائفاً من تقلبه ، لأن الرسول ﷺ كان كثيراً مايقول ((اللهم مثّبت القلوب ثبّت قلبي على الإيمان))[3] ويأمر أصحابه بذلك ، إذ هو محل الكنز ، والكنز لايؤمن عليه ، إذ لابد له من خازن أمين ، وبيت حصين ، وقفل متين ، فالكنز الإيمان ، وخازنه القرآن ، وأمينه الرسول ، وحصنه القلب ، وقفله اليقين ، قال الله تعالى ﴿ **ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ [الحجرات : ١٤] وقال ﴿ **وحَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنه في قلوبكم** ﴾ [الحجرات : ٧] وقال ﴿ **ولكنْ ليطمئنَّ قلبي** ﴾ [البقرة : ٢٩] فالقلب من حيث هو قلب لاحركة ولا سكون للجوارح إلا به .

انتبه بعض المحبين من نوم الغفلة ، ولمع له صباح الوصلة ، فرأى قرطاساً قد اسودَّ

---

(٢) المنجنيق ــ آلة حربية ترمى بها القذائف ــ يونانية ــ جـ مجانيق .

(٣) صنوج ــ مايوضع في الميزان ليوزن به، معربة .

(٤) حديث اللهم مثبت القلوب.. الخ حسن رواه الترمذي والحاكم وصححه بلفظ « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » وفيه زيادة قالوا أو تخاف يا رسول الله قال ومايؤمنني والقلب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

كما أورده في الكشف تحت رقم ٣٢١٥ . والله أعلم .

وجهه ، فقال : عهدي بك أبيض اللون كافوري[1] الأديم ، فلم سوَّدتَ وجهك ؟ قال : ماسوَّدتهُ باختياري ، ولكن سودني الحِبْر ، فقال للحِبْر : لم سوَّدتَ وجه القرطاس حتى عاد نَهارُه ليلاً ؟ فقال : كنت ساكناً في المحبرة التي هي وطني فجاء القلم بالقهر فاختطفني ، فقال للقلم : لم أخرجتَ الحبْر من وطنه ، وأزعجته عن سكنه ؟ فقال : اسمع قضيتي فإني مظلوم ، ولعله قَدر وأنت تلوم ، كنت قصبة نابتة على شاطىء النهر بين الغصن والزهر في نعيم دائم وصلاح قائم ، أعانق الرند[2] وأقبِّل الورد ، فجاءت اليد بسكِّين صنعت للقطع والفصل ، فأخرجتني من محل الوصل ، وأزالت قشرتي التي كانت لي بُرْداً وقدَّتني قدًّا ، وفصلتني على قدر الشبر ، وألزمتني خِدْمة المِحْبَرة والحبر ، فلا أزال في كد وانزعاج ، وحثٍّ واستخراج ، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك[3] فاسأل اليد : فقالت اليد : لاأملك لنفسي ضراً ولانفعاً ، ولا لغيري جلباً ولادفعاً ، وهل رأيت جسماً يتحرك بنفسه ، أو يتصرف دون أن يصرف ؟ وإنما ركبتني فوارس وهي القدرة والقوة والاستطاعة ، فقالت الاستطاعة : ليس بيدي تسخير ، ولاأقدر على تقديم وتأخير ، إنما أنا منتظرة لما يرد علي من حضرة القلب ، والإرادة على لسان العقل بواسطة العلم ، فأنا لاأعدم ولا أوجد ، ولا أقيم ولا أقعد ، إنما أنا رق المغدور ، ولا أحدث أمراً من الأمور ، فاسأل الإرادة الآدمية ماذا صنعت ؟ فقالت : على الخبير وقعت ، أنا منقطع الحوالات ، إلا أن عندي حوالة أخرى ، ولا يمكنني إفشاؤها قال : ولم ؟ قالت : لاتفهمها ، قال : ولم ؟ قالت لأنك في عالم الملك والشهادة ، وأنا مبدأ عالم الملكوت والسعادة ، إنما أنا البحر ، إن أمكنك أن تطيق تلاطم أمواجي ، وإلا فعليك بالساحل ، لأن ذلك العالم لايُسمح بهذا الصماخ ، ولا يبصر بهذه العين ، وإنما تبصر ببصرك الصور وتعي بقلبك العبر ، أما سمعت قوله تعالى ﴿ **لو كُنَّا نَسمع أو نَعقِل ماكنَّا في أصحاب السعير** ﴾

---

(١) كافوري الأديم ـــ نسبة إلى الكافور المادة البيضاء المعروفة التي تستخرج من شجر الكافور ـــ والكافور: طلع النخل ـــ والأديم: الجلد ـــ والمراد أنه أبيض .

(٢) الرند : شجرة صغيرة طيبة الرائحة صالحة للزينة وتعتبر رمزاً للنصر .

(٣) كناية عن الألم الشديد، لأن الملح يثير الجروح .

[الملك : ١٠] وكانوا يسمعون الأصوات ، لكنهم أحياء كالأموات ، فاسأل القلب ، فقال القلب : إنما أنا كاللوح لم أنبسط بنفسي ، ولكن بسطت ، فاسأل العقل فقال العقل : إنما أنا سراج لم أشتعل بنفسي ، ولكني أشعلت ، فاسأل العلم ، فقال العلم : إنما أنا نقش ولم أنقش نفسي ، ولكني نُقشت ، فاسأل القلم ، فقال : قد سئلت في أول الأمر ، قال : وأي طريق سلكته في النظر ؟ أطريق البصيرة ، أم طريق البصر ؟ قال : طريق البصر ، قال : هيهات ، تركت الطريق ، وخالفت الركب والرفيق ، وسلكت طريقاً لاتوصل إلى مقصود ، ولاتحمل على قرب المعبود : (بحر البسيط) .

فانظر بقلبك إن العين كاذبة   واسمعْ بقلبك إنَّ السمعَ خوَّانُ

فاسلك طريق العبرة : وأعدَّ زاد الفكرة تصل إلى الحضرة ، فإنْ لم تقدر على هذه الطريق ، فبضاعتك مُزْجَاة[1] ، وعملك قليل ، ومركبك ضعيف ، والهلاك في الطريق الذي توجَّه فيه كثير ، فالصواب لك أن تنصرف وتدع ماأنت عليه ، فما هذا بفعل من يصل إليه ، فادرج فإن الكُل ميَّسر لما خلق له ، فإن الأذن التي في الرأس ، عند البهيمة والكافر ، فافتح أذن قلبك ، وبصِّر بصيرتك لتدرك القلم الذي لاكالأقلام ، الذي ينقش على الدوام ، أنواع العلوم والإرادات وأسباب الشقاء والسعادات ، فلم يخطىء وكاتب لايسأم ، وحروف المعجم بآيات لاتتوهَّم ، فقلمه لا كالأقلام ، ويده لا كالأيدي ، ففتح عين بصيرته ، فرأى القلم الإلهي ، فسأله : فقال : جوابي جواب القلم الأول ، فقال : وكيف وأنت لاتشبهه ؟ فقال : وأي فرق بيني وبينه ؟ في معنى التسخير هو ظاهر للعيان ، وأنا لاأدرك إلا بالأذهان ، فتأمَّلْ بعين بصيرتك المَلِكَ ، والسموات مطويَّات بيمينه ، وكذلك الأقلام في قبضته ، فسأل ، فقال : سل القادر ، فقال : لايُسأل عما يفعل وهم يسألون : (من بحر البسيط)

لابد من جريان الحكم يالُكَع[2]   والبحث عن سِرِّه في الصدر لايسعُ
حُكْمُ المهيمنِ جارٍ في بريَّته   وكلهم لنفاذِ الحكم قد خضَعوا

(١) مُزجاة يدفعها كل من يراها لرداءتها ــ أي مغشوشة .
(٢) يالكع ــ يالئيم أو يا أحمق .

فـذا يقـرِّبــه من غـير مـا عمــل وذا يُبَـعِّــدُه منـــهُ فَيــنْـقَـطِـعُ
وليس يُســأَل عن شــيء يُقَــدِّرُهُ لأنـــه مَــلِك والمــلك مُتَّســـعُ

فلما أكمل رتبة القلب ، وبوَّأ له عالم القلب ، وفكَّه من ربقة السـلب ، وردَّه إلى حضرة القرب ، اشـترى له زوجته فحرَّرها من ربقة الطبع ، فقال ﴿ **إنَّ الله اشـترى من المؤمـنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة** ﴾ [التوبة : ١١١] فياله مِن بيع ماأشرَفه ! ومن خطـاب ماأظرفه ! وإذا كان المشـتري جليلاً والدَّلال نبيلاً ، والثمن جزيلاً ، كانت السِّلعة نفيســةً ، وهذه صفـة نفس المؤمن ، الله مشـتريها ، ومحمدٌ دَلاَّلها ، والجنةُ ثمنُها ، والقلب الشـريف مَسكنُها ، وإنما اشـترى النفس ، ولم يشـتر القلب ، لأن القلب سـليم ، والنفس معيبة ، أو لأن النفس معيبة ، والقلوب حبيبة ، فاشتْرى المعيب لمصـلحته ، لأنه قادر على إصلاح العيوب وذهاب أمراض النفوس . وقيل : إنما اشترى نفس المؤمن ليؤيس منها إبليس ، فإن ادَّعى فيها دعوة صارت دعواه باطلة ، لأن المشتري الأول أحق بها منه ومن سواه .

واعلم أن القلب مع اتساعه ، ليست له إلا وجهة واحدة ، كما قال الصادق المصدوق .
فقـلب العارف لا وجهة له إلا ربه ، فوجهته أبداً إلى فوق ، وقلب المؤمن الكامل الإيمان ، وجهته أبداً إلى اليمين ، وقلب المنافق لاوجهة له ، تقلِّبه الرياح أبداً كالريشة ، ووجهة قلب الفاسق إلى الشمال في غالب أحواله ، ووجهة قلب الكافر إلى تحت أبداً .

قوله: هواء، أي فارغٌ خالٍ من كل خير، لأن الهوى إذا تسلط على القلب لايُبْقي ولا يَذَر، فيصير الروض هشيماً، والخير رميماً[٢] والغَني عديماً، والصحيح سقيماً، فإعصـاره يهدم، وعواصفـه تردم، وحريق نيرانه يعدم، فلما كانت تلك حالة أصحاب الهوى، قُبضوا عليها، وبعثوا بها، قال الله تعالى: ﴿ **مُهْطِعين مُقْنعي رؤوسهم لا يرتدُّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتُهم هواء** ﴾ [ابراهيم: ٤٢] وفيه من البديع نوع واحد، وهو الجناس التام على رأي ابن الحاجب، خلافاً للسَّفُّوجي القـائل بأن المقصور والممدود متغايران، فيكون على رأيه الجناس الناقص بوصف حرف.

(٢) رمياً ـــ بالياً .

وقال شيخنا المغيلي: المد والقصر لايُعد نقصاً ولا مغايرة، إذ يجوز في صنعة الشعر قصر الممدود ومد المقصور، ولم أعثر على كتاب وقع كله في الجناس إلا في هذا الكتاب، وفيه من المنطق الاشتراك، وهو اتفاق اللفظ، واختلاف المعنى، عكس الترادف، فالهوى خلوّ القلب من كل خير، والهواء الفراغ، والهواء مابين السماء والأرض، والهواء الرياح، وهو من باب تسمية الشيء باسم ملازمه، لأن حقيقة الريح تحرّك الهواء، فَلَمَّا كانت كلّما تحركت تحرك الهواء، سميت هواءً.

فإن قلت: ما الفرق بين الريح والهواء ؟ .

قلت: الفرق بينهما أن الهواء جسم خفيف، فلا لون له، بخلاف قوس قزح[1] فإن له لوناً يدرك به، ويقال له الفتق والفراغ، إذ لايمنع التحيز، ومنزلته للطير منزلة الماء لدواب البحر، ألا تراها سابحة في الجو تَصُّف تارة، وتقبض أخرى وكما أنه لاحياة لدواب البحر، إلا بجوّ الماء، فكذلك لاحياة لحيوانات البر إلا بجذب الهواء، فتبرد الحرارة الغريزية بما يلابسها من برودة الهواء المجذوب بالتنفس، ثم يخرج قدر ذلك من الحرارة المنعكسة في الصدر، فيلقيها في الفراغ، فتتكثف الحرارة في الهواء، فتأتيها الأرواح فتغرقها[2] ولذلك روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لو أن الله أمسك الرياح يوماً واحداً لأنتن كُلُّ ما على وجه الأرض، ولماتت الحيوانات، وهي جند الله الأعظم))[3] .

وأما الرياح، فعنصر من العناصر الخمسة. ولها حقيقة وتكيف، فتأتي بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وغبراء، وجنوباً وشمالاً وصباً ودَبُوراً ونكباء[4] وصراً وإعصاراً، وعاصفاً وقاصفاً، ومبشرات ونشراً ومرسلات، ولها فلك يخصها، وخازن يكفُّها ويزنها، وهو إسرافيل عليه السلام، وهو كروبي[5] وله أعوان لايحصون، وهو مَلَك عظيم، قدماه تحت الأرض السابعة، وعُنُقه تحت

---

(١) قوس قزح ــ حادث جوي يظهر بشكل قوس في السحاب يتكون من الألوان الآتية بالترتيب: بنفسجي ــ نيلي ــ أزرق ــ اخضر ــ أصفر ــ برتقالي ــ أحمر وسببه تحليل أشعة الشمس في كريات ماء السحاب ولا دخل له بالهواء .

(٢) هذا التحليل قبل أن يكتشف الأكسجين، وباقي مكونات الهواء بالتحديد وما عبر عنه بالبرودة هو الأكسجين وما عبر عنه بالحرارة هو ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء والغازات الأخرى .

(٣) حديث « لو أن الله أمسك الرياح » ... الخ لم أجده مخرّجاً .

(٤) ليست الرياح عنصراً ــ وإنما هي مجموعة من الغازات، أما تلونها فبسبب ما يعلق بها من غبار واتربة وخلاف ذلك .

(٥) الكروبيون سادة الملائكة ــ وهم المقربون ــ مأخوذ من الكرب وهو القرب (٢٦٧/١٨) قرطبي .

العرش، والأرضون إنما يبلغن حِقوه، وله جناح بالمغْرب، وجناح بالمشرق، وقد التقم الصور .

وفي كتاب « العظمة » لأبي الشيخ بن حبّان ما نصه: إن إسرافيل أتى النبي ﷺ فقال له: على أي شيء أنت ؟ قال: على الريح والنفخ في الصور، قال: وميكائيل ؟ قال: على خزائن المال، قال: وعزرائيل ؟ قال: على قبض الأرواح، قال: وجبريل ؟ قال: على الوحي والجنود، والريح مسلَّطة على الخفيفين الماء والهواء، ويقال لهما: الأطيبان، لأنهما يطهران كل خبيث، وذلك أن الله تعالى لمّا خلق العناصر سلَّط الريح على الماء، فهيَّجت أمواجه، فاضطربت حتى علاها الزبد، وثار بينهما دخان، فتراكم الكلّ فانعقد الزبد، فصار الجميع رتقاً[1] فتجلى الله عليهما فقال لهما: ﴿ **ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً، قالتا أتينا طائعين** ﴾ [فصلت: ١١] فأمرهن فتفتَّقن إلى أربعة عشر فتقاً، فخلق الأيام، ثم بدأ خلق الأرض في يومين، وقدَّر فيها أرزاقها، ومدَّها في يومين، تلك أربعة، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقلب أعيانها، ورفع سمكها في يومين، فصيَّر الدنيا[2] زُجاجة، والثانية حديداً، والثالثة نحاساً، والرابعة[3] وَرِقاً، والخامسة ذهباً، والسادسة ياقوتة حمراء، والسابعة نوراً يتلألأ، وذلك في ستة أيام، ثم خلق الشمس والقمر، والأفلاك والنجوم والشهور فيما بين العصر والمغرب من يوم الجمعة، وخزن الريح تحت البحر المسجور، فهي التي تجفّف ماء البحار يوم القيامة بعد تفْجيرها، وتثير النار وتنفخها وتزيد في زفيرها . وفي كتاب « العظمة » أنها ليست في الأرض دابة إلا ومثلها يسكن الهواء، حتى السمك فترزق في الهواء، كما ترزق دوابُّ البحر في الماء[4] .

وفي « الصواعق المحرقة » للسيوطي[5] ما نصه ــ أن المأمون[6] العباسي خرج يوماً يتصيد في خيل من خواصه، ومعه بيزان[7] وشواهين، فاستعلى بعضُهم حتى غاب في الهواء، فجاء بسمكة قدر الشِّبر، فعجبوا، فقال المأمون: هلمَّ نختبر عِلْم النفس الرضية، فإن بَني عليٍّ يدَّعون

(١) رتقاً ــ ملتئماً ــ أو مسدوداً .

(٢) أي السماء الدنيا من زجاج .

(٣) وَرِقاً ــ فضة .

(٤) لا صحة لهذه القصة فيما أعلم .

(٥) المعروف أن كتاب « الصواعق المحرقة » للشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي المتوفى سنة ٩٧٣ هـ واسمه الكامل « الصواعق المحرقة على اهل الرفض والزندقة » والذي للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ، هو « الصواعق على النواعق » .

(٦) المأمون العباسي ــ هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ــ سابع خلفاء بني العباس وأحد أعاظم الملوك، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ فقامت دولة الحكمة في ايامه توفي عام ٢١٨ هجرية ٢٨٧/٤/ أعلام ز . .

(٧) البيزان ــ جمع باز ــ طائر القنص المعروف ــ والبازدار ــ حامل الباز ــ فارسية .

علوماً لانعرفها، فغَيَّبوا السمكة، وأقفلوا نحوه، فلما أتوه، قال له المأمون: إنَّا جئناك لنسألَك عن أمر جهلناه، فقال له بديهة: إن الله أسكن الهواء أمماً، من جملتها حيتان على قدر الأشبار، خلقها الله ليمتحن الملوك بها ذرية الأنبياء، فأدهش المأمون ما سمع، فترجّل عن فرسه، وقبَّله بين عينيه، وقال له: قد فرَّجتَها يا قُرَّة العين، وأظهرت فضل أهل بيتك، فما ينكره بعد هذا إلا حاسد معاند، فأمر له بمال جزيل ومراكب فُرْهٍ[2]، وديار، وأدناه وقرَّبه، حتى صار لايتغذّى إلا معه، وحتى همَّ باستخلاف بني علي، فَصدَّهُ عن عزمه بنو عمه من بني العباس، إلا أنه أدْناهم، ورفع منزلتهم، وأبطل ما كانت تسومهم به ملوك بني العباس وبني أمية من القتل والتشريد[3].

قوله ــ قسا كصفا ــ أي القلب، وذلك كناية عن عدم قبوله المواعظ والنصح، وعدم رحمته للصغير والبهيمة والضعيف، وعدم شفقته على الكبير والفقير، وكفرانه العشير، وعدم تحنُّنه على المعاهد، قال الرسول ﷺ: ((حسن العهد من الإيمان))[4]. وقال تعالى ﴿ **ثم قَسَتْ قلوبُكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوةً** ﴾ [البقرة: ٧٤] ثم بيَّن كونها أشد قسوة بقوله: ﴿ **وإنَّ من الحجارة لَما يتفجَّر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإنَّ منها لَمَا يهبطُ من خشية الله** ﴾ [البقرة: ٧٤] فكذلك قلوب الخاصة، فقلوب الأنبياء والوارثين من الأولياء تتفجَّر منها أنهار العِلْم والحكمة، فالأنبياء بالوحي تارة، وتارة بالإلهامات، وتارة بالمكالمات، وتارة بالنفث في الرُّوع، وتارة رؤيا منام، وتارة يؤخذون عن عالم الحسِّ إلى عالم الغيب، إلى سبعين نوعاً* ومادتُهم جبريل، وبساطهم ﴿ **سنُقرئكَ فلا تنسى** ﴾ [الأعلى: ٦] و ﴿ **إنَّ علينا جمعه وقرآنه** ﴾ [القيامة: ١٧].

(٢) فره : جمع فاره، وهو النشيط الخفيف!

(٣) هذه القصة التي نقل الشيخ رحمه الله من كتاب « الصواعق » يبدو عليها الوضع لاستحالة ماورد فيها شرعاً وعقلاً من معرفة علم الغيب ووجود أسماك في الهواء والله أعلم .

(٤) حديث ــ حسن العهد من الإيمان ، حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وهو من حديث طويل أوله: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ أخرجه الحاكم في المستدرك (١٦/١) والديلمي عن عائشة وهو في كشف الخفاء تحت رقم ١١٤٦ وقال رواه ابن عبد البر عن أبي عاصم أهـ والله أعلم .

* القول الراجح أن المراد بقوله تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ إلخ هو أن هذا التفجر والتشقق والخشية والهبوط حقيقة في الحجارة .

وقال قوم إن الضمير في قوله: ﴿ وإن منها لما يتفجر ﴾ عائد على القلوب وعزا الألوسي (٢٩٧/١) والرازي (١٣٠/٣) هذا القول إلى أبي مسلم وذكره القرطبي في تفسيره وعزاه لابن بحر (٤٦٥/١) قال ﴿وإن منها﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة أي من القلوب لما يخضع من خشية الله .

وكأن الشيخ أخذ بهذا القول المرجوح وبما أن المقصور والممدود ــ له ظاهر لغوي وباطن صوفي تزهيدي نرى الشيخ يعرج أحياناً على ناصية التصوف هذه بل وربما توسع فيها، ويستدل بظاهر النص القرآني على عادة أهل هذا الفن والله أعلم .

وأما الأولياء، فكذلك[1] إلا أنهم لا يأتون بشرع جديد، ولم يؤخذ عليهم العهد بالتبليغ، كما أخذ على الأنبياء، بل واجب عليهم الكتمان[2] إلا مالا بُدَّ منه قال بعضهم: (من بحر البسيط)

من سَــارَروهُ فـأبدى السـرَّ مُنْكشفاً لَمْ يَـأمنـوه على الأسـرار ما عـاشـا
وأبعــدوه ولم يحــظ بقـــربهـــم وأبـدلوه مكـان الأنس إيحـاشـا

ومادتهم إسرافيل، وبساطهم ﴿ **وعلّمناه من لدنا عِلْماً** ﴾ [الكهف: ٦٥] وأما التي تتشقق فيخرج منها الماء، فقلوب السالكين أهل المجاهدة، ولا مادة لهم، وبساطهم قوله تعالى: ﴿ **والذين جاهدوا فينا لَنهدينَّهم سُبُلنا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

وأما التي تهبط من خشية الله، فقلوب كانت في غُرور الشرف، وزخرف التَّرف، فذكرت بوادر ربَّانية، فانحطت إلى رتبة التواضع، فانتفعت ثم ارتفعت، ولذلك مثال، وهو ماء الغيث، فإنه يلقي بنفسه من عنصر رفعته إلى الأرض الجرز[3] فيتبدَّد، وتبتلعه الأرض، ويأخذ منه كل حيوان يغيته، فلا يمكث إلا أياماً قلائل حتى يُرى وقد علا غصون الأشجار، وكساها خضرة، وصارت له مراكب وطية، وثياباً هنية نقية، ثم يصير روضاً أنيقاً ذا حسن عتيق، ثم يعلو عن ذلك فيصير نَوْراً[4] وزهراً ، ثم يعلو عن ذلك فيصير زرعاً وثمراً، وفواكه غُلْباً[5]، فيأكله الأنبياء والأولياء والمؤمنون، فيصير لحماً ودماً، فيصير حيواناً بعدما كان من جنس الجمادات، ثم يدخلون بـه الجنـة، فيكـون خالداً بعدما كان فانياً، وبعضـه يمطر على البحـار فتبتلعه الأصداف ، فيكون جواهر نفيسة[6] فيلتقطه الغوَّاصون، فيذهبون به إلى الملوك والأشراف، فيتخذون منه تيجاناً يجعلونها على المفارق، وحلياً تجعله العذارى على النحور والترائق، لأن من كان في الله تلفُه، كان على الله خَلَفُه، ومن كان في الله كسره، كان على الله جبره، ومن كان في الله بدايته، كانت إلى الله نهايته .

---

(١) إن الأولياء ليسوا كالأنبياء ــ ولعل العبارة غير هذا.

(٢) الشرع لايجوز كتمان شيء منه على الاطلاق ــ وأحرى أن يكون واجباً وإن لم يكن المكتوم شرعاً فلا خير فيه.

(٣) الجُرُز ــ القاحلة ــ الأرض التي لاتنبت.

(٤) النور بفتح النون: الزهر.

(٥) لعل العبارة ــ وحدائق غلباً ــ وهي الحدائق الملتفة الكثيرة.

(٦) يريد بالجواهر ــ اللؤلؤ ــ وهو ما يستخرج من الأصداف من الدر ــ إلا أنه ليس من المطر وإنما هو من عيب ينشأ داخل الصدفة فتفرز مادة، تكون حبات اللؤلؤ وقد انشئت الآن أماكن لانتاجه. بواسطة وخز الصدف بالابر.

وعلامة قسوة القلب، عدم الضراعة، لاسيما عند مخايل العذاب، قال الله تعالى ﴿ **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرَّعوا ولكن قَسَتْ قلوبُهم** ﴾ [الأنعام:٤٣] .

يروى أن الله تعالى لايعذِّب قوماً خُشَّعاً بالرقة، ولا خُضعاً بالطاعة والدعاء، قال رسول ﷺ : ((لولا بهائم رُتَّع، وصبيان رُضَّع، ومشايخ رُكَّع لَصُبَّ عليكم العذاب صبّاً))[١].

وقال ((لايردُّ القضاءَ إلا الدعاءُ، فإنهما يلتقيان في الجو، فلا يزالان يعتلجان[٢] ويتصعَّدان حتى تقوم الساعة))[٣] وقال ﷺ ((ثلاثة من علامات الشقاء، جمود العين، وقساوة القلب، وذرابة اللسان))[٤] وقال ((إن الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين)) .

ويروى أن عيينة بن حصن[٥] دخل على النبي ﷺ فوجده يُقَبِّل الحسن[٦] فقال: أتقبِّل الصبيان يا محمد وإني ولدت أحد عشر ولداً فما قبَّلت واحداً منهم. فقال له الرسول ﷺ :

---

(١) حديث: لولا بهائم رتع الخ.. حديث ضعيف ـــ أورده السيوطي في جامعه ورمز له بالحسن، إلا أن شارحه المناوي قال: قال الذهبي في « المهذب » ضعيف، ومالك وأبوه مجهولان.وقال الهيثمي بعد ما عزاه للطبراني: فيه عبد الرحمن بن سعد أبن عمار، وهو ضعيف، وبه يعرف ما في رمز المصنف لحسنه من التساهل، إلا أن يكون لعاضد اهـ (٣٤٤/٥).

قلت: والسيوطي أورده بلفظ « لولا عباد لله، بدل بهائم ـــ قال صاحب » كشف الخفاء » بعد أن أورده بألفاظ كثيرة وفي « التحفة » لابن حجر وورد في خبر ضعيف (٢٣٠/٢) والله أعلم.

(٢) يعتلجان ـــ يتصارعان.

(٣) حديث « لايرد القضاءَ إلا الدعاء » هذه الفقرة صحيحة، والحديث بتمامه الخ.. ضعيف رواه أحمد والطبراني والبزار بلفظ ـــ « لاينفع حذر من قدر. والدعاء ينفع ما لم ينزل القضاء، وإن البلاء والدعاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان إلى يوم القيامة ـــ

كما أخرجه الهيثمي في كتابه (١٤٦/١٠) وقال رواية أحمد والطبراني فيها انقطاع ـــ ورواية البزار فيها إبراهيم بن خثيم وهو متروك ـــ والله أعلم.

(٤) حديث ثلاثة من علامات الشقاء... الخ لم أجده مخرجاً بهذا اللفظ.

(٥) عيينة بن حصن الفزازي يقال كان اسمه حذيفة فسمي عيينة لأنه كان اصابته شجة، فجحظت عيناه، أسلم قبل الفتح ثم ارتد في عهد أبي بكر ثم عاد إلى الإسلام، وكان فيه جفاء سكان البادية، وسماه النبي ﷺ الأحمق المطاع ـــ مات في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٢٠ (٥٦/٣) أ هـ.

(٦) الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته، أمير المؤمنين، ولد في شهر رمضان عام ٣ وهو الذي قال فيه رسول الله « إن ابني هذا سيد وسيصلح الله له بين فئتين من المسلمين » مات مسموماً سنة ٥٠ أو ٤٩ هجرية (٣٣٠/١) إصابة.

((قد نزع الله من قلبك الرحمة)) .

فظهر عليه بعد وفاة الرسول ﷺ من الارتداد والخبث والنكث ما هو مشهور في كتب السير.ومن شؤم القساوة أنها تمنع الإجابة، ولا يزْداد صاحبها بذكر الله إلا بُعداً منه، قال الله تعالى: ﴿ **فويل للقَاسية قلوبُهم من ذكْر الله** ﴾ [الزمر : ٣٢] .

يروى أن الصحابة أتوا النبي ﷺ عندما أنزل الله قوله: ﴿ **فمن يُرِدِ اللهُ أن يهديَهُ يَشْرَحْ صدره للإسلام** ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

فقالوا لرسول الله ﷺ : هل لذلك من علامة ؟ قال: ((نَعم التجافي عن دار الغُرور، والرغبة في دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت))[1] .

والقسوة أمر محسوس، يمنع حلاوة الدِّين، ويصدُّ عن الإقبال، ويحرم التوفيق، قال الله تعالى ﴿ **ومَنْ يُرِدْ أن يُضلَّه يَجْعَلْ صدره ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّد في السماء** ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وذلك أنه لا يجد في قلبه محلاً لقبول الحق، ولا قابليته أصلاً، ولو أراد ذلك واجتهد فيه، فيجد ذلك كالمستحيل، كما أن الصعود إلى السماء بغير سُلَّم مستحيل، فضرب لذلك مثَالين في عدم إمكان التَّصعد إلى السماء، ووجود الحرج، وهو ما يُحَاوَلُ[2]، لكن مع مشقة فادحة تمنع من لم يذق حلاوة الإيمان مكابدة العمل في طلب تحصيل المرغوب، إذ من علامات الخذلان، بذل المجهود مع وجود الحرمان، وعلامة التوفيق، تيسير أعمال الخير بدون كبير مؤونة، وعلامة الرقة، جريان أنهار الدموع من عين معين الخشوع، قال الله تعالة: ﴿ **ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لِذِكْر الله** ﴾ [الحديد: ١٦] فجعل الإيمان ناقصاً ما لم تخشع القلوب لذكر الله ، قال الرسول ﷺ : ((إذا اقشعرت أبشاركم لذكر الله، فاسألوا الله من فضله، فإن الله لايردُّ دعاءً برز من قلب خاشع)) وفي رواية: ((فإن الدعاء عند الرقة مستجاب)) .

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

إذا قسا القلبُ لم تَنْفَعْهُ موعظةٌ   كالأرض إنْ أسبخَتْ لم يَنْفَعِ المطر

ثم ضرب الله مثلاً للقلوب بما أنزل من الوحي والإلهام بقوله: ﴿ **أنزل من السماء ماء**

---

(١) حديث أن الصحابة سألوا رسول الله الخ أخرجه ابن جرير وابن ابي حاتم وعبد الرزاق وعنهم الحافظ بن كثير (٢/١٨٠/١٨١) وقال فيه بعد إيراد طرقه فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا والله أعلم .

(٢) كذا في الأصل ـــ ما يحاول ـــ بالبناء للمجهول.

فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً ﴾ [الرَّعد:١٧] من الباطل رابياً على مياه الحق ﴿ فأمَّا الزَّبدُ فيذهب جُفـاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكُث في الأرض ﴾ [الرعد: ١٧] فالسماء سماء الغيوب، والماء ماء العلم، والأودية أودية القلوب. فقلوب الأنبياء أنهار، وقلوب الأولياء أودية، وقلوب المؤمنين شعاب، فكلٌّ سال بقدره* ﴿ قد علم كُل أُناسٍ مشربَهم ﴾ [البقرة: ٦٠] فاحتمل سيلُ الصفا زبَد الجفا، حتى غمره فاختفى، فأرسل الله رياح الاصطفاء فصيَّرت الزبد[١] جفاءً، وعاد العلو هباءً، فسكن العلم النافع، ومكث، وعزل الباطل ونكث، فالحق يدوم، والباطل يحوم، والصفا نوع من الحجارة معروف، وله بريق وصلابة، ولذلك سمي باسم الصفا، والصفا جبل بمكة معروف، وهو من شعائر الحج[٢] وعليه أغاث الله هاجر أم إسماعيل بالسقي، بعد أن سعت سبعة أشواط بينها وبين المروة، وهو جبل أيضاً، وسمي بالمروة، لأن عامة حجارته مراوي، وهي حجارة زرعية[٣] هينة الصدع، وهي أول من سعى، وقيل: إن آدم سعى مع جبريل بينهما لما بنى البيت المشرَّف، فوفّق الله هاجر، ففعلت ذلك من غير علم ولا قصد، فصار بعد ذلك نُسُكاً إلى يوم القيامة، وإنما عبَّر المصنف بالصفا، إشارة إلى أن القلب أصله الصفا، إلا أن كدرته أمور طارئة عليه من جهة الشهوة والهوى والطبع، قال الرسول ﷺ ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه)).. الخ[٤] فالقلب في البدن بمثابة الحجر الأسود في البيت، أنزل من الجنة، وله شعاع، فسودته ذنوب بني آدم بكثرة لمسها إياه، وكذلك القلب لما خلقه وأسكنه الله العقل والروح، اتصل شعاعه بشعاع العرش، فدنَّسته النفس والشيطان والهوى بلمس أيديهم، وحجبوه بدخان مكائدهم وغبار عوائدهم، قال الله تعالى: ﴿ قُل كُلٌّ يعمل على شاكلته ﴾ [الإسراء: ٨٤] فمنصور مؤيد، ومقهور مقيد،

---

(١) في الأصل ــ (ب) الزبدين ــ بالتثنية.

(٢) يقصد الطواف بين الصفا والمروة ــ وهو ركن من أركان الحج.

(٣) كذا في الأصل ــ ولعل مراده أن حجارة المروة تصلح لإنبات الزرع لعدم تماسكها ــ والله أعلم.

(٤) حديث كل مولود يولد على الفطرة .. الخ .. طرف من حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وغيرهما بروايات مختلفة.

* تفسير الأودية بالقلوب شائع عند المفسرين، قال الفخر الرازي في تفسيره ﴿أنزل من السماء ماء﴾ السماء سماء الكبرياء والجلالة والاحسان ﴿ماءً﴾ وهو القرآن والأودية قلوب العباد وشبه القلوب بالأودية لأن القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء وكما أن كل واحد فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار مايليق بسعته أوضيقه فكذا ههنا كل قلب إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن مايليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه اهـ (١٩جـ ٣٥ص)

وذلك قول الناظم ــ مذْ بان عنه صفاء ــ فـ « مُذ » من أدوات الجر، كمنذ، بان بمعنى انفصل، تقول: أبنت الرأس، أي قطعته وفصلته عن بدنه، ويأتي بمعنى بَعُد.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

بانت سُعاد فَأمْسَى حَبْلُها انفصما

وتُغُزِّلَ بـ « بانت سعاد » في سبعين قصيدة، ويقال: بان إذا ظَهَرَ، وأبان: إذا أفصح، وأبان المرأة: إذا طلَّقها، قال الحجاج[1] لهند: كُنتِ فَبِنْتِ،فيقال: طلاق بائن، والبينونَة: المفازة. و« عنه » متعلق بـ « بان » والضمير عائد على القلب ونكر الصفا للشُّمول والاستغراق، كقوله ﷺ : « من يرد الله به خيراً، يفقهه في الدين »[2] والصفاء إنما يوصف به أربعة أشياء: القلب، قال الشاعر: (من بحر البسيط)

وقالوا قد صَفَتْ مِنَّا قلوب ... نَعَمْ صَدَقوا ولكنْ من ودادِ

والزجاجة: قال الشاعر:

إن الزُّجاج وإن صفت جواهره ... يشينهُ اثنان كَشْفُ السِّرِّ والخَبَرِ

والماء، قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ولي خُلُق كَسِلْسَالٍ مَعِينٍ ... زلال من على الأحجار جار

يقال: صفا مشربه، وصفا مورده، كناية عن الماء، وعن الطمأنينة بعد التشريد، والتمكين بعد المصاولة والتنكيد، والحدقة إذا لم يكن بها ظفر ولا رواق ولا قذى.

وفي « الحكم العطائية »: ليس الصوفي من لبس الصوف، ولكن الصوفي من صفا قلبه

---

(١) الحجاج هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي داهية سفاك خطيب، ولد ونشأ بالطائف، ثم سافر إلى الشام والتحق بشرطة روح بن زنباع نائب عبد الملك ثم قلَّده عبد الملك بن مروان أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن ازبير، فزحف إلى مكة المكرمة، وقتل ابن الزبير، ثم ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، وأضاف إليهم العراق له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه مات بواسط عام ٩٥ هجرية.

(٢) حديث « من يرد الله به خيراً يُفقهه في الدين » حديث صحيح أخرجه البخاري في باب العلم ومسلم في باب النهي عن المسألة، وأخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة إلا أن في رواية الشيخين زيادة « وإنما أنا قاسم ويعطي الله » اهـ.

من الكدر، وامتلأ من العبر، واستوى عنده الذهب والمَدَر[1] ونَعْت القلب بالصفاء أمر معنوي، وهو عبارة عن لينه وَرِقَّته، قال الرسول ﷺ ((أهل اليمن ألين قلوباً وأرقُّ أفئدة، والغِلظة والجَفاء في الفدّادين[2] أهل الوبر من ربيعة ومضر))[3].

قال الله تعالى : ﴿ **ثم تلين جلودُهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ [الزمر: ٢٣] ثم يوصف أيضاً بالطهارة، قال الله تعالى : ﴿ **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهِّر قلوبهم لهم في الدنيا خزي** ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿ **وثيابك فطهِّر** ﴾ [المدثر: ٤] فهما تطهيران شرعي وحقيقي.

فالشرعي : طهارة الثوب والبدن للقيام بين يدي الله لأداء فرائضه.

والحقيقي هو تطهير ثياب القلب بماء الغيب.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

بالماء يَطْهرُ ما بالثوب من دَرَنٍ[4]   وليس يغسلُ قلبَ المذنب الماءُ

يروى أن التابعين قالوا لأصحاب رسول الله ﷺ : مالنا يا أصحاب محمد نراكم أقل مِنَّا علوماً، وأكثر تقوى، قالوا: إنا بذرنا في قلوبنا بذر الإيمان، ثم سقيناه بماء العلوم، فأنْبَت التقوى وأمّا أنتم فان ماء العلوم سبق إلى قلوبكم قبل بذر الإيمان فأنبتت الأرض قبْل البذر فَفَسد أكثره، فلذلك كنتم أقل مِنَّا تقوى، قال الله تعالى : ﴿ **والبلدُ الطَّيبُ يخرج نَباتُه بإذن رَبِّه والذي خَبُثَ لايخرُج إلا نَكِدَاً** ﴾ [الأعراف: ٥٨].

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

قُلوبنا أوعيةٌ فَكُلَّما   طاب الوِعاءُ طاب ما قد حَصَّلَهْ
قلب التقيِّ وَزْنُه بِدُرَّةٍ   وغيره فوزنه بِخَرْدَلَه
فواحد بالذِّكْر صار روضةً   وآخرُ باللهو صار مَزْبَلَهْ
لو سُقِيَ الحَنْظَلُ شهداً دائماً   لم يَلِدِ الحنظل إلا حَنْظَلَهْ
ما مَنْبِتُ الورد كَنَبْتِ غيره   ولا شذى المِسْكِ كريح البَصَلَهْ

---

(١) المدر ـــ التراب.

(٢) حديث أهل اليمن ـــ حديث صحيح، رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، ومسلم في كتاب الإيمان كما رواه غيرهما.

(٣) والفدادون الذين تعلو أصواتهم عند سوق المواشي.

(٤) الدرن ـــ الوسخ.

ودليله قوله تعالى: ﴿ ونُنَزِّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، ولايزيدُ الظالمين إلا خَسَارَاً ﴾ [الإسراء:٨٢] وقال ﴿ وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طُغياناً وكفراً ﴾ [المائدة:٦٤] جعلنا الله ممن جعل له من نفسه واعظاً ولم يكله إلى علم ولا عمل، فهما سبب هلاك إبليس حتى جَرَّاه إلى الكبر والعجب ومخالفةِ أمر الرَّبِّ، وفيه من أنواع البديع التلميح، وحقيقته الإشارة الخفية إلى مناسبة بين لفظين متغايرين في الظاهر متوافقين في الحقيقة، كاشتقاق الصفا من الصفو وفِطْرَةِ القلب على الصفاء.

وأشار إلى ذلك بقوله:

مُذ بَان عنه صفاء ــ

إذ لايبين عن الشيء إلا ما كان ملازماً له، وبالله التوفيق.

قوله:

١٢ ــ وَرُمْتَ جَدىً مَا إنْ يَدومُ جَدَاؤُهُ　　وَسِيَّــان فَقْــرٌ في الثَّرى وَثَراءُ

قوله:

ورمت، أي: طلبت، أو حاولت، يقال: لايرام، لايحاول، قيل: سبْحان من لايرام ولايضام، والروم والرئامة عطف الناقة على فصيل غيرها.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

وليس ينْفَـعُ مـا تـأتي العـلوق بـه　　رِئْمَانُ أنْفٍ إذا مـاضُـنَّ بـاللبـن(1)

والجدى بالفتح والقصر: هو المطر، ويطلق ويراد به العطاء.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

يُجْـدِيكَ معنٌ إذا مـارُمتَ نـائـله　　قَبْـل السـؤال فـلا تلوي إلى أحد

---

(١) البيت لأفنون التغلبي واسمه ظالم بن معشر وهو « كما في الخزانة ».

أم كيف ينـفـع مـا تعطي العـلوق بـه　　رئمـان أنف إذا مـاضـن بـاللبـن

وهو من الشواهد المعروفة.

قيل: إن الكسائي أنشده في مجلس الرشيد بحضرة الأصمعي فرفع رئمان فَردّه الأصمعي وقال إنه بالنصب، فقال له الكسائي: اسكت ما أنت وهذا ؟ يجوز الرفع والنصب والجر فسكت.

ووجهه أن الرفع بدل من (ما) والنصب بتعطي، والخفض بدل من الهاء.

والعلوق: الناقلة التي علق قلبها بولدها ــ فإذا مات حشوا جلده فتحك أنفها به دون أن تدرُ لبناً. والله أعلم.

ويطلق ويراد به الرجاء.

وقال الشاعر: (من بحر البسيط)

وصلتُ الجدى بالله في كل أزمة   فألفيتُه يعطي المنَى ويزيد

والجداء بالمد والفتح: العطاء.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

إن الجداء حليفُ الفضل لو طَلَبَتْ   يَداهُ شُحَّاً لما شحَّتْ أنَامِلُهُ

يمطرنَ بالتِّبرِ إن سحَّ الغمامُ بِمَا   فذا بماءٍ وذا بالتبرِ نائلهُ

ومعناه أنك قد اشتغلت بباطل حيث طلبتَ من سراب الدنيا شراباً، لأنها سراب في طي شراب، فالمطمئن إليها مغرور، والمحب لها مبتور[1]، وهي كما وصفها الرسول ﷺ فقال: ((نعم المرضعة، وبئست الفاطمة، ما ملىء بيت بها فرحاً إلا وملىء حُزنًا، وما ملئ حبوراً إلا استحال غروراً)).

وقال تعالى: ﴿ **فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنْيا وَلاَ يَغُرَّنَّكم بِالله الْغَرُوْرُ** ﴾ [لقمان: ٣٣] إذ لو دامت لغيرك، لم تصل إليك، وكلما وصلت إليك من غيرك تصل إلى غيرك منك وأنت راغم، فإنك إنْ جمعتها فَرَّقتك، وإن فرَّقتها جمعتك.

يروى أن أول ما يخاطب به الميت قول الملائكة له: أجَمَعْتَ الدنيا، أم الدنيا جمعتك ؟ أفرَّقت الدنيا أم الدنيا فرَّقتك ؟ أتركت الدُّنيا أم الدنيا تركتك ؟ فتجيبهم الحفظة بحقيقة أمره.

يروى أن معاوية[2] لما احتُضِرَ، جمع أهله فقال لهم: ألستم أهلي، وفيكم كان حربي وسلمي؟ قالوا: بلى نفْديك بأنفسنا وابنائنا، فقال: إن الموت قد بلغت ركبتي، فهل أنتم مغنون عني من هولها شيئاً؟ فَبَكوا وقالوا: لو كان بالجهاد أو بالدفاع لبذلنا المجهود، ولكنْ لا حيلة لنا. فقال: المغرور من غرَّتْهُ الدنيا بعدي، ملكتُ مشارق الأرض ومغاربها، فلم تغْن عني من مصرعي هذا شيئاً .

---

(١) مبتور ــ هالك.

(٢) معاوية ــ هو ابن أبي سفيان الأموي القرشي أمير المؤمنين ولد قبل البعثة بخمس سنين أسلم عام الفتح، وكان من الكتبة الحسبة الفصحاء حلماً ووقوراً، صحب النبي ﷺ وكتب له، ولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد، وأقره عثمان، ثم استمر ولم يبايع علياً، ثم حاربه واستقل بالشام، ثم تسمى بالخلافة بعد الحكمين ثم استقل لما صالح الحسن واجتمع عليه الناس فسمي ذلك العام عام الجماعة، مات في رجب عام ٦٠ هجرية. والله أعلم.

وإنما عابها المصنّف بعيبين، وكفى بهما، وهما عدم الدوام، بقوله: ((ما إن يدوم جداؤه)) الثاني: استواء الغني والفقير في القبر وفي طعم الموت أيضا بقوله: ((وسيَّان فَقْرٌ في الثرى وثراء)) ــ لأن خزفاً يبقى خَيرٌ من ذهب يفنى ، فكيف إذا كان الذهب يبقى ، والخزف يفْنى ؟.

قال الشاعر : (من بحر الخفيف)

أنت نعــم المتــاع لو كنت تبقى غــير أن لا بقــاء للإنســان

ليس فيما بــدا لنــا منــك عيب عــابــه النــاس غــير أنك فَــان

وكان عمر بن عبد[1] العزيز كثيراً مايتمثل بهذا البيت وهو قوله: (من بحر البسيط)

نفســي التي تمـلك الأشيـاءَ ذَاهبـة فكيف آسـى على شـيء إذا ذهبـا ؟

وقال علي[2] كرَّم الله وجهه: العجب كُلُّ العجب ممن يعلم ذهاب الدنيا كيف يفرح بزخرفها ؟ ويعلم غوائلها كيف يطمئن إليها ؟ ويرى قلة غنائها ثم يركن إليها ، ويرى انقلابها بأرْبَابِهَا وسرعة خَرابها ثُم يغتر بها .

وفي البيت نَوعٌ من الاقتباس، وهو الإتيان بالبيت مضمَّناً معنى آية من كتاب الله أو حديثاً، إذ ضرب للدنيا مثلا بالمطر بقوله ــ ورمت جدى ــ مطراً من الدنيا « ما » نَافية و « إن » نَافية أيضا، أي: لا يدوم جداؤه، أي عطاؤه، لأن الدنيا تعطي فيما يرى الجاهل الرزق والأموال والآمال وشرخ الشباب، كما أن المطر يعطي فيما يرى الجاهل الخصب والنبات والزرع والغُدُرَ[3]، وكل من النوعين لا بقاء له ، ولا ثبات عليه، بل إنما جُعِلا للتزوُّد والاعتبار، فمن طلب منها غير هذا فقد أخطأ وخاب، قال الله تعالى : ﴿ **واضربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ**

---

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان القرشي الأموي الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما سمي خامس الخلفاء نشأ وتعلم بالمدينة، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك، وولي الخلافة بعده سنة ٩٩ هجرية وتوفي سنة ١٠١ بدير سمعان ومدة خلافته سنتان.

(٢) علي ــ هو علي بن أبي طالب ــ الهاشمي القرشي أمير المؤمنين، أول الناس إسلاماً في قول كثير من أهل العلم، ولد قبل البعثة بعشر سنين، تربى في حجر النبي ﷺ ، وشهد معه المشاهد كلها، إلا غزوة تبوك، وزوجه ابنته فاطمة، ومناقبه كثيرة، حتى قال الإمام أحمد: لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي بويع بالخلافة بعد قتل عثمان بن عفان وكان هادياً مهدياً، قتل رضي الله عنه ليلة ١٧ رمضان عام ٤٠ هجرية والله أعلم.

(٣) الغدر ــ جمع غدير ــ قطعة من الماء يتركها السيل.

أنزلناه من السماء فاختلط به نَباتُ الأرض فأصبح هشياً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ [الكهف : ٤٥] من ذهابها والإتيان بمثلها، ثم فسر المثل بقوله : **﴿ المالُ والبنون زينَةُ الحياة الدنيا ﴾** [الكهف:٤٦] لافائدة فيهما إن لم يكونا زاداً وعوناً على تحصيل الباقيات الصالحات ــ **﴿ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾** ــ [الكهف:٤٦] .

واخْتلف في الباقيات الصالحات، فقيل الأعمال الصالحة التي تبقى مع الإنسان في حياته، وتحفظه عند مماته، وتَقَرَّ بها عينه بعد وفاته، ويبتهج بها عند بعثته وملاقاته، من جميع أعمال البر الصالحات من الآفَات[١] الزاكيات الطيبات من الهفوات ومن التصنعات. وقيل: هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والثرى بالفتح والقصر: الأرض النَّدية، وهي هنا كناية عن القبر، وهي من باب تَسمية الشيء باسم ملازمه، والثراء بالفتح والمد كثرة المال. يقال: مال ثَرى: إذا نَمى وكثر .

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

لعمرك مايُغْني الثَّراءُ عن الفتى ... إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدرُ

قوله « سيّان » لفظ مستعمل في أشعار العرب وخطبها ونثرها، وكثيراً ما يسْتعمل في أغياء[٢] المدح، قال الفرزدق[٣]: (من بحر البسيط)

لا ينقص العدمُ بسطاً من أكفهم ... سِيَّان في ذاك إن أثْرَوا وإن عَدِمُوا

« سيّان » تثنية سواء، وسوغ الابتداء بالنكرة حصرها بالمجرور، فهو في قُوة الفقرُ، والثراءُ في حالة الدفن في الثرى سيّان .

يروى أن ذا[٤] القرنين مر على مدينة عظيمة من مدائن المغرب، فلما دنا منها لم تبق في

---

(١) كذا ورد في الأصل وربما كانت هناك كلمة ناقصة أو جملة والله أعلم.

(٢) اغياء ــ الذي يظهر لي أنه جمع غاية منتهى المدح ــ والله أعلم.

(٣) الفرزدق ــ همام بن غالب بن صعصعة التيمي، شاعر من النبلاء من أهل البصرة عظيم الأثر في اللغة، وهو صاحب الأخبار مع الأخطل وجرير، ومهاجاته لهما معروفة ــ لقب بالفرزدق لجهامة وجهه ــ توفي في بادية البصرة وقد قارب مائة عام.

(٤) ذو القرنين ــ الاسكندر الكبير المقدوني ــ ملك الدنيا، كما قص الله في كتابه، ولقب بذي القرنين لعظم قدرته وسطوته لأن القرنين كناية عن السلطان اهـ والله أعلم.

المدينة مخدَّرة إلا برزَت لتنظر إلى عساكره، وفقيرٌ جالس عند المقابر لم يعبأ به، ولم يلتفت إليه ولا إلى عساكره، فلما اطمأن أتاه أهل المدينة بالتحف والهدايا، فقال لهم: ألمدينتكم مَلِكٌ ؟ فقالوا: كان بها ملوك فانقرضوا ، وما ملَّكنا أحداً بعد، فقال: ألم يبق من نسلهم أحد؟ قالوا: لا إلا رجل مدلّه[1] قد لزم المقابر، يفتش عظام الموتى، فذهب إليه ليعلم شانه، فقال له ذو القرنين: بلغني أنك من نسل ملوك هذه المدينة، فهلم إليَّ أُحيي شرفك وشرف آبائك إن كانت لك همة، فقال: لي همة عالية إن وجدت إلى ذلك سبيلا، قال: وما بلغ من همتك؟ قال: إن أعطيتني أربعة أشياء أطعتك فيما طلبته مني، قال: وماهي؟ قال:

الأولى: أن تضمن لي على ربك أن لاأحاسب، قال: ليس ذلك إلي .

والثانية: أن تَضْمنَ لي أني أُخَلَّدُ فلا أموتُ، قال: ليس ذلك إليَّ ، ولاأطيقه لنفسي .

قال الثالثة: أن تُعطيني مُلكاً لايبيد، قال: ليس ذلك إلي .

والرابعة: أن تضمن لي على الله أن لاأدخل النار. قال: ليس ذلِك إليَّ ، قال: إن كنت لاتقدر على هذا فدعني أطلبه ممنْ يقدر عليه، ثم قال له: مالك حين مررتُ بجنودي عليك لم تلتفت إليَّ ولا إلى جنودي، وقد برزت المخدَّرات للنظر إليَّ؟ قال: إنما ينظرون إلى سراب بِقِيعَةٍ يظهر ثم يضمحل، ولو علمت أني أحصل فائدة بالنظر إليك وإلى جنودك لفعلت، وكان أولى بك أن تشتغل بما يغْنيك من فكاك مهجتك من تسيير هذه العساكر التي لاتقع من تدبيرها على طائل، بل فكّ مهجتك أولى بك، فبكى ذو القرنين حتى أخضل لحيته، ثم قال له: ماتُريد من تفتيش عظام الموتى؟ قال: أعتبر بذلك، وأري نفسي حقارة شرف الدنيا، وقلة غَناء غِناها، فإنه لافرق بين جيفة الملك والعبد بعد ثلاث، ولا بين الشريف والمشروف، ولا الغني والفقير، ولذلك زهدت في غير الباقي، فرجع من عنده ذو القرنين وقد زهد في الدنيا، ورغب عن المُلْكِ .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

وماهذه إلا حياة قليلةٌ ... تمرُّ وأيام تمرُّ سِرَاعُ

وما وصفَها الواصفون بأشمل من قول الشاعر: (من بحر الوافر)

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغررنكم مني ابتسام ... فقولي مضحك والفعل مُبكي

---

(١) مُدلّه ــ ذاهب القلب.

وقول الآخر (من بحر الطويل)

ومن يصحب الدنيا طويلاً تكشفت ... له عن عدوٍّ في ثياب صديق

وقول الآخر : (من بحر المتقارب)

هي الدار دار الأذى والقذى[1] ... ودار الغُرور ودار الغِيَرْ[2]
فلو نلْتَها بحذافيرها ... لَشبْتَ ولم تقض منها الوَطَرْ
أيا من يأمل طول الحياة ... وطولُ الحياة عليه ضَرَرْ
إذا ما كبرتَ وبان المشيب ... فلا خير في العيش بَعد الكِبَرْ

وقال آخر : (من بحر البسيط)

فما قضى أحد منها لبانته[3] ... ولا انتهى أرب إلا إلى أَرب

وهو مقتبس من قول النبي ﷺ ((الدنيا هَمٌّ لاينقطع أبداً، وفقر لايدرك غناه أبداً، وشغل لا يفرغ منه أبداً)) وقال ﷺ ((منهومان لايشبعان أبداً، طالب دنيا، وطالب علم، لا سواء، طالب الدنيا لايزداد من الله إلا بُعدا، وطالب العلم لايزداد من الله إلا قرباً، وطالب علم[4] غرْثَانٌ إلى حلم[5])) .

وقد تنال الدنيا بنية الآخرة، ولاتنال الآخرة بنية الدنيا .

فإن قلت: قد شَاع وانتشر سَبُّ الدنيا وعيبها، حتى بلغوا في ذلك أن قال رسول الله ﷺ : الدنيا معلونة ملعون مافيها، إلاّ ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً[6] .

---

(١) القذى ــ ما يسقط في العين أو الشراب من الأشياء الصغيرة.

(٢) الغير ــ جمع أغيار ــ الانتقال من حال إلى حال.

(٣) لبانته ــ حاجته.

(٤) حديث منهومان لايشبعان الخ.. ضعيف رواه الطبراني بلفظ منهومان منهوم العلم ومنهوم المال ــ أما الزيادة التي أوردها الشيخ فلم أجدها ــ وهذا القدر الذي رواه الطبراني ضعيف قاله العراقي في تخريج الإحياء (٢٣٢/١) والله أعلم.

(٥) غَرثان ــ جائع ــ أي محتاج.

(٦) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها: رواه الترمذي وحسنه كما رواه الطبراني في الأوسط ورمز له السيوطي بالحسن قال المناوي نقلاً عن الطبراني إنه لم يروه عن ثوبان عن عبدة إلا أبو المطرف قال الهيثمي ولم أر من ذكره (٥٥٠/٣) الفيض

وقد ثبت ثناؤه عليها بقوله: ((الدنيا نعم المطية للرجل الصالح، عليها يبلغ الخير، وبه
ينجو من الشر)) .
وقال: ((لاتسبُّوا الدنيا، فانها مطية الآخرة))[1]
ونَهى عن إضاعة المال، وهو عَيْنُ الدنيا وزينتها، قال تعالى ﴿ **ولاتُؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قِياماً** ﴾ [النساء:٥] فصار في ذلك وجه تناقض عند من لم يَتَدبَّر ذلك، فالخروج هو مابيّنه الترمذي بقوله: الدنيا كالآلة، فهي لما استعملت فيه، فان استعملتها في طلب مرضاة الله والدار الآخرة، فهي مطيّة لصاحبها، عليها يبلغ خير القربات، وبها ينجو منْ دركات المحرمات والشُّبهات، قال ﷺ: ((من جمع مالاً من حِلِّه ، وصرفه في محلِّه ، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر))[2] .

ويروى أنه قال: ((من جمع مالاً من حِلِّه ، وأدَّى فيه حق ربِّه ، تعطفاً على الفقراء، وتعففاً عن المسألة، ونفقةً على العيال، يكرم الضيف، ويعطي في نوائب الحق، جاء يوم القيامة وكأنه نبي مرسل، أو ملك مقرب يتراآه أهل المحشر غبطة بحاله، وأما من جمعه من غير حِلِّه مكاثراً مفاخراً متطاولاً متخوضاً في مال الله بغير حق، جاء يوم القيامة وعلى وجهه قترة[3] الغضب، ولقي الله وهو عليه غضبان وأما من لم يبال من أي وجه جمعه، فإن الله لايبالي في أي وادٍ من أودية النار أوبقه[4] ، فإن تصدّق منها صار زاده إلى النار، وإن أمسكه، كان زيادة له في الإثم)) .
فبان من هذا أن الدنيا لاتذم على الإطلاق، ولاتمدح على الإطلاق، بل تحمد وتذم بحسب ما استعملت فيه، فالناس في الدنيا على ثلاث طوائف، فقوم رأوا الدنيا، فقالوا: هذه

---

(١) حديث لاتسبوا الدنيا ــ أورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ٣٠٢٩ وعزاه للديلمي ولفظه ــ لاتسبوا الدنيا فنعم مطية المؤمن ــ وسكت عليه اهـ

(٢) حديث « من جمع مالاً في حله وصرفه في محله » ضعيف أخرجه أبو نعيم في الحلية وعنه الغزالي في « الإحياء » بلفظ ــ « من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة، وصيانة لنفسه، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ».

قال العراقي: رواه أبو نعيم والبيهقي عن أبي هريرة بسند ضعيف (٢١٧/٣) والله أعلم.

(٣) القترة ــ الغبرة.

(٤) اوبقه ــ ذلّله أو أهلكه.

يفة قذرة، وطالبها لذاتها كلب، لكن لابدَّ منها إذ قد وضعت على جادة الطريق، ولابلاغ لنا
لا بها، فحصَّلوا منها ما أوصل، وتركوا ماشغل، فهم السابقون بالخيرات، قد جعلها الله في
كفهم، وطهر منها قلوبهم، وطائفة امتثلوا ظاهر الحديث من غير غوص إلى الحقيقة، فرفضوها
ساً فَمن أُيد باليقين نجا مخففاً ومن لم يؤيد به مات في ترهات[1] الضلال، وربما انْبَتَّ[2] فلا
و فقير صابر، ولا هو غني شاكر فهؤلاء مقتصدون. وطائفة استعملت ظَاهر قَوله ﷺ
((الدنيا مطية الآخرة))[3] فاقتحموا لُججها من غير سفينة ولا دليل، فغرقوا في لججها إذ
سبوها ممدوحة لذاتها ولواجب صفاتها، ولم يعلموا أن الممدوح مَنْ قلب أعيانها، وبدَّل
جبانها[4]، وعلى هذا الخط نظم الشاعر فقال:

أيهـــا العبــــد إن دنيـــــاك	بحر موجـه طـائحٌ فـلا تـأمنهـا
وســـبيل النجـاة فيهـا مُبيـن	

وهو أخذ الكفاف والقوت منها. ثم حصرها الله تبارك وتعالى في آية واحدة فجمع فيها
ن الوصف والإخبار والمثل والإنذار والتزهد والاعتبار، فقال: ﴿ **اعلموا انما الحياة الدنيا**
ب ولهو وزِينةٌ وتفاخر بينكم وتكاثُر في الأموال والأولاد كمثل غَيْثٍ أعجبَ الكُفَّار
اتُه ﴾ إلى قوله: ﴿ **متاع الغرور** ﴾ [الحديد: ٢٠] وبالله التوفيق . قوله :

١ ـــ وَلَوْ فِي المَلاَ رُمْتَ المَلاَءَ حَلَلْتَ في	**رَجَـاهُ إذَا مَـاصَـحَّ مِنْك رَجَـاءُ**

قوله: « ولو في الملا » بالفتح والقصر: الغِنى، والمَلاَءُ بالفتح والمد: الأشراف والأعيان من

---

(١) الترهات ـــ الأباطيل.
(٢) هذه الكلمة في الأصل غير واضحة وأقرب شيء إليها ما أثبتناه ومعنى انبت انقطع.
(٣) حديث الدنيا مطية الآخرة لم أجده بهذا اللفظ: إلا أن السخاوي أورده بلفظ الدنيا مزرعة الآخرة،
له الغزالي.

وعنه صاحب « الكشف » تحت رقم ١٣٢٠ وقال لم أقف عليه وهو في « الفردوس » بلا سند قلت قد
ه الحاكم وصححه بلفظ: نعمت الدار الدنيا لمن تزَوّد منها لآخرته حتى يرضي ربه وبئست الدار لم صدته عن
رته وقصرت به عن رضاء ربه، إذا قال العبد قبح الله الدنيا قالت الدنيا قبح الله أعصانا لربه أ هـ لكن الذهبي رده
ل: بل منكر وعبد الجبار لايعرف (٣١٣/٤) مستدرك.
(٤) هذه العبارة وردت هكذا ولعل معناها قلب أعيانها أي أعيالها، وأجبانها أسافيلها ـــ إذ الأجبان الأرض
ستوية. والله أعلم.

بني آدم والملائكة. قال الله تعالى حكاية عن بلقيس : ﴿ **يأيها الملأ أفتوني في أمري** ﴾ [النمل:٣٢] والملأ بالقصر، مشتق من المال، وقيل: من الملء. يقال: تملأ القوم: إذا كثرت أموالهم، ويقال: تمول، وفيه نوع من القلب الطبيعي معناه: لو أنك طلبت اتخاذ الملأ أي الأشراف أعواناً وأخلاء لوجدته زمن كونك ذا ملأ، أي غنى، إذ الأشراف والكبراء لايعبأون بمن لامال له .

قال الشاعر: (من مجزوء الرجز)

فأنت ما استغنيتَ عن صاحبك الدَّهر أخُوهْ ... وحيثما احتجتَ إليه مَرَّةً مَجَّكَ فُوهْ

وقال غيره : (من بحر البسيط)

النـاس أعـوان من وَالَتـهُ دَوْلَتُـهُ ... وهـم عـليـه إذا خَـانَتْـهُ أعْوَانُ

وقال غيره : (من بحر المتقارب)

إذا كنتَ ذا ثَـرْوَةٍ في الورى ... فـأنتَ المـقـدَّم والمـكـرَّمْ

ويكـفـيـكَ من نَسب صـورة ... تُنْبِـىءُ أنَّك من آدمْ

وقال غيره : (من بحر البسيط)

مَنْ جـاد بـالمـال مَال العَـالَمـون له ... وشـرَّفوهُ فصـار الأنفَ والسناما[١]

وكان ﷺ يقول ((اللهم إني أعوذ بك من الكفر، والفقر، ومن عذاب القبر))[٢]

وكان كثيرا ما يقول: ((اللهم وسِّعْ عليَّ الدنيا ، وزَهِّدْني فيها ، ولا تقترها عليَّ وترغبُني فيها)) . ويقول: ((اللهم إني أسألك الموت في الدولة، وأعوذ بك من الموت في العَيْلة)) .

- ويقول: ((الفقر الموت الأحمر، والأعمى ميت لم يقبر، ومن لم يترك ولداً ذكراً لم يذكر)) .

وقال : ((كاد الفقر أن يكون كفراً)) .

وقال علي كرَّم الله وجهه : إذا افتقر الرجل ، أورثه رِقَّةً في دينه، ووهناً في مروءته، واحتقاراً في قلوب العامة، فجفاه القريب، وتباعد عنه الحبيب، ولذلك قال الشاعر : (من بحر الطويل)

---

(١) في الأصل السناما هكذا: ولعلها السنا لسيتقيم الوزن.

(٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من الكفر » الخ.. رواه النسائي في باب الاستعاذة (٢٦٢/٨) وهو بدون مِن كما رواه الحاكم بزيادة وقال صحيح الاسناد وسكت عليه العراقي في تخريج الإحياء (٣٢٥/١).

أرى الفقر يزري بالكرام أولي النُّهى فيـــاربّ جَنّبْـــهُ بيـــوتَ الأكارم

وقال ﷺ ، ((أسعد الناس من جمع الله له غنى الدنيا ورحمة الآخرة، وأشقى الناس من جمع الله عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة))[1] .

وفي ذلك يقول الشاعر : (من بحر البسيط)

ما أحسـن الدِّين والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفـر والإفـلاس بـالرجـل

وقال ﷺ : ((اسعد الناس من أطال الله عمره ، ورزقه الإنَابة[2])) وأما قَول بعض شروحه: إن الملاهي الأرض الواسعة ، فلمْ أطَّلعْ عليه فيما طالعت من كتب اللغة ، إلا اني رأيتُ في شارح الهمزية عند قول البوصيري[3] وكان الملاء، فقال: وجه الأرض، فإن كان له اشتقاق، فهو من الميل، وهو سير الراكب حتى يميل من التعب، أو هو مايملأ عين الناظر من البيداء حتى تحار دونه، فمعنى البيت على رأيه: الحثُّ على العزلة طلباً للسلامة، ولم آخذ به، ولم أدر ما هو، لكن معنى البيت: لو طلبت الوصلة بالملأ أي الاشراف زمن الملاء لحَلَلْتَ في أرجائهم واكنافهم، ولشرفت بشرفهم، والرجاء مفرد الأرجاء، قال الله تعالى : ﴿ **والملك على أرجائها** ﴾ [الحاقة:١٧] إن صح منك رجاء ــ وحقيقة الرجاء: تعلق القلب بمطموع فيه مع العمل في تحصيله، قال صاحبُ « الحكم » : الرجاء: ماقارنه عمل، وَإلاَّ فَأُمْنية .

وفي معنى حصول الشرف بمجاورة الأشراف والتصدير[4] بملازمة أرباب الصدور .

يقول الشاعر : (من بحر الطويل)

عـليكَ بـأربـاب الصـدور فمن غدا مضــافاً لأربـاب الصـدور تصـدَّرا

وإيـاك أن تَرضى بصحبـة سـاقطٍ فيـنحـطَّ قـدرٌ مِنْ عُـلاك وتُحقـرا

---

(١) حديث أسعد الناس.. الخ رواه الطبراني وأبو الشيخ بلفظ أشقى الأشقياء من اجتمع عليه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وأورد الجزء الأخير منه صاحب الكشف تحت رقم ٣٧٥ وسكت عليه.

(٢) حديث أسعد الناس من أطال الله عمره.. الخ حسن رواه أحمد والبيهقي باسناد حسن واوله « لاتمنّوا الموت فان هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة ــ وبهذا اللفظ أورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٨٨٥ وقال ضعيف لأن في سنده الحارث بن أبي يزيد ولم يوثقه إلا ابن حبان، وقد اضطرب في اسمه والله أعلم.

(٣) البوصيري: هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي المصري، شاعر مليح المعاني، ينسب إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر، وأصله من المغرب، له ديوان شعر، وأشهر شعره البردة.

(٤) كذا في الأصل ــ والمراد التصدر.

والرجاء أساس الأعمال الصالحات وزمامها، قال الله تعالى : ﴿ **فما ظَنُّكم بربِّ العالمين** ﴾ [الصافات:٨٧] وقال : « أنا عند ظن عبدي بي، ومعه ماتحركت شفتا بذكري »[١] .

ومن ذلك حديث « الجليس الصالح وجليس السوء » المشهور المخرج في « الصحيحين » بأسانيد جَمَّة ، وروايات مختلفة ، وقول الرسول في « صحيح مسلم » : هـ ((القوم لايشقى بهم جليسهم))[٢] وقال ((عليكم بالسواد الأعظم)) وقال: ((من شذَّ شـ إلى النار)) وقال: ((الشيطان كالذئب، إنما يأخذ الشاة الفاذة)) وقال تعالى : ﴿ **ويتَّبِعْ غير سبل المؤمنين نُولِّه ما تولَّى ونصليه جهنم** ﴾ [النساء:١١٥] ويطلق الرجا بالقصر، ويراد بـ التأخير، قال الله تعالى: ﴿ **أرْجه وأخاه** ﴾ [الأعراف:١١١ والشعراء:٣٦] ويطلق ويراد بـ الانتظار، تقول للرجل: أرجني حتى آتيك .

واختلف في العزلة والخِلطة، أيهما أفضل ؟ فذهبت طائفة إلى تفضيل العُزلة ، لقربها مـ السلامة، محتجين بقول رسول الله ﷺ : ((يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ يَتْبَعُ بـ شعف[٣] الجبال، ومواقع القطر، يفرُّ بدِينه من الفتن))[٤] وقوله : ((إذا رأيتَ شُحاً مطا وهوىً متَّبعاً، وإعجابَ كلَّ ذي رأي برأيه ، فعليك بخويصة نفسك)) .

---

(١) حديث « أنا عند ظن عبدي بي ».. الخ متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهو أول حديث طويل رو البخاري في باب التوحيد، ومسلم في باب الذكر، وعند البيهقي ؛ أنا عند عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه وللحاكم « عبدي أنا عند ظنك بي وأنا معك إذا ذكرتني ».

(٢) حديث الجليس الصالح ـــ طرف من حديث متفق عليه رواه البخاري في باب المسك كتاب الذبائح ومسلم في كتاب البر والصلة باب استحباب مجالسة الصالحين، وأوله عند البخاري « مَثَلُ الجليس الصالح » وعـ مسلم « إنما مثل الجليس الصالح »:

وأما حديث « هم القوم لايشقى بهم جليسهم » فهو جزء من حديث طويل أوله إن لله ملائكة يطوفون الخ » وهذا الحديث متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الدعوات بلفظ « هم الجلساء لايشقى بهم جليسهم ومسلم في كتاب الذكر والدعوات باللفظ الذي أورد الشيخ رحمه الله (٦٨/٨) والله أعلم.

(٣) شعف الجبال ـــ رؤوسها.

(٤) حديث: « يوشك أن يكون خير مال المسلم.. الخ ».

حديث صحيح رواه البخاري في كتاب الايمان باب من الدين الفرار من الفتن. كما رواه أبو داود والنسائي

وقوله : ((يوشك أن يكون خير المسلمين رجل ضعيف الحاذ لا يعبأ به ، قلَّتْ بواكيه ، وقلّ تُراثه ، وقلّ حسابه ، وله حَظٌّ من صلاة الليل))[1] .

وفي رواية من غير إضافة ((من اعتزل الناس في شعب من الشعاب اتَّقى شرهم وقد كفاهم شرَّه ، يعبدُ ربه حتى يأتيه اليقين)) .

وقيل : الخلطة أفضل ، لكثرة الأجور المستفادة منها ، من تعليم الجاهل ، وإرشاد الضالّ ، وتحصيل العلم ، والجليس الصالح ، وصحبة الأخيار ، وزيارة الصالحين ، وصلة الأرحام ، وإغاثة الملهوف ، وإطعام الجائع ، وسدِّ خلَّةِ الفقير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتحمُّلِ الأذى ، إلى غير ذلك مما لاينال في الخلوة . قال الرسول ﷺ : ((لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس من بيضاء وصفراء تنفقها في سبيل الله))[2] .

وقال ﷺ : ((خياركم عند الله وأقربكم مني مَنازل يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون))[3] .

وقال : ((خيركم خيركم لأهله وجيرانه))[4] وقال : الخلق عيال الله وأحبكم إليه

---

(١) حديث يوشك أن يكون خير المسلمين رجل.. الخ ضعيف رواه الحاكم (١٢٣/٤) وأبو يعلى وغيرهما بألفاظ كلها ضعيفة مع أن الحاكم قال صحيح عندهم ولم يخرجاه، وردّه الذهبي قائلاً لا بل إلى الضعف هو أقرب، والله أعلم.

(٢) حديث « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم »: هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب المغازي، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، وأوله « لأعطين هذه الراية غداً ».. الخ. أما الزيادة فقد رواها الطبراني، ورمز لها السيوطي بالحسن، إلى قوله « خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » قال المناوي قال الهيثمي: فيه يزيد بن أبي زياد مولى ابن عباس هـ (٢٦٠/٥) مناوي أما بقية الزيادة فلم أعثر عليها.

(٣) حديث « خياركم عند الله.. الخ » رواه الطبراني في مكارم الأخلاق بلفظ « إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً.. الخ » وسنده ضعيف كما قال العراقي في تخريج الإحياء (١٥٤/٢).

(٤) حديث ((خيركم خيركم لأهله)) ، رواه الترمذي وابن ماجه بلفظ ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)) وله بقية عند الترمذي ، وقد صححه كما صححه السيوطي في الجامع (٤٩٤/٣) مناوي .

أنفعكم لعياله[1] وقال : ((إن لله عباداً خلقهم الله لحوائج عباده ، يفزعون إليهم في حوائجهم آلى على نفسه أن لايعذبهم بناره))[2] وقال : ((إن لله عباداً اختصهم بنعمته ، ووجَّه إليهم طلاّبها ويَسَّرَ عليهم أسبابها مابذلوها ، فإذا منعوها نقلها إلى غيرهم))[3] .

وفي رواية : ((مابذلوها ، فإذا ملُّوها نقلها إلى غيرهم)) وهذا الفضل الجزيل لايتأتَّى مع العُزلة .

فالحاصل أن الخلطة أفضل ماأمنت الفتنة ، فإذا خيفت الفتنة ، فالعزلة خير للإنسان في خاصة نفسه .

والحاصل أن الخلْطة أفضل للعالم الراسخ المحقق مطلقاً ، لأنه يمنع الناس في حالة[4] الفتنة من التوغُّل في الهَرْج[5] ، ويدعو إلى السَّداد ، ويكفُّ العبادَ عن الفساد .

وأما القاصر عن هذه المنزلة ، فالعزلة أولى به مطلقاً ، مالم يخف أن يدخل عليه العُجب ، فالخلطة حينئذ خير له ، ولكل من الحالتين شروط لاتتم إلا بها ، وكل من الرتبتين قد أشار إليها السيد محمد البوصيري في بردة المديح بقوله : (من بحر البسيط) .

واَخْش الدسائس من جوع ومن شِبَعِ ... فربَّ مَخْمَصةٍ شرٌّ من التُّخَمِ

أي ، رُبَّ عزلة أو رثتْ عِزّاً وافتخاراً ، خير منها خلطة أو رثت ذلاً وانكساراً .

---

(١) حديث ــ «الخلق عيال الله ، فأحبهم على الله انفعهم لعياله» ــ ضعيف رواه أبو يعلى والبزار والطبراني قال الهيثمي : فيه يوسف بن عطية الصفار وعمير القرشي وهما متروكان (١٩١/٧) مجمع . وقال المناوي قال ابن الجوزي : حديث لايصح (٦٠٥ / ٣) قال في الميزان يوسف بن عطية الصفار مجمع على ضعفه ومن مناكيره ــ (الخلق كلهم عيال الله) (٤٦٩ / ٤) ميزان .

(٢) حديث ــ إن لله خلقاً ــ حديث ضعيف رواه الطبراني وقال فيه الهيثمي فيه شخص ضعفّه الجمهور واحمد بن طارق الرواي عنه لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح (٨ /١٩٢) مجمع ــ ورمز له السيوطي بالحسن في جامعه (٤٧٦/٢) مناوي .

(٣) حديث إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها مابذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم ــ رواه الطبراني وقال الهيثمي فيه محمد بن حسان السمتي فيه لين وشيخه أبو عثمان ضعفه الأزدي (١٩٢/٨) مجمع ــ ورمز له السيوطي بالحسن والله اعلم .

(٤) كذا في الأصل ــ والأولى حال الفتنة .

(٥) الهرج القتل ــ وهو بسكون الراء .

قال الرسول ﷺ : ((إن الله ليمنع العبد من الأعمال مخافة عليه أن يقع فيما هو أشد منها ، قالوا : وماهو يارسول الله ؟ قال : العُجب العجب))(١) .

قال القوم : خذ جزءين من كليتين واجعلهما كلية تَنْجُو ، وذلك أن تأخذ من الاغترار الرجاء ، ومن القنوط الخوف ، وتجعلهما جناحيك في طلب الخير ، والفرار من الضمير ، فإذا هَدَأ أحدهما بطل الآخر ، لكن ينبغي ترجيح الرجاء عند الموت والأهوال والخوف في الأمن والصحة ، والصواب من ذلك ماعليه عمر رضي الله عنه فإنه يقول : لو بلغني أنه لايدخل الجنة إلا رجل واحد لرجوت أن أكونه ، ولو بلغني أنه لا يدخل النار إلا رجل واحد لَخِفت أن أكونه .

وبلغ من خوفه أنه كان إذا مرَّ بآية من حزبه فيها وعيد ، يخرُّ مغشياً عليه ؟ ويلزم الفراش حتى يعاد يحسبه الجاهل مريضاً ، ومابه إلا ألم الخوف .

ويطلق الرجاء ، ويراد به الخوف ، وهو من باب تسمية الشيء باسم نقيضه . قال الله تعالى : ﴿ **إنَّهم كانوا لا يرجون حساباً** ﴾ [النبأ : ٢٧] أي لايخافُون ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وأولو العلم قائماً بالقسط** ﴾ [آل عمران : ١٨] وقوله : ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهَّنَم حطباً** ﴾ [الجن : ١٥] .

فالأول العدل ، والثاني الجَورْ ، وكذلك العدل الأخذ بالحق ، والعدل الميل عن السبيل ، قال تعالى : ﴿ **ومِمَّنْ خلقنا أُمةً يهدون بالحق ، وبه يعدلون** ﴾ [الأعراف : ١٨١] .

قال الشاعر : (من بحر البسيط)

وَدَان بالحق لم يعدل ولم يَرُغ ... ولم يداهن ولم ينكث ولم يَزِغ

وبالله التوفيق . قال رضي الله عنه :

١٤ ــ كَفَى بالْفَنَا قُوتاً لِنَفْسٍ فَنَاؤُهَا ... قَرِيبٌ وَيَكْفِيهَا ضَراً وَضَراء

كفى : فعْل ماض بمعنى الانتهاء ، كما تقول : كفى بالله وكيلاً ، وكفى بالله شهيداً ،

---

(١) حديث «إن الله ليمنع العبد من الأعمال .. الخ» ضعيف رواه أحمد والحاكم وعنهما السيوطي في جامعه بلفظ قريب من لفظ الشيخ وبدون العجب العجب ورمز له بالضعف وأقره المناوي (٢٦١/٢) والله أعلم .

فالأول الانتهاء في الضَّعة ، والثاني الانتهاء في الرفعة ، ((بالفنا)) جار ومجرور متعلق بكفى ، والباء زائدة بمعنى التأكيد ((قوتاً)) منصوب على التميز .

فالفَنَا بالقصر : ماتساقط على الأرض من الطعام ، قال الرسول ﷺ ((أكل الفَنَا ولعق الإنا وترك الزنى يورث الغنى)) .

ويطلق ويُراد به التَّافهُ من الرثة[1] .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

تــركتُ الفنــا للقــومِ ينتهبــونـه ... وصممت أبغي الوتْر والسلب عن قسري

ومـــاراقـــني مـــذْ عـــاقـــني ربع مـــنزل ... أُؤدرِكَ ثـــأري من تمـــيم بـــني مُـــرٍّ

والفنا مؤخر خف البعير وهو عين عكس الكوع ، والفناء بالمد ضد البقاء ، قال الله تعالى : ﴿ **كُلٌّ من عليها فَان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ [الرحمن : ٢٦ و ٢٧] فلما نزلت هذه الآية ، طمع سُكَّان السماوات والبحار في البقاء ، فأنزل الله قوله : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت** ﴾ [آل عمران : ١٨٥] فيئس كل ذي نفس منفوسة[2] من البقاء ، وطمع فيه الجمادات ، حتى أنزل الله ﴿ **كُلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه** ﴾ [القصص : ٨٨] فيئست الكائنات كلها من البقاء ، وأما القدم فلا مطمع لأحد فيه ، إلا أن الفلاسفة والطبيعية[3] قَبَّحهم الله يقولون بقدم العالم ، مستدلين على ذلك بأنَّ علم الباري جل وعلا قديم ، وإنما علمه تعلَّق كشفه بإيجاد المعلومات أزلاً ، ومتعلق القديم قديم ، وقد ضَلُّوا إذ لايتعلق القديم إلا بالحادث تعلقاً إيجادياً من غير مماسة ولااتصال ولامجانسة ، إذ شَتَّان مابين العلم والمعلوم ، فالعلم صفة ذاته ، والمعلوم جميع مخلوقاته ، كما لامناسبة بين القبض والمقبوض في الخارج .

قوله تعالى : ﴿ **والأرض جميعاً قَبْضتَهَ يوم القيامة** ﴾ [الزمر ٦٧] فتتفرع القضية إلى قابض وقبض ومقبوض عليه .

قوله لنفس فَنَاؤها قريب .

---

(١) الرثة ــ جمعه رث ورثاث ــ السقط من متاع البيت .

(٢) منفوسة ــ مولودة .

(٣) الطبيعية ــ هم الذين يقولون : إن الطبيعة هي التي اوجدت الكائنات ــ وهم الدهرية . قبحهم الله .

فإن قلت: لمَ أضاف المصنف الفناء للنفس دون الجسم، والمعلوم المجمع عليه أن أرواح السعداء باقية نَاعمة إلى يوم الدين ، وأرواح أهل الشقاء معذَّبة إلى يوم القيامة ؟ فالفَاني لايعذَّب وإنما يعذَّب الباقي ، قال محمد بن اسماعيل وهو البخاري[1] : (من بحر الكامل)

يارب أعضاءُ السجود عتقتها ... بفضلك الوافي وأنت الواقي

والعتق يسري بالفنا ياذا الغنى ... فامنن على الفاني بعتْق الباقي

فالفاني الجسم ، والباقي الروح .

وقال غيرهُ : (من بحر الوافر)

ولَوْ كُنَّا إذَا مِتْنَا تُرِكْنا ... لكان المَوْت راحةَ كُلِّ حَي

ولكنَّا إذا متنا بُعثنا ... ونسأَلُ بعد ذَا عَنْ كلِّ شَي

وقال غيره : (من بحر الخفيف)

بلغن أهلنا ولاتُخْفِ عَنهُمْ ... مالقينا في البرْزَخ الخَنَّاقِ

قد سئلنا عن كل ماقد فعلنا ... فارحموا وحشتي وما قد ألاقي

وهتف هاتف من قبر علي رضي الله عنه لبعض زُوَّاره فقال له : (من بحر المجتث)

قد كنت ميتاً فصرت حياً ... وعن قريب تَصير ميتاً

فابن لدار البقاء بيتاً ... واهدم لدار الفناء بيتاً

فيعتذر عن المصنف أنه إنما أراد بفناء النفس انقطاع نعيم الدنيا عنها ، فصارت بذلك كأنها قد فنيت ، وبأن طعم الموت إنما تذوقه النفس ، لأنها حسَّاسة ، بخلاف الجسم ، إذ إنما هو جماد كالخشبة ، وإنما يتألم بواسطة النفس .

قال الله تعالى : ﴿ **كلّ نفس ذائقة الموت** ﴾ [آل عمران : ١٨٥] الآية أو يريد بالنفس ذات الشَّيءِ ؟ قال عيسى عليه السلام : ﴿ **تعلمُ مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك** ﴾ [المائدة : ١١٦] لأن النفس المحسوسة يستحيل إطلاقها على الباري جل وعلا ، والمراد بها في حقه تعالى العلم والإدراك .

---

(١) البخاري هو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري أمير المؤمنين في الحديث ومؤلف صحيح البخاري أصح الكتب بعد كتاب الله ولد في ١٣/١٠/١٩٤ توفي رحمه الله في اليوم الأول من شهر شوال عام ٢٥٦ هجرية .

أخرج البيهقي من طريق أبي أمامـة أن النفـوس يُنكـرن يوم القيـامة كونهن بَاشـرن الذنوب ، فيـأمر الله الأعضـاء فيشهدون بما عَمِلُوا ، فإذا شهدوا قالت لهم النفس : سُحقاً وبُعداً ، إنما كان جِدّي واجتهـادي في تخليصكـم ، فحيث شهدتم على أنفسكـم ، فهلمَّ أُحاكمكم إلى الله فإنما أنا ريح ، فيتحاكمان إليه ، فيقول الجسم ، أي رب إنما أنا خشبة ملقاة لاأسمع ولاأبصر ولاأعقـل ولا أسعى حتى أتتني النفس ، فحمـلتني وجعلتْ تسعى بي إلى مآربها ، حتى اكتسبتُ ماأكتسبت ، واقترفت مااقترفت ، فلم تزل على تماديها فيما اشتهته حتى أتاها رسولك ، فذهب بها ، فصرت جماداً كما كنت ، فإن كنت معذباً فعذِّبْها ، فإنه لاذنب لي وإنما جاءني الخذلان من قِبَـلهـا ، فتقول النفس ، أي ربّ ، إنما أنا ريح مارة ، ونفحة طاهرة ، حتى أمرتني بسيـاســة هذا البدن الجرمودي[1] فبـاشرتُه وخَالطتُه ، فلوَّثني بعيوبه ودنَّسني بذنوبه ، ركَّبْتَ فيه الشهوات ، وحجبته بالغفلات ، فجعلتُ أصيره إلى أوطاره حتى أتاني رسولك ، فذهب بي إلى عالمي ، وتركته مرتهناً بعالمه ، فإن كنتَ معذباً فعذبه ، فإنه لاذنْبَ لي ، إذ ليس لي بطن ولافَرج ، ولايَدٌ ولا رجل ، فيقول الله لهما : إني أحكم بينكما ، أرأيتما إذا جاء رجلان إلى شجرة مثمرة ، أحدهما مقعد والآخر أعمى ، فالمقعد يبصر ولاقدرة له على النهوض ، والآخر يَقْدِر على السعي والنهوض ، ولايبصر الثمار ، فقـال المقعد المبصر للأعمى : إني أرى ثماراً ، لو كانت لي قدرة على النهوض لتنـاولتهـا ، فقال الأعمى : هلمّ فارتحلني[2] حتى أسعى بك إليها ، فلنأكل منها ولتناولني حتى نقضي نهمتنا[3] ، ففعلاً ، فإذا قدرّ عليهمـا ربُّ الشجرة ، فأيهما يؤاخذ بالذنب ؟ فيقولان له : يؤاخذهما معاً ، فيقول لهما : فذلكما أنتما ، فيأمر بهما إلى النار إن شاء أو يعفو .

وفي ذلك أنزل الله قوله : ﴿ **يوم تشهد عليهـم ألسنتهـم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ [النور : ٢٤] وقوله : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [يسن : ٦٥] وقوله : ﴿ **وقالوا لجلودهم لِمَ شهدّتُهمْ علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء** ﴾ [فصلت : ٢١] وقوله : ﴿ **يوم تاتي كل نفس تجادل نفسها** ﴾ [النحل : ١١١] .

قوله : قريب لأنها هُيِّئَتْ له ، لأن الفناء عرض ، والعرض لايُنسب إلى قرب ولابُعد ، وهو هيئة تنشأ عن مباشرة العدم بنفس الوجود ، تضمحل لكنها لاتزال تتكرر حتى ترجع

(١) الجرمودي ــ الكثيف ــ الغليظ .
(٢) كذا في الأصل ولعل الصواب فاحتملني .
(٣) النهمة ــ الشهوة ــ أو الحاجة .

الموجود للعدم المحض على مااصطلحت عليه طائفة المتكلمين ، أو لأن كل ماهو آتٍ قريب ، فالجديدان لايزالان يتراكضان ، حتى يُبْليا كُلَّ جديد ، ويقرِّبا كل بعيد .

يروى أن أمةً من الأمم الماضية ، كانت لهم أعمار طوال ، وكانوا إذا تزوج الرجل لعبوا له مائة سنة ، حتى اتفق أن رجلاً منهم تزوَّج ، فلعبوا له سبعين سنة ، ثم منع مانع من أن يتموا له المائة . فغضب ، فقال لهم نبيُّهم : إن أمة تأتي بين يدي الساعة ، غالب أعمارهم إلى السبعين ، فقالوا : لو كنا أولئك القوم لاكتفينا بظل الشجر ، ولما تكَّسبنا ، فقال : إنهم ليبنون الحصون ، ويجمعون ، ويأملون أكثر مما تأملون ، وكانوا إنما يتخذون بيوتاً صغاراً من القصب تقليلاً لعمر الدنيا[1] .

قوله : ويكفيها : ينفعها عن التغالي في تناول الملذات من المطاعم والمشارب أدنى موجود تنحصل به البلغة ، ويسد به الرمق ، كالصرى وهو الماء المتغير من طول المكث ، وقيل مايبقى في الحوض من الحصاة والهشيم الممزوُجين بالماء المتغيِّر بما تلقيه الرياح من فتيت الأرواث . ومن مطعوم الدنيا .

الصراء بالمد : وهو عجم[2] الحنظل العامي ، لأن العرب كانت تتقوَّت به في المجاعة .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

أتينـــاك والعـذراء يـدمى لَبـانُهـا[3] — وقد شَـغـلـت أمُ الصـبى عن الطفـل

وألقى بكـفيــه الفَتَى لاستكـــانــه — من الجوع ضعفـاً . مـايمرُّ ولايُحْـلِ

ولاشَــيْءَ ممـا يـأكل النـاس عندنـا — سوى الحنظل العامي أو العلهز[4] الفَسْلِ

وليس لنـــا إلا إليــك فــرارنــا — وأين فـرار النــاس إلا إلى الرســلِ*

---

(١) هذه القصة لامستند لها من نقل صحيح واغلب الظن انها من وضع القصاصين ، والله أعلم .

(٢) الحنظل ــ نبات يمتد على الأرض ثمره ــ يشبه ثمر البطيخ لكنه أصغر منه وهو سام ويضرب المثل بمرارته ــ ويعرف بالشرى ــ وعجمه : حبه ــ العامي القديم الذي له سنة ــ والمراد أن العرب كانوا يأكلون حب الحنظل القديم في المجاعة .

(٣) لبانها بالفتح صدرها وأصل اللبان الصدر أو وسطه أو هو مابين الثديين ويكون للانسان وغيره . وزعم بعضهم أنه لايطلق إلا على ذوات الحوافر خاصة ، والله أعلم .

(٤) العلهز طعام كان العرب يستعملونه في المجاعة وهو عبارة عن دم وشعر ــ مخلوطين ثم يشوى الخليط في

* هذا البيت يفهم منه جواز الفرار لغير الله ــ والفرار لايكون إلا إلى الله ، إلا أن هذه الأبيات قيلت للنبي ﷺ كما في سيرة ابن هشام وغيرها وأقرها وتقريره صلوات الله وسلامه عليه كما هو معروف سنة فلامجال للكلام بعد ذلك .

وذلك أن الحياة الفانية كما تتحصل بأعلى مطعوم ومشروب ، تتحصل بأدنى مطعوم ومشروب ، إذ المطلوب من ذلك قوام البنية ، والتقوي على العبادة ، وهو حاصل مما ذكر ، وقد فاز بعدم الحساب والسؤال وعدم المطالبة بشكر النعمة التي قلَّ من يقوم بشكرها ، مع كفِّ النفس عن فضول شهواتها وزمِّها بزمام الشرع عن الهوى في مروج مألوفات الطمع ، وتخلقها بأخلاق الرسل .

قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ لتُسألنَّ يومئذ عن النعيم** ﴾ [التكاثر : ٨] .

ويروى أن النبي ﷺ أقبل في بعض الأيام من المسجد إلى بيوت نسائه وقد أصابته مخمصة ، فسألهنَّ عما يسدُّ به الرمق ، فلم يجد في بيوتهن كفاً من دقيق ، ولا جرعة من سويق[١] فخرج فلقيه صاحباه أبو بكر وعمر ، فسألاه عن سبب خروجه من بيته بظهر الهجيرة ، فقال : إنما أخرجني من بيتي الجوع ، قالا : ونحن والله ماأخرجنا من بيوتنا إلا الجوع ، فذهبوا إلى بيت أبي طلحة[٢] ، فلما رآهم رحَّب بهم ثم قال بأبي أنت وأمي يارسول الله لأي شيء جئت وصاحباك في هذه الساعة ؟ فقال : ماأخرجني وصاحبي من بيوتنا إلا الجوع ، فقال : طوبى لي ، فإني أمسيت اليوم خير أهل الأرض ضيفاً ، ثم أخذ المدية ، وأقْبَل إلى دواجنَ في بيته ، فقال له الرسول ﷺ : ((إياك وذات الدَّر[٣])) فأخذ منهن شاة فذبحها ، ثم أقبل على أم سليم[٤] فقال هل عندك من شيء ياأم سليم ، قالت : نعم عندي صاع من دقيق في رقعة ، فقال هلمي برمتك[٥] ، فاثردي لرسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما

النار ويدق ويؤكل وغالبا مايكون من دم الحلم ، ولا يستعمل إلا في المجاعة الشديدة ، والبيت حسب رواية اللسان بالفاء والسينَ ـــ الفسل ـــ وهو الرديء من كل شيء ، وبالفاء والشين الفزع والجبن والضعف (١١/٥٢٠) و (٥/٣٨١) لسان .

(١) السويق الناعم من دقيق الحنطة أو الشعير .

(٢) أبو طلحة : اسمه زيد بن سهل بن الأسود الانصاري النجاري الخزرجي شهد العقبة وبدراً وحنيناً ـــ توفي على أشهر الأقوال في عام ٣٤ وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنهما .

(٣) ذات الدر ـــ الشاة التي فيها لبن .

(٤) أم سليم ـــ اسمها سهلة بنت ملحان بن زيد بن حرام الانصارية أم انس بن مالك اسلمت مع السابقين إلى الاسلام وهي زوج ابي طلحة وكان رسول الله ﷺ يزورها وكانت تغزو معه وتعد من عقلاء النساء اهـ .

(٥) البرمة ـــ وعاء ضيق الفم يطبخ فيه .

على هذه الشاة ، فقالت : أفعل بأبي وأمي هو ، ثم ذهب إلى حائط له فأتاهم بعذق[1] عنب ، وبماء باردٍ في شَنٍّ ، فلما طعموا وشربوا انصرفوا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ((والله لتسألنَّ عن هذا النعيم ، خرجنا من بيوتنا جياعاً ، فما رجعنا حتى طعمنا أحب الطعام إلينا واشهاه إلى أنفسنا ، وشربنا ماءً بارداً ، ثم انقلبنا بنعمة وعافية في أبداننا ، فجعلوا يبكون)) فأنزل الله : ﴿ **ثم لتسألنَّ يومئذ عن النعيم** ﴾ [التكاثر : ٨][2] فيسأل الشاكرون سؤال تكريم وتشريف وتفخيم وتعريف ، ويسأل المفرِّطون والمفْرِطون سؤال تبكيت وتعنيف .

ويروى أنه ما من نعمة من نعم الله يسأل عبده أداء شكرها ، إلا استغرقت اعماله كلها ، وبقيت عليه التَّبِعات ، وذلك معنى قوله ﷺ : ((لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته))[3] .

فإن قلت : بين هذا الأثر الصحيح ، وقوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنَّة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ [الزخرف : ٧٢] مغايرة ، فما وجه الجمع بينهما ؟

قلت : الجمع بينهماأن لاتُدخل الجنة إلا بفضله ، ثم يتوارثون بعد الدخول منازلها ودرجاتها بأعمالهم .

يروى أن الله يقول لأهل الجنة عندما يأتونها وقد فتحت أبوابها : ادخلوها برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم فَبنتْ الجبرية[4] على متن هذا الأثر الشريف .

---

(١) العذق ــ كل غصن له شعب ــ والمراد به هنا ــ القنو ــ وهو في النخل كالعنقود في العنب : ويطلق على النخلة وعلى عنقود العنب والذي في صحيح مسلم وغيره فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب والله وأعلم .

(٢) قصة ذهاب النبي ﷺ إلى رجل من الأنصار صحيحة أوردها مسلم في كتاب الاشربة له كما رواها غيره ، ورواية مسلم تغاير مارواه الشيخ في بعض الفاظه ، وعلى كل حال فصاحب القصة ليس هو أبو طلحة كما ذكر الشيخ وإنما هو أبو الهيثم مالك بن التيهان وقد وردت قصة غير هذه مع أبي طلحة وكانت دعوة له ﷺ وجاء ومعه سبعون شخصاً وقصة أخرى مع جابر بن عبد الله في حفر الخندق والله أعلم .

(٣) حديث «لن يدخل أحداً عملُه الجنة» إلخ حديث صحيح رواه البخاري في كتاب المرضى ومسلم في كتاب صفة القيامة ولفظ البخاري .

«لن يدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولاأنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة» إلى آخر الحديث .. والله أعلم .

(٤) الجبرية : فرقة ــ تدعي أن العبد مجبر على اعماله السيء منها والحسن .

وقوله تعالى : ﴿ **وماتشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ [الدهر : ٣٠] مذهبها الفاسد ، فأبطلت حكمة الأمر والنهي ، وأنكرت حقيقة التكليف ، ونفت عن الله أن يفعل في خلقه مايشاء ، حتى أفضى بهم ذلك إلى نسبة الظلم إلى الله في تعذيب العاصي ، فتمذهبوا مذهب اليهود ، ومافهم الأغبياء معنى الآية ، لأن الله أثبت لهم الإرادة الكسبية أولاً بقوله : ((وما تشاءون)) ولو كانت لكم إرادة كسبية مجازيه إلا أن يشاء الله إمضاء ماتعلقت به مشيئتكم المجازية الكسبية بجريان مشيئته الملكية الحقيقية ، هذه حقيقة قاهرة ، وتلك مجازية مقْهورة ظاهرة .

والمذهب الثاني مذهب القَدَريةِ[1] ، وهم فرقة الإشْراكِ بَنَوْا أساس أهوائهم الفاسدة على متن قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ [الزخرف : ٧٢] فعموا عَمَّا هو لهم ، ونسبوا إلى أنفسهم ماهو له ، فزعموا أن الله يخلقهم وهم يخلقون أعمالهم ، وأنَّهم قادرون على الخير والشر ، وأنه يجب على الله رحمة المطيع وتعذيب العاصي ، فكذَّبهم الله بقوله : ﴿ **والله خلقكم وماتعملون** ﴾ [الصافات : ٩٦] فجمع أهل الحق والسنة بين المذهبين على وجه يطابق الحكمة ، فتأدَّبوا مع الحق بارتكاب الأسباب التي نصب الله صيانة للسر ، وتبَّرأوا من الحول والقوة ، امتثالاً للأمر ، فركبوا سفينة التسليم ، فجرت بهم في بحر التعليم ، حتى وقفوا على ساحل التنعيم بتيسير رياح التكريم ، فنُودوا من حضرة السميع العليم : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ [المائدة : ٣] فازدادوا بعد صريح الإيمان يقيناً ــ ومكَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم تمكيناً ، فاطمأنوا بما فتح الله عليهم من فضله تطميناً ، فما يخافون شكاً ولاتخميناً .

أجمع أهل السنة من هذه الأمة على أن ترك الأسباب مع الله سوء أدب ، والاعتماد عليها شرك ، والحنيفية[2] بينهما ، وهو أن تفعل الأسباب من غير اعتمادٍ عليها ، فإن الرسول ﷺ كان يبني الحصون ويُخندق ويُظاهر[3] بين درعين ، ويبعث العيون[4] ، ويسيِّر الأجْناد ، فإذا قهر

---

(١) القدرية : فرقة تزعم أن الشر فعل العبد وحده ــ وهي بفتح القاف والدال .

(٢) كذا في الأصل : ولعله يريد : واعتقاد أهل الملة الحنيفية بينهما .

(٣) ظاهر : طابق بينهما .

(٤) العيون : الجواسيس .

ة أو فتح مدينة ، رد الأمر إلى أصله وتبرَّأ من فعله ــ فقال تائبون آيبون لربنّا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده[1] .

ومن هـذا القبيـل قول الله : ﴿ **وما رمَيْتَ إذا رميت** ﴾ [الأنفـال : ١٧] رمي صال ــ إذ رميتَ رمي القذف ، ولكن الله رمى بكف ، فَكَفَّ الألفَ . إذ صار ريحاً عقيماً ، ما من أحد من المشركين إلا وهو يعالج عينيه ليزيل منْها الحصى ، بل نشأت منْها ريح بَاطِنَةٌ ي أشد من الريح الظَّاهرة ، وهو مايجدونه من الرُّعب في قلوبهم ، ومايسمعونه بآذانهم .

قال رجل من هَوَازن كان في جيش المشركين : ماهو إلا أن رمانا محمد بذلك الكفِّ جعلنا نسمع في قلوبنا وقع الحصى الشديد على إناء النحاس الجديد ، فَرُعبنا ولم نشكّ أنه ذاب ، فلم تكن لنا همة إلا الفرار .

ومن جنس هذا قوله تعالى : ﴿ **فلم تَقْتلوهم ولكنَّ الله قَتلهم** ﴾ [الأنفال : ١٧] سر ذلك بقوله : ﴿ **قَاتلوهم يُعذِّبْهم الله بأيديكم ويُخْزِهم وينصركم عليهم** ﴾ [التوبة : ١] فأثبت المجاز ليرتب عليه الثواب والعقاب ، وليظهر حكمة التكليف المبني عليها حكم رع المرتَّب على العقل السليم المنقسم إلى أمر ونهي ، وتخيير ، وتلك ثمرةُ الإيجاد .

قال الله تعالى : ﴿ **وماخلقتُ الجِنَّ والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

فإن قلت : قد اتفق المتكلمون على أن أفعال الله لاتعلَّل بالبواعث ، وهذا كتاب الله وء بالعِلَل .

فالجوابُ أن الله خلقهم ، وقرن خلقهم بعبادته ، فالتعليل مجازي لاحقيقي ــ وقيل : نى العبادة في كتاب الله : التوحيد ، قال الرسول ﷺ : ((كان الله كنزاً لايعرف ، فخلق لقه ليعرفوه ، فإذا عرفوه كان مستحيلاً أن لايعبدوه))[2] .

---

(١) حديث تائبون آيبون : الخ جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والنسائي ، وأوله ن ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبّر على كل شرف من الأرض إلى آخر الحديث .

وهو عند البخاري في كتاب الحج باب مايقال إذا رجع من الحج .

(٢) حديث كان الله كنزاً الخ موضوع ولايعرف له سند صحيح ولاضعيف اورده السخاوي تحت رقم ٨١ وصاحب «الكشف» تحت رقم ٢٠١٦ بلفظ «كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً فتهم بي فعرفوني» وقالا قال ابن تيمية ليس هذا من كلام النبي ﷺ وليس له سند وتبع ابن تيمية في ذلك ركشي والحافظ بن حجر والسيوطي ..

قلت : المشهور عند الناس ــ «كنت كنزاً مخفياً» ــ والله أعلم .

فرتَّبهم على تجليَّين ، تجلِّي الفضـل ، وتجلِّي العدل ، وكل قد عرفُوه ، فأهل الفضل
تجلَّى عليهم باسمه الهادي ، فهدوا بنُوره لنوره ، وأهل العدل تجلَّى عليهم باسمه المانع ، فضلُّوا فلا
يهتدون سبيلاً ، فعمَّهم بالدعوة إليه ، وخص من شاء بالتوفيق ، فما ظلمهم الله ، ولكن
كانوا أنفسهم يظلمون باتِّباع الأهواء بعد وضوح البرهان ، وهذا بحر لايدرك قعره ، لكن طمح
بي عنان القلم حتى أتيت بجذْوة من القدر المحتاج إليه ، ليقع بذلك إمتاع السامع ، وتمرينُ
الطامع .

ولنرجع إلى المقصود من بيان هذه المنظومة التي لم تشرح قبلي بشرح يشفي الغليل ، ولا
يبرىء العليل ، لكونها منظومة على فن التصوف ، وحقائق التعرف ، والتزهيد في الدنيا ، ونبذ
من البلاغة ، والتمييز بين الممدود والمقصور ، والفرق بين المباني والمعاني إلى غير ذلك من اللغة
الغريبة ، والأساليب العجيبة ، وكثيراً ماطلب مني بعض الطلبة الذين استشفوا من روح نشرها
ماأكدوا[١] به عن نزع قشرها لعسرها ، إذ إنما هي رموز في طَيِّها كنوز وإشارات تُلَوِّحُ إلى
عبارات .

يروى أن يحي بن زكرياء كان قوته قلوب الشجر ، وإدامه مرق الجراد فإذا طعم شكر
الله كثيراً ، ثم يقول من أنعمُ منك يايحي ؟ طعامك قلوب الشجر ، وإدامك مرق الجراد .

ويروى أنه ماشبع في عمره إلا ليلة واحدة ، فنام تلك الليلة عن ورده ، فأتاه الشيطان
بعد أمَّة[٢] ، فسأله هل نلت مني شيئاً قَطُّ ؟ قال : ليلة واحدة ، شبعتَ فيها فنمت عن وردك .
قال : لاجرم[٣] إني لاأشبع بعدها أبداً ، فقال إبليس : لاجرم إني لاأنصح بعدك أحداً أبداً .

وأما عيسى عليه السلام ، فكان يقول للحواريين : إنما الدنيا سبيل إلى الآخرة ، فمن
أقام على السبيل ، انقطع عن المقصود ، فاعبروها ، ولاتعمروها ، أما أنا فإن أمي ولدتني ولا
مال لي ، وأحب أن ألقاه على الحالة التي فطرني عليها ، فقالوا له : كيف تعيش ؟ قال : أما
بيوتي ، فالكهوف ، وأما سراجي ، فالقمر ، وأما طعامي ، فبقل الصحراء ، وأما أنيسي فربِّي

(١) أكدوا بلغوا الصخر ــ وهو كناية ــ عن عجزهم عن توضيح المعاني .
(٢) أمة ــ طائفة من الليل .
(٣) معنى لاجرم ــ حقاً ــ

ا صاحبي فعملي ، وأما فراشي فالمدر[1] وأما وسادي ، فالحجر ، وأما ثيابي ، فالمسوح[2] وأما
ـدي فرجائي ، وأما سائقي ، فخوفي من ربي .

وأما النبي ﷺ ، فإنه كان على أكمل الحالين ، فلم يتنعَّم تنعُّم سليمان ويوسف ، ولم
ـشف تقشّف عيسى ويحيي على الجميع سلام الله كانت شرعته أكمل الشرائع ، إذا جمعت
ـ شدة شريعة موسى ، ودماثه شريعة عيسى ، فشريعة موسى في تجلِّي الجلال ، فَلادية فيها ،
ـ عفو فيها ، بل الواجب القصاص والانتصار ممن ظلم ، وقتال من طلب القتال من غير
ـاراة ولا مدافعة بالتي هي أحسن ، وقتل النفس في التوبة ، وقطع الثوب ، والجلد في إصابة
ـجاسة ، ووجوب الوصال ، وتحريم الغنائم ، إلى غير ذلك من الإصار[3] .

وأما شريعة عيسى فإنها في تجلِّي الجمال ، فالقتال في شرعه حرام ، وفي الإنجيل : من
ـفعك على خَدِّك الأيمن فناوله خَدَّك الأيسر ، ومن يشاتمك ، فلا تشاتمه ، ولاقصاص على
ـاتل ، بل الديةُ أم العفو .

وكانت شريعتنا في تجلي الكمال ، فجمعت بين التنعُّم بقوله : ﴿ **قُل من حرَّم زينة الله**
ـي أخرجَ لعباده ﴾ الآية [الأعراف : ٣٢] ــ والتقشُّف بقوله : ﴿ **أذهبتم طيِّباتكم في**
ـاتكم الدنيا ﴾ الآية [الأحقاف : ٢٠] .

فعلى قدر ذلك كانت سيرته ﷺ ، إذ كانت تُشتْرى له الحُلَّة بعشرين جَملاً ، وكان
ـسها للقاء الوفود ، وفي ذلك يقول أبو بكر : مارأيت من ذي لمة سوداء ، في حلة حمراء ، في
ـة قمراء ، أجمل من رسول الله ﷺ .

وكان يحب الحلوى والعسل ، وكان يقول : ((حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث النساء ،
ـطيب ، وجعلت قُرة عيني في الصلاة[4] فلم يكن حُبُّه لهذه الأشياء تشهياً ولا طبعاً ، بل كان
ـعاً)) .

---

(١) المدر ــ الطين الذي لايخالطه رمل ــ ويطلق على وجه الأرض .

(٢) (المسوح)ــ كساء من شعر يلبس على البدن تقشفاً .

(٣) الإصار ــ جمع إصر ــ وهو العبء أو الذنب .

(٤) حديث حبب إلي من دنياكم ، حديث حسن رواه النسائي والطبراني وغيرهما . قال ابن حجر في
ـيص وقد اشتهر على الألسنة بزيادة ــ ثلاث ــ ولم اجدها في شيء من طرقه المسندة (١١٦/٣) قلت وكأن
ـخ أوردها تبعاً للغزالي في الإحياء .

أما التجمل للوفود ، فليميل قلوبهم بجمال هيئته ، وكمال صورته فيكون ذلك جالباً لهم
إلى سعادة الدارين ، لأن الله جبل القلوب على حُبِّ الجمال ، وهو الغاية القصوى فيه ، فإذ
أحبوه جَذَبهم حُبهّ إلى حب ماهو عليه من جمال باطنه ، كما ثبت أن الطبع يسرق من الطبع
بحيث لايعلم السارق ولا المسروق منه ، كما أسلم كثير من الأعراب لمجرد نظرهم إليه قائلين
عند مشاهدته : والله إن هذا الوجه المشرق لخليقٌ أن يكون وجه نبي ، وبعضهم يقول : والله إنّ
لنرى وجهاً ماهو بوجه ساحر ولا كذَّاب ، فإذا خلا بأصحابه وخاصته تقشَّف ليريهم ماهو
جبلَّتة وطبعه ليقتدوا به في ذلك ، بخلاف الوفود إذ لاتعلق لهم إلا بحسن الظاهر ليساير كُلاً
من الفريقين على قدر سيرته ، ويعامله بحسب جِبِلَّتِهِ وسريرته مكايسة ومسايسة ، فيخاطبهم
على قدر طبقاتهم ، ويغذِّيهم من معارفه على قدر نفقاتهم ، ألا ترى أنه ليلة أسري به ، أخبر
كل فريق بما هو من عالمه ، فأخْبر المشركين الذين هم أصحاب الحضيض بما يلائم طباعهم ،
وهو مسيره ومرجعه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في جزء من الليل ، فاستعظموا
سرعة سيره ، ولم يستعظموا مسيره ، لأنه من مقدور البشر ، فجعلوا يسألونه عن عيراتهم[1] ،
وجعل يخبرهم بمكان كل عير من عيراتهم ، ويخبر بأن عير بني فلان نفرت من حفيف دابته ،
وأنه رأى منها جملاً عليه جولقان فتكسرا وأنها تقدم يوم الأربعاء ، يقدمها جمل أورق ، عليه
غرارتان ، ثم سألوه عن صفة بيت المقدس ، فحمله جبريل حتى وضعه بموضع دار ابي عقيل ،
فجعل يصفه وهو ينظر إليه ، فلما استثبتوا ذلك بموافقة ، نعته له ماعندهم ، لأنه لم تتقدم له
رؤية لبيت المقدس ، وبموافقة العيرة فيما أخبر به عنهم تحقَّقوا صدقه ، فنسبوه إلى السحر ، إذ لم
يجدوا مدفعاً غير ذلك ، ثم جعل يخبر علية أصحابه بالمستوى[2] والكفاح والخطاب، ويخبر من
هو دونهم بالرفرف[3] وسدرة المنتهى والجنة ، ويخبر من هو دون ذلك بالسماوات والأفلاك ،
وملاقاته للأنبياء، وصلاته بهم، إلى غير ذلك، واختص بما اختص به مما لاتتحمله عقولهم، فلم
يخبرهم به ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **فأوحى إلى عبده ماأوحى** ﴾ [النجم : ١٠] فأبهمه

---

(١) عيراتهم ــ جمع عير ــ القافلة ــ من الجمال ــ والأصل لقافلة الحمير .
(٢) يشير بالمستوى إلى مافي الحديث الصحيح ، حتى إذا بلغت مستوى اسمع فيه صرير الأقلام ، أ
الكفاح فهو التردد على رب العزة طلباً لتخفيف الصلاة .
(٣) الرفرف : البسط ، الفراش الرقيق من الثياب .

تفخيماً لأمره ، وهو ماستؤثرت به الأولياء بعد الأنبياء[1] قال ﷺ : ((إن الله أنزل عليَّ ثلاثة علوم ، أما أحدها وهو علم الشريعة ، فإنه أخذ عليّ العهد بتبليغه للخاص والعام ، وأما الثاني فخيَّرني فيه ، وهو علم الحقيقة الذي لايحمله حقيقة حمله إلا الخواص من أمتي ، وأما الثالث فأخذ عليّ العهد بكتمانه ، فهو الذي يلهمه الأبدال من بعدي ، لاتحيط به العبارة ـــ إقرأوا إن شئتم)) ((يؤتي الحكمة ، من يشاء ومن يُؤْتَ الحِكمة فقد أوتي خيراً كثيراً))[2] فانْقسم ذلك إلى أقسام كثيرة على قدر درجاتهم وطبقاتهم ، فمنهم المحدَّثُ ، ومنهم الملهم ، ومنْهم المشاهد ، إلى مالا يدخل تحت حصر . قال الله تعالى : ﴿ **ولو أنَّ مافي الأرض من شجرةٍ أقلامٌ ، والبحر يمدُّه من بعده سبعةُ أبحر مانفِدَت كلمات الله** ﴾ [لقمان : ٢٧] فلو خاطب أمته على قدره ، لم تنتفع بما جاء به قال الله تعالى : ﴿ **عزيز عليه ماعَنِتُّم**[3] ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وفي ذلك يقول صاحب بردة المديح وقد أجاد : (من بحر البسيط)

لم يمتحنّا بما تعي العقول به ... حِرْصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

ومع ذلك كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتُفْهم عنه ، وما يسرد سرد غيره ، بل لو شاء السامع لعد حروفَ قوله عَدًّا ، فلما أطبقت[4] أمته على الإسلام ، واختارته على غيره ، واشرأبَّ فيها الإسلام ، ورسخ الإيمان ، واشتاقت أنفسها إلى الباقيات الصالحات ، وكشفوا عن الدنيا جلباب غرورها ، وحلة حبورها ، تَاقت أنفس فريق منهم إلى الجَبِّ[5] والاختصاء ، وترك

---

(١) ثبت عن علي بن أبي طالب أنه أقسم وهو على المنبر أن النبي ﷺ لم يخصهم بشيء إلا ما في القرآن ، وما في صحيفة أشار إليها وكان فيها ، العقل وفكاك الأسير ، وأن لايقتل مسلم بكافر وفي بعض الروايات اسنان الإبل وحرم المدينة .

فليس هناك سر اختص به شخص دون شخص ، ولا طائفة دون أخرى ، وما ابهم لاسبيل إلى معفرته إلا عن طريق النبي ﷺ ، إذ هو المبلغ عن الله والمأمور بالبيان والله أعلم .

(٢) حديث إن الله انزل عليّ ثلاثة علوم إلخ أكاد اجزم بوضعه لمخالفته نصوص الشرع العامة ومنافاته لتمام التبليغ هذا بالإضافة إلى أن كبار الصحابة كعلي وعائشة نفوا بشدة أن يكون النبي ﷺ كتم حرفاً واحداً مما انزل إليه ووصفت عائشة رضي الله عنها قائله بالكذب على الله ، والله أعلم .

(٣) ماعنتم : أي مشقتكم .

(٤) أطبقت : اجتمعت

(٥) الجب : قطع ذكر الرجل .

اللحـم والطيب والنســاء ، والترهب على رؤس الجبـال ، فبـلغ ذلك رسـول الله ﷺ فاستخبرهم عما بلغه عنهم ، فأخبروه بصدقه ، فقال : ((أليس لكم فيَّ أسوة حسنة ؟ قالوا بلى)) ، قال : والله ((إني لأعلمكم بالله ، وأتقاكم له[1] ، وإني لأنكح النساء ، وآكل اللحم وأشم الطيب ، وأنه لارهبانية في الإسلام)) فَدعاهم إلى أكمل الحالات .

وإنما سياحة أمتي الصوم ، والجهاد ، وكذلك شرعه ، فإنه كان من جنس سيرته فجمع بين الشدة والدماثة في الأحكام في قوله : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ [البقرة : ١٧٩] وفي العفو مجاناً وأخذ الدية في قوله ﴿ **فمن عُفيَ له من أخيه شيء فاتِّباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسـان ، ذلك تخفيف من ربِّكم** ﴾ [البقرة : ١٧٩] في الدنيا برفع الحرج (ورحمة) في الآخرة بترك المؤاخذة بالذنب ، ودية الخطأ وتخفيفها خاص بهذه الأمة .

وقوله ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبْرك إلا بالله** ﴾ [النحل : ١٢٦ و ١٢٧] وقوله : ﴿ **وأن تعفوا أقرب للتقوى** ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ثم أمره بالعدل في حق العدو ، فقـال : ﴿ **ولايجرمنَّكـم شَنآنُ قوم أنْ صدُّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا** ﴾ [المائدة : ٢] وقال : ﴿ **وإن جَنحوا لِلسَّلْم فاجنح لها** ﴾ [الأنفـال : ٦١] وقال : ﴿ **وإما تخافنَّ من قَوم خِيانةً فانبذ**[2] **إليهم على سواء** ﴾ [الأنفال : ٥٨] ونسخ الوصال بقوله : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ [البقرة : ١٨٧] وقتل النفس في التَّوبة بقوله : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم** ﴾ الآية [النساء : ٦٦] إلى غير ذلك مما لو تتبَّعته لجئت فيه بمجلدات ، إذ العلوم كالوحش المهاج يثير بعضه بعضاً .

قوله : كفى ، يأتي متعدياً ، كقول الشاعر :

كفى المرء نُبْلاً أن تعدَّ معايبهُ

ولازمـاً ، كقـوله: كفى بالفنى قوتاً، إذ من نوع اللازم مالايتعدى إلا بحرف الجر ، كَمَرَّ ، ومنه مالا يتعدى إلا بدخول همزة التعدية ، كقام ، فتقول : أقامه .

---

(١) حديث إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له صحيح رواه الشيخان ولفظ البخاري في كتاب النكاح ، أما والله إني لاخشاكم لله واتقاكم له لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وارقد ، وأتزوج النساء .

(٢) أنبذ إليهم ـــ اطرح عهدهم .

والفنى أصله فاعل إذ اللفظة في قوة كفانا الفنى من جنْس القوت ، كما أن كفى بالله وكيلاً في قوة كفانا الله من جنس الوكلاء وكيلا ، وفناؤها مبتدأ ، خبره قريب ، وضمير المضاف عائد على النفس ، وقصارى المصنف في هذا البيت التزْهيد في المشروب والمأكول ، وذلك لثلاثة أوجه :

أحدها : أن النبي ﷺ كثيراً ماكان يقول : ((حبُّ الطعام من شأن اللئام)) كما أخرجه الإمام السيوطي في جامعة بأسانيد متصلة .

والنهم لاحظ له في مكارم الأخلاق . وفي الجمان مانصه أن النبي ﷺ بينما هو يطوف ، إذ وجد رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة يبكي ، ويتحرَّق ، ويسأل الله بحرمة بيته المكرَّم ، فقال له رسول الله ﷺ : « يامؤمن ، سل الله بحرمتك ، فإن المؤمن أعظم حرمة عند الله من البيت ، فقال : إن لي ذنباً عظيماً ، قال : وماذنبك ؟ فإن الله لايتعاظمة ذنب ، قال : إني رجل ذو مال وثروة من كل ماأتى الله مَن إبل وغنم وبقر وعقار ، وإذا جاءني سائل يسألني ، فكأنما صب على وجهي الملة[1] ، فقال له النبي ﷺ : تنح عني ، لاتحرقني بنارك ، فلو أنك صمت بين الركن والمقام ، وصمت لله عام ، وتفجرَّت من دموعك الأنهار ، حتى سقيت منها الأشجار ، ومتَّ وأنت لئيم لكبَّك الله على وجهك في النار .

فقال : يارسول الله ، إن كان ذلك كذلك فإني أشهدك أني قد انخلعت مما أصبحت فيه ، على أن ينجيني الله من النار ، فقال رسول الله ﷺ : « لاتفعل ، ولكن جاهد نفسك ، أن يذهب الله عنك طبع اللؤم حتى يدخلك الجنَّة ، فإن الله أقْسم حين خلق جنة عدن[2] أن لا يدخلها مشرك ولالئيم ، فقال : يارسول الله سل الله أن يُزيل عني ماأجد من طبع اللؤم ، فدعا رسول الله ﷺ ربه ، فنزال عنه ذلك ، فأخرج ثلث ماله ، وأُقبل على ماله يفعل فيه بماأمره به رسول الله ﷺ على بصيرة حتى أتاه اليقين[3] وهذه معجزة من معجزاته ﷺ ، لأنه

(١) الملا والملة، الرماد الحار.

(٢) عدن ـــ إقامة.

(٣) حديث أن النبي ﷺ بينما هو يطوف إذ وجد رجلاً إلخ حديث باطل لا أصل له، قاله العراقي في تخريج الإحياء (٣/٢٤٩).

مع أن رواية الغزالي تزيد تارة وتنقص اخرى عن رواية الشيخ، إلا أنهما متفقتان في معظم القصة.

يَقُـول : ((إذا سمعت بجبــل زال عن موضعـه ، فلا تكذب ، وإذا سمعت بطبع زال عن صاحبه ، فكذِّب)) وفي رواية : ((تزول الجبال ، ولاتزول الطباع))[1] .

قال الشاعر : ـــمن بحر الطويل)

وكل امرىء يبغي السماحة والندى ولكنَّ طبع المرء للمرء جالبُ

ومن شؤم اللئيم : أن المرتبة الرفيعة لاتزيده إلا خبثاً ، كما أن الكنيف لايزيده وابل المطر إلا نتناً .

وقال أبو بكر الطرطوشي[2] في سراجه : إذا ساد اللئيم أنكر معارفه ، وجفا اقاربه ، وأساء إلى أرباب المناصب ، وكانت ولايته سبب الدمار . وقال ﷺ : ((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها. ويبغض سفسافها[3])) وقال : ((الدنيا رواية ، فليحسن أحدكم روايته)) .

وفي ذلك يقول الشاعر : (من مجزوء الرجز)

ماالدهر إلا خَبَرٌ، فكن حديثاً حسنا وصاحبه بالعبر، تكن كريما ذا سنا

واخلَع جلابيب الخنا، تكرما عن الدنا ماساد إلا من غدا، مشمراً مع العنا

الثاني أن البطنة تذهب الفطنة ، أخرج أبو داود أن الحكمة تهوي من السماء إلى الأرض ، في كل يوم مائة مرة ، ولا تدخل أربعة قُلوب ، قلب فيه حب الدنيا ، وقلب فيه حب الشرف ، وقلب فيه خديعةٌ لمسلم ، وقلب ممتلىء بَطْنُهُ طعاماً[4] .

وقالت عائشة[5] رضي الله عنها : أول بدعة ظهرتْ في الإسلام بعد رسول الله ﷺ

---

(١) حديث: « إذا سمعت بجبل زال » أخرجه الإمام أحمد بلفظ « إذا سمعتم بجبل زال » وهو ضعيف (٤٤٣/٦) وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم (١٣٥) وقال بعد مناقشة محسنية: إنه منكر.

(٢) الطرطوشي ـــ هو محمد بن الوليد بن محمد القرشي الأندلسي أديب من فقهاء المالكية الحفاظ من أهل طرطوشة بشرق الأندلس ولد سنة ٤٥١ هـ ومات سنة ٥٢٠ هجرية.

(٣) حديث « إن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفسافها » رواه الحاكم وأبو نعيم وابن ماجه بلفظ « إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق » إلخ.

وأورده بلفظ الشيخ، صاحب كشف الخفاء تحت رقم (٧٤٣ انتهى.

(٤) لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ.

(٥) عائشة بنت أبي بكر الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها وأمها أم رومان بنت عامر ولدت بعد البعثة بأربع سنين وتزوجها رسول الله ﷺ وهي بنت ست ودخل بها وهي بنت تسع سنين. وقبض بين سحرها ونحرها ماتت سنة ثمان وخمسين ودفنت بالبقيع رضي الله عنها، اصابة (٢٥٠/٤).

الشبَع ، ولقد كان يأتي علينا الهلال ثم الهلال وما أوقدتْ في بيوت آل محمد نار ، إنْ هو إلا التمر والماء ، إلا أن لنَا جيراناً من الأنصار ربما أتونَا بمذق[1] من لبن ، ولقد فارق رسول الله ﷺ الدنيا وماشبع آل محمد من خبز الشعير[2] كيف وأصحاب الصُّفَّة يزيدون على خمسمائة رجل ، وليس لهم أهل ولامال ، إنَّما خرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله ، لم يصحبهم إلا سيوفهم ، فكان رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه يموّنُونهم ، قد حبسوا أنفسهم لله ، ليست لهم حرفة إلا الجهاد ، ومدارسة كتاب الله ، وماأنزل على رسوله ، قال الله تعالى : ﴿ **للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله لايستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياءَ من التعفُّف تعرفهم بسيماهم** ﴾ [البقرة : ٢٧٣] وهو أثر السجود في جباههم ، وصفْرةُ الوجوه ، ونُحول الأجسام ، ﴿ **لايسألون النَّاس إلحافاً** ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ــ أي لايسألون رأساً حتى يلحفوا إلحافاً ، لعلوِّ هممهم ، ورسوخ اليقين في قلوبهم .

منهم من لو أقسم على الله لأبرّه ، قال رسول الله ﷺ ((أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة))[3] .

الثالث : أن التَّعفُّف عن المطعم والمشرب ، من شيم المؤمنين ، قال الرسول ﷺ ((همةُ المؤمن في الصوم والصلاة ، وهمة المنافق في البطن والفرج)) .

ومن فوائد الجوع أنه يكسر شهوة الفَرج ، ويرقِّق القلب ، ويعينُ على قيام الليل ، قال رسول الله ﷺ ((الجوع نُور ، والشبع ظلمة ، وماأفسد القلب شيء ماأفسده دوام الشبع)) .

ولذلك جعل الله الصوم من قواعد الإسلام ، وقال ﷺ : ((الجوع من أخلاق الأنبياء ، والشبع من أخلاق المشركين)) .

قال الله في نَعْت آل فرعون ﴿ **كم تركوا من جَنَّات وعيون وزروع ومقَام كريم ونعمة**

---

(١) المذق: اللبن ممزوج بالماء.

(٢) حديث عائشة أول بدعة ظهرت في الإسلام إلخ.. حديث صحيح رواه أحمد وابن ماجة بألفاظ تختلف قليلاً عن لفظ الشيخ وأوله عند ابن ماجه « ان كنا آل محمد لنمكث شهراً ما توقد فيه بنار، قال في الزوائد إسناده صحيح وقد روى مسلم طرفاً منه (١٣٨٨/٢) ابن ماجه، والله أعلم.

(٣) حديث « أكثر الناس شبعاً في الدنيا » الخ. رواه الطبراني وأبو نعيم بلفظ « إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة » إلى آخره. قال العراقي في تخريج الإحياء إسناده ضعيف (٨٠/٣) والله أعلم.

كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكتْ عليهم السماء ﴾ [الدخان : ٢٥ ــ ٢٩] لقلة مايصعد إليها منهم من الأعمال ، بل لايصعد لهم عمل لكفرهم بالله ، ولاتشهد لهم الأرض بعمل صالح ، بخلاف المؤمنين ، فإنه تبكي عليهم من الأرض مواضع سجودهم ، ومن السماء أبواب أعمالهم ، وأبواب أرزاقهم ، قال الرسول ﷺ : ((مامن مؤمن إلا وله بابان في السماء ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل عليه منه رزقه ، فإذا مات بكى عليه باباه من السماء ، ومواضع سجوده من الأرض أربعين صباحاً))[1] .

واختلف في معنى بكائها ، فقيل : هو البكاء ، وذلك أن يخلق الله فيها إدركا وشوقاً ، فيبكيان حقيقة كما حَنَّ الجذع حين فقد سماع الذِّكر والموعظة من رسول الله ﷺ ، وهو أولى لخلوِّه من التكلُّف والتأويلات ، لموافقته لظاهر القرآن . وقيل : بكاء السماء حمرة أطرافها .

ولما استسقى فرعون ، وجاءت أنهار النيل معه . قال : ﴿ **أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي** ﴾ [الزخرف : ٥١] إلى أن قال : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين** ﴾ [الزخرف : ٥٢] معناه لايجد من المال والقُوت مايقع منه موقعاً ، ولم يعلم أن ذلك فخر في حق الرسل .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقد أجمع الأولياء أن صلاح الدين بصلاح اللقمة ، وفساده بفسادها ، مستدلين بقوله ﷺ ((من أكل الحلال ، أطاع الله أحب أم كره ، ومن أكل الحرام عصى الله أحب أم كره))[2] وقوله الله ﴿ **يأيها الرُّسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين .

---

(١) حديث « ما من مؤمن إلا وله بابان » الخ.. حديث ضعيف رواه الترمذي وأورده السيوطي في جامعه ورمز له بالحسن إلا أن الترمذي قال فيه غريب لايعرف إلا من طريق موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي وهما ضعيفان وقد انتهى لفظ السيوطي عند قوله « فإذا مات بكيا عليه ».

(٢) حديث « من أكل الحلال أطاع ا» » الخ.. لم أجده هكذا ــ إلا أن أبا نعيم في « الحلية » روى « من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه » الخ.. ــ وعنه الغزالي في الإحياء قال العراقي منكر (٢/ ٩٠).

يروى ((أنه من أكل لقمة من الحرام ، أفسد الله عليه أربعين صلاة ، ، ومن لبس ثوباً فيه دانق من حرام ، لم يقبل الله منه صلاة مادام لابسه))[1] .

ولذلك قال ﷺ : ((ماملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، فإن كان لابد ، فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنَّفس)) .

وفي رواية ((بحسب ابن آدام لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لابد ، فثلث للطعام ، وثلث للشراب، وثلث للنفس))[2] .

قال ابن الخطيب[3] في المواهب : لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة ، وهذا من جوامع الكلام التي لم يسبق إليها ولم يأتِ أحد قبله ولابعده بمثلها .

ومن فوائد الاقتصاد في طلب الرزق ، وجود الغنى ، قال رسول الله ﷺ : ((ماعال[4])) من اقتصد[5] وقال الله في مدح المقتصدين : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا**

---

(١) حديث « من لبس ثوباً فيه دانق من حرام » الخ.. حديث ضعيف رواه أحمد وعنه الهيثمي وفيه زيادة ثم ادخل اصبعيه في أذنيه ثم قال صمتا إن لم يكن النبي ﷺ سمعته يقوله: قال الهيثميّ وهاشم لم أعرفه وبقية رجاله وثقوا وبقية مدلس (٢٩٢/١٠) مجمع وأول الحديث عند أحمد « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم، وفيه درهم حرام » الخ..

(٢) حديث « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » الخ.. حديث حسن رواه الترمذي والنسائي وأورده الغزالي بلفظ « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للتنفس ». قال العراقي حسن (٤/٢) إحياء وهو حديث واحد.

(٣) ابن الخطيب: هو محمد بن عبد الله بن سعيد الشهير بلسان الدين وزير ومؤرخ أديب ولد ونشأ بغرناطة خرج من الأندلس وعاش في فاس ثم سجن بها ويقال إنه قتل خنقاً في السجن هناك ولد عام ٧١٣ ومات ٧٧٦ هـ له نحو من ستين مؤلفاً، ويقصد تقسيم المعدة الوارد في الحديث المتقدم.

(٤) عال: افتقر .

(٥) حديث ما عال من اقتصد ـــ جزء من حديث ـــ موضوع أخرجه الطبراني ولفظه ـــ ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد (٢٠٤/!) ورمز له السيوطي بالحسن إلا أن شارحه المناوي قال: قال الطبراني لم يروه عن الحسن إلا عبد القدوس بن حبيب تفرد به ولده قال ابن حجر في التاريخ وعبد القدوس ضعيف جداً وقال في الفتح أخرجه الطبراني بسند واه جدا وقال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن طريق عبد السلام بن عبد القدوس وكلاهما ضعيف جداً هـ(٤٤٣/٥) مناوي ـــ كما أورده صاحب الكشف وقال بعد أن ساق له شواهد فهذه الشواهد تقتضي حسن الحديث (١٨٠/١) وأورده الألباني في الموضوعات له تحت رقم (٦١١) وقال موضوع اهـ والذي يظهر لي أن الحديث موضوع لتفرد ولد عبد القدوس عنه به وعبد القدوس الجد كذاب وولده متهم بالوضع كما ذكر ابن حبان والله أعلم.

ولم يقـتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ [الفرقان:٦٧] وقال : ﴿ وكلوا واشـربوا ولاتُسرفُوا إنه لايحب المســرفين ﴾ [الأعراف : ٣١] وكفى بعدم حبـه زاجراً عن الإسـراف . وما في معناه ، لأن الله يقول في مدح المؤمنين : ﴿ يُحِبُّهم ويحبُّونه ﴾ [المائدة : ٥٤] فلا حياة ولا عيشـة للعبد إلا بحب الله إياه ، إذ لا حياة للإنسـان البتة إلا بعمارة أوقاته بطاعات الله ولافائدة للطـاعات بدون المحبـة ، إذ هي الروح . قال ابن[1] عطـاءَ الله ، برد الله ضريحه الأعمال أشخاص قائمة ، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها ، ومنها استدعاء السلامة[2] .

يروى أن بعض مريدي الثوري[3] قال له يوماً : هَلاَّ أخذتِ بُلغة من الحلال ، فقال له الثوري : إن في الخبز والماء بلغة ، ثم قال لمريده : هلم فلنذهب إلى بيوت السجن ، فلما أتياها إذا هما بقوم يصـلبُون ، وبآخرين تضرب أعنـاقهـم ، وإذا هما بآخرين يعذَّبون بأنواع من العذاب ، فقال الثوري لصاحبه : أيهما أحب إليك ؟ ماأنا فيه ، أو ما ترى ؟ فقال : الموت في عافية أحب إلى مما أرى ، فَضْلاً عما أنت فيه من ضيق العيش ، فقال له : أما إنهم لو رضوا بالخبز والماء القراح ، لما أصابهم مارأيت من العذاب الأليم ، ثم أنشد فقال : (من مجزوءالمجتث)

خُـــبزٌ ومـــاء وظِـــلٌّ ذاك النَّـــعيم الأجُـــلُّ
كفـــرتُ نعـــمـــة ربي إن قُـــلتُ إني مُقِـــلُّ

وفي التوراة : يا بن آدم لاتأنس بغيري ، فأنا لك ماطلبتني ، وإن أنست بغيري مقتك وفَاتك خيري ، يا بن آدم خلقتك لعبادتي ، وضمنت رزقك ، فلا تتعب ، وفي أكثر منه فلا تطمع ، ومن أقَل منه فلا تجزع ، فإن رضيتَ بما قسمتُ لك ، أرحت قَلبك وبدنك ، وكنت عندي محموداً ، وإن أنت لم ترض بما قسمتـه لك ، لأسـلطنَّ عليك الدنيا تركض فيها كما يركضُ الوحشُ في البر ، ولا ينالك منها إلا ماقسمته لك وأنت عندي مذموم ، يا بن آدم إنك محب فبحقي عليك ، كن لي محباً ، يا بن آدم لاتطالبني برزق غد ، فلا أطالبك بعمل غد .

---

(١) ابن عطاء الله هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم السكندري متصوف شاذلي عالم من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية له عدة مؤلفات في التصوف توفي عام ٧٠٩ هجرية بالقاهرة (٢١٣/١) اعلام.

(٢) هكذا ورد في الأصل ــ استدعاء.

(٣) الثوري ــ هو سفيان بن سعيد الثوري أمير المؤمنين في الحديث سيد أهل زمانه في العلم والتقوى ولد ونشأ بالكوفة ثم ذهب إلى المدينة ولما طلبه المهدي توارى في البصرة وبها مات مستخفياً عام ١٦١ هجرية رحمه الله.

ولايستقيم شيء مما تقدم إلا بالقناعة إذ هي الكنز الذي لاينفد، والعز الذي لايحد كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَنْ عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبة ﴾ [النحل: ٩٧] أن المراد بها القناعةُ.

يروى أن داود[١] الطائي أصابته فاقة، فجاءه حماد بن ابي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، قال: هي من مال رجل لاأقدِّم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبلتها تعظيماً للميت، وإكراماً للحي، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة.

كان عبد الله بن مرزوق نديم المهدي[٢] فكسل يوماً، ففاتته الصلاة، فجاءت جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله فتنبَّه مذْعوراً، فقالت له: كيف لاتصبر على جمرة من نار الدنيا، وتتعرض لنار الآخرة بترك الصلاة؟ فقام فصلى الصلاة وتصدَّق بجميع مايملكه، فذهب وجعل يبيع البقل ليتقوَّت بخالص الحلال. لإفطاره وصلواته، فأتاه ابن عيينة والفضل، فقالا له: ماعوَّضك الله مما تركت له. قال: الرضى بما أنا فيه، وقد أتياه وهو متوسد حجراً، وليس بينه وبين الأرض حائل.

وإذ أراد الله بعبد خيراً، ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقّهه في الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد الله بعبد شراً، حبَّب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بدنياه، ووكله إلى هواه، فخبط في الأمور خبط عشواء، وغاب عن الحقائق غيبة نشوى.

واعلم أن الناس في الخير أربعة لاخامس لهم، منْ يفعله ابتداءً، ومن يفعله اقتداءً ومن يتركه حرماناً، ومن يتركه استحساناً، فمن فعله ابتداءً، فهو كريم. ومن يفعله اقتداءً، فهو حليم، ومن تركه حرماناً، فهو شقي، ومن تركه استحساناً. فهو دنيء.

ومن أعظم فوائد القناعة، والأكتفاء بالبلغة، أنها تقي وجه الكريم من قبول مِنّة اللئيم.

قال علي كرم الله وجهه:

---

(١) داود الطائي ــ هو داود بن نصر الطائي من أئمة المتصوفين مولده بالكوفة اعتزل الناس للعبادة بها له أخبار مع أمراء عصره مات عام ١٦٥ هجرية.

(٢) المهدي ــ هو محمد بن عبد الله المنصور. ثالث خلفاء بني العباس في العراق لبث في الخلافة عشر سنين وكان محبباً للرعية جواداً حسن الخلق مات عام ١٦٩ صريعاً عن دابته.

اللهم لاتجعل للئيم عليَّ يداً . وفي ذلك يقول الشاعر (المجتث)

المـوتُ أسـهـل عنـدي ... بـين القنـا والأسِـنَّـةْ
والخيـل تجري سِـراعـاً ... مُقَـطـعـات الأعِنَّـةْ
من أن يكـون لِنـذْلٍ ... عـلـيَّ فَضْـلٌ ومِنَّـةْ

وقال غيره : (من بحر الطويل)

تسـربلتُ سِـربـال القَنـاعة والرِّضَى ... صبيّـاً وكانـا في الكهـولة ديـدني
وأعظـم منْ قَطـع اليـدين على الفتى ... صنيعـةُ برٍّ نـالهـا منْ يَدَيْ دني

وقالت سفانةُ[1] بنت حاتم لرسول الله ﷺ لما منَّ عليها ، فأخدمها ، وكساها وحملها : لاجعل الله للئيم عليك يداً ، ولاسلب من كريم قوم نعمة إلا جعلك سبباً لردّها إليه . قال الشاعر : (من بحر الطويل)

كسوتُ جميل الصبر وجهي فصانه ... بثـوب عن غِشيـان بـاب بخيـل
فمـا عشتُ لم آت البخيـل ولم أقم ... على بـابـه يومـاً مقـام ذليـل[2]
وإن قـليـلاً يسـتر الوجه أن يُرى ... إلى النـاس مبذُولاً لَغَيْرُ قليـل

وبالله التوفيق . قال الناظم برَّد الله ضريحهُ :

١٥ ــ رزِقْتَ الحَيَـا كُنْ لِلْحيـاءِ مُلازِماً ... فَـبـعـدَ الْجَـلا يُخْشَـى عَـلَيْكَ جَـلاءُ

قوله : رزقت ، مبني للمفعول ، وهو للدعاء ، والحيا بالقصر والفتحْ : الغيثْ ، وسمي بذلك لأنَّ به حياة الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ **والله أنْزل من السماء ماءً فَأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ [النحل : ٦٥] ﴿ **وجعلنَا من الماء كل شيء حي** ﴾ [الأنبياء : ٣٠] وقال تعالى لما أهلك قوم نُوح بالطوفان : ((أنا الملك الأكبر ، خلقت الخلق من الماء ، ورزقْتُهم بالماء ، وأهلكتهم بالماء)) .

فالماء واحد . والتخصيصات مختلفة ليُعلم خلقَه عدم تأثير العوائد ، وأن تصريف ذلك كله بأمره ، فَيخْلُق مايشاء عندما يشاء .

وللحيا حالات مختلفة ، فأول مطرة تُسمى الوسْميَّ ، والثانية الولي ، والثالثة الآتي .

---

(١) سفانة بنت حاتم الطائي ــ الجواد المشهور ــ أصابتها خيل رسول الله ﷺ فطلبت منه أن يمن عليها ففعل ولما ذهبت أسلمت وحسن إسلامها.

(٢) هذا البيت غير موجود في النسخة ــ أ ــ وأثبتناه من النسخة (ب).

وله أسماء : منها الجون ، وهو الأسود الكثيف الدقيق القطر ، والوابل وهو الشديد القطر المنسكب بقُوة ، وربما جاء صحبته رعدٌ قَاصف ، والوكف وربما قيل له : الواكف ، وهو الذي يأتي عوارض[1] ، والودق ، وهو الذي يصاحبه البَرَد ، وبرقه يُعْشِي البصر ، قال الله تعالى : ﴿ **يكاد سنا بَرْقه يذْهب بالأبصار** ﴾ [النور : ٤٣] والجود وهو الذي يأتي من كل ناحية ، ولايكون معه ريح ولا صواعق ، والغوادي ، وهو الذي يأتي ضحىً ، ولايكثر مجيئه إلا في سنة الخصب .

قال الشاعر : (من بحر الكامل)

لايَبْعُدَنْك ربيعة بن مُكرم وسقَى الغوادي قَبرهَ بذَنوب[2]

والهطلاء وهي التي تُروي الأرض منْ غَير أذى ، والسماء ، وهي الكثيفة التي لارعد فيها ولا برق ، والديمة ، وهي التي تقيم أسبوعاً من غير إقلاع ، وربما أنْبَتَتْ الأرضَ في أثنائها ، والساريةُ ، وهي التي تأتي آخر الليل ، والرش ، ويكون بعد الوبل وقَبله ، وربما جاء بدونه ، والطَّشُّ ، دون الرش ، والرذاذ ، دونهما ، وأعظمه بركةً ماكثر مزاجه ، وأقله بركة ماقل مزاجه ، ومالم يُمزَج لابَركة فيه ، وهو الذي ييبس النبات ، قال ﷺ ((إن الله يحيي القُلوب الميتة بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر)) وسماها الله رحمةً ، لأنه الجزء الذي أرسل إلى الدنيا من تَجزئة مائة جزْء ، فأمسك عنْده تسعاً وتسعين ، وارسل منْها جزءاً واحداً إلى الدنيا ، فيهِ يتراحمون ، وبه يتواصلونَ ، فإذا كان يوم القيامة ضم الواحد إلى التسع والتسعين ، فأكملها مائة لعباده المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها** ﴾ [الروم : ٥٠] أخْرج البغوي بإسناده إلى رسول الله ﷺ أنه قال ((من أصابتْه علة أعجز الأطباء شفاؤها ، فليطلب منْ زوجته أن تُعطيه شيئاً من صداقها عنْ طيب نفس ، وليشتربه عسلاً ، وليكتُب به آية من كتاب الله ، وليمحها بماء المطر)) فيجمع بين الهناءة والمراءة بقوله تعالى : ﴿ **فإن طبن لكم عنْ شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً** ﴾ [النساء : ٤] والشِّفاء بقوله : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ [النحل : ٦٩] والرحمة بقوله : ﴿ **ونُنزل من القرآن ماهو شفاء ورحمةٌ للمؤمنين** ﴾

---

(١) عوارض ــ السحب المعترضة في الأفق.

(٢) الذنوب ــ الدلو الكبيرة التي لها ذنب .

[الإسراء : ٨٢] والبركة بقوله : ﴿ **ونزَّلنا من السماء ماءً مباركاً** ﴾ [ق : ٩] ولْيَشْربْهُ أو ليدهن به ، فَإنَّ الله تعالى يعافيه منها كائنة ماكانت .

وكان ﷺ يبرزُ لأول المطر حتى يبتلَّ ، فقيل له في ذلك ، فقال : ((أحبه لأنه قريب عهد بالله)) .

وكان يدعو في الغيث ، ومن دعائه ((اللهم سقيا رحمة لاسقيا عذاب ، ولا سحق ، ولامحق ، ولاخسف ، ولاقذف ، اللهـم صيبـاً نافعـاً ، اللهـم اسقنـا الغيث وانصرنا على الأعداء)) وإذا اشتد وقعه قال : ((اللهم لاتُسحقنا بعذابك ، ولاتهلكنا بغضبك ، وعافنا بعد ذلك)) وفي رواية ((قَبـل ذلك)) ويقول عند جلجلة الرعد . ((سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته)) وإذا لمع البرق قال ((الله أكرم من كل كريم)) وإذا هبت الريح قَال ((اللهم اجعلها علينا رياحا ، ولا تَجعلها ريحاً اللهم إني أسألك خيرها ، وخير مافيها ، وخير ماأرسلتْ به ، وأعوذ بك من شرِّها ، وشرِّ مافيها ، وشر ماأرسلت به)) .

وإذا رأى مخيلة[1] في السماء ، جعل يَدْخل ويخرج ويتغير حتى يعرف ذلك في وجْهه ، فقيل له في ذلك ، فقال : ومايُدريكم لعله كما قال : ﴿ **فلما رأَوْه عارِضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا** ﴾ [الاحقاف : ٢٤][2] .

وكان يأمر أصحـابه بالدعاء عند نزول المطر ، ويخْبرهم أن الدعاء حينئذ مستجاب انتهى . وذلك لأنها ساعةٌ يفتح فيها الكريم خزائن رحمته ، والكريم إذا جاد عَمَّ بنواله ، قال الرسول ﷺ : ((إن لله نفحات فتعرَّضوا لنفحاته ، فإن ساعة منه تغنى الجميع)) يروى أن قاطعاً وعابداً من بني إسرائيل ، عبد العابد سبعين سنة ، وقطع القاطع سبعين سنة ، فخرج عيسى يوماً فرآه العابد ، فنزل إليه من صومعته ، فرآهما القاطع فقال : عابد ونبي اجتمعا ، فلعل الله أن ينظر إليهما بعين رحمته فيصيبنى نصيب منها ، فأقْبل حتى جلس إليهما ، فلما رآه

(١) المخيلة ــ السحابة التي يخال فيها المطر.

(٢) حديث « كان ﷺ إذا رأى في مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج» الخ. حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق كما رواه مسلم والترمذي والنسائي، ولفظ البخاري: كان ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج. وتغيَّر وجهه. فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرَّفته عائشة ذلك فقال وما أدري لعله كما قال قوم. فلما رواه عارضاً مستقبل أوديتهم الآية اهـ.

ــ والمراد بالقوم عاد قوم هود.

ابد اشمأزَّت نفسه ، فقال : ياعيسى أتدري من الجالس معنا ؟ قال : نعم ، هو قَاطع بني
سرائيل ، قال : أفطابت نفسك أن يكون جليسنا ؟ قال : دعه ، فلعل الله يصيبه بواسع
سله ورحمته ، فبينما هما يتقاولان في أمره ، إذ نزل جبريل فأمر عيسى أن يبشِّر القَاطع أنه
رهما في الجنة ، ففرح عيسى ، وأخبرهما ، فقال العابد : لاحاجة لي بجنة هو فيها ، فقال
ريل : إن الله قد أعطى القاطع عملك سبعين سنة ، وحطَّ عليك سيئاته ، فعانده إن
تطعت معاندته[1] .

ومن أسمائه[2] أيضاً السماء ، قال الله تعالى : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾
الذاريات : ٢٢] واستدل من فسرها بذلك بقول الشاعر : (من بحر الخفيف)

إذا نــزل السماء بــأرض قَــوم رَعْيــنَــاه وإن كانــوا غِضــابــاً

وفي الأثر : أصبح النبي ﷺ على إثر سماء ، فقال : أصبح النَّاس اليوم مؤمناً وكافراً ،
من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فهو مؤمن بالله كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا
ء كذا وكذا ، فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب[3] .

قال ابن حجر[4] : اختلف في هذا الكفر ، فقال أهل الظاهر : هو الكفر بالله صريحاً
سبة التأثير لغير الله ، ولتكذيبه كتاب الله في موضعين هما قوله تعالى : ﴿ **قُل من يرزقُكم**
السماوات ﴾ [سبأ : ٢٤] بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ((قُل الله)) وقوله : ﴿ **أفَرأيتُم**
ء الذي تَشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ [الواقعة : ٦٨ و ٦٩] وقال

---

(١) ما أجدر هذه القصة بالوضع، وعلى كل حال فهي من الإسرائيليات التي تسربت إلينا من مصادر
علم عنها شيئاً.

(٢) الضمير عائد على المطر.

(٣) حديث أصبح الناس اليوم الخ.. حديث متفق على صحته رواه البخاري في صفة الصلاة ومسلم في
يان ولفظ مسلم: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف
ل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي
فر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا
ذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب.

(٤) ابن حجر ــ هو أحمد بن علي بن محمد العسقلاني الكناني من الأئمة الحفاظ المتقنين وله كثير من
لفات النافعة من أهمها فتح الباري شرح البخاري » و « الاصابة في تمييز أسماء الصحابة » و « تقريب التهذيب »
ر ذلك ولد ونشأ بالقاهرة وبها توفي رحمه الله عام ٨٥٢ هجرية .

المحققون : إنَّما هو كفران الشكر لتشبهه بالمشركين في الاستسقاء بالأنواء ، مستدلين بقو
ﷺ : ((ثلاثة من أمر الجاهلية ، لاتتركها أمتي ، الاستسقاء بالأنوار ، والطعن
الأنسياب ، والنياحة))[1] فنسبهم إليه ، وسمَّاهم أمته مع ذلك ، ولو كانوا كافرين لما سماه
باسم أمته .

وذهبتْ طائفة إلى التفصيل ، فمن نسب التأثير إلى الكوكب حقيقة ، فهو كا
مجوسي من غير خلاف كسائر المشركين القائلين في حق آلهتهم ﴿ **مانعبُدهم إلا ليقرِّبُونا إ**
الله زلفى ﴾ [الزمر : ٣] وتوحيد النصارى مع قولهم : عيسى ابن الله قال الله تعالى
﴿ **ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ [يوسف : ١٠٦] وأما من نسب التأثير إ
الله حقيقة وجعله مؤثراً تأثير الأسباب في مسبباتها يقوي طمعه منه ويضعف في غير ذلك م
الأزمان وحقَّق عجز الكوكب وأنه حجر كسائر الأحجار لاينفع ولايضر ، وأنه مسخر بأم
الله تعالى كما قال : ﴿ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَر والنُّجوم مسخراتٌ بأمره** ﴾ الآية [الأعراف
٥٤] إلا أنه يقُول : إن الله ربما أرسل المطر زمن طلوع الثريا ، وزمن النثرة في بعض الأقال
كالحجاز ، لايرى له تأثيراً لايزيد طلوعه قُوةً في رجائه ، ولا ينقص بعدمه ، يرى ذلك
كفيضان النيل وغيره ، كعادة المدِّ والجزر ، فهو مؤمن من غير شك ولاارتياب ، ولعله المعن
بقوله ﷺ : ((ثلاثة لاتتركها أمتي)) الخ[2].

وأما من لا التفات له إلى شيء من العادات ، فهو مؤمن حقاً . قال الغزالي[3] ف
((الإحياء)) من كان رجاؤه يقْوى بتراكم المزن وهبوب الجنوب وسماع الرعد ، فليس بمؤمن
بل مشرك قائم مع العوائد ، ضعيف اليقين ، لأن من رأى المال ورأى الرزق منه ، فهو كافر

---

(١) حديث « ثلاثة من أمر الجاهلية.. الخ » رواه الطبراني في « الكبير » من حديث عمرو بن عوف المزني
ومن حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه. وهو حديث صحيح، يشهد له حديث مسلم الذي رواه أبو مالك
الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لايتركونهن. الفخر في
الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة ».

(٢) تقدم تخرج هذا الحديث

(٣) الغزالي: هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي العالم الصوفي الجليل له مؤلفات
أهمها « إحياء علوم الدين » ولد في مدينة طوس بخراسان عام ٤٥٠ وتوفي بها عام ٥٠٥ هجرية، رحمه الله.

من رأى المال ورأى أن الرزق منه ومن الله ، فهو مشرك[1] ومن رأى المال ورأى أن الرزق من الله لامنْه ، بل عاريَّةٌ بيده ، ووديعة استخلفه الله عليها لينظر كيفَ يخلفه فيها ، فهو مؤمنٌ حقاً ، قال الله تعالى : ﴿ **وأنفقُوا مما جعلكم مستَخلفين فيه** ﴾ [الحديد : ٧] ومن أسمائه أيضـاً الغيث قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذي يُنزِّل الغيثَ منْ بعدما قَنطُوا** ﴾ [الشورى : ٢٨] ومما كان ﷺ يقول بعد صحو المطر : ((أيما قوم مطروا فقد رحموا ، مطرنا والحمد لله رب العالمين)) ويظهر الاستبشار والفرح ثم يقول : ((اللهم ماخولتنا به منه فاجعله لنا عوناً على طاعتك ، الحمد لله الذي بنعمتـه وجلاله تتمّ الصـالحات)) وإذا خيف ضرره قال : ((اللهم حوالينا ولاعلينا ، اللهم على الآكام ، والظراب[2] ، ومنابت الشجر[3])) .

فإن قلت : هل تكلم النبي ﷺ بشيء من العوائد ؟

قُلتُ : نَعـم منْهـا حديثـه المشهور : ((إذا تيامنتْ بحرية ، ثم تشاءمت فتلك عينٌ غديقَة))[4] وقوله : ماهبت الجنوب قط إلا وسال وادي . وقال : هاجت الريح لموت منافق وقوله : كُفُّوا صبيانكم عنْد فحمة العشـاء ، فإن للجن في تلك الساعة انتشاراً[5] . وقوله

---

(١) هذا كلام: غير مسلم ويحتاج إلى توضيح، لأن اطلاق الكفر على غير الكافر أمر خطير للغاية ولعله خطأ، والله أعلم.

(٢) الظراب: جمع ظرب الرابية الصغيرة.

(٣) حديث: اللهم حوالينا ولا علينا الخ. جزء من حديث متفق على صحته أوله أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة الخ، رواه البخاري في الاستسقاء في باب الدعاء في الاستسقاء، كما رواه غيره، والله أعلم.

(٤) حديث: إذا تيامنت بحرية ثم تشاءمت الخ رواه مالك رحمه الله في موطئه بلاغاً بلفظ: « إذا انشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة قال ابن عبد البر لا أعرف هذا الحديث بوجه في غير الموطأ إلا ما ذكره الشافعي في الأم عن محمد بن ابراهيم بن أبي يحي عن إسحاق عن عبد الله أن النبي ﷺ قال: إذا نشأت بحرية ثم استحالت شامية فهو أمطر لها قال وابن يحي وإسحاق ضعيفان لايحتج بهما (١٥٤/٢) زرقاني وعلى كل حال فهذا من البلاغات الأربعة التي قال فيها ابن عبد البر إنها لاتعرف: قال إن جميع ما في الموطأ من قوله بلغني مما لم يسندهُ وجدت مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة لاتعرف هي:

١ ــ حديث إني لا أنسى. ٢ ــ حديث أن النبي ﷺ رأى أعمار الناس الخ..

٣ ــ قول معاذ: آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ وقد وضعت رجلي في الغرز.

٤ ــ حديث إذ نشأت بحرية الخ.. (١٣/٢) رزقاني.

(٥) حديث: « كفُّوا صبيانكم » الخ، رواه أبو داود والعسكري وعنهما السيوطي تحت رقم ٦٢٦٧ ورمز له بالصحة ولفظ العسكري فواشيكم حتى تذهب فحمة عتمة العشاء، والله أعلم.

تعالى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً[1] ﴾ [النبأ : ١٤] فالإيمان يخرجه الله من بين
فَرث الشرك ودم الشك خالصاً من شيوب العادات ، مخلصاً من تَشْويش المعاداة ، قال الله
تعالى : ﴿ منْ بين فَرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ [النحل : ٦٦] وفيه من
الاشتراك ، الحياء : النبات ، والحياء : الفرج .

قوله : ــ كن فعل أمر من كان الناقصة وللحياء بالمد متعلق بكن ملازماً ــ خبرها
واسمها مستتر وجوباً ، والحياء بالمد ضد الفحش لقوله ﷺ ((لو كان الحياء رجلاً لكان رجل
خير ، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء[2])) وقيل هو ضد الوقاحة .

قال الشاعر : (من الوافر)

إذا رزق الفتى وجهاً وقُوحاً ... تصَّرف في الأمور كما يشاء

وهو مقتبس من قَوله ﷺ ((إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ
فاصنع ماشئت[3])) ومنه قوله تعالى : ﴿ اعملوا ماشئتم ﴾ [فصلت : ٤٠] والكل بمعنى
التهديد ، والتهديد وعيد شديد في طي مسامحة وتمهيد . والحياء سُلَّم النجَاة ، ومنْبع الخَيرات
وهو انكسار يلازم النفوس الشريفة ، يصونها عن الميل إلى سفساف الأمور ، ويمنَعها من طلب
الحظِّ والأجور ، قد خشعت تحت أنوار الجلال وتلذَّذت بنفحات الجمال ، فهي بالله ولله في
جميع الأحوال ، يعزُّ عليها أن يراها فيما عنه نهاها ، أو يفقدها من حيث مأمرها يزعها[4] اللُّؤ
والعار لامخافة النار .

يروى أن حَاتِماً الأصم[5] كان متواصل الأحزان ، فقيل له : أيسرك أن لو جاءتْك منْ

---

(١) الثجاج: السيال شديد الانصباب.

(٢) حديث لو كان الحياء رجلاً الخ.. حديث مؤلف من حديثين الأول « لو كان الحياء رجلاً لكان
صالحاً » والثاني « لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء » ــ وكلاهما ضعيف:

الأول رواه الطبراني والخطيب ورمز له السيوطي بالضعف وقال المناوي فيه ابن لهيعة وهو لين (٣٢٢/٥)
أما الثاني فرواه الطيالسي وأورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ٢١١٢ وقال فيه وهو ضعيف اهـ.

(٣) حديث إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى الخ.. صحيح رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه
وأحمد، أما البخاري فهو عنده في كتاب الأدب باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت وقد ذكر المناوي على الجامع أن
كلمة الأولى ليست في البخاري (٥٤٠/٢) وهو وهم منه رحمه الله. والله أعلم.

(٤) يزعها ــ يمنعها.

(٥) حاتم الأصم: هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم زاهد اشتهر بالورع له كلام مدون في

ربِّك براءةٌ من النار ؟ قال : ماباليتُ بالنار قط ، وإنما يحزنني خوف الفضيحة على رؤوس الأشهاد ، أو يخجلني بأنه رآني حيث نهاني ، وإذا لم يرني حيث نهاني ، فإني لاأبالي أفي جنته أسكنني أم في نَاره ، إذ إنما أنا عبده .

ويبلغُ الحياء من الرجل حتى إنه ليستحي من نفسه أن يراها في غير لائق ، كما يستحي من غيره أن يراه على ذلك . وقال ﷺ ((الحيـاء شعبة من الايمان)) [١] وقال لامُرُوءَةَ لمن لادين له ، ولا مروءة لمن لاحياء له ، ولادينَ لمنْ لامروءة له .

قال الشاعر : (من بحر الوافر)

فــلا والله مــا في العـيش خـير ولا الدنيــا إذا ذهب الحيــاء

وقال ﷺ ((الحياء حسن ، وهو في النساء أحسن ، والفحش قبيح ، وهو في النساء قبح)) وقال : ((الحياء لايأتي إلا بخير)) [٢] نعم ذلك في الحياء من حيث هو حياء حقيقي ، غير أن تحتـه نَوعاً يغْتَر به الجاهل يحسبه حياءً لشبهه به ، وإنما هو الوهن ، وهو الذي يمنع الإنسان من اقتناء مالا بد له منه ، مما يحسب الجاهل أن تركه من باب الحياء ، كتركه الغسل من الجنابة في الملإ حتى يفضي به ذلك إلى الصلاة بالجنابة ، والأكل عليها وكذلك ترك مالا يعلمه مما يستحي من الكشف عنه ، كالمذي ، والحيض ، والاستمناء ، وغير ذلك .

ومنْ ذلك تَحرجه من أن يصلي في آخر الوقت ، والناس ينظرون إليه مخافة أن ينسبوه إلى التهاون بالصلاة ، حيث منعه مانع من صلاتها في أول الوقت ، وكذلك تقصيره عن أخذ حقه حيث خاصم أو خوصم ، لأن الله ذَمَّ النساء بعدم البيان في الخصام فقال : ﴿ **أو من يُنشَّأُ في الحلية وهو في الخصام غير مبين** ﴾ [الزخرف : ١٨] فذم الرجال بذلك من باب أحرى ، وقال الله تعليماً لعباده : ﴿ **والله لايستحي من الحق** ﴾ [الأحزاب : ٥٣] وهو أن يعبِّر عن الزنى واللواط والوطء في حالتي الحيض والإحرام ، إلى غير ذلك ، وقال ﷺ لما أراد أن يعبِّر عن

الزهد والحكم ــ من أهل بلخ جاء إلى بغداد واجتمع بالإمام أحمد، وشهد بعض معارك الفتوح وكان يقال له: لقمان هذه الأمة مات عام ٢٣٧ هجرية رحمه الله.

(١) حديث « الحيـاء شعبـه من الإيمان » الخ.. هذا جزء من حديث متفق على صحتـه رواه البخاري ومسلم، وأوله الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة. رواه البخاري في كتاب الإيمان ومسلم في الإيمان كما رواه باقي الجماعة باختلاف في العدد. والله أعلم.

(٢) حديث ــ الحياء لايأتي إلا بخير ــ متفق على صحته رواه البخاري في كتاب الأدب كما رواه مسلم.

أشياء تَتَعلق بالسوأتين ((إن الله لايستحي من الحق وإنَّما أنا أبُوكم أُعلِّمكم كما يعلِّم أحدكم ولده ، إن الشيطان ليأتي أحدكم فَيلوي شعرة من دبره ليفْسد عليه صلاتَه ، فمَن وجد ذلك فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً[(١)])) وقال ﷺ ((من تعزَّى عليكم بعزاء الجاهلية فأَعِضُّوه بِهَنِ أبيه ولاتكنوا)) انتهى[(٢)] وهو أن تقولوا له كما قال بلفظ الأير .

وأما الأمور التي تُنافي الحياء ، فذكر الفروج بالأسماء المستْقبحة عند العرب من غير ضرورة ، والتعبير عن الوطء بما يستقبح سماعه ، والإكثار من السب واللعن ، والكشف عن مساوىء الجيران والرفقاء ، وترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر عندما تعاين موجباته ، وحرمان الجار والتهاون بأمر الضعيف ، واحتقَار المملوك وإضاعة الطعام ، وعدم إكرام النعمة والتَّهاون بالكرام وصحبة اللئام ، وعدم الاحتشام ، والانهماك في الشهوات ، وارتكاب مايخلُّ بالمروآت من عدم نقاء الثوب وخَفارة المستجير والنزيل ، وقطيعه ذوي القرابات ، والتساهل بالإيمان والنذور والتبعات ، وكشف الرأس والساقين ، ورفع الصوت في الجماعات ، وكثرة الطيش والالتفات ، إلى غير ذلك .

والحياء أعزَّك الله له درجات متفَاوتَاتٌ ، منه أعلى ، ومتوسط ، وأدنى . فأعلاه : حياء الأنبيــاء والأوليــاء ، ومتـوسط وهو حيــاء خواص المؤمنـين ، ودون ذلك وهو حيــاء عامة المسلمين ، وفي كل الحياء خير .

وأما ما يكون في المشركين من مخايله ، فانما ذلك أخْلاق سياسيةٌ جعلها الله سبباً لبقَاء هـذا العالم إلى أمة[(٣)] هم بالغُوها . قالت عائشـة رضي الله عنها : مكارم الأخلاق عشرة : صـدق الحديث ، ونصح الناس ، وأداء الأمانة ، وصـلةُ الرحم ، والمكافأة بالصنيع ، وبذل المعروف ، وحفظ الجوار ، ورعايةَ الذمم ، وقرى الضيف ، ورأسهن وأساسهن الحياء .

---

(١) حديث ــ « إنما أنا أبوكم » رواه أحمد بلفظ إن الشيطان ليأتي أحدكم وهو في صلاته فيأخذ بشعرة من دبره فيمدها فيرى أنه أحدث فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً، قال ابن حجر في التلخيص فيه أحمد بن زيد بن جدعان (١/١٢٨).

(٢) حديث ــ من تعزى عليكم ــ رواه أحمد والنسائي وابن حيان وأورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ٢٤٣٧ . بدون ذكر عليكم. والله أعلم.

(٣) أمة ــ مدة.

وعن علي رضي الله عنه منْ جعل الحياء ثَوْبَهُ لم تَر الناس عيبه ، وعن زيد[1] بن علي عن
ائه : من لم يستح فهو كافر .

وعن ابي موسى[2] الأشعري أنه قال : إني لأدخل البيت المظلم لأغتسل ، فأحني
هري حياءً من ربي .

وقال بعضهم : الوجه المصونُ بالحياء . كالجوهر المكنون في الوعاء .

قال أبو علي الخواص[3] إن الناس عملوا على أربع منازل : الخوف ، والرجاء ،
لتعظيم ، والحياء . فأرفعهم منزلة من عمل على الحياء ، لأنهم لما علموا أن الله مطلع في جميع
الحالات ، أجلّوه أن يراهم على حالة تسقطهم منْ عينه ، فاجتنبوا لذلك كل نقص . يقال :
قناعة دليل الأمانة ، والأمانة دليل الشكر ، والشكر دليل الزيادة ، والزيادة دليل بقاء
نعمة ، والحياة دليل الخير كله .

قوله : فبعد الجلا بالقصر والفتح ، وهو ذهاب شعر اليافُوخ[4] يُخْشى أي يُخاف
ليك جلاء بالمد ، وهو الذهاب عن الوطن ومسقط الرأس ، ومراد المؤلف : الموتُ ، لأن
لجلاء مقَدّم الرأس دليل السن ، والسن جالبُ الشيب ، والشيب نذير الموت .

يروى أن رجلاً من ولد عثمان[5] رضي الله عنه ، وكان ذا نعمة وافرة ، وأموال جمة ،

---

(١) زيد — هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الإمام العلوي الهاشمي القرشي ويقال له
شهيد، عد من خطباء بني هاشم وفقهائهم اقتبس علم الاعتزال من واصل بن عطاء خرج على الأمويين وقاتلهم
تى قتلوه ونصب رأسه في دمشق والمدينة ولد عام ٧٩ ومات سنة ١٢٢ هجرية.

(٢) أبو موسى الأشعري — هو عبد الله بن قيس بن زائدة الأشعري أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة على قول
ـ استعمله عمر على البصرة واستعمله عثمان على الكوفة ثم كان أحد الحكمين بصفين ثم اعتزل الفريقين مات سنة
٤ هجرية رضى الله عنه.

(٣) الخواص — هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو اسحاق صوفي كان أحد المشايخ في زمنه من أقران الجنيد
ـ والخواص بائع الخوص مات عام ٢٩١ هجرية رحمه الله (٢٢/١) اعلام.

(٤) اليافوخ — مقدم الرأس.

(٥) عثمان — هو عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي الأموي أمير المؤمنين ولد بعد الفيل بست سنين.
سلم قديماً على يد أبي بكر رضي الله عنه يلقب بذي النورين لأنه تزوج رقية وأم كلثوم — وهو الذي جمع القرآن في
صحف واحد وكان من أغنياء الصحابة وجهز جيش العسرة واشترى بئر رومة إلى غير ذلك من المآثر ولي الخلافة
ام ٢٤ وقتل رضي الله عنه شهيداً في سنة ٣٥ هجرية.

وعبيد وحفدة[1] ، فبينما هو في بيته إذ أخذ المرآة فرأى شيبة ، فطاش لُبُّه ، وعلم أنه رسو
الموت ، فانخلع من جميع ذلك ، ولزم مسجد رسول الله ﷺ يَقُمُّه[2] ، ويقم القبر الشريف
لايردُّ جواباً ، ولا يقْبل خطاباً ، فظنوه بإصابة الجن ، وكلما جاءه بنوه ليذهبوا به إلى بي
كرهاً ، استعاذ بالقبر الشريف[3] فيتركوه حتى قدم بعض صلحاء الشام ، فرآه ، فسأل عنه
فقيل له : ذاك رجل منْ ولد عثمان نظر في المرآة يوماً فجنَّ ، قال : فجعلت أتوسَّمه ، فلم أ
بعقْله خللاً ، وإذا عليه سِمة الصلاح ، فجعلتُه همي ، فلما صلى المغرب ، خرج للبقيع
فاتبعته ، وجعلت أحبو تارةً ، وأحدودب أخْرى ، حتى تمكنتُ من النظر إليه ، وسماع كلام
من حيثُ لايراني ، فإذا بظبية أو دابة تُشبهها ، فمكَّنته من ضرعها ، فالتَقمة حتى روي
فشكر الله شكراً كثيراً ، ثم قَام يصلي ، فما سمعت مثل تلاوته وتخشُّعه ، حتى كان الثلث
الأخير من الليل ، جعل يتملَّق[4] ، ويدعو ، وكنت أصلي بصلاته ، وَأُؤَمِّنُ لدعائه ، وكان من
جملة مايقُول : إلهي أسألك بحرمة رسولك محمد[5] إلا ما وفَّقتني للعمل بمقْتضى ماجاءتني ب
رسلك الذين أرسلت إليَّ ، فما زال ذلك دأبه ودأبي معه ، إلى آخر الليلة الثالثة ، فأمهلتُه حتى
دخل المسجد ضَحوة اليوم الثالث ، أتَيْتُه فجعلت أقبِّل يده ، فَانتهرني ، فقُلتُ سيدي أسألك
بحق صحبتي إياك بالبقيع منذ ثلاث إلا متَّعتني بدعوة صالحة منك ، فاني كنت أصلي
بصلاتك ، وأُؤَمِّنُ على دعائك ، فقال : هل اطلعت على ذلك ؟ قُلتُ : نعم ، فقال لست
هناك ، ولكن هلم فلنتوسل برسول الله ﷺ[5] قُلتُ : سيدي فما رسل الله التي أتتك : قال
نظرت في المرآة فرأيت شعرات بيضاً ، فعلمت أنها رسل ربي إليَّ ، ينذرونني بقرب الموت ،
فكان من أمري مارأيت ، فلما فرغ قال : سل حاجتك وأنا أؤَمِّن ، ورسول الله ﷺ يشفع ،
فلما فرغتُ ، مال إلى الحائط ، فحرَّك شفَتيْه ثم سقط ، فإذا هو قد مات ، فَدعوتُ أهل
المدينة إلى حضُور جنازته ، وأخبرتُهم بشأنه ، فجعلوا يبكون ، ويتأسفُون على مافَاتَهم منْ
معرفة قدره*.

(١) حفدة ــ جمع حافد: الخدم. (٢) يقمه ــ ينظفه.
(٣) الأولى أن يقال: استعاذ بالله عز وجل. (٤) تملّق ــ تودد وتذلل.
(٥) الأولى أن يسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

* الذي يظهر لي والله ان هذه القصة مختلقة لما فيها من المبالغات والخروج عن المألوف من سنن الكون ولسؤال غير الله
والاستعاذة بغيره والله أعلم .

والجلاء بالمد : مصدر جلوت القَوم أو الرجل ، أجلوه جلاءً ، وأجليته : إذ أنفيتَه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولولا أن كَتَبَ الله عليهم الجلاء** ﴾ الآية ، [الحشر : ٣] ولما ظهر أبو بكر على العرب المرتَدين ، جعلوا يضربون إليه أكباد الإبل ، فلما اجتمعت عنده أشرافهم ، قال لهم : إني أخيِّركم بين خلتين ، فاختاروا أيهما شئتم ، فقالوا : أجل ياخليفة رسول الله قال : إني أخيركم بين الحرب المجلية ، والسلم المخزية ، قالوا : أما الحرب المجلية ، فقد عرفْناها ، فما السلم المخزية ؟ قال : همي أن أو كل عليكم وكلاء ، فتبعثون إلي جميع مامعكم من الحلقة والسلاح ، والبيضاء والصفراء ، وتَشهدون أن قتلانا في الجنة ، وأن قتلاكم في النار ، وأنّا على الحق ، وأنكم على الباطل ، وأنكم رجعتُم إلى الحق بعد خُروكم عنه ، وأنكم تَبنُون المساجد ، وتعلِّمون أبناءكم كتاب الله ، حتى تَظْهر تَوبتُكم لخليفة رسول الله ﷺ ، فَيرى في أموالكم وأنفسكم وأسلحتكم رأيه ، فقبلوا .

فإن قُلت : ماوجه المناسبة بين الموت والجلاء ؟

قُلتُ : وجه المناسبة أن كلاً منهما ، يُخْلي المواطن ، ويعطل المعاطن ، ويحرق الألباب ، ويفرِّق الأحباب ، ويجلب للعمارة الخراب ، فلذلك كنى بالجلاء عن الموت لاشتراكهما في الإدهاش ، والاستيحاش ، وسرعة الذل والتَلاشي والانكماش بعد الأثاث والرياش[(١)] .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

يـــافُرقـةَ الأحبـــاب لابُدَّ لي منكِ ويـــا دار دنيـــا إنـــني راحـــل عنـكِ
ويـــا سـكـــراتِ الموت مـالى وللمنـــا ويـا ظـلـمـات القـبـر مـالي وللضحكِ

وقوله : يخشى : مقحم ، إذ المحل محل خوف ، لامحل خشية ، لأنه إنما تُستَعمل الخشية فيما ترجى النجاة منه ، بخلاف الموت .

فحقيقة الخشية : خوف تُصاحبه معرفة وسكون .

مثاله : قوم سمعوا بعدوٍّ عظيم ، فمنهم من تحصَّن وخندق على حصنه وأعد من الذخائر مالا يخاف معه طول حصار العدو ، ومن العدد والعُدَدِ ماعسى أن يقاومه به مذباً ، وربما طمع في الظهور عليه ، فهو ساكن مطمئن لثبوت جأشه وقوته ، فهذا مثال الخشية .

---

(١) الرياش: فاخر الثياب.

الثاني : أمعن في الهرب على وجه يرتجى به النجاة ، ولم يترك وجهاً من الوجوه يرجو به نجاة إلا ارتكبه ، فهذا خائف .

الثالث : انخلع قلبه من الفزع ، لا يعلم حيلة ، ولايهتدي إلى سبيل من شدة الفزع ، فلما رأى نفسه كذلك ، ترك الحيل والاستعداد ، والتجأ إلى الملك القاهر ، فمنعه ، فهذا راهب لُبُّه ذاهب ، فالخشية للعلماء ، قال الله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨] والخوف للملائكة وخواص المؤمنين ، قال الله تعالى في حق الملائكة : ﴿ **يخافُون ربَّهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون** ﴾ [النحل : ٥٠] وفي حق المؤمنين ﴿ **ولمن خاف مقام ربِّه جنتان** ﴾ [الرحمن : ٤٦] وقال : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخافَ وعيد** ﴾ [إبراهيم : ١٤] والرهبة لعامة المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ **وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيةً** ﴾ الآية [الحديد : ١٧] .

قال رضي الله عنه :

١٦ ــ أَيَا بْنَ الْبَرى اسْتَحْضِرْ بَراءً مَن الدُّنَا فَشِبْـهُ الْعَفَى الْمُـلقَى عَلَيْـهِ عَفَـاء

قوله : أيا حرف نداء للبعيد ، وما في معناه ، كالأصم والنائم ، ابن : منادى مضاف منصوب ، ومعنى الابن معروف ، واشتقاقه من البناء ، لأن أباه تسبَّب في بناء جثمانه . تقول إذا صُغت منه فعلاً تبنيته ، فتردُّه إلى أصل مصدره بناءً ، فاستثقلت العرب الاتيان بالهمزة إثر ضم ، فأبدلوا منها واواً فقالوا : بنوةً ، والبرى بالفتح : الأرض ، لأن أبا البشر آدم عليه السلام خلق منها ، فلما كان أصله منها ، صار كأنه ابنها ، قال الله تعالى : ﴿ **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ [طه : ٥٥] قال ﷺ : ((أنتم من آدم ، وآدم من تراب)) فأنَّى لكم الفخر والكِبْر واليخلاء ، وأنتم من الحضيض الأسفل الذي لايأنف أن يداس بالقدم والخف والحافر ، ولايمتنع من أن تلقى عليه الجيف والاقذار ، ومع ذلك لايخرج منه إلا المليح المشتهى .

قيل : المؤمن مثل التراب ، يلقى عليه كل قبيح ، ولا يخرج منه إلا المليح .

قيل : إن لكل إنسان تربة من القبضة التي خُلق منها آدم ، فهي مودعةٌ في الأصلاب ،

ولا يدفن أحد إلا في موضع تربته التي خلق منها[1] . فاستحالتْ التربة سلالة ، ثم السلالة نطفة ، ثم استحالت النطفة علقة ، ثم استحالت العلقة مضغة ، ثم استحالت المضغة عظاماً ، ثم خلق الله من ماء المرأة اللحم والدم والجلد ، ثم كساه اللون ، ونفخ فيه الروح ﴿ **فتبارك الله أحسنُ الخالقين** ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

قوله : استحضر ، أي في نفسك ، براء بالمد ، مفعول لاستحضر ، والبراء بالمد من التبرئة من الشيء، وهو دفعه والتخلي عنه، قال الله تعالى: ﴿ **إنا براءاء منكم** ﴾ [الممتحنة: ٤] جمع بريء من الدنيا ، وحقيقة الدنيا ماأظلتْ الخضراء وما أقلتّتْ الغبراء فشبَّه العفى[2] . وله اشتراكات منها الرمل الذي عفا من الساكن ، ومنها الربع إذا خلا من أهله ، ومنها الشيء التَّافه .

والعفَاء بالمد : ــ الميتة ــ قيل: إذا كان عندي قُوت يومي، فعلى الدنيا العفاء، وقد يشْتَرك العفى والعفاء، ويقال للرمل: العفاء بالمد، قَالتْ أم رسول الله ﷺ .

عفَـا جانب البطحـاء من آل هاشـم وجـاور لَحْداً دارسـاً في الغمـاغم

فشبـه خبر لمبتدأ محذوف ، العفى مضـاف إليه ، الملقى نعت للعفى ، عليه ، جار ومجرور خبر للعفاء ، وهذا غَايةٌ في عيب الدنيا وتحقيرها، إذ جعلها ميتة على تَل، أو ميتة عليها ما تذروه الرياح من الرمل والهشيم، وهو مضمن قَوله ﷺ ((الدنيا جيفة ، وطالبها كلب[3])) وحديث السخلة التي وقف عليها رسول الله ﷺ ميتة في ربع قَوم ، فقال : ((أترون هذه قد هانت على أربابها؟)) قالوا لو لم تهن عليهم لما تركوها ، فقال : ((والله إن الدنيا لأهون على الله من هذه السخلة على أربابها))[4] قال ﷺ : ((إن من هوان الدنيا أن يحيي بن زكريا قتلته

---

(١) قوله : إن لكل إنسان تربة الخ ، يظهر انه مأخوذ من حديث : إن الميت يدفن في التربة التي خلق منها الخ وهو حديث موضوع قال ابن حزم في كتابه المحلي بعد أن ساق الخبر وهذا خبر موضوع لأن في أحد طريقيه محمد بن الحسن بن زبالة ، وهو ساقط والطريق الأخرى من رواية أبي خالد وهو مجهول عن يحي البكاء وهو ضعيف أهـ (٧/٤٥١) محلي، والله أعلم.

(٢) كذا في الأصل ــ والعبارة مبتورة ــ

(٣) حديث الدنيا جيفة الخ.. موضوع اخرجه صاحب الكشف تحت رقم ١٣١٣ بلفظ «الدنيا جيفة وطلابها كلاب» . وقال الصَّغاني موضوع وقال النجم: ليس بهذا اللفظ في المرفوع والله أعلم.

(٤) حديث ــ أترون هذه قد هانت على أربابها الخ.. صحيح الاسناد رواه الترمذي وقال حسن صحيح كما رواه =

بغي من بغايا بني إسرائيل))[1] . ويروي أن أبا بكر استدعى ماء ليشربه وهو خليفة فأتوه بعسـل فلما رآه جعل يبكي فقالوا مايبكيك ؟ فقال : إني دخلت على رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا ، فوجدته يدفع بيديه ويقول إليك عنى ماأنا بصاحب لك فقلتُ له بأبي أنت وأمي يارسول الله من ذا الذي تخاطبه ؟ قال الدنيا تعرضتْ لي بزخرفها وزرجُونها[2] فَدعتني إلى نفسها ، فقلت لها ماسمعت ، فقالتْ : لئن نجوتَ مني ، فلن ينجو مني أقوام يأتون من بعدك ، يمرحون في رياضي ، ويكرعون في حياضي ، قلوبهم بحبي عامرة ، ومن حب مولاهم غامرة ، فخفتُ أن أكون منهم ، والله لافارقت ماكان عليه صاحبي من خشونة العيش ، والاكتفاء بالبلغة حتى ألحق به ، فإني أخاف أن أخَالفَ ماكان عليه ، فيخَالف بي إلى النار ، فإني سمعته يقول : أصابتكم فتنة الضراء ، فَصبرتُم عليها ، وستصيبكم فتنة السراء ، فلا أراكم صابرين عليها ، أو تُهلككم كما أهلكت من كان قبلكم ، فقال حذيفة أيأتي الخير بالشر ، قال : لا ، ولكني أخاف أن تُبسط عليكم الدنيا فتتنافسُوا فيها فتَرجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض[3] والله مافتح الله على قَوم الدنيا إلا فتح عليهم بها باب فتنة ، فمن صبر وشكر نجا ، ومن فخر وبطر هلك ، فوالله إنها لأسحر من هاروت وماروت ، فمن صحبها بالعلم والتقوى ، ملكها فأهلكها ، ومن ملكها بالجهل والهوى ملكته ثم أهلكته . قال الرسول ﷺ

= ابن ماجه والحاكم قال العراقي في تخريج الأحياء رواه الحاكم وصححه وابن ماجه ولمسلم نحوه (١٩٦/٣) قلت ورد في أكثر روايات هذا الحديث شاة بدل سخلة كما أورد صاحب الأحياء في آخره ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضـة ماسقى كافراً منهـا شربة ماء ورواه الحاكم وصححه، إلا أن الذهبي لم يوافقه وقال فيه زكرياء ضعفوه (٣٠٦/٤).

(١) حديث إن من هوان الدنيا الخ.. ضعيف جداً رواه البيهقي في شعب الإيمان له وأخرجه السيوطي في جامعه ورمز له بالحسن وفيه ــ امرأة ــ بدل ــ بغي.

قال المناوي تعقيباً على السيوطي وقضية كلام المصنف أن البيهقي خرجه واقره والأمر بخلافه بل تعقبه بما نصه هذا إسناد ضعيف (٥٤٣/٣).

(٢) الزرجون ــ الخمر ــ والمراد ملذاتها ــ أو زينتها.

(٣) حديث ــ قال ــ الدنيا تعرضت لي إلى قوله لم يفلت مني بعدك احد ــ رواه ابن أبي الدنيا والبزار بسند ضعيف والحاكم وصحح إسناده إلا أن الذهبي لم يوافقه وقال فيه عبد الصمد تركه البخاري وغيره أ هـ (٣٠٩/٤) مستدرك وضعفه العراقي كذلك فعلى هذا فالحديث ضعيف واللفظ الذي أورد الشيخ لم أجده وباقي القصة مؤلف من عدة أحاديث بعضها صحيح، أما قوله قال حذيفة : أيأتي الخير بالشر فهو مُقْحم في القصة ــ وهو جزء من حديث آخر صحيح رواه البخاري ومسلم والله أعلم.

في حديث قدسي يرويه عن ربه : ((يادنيا من أطاعني فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه))[1] ولقد شوهد ذلك عياناً .

يروى أن سبب تَوبة شاه الكرماني ، أنه خرج يوماً في بعض متنزهاته ومعه أرباب دولته يَتصيد ، فتفرّد عن اصحابه ، فأصابه عطش شديد ، فبينما هو يسير في البيداء وقَد تَاه ، إذ هو بولي من أولياء الله راكب على أسد ، فَلما رآه هابه ، فقال إلي ياشاه ، فأتاه فسلَّم عليه : فقال له : ألم يأن لك أن تفيق من غشيتك ، وتنتبه من غفلتك ؟ فقال : سل الله لي ، فسأل الله له ، فقال : أعطشان وجائع أنت ياشاه ؟ فقال : نعم ، فحرَّك شفتيه فإذا امرأة قد جاءت بسويق[2] وسُكَّر وخُبز سُخن سميد[3] ، فقالتْ : تناول حاجتك ياشاه ، فشربتُ سويقاً ، والله ماذقتُ مثله أحلى طعماً ، ولا أذكى رائحة ، ولا أبرد ، ثم تناولت من الخُبز بالسُّكَّر حتى اكتفيت ثم قِلت[4] معه في ظل دوحة[5] حتى إذا تفيأت الظلال ، أتته بماء فتوضأ وصليت معه الظهر ، قُلتُ له: من هذه المرأة التي تخدمك ؟ قال : أوما تعرفها ؟ قلتُ : لا ، قَال تلك الدنيا، أو ليس قد سمعت قول الله ـــ يادنيا اخدمي من أطاعني. واستخدمي من خدمك[6] ـــ فدلني على الطريق ، وانصرف إلى البيداء .

يروى أن من قَال : لعن الله الدنيا قالت : لعن الله أعصانا لربه يقال : الزم باباً واحداً لاتفتح لك الأبواب ، تفتح لك الأبواب ، واخضع لملك واحد لاتخضع لك الرقَاب ، تخضع لك الرقَاب .

ويروى أن الدنيا دار عمل ، ولاثواب فيها ، والآخرى دار ثواب ، ولاعمل فيها .

---

(١) حديث ـــ يادنيا من أطاعني الخ.. رواه الخطيب بلفظ أوحى الله إلى الدنيا أن اخدمي من خدمني واتعبي من خدمك. وهو بهذا اللفظ موضوع ـــ أورده ابن الجوزي في موضوعاته (١٣٦/٣) والشوكاني في فوائده تحت رقم ٧١١ ـــ ٦٤) والله أعلم.

(٢) السويق ـــ الناعم من دقيق الحنطة والشعير.

(٣) السميد ـــ القمح المجروش.

(٤) من القيلولة.

(٥) الدوحة ـــ الشجرة العظيمة المتسعة.

(٦) تقدم قريباً تخريج حديث الدنيا ـــ ويأتي في ص ١٢١ أما القصة فلا أراها إلا منسوجة على هذا الحديث الموضوع وهي لغرابتها لاتقل عنه وضعاً حسبما أرى، والله أعلم.

ويروى أن ولياً من الأحياء ، رأى ولياً من الأموات ، فجعل الحي يسأل الميت ، وهو يخبره ، ثم قال له الميتْ : طوبى لكم معاشر الأحياء تقدرون على الأعمال ولا نقدر ، ولو علمتم من ثواب الأعمال ماعلمنا ، لزهدتُم فيما سواها منْ جميع الحطام والراحة والبطالة ، فإنا معشر الأموات نعلم ولا نعمل ، وانتم تعملون ولا تعلمون ، وأما استقذارها ، فليس كل أحد يشاهده ، ولكن يُشاهد البصير زوالها ، والزوال عنها .

قال الشاعر : (من بحر الوافر)

هي الدنيا تَجَهَّزُ بانطلاق مشمِّرة على قَدم وساقِ
كأن الموت والحدثان فيها إلى عمر الفتى فَرسا سِباقِ
فما الدنيا بباقية لحيٍّ ولا حيٌّ على الدنيا بباقِ

وقال غيره : (من بحر الطويل)

وعيشك فيها ألف عام وينْقضي كعيشك فيها بعض يوم وليلةِ

ومن شأن العاقل اللبيب ، أن يوطن نفسه مادام فيها على معالجة الشدائد وتجرع ألم المصائب ، لأن الله يقُول : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد**[1] ﴾ [البلد : ٤] إذ قال لآدم لما أهبطه إلى الدنيا: لنْ تنال العيش فيها إلا كداً، وهو صفيه، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته ، وحمله على أعناق المقَربين ، فما طمع غيره بصفوها ؟ والتمتع بها بعده ، قال ابن عطاء الله : ماترك من الجهل شيئاً منْ أراد أن يُحْدَث في الوقت ماليس فيه .

قال الشاعر : (الرجز)

طالب الراحة، في دار العَنا وخاب من يطلب، ماليس يكون

وقال غيره : (من بحر المتقارب)

يمثِّل ذو اللّب في لُبِّه شدائدهُ قبل أن تنزلا
فإن نَزلتْ بغتةً لم يُرع لما كان في نفسه مثلا
رأى الأمر يفضي إلى آخر فيصير آخرهُ أولا
وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع منْ قد خلا
فإنْ دهمتْه صروفُ الليالي ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم في نفسه لعلَّمه الصبر عند البَلا

(١) كبد ـــ مشقة ومكابدة.

فليسأل العبد ربه العافية ، فإن ابتلي فليصبر ، فإن الجزع زيادة في المصيبة ، وأشد من ذلك شماتة الأعداء .

يروى أن جبريل عليه السلام سال أيوبَ بعد ماعوفي ، فقال : ماأشد مالقيت في بلائك ؟ قال : شماته الأعداء .

قال علي رضي الله عنه لبعض أصحابه : إذا نزلتْ بك عظيمة ، فحاول دفعها بالأسباب ، فإن رأيتها تنجع ، فلا تعجزْ ، وإن رأيتها لاتنجع ، فلا تجزع ، واسكن لها حتى تنقضي مدتُها ، فإن الحركةَ قبل انتهاء مدتها زيادة في شدتها .

وأما حقيقة خبثها واستقذارها ، فلا يشاهده على حقيقته إلا الأنبياء والأولياء ، قال ﷺ ((إن الله لم يجعل للدنيا مثلاً هو أقرب إليها من طعامكم الذي تأكلونه ، أطيب مايكون عندكم ، ثم تقذفونه من بطونكم أخبث مايكون ، تتحامون أنْ تمسوه بأقدامكم بعدما كنتم تأخذونه بأشرف جوارحكم ، وتَجعلونه في أشرف منافذكم ، وهو أفواهكم))، ثم تجذبهُ طبائعكم بشره حتى يمتزج بأوصالكم ، فتمد منه الطبائع الأربع :

البلغم ، والصفراء ، والدم ، والسوداء ، فتنشأ عنها جميع العلل .

فينشأ عن غلبة البلغم السل[1] ، والقولنج ، والنقرس ، والبرسام ، والكسل ، وكثرة النوم ، والغفلة .

وعنْ الصفراء : ذات الجنب ، واللقوة : والفالج ، ويُبْس الطبيعة ، والالتهاب ، وكثرة الحلم .

وعن الحمراء الكزز والتشنج ، ووجع الكلى ، والمثانة ، والصُّداع ، والشقيقة ، والخوانق ، والحمراء .

ومن السوداء: الجذام، والبرص، والصرع، والميد، وغشاوة البصر .

وهذه حقيقة خبثها ظاهراً، وباطناً ماينشأ عن حبها من البخل، والجبن، لأن من أحب شيئاً اقتضى حبه إياه البخل به، أحب أم كره، والبخل يؤدي إلى منع الواجب،

---

(١) كان الشيخ رحمه الله كأهل عصره يعتقد وجود طبائع اليونان هذه ، أما السل فهو داء يصيب الرئة غالباً، والعظام أحياناً، سببه ميكروب سبحي، ولاعلاقة له بالطبائع التي لاوجود لها كذلك، وباقي الأمراض المذكورة كل واحد له سبب خاص غير الطبائع، والله أعلم .

كحق الله، والضيف، والأقرباء؛ والغرباء، وصيانة العرض فضلاً عن بذله تقرباً، ومن أحب شيئاً واطمأن إليه ، عزَّ عليه فراقه والنقلة عنه ، فيستدعي ذلك الجبن ، فيجمع ذلك علتين ، هما أصل اللؤم ، قال ﷺ : ((أي داء أدوى من البخل))[1] وكان كثيرا مايقول : ((اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل)) والجبن يستدعي خوف الخلق ، وهو يستدعي الرياء والسمعة ، والمداهنة والتَّصنُّع ، وذلك يستَدعى عدم الإخلاص ، ومن فَاتَه الإخلاص فقَد فاته خَير الدنيا والآخرة .

وكان ﷺ كثيراً مايقوُل : ((اللهم إني أعوذ بك من خَوف الخلق ، وهم الرزق ، والرضى عن النفس)) وإنما كان ﷺ يتعوَّذ منهن ، لأنَّهنَّ أمهات الخبائث . أخرج البيهقي من طريق أبي أمامة يرفعه إلى أبي ذر أنه قال : بينما هو جالس مع رسول الله ﷺ ، إذ التفت إليه فقال : إن شئت أريتك الدنيا بحذافيرها ، فقال أجل بأبي أنت وامي ، قال : فَاتْبعني إذاً أريكها ، فتَبعتُه حتى إذا قام على مزبلة عليها عظام الناس والبهائم والفضلات والخرق ، فقال : ياأبا ذر أرأيت هذه الجماجم النخرة ، فإنها هام رجال كانوا يأملون كما تأملون ، ويحرصون على جمع المال كما تَحرصون ، فصاروا إلى ماترى ، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يجوبون البلاد على متُونها ، وهذه الخرق الباليةُ كانت أنواع ثيابهم التي يتَجمَّلون بها ، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم التي كانوا فيها يتنافسون فقذفوها من بطونهم أخبث ماكانت ، فهم عنها راغبون ، وإنما هي أطعمتهم التي كانوا إليها يهشون[2] . فمن كانَ باكياً على الدنيا فليبك على هذا[3] وأشد من هذا ماروى أنه لايموتُ أحد إلا تمثَّل له ماله عند النزع ، فَانْ كان ممنْ سلط على هلكته في الحق ، أتاه على أكمل صورة ، فيَقول له : أنا مالك الذي بذلتَ في الله ، فأبشر فأنا عونك وشاهدك ، فنعم ماصنعتَ إذ صيرتني باقياً بعد ماكنت فانياً ، فنعم ماأسلفت في الأيام الخالية ، وإن كان ممن أضاعه في غير حق ، واختزنه لورثته ، أتاه على أقبح صورة وأفظعها ، فيقول له ، من أنت ؟ فإني لم أر اقبح منْك صورةً ، فيَقُول أنا مالك الذي كنت تمنع حق الله

---

(١) حديث وأي داء أدوى من البخل الخ.. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان.

(٢) يهشون ـــ يرتاحون ـــ ويخفون.

(٣) حديث أبي ذر بينما هو جالس مع النبي ﷺ إلى آخره ـــ أورده في الأحياء عن ابي هريرة وفيه اختلاف الفاظ عما أورد الشيخ وفي آخره فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا أ هـ هذا الحديث قال فيه العراقي لا أصل له (١٩٩/٣).

، وكنت تدَّخرني ، ولاتنفقني في سبيل الله ، فأبشر بشر وعرٍّ[1] أنا الشاهد عليك ، كنتُ
ك عوناً لو صيرتني عوناً ، ولكنك ضيعتني ، فَلأضيعنك كما ضيعتني ، فبئس ماصنعت ،
جعلت حظك مني خرقاً باليةً ، وجيفا فَانيةً ، ومزابل قَذرة ، ملأت منها الكنيف ، ولقيك
لك صفر الكفين ، مسلوب الحيلة ، مدحوض الحجة ، فَالويل لك ، فحينئذ تتقلص
فتاه ، ويربدُّ وجهه ، ويعربد[2] فتحتوشه الناشطات[4].

ولما كانت الدنيا مركبة من الخبث ، صار مآلها إليه ، إذ كل شيء يرجع إلى أصله ،
رجع طعامها إلى الخبث ، وحيوانها إلى النتن ، وحرامها إلى العقاب ، وحلالها إلى الحساب ،
لاف الآخرة ، فإن مطعومها يخرج رشحاً وتجشؤا أطيب من المسك ، لا بلغم فيها يمتخط ،
لاثوب يبلى ، ولاجسم يفنى ، ولاحال يتغير ، فكل يرجع إلى أصل بنيته .

يروى أن مالك[5] بن دينار رأى العباس بن المهلب بن ابي صفرة وقد لبس حلة ، من
وشي ، وعلى رأسه تاج ملمع بالجواهر ، وهو يمشي المطيطاء[6] ، فقال : يافتى إن مشيتك هذه
غضها الله ورسوله ، وإنك لن تخرق الأرض ولن تَبلغ الجبال طولاً ، فقال له : أو ماتعرفني ؟
ل : بلى والله أعرفك ، أوَّلُك نطفة مذِرة[7] وآخرك جيفة قذره وأنت فيما بين ذلك تحمل
عذرة ، فذهب إلى أبيه وكان خليفةً[8] على العراقين ، فأخبره بما قال مالك بن دينار ،
اجابهه به ، فأرسل إليه المهلب فقال : ماحملك على ماقُلت للعباس ابني ؟ قال : حملني على
ك نُصحه ، وبغض المنكر ، وعلمي أنه لاقدرة لأحدٍ إلا الله ، فقال له المهلب : اذهب

(١) عر ــ العر المكروه ــ وهو من باب المتابعة.

(٢) يعربد ــ يسوء خلقه.

(٣) تحتوشه ــ تحدق به.

(٤) الناشطات ــ الملائكة تسل أرواح المؤمنين برفق ــ وهذا الوصف غير مناسب لحالة الشقي.

(٥) مالك بن دينار هو مالك بن دينار البصري من رواة الحديث كان ورعاً يأكل من كسبه ويكتب
صاحف بالأجر، مات بالبصرة عام ١٣١ هجرية .

(٦) المطيطاء التبختر ــ ومد اليدين في المشي.

(٧) المذرة ــ الفاسدة الخبيثة ــ وأصله من البيضة الفاسدة.

(٨) أبوه المهلب بن أبي صفرة الأزدي العتكي أمير بطاش جواد، ولاه ابن الزبير إمارة البصرة حارب
زارقة وولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان وبها مات عام ٨٣ هجرية . ولم يكن في يوم من الأيام خليفة كما
كر الشيخ رحمه الله .

فأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر، وأنا من ورائك ، فلما كانت أول منزل ينزله الإنسان – وقد جبل الله القُلوب على حب أول المنازل – .

قال الشاعر : (من بحر الكامل)

نقِّل فؤادكَ حيث شئت من الهوى — ما الحُبُّ إلا للحبيب الأوَّلِ
كم منزل في الأرض يَألفه الفتى — وحنينه أبداً لأوَّل مَنْزِلِ

وقد جعل الله لذوي العقول دلائل يستدلون بها على خِسَّتها ، منها أن ألذ مطعوم فيها العسل ، وهو قيء ذُباب تستقذره النفوس ، وأنفس ملبوس فيها الحرير وهو خرء[1] دودة ، وأشرف منكوح فيها النساء ، وإنما غايته مبال في مبال ، وأشرف مركوب فيها الخيل ، أكبر فائدتها حمل الكرام إلى المصارع .

ويروى لولا أنَّ الله خلق الإنسان ملازماً للحاجة مقهوراً بالموت ، لادعى الربوبية ، لما ركَّب الله فيه من الكمال ، ولذلك رد على النصارى لما ادَّعوا الأولوهية لعيسى بقوله : **﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قدْ خلتْ من قبله الرسلُ وأُمُّه صدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام﴾** [المائدة : ٧٥] كناية عن الغائط ، لأن من اضطر إلى أكل الطعام لابد له من الغائط ، ومن كان لأبُد له من الغائط ، فلا ينبغي أن يكون إلهاً ، وأما قول بعض شروحه : إن المراد بالعفى ولد الحمار في لغة طيىء ، فلم أطالعه ، وهو بخلاف الاشتقاق .

وقال أيضاً : العفاء بالمد : التَّافه من المأكول ، وقَد يقَال للعذرة اليابسة ، فعلى هذا التأويل معنَاه أن المشتغل بالدنيا المُتَهَاتِرَ بحبها ، همته كهمة الحمار ، إذ ليستْ له بشيء همة سوى القضم والخضم[2] .

قال الشاعر : (من بحر الكامل) .

كالعير ليس له بشيء همة — إلا اقتضام الزاد حول المزود

لاجعل الله لهمنا تعلقاً إلا به ، وأما العفاء بالمد ، فقد يكون اسماً للرياح .

قال ابن تميمة في الأغاني : (من بحر الكامل) .

---

(١) الخرء ـــ ما يخرج من الحيوان من فضلات الأكل .

(٢) الخضم ـــ القطع .

دَرَجَ العفاءُ على منازل جيرتي فغدت مناخاً للدَّبَى[1] والجدجد[2]
واستعجمت من بعد قاطنها فلا طيرٌ يجيب بها خلاف الهدهد

قال رحمةُ الله عليه :

١ ــ وَبَعْدَ العَرى سُكْنَى العَراءِ فكُلُّ ذِي نَسِيًّ هَالِكٌ لايَغْرُرَنْكَ نَسَاءُ

قوله : وبعد العرى بالقصر والفتحْ ، وهو عبارة عن أفنية الدور المتخذة للسمر ، تُنقل
ى رغم أنفك إلى سكني العراء بالمد والفتح ، وهي الأرض التي لانبات فيها ، وهو مشتَق من
عري ، وهو ضد الاكتساء ، قال الله تعالى : ﴿ **فنبذناه بالعَراءِ وهو سقيم** ﴾ [الصافات :
١٤] وكنى بسكنى العراء عن القبر ووحشته وظلماته ــ إلا منْ عصم الله ــ بدينه ــ يروى
القَبر ينَادي كل يوم ، فيقُول : أنَا بيتُ الوحشة ، أنا بيتُ الغُربة ، أنا بيتُ الظلمة ، أنا بيتُ
ـيدان ، فما أعددت لي ؟ فمن أراد النجاة من وحشة القبر ، فَعليه بتلاوة كتاب الله ، لقوله
ﷺ : ((ماتقرب المتقرِّبون إلى الله بمثل كتابه ، فإنَّه المؤنس في الوحشة ، والصاحب في
خلوة ، والشفيع عند الحاجة ، والدليل عند الحيرة ، من طلب الهدى من غيره ضل ، ومن
ـب العزَّ من سواه ذلَّ)) . الحديث المشهور .

ومن أراد أن لايكون غريباً في قبره ، فلتأته المنيةُ وهو في طلب العلم ، قال ﷺ : من
ت وهو في طلب العلم قيض الله له في قبره من يعلمه ويزيل عنه الوحشة حتى يبعثه الله يوم
ـيامة عالماً فقيهاً ، ومن أراد النجاة من ظلمة القبر فليقُل بعد كل صلاة مائة مرة : لا إله إلا
ـ ، قال ﷺ : لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، بعد كل صلاة مائةَ مرة ، هي منجاةٌ من
ـقر ، وضياء في القبر .

يروى أن المؤمن إذا وضع في قَبره ماد به، فتـأتيه كلمة الإخْلاص ، فتثبتُه ، وتُلقنه
ـجته ، ثم تَقُول للقَبر : أثبُتْ أي قَبرُ ، فإنه كان مؤقناً ، ثابت القَدم على التَّوحيد ، فَيثْبتُ
ـبر ، وذلك قوله : ﴿ **يثبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا** ﴾ إلخ [إبراهيم :
٢] فتدلهم[3] عليه ظلمات القبر، فبينما هو كذلك إذا هو بنور قَد سطع في جانب القبر،

) الدبي ــ صغير الجراد قبل أن يتمكن من الطيران .
) الجدجد ــ دويبة على خلقة صغير الجراد .
) تدلهم ــ تشتد الظلمة .

وبرائحة ذكية ، فلم يكن إلا كلمح البصر ، إذا هو برجل لم يرَ الراءون مثله حسناً وجمالاً
ونوراً ، وبهجةً ، فيقول : من أنت ، فو الله إنك لميمون طلعة ، إذ قد أذهب الله عني بك
ظلمات القبر ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فأبشر بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، وجنة
رضوان ، وإنَّك مختبر ومبتلى ليظهر الله لملائكته شرَفك ومنزلتَك ، فاثبتْ ولا يهولنك ماترى
فيقَول : جزاك الله عني خيراً ، وستُكْفَى مئوتنهم إنْ شَاء الله .

ومن أراد النجاة من هوامِّ القبر ، فعليه بكثرة الصدقة ، قال الرسول ﷺ : ((صنائع المعروف تقي مصارع السوء))[1] ، وقال : ((صدقَة الرجلِ مهاد له في قبره ، وعمامة تقيه وهج الشمس في المحشر . ونُور له على الصراط)) . قال الله تعالى : ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾[2] [الروم : ٤٤] وشطر البيت هذا مقتبس من حديث أخرجه النسائي أن النبي ﷺ خَطب يوماً ، وكان من جملة ماقال : اعملوا لما بعد الموت ، واحذروا حسرة الفوت فَانكم عما قريب تُنقلون من بهجة القصور إلى ظلمة القبور ، ومن التنعم بالألوان إلى أكل الديدان ، ومن لبس فَاخر الثياب إلى البلى والتراب .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

أنعــم جســمي بــاللبــاس ولينــه وليس لجســمي من لبــاس البِلى بُدُ

قوله : سكنى العراء ، مبتدأ مؤخر ، العراء مضاف إليه ، ماقَبله بعد العرى جملة اسمية في محل الرفع لسدها مسد الخبر ، التقدير : سكنى كائنٌ بعد العرى ، والفَاء سببيةٌ في قوله ((فكل ذي نسي)) و ((كل)) مبتدأ خبره ((هالك)) ((لا)) ناهية ((يَغْرُرَنكَ)) فعل مضارع مجزوم بلا النَّاهية ، ونُون[3] التوكيد ، والضَّمير مفعول ، و ((نساء)) فاعل ، فالنَّسى بالقصر : كثرة المال ونماؤه ، معناه : أن كل ذي مال وثروة وعزٍّ فانٍ . أجل الله آتٍ ، فلا يخدعنَّك عن التأهب والتزوُّد ، نساء بالمد أي تأخير نزول الموت ، والنسى بالقصر : المال . وبالمد التأخير .

يروى أن الرشيد لما احتضر بسر من رأى[4] اجتمعت إليه أجناده وقد أمرها أن تستلئم

(١) حديث صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، أخرجه القضاعي بهذا اللفظ ولفظ الصد قة تمنع ميتة السوء والأخير أورده السيوطي ورمز له بالصحة وقد خُرِّج في ص **٢٠٣** و ص (٥٨٧) .
(٢) يمهدون ـــ يعملون ويكسبون .
(٣) لعل العبارة والنون للتوكيد .
(٤) سر من رأى ـــ مدينة عراقية تسمى الآن سامراء بناها المعتصم بعد الرشيد ـــ والرشيد لم يرها أبداً ـــ

فلما نظر إلى كثرتها وما قد استَلأمت[1] فيه من العدة[2] الفاضلة ، والخيل المسومة ، والثياب الفاخرة ، استعبر ثم قال : الله أكبر ، أختطفُ وحدي بين هذه الجنود المجندة في خرقتين ، وقد كانت الدنيا طوع يدي ، فمن اصبح بعدي بملكه مسروراً ، فقد أصبح مغروراً ، ثم تأوَّه وقال : ﴿ **ماأغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانية** ﴾ [الحاقة : ٢٨ و ٢٩] ثم قال لخدَّامه ائتوني برماد ففرشه ، وجعل يتقلّب عليه ويقول : يامن لايزال ملكه ارحم من قد زال ملكه ، ثم عهد إلى ابنه الأمين[3] ومضى رحمه الله .

ويطلق النسى بالقَصر ، ويراد به عِرْق في الفخذ يمتد من الورك وينتهي إلى الخنصر . ودواء النسي إليةُ شَاة عربية ، وهو داء يصيب من يبس الطبيعة ، وربما كان من تَبَيُّغِ الدم ، قال الرسول ﷺ : ((احتجموا لئلا يتبيغ بكم الدم))[4] والتَّبيغ مجاوزة الحد ، حتى يؤدي إلى الضرر ، وربما أدى إلى التلف ، وسمي النسى بذلك ، لأنه ينْسى بألمه كل ألم ، وكان ﷺ يقول لأصحابه : ((من خاف منكم النسى فليضع أصبعه عليه ، ثم ليقُل اللهم إني أعوذ بك

لم يمت بها والعبارة خطأً بلا شك . والرشيد هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي خامس خلفاء الدولة العباسية بويع بالخلافة بعد أخيه الهادي سنة ١٧٠ وازدهرت الدولة في زمنه واتصل بملوك أوروبا وتبادل الهدايا مع شرلمان ملك فرنسا .

يلقب بجبار بني العباس كان حازماً متواضعاً كريماً واجتمع في بلاطه العلماء والشعراء والكتاب والندماء ، كان يتعرف على أحوال الرعية بالسير متنكراً ليلاً توفي في قرية من قرى طوس عام ١٩٣ هجرية .

(١) استلأمت ــ لبست الدروع ــ

(٢) العبارة ــ غير واضحة ــ إذ وصف العدة بالفضل وهذا استعمال غير شائع إلا إذا اراد عظمها وجمالها . والله أعلم .

(٣) الأمين ــ هو محمد بن هارون الرشيدسادس خلفاء بني العباس بويع بالخلافة بعد أبيه عام ١٩٣ حصلت بينه وبين أخيه المأمون حروب قتل في آخرها الأمين عام ١٩٨ هجرية .

(٤) حديث احتجموا الخ .. رواه البزار وأبو نعيم والطبراني والديلمي وعنهم السيوطي في جامعه بلفظ (احتجموا لخمس عشرة أو لسبع عشرة أو لتسع عشرة أو إحدى وعشرين لايتبيَّغ بكم الدم فيقتلكم) .

قال المناوي قال الهيثمي فيه ليث بن ابي سليم وهو ثقة ولكنه مدلس وقال العراقي سنده حسن موقوفا . ورفعه الترمذي بدون لفظ التبيغ ــ وقال حسن غريب (١/١٨٠) .

من كل عرق نعّار[1] وغير نعار ، اللهم لاتُسلطه عليّ بألم ، ولاتسلطني عليه بقطع ، أعو
بعزتك وجلالك من شر ما أجد وأحاذر – ثلاثاً)) ، وقد يمدُ .

قال فروة[2] بن مسيك ، لما وفَد على رسول الله ﷺ : (من بحر الكامل) .

لمــا رأيتُ مـلوك كنـدة أعرضت	كالرجل خان الرجلَ عرقُ نسـائها
قـدَّمت راحـلتي أؤم محمـداً	أرجو فَواضـلهـا وحسـن ثرائها

وكان من ملوك كندة سيداً شريفاً شاعراً مفوهاً ، ولما قَدم المدينة نزل على سعد[3] بن
عبادة ، ثم أتى رسول الله ﷺ بالمسجد ، فرحَّب به وقال : من أنزلك يافروةُ ؟ قال : سعد بن
عبادة ، قال ، اللهم بارك على سعد ، وكان يحضر مجلس رسول الله ﷺ ، كلما جلس يتعلم
القرآن ، والفرائض ، وشرائع الإسلام . وكان بين مراد وهمدان قُبيل الإسلام وقعةٌ ، أصابتْ فيه
همدان من مراد ماأرادوا ، حتى أثخنوهم في يوم يقال له : يوم الرزم ، فقال له رسول الله ﷺ
يافَروةُ هل ساءك ماأصاب قومك يوم الرزم ؟ فقال من ذا يصيب قَومه مثلُ ماأصاب قومي يوم
الرزْم ولا يسوؤه ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((أما إن ذلك لم يزد قومَك في الإسلام إلا
خيراً))[4] . وفي ذلك اليوم يقول فروة (من بحر الوافر) .

مـررن عـلى لُفـاةَ وهن زور	ينـازعن الأعنـة ينتحينـا
فـإن نَغـلب فغـلاَّبون قـدمـاً	وإن نُغْـلب فغـير مغـلَّبينـا
ومـا إن طبّـنـا جبـن ولكـن	منـايـانـا ودولةُ آخـرينـا[5]

---

(١) نعار — عاص أو متمرد .

(٢) فروة — هو فروة بن مسيك بن الحارث المرادي ، استعمله النبي ﷺ على مراد لما وفد عليه، مات سنة تسع من الهجرة رضي الله عنه .

(٣) سعد — هو سعد بن عبادة بن دليم الأنصاري سيد الخزرج شهد العقبة وكان أحد النقباء مشهوراً بالجود له كثير من المناقب مات بالشام سنة ١٥ هجرية .

(٤) حديث أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً ، أورده ابن حجر في الإصابة وسكت عليه (٣/٢٠٠) .

(٥) هذه الأبيات الثلاثة الأول نقلتها كما هي من الأصل وفيها أخطاء وصحتها : كما عند ابن هشام :

مـررن عـلى لفـاة وهُنَّ خُـوض	ينـازعن الأعنـة ينتحينـا
فـان نَغـلْب فغـلابون قدمـا	وإن نُغْـلَبْ فغـير مغـلبينـا
ومـا إن طبُـنَـا جبـن ولكـن	منـايـا نـا وطعمـة آخـرينـا

كذاك الدهر دولتُه سجال تكرُّ صروفُه حيناً فحينا
فبينا نُسُّر به ونَرضى ولو لبست غَضارته سنينا
إذا نزلتْ به كَرّاتُ دهر فألفيتَ الألى غبطوا طحينَا
فمن يغْبط بريب الدهر منهم يجد ريب الزمان له خئوناً
إذا ماالدهر جرَّ على أناس كلا كله أَناخ بآخرينا
فَلو خَلَدَ الملوك إذاً خَلدنَا ولو بقي الكرام إذاً بقينَا
فأفنى ذلكم سروات قَومي كما أفنى القرون الأولينا

والنساء مصدر نسيء ينْسأ نساء فهو نَاسيء ومنسيء ، واسم المفعول منْه منسأ ، قال رسول ﷺ ((من أراد أن يمد الله له في رزقه ، وينسأ في أثره فليصل رحمه))[١] .

يروى أن ملك الموت أتى سليمان عليه السلام يزوره ، فبينما هو عنده ، إذ جاءه فتى من بني إسرائيل ليعقد له على فتاة من قومه ، ففعل سليمان عليه السلام ، فانقلب الفتى مسروراً ، فتبسَّم عزرائيل عليه السلام ، فقال له سليمان : مم ضحكك ؟ قال : من هذا الفتى الذي عقدت له آنفاً ، فانقلب مسروراً ولم يعلم انه لم يبق من عمره إلا ثلاثة أيام ، فجعل سليمان ينتظر وفاته عند الثلاثة الأيام ، فلم يمت ـــ فراى عزرائيل بعد ذلك ، فقال له : ألست أخبرتني أن الفتى يموت بعد ثلاثة ايام ، وله سنة من يومئذ ؟ قال له عزرائيل : أما إني لم أكذب عليك ، إنما أخبرتك بما كان عندي في النسخة التي كانت بيدي ، فلما ذهب من عندك وصل رحمه ، فصيَّر الله الثلاثة الأيام ثلاثين سنة ، وذلك أن الله كتب عنده في أم الكتاب أن الفتى أجله كذا إن لم يصل رحمه ، فإنْ وصل رحمه فأجله كذا ، فقضى الله أن وصل رحمه ، فزاده تلك الثلاثين ، فمحا مابيدي ، وأثبت مكانه ماكان عنده في أم الكتاب ، قال الله تعالى : ﴿ **يمحو الله مايشاءُ ويُثبتُ وعنْده أمُّ الكتاب** ﴾ [الرعد : ٣٩] وهما[٢] على كلا الوجهين معناهما المتبادر بديهة الزيادة والتأخير ، قَال الله تعالى : ﴿ **إنَّما النسيء زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً ليواطئوا عِدَّة ماحرَّم الله** ﴾ [التوبة:٣٧] وذلك أن العرب كانت إذا انصرفت من الموسم فأرادت حرباً أو غزواً أتت النسيئة فأحلَّت لها شهراً

---

(١) حديث من أراد يمد الله له في عمره الخ .. حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم وأبو داود بلفظه « من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه » ومعنى ينسأ له في أثره يؤخر له في أجله .

خ (١٠ / ٣٤٨) م (٢٥٥٧) د (١٦٩٣) .

(٢) الضمير عائد على النسي بالقصر ، والنساء بالمد .

من الأشهر الحرم ، وجعلت محله شهراً من أشهر الحل ، ليكملوا بذلك الشهر الحلال الذ
حرَّموه بزعمهم عدة الأشهر الحرم الثلاث المتواليات ، وهي ذو القعدة وذو الحجةوالمحرِّم
ويحِرِّمون أحد الصَّفرين . فقد زادوا أحد الصفرين ، وأخَّروا حرمة المحرم إلى العام القَابِل ، وأو
من نسأ على العرب بنو فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، فه
الذي كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية ، وكان القلمَّسُ أول من سن ذلك ، فدان
له العرب ، وهو حذيفةُ بنُ عدي بن فقيم بن عدي ، وتوارثتْ ذلك بنوه من بعده حتى كا
آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو ثمامةَ جُنَادة بنُ عوف بن أمية بن عباد بن حذيفة وه
القَلمَّس ، فإذا ارادوا الصدر قَام فيهم ، فقال : اللهم إني قَد أحللت أحد الصَّفَرين ، وأنسأ
الآخر للعام المقبل .

وفي ذلك يقُول عمرو بن قَيس يفْتخر : (من بحر الوافر) .

لقــد عــلْمت معــدٌ أن قــومي — كرام النــاس إن لهــا كرامــا
فــأي النــاس فَــاتُــونا بــوتْــر — وأيُّ النــاس لم تُــؤْلِك[1] لجــاما ؟
ألســنــا النــاسئــين على معــدٍّ — شــهــور الحِــلِّ نجعــلهــا حراما

قال رحمه الله :

١٨ ــ فَجُدْ بالفَضَى واغْشَ الفَضَاءَ ولا تكُنْ — دَوىً فــاتقَــاءُ الْمـوُبِقَــاتِ دَواءٌ

قوله: جد، فعـل أمر من جاد ــ بالفضى: قيـل: هو العطـاء الواسع. وقيـل: طعا
الدعوة الواسع الذي يعـم الشـريف والمشـروف ، والمجهول والمعروف ، قال ﷺ : ((بئس
الطعام طعام الوليمة يأكله الأغنياء ويمنع منه الفقراء))[2] .

واغش الفضاء ، وهي الأرض الواسعة ، وسميت بذلك ، لأن كل حيوان يفضي إلي
بجنْبه ، وذلك تلميح لقوله : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياءً وأمواتاً** ﴾ [المرسلات : ٢٥
وسميت الأرض بالفضاء ، من باب تسمية الشيء باسم ملازمة ، وهو الإفضاء المهنأ[3] الذي ه

---

(١) تؤلك ــ من ولك اللجام إذا مضغه .

(٢) حديث بئس الطعام طعام الوليمة الخ .. رواه الدار قطني ورمز له السيوطي بالحسن وسكت عليه المناو
(٢١٣/٣) وقال فيه العرس، بدل الوليمة والمساكين بدل الفقراء .

(٣) المهنأ ــ المهيأ المريح .

بمعنى المباشرة ، قال الله تعالى في وصفها بذلك : ﴿ **والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾ [الذاريات : ٤٨] وقال : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ [النبأ : ٦] لاتغرق كالماء ، ولا تزلق كالهواء ، ولاتمنع الوطأة كالحرار .

قوله : ولاتكن ، جازم ومجزوم ، دوي خبر كان ، أي ذا جهل وحمق ، وهو المهذار من غير فائدة ، وهو مأخوذ من دوي النحل ، فإنه يسمع له دوي ودندنة ، ولافائدة تحته ، فاتقاء أي اجتناب الموبقَات ، أي المهلكات من الأعمال والاعتقادات دواء بالمد وحقيقة الدواء عقار يؤلف من منافع النباتات والمعادن يستعمل لدفع الداء ، وإنما عنى المؤلف الاحتماء من ارتكاب الاخلاط المضرة ، لأنه الدواء الذي لاداء معه ، ولادواء يشاكله ، قال ﷺ : ((ليس التقي من بكى ومسح الدموع ، ولكن التقي من اتقى مانهى الله عنه)) .

والمصنفُ أشار في بيته هذا إلى أربعة فصول كل منها مهم :

الأول : السخاء بقوله : فجد بالفضى .

الثاني : العزلة ، بقوله : واغش الفضاء .

الثالث : التوقي من التهور وعدم الكيس ، بقوله : ولاتكن دَوىً .

الرابع : الاحتماء من مباشرة مايجلب الداء المؤدي إلى طلب معالجته بالأدوية .

أما السخـاء : فناهيك من فضـله قوله تعالى : ﴿ **فَأما من أعطى واتّقى ، وصَّدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى** ﴾ [الليل : ٥ ـــ ٧] وذلك أنَّ الإنسان إذا همَّ بالصدقة أتاه شيطان الصدقة فيحسِّنُ في عينه المبذول ، فإن كفَّ وإلا حذَّره الفقْر ، فإن كفَّ فذلك ، وإلا أمره بالرياء والسمعة ، ليفسد عليه عمله الذي غَلبه آن يكفه عنه ، فإن أخلص نيته لربه وأعجزه ، أَتاه من وجه آخر وهو ان يلقي في نفسه أن الله لايَخْلف له ماتَصدَّق به في الدنيا ، ولايثيبه عليه في العقبى . ويوسوس له بعيوب المتصدق عليه ، وهل هو ممن يتَقبل الله الصدقَة عليه ، فإن غَلبه على هذه بأن أعطاها مخلصاً موقناً بالخلف منْه في الدنيا ، والثواب في الآخرة ، فسنيسره لليسرى ، وهو تيسير الطاعات عليه في الدنيا المقتضي لتيسير الحساب في الآخرة الدال على دخول الجنة ، لقوله تعالى : ﴿ **فسوف يحاسَب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً** ﴾ [الانشقاق : ٨ و ٩] بالرضوان ودخول الجنة ، يقال : إن من علامة سعادة المرء تيسير أسباب الطاعات عليه ، ولو لم يكن له بها كبير همة ، وتعسير أسباب المعاصي عليه وإن

جد في تَحصيلها ، والعكس للعكس ، وقال ﷺ : ((ماجبل ولي الله إلا على السخاء))[1] وقال : ((إن بدلاء أمتي لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن بصفاء القلب ، وبسخاء النفس ، والنصيحة لجميع المسلمين))[2] وقال ﷺ : ((طلبت خمسة فوجدتها في خمسة ، طلبتُ صفَاء القَلب فوجدتُه في صيام الصيف ، وطلبتُ رضوان الله فوجدته في إكرام الضيف ، وطلبت الغنى فوجدتهُ في القناعة ، وطلبتُ العِزَّ فوجدتهُ في الورعِ ، وطلبتُ خير الدنيا والآخرة فوجدتهُ في قيام الليل))[3] وقال تعالى : ﴿ **ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [الحشر : ٩] قال علي كرم الله وجهه : ليس الشح في الإنسان بعجب ، لأن الله جبل عليه نفس الإنسان ، وإنما العجب فيه وجود السخاء ، قال الله تعالى : ﴿ **قُل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً** ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

يروى أن السخاء اسم شجرة في الجنة مكتوب عليها أسم كل سخي ، فإذا وقع في يده وَفْرٌ ، ورأى محتاجاً إليه بذله ، فإذا رأى الشحيح وقد أمسك وفره عليه وهو يتفسح ويتوسع فيه، قال في نفسه لئن وجدتُ مالاً لأمسكته على نفسي كما فعل فلان الشحيح، فإذا وقع في يده

---

(١) حديث « ماجبل ولي الله إلا على السخاء» الخ .. موضوع أخرجه ابن الجوزي في موضوعاته بزيادة وحسن الخلق وقال : هذا حديث لايصح ، قال أبو زرعه والنسائي : يوسف رواية متروك الحديث ، وقال أبو نعيم : ليس بشيء ، وقال ابن حبان : لايحل الاحتجاج به ، وقال الدراقطني : متروك يكذب ، والحديث لايثبت أهـ (١٧٨/٢) ابن الجوزي، وأورده صاحب الإحياء بلفظ « ما جبل الله تعالى ولياً له إلا على حسن الخلق والسخاء » قال العراقي : رواه الدارقطني بسند ضعيف جداً (٢٣٨/٣) إحياء .

كما أورده صاحب « الكشف » تحت رقم ٢٢٠٢ بزيادة وحسن الخلق وقال : رواه الديلمي بسند ضعيف وراه الدارقطني وأبو الشيخ .

(٢) حديث «إن بدلاء أمتي لم ينالوا مانالوا» الخ .. ضعيف جداً رواه الدارقطني والخلال وعنهما الغزالي في الإحياء بلفظ « إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ، ولكن دخلوها بسلامة الأنفس ، وسخاوة الصدور» قال العراقي فيه محمد بن عبد العزيز ، أورد ابن عدي له مناكير ، وفي « الميزان » إنه ضعيف منكر الحديث (٣/ ٢٤٠) إحياء .

كما أورده صاحب « الكشف » تحت رقم ٨٨٩ وحاول في موضع آخر تحسينه بكثرة طرقه إلا أنه اعترف أخيراً بضعفه ، والله أعلم .

(٣) لم أجد الحديث بهذا اللفظ .

شيء اسدلتْ عليه شجرتهُ أغصانها، فيقذف الله في قلبه في اليقين والرحمة مالا يقدر على الإمساك معه ، وأما الشحيح فإنه إذا رأى الكريم وما منحه الله من الخلف وحسن الثناء ، قال في نفسه : لئن استفدتُ فائدةً من غير ماقابلتُ به الحقوق لأنفقنَّ منه كما أنفق فلان الكريم ، فوجد الخلف وإحراز الثناء ، فإذا استفاد مالاً أسدلت عليه شجرة الشح المغروسة له في أصل جهنم أفنانها ، فيقذف في قلبه منْ خوف الفَاقة وقلة الشفقة مالا يقدر معه على البذل ، فلا يزالان كذلك حتى يموتا ، فيأوي كل واحد منهما إلى شجرته ، فهما صاحبا الدرعين اللذين ضرب لهما رسول الله ﷺ مثلاً في الصحيحين[1] فالشحيح هو صاحب الدرع المقَلص ، يريد أن يوسعها فلا تتسع ، بل تلزق كل حلقة مكانها من جسده لشح نفسه وخبثها وسوء حظها عند الله وصاحبه ، كلما أعطى عطية اتَّسعت وسبغت حتى تعفي أثره .

فإن قيل : أي النَّاس أكرم ؟ فالواجب عليك أن تقول رسول الله ﷺ ولو كان المثل سائراً بحاتم[2] الطائي وكعب[3] بن امامة الإيادي، إذ قد أثبت ذلك رسول الله ﷺ لنفْسه بحضرة عدي[4] بن حاتم .

يروى أن عدياً لما وفد على رسول الله ﷺ فقال له بعدما أسلم : ألسنا يارسول الله خير الناس شاعرنا سيد الشعراء ، وهو امرؤ[5] القيس ، وفارسنا أفْرس فالفُرسان ، وهو أبو ثور

(١) يشير بذلك إلى الحديث المتفق عليه ولفظه عند البخاري « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع . البخاري كتاب الزكاة .

(٢) حاتم ـــ هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي فارس جواد جاهلي يضرب المثل بجوده مات سنة ٤٦ قبل الهجرة .

(٣) كعب ـــ هو كعب بن مامة بن عمرة الإيادي يضرب به المثل في حسن الجوار والجود ، وهو جاهلي لا يعرف تاريخ موته .

(٤) عدي ـــ هو عدي بن حاتم الطائي ، أسلم سنة تسع من الهجرة وكان نصرانياً قبل ذلك ، شهد فتح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع علي ، مات بعد سنة ستين وقد أسن رضي الله عنه .

(٥) أمرؤ القيس ـــ هو أمرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ، أشهر شعراء العرب يماني الأصل ، مولده بنجد ـــ قيل : كان أسمه عدياً ، وكان أبوه ملك أسد ، اشتهر باللهو والمجون إلى أن قتل أباه بنو أسد ، فقال كلمته المشهورة ، اليوم خمر وغداً أمر ، ثم ذهب يطلب ثأر أبيه ، ولم يزل كذلك إلى أن اتصل بقيصر الروم ، فأعطاه العون ، إلا أنه أرسل له حلة مسمومة أصابته بقروح ومات عام ٨٠ تقريباً قبل الهجرة ! والله أعلم .

عمرو بن معدي كرب ، وكريمنا أكرم الكرماء ، وهو أبي حاتم بن عبد الله ، فقال رسول الله
ﷺ : لا بل أشعر الشعراء خنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية ، وافرس الفُرسان علي بن
ابي طالب ، وأكرم الكرماء محمد بن عبد الله ، فقال : صدقت .

واختلف في الكرم والجود والسخاء ، فقيل : ألفاظ مترادفة ، وقيل : بينهما خُصوص
وعموم ، وذلك أولى ، لما فيه من زيادة العلم ، فالكريم هو الذي جمع أنواع الكرم حتى بلغ
النهاية التي لايتأتَّى المزيد عليها من كرم النفس المنْبجس[1] منها كرم الأخلاق والشيم، ولايتم
حتى يضاف إليه كرم الأصل ، والإكرام بالتقوى ، فيكون كنبي الله يوسف بن نبي الله
يعقوب بن نبي الله اسحاق بن خليل الله إبراهيم ، فيكون مركباً من مطبوع ومكسوب
فالمطبوع ماجبل عليه الإنسان في أصل غريزته التي طبعه الله عليها ، والمكسوب مامنحه الله له
في ظاهر الكسب كالتقى ، قال الله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾
[الحجرات:١٣].

فأَكَّدَهُ بأمرين :

أحدهما : إتيانه به تعالى على أتم وزن من أوزان المبالغة وأتم وصف من أوصاف أفعل
التفضيل .

الثاني : إضافته له ليقع الحصر والانتهاء .

وأما دليل افتقاره إلى كرم الأصل ، فقَوله ﷺ لما سئل : أي النَّاس أكرم ؟ فقال
((أكرم الناس يوسف نبي الله بن يعقوب نبي الله بن إسحاق نبي الله بن إبراهيم خليل الله))
قالوا : لسنا نسألك عن هذا قال : ((أعن معادن العرب تسألوني ؟)) قالوا : نعم ، قال
((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا[2])) وقال أيضاً : ((الناس معادن كمعادن
الذهب)) .

وقال ﷺ ((أنا أكرم الناس حسباً ، وأعرقها نسباً ، ماتشعبت شعبتان إلا كنت

---

(١) المنبجس ـــ المتفجر ـــ وقيل الانبجاس أول الانفجار .

(٢) حديث لما سئل أي الناس أكرم: حديث صحيح متفق عليه رواه البخاري في كتاب الأنبياء بلفظ
قيل: يارسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فيوسف نبي الله ابن نبي الله
ابن نبي الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية
خيارهم في الإسلام إذا فقهوا .

ي خيرهما من لدن آدم حتى خرجتُ من بين أبوي ، فأنا النبي العربي القرشي الهاشمي المكي الأبطحي الزمزمي))[1] فالكرم لاينبع إلا من النفوس الشريفة الزكية، إذ لا غاية تلحقه، ولا رتبة توازيه .

يروى أن الله إنما خاطب الإنسان بقوله : ﴿ **ماغرَّك بربك الكريم** ﴾ [الانفطار:٦] إلا ليلقنَه حجته بأن يقول : غرّني كرمك ، فلا يقول ذلك إنسان إلا غفر له وعفا عنه بالغَة ذنوبه مابلغتْ ولا يبالي .

يروى أن أبا بكر رضي الله عنه قرأ هذه الآية ، فاستعبر ، ثم قال : من لؤمنا وكرم الله أن خلقنا ورزقنا ودبَّر أمرنا ، وكرَّمنا . ثم عصيناه ، فلما أنشرنا بقُدرته وكان يوم غضبه وانتقامه خَاطبنا خطاب الكريم المشفق الرحيم ليلقننا حجتنا، فقال: ﴿ **ياأيها الإنسان ماغرَّك بربك الكريم، الذي خلقك فسوَّاك فعدلك، في أي صورة ماشاء ركَّبك** ﴾ [الانفطار ٦ــ٨] .

يروى أن الله تعالى يأمر مُنادياً يوم القيامة ينادي ، ألا من كان معروفاً بالكرم فليعتزل عن أهل المحشر لأخلو بهم وأريهم كرمي لتخلقهم بخلقي وتسميتهم باسمي ، فإني أجلهم أن أؤاخذ خلقي بذنوبهم وهم شاهدون ، فيأمر بهم فيكسون من حلل الكرامة ، ويَتوَّجون من تيجان القُرب والسلامة ، ثم يؤتَون بمطايا لها أجنحة من نور فلا تأوي[2] حتى تدخلهم ظل عرشه فيحيِّيهم ويقول لهم : أنتم الذين كنتم تؤثرون على أنفسكم الفقراء وأرباب الفاقة والغرباء والأيتام ، وكنتم تأنفون أن أراكم على لؤم أو نقص أو رذيلة ، فيقولون : بفضلك وفقتنا وبكرمك شرَّفتنا ، وبجودك عرَّفتنا ، وبإرادتك صرَّفتنا فلك الحمد ، فَالكل منك وإليك ، تَباركت وتَعاليت ، فيقُول : ارضيتُم عبادي إذ صيَّرتكم إلى كنفي ، والناس يعالجون شدائد المحشر ، فيقُولون نَحن عنك راضون إلا أنك خلقْتنا وجبلتَنا على الغيرة والأثرة ، ولنا أحباء وأقرباء وعشائر ومعارف ، يشق علينا أن نؤثر أنفسنا عليهم في دار الدنيا دار الفقر والفاقة ، وكيف

---

(١) حديث : أنا أكرم الناس حسباً وأعرقها نسباً الخ .. أورده الشوكاني في فوائده ، وإن كان اللفظ غاير لفظ الشيخ في كثير من الألفاظ وقال : هو موضوع وضعه بعض القصاص .

ولفظه : أين كنت وآدم في الجنة ؟ قال في صلبه وأهبط إلى الأرض وأنا في صلبه إلى أن يقول : لاتنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما (١/٣٢٠) فوائد والله أعلم .

(٢) تأوي ــ كذا في الأصل ولعل المقصود ــ فلا تستقر ، وفي النسخة ب فلا تأوي بهم والمراد : فلا تمكث .

وقد رأينا من جودك وكرمك وواسع فضلك في دار كرامتك وجوارك ماأريتنا فيقول : ليس لهم من الأعمال مثل مالكم ، ولا لهم عندي من المنزلة مالكم ، فيقولونَ : قد علمنا ، لكن فضلك يسعهم ، وأنفسنا تطيب بأن تعطيهم ثواب أعمالنا فتدخلهم الجنة وتدخلنا النار ، فيضحك الكريم ثم يقول لملائكته : انظروا ياملائكتي إلى كرم عبادي هؤلاء ، إذ رضوا بدخول النار في مثل هذا الموقف وقد عاينوا من كرامتي إياهم ماعاينوا في جنب إيثارهم وكرمهم الذي قد جبلتُهم عليه في دار الدنيا ، جبلتُهم على كرم النفس والأثرة في دار الدنيا ، وبعثتُهم على ذلك ، فهل منكم معشر الملائكة من يقدر على مثل هذا فيقولون لا ، فقال ذلك لتعلموا أني أعلم في آدم وذريته من الكرم مالا تعلمون ، فأقروا بشرف بني آدم ، فقال : أشهدكم وأشهد ملائكتي أني قَد ألحقتُ بكم ذريتكم وشفعتكم في كل من شفعتم فيه من أحبابكم وعشائركم ومعارفكم ، من غير أن أنقص من أعمالكم مثقال ذرة ، أفتروني كرمكم اليوم وأنا أكرم الأكرمين .

يروى أنه بينما رسول الله ﷺ جالس بين أصحابه، إذ تَبسم، فقيل له: مم ضحكك؟ أضحك الله سِنَّك، قال : رجل من أمتي خوسب، فاستَوتْ حسناته وسيئاتُه ، فبقي متَحيراً دهشاً ، فلما رأى الله ذلك من أمِره، قال له: اذهب إلى أهل المحشر فانظر هل يُرْفِدُكَ أحد من أهل المحشر بحسنة فأدخلك الجنة مع رحمتي، فيطوف في أهل المحشر، فكلما جاء أحداً عجب منه وابتعد أن يعطي أحد حسنةً من حسناته في مثل هذا اليوم، حتى إذا أتى رجلاً من أمتي وبيده سِجِلٌ من الخطايا وليست له إلا حسنةٌ واحدة، فيقول له: هلم أعطيك حسنتي هذه ليدخلك الله بها الجنة فإني لأأراها تغني عني شيئاً في هذا السجل المملوء خطايا، فلئن فاتني دخول الجنة فلأكونن سبباً لدخول مسلم الجنة، فيرجع إلى الله مسروراً بحسنته، فيسأله الله وهو أعلم، فيقول له: هل منحك أحد من أهل المحشر حسنة؟ فيقول: لا، إلا أن رجلاً لم أجد عنده إلا حسنة واحدة، وعنده سجل من السيئات، فلما علم أنها لاتغني عنه شيئاً منحنيها، فيقول الله: أتعرفُه ؟ فيقول: لا يارب، فيقول الله: أنا أعرفه، ذلك فلان، فيرسل إليه بعض ملائكته فيأتون به، فيقول له: ما حملك على أن اعطيتَه حسنتك في مثل هذا اليوم؟ فيقول: يا رب رأيتُ ذنوبي كثيرةً، فَعلمت أنها أخلقتْ وجهي عندك، وما رأيتُ أن تلك الحسنة تُغني عني شيئاً فحيثُ فاتني دخول الجنة، لأكونن ممن تسبب لأخيه المسلم حتى أدخله الجنة، فيقول

الله له: إنك لكريم، وإني آليتُ على نفسي أن لاأعذِّب كريماً، أفترني كرمك في مثل هذا اليوم؟ اذهب فقد غفرت لك جميع ما اقترفتَ، وجعلتُ مكان كل سيئة حسنة، وأضعفتُ لك في العطاء، وألحقتُ بك صاحبك الذي كنتَ سبباً في إدخاله الجنة، وشفَّعتُك في أهل بيتك، وأعطيتهم مثل ما أعطيتُك، ولذلك ضحكتُ إذ رأيتُ الكرم ينفع في الآخرة كما ينفع في الدنيا.
وأما الجود، فإنه في مقابلة الشح، فكل كريم جواد، وليس كل جواد كريماً، فبذلك يدخل الجود في الكرم، ولايدخل الكرم في الجود، فصار الجود جزءاً من أجزاء الكرم، وقصاراه ما أخرج صاحبه عن وصف الشح من غير زيادة، إلا أن ذلك يقَع منه وينْبعثُ من غير تكلف، قال الله تعالى: ﴿ **ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [الحشر:٩] وقال الرسول ﷺ : ((من أكرم ضيفه ، وأدى زكاته ، وأعطى في النائبة، فقد وقي شُح نفسه)) .

وأما السخاء فحقيقته : البذل عند الوجد مع تكلف وتعسف ، يوجد تَارة ، ويفقَد أخرى .

كما قال الشاعر :

ليس العطـاء من الفضـول سماحـةً ... حـتى تجود ومـالديك قـليـل

وأما العزلة، فإنها أصل من أصول التَّصوف ، وسبب من أسباب التَّعرف ، درج عليها المرسلون، وتنافسَ فيها الأولياء والصالحون، لأنها مضمار الفكرة وسلم العبرة. قَال ابن عطاء: ما نفع القلبَ شيءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة وفي الحكم :
يقول الخطاف: البعد من الناس أنس .

وقال أبو طالب [1] المكي : (من بحر الكامل)

يـا من يـريـد منـازل الأبـدال ... من غـير قصـد منـه للأعمـال
لاتطعمنْ فيهـا !فـلست من أهلها ... إن لم تـزاحمهـم عـلى الأحـوال
بيت الولايـة قُسِّـمتْ أركانـه ... سـاداتنـا فيـه من الأبـدال
مـا بـين جـوع واعـتزال دائم ... والصـمت والسـهـر النزيـه الغـال

(١) أبو طالب المكي ــ هو محمد بن علي بن عطية الحارثي ، واعظ مشهور ، زاهد فقيه ، من أهل الجبل بين بغداد وواسط ، نشأ بمكة ورحل إلى البصرة ، واتهم بالاعتزال ثم ارتحل إلى بغداد وهجره الناس لأقوال قالها ، وبها توفي عام ٣٨٦ هجرية .

والعزلة ربما أورثت الخمول الذي لاسبيل إلى السلامة بدونه، ولاكمال للأعمال والعيش بغيره .

قال ابن عطاء:

ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبتَ مما لم يدفن لايتم نتاجه .

وفي التنوير : (من بحر البسيط)

عشْ خامل الذِّكر بين الناس وأرض به — فذاك أسلم للدنيا وللدين

من عاشر النَّاس لم تَسلم ديانته — ولم يزل بين تحريك وتسكين

يروى أن الشعراني[1] لما فرَّ من القضاء والخلطة، وهام على وجهه، طلبه خليل له حتى إذا رآه امتنع من أن يمكنه من الاجتماع به، وكانت تطوى له الأرض، فناشده بالله والعشرة أن يمنحه جناح حكمته إذ فاته لذيذ وصله فالتفتَ إليه وقال له : (من بحر السريع)

يالائمي في قربهم جاهلاً — عذري منقوش على خاتم

ما في اجتماع الناس خير ولا — ذو الجهل بالأشْياء كالعالم

فلم يَتَمَكَّنْ من الخاتم حتى مات القَاضي عبد الوهاب، فإذا هو قد نقش على فص خاتمه قوله تعالى: ﴿ **وما وجدنَا لأكثرهم من عهد وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ [الأعراف:١٠٢] فالباقي بعد الأكثرين أقَل قَليل .

يروى أن عمر دخَل على رسول الله ﷺ في بعض حجراته، فاذا هو مضطجع على حصير مرمل[2] بشريط من العرم[3] وقد أثَّر في جنبيه، وإذا الحجرة كأنها قَفَص طائر منْ ضيقها وغمها ، فلما رأى عمر ذلك بكى، فقال له رسول الله ﷺ : « مايبكيك يا عمر؟ » قال: إن كسرى وقيصر مع ماهما عليه من الكفر يتنعمَّان بالحرير والديباج ، وأنتَ خيرتُه من خَلقه لم تَجد فراشاً يحول بينَك وبين التراب ، فقال له رسول الله ﷺ : أما ترضى يا عمر أن تكون

---

(١) الشعراني ــ هو عبد الوهاب بن احمد بن علي الحنفي ، نسبة إلى ابن الحنفية من علماء المتصوفين له كثير من المؤلفات النافعة توفي بالقاهرة عام ٩٧٣ هجرية .

(٢) مرمل منسوج ــ تقول رملت الحصير وأرملته إذا نسجته . والمراد أن جنبه الشريف لم يكن بينه وبين نسج السرير أي فراش .

(٣) العرم ــ سواد مختلط ببياض ــ والمراد والله أعلم ــ أن نسيج السرير من لونين .

الدنيا ولنا الآخرة ؟» قال: بلى، قال: مالي وللدنيا، ما مثلي ومثلها إلا كمسافر اضطره حر
جير إلى ظل شجرة فقال تحتها، فلما تفيأت الظلال سار عنها وتركها [1] ياعمر أوحى ربك
الدنيا أن تكدري وتشددي[2] وتمدَّري على أوليائي حتى يحبوا لقائي وتزيني وتوسعي وتطيبي
دائي حتى يكرهوا لقائي، فإني جعلتك سجناً لأوليائي، وجنة لأعدائي يا عمر إذا زهد العبد
الدنيا رزقه الله أربعة أشياء، علماً من غير تعلم، وهدى من غير هادٍ، وعزاً من غير عشيرة،
ىً من غير مال، يا عمر أحبُّ عباد الله إلى الله الأتقياء الأنقياء، الشعث رؤساً، الدنس ثياباً،
ين لاينكحون المتنعِّمات، ولا تفتح لهم الأبواب، إن يقولوا لم يسمع قولهم، وإن يقدموا لم
ح بهم، وإن يمرضوا لم يعادوا، وإن يموتوا لم تشهد جنائزهم، فقال عمر: من لي برجل منهم
له رسول الله ﷺ : ((منهم أويس[3] القرني، إنك ستلقاه في آخر عمرك، فإذا لقيته فاقرئه
السلام، قال: صفه لي يا رسول الله، قال: إنه رجل أسمر طويل واسع الصدر، تجده يرعى
قومه بعرفات وهو يصلي، واضعاً ذقنه على صدره، ودموعه تجري على خده، تحت إبطه
ن شامة بيضاء من بقية برص كان به، فدعا الله فأزاله إلا تلك الشامة، أحب أن تبقى
كر بها نعمة الله عليه، وإنه ليوقف يوم القيامة فيشفع في مثل ربيعة ومضر ، فإذا ذهبت إليه
تصحب علياً واسألاه أن يدعو لكما بالمغفرة))[4] .

---

(١) حديث : دخل عمر على رسول ﷺ الخ .. حديث صحيح ـــ رواه أحمد والترمذي والحاكم بلفظ
ب من رواية الشيخ ـــ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/٣١٠) مستدرك وليس فيه (سرير مرمل بشريط من
وإذا الحجرة كأنها قفص طائر ـــ وفي آخره زيادة ـــ سار في يوم صائف وأول الحديث في الصحيحين بلفظ
، وأشمل من رواية الشيخ .

(٢) أما حديث : أوحى ربك إلى الدنيا الخ فهو موضوع أورده ابن الجوزي في موضوعاته بلفظ «أوحى الله
دنيا أن اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك ، وقال قال الخطيب مدار رواية هذا الحديث على الحسين بن
عن الفضيل بن عياض وهو وضاع ورجاله كلهم ثقاة غيره (٣/١٣٦) .

(٣) أويس القرني ـــ هو أويس بن عامر ، ويقال : ابن عمرو القرني التميمي العابد ، نزل الكوفة يماني
ـــ من أشهر التابعين قيل مات بالحيرة وقيل بصفين .

(٤) حديث احب عباد الله إلى الله الخ .. لم أجد له سنداً صحيحاً بهذا اللفظ نعم روى مسلم أحاديث في
منها أنه يأتي مع أمداد اليمن ، وأنه كان مصاباً بالبرص فبرىء منه إلا موضع درهم ، وله والدة بها برلو أقسم
لله لأبره ، وقال لعمر : إن استطعت أن يستغفر لك فأفعل ، وأن عمر قابله واستغفر له الخ .. =

فلما مضت من خلافته تسع سنين حج وحج معه علي رضي الله عنهما، فما هو إلا أ
جاء وسأل عن أهل اليمن، فدل عليهم، فلما أتاهم سألهم أيُّكم أوَيس القرني؟ فقالوا: مثلك
أمير المؤمنين لا يسأل عن مثله ؟ قال: ولم ؟ قالوا إنه رجل مسلوب العقل والمروءة يلبس
الحصير ويلتقط من المزابل والطرقات مما تلقيه الناس من عفن أطعمتهم، وربما التقط النو
فاكتفى به، يتكلم وحده، ولا يألف أحداً، ولا يأوي إلى معمور، فصاح عمر حتى غشي علي
فقال: ويلكم دُلُّوني عليه، فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه يشفع في مثل ربيعة ومضر(١)
فقالوا هلاَّ أمرت أحدنا يأتيك به فإنه أهونُ رجل عندنا. قال: بل آتيه بنفسي في مكانه الذ
هو به، فبذلك أمرني رسول الله ﷺ فأرسل إلى علي رضي الله عنه فذهبا إليه فوجداه ع
الصفة التي وصف لهما رسول الله ﷺ فسلما عليه فأوجز في صلاته ثم رد عليهما السلام فق
عمر: من أنت أيها الرجل؟ قال: راعي إبل وأجير قوم قال: إنما أسألك عن اسمك قال: أنا ع
الله قال: ما الاسم الذي سمتك به أمك؟ قال: وما أربك إلى ذلك؟ قال: ألست أويساً القرني
فأسألك بالله إلا مارفعت جناحك الأيمن فعلم أنهما يريدان ان يستثبتا نعتاً بلغهما عن رسو
الله ﷺ ، فرفع جناحه ، فإذا الشامة، فقال عمر: هو والله، فقال لهما: من أنتما إذ أطلعك

= هذا مع أن مالكاً رحمه الله كان ينكر أويساً ، ويقول : لم يكن ذكر ذلك الذهبي في « ميزان الاعتدال
له (١/٢٧٩) .

قلت : ذكر ابن الجوزي في موضوعاته خبراً عن أويس وقال : وضعوا خبراً طويلاً في قصة أويس ، و
يصح في الحديث عن أويس كلمات يسيرة جرت له مع عمر ــ إلى أن قال ــ فأطال القصاص واعرضوا
حديث أويس بما لافائدة في الإطالة بذكره (٢/٤٤) موضوعات .

وعلى كل حال فهذا الحديث ليس متصلاً بحديث عمر ــ دخلت على رسول الله ﷺ وليس الذي ق
متصلاً به ولا الذي قبل ذلك ، وإنما الكلام مجموعة من الأحاديث بعضها صحيح ، وبعضها حسن ، وبعض
موضوع كما سبق والله أعلم .

(١) حديث : إنه يشفع في مثل ربيعة ومضر : منكر ــ اورده الذهبي في «سير اعلام النبلاء» بلفظ
يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من مضر وتميم ، قيل : من هو يارسول الله قال : أويس القرني وقال : ه
حديث منكر انفرد به الأعين وهو ثقة (٤/٣٢) سير،قلت : علته ليست من الأعين وهو محمد بن أبي عتا
البغدادي ، ومع أنه ليس من أصحاب الحديث ــ إلا أن العلة من شيخه عبد الله بن صالح وهو ضعيف .

وأخرج الترمذي (٢٤٤٠) وابن ماجه (٤٣١٦) واحمد (٣/٤٦٩) بسند قوي : يدخل الجنة بشفاع
رجل من أمتي أكثر من بني تميم : ولم يعين هذا الرجل والله أعلم .

لله على شأني ، قال له، أنا عمر بن الخطاب ، وهذا علي بن ابي طالب ، وإن رسول الله ﷺ
قرئك السلام، ويأمرك أن تستغفر الله لنا ، فقال لهما: إني لأخص باستغفاري نفسي ولا
غيري ، بل استغفر لجميع المسلمين والمسلمات ، فقال له عمر: هلم إلى الصحبة، فإنك إن
صحبتني كنت في أحسن مما أنت فيه من البلغة، فقال: هيهات إن بين يدي ويديكما عقبة
كئوداً لايجاوزها إلا كل ضامر مهزول من الجوع والسهر، فلما سمع عمر قوله قال: الويل لعمر
ليته كان حيضة، وليت أمه لم تلده، ثم أغمي عليه، فوضع جبهته على قربوس سرجه حتى أفاق،
قال له: ياأويس ما منعك أن تصاحب رسول الله ﷺ، وقد أدركت زمنه، فقال: إني قد رايته
وصحبته، فقال: وكيف ذلك، فقال: رأيته بعيني قلبي، وصحبته باتباع سنته، وكل تابع
صاحب، فهل نفعت أبا جهل رؤيته بعيني راسه؟ إذ لم يره بعيني قلبه، ثم قال لهما: اذهبا من
هذه الثنية، فإني ذاهب من هذه الأخرى فقالا: إنا نريد صحبتك على أن تزيدنا موعظة، قال:
لا سبيل إلى ذلك، وإن من لم يجعل الله له واعظاً من نفسه، فلا واعظ له، فبكى عمر،
وادعه[1] ، فخرج من الثنية حتى إذا رد الإبل إلى أهلها انخزل[2] وكانَ عمر رضي الله عنه قد
شغله من همه ، فتركه حتى إذا انفصل من العمران أدركه فقال: أنشدك الله ووصية رسول الله
ﷺ إلا ما أخبرتني بالمكان الذي تتوجه إليه، قال: أقصد الكوفة، فقال عمر أخبرني بالمكان
الذي تريد لعلّي أبعث إلى عاملي عليها فيأتيك خفية بما تحتاج اليه من الكسوة والنفقة، وتتفرغ
لعبادة ربك، فقال: هيهات لغبراء في قفراء أعبد ربي بها وأخلو بها أحب إليَّ مما طلعت عليه
الشمس من بيضاء وصفراء، فلا تتعب نفسك في شأني، فإن من ذاق طعم نفسه لم يفْلِح أبداً،
فبكى عمر، ووادعه، ثم قال: رحمك الله ما أزهدك وأجهدك في ذات الله ، فاشتهر أمره بمكة
والمدينة واليمن، فاشتاقت إليه القلوب وحنَّت إليه الأرواح . فآلى فتى من الأنصار أن لايسأم
الطلاب أو يلاقيه، وقد بلغ الناس أنه توجه إلى الكوفة، فتوجَّه إليها حتى قدمها، وكان من
أولياء الله ، فسأل في جميع نواحي الكوفة فلم يقع له على خبر، فسأل الله أن يدله عليه إن كان
علم من نيته أنه إنما خرج في طلبه حباً له، فنودي في سره أن اطلبه في البيداء، فذهب إلى
البيداء، فإذا هو به قائم يصلي في مراغ أغبر، فلما دنا منه حياه بالسلام، قال له أويس: وعليك

(١) كذا في الأصل — واودعه .
(٢) انخزل — سار متثاقلاً .

السلام يا فلان ابن فلان ورحمة الله وبركاته، قال: من أنبأك باسمي واسم أبي؟ ولم تتقدم لك بي معرفة، ولا بأبي قال: هيهات يازيد إنه لما قربت مني جالت روحك وروحي في ملكوت ربي، فتعارفا، أليس قد سمعت قول رسول الله ﷺ؟ ((الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))[1] فقال الأنصاري: عظني يرحمك الله ، فقال مات آدم صفي الله، ونوح رسول الله، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله، ومحمد رسول الله خيرته من خلقه، ومات أبو بكر صديق الله ، ومات عمر الفاروق، فقال الأنصاري: إنه لم يمت، فقال: إنه مات البارحة، وأموت أنا وأنت غداً، فكان الأمر كذلك* فغزا هو، وغزا معه الفتى، فأما الفتى فمات في المعركة، وأما هو فرجع مع العسكر فمات رضي الله عنه بالبيداء، فدفنوه من غير أن يعلموا قبره، فلما فصلوا عنه ندموا على أن لايكونوا علّموا عليه، فرجعوا فلم يجدوا لقبره أثراً رضي الله عنه، طلب الخفية والخمول من الله، فأعطاه ذلك في الدنيا والبرزخ[2] . وقد قدمت من أمر العزلة في صدر الكتاب مايكفي ويشفي[3] .

وأما الحمق، فهو ضد العقل، فكل خصلة في العقل، فان في الحمق ضدها!

يروى أن أول ماخلق الله العقل، فقال له: اقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فادبر، فأكحله من نوره، فابصر جميع الأمور، ورتبها على حقائقها، فقال الله له: أنت أحب خلقي إلي، بك

---

(١) حديث الأرواح جنود مجندة الخ.. حديث صحيح رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء كما رواه مسلم وغيره.

(٢) الذي يظهر من سياق هذه القصة أنها مما أشار إليه ابن الجوزي في موضوعاته وانها من وضع القصاصين وذلك لأسباب ثلاثة:

الأول: انها لم ترد بهذا السياق بسند يعتمد عليه.

الثاني: ان فيها عبارات لاتليق بمقام عمر ولمخالفتها ما هو ثابت في صحيح مسلم وغيره

الثالث: ان قصة شبيهة بها رواها أبو نعيم في الحلية له وعنه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » وقال فيها: و تصح، وفيها ماينكر (٢٩/٤). وقال في قصة شبيهة بها: وهذا سياق منكر ولعله موضوع.

قلت: وهذه القصة التي أشار إليها الذهبي بالوضع لاتختلف كثيراً عن قصة الشيخ، والله أعلم .

(٣) انظر ص (٦٢) .

* كون أويس القرني علم باسم الرجل الذي جاء إليه وعلم بموت عمر رضي الله عنه وإخباره بموته هو والأنصاري إلخ لاصحة للقصة كلها كما تقدم ـــ والغيب لله وحده لايشاركه فيه أحد كما أخبر بذلك جل شأنه ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ إلى آخر الآية .

آخذ، وبك أعطي، وعزتي وجلالي لأجعلنك في أحب خلقي إلي[١] قال ﷺ : الناس يعملون، وإنما يثابون على قدر عقولهم انتهى[٢] وهو مأخوذ من العقال لأنه يعقل صاحبه عن ارتكاب مالايليق في العاجل والآجل، قال رسول الله ﷺ : ((كاد العقل أن يكون وحياً)) وهو مطبوع ومسموع، فالمطبوع مثاله كضوء البصر، والمسموع كضوء الشمس، فلا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع، كما لاينفع ضوء الشمس ونور البصر ممنوع قال ﷺ ((الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))[٣] .

---

(١)حديث أول ما خلق الله العقل موضوع رواه ابن عدي، وفيه الفضل بن عيسى قال فيه يحيى رجل سوء وحفص بن عمر قاضي حلب:

قال ابن حبان: لايحل الاحتجاج به بالاجماع، ورواه الدار قطني من وجه آخر، وفيه سيف بن محمد وهو كذاب، ورواه العقيلي عن أبي أمامة مرفوعاً وفي اسناده مجهولان ذكر ذلك الشوكاني في كتاب الفوائد له (٤٧٨/١).

وقال الذهبي في « الميزان » بعد أن أورد الحديث قال أحمد بن زهير سألت يحيى بن معين عن الفضل بن عيسى فقال: كان قاصاً رجل سوء، قال فحديثه قال: لاتسأل عن القدري الخبيث (٣٥٦/٣) ميزان وقال صاحب الكشف بعد أن أورد الحديث تحت رقم ٨٢٣ قال الصغاني: موضوع باتفاق والله أعلم.

(قلت: ليس فيه(فاكحله من نوره إلي على حقائقها).

(٢) حديث الناس يعملون وإنما يثابون على قدر عقولهم منكر رواه الديلمي بلفظ ــ الناس يعملون على قدر عقولهم ــ وعند أبي الشيخ الناس يعملون الخير وإنما يجازون على قدر عقولهم ــ ورواه ابن عدي بزيادة، وأورده الشوكاني في موضوعاته تحت رقم ١٣٤٨ ــ ٤٩ ــ وفيه أحمد بن بشير متروك.

قلت: الذي يظهر ان الحديث ضعيف جداً أو موضوع لأنه لا يروى إلا من طريق أحمد بن بشير الذي قال فيه يحيى متروك، وقال الدارقطني: ضعيف، وقال النسائي: ليس بذاك القوي، وقال فيه عثمان الدارمي: متروك، مع ان البخاري، خرج له قاله الذهبي (٨٥/١) ميزان.

(٣) حديث الكيس من دان نفسه الخ.. أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه في الزهد وأخرجه الحاكم في كتاب الايمان ــ بدون (الأماني) ــ قال الحاكم: صحيح الإسناد إلا أن الذهبي تعقبه قائلاً لا والله أبو بكر واه (٥٧/١) مستدرك وأورده السيوطي ورمز له بالصحة (٦٧/٥) مناوي قلت: ومن الغريب أن الذهبي رحمه الله تعقب تصحيح الحاكم كما تقدم إلا أن الحاكم أورده مرة أخرى بنفس السند واللفظ في كتاب التوبة وقال حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي هنا (٢٥١/٤) وكأنه نسي تضعيفه السابق وعلى كل حال فالترمذي حسن الحديث.

روي عن كعب[1] الإخبار أنه رأى في التوراة ان الله لم يعط جميع خلقه من العقل بالنسبة إلى عقل النبي ﷺ إلا كحصاة من جميع رمال الأرض، ومن حقق سيرته رأى ذلك بديهة، ولذلك بعثه الله إلى سائر خلقه، فإذا جاءه أهل البدو خاطبهم بخطاب أرسن[2] من الهضب وأقطع من العضب[3]، وإذا جاءه أهل الحاضرة خاطبهم بخطاب ألين من الزبد، وأذكى من الورد والند، وما أتاه وفد من وفود العجم، ولا من وفود العرب، إلا رجع عنه وهو راض مفصح أنه لا يأمر بمرغوب عنه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، وأنه إذا أمر كان أول ممتثل، وإذا نهى كان أول مجتنب، ولم ينقلوا عنه كبوة في قول ولا فعل، مع عداوتهم إياه، وفحصهم عن معايبه، حتى قال النضر بن الحارث للملأ من قريش وقد أفاضوا في أمر رسول الله ﷺ يا معشر قريش إنه نزل بكم أمر عظيم، لم ينزل بحي من أحياء العرب إن محمداً نشأ بين أظهركم أتمكم عقلاً، وأعظمكم مروءة، وأنقاكم ثوباً، واصدقكم لساناً، وأكملكم امانة حتى سميتموه الأمين، لم يجد أحد فيه مغمزاً من لدن طفولته حتى صار كهلا، قال: أنا رسول الله إليكم، فلا والله ماهو بالمتهم بالكذب، فنقول: هذا من كذبه، ولا هو بالخفيف العقل فنقول: هذا طيش من عقله، ولا هو بالقليل المروءة، فنقول: هذا القول لغرض يطلبه فلا يبالي بعده ما أصاب عرضه، فانظروا في أمركم، فإنه والله لشيء يراد بكم، ولما بعث كتابه إلى كسرى ومزقه، بعث إلى عامله[4] على اليمن ـــ باهان ـــ فقال له إن فتى من قُريش يزعم أن الله بعثه رسولا، فأرسل إليه رجلين جلدين لينظرا أمره، وليستتيباه، فإن تاب وإلا فابعث إليَّ براسه، فلما بلغه الكتاب بعث إليه رجلين عاقلين جلدين، فقال: إن رايتماه طاش لبه وارتعدت فرائصه وعبس، فاعلموا أنه متقول، وإن قرأ كتابكما ونظر إليكما في تؤدة وبشر وتبسم وهو غير مكترث فهو نبي، فافهما قوله، واتياني به، فلما أتياه بالكتاب وبرسالة ـــ باهان ـــ تبسم فقال لهما: لو كان أمراً فعلته من تلقاء نفسي لرجعت، ولكن شيء أمرني الله به وبعثني للناس فإن قبلوا فذلك حظهم في الدنيا والآخرة، وإن يردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينهم، هو خير

---

(١) كعب الأحبار، هو كعب بن ماتع الحميري من أوعية العلم، ومن كبار علماء أهل الكتاب، أسلم في زمن أبي بكر، وقدم من اليمن في خلافة عمر، أخذ عن الصحابة وأخذوا عنه (١/٥٢) تذكرة.

(٢) أرسن ـــ أثبت.

(٣) العضب السيف القاطع.

(٤) الذي بعث إلى عامله على اليمن ـــ هو كسرى

اكمين، ثم أمر بهما إلى دار الأضياف، فلما كان من الغد، بعث إليهما فقال: أخبرا ــ
ان ــ أن ربي قَتَل ربه البارحة، فقالا أو نحمل ذلك عنك، قال: أحملاه عني، فلما أتيا ــ
ان ــ سألهما عن شأنه، فقالا: والله إن راينا أحداً أهيب في قلوبنا منه، قال: معه الشُرَطُ
وات الملك؟ قالا : لا ، وإنه لأعقل الناس وأجمل الناس، وأسيس الناس، وأعدل الناس وإنه
رئك السلام، ويقول لك: إن ربي قتل ربك في ليلة كذا سلط الله عليه ولده، فقال لهما: قد
تما بأمر فصل، فلننتظر كتاب ابنه، فإنه يأتي في يوم كذا، فأتاه كتاب ولده إزدشير بقتله أباه
كان ينْتَهِكُ من حرمات فارس، ويأمره أن لايهيج محمداً ولْيتله[1] عنه ، فأسلم وأسلمت
أبناء بإسلامه، فقال: ملك مقبل، وملك مدبر، وماحادت مملكةٌ نبوة إلا غلبتها النبوة ا هـ
ذلك ألف بين أهواء متباينة، وآراء مختلفة، وأمم متنافرة، فتألفت القلوب المتعادية حتى تحابت،
نفقت الآراء المختلفة حتى تلابت[2] ، واختلطت الأمم المتنافرة حتى تشابهت، فلم يكن ذلك
ن مال يفيضه عليهم، بل كان معدماً من المال، ربما أكل عند أهل الوفر من أصحابه، بل لو
فق على ذلك أموال العالمين لم يزدهم إلا تنافراً، قال الله تعالة ممتناً عليه : ﴿ **لو أنفقتَ ما في
لأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ [الأنفال:٦٣] .

ثم العقل عقلان، عقل الحجة، وهو الذي يوجب التكليف، وتترتب عليه الأحكام من
ير فائدة، وهو الدنيوي. قال الشاعر : (من بحر الكامل)

أبُنَــي إن من الرجـــال بهيـمـــة ... في صـورة الرجـل الفطين[3] المبصر
فطِــنٌ بكـــل مصـيبـــة في مـــاله ... وإذا يصـــابُ في دينـه لم يشعر

الثـاني هو العقـل التـام النافع، وهو عقل الخواص، فمنه مالا يزيد ولا ينقص، وهو
لغريزي، ومنه مايزيد وينقص، وهو المكتسب من السير وكثرة التجارب .

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

إذا عُمِّـــر الإنســـان في غـير آفـة ... أفـادت له الأيـام في كرهـــا عقـلا

الغريزي أفضــل، لأنه موهبـة الله التي لايشوبها شيء، يستوي فيه الكبير والصغير، وكثيراً

(١) وليتله عنه أي يتركه.
(٢) تلابت ــ التحمت.
(٣) في (ب) السميع.

مايكون الصغير أوفر حظاً ونصيباً فيه من الكبير، قال ﷺ : ((للشَّبَاب بركة، فاستوص
بالشباب خيراً، فإن الله لما بعثني بالهدى ودين الحق آمن بي الشبان وكفرت المشايخ)) .

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

إذا المـــرء اعيتــه المـروءة نـاشـئـــاً فمطــلبهــا كهــلا عــليــه صـعيب

ويدل على ذلك قضية يحيى بن زكريا عليهما السلام، فيما أخبر الله به عنه في محك
كتابه، إذ قال: ﴿ **وآتيناه الحكم صبياً** ﴾ [مريم:١٢] فمن أدركته عناية أزلية، أشرقت ع
باطنه أنوار ملكوته، فاستغنى بذلك عن كثرة التجارب، فاسفر عن وجه الصواب، وحصل
من ذكاء العقل مالا يدخل تحت حصر .

وفي قضية سليمان أيضاً مايدل على ذلك،

وذلك[1] أن صــاحب غنم، وصــاحب حرث، دخلا على داود عليه الســلام، فق
صاحب الحرث: إن غنم هذا أكلت حرثي البارحة، فحكم داود عليه السلام لصاحب الحر
بالغنم، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان، فقال لهما: إني أرى لكما حكما هو أرفق بكم
فرجعا إلى داود فأخبراه بما قال لهما سليمان، فأرسل إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما الحك
الذي هو أرفق بهما من حكمي؟ قال: أن تجعل الغنم بيد صـاحب الكرم، يعيش في لبنه
ويأكل من نسلها من غير ان تملكه من رقابها، وتجعل الكرم بيد صاحب الغنم حتى يصلح م
ما أفسدته غنمه، فإذا رجع الكرم إلى هيئته، أسلمه إلى ربه بعناقيده، واسلم رب الكرم الغ
إلى ربها بوفرها، فقـال داود: صدقت.وأصبت، هذا أرفق بهما، ففي ذلك نَزَلَ قوله تعالى
﴿ **وداود وسليمانَ إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكُنا لحكمهم شاهدين
ففهمناها سـليمان** ﴾ [الأنبياء:٧٩] وكان سـليمان يومئذ ابن اثنتي عشرة سنة فلم تحصـ
لسليمان عليه السلام بكثرة تجربة وطول مدة، بل بعناية ربانية، وألطاف إلهية .

يُروى أن عقل الرجل يعرف بأربعة أشياء : بجوابه، وكتابه، وهديته، وعتَابه، إذ العقل
لاينظر إليه، وإنما ينظر إلى تصرفاته على صفحات الجسم، وتراجم الرسم.

يروى أن رسول الله ﷺ قال: ((الجنة مائة درجة، تسعة وتسعون منها لأهل العقل

---

(١) كذا في النسختين والأولى وهي خشية تكرار كلمة ذلك.

وواحدة لسائر الخلق))[1] ومن أوضح دلالاته مداراة الناس، قال الرسول ﷺ : ((بعثت مدارياً، فداروا[2])) .

قال الشاعر: (من مقطوع البسيط)

من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى ... عما قريب نديماً للندامات
ما دمت حياً فدار الناس كلهم ... فإنما أنت في دار المداراة

قال بعض الحكماء: العقل ملك، والخصال رعيته، فإذا ضعف العقل عن القيام بها داخلها الخَلل .

ويروى أن لكل شيء حداً وغاية، إلا العقل، فإنه لاحدَّ له ولا غاية، لكن الناس يتفاوتون فيه على قدر حظوظهم، وسعادة جدهم، ومن أعظم نتائجه الرأي والمعرفة، وبهما عمارة الدارين، فالعقل نهار الملكوت، والهوى ليله . قال الرسول ﷺ : ((أعمى العمى الضلال بعد الهدى)) قال الله تعالى : ﴿ **أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه واضله الله على علم** ﴾ [الجاثية:٢٣] .

قال الشاعر: (من مقطوع البسيط)

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى ... وعقل عاصي الهوى يزداد تنويراً

وقال غيره : (من بحر الطويل)

وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه ... وقد وجدت فيه مقالا عواذله
إذا ما رأيتَ المرء يقتاده الهوى ... فقد ثكلته عند ذاك ثواكله[3]

---

(١) أغلب الأحاديث الواردة في فضل العقل من كتاب وضعه الكذاب سليمان بن عيسى بن نجيح في جزءين ولا يصح فيه شيء والله أعلم .

(٢) « بُعثت مدارياً فداروا » موضوع رواه البيهقي بلفظ « بعثت بمدارة الناس » وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٩١٨ كما رواه أبو سعيد الماليني،وأورده عنه الألباني في موضوعاته تحت رقم ٦٩٥ ورقم ٨١١ وأورده السيوطي في « جامعه » عن البيهقي في « الشعب » بدون لفظ ــ فداروا ــ ورمز له بالضعف (٢٠٣/٣) مناوي.

قلت: ولعل واضعه هو عبد الله بن لؤلؤة أو شيخه كما جزم بذلك الألباني، واللهأعلم.

(٣) في نسخة (ب) تقديم: إذا ما رأيت المرء البيت على البيت الذي قبله.

قال الله تعالى: ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ [الأحزاب:٤٣ والحديد:٩] من ظلمات ليل الجهل والهوى، إلى نهار الإيمان والعقل المؤديان إلى التقوى .

وأما الاحتماء من ربكات الموبقات، فلاسبيل إليه إلا بعصمة الله، وهي سابقة الخير والعناية الأزلية .

يروى أن الله لما خلق آدم عليه السلام، سأله العصمة، فقال له: سبقتْكَ بها الملائكة، فسأله الخفية، فقال له: سبقتْكَ بها الجُن، فسأله الحرفة، فقال له إني ألهمك وذريتك الحِرَف كُلَّهـا ، إلا نفخ الروح في الجسـد، ومانيجيك من الموت، وبالجملة فالذنوب أمراض متى استحكمت قتلت ولابد، وكما أن البدن لايكون صحيحا إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ المواد الفاسدة، والأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته وحمية يمتنع بها من تناول مايؤذيه ويخشى ضرره، فكذلك القلب لاتتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحات يحفظ قوته، واستفراغ التوبة النصوح يستفرغ بها المواد الفاسدة، والأخلاط الرديئة، وحمية توجب له حفظ الصحة وتُجَنِّبه مايضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال مايضاد الصحة :

والتقوى اسم مشارك لهذه الأمور الثلاثة، فمَا فات منها، فات من التقوى بقدره، فإذا تبين هذا فاعلم أن المعصية مضـادة لهذه الأمور الثلاثة، وتستجلب المواد الرديئة، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح، فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض، وهو لايستفرغها ، ولا يحتمى، كيف تكون صحته وبقاؤه ؟

ولقد أحسن القائل: (من بحر السريع)

جسـمك بالحميـة حصنتـه — مخافـةً من ألم طَـارِي
وكان أولى بك أن تحتـمـي — من المعـاصي خشيـة النَّـار

فمن حفظ[1] القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً، وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((ألا أدلكم على دائكم ودوائكم ؟ ألا وإن داءكم الذنوب، ودواؤكم الاستغفار)) .

فقد ظهر لك أن طب القلوب ومعالجتها لا سبيل إلى معرفته إلا من جهة الرسول

(١) في ب النفس ـــ وهو الصواب.

ﷺ ، وكتابُ الله محشو بذكر أمراض القلوب وأدويتها، قال تعالى : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض** ﴾ [الأحزاب:١٢] وقوله : ﴿ **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم** ﴾ [المائدة:٤١] وقوله: ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ [الشرح:١] وقوله :﴿ **ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾ [التوبة:١٤] وقوله : ﴿ **شفاء لما في الصدور** ﴾ [يونس:٧] وقوله : ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ [التغابن:١١] .

فإذا علمت هذا، فاعلم أنه كما تتولد من الأعمال الصالحات آثار حسنة، كذلك تتولد من المعاصي علل رديئة كالهم، والغم، والحرص، وعدم الفهم عن الله، والغلظة، والرغبة، والجزع، والجبن، والبخل، والطمع، والهلع، والولع، والأشر[١] ، والبطر، والعجب ، ورؤية الفضل على الغير، والحقد، والحسد، والبغض، وهجران المسلم لغير حق شرعي، والركون إلى الظلمة، والنظر إليهم بعين الإجلال، والتواضع للغني لأجل غناه، ومد البصر إلى ما أتْرف فيه، واحتقار الفقير، والرغبة عن مجالسته، وضيق النفس لأجل مسألته، ونِسْبَتُكَ المال إلى نفسك، والاهتمام بالرزق، واتهام الله في شأنه، والانهماك في تحصيله ، والحزن لأمر الله ، والفرح لزيد دنيوي[٢] ، والتهاتر بحب الجاه في غير جنب الله، والرغبة في الرئاسة لغير إقامة الدين، والمهادنة، والتصنع للخلق، والخشية لغير الله، والكسل، والفشل، والرعونة، والمكر، والخديعة، إلى غير ذلك من الآفات التي لاتنتهي كثرة .

فللأمراض وآفاتها أدوية، منها مايخص، ومنها مايعم، وأعمها الفرار إلى الله تعالى، قال الرسول ﷺ : ((كل شيء إذا خفته فررت منه، إلا الله إذا خفت منه، فررتَ إليه، إذ لاملجأ ولا منجا منه إلا إليه)) . قال الدينوري[٣] : الفرار إلى الله خمسة أقسام، فرار من الخلق إلى الله، وفرار من الدنيا إلى المولى ، وفرار من الشيطان إلى الرحمن، وفرار من النفس والهوى إلى عالم السر والنجوى، وفرار منه إليه، بحيث لاأحصي ثناء عليه .

يروى أن العبد إذا غير نعمة البصر بالنظر إلى مالايحل له، غير الله عليه مسقط موعظة

---

(١) الأشر البطر والمرح.

(٢) زيد ـــ يريد في زيادة في الدنيا وفي ب لأمر بدل زيد.

(٣) الدينوري ـــ اسم لخمسة أشخاص هم: ١ ـــ أحمد بن داود، ٢ ـــ أحمد بن جعفر، ٣ ـــ أحمد بن مروان، ٤ ـــ عبد الله بن عبد الرحمن، ٥ ـــ نصر بن يعقوب، وكل واحد منهم له مؤلفات.

العلم من قلبه، قال ﷺ ((من ضيق على نفسه في البصر، وسع الله عليه في البصيرة، ومن وسع على نفسه في البصر، ضيق الله عليه في البصيرة)) .

ومتى غير نعمة السمع باستماع ما لايحل له، غير الله عليه مسقط الموعظة من آذان قلبه، لاينتفع منها بشيء، وإذا غير منطق اللسان بما لايباح له، أظهر الله عليه قبائح عمله، وجعل قلوب الناس تستخف به فتزل موعظته عن القلوب، كما يزل القطر عن الصفا، وإذا غير قلبه بحب الدنيا، سهل الله عليه مصائب الآخرة ، وعظم في قلبه مصائب الدنيا، فصارت مخاوف الآخرة عنده أمناً ، فتلك علامة موت القلب والعياذ بالله .

ثم اعلم ان الله لم ينزل شفاء قط أعمر ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن، فهو للداء شفاء، ولصدأ القلوب جلاء، كما قال الله : ﴿ **ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ [الأسراء:٨٢] ولفظة من ليست للتبعيض بل للجنس، والمعنى: وننزل من الجنس الذي هو القرآن شفاء للأمراض الروحانية، وذلك أن الأمراض الروحانية نوعان، الاعتقادات الباطلة، وأشدها فساداً الاعتقادات في الألوهية، والنبوة، والمعاد، والقضاء، والقدر، والقرآن مشتمل على دلائل الرشد في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة .

ولما كان أدوى الأمراض الروحانية، هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب ، لاجرم[١] كان القرآن شفاءً من هذا النوع من المرض الروحاني .

وأما الأخلاق المذمومة، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريفها، وما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة، والأعمال المرجوة ، فكان أيضاً شفاء لهذا النوع من المرض، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية معنوية كانت كالاعتقادات، أو لفظية، كالزنى، وشرب الخمر وأنواع المخالفات .

واما كونه شفاءً من الأمراض الجسمانية، فقد شاع، وذاع، وانتشر انتفاع الناس به لأمراضهم، كقضية السليم[٢] الذي رقاه رجلان من اصحاب رسول الله ﷺ بفاتحة الكتاب، فقام وكأنما نشط من عقال ، فأعطاهما قطيعاً من الغنم، فأتيا رسول الله ﷺ ، فأخبراه على

---

(١) لاجرم ــ حقاً ــ أو لابد.

(٢) السليم ــ الملدوغ. وقضية السليم ثابتة عنه ﷺ

وجه الاستفتاء فيما أخذا على رقيتهما ، فقال: ((لئن كان أحد أكل برقية باطل لقد أكلتما برقية حق، فاقتسما واجعلا لي سهما)) وكان يقول : ((من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله)) وقد استرقى بالمعوذتين في قضية سحر بنات لبيدله، فشفي من ساعته، وقال ((ماتعوذ المتعوذون بمثلهما)) وقد اقتصر سحنون[1] رحمه الله على الفاتحة لجميع الأمراض، فما كتبها لمن لم يكن في مرضه موت إلا شفي .

وفي هذا الباب مجال رحب لو تتبعته لأتيت فيه بدفاتر، والله المستعان والممد من فضله وفيضه، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره .

واما الموبقات ، فسبعة على المشهور، وهي: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف ، وشهادة الزور ، والزنى بحليلة الجار .

وإنما قال المصنف: فاتقاء الموبقات دواء، لأن باجتناب الكبائر تغفر الصغائر ، نَعَمْ الاجتناب لاتُغفر الصغائر به مجاناً ، إذا لم يرد بذلك أثر، إلا إذا اجتنب الكبائر، وواظب على الصالحات من الأعمال، صارت تلك الأعمال مكفرات لخطاياه، قال رسول الله ﷺ : ((رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما من الخطايا ما اجتنبت الكبائر))[2] وقال ﷺ : ((مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر غمر[3] عند باب أحدكم ينغمس فيه كل يوم خمس مرات ، افتروه يُبْقي من درنه شيئاً ، قالوا : لا، قال كذلك الصلوات الخمس[3] غَسلَ الله عنا وعن المسلمين درن كل عيب ، إنه الواسع المفضال . وقال رضي الله عنه :

١٩ ــ كأنَّ الوَرَى وَالموْتُ نِسيٌ وَرَاءَهُمْ ذواتُ الأبَـا قـد حَـازَهُن أَبَـاءُ

(١) سحنون ــ هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي قاض فقيه انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب كان زاهداً عفيفاً لايخاف في الحق لومة لائم، ولد بالقيروان وبها مات عام ٢٤٠ هـ.

(٢) حديث رمضان إلى رمضان ــ حديث صحيح رواه مسلم في باب الصلوات الخمس ولفظه « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينها إذا اجتنب الكبائر ».

(٣) غمر ــ ماء كثير.

حديث ــ « مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر غمر الخ » حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم وأحمد وباقي الأربعة باستثناء أبي داود، وله ألفاظ كثيرة. وهو عند مسلم بلفظ: « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل كان يبقى من دونه شيء » اهـ وعلى هذا اللفظ اقتصر عبد الحق والحميدي في الجمع بين الصحيحين، والله أعلم.

قوله : كأن الورى ، كأن واسمها وهي حرف تشبيه ونسخ، وذوات الأبا خبرها ، و « الموت نسي » جملة حالية لا محل لها من الإعراب ، لكونها اعتراضية بين اسم كأن وخبرها ، و « الأبا » مضاف إليه ماقبله، و « قد » حرف تحقيق ، « حازهن » فعل ماض ، وضمير الإناث مفعول به ، والأباء فاعله ، وتركيب معنى البيت :

كان الورى بالقصر ــ اسم جنس مختص ببني آدم ــ في غفلتهم عن الموت ، وسرعة أخذه لهم، وجعلهم إياه وراء ظهورهم نسياً منسياً غفلة منهم ، وذهولا ، أغنام قد أصابها الأباء بالمد والفتح وهو داء يصيب المعز في رؤوسها، كما يصيب الأولق[1] الإبل وأكثر ما يكون من شمها أبوال الوعول ، فقلما أصاب شاة فبرئت ، ومع ذلك لاتزال متعلقة بالأبا وهي الأقصاب بعدما أنشب الموت بها مخالبه وأراها مثالبه، فكذلك الانسان يغفل عن الموت مع ماركب الله فيه من العقل والذكاء والفطنة، وقد اجتثت أصله واستأصلت أحباءه ، وهو ينظر، ومع ذلك يروع بالمصبية هنية ثم يرتع في مزابل الدنيا كأتفه بهيمة، وقد جعل الموت ظهرياً، وتركه نسياً منسياً .

ولا مثال للإنسان والموت أصوب ولا أصيب من مثال ضربه رسول الله ﷺ إذ قال : ((كأن الناس غنم راتعة في مرج، وكأن الموت ذئب يرصد غرتها، فكلما غفلت أغار فافترس شاة، فتنفر، فإذا توارى عنها، رتعت ونسيْت الذئب حتى يأتي على آخرها)) .

يروى أن الله لما أخذ من ظهر آدم ذرياته ليشهدهم على أنفسهم، فرأت الملائكة كثرتهم، قالوا ربنا إن الأرض لاتسعهم فقال: إني جاعل موتاً ، قال : إذاً لاينتفعون بمعايشهم . ولايعمرون الدنيا[2] .

يروى أن الناس إذا انصرفوا من دفن ميت لهم، وقد هموا أن لايشتغلوا بعده بأمر من أمور الدنيا ــ أخذ عزرائيل كفاً من تراب، فحثا به في أدبارهم، وقال لهم : إرجعوا إلى دنياكم ، وانسوا موتاكم .

يروى أن النبي ﷺ وعظ اصحابه موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب

---

(١) الأولق ــ الجنون أو مس منه.

(٢) في النسخة(آ) هنا خرجه ــ علق الكاتب عليها بالهامش عبارة خرجه فإن عثرت عليها فأكملها، وقد عثرت عليها في النسخة (ب) وهي (قال إني جاعل غفلة).

حتى هموا أن لايضاجعوا النساء على الفرش ، ــ أو من هَمَّ منهم ــ فلما انصرفوا عنه عالجوا لنســاء ، وقبّلوا الصبيان ، واشتغلوا بمعايشهم ، فأتوه ﷺ فقالوا له : مالنا يارسول الله إذا جالسناك رقت قلوبنا ، وزهدنا في الدنيا ، ورغبنا في الآخرة ، وإذا انقلبنا إلى منازلنا عافسنا النساء ، ولاعبنا الصبيان ، وانشغلنا بمعايشنا ، فقال ﷺ ((لو بقيتم على الحالة التي تفارقونني عليها لصافحتكم الملائكة في السكك[1] ولكنها رحمة من الله مَنَّ بها عليكم لينتفع بعضكم ببعض، ولتعمروا هذه الدار التي أراد الله عمارتها، ولولا ذلك ما ربت والدة ولدها)). أخرجه البيهقي ، من طريق أبي أمامة .

يروى أن الله لما خلق الموت ، خلقه على صورة فظيعة لم ير الراؤون مثلها، له ثلاثمائة جناح، كل جناح على هيئة من الفظاعة والقبح، ليس عليها صاحبه، ثم أمر ملائكته بالنظر إليه، فنظروا إلى ما أفزعهم، فخروا لله سجداً ، ما من أحد منهم إلا وسال منه نهر من الدموع والعرق، وقد صار كل منهم كالحلس[2] البالي، فقال لهم الباري جل وعلا ، مالكم ياملائكتي أصابكم ما أرى ؟ قالوا : إنا منذ خلقتنا ننظر إلى الأشياء التي أبدعت . فلم نر خلقاً أهول، ولا أوحش، ولاأهيب في قلوبنا، ولاأفظع منظراً من خلقك هذا، فقال: هل تدرون ماهو؟ قالوا: لا، قال: هو الموت الذي ما منه فوت، هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات ، ومؤيم الزوجات، هو قاصم الجبابرة، وقاهر المردة، ومخلي القصور، ومعمر القبور، قال الرسول ﷺ ((أكثروا من ذكر هادم اللذات ، فإنكم إن كنتم في ضيق وسّعه عليكم ، وإن كنتم في واسع ضيّقه عليكم))[3] وقال ((اقطعوا عنكم طول الأمل، باستشعار حضور الأجل)) .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

وما المــرء إلا ميت وابن ميت ... وذو نسب في الهالكين عريق

---

(١) السكك ــ الطرق.

(٢) الحلس ــ ج ــ أحلاس وحلوس ــ ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرحل.

(٣) حديث « أكثروا من ذكر هادم اللذات » حسن رواه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه والحاكم، هذا مع أن الدارقطني أعله بالارسال وصححه الحاكم وابن حبان وابن السكن، وأورده السخاوي تحت رقم ١٤٨ وله ألفاظ كثيرة، ولفظ الترمذي وابن ماجه والحاكم « أكثروا من ذكر هادم اللذات » يعني الموت:
أما زيادة الشيخ، فقد قال السخاوي: إنها من رواية العسكري في الأمثال له، والله أعلم.

وأحسن ما قيل في اجتثاثها اصول بني آدم وهم يطمعون في طول المدة ، قول بعض الحكماء عند القبض وأهله محدقون به يبكون (من بحر الطويل)

لكـل اجتماع بعـد نُزهَتـه فَصْلُ	ومـا كان بيْنٌ بعـد جيئتـه وصـل
وقـد ذهب الأصـل الذي أنا فرعـه	فكيف بقاء الفرع إذ ذهب الأصـلُ
فتحتُ جُفـوني بـين أم ووالد	همـا بـلغـا سِنَّيهمـا وأنا طفـلُ
اقـامـا قـليـلا هكـذا فـترحَّـلا	مـا كان[1] ممـا يشـتهي ذاكم الرحْل
وقـد صـار يـدعـوني بُني أبـاً له	كما كنت أدعو والداً لي أباً قبلُ

وقال ﷺ ((عجبت لمنتظر دين ، والموت يطلبه)) .

يروى أنه لما بلغه ﷺ أن زيد[2] بن حارثة أخذ رجل من عنده ديناً إلى شهر ، قال : ((إن زيداً لطويل أمله، ومن أخبره أنه يعيش إلى شهر))[3] .

يروى أنه جلس ذات يوم بين أصحابه، فذكروا الموت وسكراته ، والأجل ودهماته ، فقال أحدهم : ما أمسيت فظننت أني أصبح، ومأاصبحت فحدثت نفسي أني أمسي .

وقال آخر : ما مضت علي ساعة زمنية إلا حسبت أن منيتي فيها .

وقال آخر : ما لبستُ ثوباً إلا أعددتُه للورثة ، وماحدثتني نفسي أن أُبْليه .

وقال آخر: ما رفعت قدماً فظننت أني أُعيده إليَّ قبل أن تختلسني المنية .

وقال آخر : ما حملت لقمة إلى فمي فظننت أني أسيغها قبل الموت، ورسول الله ﷺ ساكت . فقال : ((ما تنفست نفساً إلا وظننت أني لا أعيدها)) فانظروا إلى استعدادهم للموت، وقصر آمالهم، ولذلك زكت أعمالهم، وطابت أحوالهم، وطاب لهم الموت إذ طابوا لها .

---

(١) في النسخة (ب) ولم يكن مما يشتهي وهو الصواب

(٢) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي أسره بنو القين وهو يافع ثم باعوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فوهبته للنبي ﷺ، وكان يدعى زيد بن محمد قبل نزول قوله تعالى: ﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾ [الأحزاب: ٥] وقد جاءه أبوه وعمه يطلبانه من النبي ﷺ ، فخيَّره،فاختار المقام معه، وهو حب رسول الله ﷺ وأمَّره سبع مرات، استشهد رضي اللهعنه في غزوة مؤتة المشهورة.

(٣) حديث « إن زيداً لطويل أمله »، ضعيف رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وأبو نعيم، والقصة أن أسامة ـــ لازيداً ـــ اشترى من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر، فقال رسول الله ﷺ : إن أسامة لطويل الأمل ـــ وفيه زيادة قال العراقي في الاحياء إسناده ضعيف (٤/٤٣٧).

وكان ﷺ كثيراً ما يأمر أصحابه بقول ((اللهم طيبنا للموت وطيب الموت لنا ، جعل فيه راحتنا)) .

وكان ﷺ يقول : ((الناس في الموت رجلان، مستريح ومستراح منه)) . وقال ﷺ ما من نفس برة أو فاجرة إلا والموت خير لها)) ، إن كانت مؤمنة فإن الله يقول : ــ **وما عند الله خير للابرار** ــ ﴾ [آل عمران:١٩٨] وإن كانت فاجرة ، فإن الله ل : ﴿ **إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً** ﴾ [آل عمران:١٧٨] ولما وقع الطاعون بالشام زمن عمر الخطاب رضي الله عنه ، وكانت عساكر المسلمين بالشام ، وقوادهم أصحاب رسول ﷺ ، فلما اشتد وكثر ، قال عمرو[١] بن العاص : إنه الرجز[٢] الذي نزل على بني رائيل ، فبلغ قوله معاذ[٣] بن جبل ، فجمع الناس ، فلما اجتمعوا قام خطيباً فقال: ما بال ال يَتقوّلون على رسول الله ﷺ من غير علم ، أما إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وليس ي وبينه ترجمان : إن الطاعون أرسله الله عذاباً على من قبلنا ، وإن الله جاعله لهذه الأمة رحمة مهادة ، اللهم اجعل لمعاذ وآل معاذ منه نصيباً ، فطعن ولده من يومه ، فمات من الغد ، خله في قبره ، ثم طعن ، فلما أحس بالموت ، جعل يقول : مرحبا بالموت ، حبيب جاء على ة ، لاأفلح من نَدم ، ثم يقول : واطرباه ثم واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً واصحابه ، زج مرارة الموت بحلاوة اللقاء ــ وقال ﷺ : ((الموت تحفة المؤمن))[٤]وقال: الناس نيام ،

---

(١) عمرو بن العاص ــ هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أمير مصر ــ أسلم قبل الفتح سنة في صفر على الأشهر وكان ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته، ولاه غزاة ذات السلاسل، وأمده بأبي بكر ر وأبي عبيدة، ثم استعمله على عمان، وكان من أمراء الأجناد في الشام، مات رضي الله عنه سنة ٤٣ على حيح.

(٢) الرجز ــ الأوثان ــ وهو هنا ــ العذاب.

(٣) معاذ بن جبل ــ هو ــ معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي الإمام المقدم في علم لال والحرام، شهد بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة وأمّره النبي ﷺ على اليمن، توفي بالشام سنة ١٧ هجرية /٤٠٥) إصابة

(٤) حديث ــ « الموت تحفة كل مسلم » ــ رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم بلفظ (تحفة المؤمن ت) وهو مرسل، قال العراقي في تخريج الإحياء: مرسل إسناده حسن (٤/٤٣٤).

وروى أبو نعيم والبيهقي في الشعب وعنهما السيوطي في جامعه « الموت كفارة لكل مسلم » وصححه: قال =

إذا ماتوا انتبهوا[1] .

يروى أن بعض التابعين قال لأبي هريرة[2] : مالي أرى الناس اليوم ينفرون من الموت ويحبون البقاء في الدنيا ، وكان أصحاب محمد ﷺ يحبون الموت ويتمنون الشهادة ، قال له يابن أخي إن الناس اليوم عمروا دورهم ، وخرّبوا قبورهم ، فهل رأيت من يحب الانتقال من دار قد عمرها إلى دار قد خربها ؟

وأما أصحاب محمد ﷺ ، فإنهم عمروا قبورهم ، وخرّبوا دورهم ، ولذلك أحبوا الموت وتمنوا الشهادة ليقدموا على ماقدموا .

يروى أن بعض أصحاب عليّ وقف على قبره يوماً فدعا له وترحم عليه ، ثم قال : أما إنك كنت تعظنا أيام حياتك ، وتغذينا بالحكم ، فهل من حكمة أو موعظة تتحفنا بها اليوم ؟ فهتف هاتف من قبره (من بحر المجتث) :

كنتَ ميْتاً فصرتَ حَياً ... فعن قريب تَصيرُ مَيْتَا
فابن لدار البقاء بيتاً ... واهدم لدار الفنَاء بيتاً

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما حج حجته التي لم يحج بعدها ، رأى انتشار رعيته في أقطار البلاد، واتساع دائرة الإسلام ، وكثرة الواردين من الآفاق يحيونه بالإمارة، ويثنون عليه بحسن سيرة عماله، وما انتشر عنه من العدل وإتقان السياسة وأمانة أجناده فيما فتح الله عليهم من خزائن الملكوك ، فما نقموا على أحد غلولا ولا خيانة ، مع كثرة عددهم ، فعجب عمر من ذلك ، فقال له بعض الواردين: لا تعجب يا أمير المؤمنين ، فإنك

= المناوي وقال ابن العربي: إنه صحيح وقال العراقي: إنه بلغ درجة الحسن ــ وقال ابن حجر: والذي يصح في ذلك خبر البخاري « الطاعون كفارة لكل مسلم » (٢٧٩/٦) فيض

قلت: وقد أورده ابن الجوزي في موضوعاته، وقال بعد أن أورد طرقه: هذا حديث لايصح عن رسول الله ﷺ (٣/٢١٩) موضوعات كما أورده الشوكاني في موضوعاته تحت رقم ٨٣٩ وقال لم يصب ابن الجوزي بذكره في الموضوعات وقد تابعه الصغاني فقال موضوع.

(١) حديث « الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا » (لا أصل له) أورده الغزالي (٢٠/٤) قال العراقي: لم أجده مرفوعاً وإنما يعزى لعلي بن أبي طالب، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم (١٠٢) وقال لا أصل له.

(٢) أبو هريرة ــ هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني على اختلاف كبير في اسمه، أسلم ايام فتح خيبر، من أكثر أصحاب رسول الله ﷺ رواية للحديث وأخذ عنه خلائق من التابعين، وكان من كبار ائمة الفتوى مع العبادة والتواضع، ولي إمارة المدينة فترة، توفي في المدينة سنة ٥٨ هجرية رضي الله عنه (١/٣٢) تذكرة .

خُنْتَ لَخُنَّـا ، ولو حفت لحفنا ، فلما كنت أميناً صرنا كلنا أمناء ، ولما كنت عادلاً[1]
دلت عمالك ورعيتك ، فإن الرعية إنما تعمل بعمل أميرها فبكى عمر رضي الله عنه ورفع
يه إلى السماء ، فقال : اللهم إنه قد كبرت سني ، ودق عظمي ، ورق جلدي، وانتشرت
يتي ، فاقبضني إليك غير وانٍ[2] ولا مفرط ، وألحقني بصاحبي فلم يكن بعد ذلك إلا ايام
لائل حتى طعن رضي الله عنه .

ولما أجمع الله على يوسف شمله ، ومكن له في البلاد ، تاقت نفسه إلى ماهو أشرف من
لك ، وهو لقاء ربه بالموت فقال : ﴿ **رب قد آتيتني من المُلك وعلمتني من تأويل الأحاديث**
اطر السموات والأرض ــ إلى أن قال ﴿ **توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾
يوسف:١٠١] فمات بعد ذلك بسبعة ايام ، ولذلك ذم الله الحرص على الحياة ، لأنه من
لامات الإفلاس، قال الله تعالى ذامّاً لليهود ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن**
دين اشركوا يود أحدهم لو يعمّر ألف سنة وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾
البقرة:٩٦] وقال لهم على وجه الامتحان : ﴿ **فتمنوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾
البقرة:٩٤] في قولكم إنكم أولى الناس بالله ، فحكم عليهم بنفي تمنيه أبداً بسبب ما
مت أيديهم من الكفر والعصيان ، وقتل الأنبياء، قال ﷺ ((والذي نفس محمد بيده ،
يتمنى يهودي الموت من يومي هذا إلى يوم القيامة ، إلا غص بريقه ، فمات مكانه)) .
ذلك لم يبلغنا أن أحداً منهم تمنى الموت كذباً ولا استهزاء فضلاً عن أن يتمناه مجداً مع تقادم
صور ، وحرصهم على تكذيب القرآن ، لعلمهم بما يلحقهم من ذلك .

والحاصل أن تمني السلف الموت، وطلبهم إياه ، أمر لايدخل تحت حصر .

فإن قلت : ما وجه قوله ﷺ : ((لايتمنى أحدكم الموت لضر نزل به ، ولكن ليقل
هم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وامتني ما كان الموت خيراً لي[3])) .

قلت: لا منافاة بين ذلك، فإن حديث رسول الله ﷺ فيمن نزلت به شدة، أو أصابته

---

(١) في الأصل عدلا ــ والأولى عادلا كما في (ب) .

(٢) وان ــ ضعيف .

(٣) حديث « لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به » إلخ حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم والنسائي
ترمذي بالفاظ مختلفة، والبخاري أورده في كتاب التمني وكتاب المرض .

محنـة فتمنى لأجلهـا الموت، فيكون في ذلك عدم الرضـا والسكون تحت مجاري الأقدار، وأما من تمناه شوقاً إلى لقاء الله أو فراراً من الفتنة عن الدين، أو مخافة أن لايقوم بأمر الله، فذلك المطلوب من تمني الموت، وحب لقاء الله، قال ﷺ : ((من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه))[1] .

يروى أن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ : إن النفس تنفر من الموت، وإني سمعتك تقول : ((من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)) قال : ليس كما تظنون، إن العبد إذا احتضر جاءته ملائكة الرحمة وحفظة أعماله ، فبشروه بالرحمة والرضوان ، فأحب لقاء الله ، فأحب الله لقاءه ، وذلك حين يصفر وجهه، ويعرق جبينه ، وإذا كان من أهل الشر ، جاءته ملائكة العذاب ، وحفظة أعماله ، فوبخوه وأنذروه بغضب الجبار والخزي والنار ، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه فذلك حين يربد[2] وجهه وتغلظ شفتاه ، وربما أدلع[3] لسانه .

وفي البيت من البديع الجناس والاقتباس ، فالجناس بين قوله الورى والوراء ، والأبا والأباء — وأما الاقتباس فإن البيت مقتبس من ثلاث آيات ، ومن حديث واحد ، أما الآيات ، فقوله تعالى حكاية عن مريم ابنة عمران — ﴿ **ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً** ﴾ [مريم:٢٣] والنسي هو الذي إذا غاب لايفتقد ، وإذا حضر لايعبأ به — والثانية قوله تعالى : ﴿ **واتخذتموه وراءكم ظهرياً** ﴾ [هود:٩٢] والظهري هو الذي لايلتفت إليه لحقارته ، والثالثة مقتبس من معناها دون لفظها ، وهي قوله تعالى : ﴿ **لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ [ق:٢٢] وأما الحديث فقد تقدم ذكره آنفاً .

وللبيت وجه في إعرابه غير ما تقدم ، وهو أن قوله : والموت منصوب على أنه مفعول معه ، ونسي له وجهان، النصب على أنه مفعول جعل محذوفاً ، وهو الأصوب، والرفع على أنه

---

(١) حديث « من أحب لقاء الله » الخ — حديث صحيح أخرجه أحمد في كتاب الدعوات، والترمذي في الزهد ، والنسائي في الجنائز، وأورده السيوطي في جامعه تحت رقم (٨٣٠٩) ورمز له بالصحة .

(٢) أربد — وجهه: تغير لونه وداخله مايشبه الغبرة — أو تعبس .

(٣) دلع لسانه — خرج من فمه — ويقال دلع وأدلع واندلع .

خبر لمبتدأ محذوف . وأما الموت فقياساً على قول عبد الرحمن بن أمية بن أبي معيط لمعاوية في شأن عليّ . (من بحر الوافر) .

ألا بلغ معاوية بن صخر ... بأنك من أخي ثقة مليم

كأنك والكتاب إلى عليّ ... كدابغة وقد حلم[1] الأديم

قطعت الدهر كالجمل المعنى ... ليهدر في دمشق ولا يريم[2]

فعلى هذا يكون معنى البيت : كأن الورى مع الموت ولزومه لهم ، وفظاعة أمره، وجعلهم إياه نسياً وراء ظهورهم وهم عقلاء أذكياء الطبع، لأجل ماخامر بواطنهم من داء الغفلة والذهول الناشئين عن علة طول الأمل الناشيء عن أماني النفس والهوى والشيطان ذوات الأبا التي لاعقول لهن طبعاً بأن يشتغلن بأكل الأباء لجهلن له طبعاً ولاييالين بمعالجة ما علق برؤوسهن من داء الأباء المفضي بهن إلى الموت ، فيفوتهن به مناولة الأباء وأكله في أيام كثيرة لقلة تميزهن ، فالإنسان أشد حسرة وأعظم رزية وأسوأ حالاً حيث باع آجله النفيس الذي يبقى معه بلذة ساعة فانية، فلو اشتغل بعلاج باطنه الذي أصابه من داء الغفلة لما أنساه الاستعداد للموت قبل نزوله ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقصر الأمل، وحقارة الفاني، فيكون داخلا في الفريق المعني بقوله تعالى ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضَلُّ** ﴾ [الفرقان:٤٤] وقال ﷺ : ((لو رأيت مابقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في تكثير عملك))[3] .

ثم انتقل إلى نوع آخر من الأمثال فقال :

٢ ــ شَهِيٌّ خَلاَ الأرضِ الْخَلاءِ لَو أَنَّهُ ... أُتيحَ لِمسْلُوبٍ نَجَاهُ نَجَاءُ

«شهي» خبر مقدم «خلا الأرض» مبتدأ مؤخر ، ومضاف إليه، وسوَّغ الابتداء به تخصيصه بالاضافة والنعت، « الخلاءِ » نعت للأرض، « ولو » هنا حرف وجود كلولا و « أن » مفتوحة الهمزة وجوباً لاتصالها بلو ، والضمير عائد على الأمر والشأن وهو اسمها ، و «أتيح» خبرها «لمسلوبٍ» جار ومجرور متعلق بأتيح «نجاه» مفعول اسم المفعول نجاء، هو النائب

(١) حلم الأديم ــ أي فسد الجلد بسبب الديدان .

(٢) لا يريم ــ لا يزول أو لا يتحرك .

(٣) في ــ أ ــ تكثير علمك .

عن فاعل أتيح، والمعنى أن خلا الأرض الخلاء شهي إلى النفس، فالخلا بالقصر النبات الرطب النضر ، وهو الزخرف ، بخلاف الكلأ ، فإنه يطلق على الرَّطْب واليابس ، والخلاء بالمد هي الأرض التي لاعمارة فيها تعذرها[1] ولاد من تقذرها لو أتيح أي هيء لمسلوب أي مسلوخ نجاه بالقصر أي جلده ، نجاء بالمد أي سلامة من العطب ، لكن لانجاة له أصلاً ، كما لانجاة ولا لذة لمن سلخ جلده ، كيف وهو بين عدمين، عدم سابق ، وعدم لاحق قال الله تعالى: ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم** ﴾ [البقرة:٢٨] ، وقال : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ [المؤمنون:١١٥] فلا تغتروا بما زين به الأرض ، فانما خلقناه عبرةً وخبرةً لامتعة وغرة[2] . قال الله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جُرُزاً** ﴾ [الكهف:٧ و ٨] أي نصيِّره إلى العدم كما أخرجناه منه ، فاعبروه ولاتعمروه ، وتزودوا منه ولاتخسروه .

يروى أن الفضيل بن عياض كان ينهى أصحابه عن النظر إلى البساتين عندما يتنزهون ويقول لهم : إنه مما ينبت الشهوة في القلوب ، ويشوش البصائر، ويفتنُ القلب، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا** ﴾ [طه:١٣١و١٣٢] إلى (التقوى) ومنه قول الشاعر في الجناس التام :

إذا ما نازعتك النفس يوماً — فأمسكها عن الشهوات أمسكْ
ولا تحزن ليوم أنت فيه — وعد رزق يومك رزق أمسكْ

يروى أن النبي ﷺ قال ((لايصفو لأحد يوم من الدنيا إلا وهو مَشُوب بكدر)) فبلغ ذلك اليزيد[3] بن عبد الملك بن مروان ، فقال: والله لأكذبن هذا الحديث ، وكان ملك الدنيا يومئذ ، فأمر باحضار الشعراء ، وآلات الطرب ، وأنواع الأشربة، وأمر ببساط له فيه

(١) تعذرها ـــ تلطخها بالعذرة والأوساخ .

(٢) الغرة ـــ الغفلة أو الخدعة. والمراد هنا ما يغتر به أي أن زينة الدنيا لم تخلق ليغتر بها الناس .

(٣) اليزيد ـــ هو اليزيد بن عبد الملك بن مروان من ملوك الدولة الأموية ولي الخلافة بعدة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ وكانت في عهده غزوات وكانت له مروءة مع ميل إلى اللهو مات بعد موت قينة له كان يحبها تدعى حبابة سنة ١٠٥ هجرية .

جميع الصور ، فبسط، وبعث إلى زوجته فدخلت عليه فقال لها: إني أريد أن أكذب حديثاً بلغني عن رسول الله ﷺ أنه لايصفو لأحد يوم من الدنيا ولو بلغ من الملك ما بلغ، وكانت عندها جارية يقال لها جلالة لم يرَ الراءون مثلها جمالاً ولا كمالاً ولا قداً ولا اعتدالاً ولا أدباً ولا ظرفاً ، فقالت زوجته : وما تفقد من شهواتك ؟ قال لها: لم يبق لي لذة إلا الاجتماع بجلالة، إن طابت نفسك بذلك ، فأرسلت إليها فادخلتها عليه ووهبتها له ، فبينما هي بين يديه وقد نثر على البساط أنواع اليواقيت ،، إذ رمت بياقوتة إلى فيها فسبقتها إلى حلقها فاختنقت بها فماتت بمكانها ، فانكب عليها يبكي ويقبلها حتى أنتنت ، فأخرجوها عنه كرهاً وهو يلتزمها ويصيح كما تصيح الجارية ، وما عاش بعدها إلا ثلاثة أيام[1] .

وممن زهد في الدنيا من الملوك فخلع نفسه أبو غفال ، فقيل له : تركت الملك واخترت الفقر عن الملك والغنى ، فقال : هو نعيم لولا أنه ذميم ، وسرور لولا أنه غرور ، ومتاع لولا أنه ضياع ، وشراب لولا أنه سراب ، وملك لولا أنه هلك ، وإنه لأكلة لولا أنه يمنع أكلات ، وإنه لشرف لولا أنه تلف ، وإنه لأنس لولا أنه تعس ، فانكب على العبادة حتى مات ساجداً بين الركن والمقام رحمة الله عليه .

يروى أن كسرى أنو شروان لما دوَّخ المماليك ، صغرت الدنيا في عينيه ، فجمع مرازبته وأساورته وقال لهم : يا قوم هل من دار غير هذه الدار، فاني قد سئمتها، قالوا: لم سئمت ملكك وقد طاب لك؟ قال: إني مثلتها أيكة[2] كثيرة العشب، كلما اخضر منها جانب، جف جانب، وكلما تسهل منها جانب توعر جانب، وبقدر ما تحلو تَمر وبقدر ماتدنو تبعد، ولو دامت للسابق لم تخلص إلى اللاحق،وبما فَارقت السابق تفارق اللاحق، فقالوا: هلم فلنعبد إلهك وهو النار ، فتجرد ولزم بيوت النار حتى مات ولم يجد مرشداً ـــ والعياذ بالله!

وفيه من البديع التلميح ، وهو الإشارة الدقيقة التي لايدركها إلا الأذكياء، وذلك أن المصنف أشار بالبيت إلى قوله ﷺ : ((الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحق بورك له فيها،

---

(١) هذه القصة أوردها الذهبي في كتابة سير أعلام النبلاء بدون ذكر تكذيب الحديث ، وإنما قال : إن يزيد بن عبد الملك أناب صاحب الشرطة ليصلي بالناس ، واختلى بجارية له يحبها فرمى لها عنبة ، فوقعت في فيها فشرقت فماتت ، وبقيت عنده حتى أروحت ولم يعش بعدها كثيراً (١٥١/٥) سير أعلام النبلاء ، وقصة الذهبي هذه جائزة الوقوع ولعلها الصحيحة والله أعلم .

(٢) الأيك ـــ الشجر الكثير الملتف الواحدة أيكة .

ومن أخذها بشره وإشراف نفس كان كشارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد ظمأً))[1] .

وفي رواية: « كان كالذي يأكل ولا يشبع » فالأثر والبيت يشتركان في تحسين الدنيا من حيث أخذت بحق، وصرفت في حق من غير إسراف ولا إقتار، فلا يذمها ظاهر الشريعة لعيب ظاهر، كالقذارة[2] الظاهرة، ويعافها باطن الحقيقة لنقص باطن[3] ، فتكون كخضراء الدمن أنيقة المنظر ، خبيثة المخبر، تغري الناظر العاشق، وتنفر المشتم والذائق، بل هي روضة غناء زكية الثرى، حسناء، غرستها أيدي التوفيق، وسقتها جداول التصديق، وحمتها حراس التحقيق ولقمتها رياح البشور، وعقدت ثمارها وزروعها نفحات النشور، فجاءت وقد أنبتت كل حبة منها سبع سنابل، إذ لم تنبت على دمنة ولا مزابل، فأحرزت العاجل، وأدركت الآجل، يعجب الزراع قنواتها، ويغبط الكفار صنواتها[4] ، بقعتها زكية، ورائحتها ذكية، وعيشتها راضية، وأوقاتها هنية، جنة أزلفت لرجال اختصهم الله بنعمته، وصرفهم عن نقمته، خلقهم له، وخلق الخلق لهم، آلى على نفسه ألا يعذبهم بناره، فمن حاد عن هذا المهيع فقد عرض نفسه للضياع، فيكون كمن كُشِطَ جلده فهو هامة[5] اليوم أو غداً، ومع ذلك يعانق الشهوات، ويألف الهفوات، أو كشارب ماء البحر يريد ذهاب التلف بالتلف حتى يتوغل في التلف، فكلما شب حرصه، طلب الزيادة من المال، فبقدر ما زاد من الجمع ازداد من المنع، حتى يهلك وسط ما ملك، كدود القز . قال الشاعر : (من بحر الطويل)

كدود من القز ينسج دائماً ويهلك يوماً وسط ماهو جامع

فبان من هذا أن الدنيا تطيب وتخبث على قدر صاحبها، وتعدو على قدر همة راكبها، فهي حرباء الأسنان[6] ، ربانية المكان، واسعة الأكناف، كثيرة الأرياف، ملتفة الحدائق،

---

(١) الدنيا حلوة خضرة ــ إلخ حديث أصله صحيح إلا أن الرواية التي أورد الشيخ لم أجدها ، والحديث رواه مسلم بلفظ « الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء »أ هـ

وله ألفاظ كثيرة عند غير مسلم والله أعلم .

(٢) في ــ أ ــ كالغدران ــ ولعل الصواب القذارة.

(٣) كذا في الأصلين ولعل الصواب ــ باطني ــ أو باطنها .

(٤) الصنو ــ الشقيق والمراد ــ مثيلاتها .

(٥) هذه العبارة غير واضحة في النسخة ــ أ ــ وأثبتناها من النسخة (ب) .

(٦) في النسخة ــ أ ــ حرباء الإنسان وفي ــ ب ــ الأسنان .

محروسة بعين الخالق، تمد من مدد الرزاق، فهي لأنبيائه وأصفيائه أخذوها بعين التمكين، فقاموا فيها قيام الخازن الأمين، لم يقرأوا فيها من مكنون مسطورهم حرفاً ولا أعاروها من الميل إليها طرفاً، فنظروا إلى باطنها حيث نظر الناس إلى ظاهرها، يأخذون منها ولاتأخذ منهم، فلما ارتضى فعلهم واستعدادهم، خاطب جملتهم وافرادهم خطاب الحبيب معشر الأحباب ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾ [ص:٣٩] فلذلك لم يجعل الله زكاة على الأنبياء في أموالهم بالغة مابلغت، لأنهم خزّان الله ، ينفقون بأمره ، ويمسكون باذنه، وكذلك بعض المتصوفة لايرون عليهم زكاة في أموالهم، إذ لايرون لأنفسهم مع الله كسباً، وكانوا رضي الله عنهم شركاء في أموالهم، لايحجز بعضهم عن بعض شيئا يحتاج إليه، ولا يستأذنه في أخذ ماله حملا على أنهم عبيد ملك واحد، فلا حجر لأحد منهم على ماجعله مستخلفاً فيه، لاستوائهم في العبودية، وتبرئهم من الكسب الخاص، فمن المستحيل عندهم أن يقول أحدهم: لي، وما لي، أو عندي[١] .

يروى أن شيبان الراعي رضي الله عنه مرّ على الشافعي[٢] وأحمد[٣] بن حنبل فقال أحمد بن حنبل للشافعي: هلم فلنسأله عن الدين، وكان رضي الله عنه، أمياً فقال الشافعي لاتسأله، فإن القوم يأخذون عن الله، فقال أحمد: لأسألنه حتى أعلم مكانه، فقال: ياشيبان ما على من نسي أربع سجدات من أربع ركعات؟ فقال أفي مذهبنا، أم مذهبكم؟ فقال له أحمد: أهما مذهبان؟ قال: نعم، أما في مذهبكم فقد بطلت صلاته ، إلا الركعة التي هو فيها ، وأما على

---

(١) أمر الله نبيه ﷺ بأخذ الزكاة من أموال المسلمين عامة بدون تميز بشروط، فمن توفرت فيه هذه الشروط، فالزكاة واجبة عليه ولياً كان أم غيره ، والله أعلم .

(٢) الشافعي ــ هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان المطلبي الشافعي القرشي ، نسيب رسول الله ﷺ وناصر سنته ، ولد عام ١٥٠ بغزة ، حفظ الموطأ وعرضه على مالك وأذن له مسلم بن خالد بالفتوى ، وكان مع علمه بالشعر وأيام العرب والفقه والحديث احذق قريش بالرمي ، قال فيه أحمد بن حنبل ماالحد مس محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في عنقه منة ، توفي رضي الله عنه بمصر في شعبان عام ٢٠٤ هجرية (٣٦١/١) تذكرة .

(٣) أحمد بن حنبل ــ هو شيخ الإسلام وسيد المسلمين في عصره الحافظ الحجة ، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني المروزي ، ثم البغدادي ، ولد عام ١٦٤ قال ابنه عبد الله : سمعت أبا زرعة يقول : كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث ، ذاكرته الأبواب . وقال إبراهيم الحربي: رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين ، قال علي بن المديني : إن الله أيد هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد يوم المحنة ، توفي رضوان الله عليه يوم الجمعة ٢٤١/٣/١٢ هجرية والله أعلم .

مذهبنا ، فهذا قلب قد غفل عن ربه فيجب عليه الحد على قدر منزلته من الله فقال له ، ماتقول في الزكاة ؟ قال : على مذهبنا ، أم مذهبكم ؟ قال : على مذهبكم ، فقال : أما على مذهبنا ، فالعبد وماله لسيده ، فلا زكاة عليه ، إذ لا مال له أصلاً ، فينفق بأمره ، ويمسك باذنه ، وإنما جعلت الزكاة طهرة للأموال ، ومال الله طيب طاهر من أصله ، وأما أموالكم أنتم ، فإنها لما كان لها أصل في الخبث ، أوجب عليكم الزكاة ، فنوعها على قدر المنفعة ، فلما كان اشرف أموالكم الإبل ، أوجب في كل خمس منها زكاة ، ولما كان البقر دونها في الشرف والمنفعة ، لم يجعل الله فيه زكاة واجبة ، حتى يبلغ الثلاثين ، فيكون فيه عجل ذكر ، ولما كانت الغنم دونهما شرفاً ومنفعة ، وهي تداني البقر بألبانها وأصوافها ، لم يجعل الله فيها زكاة واجبة حتى تبلغ الأربعين ، فتكون فيها شاة واحدة إلى المائة وفي الذهب والورق[1] ربع العشر لنفاستهما والعشر فيما سقى[2] بمطر ، ونصف العشر فيما سقي بالنضح ، ولا زكاة عليكم في البغال والحمير ، إذ لا منفعة فيها إلا الاستعمال ، ولا في الخيل والسلاح واللباس ، لأنها عدة في نحور أعدائه من المشركين ، لأنه لما علم قبح طوياتكم ، وحبكم للمال ، وقلة معرفتكم له ، تفضل عليكم بأن أخذ منكم النزر التافه ، وطهّر به الكثير ، ورباه لكم ، وجعله ذخركم عنده ، فأكلتموه ، وأثابكم عليه ، فجعل مواساتكم إخوانكم من الفقراء والمساكين فرضاً مضاعفاً عنده لئلا تهلكوا عليه فقال : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم** ﴾ [التغابن : ١٧] من فضله ولولا قلة معرفتكم واحتشامكم ، لما قال أحدكم : مالي ، فيشارك الله في ملكه بعدما قال له : ﴿ **وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ﴾ [النور:٣٣] وقال ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ [الحديد: ٧] فلولا أنه جاملكم أي عاملكم بالجميل لأهلككم ، ثم إن أحدكم يقوم بين يديه ويجعل قلبه يجول في مزابل الفاني ، ووساوس الشيطان حتى لا يأتي بفريضة ربه على وجهها ، ويجعل السجود جبراً لما ضاع عليه ، هيهات ، وكيف تصلح أعمال فسدت أصولها ؟ فصاح أحمد وسقط مغشياً عليه ، فقال له الشافعي : ألم أنهك عنه ، وأخبرتك أن القوم يأخذون عن الله ، فقال : لاجرم لأسأل أحداً منهم بعدها إلا تعلماً ، فالقوم فقهاء علماء نجباء بررة أخيار ، علمهم الله من لدنه ، فهم يغترفون من بحاره .

(١) الورق ــ الفضة .

(٢) في النسخة (ب) فيما سقى بسيح أو مطر، والسيح الماء الجاري على وجه الأرض. وفي الفقرة كلمة ناقصة هي ــ في الخارج من الأرض .

ويمدون من أنواره،»فالدنيا الربانية* وراثة أيوب وسليمان وعبد الرحمن بن عوف[1] وعثمان بن عفان، والشيطانية وراثة نمرود وساسان وقارون وهامان، فهي هموم وغموم وآلام، إذ يعالجون مالا يكون وهو بقاؤها وهي مهيأة للزوال ، فيغالبون القدر ، والقدر غالب ، ويكابدون الدهر ، والدهر سالب ، فكلما اطمأنوا إلى لذة نغصها عليهم مشوش من عدو مناهد[2] وحاسد معاند ، أو مرض مدنف ، أو هرم مضعف ، أو موت معنف ، أو فراق حبيب مواصل ، أو مصيبة ؛ بمال طائل ، مع غم الزوال ، وخوف الذهاب والاضمحلال ، فهم بين زمان مضى بما فيه ولا لذة لما مضى ، وبين زمان هو آتٍ لايدرون ماالله قاضٍ فيه ، فليس لهم إلا الساعة التي هم فيها ، وقد تنغصت عليهم بما تقدَّم من الشوائب ، وقد ضيعوها بعدم التزُّود منها للدار الباقية ولاأحسن من قول الشاعر : (من بحر الخفيف)

مامضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

قال الله تعالى لغيرهم ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾ [الحاقة: ٢٤] فلا لذَّة لهم أصلاً ، كما لا لذة لمسلوب نجّاه ، لأن الله خلقهم لعبادته ، ومنحهم الدنيا ليستعينوا بها على طلب مرضاته ، واشترى منهم الشهوات العاجلة الفانية بالشهوات الآجلة الباقية ، فلما خالفوا ذلك ، وأخلدوا إلى الدنيا واطمأنوا إلى الشهوات العاجلة ، وتركوا طلب مرضاته بما خولهم به من دنياهم ، صاروا وكأنهم في طلب النجاة كمن سلخ جلده وهو يطلب النجاة ويحاول الشهوات ، وسلخ جلده هو تركه مراد ربه وهو تقربه إليه بما خوَّله من نعمة وتقديم عبادته إياه على حظوظه ، فسلبه لذة العاجل بما سلط عليه من الآفات المنغصة لعدم شكره ، ولم يجعل له حظاً في الآخرة جزاءً وفاقاً ، إذ حقيقة الشكر استعمال الأشياء فيما خلقت له ، فهو مسلوب الحياة ، معدوم النجاة ، لتضييعه ساعات عمره في غير طاعة الله ، لانشغاله بالحقير عن الشريف الخطير ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **أفرأيت إن متعناهم**

(١) عبد الرحمن بن عوف بن الحارث الزهري القرشي من أكابر الصحابة ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم ، واحد السابقين إلى الإسلام ومن الأجاويد الشجعان ، كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة ، وسماه النبي ﷺ عبد الرحمن ، وكان تاجراً ، قيل : إنه تصدق في يوم واحد بقافلة فيها تسعمائة راحلة تحمل الحنطة والدقيق ، توفي رضي الله عنه بالمدينة عام ٣٢ هجرية .

(٢) ناهد ـــ ناهضه في الحرب .

* عندي أن قصة شيبان الراعي هذه لاتصح للأسباب الآتية:

١ ـــ كون الامام أحمد وهو إمام الدنيا في زمنه يسأل رجلاً أمياً عن الدين يريد أن يتعلم منه فهذا مستحيل وكونه يسأله =

سنين ، ثم جاءهم ماكانوا يوعدون ، ماأغنى عنهم ماكانوا يمتعون ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ـــ٢٠٧] وفي البيت من البديع الاقتباس ، فهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لايخرج إلا نكداً** ﴾ [الأعراف:٥٨] ومعنى ذلك أن القُلوب الطيبة التي لم يسبق الشر إليها ، تخرج علومها زكية سالمة من الزيغ والابتداع ، ومن الغُلو والاتساع ، وأحوالها ذكية سالمة من السمعة والرياء ، وأعمالها خالصة لرب الأرض والسماء ، قَال ابن عطاء الله : ماقَل عمل برز من قلب زاهد ، وماكثر عمل برز من قلب راغب ، وذلك المراد بقَوله تعالى : ﴿ **والذي خبث لايخرج إلا نكداً** ﴾ [الأعراف:٥٨] قليل النفع وإن كثر ، قليل الري وإن غزر ﴿ **مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لايبغيان** ﴾ [الرحمن : ١٩ ، ٢٠] بحر الري وبحر الغي : ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾ [البقرة : ٦٠] ﴿ **كُلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾ [الإسراء : ٢٠] وفيه تلويح بحديث رسول الله ﷺ ((إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله ، لايختلى[١] خلاها ، ولايعضد[٢] شوكها ، ولاينفر صيدها ، ولايهاج ساكنها[٣])) .

= استهزاء به فهذا بعيد كذلك .

٢ ـــ وصفه أموال المسلمين بالخبث وفيهم الصحابة والتابعون وأعلام الأمة وعبادها دون أي اعتراض من أكبر أئمة المسلمين في زمنهم لايصح .

٣ ـــ قوله ويجعل قلبه يجول في مزابل الفاني ووساوس الشيطان ثم يجعل السجود جبراً هيهات إلخ .

هذا الكلام باطل تماماً لأن النبي ﷺ سهى في صلاته وسجد لذلك السهو وأمر أمته بذلك ولايوجد مخلوق أكمل من النبي ﷺ وقلبه لايجول في مزابل الفانية قطعاً ومن وصفه بشيء من ذلك والعياذ بالله فهو الكاذب الضال .

٤ ـــ قوله قال الشافعي ألم أنهك عنه وأخبرتك أن القوم يأخذون عن الله ، فمحال ـــ أن يقول الإمام الشافعي هذا القول لما فيه مما هو معلوم عنده .

وعلى كل حال فالخلاف في صحة الصلاة وبطلانها مع انعدام الخشوع والعقل مشهور فراجعه بأدلته إن شئت في مدارج السالكين (٥٢٦/١) ومابعده .

(١) يختلى ـــ يقطع أو يجز ، والجز في النبت كالحصد في الزرع والخلى الرطب من النبات .

(٢) لايعضد ـــ لايقطع .

(٣) الحديث الذي أشار إليه الشيخ وهو أن الله حرم مكة إلخ .. حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة . أما زيادة «ولايهاج ساكنها» فلم أجدها

والخلى بالقصريائي اللام ، تقول : خليت الخلاء : إذا قطعته من أصله ، وهو من باب تسمية الشيء باسم ملازمه ، وهو الاختلاء ، وله اشتراكات ، منها الغائط ، والزمان الماضي ، تقول : ماسمعت بهذا فيما خلا من الزمان ، وفيه ﴿ **تلك أمة قد خلت** ﴾ [البقرة:١٤١،١٣٤] والأيام الخالية ، وفيه الفراغ ، تقول : خلالي وجه فُلان فهو خلي : إذا تمكنت منه من غير مشوش ، قال الله تعالى حكايةً عن إخوة يوسف : ﴿ **يخلِ لكم وجه أبيكم** ﴾ [يوسف:٩] ويطلق ويراد به الجماع احتشاماً من ذكره ، وفيه خلوةُ الاهتداء[١] ويطلق ويراد به الجوع ، يقال : أكلت على خلى ، وهو خلو المعدة من الطعام ، كما تقول : أكلت على خوى ، ومنه خَلا الحرفية إن جرتْ . ثم قال رحمه الله :

٢١ ــ ومَصٌّ الظَّمَا لَوْلاَ الظَّمَاءُ غدى مُنَىً   فَشَـمِّـرْ ولايُـوهِنْ بَـدَاكَ بَـدَاءُ

ومص الظما وهو اللعس ، ومعناه سمرةٌ تكون في شفتي المرأة مع دقة ، وهي أحسن ماتكون إذا كانت مع بياض ناصع وصباحة في الجبين والخدين ، قال النبي ﷺ : ((رأيت ليلة أسري بي جارية لعساء ، فأعجبتني ، فقلت لها : لمن أنت ياجارية ؟ قالت : لعمر بن الخطاب ، فجاوزتها لما أعلم من غيرتك ، فقال عمر : أعليك أغار يارسول الله[٢])) والمص ضد العب قال الرسول ﷺ : ((إذا شربتم الماء فمصوه مصاً ، فإن العب يورث الكباد[٣])) قال لسان الدولة ابن الخطيب: هذا الحديث من روائع الحكمة التي لم يسبق إليها

---

(١) في النسخة ب خلوة الإهداء ــ ولعلها أصح .

(٢) حديث «رأيت ليلة أسري بي جارية لعساء ...» الخ وقد رأى رسول الله ﷺ الجنة ، ورأى قصر عمر ، ورأى جارية ولفظه في إحدى روايات البخاري : بينما أنا نائم إذ رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر قالوا : لعمر بن الخطاب ، فذكرت غيرتك فوليت مدبراً ، قال فبكى عمر وقال : أعليك أغار يارسول الله (كتاب بدء الخلق باب ماجاء في صفة الجنة) .

(٣) حديث «إذا شربتم الماء» الخ ضعيف رواه الديلمي في مسنده وعنه السيوطي تحت رقم ٧١٠ وقال فيه : فاشربوه بدل فمصوه ، ــ وزاد : ولاتشربوه عباً ــ وباقيه سواء بسواء ــ ورمز له بالضعف ، قال المناوي ، وفيه محمد بن خلف ، وفيه لين ، عن موسى المرزوي ، قال الذهبي عن الدارقطني : متروك : لكن يتقوى برواية أخرى رواها أبو نعيم والبيهقي . وعنهما السيوطي ورمز لها بالضعف مع الإرسال أيضاً (٣٨٧/١) فيض ، والله أعلم .

رسول الله ﷺ،لأن الماء إذا هجم على المعدة دفعة ربما برد الحرارة الغريزية فأهاج داءً لادواء له، وهو الاسترخاء والنقرس ، وربما أحدثَ الكباد وهو انصداع الكبد لمصادمة الضدين ، وهما برودة الماء وحرارة الكبد ، فتحدث عند ذلك بغتة الموت ، وإذا مصه سهل وقعه على المعدة ، فأخذت بحظها منه من غير إفراط ولا تفريط ، وأخذ كل عرق قسطه من الري من غير زيادة مضرة ولاهضمية مخلة . وبرد من الحرارة الغريزية الملتهبة قدر مايقع به الاعتدال .

قوله منىً خبر لاسم المصدر الذي هو مص الظما ، والمنى : كل مستطاب تتمناه النفوس إذا فقدته ، ولاتمله إذا وجدته ، وإنما صدَّر بذكر النساء لأنهن رأس الشهوات وليقتدي بكتاب الله في قوله : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة** ﴾ [آل عمران : ١٤] الآية قَالتْ عائشة رضي الله عنها : من شقوتنا أن الله لما ذكر الشهوات جعلنا أولاً ، ولما ذكر الثواب والدرجات جعلنا آخراً ، فقال : ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾ [النساء : ٣٢] فهذا البيت مفرغ في قالب المثال ، لأنه من جنس البيت قبله ، إلا أن الأول يزهد في تناول شهواتنا لكونها لاتصفو ولاتتم ، ثم ثنى بالبيت الثاني في أن شهواتنا مع عدم تمامها طبعت النفوس على الميل إليها ، فهي تصبو إليها وتألفها ، لولا ماينال متناولها مما ينفر منها في العقبى من الظماء بالمد ، وهو ضد الري ، قال الله تعالى : ﴿ **فإنك لاتظمأ فيها ولاتضحى** ﴾ [طه :١١٩] وقال الرسول ﷺ ((أكثركم رياً في الدنيا، أكثركم عطشاً يوم القيامة)) وقال ((أكثركم شبعاً في الدنيا، أكثركم ولم يأكل من أجره شيئاً. كان مصعب[1] بن عمير أفضلنا مات يوم أحد، فلم نجد مانكفنه به ((الذي إذا قال لأهله اسقوني لم يسألوه من أي شراب نسقيك ، وإذا استطعمهم لم يسألوه من أي طعام نطعمك ، وإذا استكساهم لم يقولوا أيَّ ثيابك نبعث إليك)) قال الشاعر :

حلُوُها مرٌّ ومُرُّها حلو   صديقُها يوم القيامة عدو

---

(١) حديث «أكثركم رياً في الدنيا أكثركم عطشاً الخ .. لم أجد هذا اللفظ إلا إن الطبراني وأبا نعيم رويا : إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة الخ ..» قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : إسناده ضعيف (٨١/٣) .

يروى أن الإنسـان لاينَال من شهوات الدنيا وطيباتها شيئاً إلا كان ذلك نقْصاً من حسناته وهضماً من درجاته .

أخرج الشيخـان من طريق أبي أمامة[1] أن أبا ذر[2] رضي الله عنـه قال : إنا معشر المهاجرين قد وقع أجرنا على الله ، فمنا من أينعت له ثمرتهُ ، فهو يقضم منها ، ومنا من لحق بالله ولم يأكل من أجره شيئاً . كان مصعب[3] بن عمير أفضلنا مات يوم أحد ، فلم نجد مانكفنه به إلا نمرة[4] كنا إذا غطينا بها رأسه بدتْ قدماه ، وإذا غطينا بها قدميه بدا رأسه ، فغطينا بها رأسه وسترنا قدميه بالأذخر[5] .

روي أن عابداً من بني إسرائيل ، كان يقوم الليل ، ويصوم النَّهار وكان يصنع الأطباق من الخوص ، يبيعها بما يفطر به ، ويقيم صلبه لقيام الليل ، وكانت تحته ابنة عم له صالحة ، فبينما هو ذات يوم بعد العصر وبيده أطباقه ، يطوف في المدينة على عادته ليجد من يشتري

---

(١) أبو أمامة : هو صدي بن عجلان بن الحارث الباهلي ، أرسله النبي ﷺ إلى قومه باهلة ، وكان مع علي بصفين مات رضي الله عنه سنة ٨٦ هجرية .

(٢) أبو ذر ـــ هو جندب بن جنادة بن سكن الغفاري ، كان من السابقين إلى الإسلام ، زاهداً صادق اللهجة اختلف مع معاوية بالشـام فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، ولما قدمها اختلف مع الصحابة في شأن المال وإنفاقه ، فطلب منه عثمان أن يتنحى إلى الربذة ، وامتثالا لأمره خرج إليها ، وبها مات وحيداً ، إلا من زوجه وخادم فوافاه ابن مسعود بعد موته بقليل وصلى عليه وكان ذلك عام ٣١ هجرية .

(٣) مصعب ـــ هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف أحد السابقين إلى الإسلام ، وكتم إسلامه خوفاً من أمه ، ولما علم أهله أوثقوه فلم يزل محبوساً إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة ، ثم رجع إلى مكة ومنها هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأحداً ومعه اللواء ، فاستشهد بأحد ـــ كان أنعم غلام في مكة وأجوده حلة ، ولما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة ، ولما صار إليه ، فلم يجد ما يكفن به يوم أحد إلا ثوباً لايستره إصابه . (٤٠٢/٣)

(٤) النمرة ـــ شملة أو بردة فيها خطوط .

(٥) حديث إنا معشر المهاجرين إلخ .. متفق عليه كما قال الشيخ وأوله عند البخاري ـــ عدنا خباباً فقال هاجرنا مع رسول الله ﷺ إلخ .. وهو في كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه .

منه ، إذ رأته زوجة الملك ، فهويته ، لما رأت عليه من بهجة العبادة ؛ فقالت لبعض جواريها : إذهبي إلى ذلك الرجل الخواص وقولي له : إن سيدتي تقول لك : هلم إليها لتشتري منك أطباقك ، فذهب مع الجارية فوجدها تنتظره بالباب ، فلما دخل أغلقت الباب من ورائه ، فلما استقر دعته إلى نفسها ، فاستعظم وجعل يعظها في الزنى ، فقالت له : إما أن تواقعني ، وإما أن أصيح عليك في المدينة فتفتضح ، ويمثل الملك بك ، فلما لم يجد بداً قال لها ناوليني ماء ودليني على موضع من البيت أتوضأ به ، فإذا فعلت قضيت حاجتك ، وليكن بأعلى البيت لئلا يرى الملك محل الوضوء ، فيتهمك فقالت إرق إلى أعلى الدار ، وكانت عالية ، فتوضأ بأعلى الدار ، فلما أتم وضوءه قال ياأرحم الراحمين اجعل لي مما أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً وإلا فصبرني على الموت ، فإن الموت أحب إلي من معصيتك بعد ماعرفتك وعبدتك زماناً طويلاً ، وتركت الدنيا وزينتها ابتغاء مرضاتك ، فضجت الملائكة لما رأوا من حاله ، وسمعوا من مقاله ، فقال لهم الله : بعيني جميع ماصنع ، وإنه يلقي بنفسه الآن إلى الأرض فتلقه ياجبريل وافرش له جناحك حتى تضعه على الحضيض ، فألقى بنفسه فمدَّ جبريل عليه السلام جناحه فحمله عليه حتى وضعه بالأرض ،فذهب إلى بيته بغير قُوت ، وقد ترك الأطباق عند زوجة الملك ولم يأت بيته حتى مضت ساعة من الليل ، فقالت له زوجته : ماخطبك إذ تأخرت عن الوقت الذي كنت ترجع فيه ، وجئت بغير قوت ولا خوص ، فقال لها : لقد وقعت في أمر جليل ، فقصّ عليها مالقي من زوجة الملك وإلقائه بنفسه ، ونجاته ، فقالت له : هلم فادع الله ليجعل رزقك في بيتك ويغنيك عن التعرض للفتن ، فقام يصلي ونامت زوجته ، فسأل الله الغنى عما كان فيه ، فأنزل الله عليه ياقوتة من ياقوت الجنة فأضاء منها البيت ، فجعل يشكر الله ويحمده إذ هبت زوجته من نومها مذعورة باكية ، فقال لها : مابالك ، قالت : إني رأيت فيما يرى النائم أني دخلت الجنة فإذا أنا بأسرّة من ياقوت يكاد سنا نورها يذهب بالأبصار ، وإذا هي مستوية إلا سريراً واحداً فيه ثلمة وقد اعوج ، فقلت : مالهذا السرير له ثلمة وفيه اعوجاج من بين هذه السرر ، فقيل لي إنه سرير زوجك ، وإنه استعجل بعض ثواب عمله فقدمناه له الليلة ، فادع ربك فليرد الياقوته إلى السرير ، ولنصبر على ماكنا عليه حتى نرجع إلى دار القرار ، فأخذ يدعو وهي تعينه حتى ارتفعت الياقوته[1] .

---

(١) هذه القصة من الإسرائيليات وهي جديرة بأن تكون مختلفة .

وقال ﷺ ((المكثرون في الدنيا هم المقلون يوم القيامة))[1] وقال ((إن فقراء
هاجرين يسبقون الناس إلى الجنة بقدر نصف يوم وهو خمسمائة عام))[2] وقال: ((إن أغنياء
ي لن يدخلوا الجنة إلا حبواً فهلم يابن عوف فأطلق إسارك))[3] بعض ماله فتصدق بثلث
له ، ثم تصدق بعير أتته من خيبر تحمل مالا كثيراً ، فبشره رسول الله ﷺ أن الله قد أطلق
ره وأن الملأ الأعلى يسمونه تاجر الله وتاجر رسوله ، ولما مات مكث أصحاب رسول الله
ﷺ يحتفرون من رحاب بيوته الذهب والورق بالفئوس أياماً ، وصولحت امرأة من زوجاته
قها قبل موته ، فاختلفوا في توريثها بثمانين ألفاً ، وكانت له مزارع وضياع تثمر في العام
نين ، وكانت إذا احتاجت إلى السقي يستسقي الله لها ، فيأتي الله بمطر يخصها في غير إبان
طر ، ومات عن ألف مملوك ، وعن ثلاثة آلاف من الموالي أعتقهم في حياته رضي الله عنه وعن
عين فرساً كان يحمل عليها في سبيل الله . وأما الإبل والغنم والبقر والبغال والحمير والأثاث ،
ما لايدخل تحت حصر ، ومع هذا كله لم تمل نفسه إلى رئاسة ولاخلافة ، وكانوا ربما
ضوا عليه الخلافة فيجدون ذلك أبعد عنده من الثريا ، وكان في مطعمه وملبسه ومشربه
سائر الصحابة ، لم يتميز عنهم بشيء ، وكانوا كثيراً مايعيرونه بكثرة أمواله ، فيقول لهم : إن
أعطانيها من غير مسألة له ولا ميل إليها ، فقبلت من الله عطيته وأسأله أن يعينني على أداء
ه ، وشكر نعمته فقالوا له : إن كنت صادقاً فابعث إلى خيبر عيراً تحمل تمراً ، فإن بيعت
منا صدقك وإلا حكمناً عليك بأنك مكاثر ، فبعث عيراً تحمل تمراً إلى خيبر ، فلما قدمت
ها جعلوا يضحكون ويعجبون من عير تحمل التمر إلى خيبر ، فأقاموا يوماً وقد عزموا على
صراف ، وكان العير قد وافى خيبر ، وقد اشتد بها الوباء ، فجاء رجل مصاب ، فأخذ تمرة

---

(١) حديث «المكثرون في الدنيا» الخ .. جزء من حديث طويل متفق على صحته رواه البخاري في كتاب
تقراض والرقاق ولفظ هذا الجزء منه «إن المكثرين هم المقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وقليل ماهم» ـــ
بعض رواياته «إن الأكثرين هم الأقلون» ـــ كما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي .

(٢) حديث ـــ «إن فقراء أمتي يسبقون الناس الخ .. حديث صحيح أخرجه مسلم وابن ماجه ، بلفظ
ن خريفاً ولفظ خمسمائة سنة ، أورده السيوطي في جامعه ورمز له بالصحة . قال المناوي وأخرج العسكري أن
حنيفة سئل عن حديث «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم » فقال المراد الأغنياء من غير هذه
ة فذكر ذلك لعبد الواحد بن زيد فقال لايسأل أبو حنيفة عن هذا إنما يسأل عن المدبر والمكاتب (٤٦٢/٢)
ي .

(٣) الإسار بالكسر الرباط : وهو مصدر .

فأكلها ، فما هو إلا أن ازدردها برىء من علته ، فقام وكأنما نشط من عقال ، فأتى المدين
وجعل يصيح ياقوم هلم إلى العير ، فإن تمرها شفاء مما بكم من البلاء ، فإني قد أشفيت عل
الهلاك ، فما هو إلا أن ابتلعت تمرة من تمرهم[1] برئت فقمت وكأنما نشطت من عقال ، فأقب
الناس إليهم وانعقد البيع بينهم على أن كل تمرة بدرهم فأنفدوا من يومهم ، وارتحلوا من الغد
فلما رأى أهل المدينة العير تحمل الورق وقد أدلجت وأقعست من ثقل ماتحمل ، أقبلوا إلى عب
الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقالوا له : إن عيرك قد رجعت بتمرها ، فقال لهم أمهلوا فلعله
تحمل غير التمر ، فوجدها تحمل الورق فتصدق بالعير وبما تحمل رضي الله عنه[2] فشمر برياض
النفس حتى تكفها عن الميل إلى الشهوات فإنه أمر صعب ، إذ ليس من طبعها ، وإن شمَّرتَ
فَرُضتها انقادتْ ولانتْ لك ، ولا يوهن أي لايضعف بداك ، أي سلاماك ، وهي المفاصل
الصغار والعظام التي تتركب عليها قوى البدن ، قال الرسول ﷺ ((يصبح على كل سلام
من بني آدم صدقة))[3] بداء بالمد ، وهو الراي الفطير ، قال الرسول ﷺ ((خمير الرأي خ
من فطيره)) وقال الله حاكياً قول قوم نوح : ﴿ **ومانراك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا بادي
الرأي** ﴾ [هود : ٢٧] أي الذي لاحظ له في سياسة الأمور ولا ممارسة الدهور ، ولا
النظر في العواقب ولايستدل بالمشاهد على الغائب لأن النفس لها أصل في النكث والإباية[4]
والخبث ، فإذا فطمتها عن ثديي شهواتها ، فلا تغفل ، ولاتأمنها على مودتها ، فإنها لاأمان ل
بحال ، ولا لها في سبيل الحق من مثال ، فبقدر ماتضيق عليها تنفسح لك ، وبقدر ماتوس
عليها تسوء أخلاقها وتركض بك ، ولاغاية لها دون أن ترميك في مهامه الضلالة ، وترجع إل
عالمها من الشياطين فتمكنهم من ناصيتك مسلوب القوة ذاهب الحول والحيلة ، إلا أ
يتداركك الله بلطفه ، فإن جهادها هو الجهاد الأكبر ، قال الرسول ﷺ : ((رجعنا م

---

(١) في نسخة ب من تمرها .

(٢) لم أجد لقصة العير هذه سنداً ــ ولاأظنه يوجد .

(٣) حديث ــ يصبح على كل سلامى من بني آدم صدقة الخ .. حديث صحيح ، رواه الشيخا
والطبراني بألفاظ غير لفظ الشيخ ، ولفظ مسلم : «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة» الخ .. كما أور
السيوطي في جامعه بلفظ : «على كل سلامى من بني آدم في كل يوم صدقة» الخ .. ورمز له بالصحة وفي رم
مايشير إلى أنه لم يخرجه إلا الطبراني في الأوسط وليس الأمر كذلك ، والله أعلم .

(٤) الاباية ــ من الامتناع .

الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر))[1] وذلك في مرجعه من غزوة تبوك ، فقالوا وماالجهاد الأكبر يارسول الله قال : ((جهاد النفس)) والله إنها لأخبث من سبعين شيطاناً . فاقهرها بقيد الهمة ، وافطمها بكم العزلة ، وزمها بزمام الحكمة ، واضربها بسوط الكتاب والسنة ، وقُدْهَا بحبل التوبيخ والحساب ، وضمرها بمضمار الزجر والعتَاب ، وشد عليها رحل العزم ببطان الحزم ، واركبها بحرفة الشريعة ، وسيرها في ميدان الحقيقة ، وقل إذا استويت على ظهرها ﴿ **سبحان الذي سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ [الزخرف : ١٣] واجعل العقل سائسها ، والروح ممارسها ، والتقوى حارسها ، والذكر شرابها ، والحلم ترابها ، بعد افتراش القتاد ، ومنح المهج ، وقطع الأكباد ، فحينئذ تطمئن فتنادي من بساط القرب بعد زوال الحجب ﴿ **ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾ [الفجر : ٢٧ ــ ٣٠] فذلك أول قدم تضعه في العبودية المحضة ، وأول شراب تذوقه من خمرة الدنو والوصلة ، فتعكس أحوالها ، وتزكو أعمالها ، فتصير داعية إلى الخير ، حائدة عن الغير ، لاتخطر الشهوة لها ببال ، ولايحوم الهوى حولها في حس الخيال فيخف الدفاع ، ويقل النزاع ، وتفر عن الساحة القطاع فيؤذن مؤذن التشريف على منار التعريف تبكيتاً لابليس ذي الكيد الضعيف : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ [الحجر : ٤٢ والإسراء : ٦٥] فيقع الأمن والسكون ، ويحسن الرجاء والظنون ، ويضمحل الشح والشجون ، فيحدو بها حادي الشوق ، ويقودها خريت[2] الذوق إلى حضرة القدس بشراب الأنس وقُرة العين بذهاب البين*.

---

(١) حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر الخ .. لاأصل له من كلام النبي ﷺ أخرجه الخطيب في تاريخه بلفظ قدم ﷺ من غزاة فقال «قدمتم من خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قالوا وما الجهاد الأكبر قال : مجاهدة العبد هواه أ هـ وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٣٦٢ إلا أنه قال فيه : جهاد القلب . قال ابن حجر في «تسديد القوس» هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن علية ، ثم قال : قال العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر أ هـ (٥١١/١) كشف والله أعلم .

(٢) الخريت ــ الدليل الماهر .

* العبارات في الكلام السابق وهي الذوق الوصلة الشوق ــ كلمات تستعمل عند الطائفة الصوفية : وقد عرفها الإمام ابن القيم في مدارج السالكين له بقوله:

١ ــ الذوق مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم المنافر ــ (من حيث اللغة)

والذوق وهو حلاوة الإيمان والإحسان أمر يجده القلب لكون نسبته إليه كنسبة حلاوة الطعام إلى الفم (جـ٣ ص٨٨) مدارج .

٢ ــ الوصول أو الاتصال عند القوم هو اتصال العبد بربه ووصوله إليه لا بمعنى اتصال العبد بذات الرب . =

وقد تم ماتحل إذاعته ، وتنبغي إشاعته . طمح بنا إليه عنان القلم ، ولو كان في غاية الحسن والامتناع في المقام الأعظم[1] .

قوله غداً ، اسم من أسماء يوم القيامة لتسمية الله له بذلك في قوله ﴿ **ولتنظر نفس ماقدمت لغد** ﴾ [الحشر : ١٨] والغد في اللغة ضد الأمس ، وإنما سمي غداً لأنه غب[2] الدنيا ، ولاينقلب أمس ، قال الرسول ﷺ ((اليوم الرهان ، وغداً السباق ، والغاية الجنة ، والهالك من دخل النار)) قال الله تعالى : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ [آل عمران : ١٨٥] وفي البيت من البديع الاقتباس ، إذ البيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ إلى ﴿ **تفسقون** ﴾ [الأحقاف : ٢٠] وإن كانت إنما نزلت في المشركين ، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه آثروا على أنفسهم وعملوا بمقتضاها رغبة فيما عند الله .

روي عن جابر[3] أنه اشترى من السوق لحماً، فهو يحمله بين يديه إذ رآه عمر بن الخطاب ، فقال : ماهذا الذي تحمله ياجابر ؟ قال : لحماً اشتريته ، اشتهيته فاشتريته ، فقال : أو كلما اشتهيت ياجابر اشتريت ، أما تخاف قوله تعالى : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ [الأحقاف : ٢٠] وأخرج البخاري في ((تاريخه)) عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنه أتي بطعام وكان صائماً ، فلما أتي به ، بكى ولم يأكل منه شيئاً ، فقيل

= ٣ ــ الاشتياق سفر القلب في طلب محبوبه (٢جـ ٥٤ ص) أما قول الشيخ فتنادى من بساط القرب بعد زوال الحجب فمراده والله أعلم ــ ما كان يستر القلب من السواتر وهي سحب النفس،

قال ابن القيم رحمه الله الحجاب في لسان الطائفة النفس وصفاتها وأحكامها وهم مجمعون على أن النفس من أعظم الحجب بل هي الحاجب الأكبر فإن حجاب الرب سبحانه عن ذاته هو النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه .

وحجابه من عبده هو نفسه وظلمته فلو كشف عنه هذا الحجاب لوصل إلى ربه ــ والوصول عند القوم هو ارتفاع هذا الحجاب وزواله فالحجاب الذي يشتد على المحب ويشتد عطشه إلى زواله هو حجاب الظلمة والنفس وهو الحجاب الذي بينه وبين الله وأما الحجاب الذي بين الله وبين خلقه وهو حجاب النور فلا سبيل إلى كشفه البتة (٣جـ ٦٥ص) مدارج، وهذا هو مراد الشيخ رحمه الله .

(١) في المقام الأعظم زيادة في النسخة (ب) .

(٢) غب بالغين والباء ــ كذا في النسختين والمعنى أنه بعد الدنيا ــ

(٣) جابر ــ هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الانصاري السلمي ، احد المكثرين عن النبي ﷺ كان مع من شهد العقبة ، وقد غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ولم يشهد بدراً ولا أحداً ، مات رضي الله عنه سنة ٧٨ هجرية ويقال غير ذلك وقد أوصى أن لايصلي عليه الحجاج (٢١٤/١) إصابة .

ـه : مامنعك أن تفطر من هذا الطعام ؟ فإنه طيب حسن الصنعة ، فقال : أعلم ذلك ، ولكن
خاف[1] أن تكون قدمت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ، ثم قال : قتل حمزة وهو خير مني فلم
وجد مايكفن فيه إلا بردة ، ثم بسط لنا في الدنيا مابسط ، وقد خشيت أن تكون قد عجلت
نا طيباتنا في حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام .

وفيه من البديع أيضاً التلويح في قوله : ولايوهن بداك بداء ، فإنه يحذر مما يتولد من
طواعية البدا من الوهن والفشل المؤديين إلى التواني والكسل المؤديين إلى العجز والفقر .

قال الشاعر : (طويل)

فـإن التــواني أنكـح العجـز بنتـه	**وســاق إليهـا حـين زوجهـا مهـراً**
فراشــاً وطيبــاً ثم قـال لهـا اتكـي	**سـيـولد بعـد اليـوم بينكـما فقـراً**

ومنزلة البداء من الرأي كمنزلة الحماقة من العقل ، فالبداء لسان الحماقة ، كما أن الرأي
ســان العقـل ، قال الرسول ﷺ ((إذا أراد الله هلاك قوم فأول مايفسد عليهم آراءهم ،
علامة فساده النزاع)) قال الله تعالى : ﴿ **ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ [الأنفال :
٤٦] فقيل المراد بالريح القوة ، وقيل : الرأي ، وقيل : الرعب الذي أمد الله به هذه الأمة ،
الصواب أنه الجميع .

فأما الفشل ، فمعروف ، وهو الذي فُسر به قوله ﷺ في قوله : ((كأني لهذه الأمة
قد احتوشها[2] عدوها يأكلها من كل جانب ، كما يأكل القوم المائدة فقيل أقليلون هم ؟ قال
لا : بل كثيرون ، قالوا : فما بالهم ؟ قال : الفشل ، قالوا : وما الفشل يارسول الله ، قال :
حب الدنيا وكراهية الموت)) وحقيقة الرأي : الفحص عن دقائق الأمور وحقائقها على وجه
ستخرج به عواقب الأمور ، وكمائن الدهور وقراءته المشـورة ، ومادته الذكاء والتثبت ، قال
لشاعر في مدح من له رأي وبصيرة : (طويل)

بصــير بــأعقــاب الأمور كأنـه	**يخــاطبـــه من كل أمـر عـواقبـه**

ولذلك قيل : الرأي السديد أحمى من البطل الشديد .

---

(١) في (ب) أخشى .

(٢) احتوشها ــ احدق بها .

قال الشاعر : (كامل)

الرأي قبل تطاعن الفرسان ... هو أول وهي المحل الثاني[1]

فلربما صرع الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الفرسان

وقال غيره : (بسيط)

وللتدابير فرسان إذا ركضوا ... فيها أبروا كما للحرب فرسان

وقال ﷺ ((ماستنبط الرأي الصحيح بمثل المشورة)) ولذلك قال الله تعالى لرسول ﷺ ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ليستجلب بذلك جدهم فيها ويستخرج حدهم ، وليؤلفهم ويبقى ودهم ، ولأن فيهم البطل الشجاع ، والسيد المطاع .

قيل : ماازدحمت العقول على أمر إلا استنبطت منه الصواب . وليقتدي به من بعده من الأمراء من أمته ، إذ ليس لهم من التأييد ماله ، لينتظم بذلك أمرهم ، ويجتمع شملهم ، وتتحد كلمتهم ، وتعظم شوكتهم ، وتشتد على المشركين وطأتهم ، ولذلك شرعت الجماعة في كل يوم خمس مرات ، ثم شرع جمع أعظم من ذلك في كل أسبوع لصلاة الجمعة ، ليعرف بعضهم بعضاً ، وليتخولهم الإمام بالموعظة ، وليسمعوا الدعاء لغزاة المسلمين بالنصر ، وليتأهبوا للجهاد ومعاداة الكافرين بالله ، والدعاء لأئمة الإسلام القائمين بمصالح الأمة ، ثم في الأعياد على وجه الزيادة لله عز وجل ، وإظهاره قوة الإسلام لمن عسى أن يكون جمعه الوقت من جواسيس أعداء الدين ، ومع هذا كله فليس كل أحد يشاور ، وإنما يشاور أهل المشورات .

قال أبو الأسود الدؤلي:[2] (طويل)

---

(١) البيتين من قصيدة للمتنبي يمدح بها سيف الدولة سنة ٣٤٥ هجرية وصحة الابيات كما في الدواوين اليوم :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس مرة ... بلغت من العلياء كل مكان

ولربما طعن الفتى اقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران

(٢) أبو الأسود الدؤلي : هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي ، واضع علم النحو ، كان معدوداً من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان ـــ من التابعين ، رسم له علي بن أبي طالب شيئاً من أصول النحو ، فكتب فيه أبو الأسود . سكن البصرة في خلافة عمر ، وولي إمارتها أيام علي ، شهد صفين مع علي ، ولما تم الأمر لمعاوية قصده ، وبالغ معاوية في إكرامه ، مات بالبصرة عام ٦٩ هجرية .

فمـــا كل ذي نصح بمؤتيك نصحـه   ومـــا كل مـؤتٍ نصحـــه بـــلبيب
ولكـن إذا مـــا استجمعـا عنـد واحد   فحـــق له من طـــاعـــة بنـصـــيب

وقالت الحكمـاء : لاتشـــاور معـلمـاً ، ولاراعي غنم ، ولاكثير القعود مع النسـاء ، لاصاحب حاجة ، ولا خائفاً .

وقيل : إذا استخار ربه ، وشاور صحبه ، واجتهد رأيه ، فقد قضى ماعليه ، ويقضي الله في أمره مايحب .

وقيـل سبعـة لاينبغي لذي لب أن يشـــاورهم : جاهل ، وعدو ، وحسود ، ومراءٍ ، وجبان ، وبخيل ، وذو هوى ، فإن الجاهل يضل ، والعدو يريد الهلاك ، والحسود يتمنى زوال النعمة عنه ، والمرائي واقف مع رضا الناس ، والجبان رأيه الهرب ، والبخيل حريص على الجمع والمنع ، ولارأي له في غير ذلك ، وذو الهوى أسيرهواه ، فهو لايقدر على مخالفته ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ [النساء : ٨٣] قال رحمه الله :

٢١ ـــ وَهَـلْ لِفَـتىً مِنْ قَبْـلُ دَامَ فتَـاؤُهُ   فَيُـلْهيكَ صِـــيرانُ النقَى ونَقَـاءُ

الفتى بالقصر السري[1] الذكي المقدام الأمَّرة[2] ، والفَتاء بالمد شرخ الشباب وحداثة السن ، والســـلامة من الزمانة[3] . فيـلهيك أي يشغـلك عن فكاك مهجتك بما ينجيها من عذاب غدا . صيران النقى بالقصر وهو اسم رمال ممرعة بين نجد وتهامة ، وكانت أعراب مضر تنافس الحلول برياضها ومن مياهه صداء الذي تضرب العرب الأمثال به لطيب مائه[4] وهي ركية[5] بأرض رواض[6] فيحاء معشبة تباري أرض اليمامة طيباً وذكاء، وحسن منظر وصحة هواء

---

(١) السري : السيد .
(٢) الإمَّرة ـــ الذي يستأمر كل أحد في أمره أي يشاوره وهو بتشديد الميم .
(٣) الزمن ـــ المريض والهرم .
(٤) في النسخة (ب) بعد مائة ـــ قال الشاعر :
مـــــاء كل مـــــاء كصـــــدء لوارده   كلا ولا كل مـــرعى فهـــو ســـعـــدان
(٥) ركية زائدة في النسخة ـــ أ ـــ ومعناها ـــ البئر .
(٦) رواض ـــ مكسوة بالنبات .

ينبت بها السعدان واليعضيد[1] والأقحوان والجرجار[2] وأنواع الحمض والبقول، وكانت تحتلها[3] قبائل من مصر وقضاعة، فتأتيها قبائل بني الحسحاس وبني عذراء في زي الشام والحجاز وعبس وذبيان ، وبنو الحارث في زي نجد واليمن وأسد وغطفان ، وبنو طيء في زي السواد وتميم وضبة والرباب في زي البحرين والهند ، كأنه موسم يجتمعون فيه يتفاخرون ويتباهون ، وكانت تقصدهم حينئذ الشعراء ، من أقطار الأرض وأرباب الحاجات ، فتعطي سادات العرب العطايا الجمة حتى يغنون المعدم وإنه لتأتي العصبة[4] ولاحاجة لهم إلا النظر إلى العرب وزيها وجياد خيولها ونجبها وحسن صورها وبراعة أشعارها وفصاحة خطبها ، وتخرج نساؤهم متبرجات بزينتهن وفتيانهم يتفاخرون وينشدون الأشعار ، وتعزف عليهم القيان ، حتى هدم الله ذلك بالإسلام وبقي ذكره في التشبيب والغزل جرياً على عادة الشعراء إلى يومنا هذا .

والنقاء بالمد : النظافة والظرف والبهجة وحسن الرونق ، ويطلق فيراد به نقاء الثوب من الأوساخ ، ويطلق ويراد به سلامة العرض مما يدنسه ، ويطلق ويراد به العفة .

قال الشاعر : (من بحر الوافر)

فقمنا من عفاف لم ندنس بفاحشة ولا رِيَبةٍ ثيابا

وهذا البيت أيضاً من جنس البيتين قبله في التزهيد في الدنيا ، فالبيت الأول في قوة النفي لتمام النعمة فيها لتنغيصها ، والثاني في قوة أن فيها نعيما جسياً لولا أن أعيانه تنقلب مضاراً في العقبى، وهذا في قوة أنها لو تمت ولم تنقلب أعيان شهواتها مضاراً فإنها لاتدوم، وكل مالا يدوم فالاشتغال به عبث، ولذلك قال: وهل لفتًى من قبل دام دوام الفتوة فتطمع أنت في البقاء، إذ كل ماجاز على المثل يجوز على مماثله، وحيث لابقاء فلا نعمة، فأنت بين أمرين موتٌ في الشباب فلم تدرك من شهواتها شيئاً، أو بقاء إلى الهرم فتموت موتات .

كما قال الشاعر : (من بحر الطويل)

ولو أنها نفس تموت جميعها ولكنها نفس تساقط أنفسا

---

(١) اليعضيد — الصنف من النخل جمع عضدان — واليعضيض بقلة زهرها أشد صفرة من الورس — أو هي الشَّجِر (٣— ص ٢٩٥) لسان .

(٢) الجرجر — الفول — والجرجير بقلة صحراوية لها ازهار صغيرة بيضاء .

(٣) كذا في النسختين — ولعل الصواب تحل بها بدل تحتلها مع أن تحتلها صحيحة .

(٤) العصبة — الجماعة .

يروى أن رجلاً من ثقيف كان ذا نعمة وافرة ، وقد أدرك السن ، فسأله بعض التابعين عن النعمة ، فقال : النعمة العافية ، ومن لاعافية له لا نعمة عنده ، قال : فزدني ، قال : النعمةُ الصحة ، ومن لاصحة له لانعمة له ، قال : زدني قال النعمة الغنى ، ومن لاغنى له لانعمة له ، قال : زدني ، قال : لاأزيدك ، وأقول أنا : النعمة اليقين ، ومن لايقين له لانعمة له ، والنعمة القناعة ، ومن لاقناعة له لانعمة له ، والنعمة الورع ، ومن لاورع له لانعمة له ، والنعمة التقوى ، ومن لاتقوى له لانعمة له ، والنعمة العلم بعد حصوله ، ومن لاعلم له لانعمة له ، والنعمة حسن الخاتمة ، ومن لم تحسن خاتمته لانعمة له ، والنعمة دخول الجنة ، ومن لم يدخل الجنة لانعمة له ، والنعمة النظر إلى وجه الله ، ومن لم ينظر إلى وجه الله فلا نعمة له .

قال الشاعر : (كامل)

تبـاً لدار لايـدوم نعـيـمـهـا ومشـيـدهـا عمـا قريب يخـرب

وحكى صاحب «المستطرف» أن الفضل بن يزيد قال : نزلت علينا بنو تغلب ، وكنت مشغوفاً بأخبار العرب أن أسمعها فأجمعها ، فبينما أن أدور بين أخبيتها وفساطيطها ، إذ أنا بامرأة واقفة بفناء خبائها ، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حسنه وجماله ، له ذؤابتان كالسحم المنظوم وهي تخاطبه بلسان رطب وكلام عذب ، تحن إليه الأسماع ، وترتاح له القلوب والطباع ، وهو يبتسم في وجهها ، قد غلب عليه الحياء والخجل ، لايرد جوابا ، فاستحسنت مارأيت ، واستحليتُ ماسمعت ، فَسَلمْتُ عليهما ، فردا علي السلام ، فوقفت أنظر إليهما ، فقالت : ياحضري ماحاجتك ؟ وهل استحسنت مارأيت من هذا الغلام ؟ فقلت نعم ، فقالت ياحضري ، إن شئت سقت إليك من خبري ماهو أحسن من منظري ، قلت : قد شئت ، قالت : حملته والرزق عسير والعيش نكد حملاً خفيفاً ، حتى إذا وضعته ـــ شاء الله أن أضعه ـــ وضعته خلقاً سوياً ، فوربك ماهو إلا أن صار ثالث أبويه ، تفضل الله عز وجل ، وأتى من الرزق ماكفى وأغنى ، فلما أتم رضاعه نقلته من جوف المهد إلى فراش أبيه ، فَرِبَا وكأنه شبل ، حتى إذا مضت له خمس سنين أرسلته إلى المؤدب ، فحفّظه القرآن ، فتلاه ، وعلمه الشعر فراوه ، ورغب في مفاخر قومه وآبائه ، فلما أن بلغ الحلم ، واشتد عظمه ، وكمل خلقه ، حملته على عتاق الخيل ، فتفرس وتمرس ، ولبس السلاح ، إذ نزلنا

منزلا من منازل نجد ، فوعك وقد نزلنا منزلا خصباً رحباً ذا مرافق ونزه ، فلم يقم بالحي من الرجال غيره ، منهم من يصطاد ، ومنهم من يرتاد ، ومنهم من خرج لمجرد النزهة ، وكنا آمنين فما هو إلا أن أدبر الليل ، وأسفر النهار ، إذ طلعت علينا طلائع العدو ، فما هي إلا هنيهة حتى أخذوا الأموال دون أهلها ، وهو يسألني عن الصوت ، وأنا أكتمه الخبر إشفاقاً عليه ، وصيانة له ، حتى إذا علت الأصوات ، وخرجت المخدرات ، رمى دثاره[1] ، وثار كما يثور الأسد ، وأمر باسراج فرسه ، ولبس لأمته ، وأخذ رمحه ، فحمل على جماعة القوم ، فطعن أدناهم فقتله ، ولحق بأقصاهم فقتله ، فصد وحده الفرسان عن الحي ، فجاءته الأمداد ، فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعو الله له بالسلامة ، فلما اشتدوا في أثره ، عطف عليهم ففرق ، شملهم ، وبرد جمعهم ، فقتل أكثرهم ، ونادى أن خلوا عن المال ، فوالله لارجعت إلا به أو لأهلكن دونه ، ثم انصرفت إليه الأقران ، وتمايلت نحوه الفرسان ، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل ، وجعل لايحمل على ناحية إلا حطمها ، ولاكتيبة إلا هزمها ، حتى لم يبق من القوم إلا من نجاه فرسه ، فاستنقذ المال ، وأتى به يسوقه ، فكبر القوم عند رؤيته ، وسمعته يقول في وجوه القوم : (طويل)

تأملن هل تلقين في الناس مثله ... إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب[2]

وضاقت عليه الأرض حتى كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعط كلا حظه ونصيبه ... من السمهريِّ اللدن والمرهف العضب

أنا ابن أبي هند بن قيس بن مالك ... سليل المعالي والمكارم والحسب

أبى لي أن أعطي الظلامة مرهفٌ ... وطرف قوي الظهر والجوف والجنب

وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ ... جبال الرواسي لانحططن إلى الترب

وعرض نقيٌّ أتقى أن أعيبه ... وبيت شريف في ذرى تغلب الغلب

فإن لم أقاتل دونكن وأحتمي ... لكن وأحميكنَّ بالطعن والضرب

فما قصد اللاتي ذهبن إلى أبي ... يهنينه بالفارس البطل الندب

ومثل هذا من مآثر العرب ومفاخرها يخرج عن قصد الاختصار، فرجعت إلى تحقيق معنى البيت، وبيان مااشتمل عليه من الاقتباس الذي هو أشرف فصول البديع، لأنه مقتبس من

---

(١) الدثار ـــ الثوب يشتمل به ـــ أو هو مما يلي الجسد .

(٢) هذا البيت فيه خطأ من حيث الوزن في الشطر الأول منه .

قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ [التين : ٤ ــ ٦] الآية ، فالجهلة يحسبون الفتوة حداثة السن ، وهيهات لم يسمعوا لها خبراً، ولم يقفوا منها على أثر، بل هي إيثار الصاحب، وحسن الجوار، وصيانة الجار ، وحسن العهد ، والذب عن العشير ، والكر خلف الفارين ، والقيام عند منام القارين[١] ، والصيام إن تنعم المتنعمون ، وإنظار المعسر ، وجبر حال المنكسر ، والغيرة على الإسلام بالذب عنه والاحترام ، وإكرام الضيف ، وصلة الرحم ، ولم شعث الأرامل ، والحنو على القريب بالرأفة والترحيب ، والإحسان إلى المملوك ، والشفقة على العيال ، وتولي الأمور الشاقة التي يتحاماها الناس .

قال الشاعر : (طويل)

إذا عظـم المطـلوب قـل المسـاعد[٢]

فمن جمع هذه الخصال ، فقد أتم الفتوة ، وبقدر مانقص منها ينقص من فتوته .

قال الشاعر : (بسيط)

إن الفــتى من يقــول هــا أنــا ذا ... ليس الفــــتى من يقَــول كان أبي

ومن الفتوة مارثت به فاطمة بنت طريف الشيبانية أخاها الوليد بن طريف[٣] فقالت: (طويل)

بتــل هنـاك[٤] رسـم قـبر كأنـه ... عـلى جبـل فـوق الجبـال منيف

لقـد حـاز مجداً في الأنـام وسـؤدداً ... وهمــة مقــدام ورأي حصــيف

أيـا شجـر الخـابور مـالك مورقـاً ... كأنك لم تجزع عـلى ابن طـريف

فـتى لايحب الزاد إلا من التـقــى ... ولا المـال إلا من قنـاً وسـيوف

ولا الذخـر إلا كل جرداء صـلدم[٥] ... وكل رقيـق الشـفـرتـين حـليف

---

(١) القار ــ المصاب بالبرد جمعه قارون .

(٢) هذا عجز بيت من قصيدة للمتنبي يمدح بها سيف الدولة :

والشطر : وحيد من الخلان في كل بلدة ..

(٣) الوليد ــ هو الوليد بن طريف بن الصلت التغلبي الشيباني ثائر من الأبطال ، خرج بالجزيرة الفراتية سنة ١٧٧ هجرية في خلافة هارون الرشيد ، واخذ ارمينية ، وسار إلى اذربيجان وأرض السواد ، فسير إليه الرشيد جيشاً بقيادة يزيد بن مزيد فقتله سنة ١٧٩ هجرية .

(٤) في النسختين العبارة غير واضحة والذي يظهر لنا بتل هناك) .

(٥) الصلدم ــ الصلب الشديد الحافر .

كأنك لم تشهد هناك ولم تقم | مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريهة | من السرد في خضراء ذات رفيف
فقدناك فقدان الربيع وليتنا | فديناك من ساداتنا بألوف
ومازال حتى أزهق الموت نفسه | شجى لعدو أو نجىً لضعيف
ألا يا لقومي للنوائب والبلى | وللأرض همت بعده برجوف
ألا يا لقومي للحمام وللردى | ودهر ملحٍّ بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب قد هوى | وللشمس لما أزمعت بكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه | إلى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحثاحث[1] أضمرت | فتى كان للمعروفِ غير عيوف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد | فرب زحوف لفها بزحوف
عليك سلام الله وقفاً فإنني | أرى الموت وقَّاعاً بكل شريف

وقد عقد القشيري في رسالة للفتوة باباً أتى فيه بالعجب العجاب ، فالاسم من الفتوة الفتى ، ومن الفتاء الفتى ، قال الرسول ﷺ ((أفضل اللحم لحم فتى الغنم)) كما أن القلوص الفتية من النوق وقد يطلق على كرائم الإبل إناثاً كُنّ أم ذكرانا .

ويقال : شابة فتية ، وغلام فتي : إذا وصفا بشرخ الشباب ، ولايقال : فتىً ولافتاة ، إلا لمن فيه خصال تُعجز أقرانه ، قالت الصحابة يوم فتح خيبر : لا فتى إلا علي ، ولاسيف إلا ذو الفقار . وقال صخر حين أتته الخنساء[2] تطلب منه أن يعطيها مائة ناقة كوماء ، وقد أعطاها قبل مائة ناقة فأتلفها عليها زوجها الأخرم ، فقالت له زوجته سليمى : أما هذه فلا تكاد تدع لنا ثاغية[3] ولا راغية ، فقال : إنه ليس بكثير في مثل الخنساء ، ثم أنشد فقال :(رجز) .

---

(١) الحثحثة الاضطراب ــ والحثحاث السير الذي لاوتيرة فيه والحثحاث السريع (ص ١٣٠ جـ ٢) لسان ــ ومع كل هذا فالعبارة غير واضحة .

(٢) الخنساء هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمية اشهر شواعر العرب واشعرهن على الإطلاق ، عاشت أكثر حياتها في الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت ، وكان لها أربع بنين حرضتهم على الثبات في القادسية حتى قتلوا جميعاً ، فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم . ولما وفدت على النبي ﷺ مع قومها كان يستنشدها ويعجبه شعرها . أجود شعرها رثاؤها لاخيها صخر هذا ، توفيت سنة ٢٤ هجرية .

(٣) الثاغية : الشاه ــ والثغاء صوة الشاة

وكيف لاأمنحها خيارها ... وهي فتاة قد كفتني[1] عارها
إذا أموت مزقت[2] خمارها ... وجعلت من شعرها شعارها

ثم قال : اذهبي ياخنساء فخذي من إبلي مااشتهيت ، واتركي ماكرهت ، فقالت : إنها مائة ناقة كوماء ، قال : وإن ـ فلا تخافي نكثاً مابقي بيدي نشب ، ثم غزا بني خزيمة فاكتسح إبلهم ، فأدركه الطلب ، وانهزمت بنو سليم فحماهم ، فطعن فأضنى منها وطال سقمه حتى ملته زوجته سليمى ، فخرجت عنه ذات يوم تظنه نائماً ، فلقيها رجل من قومه ، فقال لها : ماصنع صخر ، فقالت له : لاحي فيرجى ، ولا ميت فينعى ، ثم قال لها : متى يباع هذا الكفل ؟ قالت : عن قريب ، وذلك كله بإذنه ، فهم بقتلها ، وقال في نفسه : والله لأقدمنك أمامي ، فلما دخلت عليه ، قال لها : ناوليني سيفي لأجرب نفسي هل أستطيع هزه ؟ فناولته إياه ، فلم تقله يده فقال : (الطويل)

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقَدْ حيل بين العير والنزوان
لعمري لقد أيقظت من كان نائماً ... وأسمعت من كانت له أذنان
فأي امرىء ساوى بأم حليلة ... فلا عاش إلا في شقاً وهوان
أرى أم صخر لاتَمل عيادتي ... وملت سليمى مضجعي ومكاني
وما كنت أرجو[3] أن أكون جنازة ... عليلاً ومن ذا الذي يغتر بالحدثان

فلم ينشب أن مات فحزنت عليه أخته الخنساء بنت الشريد حزناً صار مثلاً ، ورثته بمراثي كثيرة ، من جملتها قصيدتها المشهورة التي مطلعها : (بسيط)

ياصخر ورّاد ماء قد تناذره ... أهل المياه وما في ورده عار

إلى أن قالت :

وإن صخراً لوالينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لَنَحّار
جواب قاصية جزّازُ ناصية ... عقّاد ألوية للجيش جَرّار
وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

---

(١) في ب قد كفتها .

(٢) في ب فرقت بدل مزقت .

(٣) في النسخة (ب) وماكنت اخشى .

سهل الخليقة محمود الطبيعة ميـ ـمون النقيبة نفَّاع وضرار

لم تره جارة يمْشي[1] بساحتها لريبة حين يخلي بيته الجار

ثم عاشت بعده حتى أدركتها الرسالة ، فأسلمت وحسن إسلامها ، وقد غنت[2] لفتوتها . وكان رسول الله ﷺ يدنيها ويكرمها ، وكذلك أصحابه من بعده ، وقالت لها عائشة رضي الله عنها : ماهذا الحزن ياخنساء في الإسلام ؟ فقالت : كنت أحزن عليه في الجاهلية حيث لاعلم لي بجنة ولا نار ، فكيف لأحزن عليه الآن وقد علمت أنه صار جمرة من جمر جهنم .

وكيفية تضمنه أن الله لما خلق نوع الإنسان كافره ومؤمنه في أحسن تقويم لشرف صورته وحسن تركيبه واشتركا في الفتاء المتضمن الاقتدار على الفتوة ، فجمع المؤمن الفتوتين . فدامت له فتوته شباباً وشيباً ، ودنيا وآخرة ، وذلك حقيقة الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** ﴾ [التين : ٦] لأن ثواب أعمالهم لاينقص بهرم ولا مرض ، كما أنه لاينقطع بموت ، قال رسول الله ﷺ ((من كان على عمل صالح فمنعه منه مرض أو هرم ، كتب الله له الأجر تاماً)) وقال ﷺ ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له))[3] .

وأما الكافر والفاجر ، فبذهاب فتائه تنقطع فتوته فيخرف عقله ، وينتكس قوامه ، وتوهن قوته ، وتنعدم بشاشته ، ويمله أبناؤه ، ويبغضه أحباؤه ، وتنكره زوجته ، وتتمنى موته إخوته فيندم حين لاينفع الندم ، ويكون خيراً من وجوده العدم ، إذ فاتته الدنيا ولم يقدم زاداً ، وييئس أن يجد إلى الدنيا التي أفنى فيها فتاءه واستفرغ فيها قوته معاداً ، فيبقى ذلك الألم كامناً في نفسه حتى إذا عاين ماأعد له من العذاب قال : ﴿ **رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت** ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] فيقال له : كلا لاسبيل إلى الرجوع ، إنها كلمة هو قائلها ، لافائدة تحتها، لأنه لو رجع إلى الدنيا لم يعمل إلا ما كان يعمل قبل، لتحتم الشقاء عليه،

(١) في ب يسعى .

(٢) كذا في الأصلين وفي الكلام حذف .

(٣) حديث إذا مات ابن آدم وفي رواية الإنسان ـــ صحيح رواه مسلم في باب مايلحق الإنسان بعد موته ، كما رواه أبو داود والنسائي والترمذي والبخاري في «الأدب» وأورده صاحب «الكشف» تحت رقم ٢٧٧ ـــ وأورده السيوطي في جامعه تحت رقم (٨٥٠) ورمز له بالضعف وهو وهم منه والله أعلم .

قال الله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام:٢٨] وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : ٥] لأنه رأى وبال أمره في الدنيا بالعجز والهرم ، وفي العقبى بالعذاب والندم .

وأما تركيب البيت، فإن الاستفهام فيه بمعنى النفي فيكون معناه: لم تدم الفتوة ولاالفتاء لأحد قبلك فتطمع أن تدوم لك حتى تشتغل بزخارف الدنيا وتزهو باستحسان النقاء عن مهمات الأمور وفكاك المهج ، قال ﷺ ((كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها))[1] والبيت أيضاً مركب على الكناية المعنوية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء : ٣٤] وهو أحسن مايكون من أسلوب البديع ، وأعز مايجاء به في جودة المعاني ، والله الموفق لارب غيره ، ولاخير إلا خيره .

قال الناظم :

٢٣ ـ حَساً وَزَكىً تُفْنِي المَنُونُ زَكاءَ ذِي زكاءٍ وَيحْدوهَا عَساً وعَسَاءُ

قوله : حساً وزكى ، حالان من زكاء ، والمعنى : تفنى المنون زكاء صاحب زكاء في حال كونه مفرداً وزوجاً، بمعنى أنها تستأصله وتقطع شأفته، فإذا كان ذلك كذلك فإنه ينبغي للعاقل اللبيب رفع همته عن كل ماكانت إلى الفناء عواقبه ، ولو كانت تستمر حالته الحسنى ، فكيف وهي مهيأة للعسى والعساء الحاديين به حثيثاً إلى الموت والفناء ، فالحسا الفرد في لغة ربيعة ، ولذلك سميت قرية الحسا لانفرادها عن القرى بين البحرين ، والسواد في بادية تميم ، وزكى ضد الفرد ، والزكاء النماء ، ويطلق ويراد به الفوز والفلاح قال الله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ﴾ [النور : ٢١] ويطلق ويراد به الصدق والمروءة ، ومنه تزكية الشاهد ، ويطلق ويراد به الطهر، ومنه طهرةُ المال بالزكاة .

والعسى بالقصر : الغلظ والاستواء وبلوغ الغاية ، يقال : عسا النبت والحرث يعسو عساء فهو عسي على وزن غني ، والعساء بالمد : غاية الهرم ، يقال : عسى الشيخ يعسى عسى : إذا هرم ، وفي البيت من البديع الاستعارة ، لأنه استعار للانسان مثلاً من الزرع والنبات اللذين هما أخواه حالاً ومآلاً ، فكما أن الزرع إذا تم واستوى وأفرك فقد دنا حصاده ، كذلك الإنسان

---

(١) حديث «كل الناس يغدو فبائع نفسه» ـ جزء من حديث صحيح رواه مسلم في أول كتاب الطهارة ، وأوله «الطهور شطر الإيمان» كما رواه ابن ماجه واحمد والدرامي .

إذا أدبر شبابه وبدا شيبه وانتهت قوته فقد دنت منيته ، فليتأهب لها أهبتها بالزاد والاستعداد ، إذ قد دنا إبان الحصاد . فالبيت مركب على معنى البيت السابق .

قال الشاعر : (متقارب)

إذا تم شـــيء بـــدا نقــصـــه تــــوقع زوالا إذا قيـــــل تم

يروى أنه لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [المائدة : ٣] سر بذلك سائر الصحابة ، إلا أبا بكر رضي الله عنه ، فإنه حزن حتى بكى ، فقالوا : مالك ياأبا بكر يبكيك مايسر الناس ؟ فقال لهم : ماتم شيء قط إلا نقص ، فإنه فهم من ذلك نعي رسول الله ﷺ ، فما عاش بعدها رسول الله ﷺ إلا أربعة أشهر[١] .

ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه بينما هو ذات يوم في المسجد ، إذ جاءه حبر من أحبار يهود ، فقال له : ياعمر إني سمعت رجلاً من المسلمين يتلو آية من كتابكم لو علينا نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، فقال له : أي آية ؟ قال : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ [المائدة : ٣] فقال : إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه ، والساعة التي أنزلت فيها ، أنزلت يوم الجمعة عند الزوال من يوم عرفة والنبي ﷺ يخطب .

والاقتباس في هذا البيت إنما فيه التلميح إلى معنى هذه الآية الشريفة التي هي ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ الآية [المائدة : ٣] وأما قوله تعالى : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً** ﴾ الآية [النور : ٢١] فإنما جلبها الاشتراك . وهي من مشكلات كتاب الله عز وجل[٢] .

---

(١) أقل من أربعة أشهر حيث نزلت يوم عرفة وتوفي ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول فتكون المدة ثلاثة أشهر على التحقيق ، ورويت قصة شبيهة بقصة أبي بكر هذه وهي أنه لما نزلت سورة (إذا جاء نصر الله) ــ قرأها النبي ﷺ على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص : ففرحوا واستبشروا ، وبكى العباس ، فقال له النبي ﷺ : «مايبكيك ياعم ؟» قال : نعيت إليك نفسك ، قال : إنه لكما تقول» فعاش بعدها ستين يوماً ، مارؤي فيها ضاحكاً مستبشراً ، أورد هذه القصة أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (٢٠ جـ ٢٣٢ ص) .

(٢) لاإشكال ولله الحمد في الآية ــ والعبارة قبلها غير واضحة .

قوله :

٢ ــ أَصَابَ الضَّنَى ذَاتَ الضَّنَاء وبَعلَها فَمـاتَـا وَلَمْ يَنفَعْ حَمىً وَحَمـاءُ

قوله : أصاب ، بمعنى قصد ولم يطش . الضنى بالقصر المرض المزمن الذي كلما ظن صاحبه نكس ، وقيل : المرض المخوف ، وقيل : هو المرض الذي لايمهل ، وربما كان من رارة انعكاس المصيب[1] كقصة أنيس رضي الله عنه لما بلغه وفاة رسول الله ﷺ أضنى فمات كانه كما في « المواهب » ، والضنى : فاعل أصاب ذات صاحبة الضناء بالمد ، وهي المرأة زيزة ذات النسل الكثير ، كأم قرفة زوجة حذيفة بن بدر الفزاري ، وكانت العرب تضرب ل السائر في عزتها حتى قالوا : أعز من أم قرفة ، ومن عزها أنه يعلق في بيتها سبعون سيفاً كل محرم فلم يغن ذلك عنها شيئاً ، وقد قتلت في بعض غزوات أصحاب رسول الله ﷺ ، سابها سهم غرب[2] فقتلها، فما انتطح فيها عنزان، وأما بعلها حذيفة، فقتلته بنو عبس يوم ماءة في عصبة من أهل بيته ، ومُثّل به لحنقهم عليه ، وكان يقال له رب معد لشرفه ومنعته في ـه ، وكان يكفل ايتام غطفان كلها مع كثرة عددهم ، فمات ولم ينفع في دفع المنية عنه عنها .

حمىً بالقصر وهو أخو زوج المرأة ، وأخو الزوجة ، أو كل حميم ، أو هو عامة الأقارب الطرفين .

وحماء بالمد ، وهو الفداء ، والبيت لايختص بهما ، بل هو شامل لكل ذي قوة ومنعة ، هذا اليوم يقول قيس بن زهير لما قتلهم: (وافر) .

تعـلم أن خـير النـاس ميتـاً	عـلى جفـر الهبـاءة لايـريم
ولولا ظـلمـه مـازلت أبكـي	عـليـه الدهـر مـاطـلع النجـوم
ولكـن الفـتى حمـل بن بـدر	بغـى فـالبـغي مـرتعـه وخـيم
رأيت[3] الحـلم دل عـليّ قـومي	وقـد يُستجـهـل الرجـل الحـليم
ومـارستُ الرجـال ومـارسـوني	فمـعـوج عـليّ ومستـقـيم

(١) المصيب ــ صاحب المصيبة .

(٢) سهم غرب : لايدري راميه .

(٣) في أيام العرب ــ أظن الحلم ــ بدل رأيت وهو الصحيح .

وفيه من البديع الاقتباس ، لأنه مقتبس من قوله تعالى ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموتُ و**
كنتم في بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] تداركنا الله بلطفه آمين ، وله من الأحاديث قو
ﷺ لما سئل عن أخي الزوج : هل يدخل بيته كعادة العرب ، فقال : ((إنما الحمو الموت
فكررها حتى ظهر في وجهه الغضب[١] وفيه أيضاً قوله ﷺ : «إن الله يحمي عبده الصالح م
الأعمال كما يحمي أحدكم مريضه من الماء» قالوا : ولم يارسول الله ؟ قال : ((يخاف عليه ماه
أشد ، وهو العجب العجب العجب))[٢] .

قال الناظم :

٢٥ ــ وَلَمْ يُنْتِج جلْوَى رَبَّ جَلْوَاء جُودُهُ يُبارِي الجَدَى فالنَّيلُ منهُ جَدَاءٌ

جلوى بالقصر : فرس من كرام الخيل كالعصا وذي العقال ، وجلواء بالمد : الجلح
وهو اتساع الجبهة من غير أن يكون أغم ، وهو أحسن مايكون .

قال الشاعر : (بسيط)

صلع الوجوه وسيما السادة الصلع[٣]

وقال غيره : (طويل)

فلا تنكحي إن فرق الله[٤] بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

والجدى بالقصر : المطر ، وقد تقدم مافيه ، والجداء بالمد : كثرة الجود ، لأن الجد
ضرب عدد في مثله، فلا يكون إلا كثيراً. والمعنى: لم ينتج الفرس المسمى بجلوى ربه ربَّ الجب

---

(١) حديث «إنما الحمو الموت» ــ جزء من حديث متفق على صحته أخرجه البخاري ومسلم والترمذ
والنسائي ، ولفظ الشيخين ــ «إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار يارسول الله أفرأيت الحمو قا
الحمو الموت » .

(٢) حديث «إن الله يحمي عبده» الخ .. رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، ولكن بلفظ ــ «إ
الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحميه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب » ــ أما لفظ الشيخ فلم أجده
وأورده صاحب الجامع بلفظ «إن الله يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة» ورمز
بالضعف وقال شارحه المناوي : فيه الحسين الجعفي قال الذهبي : مجهول متهم ــ والله أعلم ــ (٢٩٨ ــ ج ٢
فيض .

(٣) ورد هكذا في النسختين أ وَ ب

(٤) في ب الدهر .

واسعـة الذي كان يبـاري بجوده وكرمه المطر العـام. والنيـل بفتح النون وسكون اليـاء:
عطـاء الواسع ، والمقصـود أن المنيـة لاتبقي على أحد بسبب مـاعنده من نفيس وكريم
أوصاف ، فلا تعتد بشيء من ذلك ، فإنه لاينجيك منه كما لاينجي جلوى ربها ، وهو كما هو
الحسن الذاتي ، والكرم الطبيعي .

لم ينج جازم ومجزوم ، وجلوى فاعله ، ربه مفعول به . فالنيل مبـ رفاؤه استئنافية ،
به جار ومجرور متعلق بالنيل ، وجداء خبره ، والمباراة على وجه المبالغة .

قال الشاعر : (كامل)

بـاتت تبـاريني البكـاء حمامـةٌ	ورقـاءُ تصـدح من فراق هديـل
فكـأنهـا تـدري الذي بجوانحي	وكأنـني الجـوى لهـا بـديـل

وفيه من البديع التلويح وهو أعلى في الدلالة من التلميح وذلك بقوله :

﴿ **ماأغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه** ﴾ [الحاقة : ٢٨ و ٢٩] .

قال الشاعر : (بسيط) .

لاشـيء مما تـرى تبقى بشـاشتـه	يبـقى الإله ويفـني المـال والولد
لم تُغـن عن هـرمـز يومـاً خزائنـه	والخُلد قد حـاولت عـاد فمـا خلدوا
ولا سـليمان إذ تجري الريـاح له	والطـير والجن فيما بينـهـا بـرد
أمست منـازلهـم منهـم معطـلةً	كأنهـم مـابنـوا يومـاً ومـا حشـدوا
حـوضٌ هنـالك مورود بـلا كذب	لابـد من ورده يـومـاً كما وردوا
أين المـلوك التي كانت لعـزتهـا	من كل أوب إليهـا وافـد يفـد

وفيه من صريح البديع الاستطراد ، وهو أن ينتقل المتكلم من الفن الذي أخذ فيه إلى
يتصل به لمناسبة بينهما ثم يرجع إلى ماكان فيه على وجه يحسن إيراده ، وذلك أن المصنف
صد أولاً التزهيد في الدنيا ، ثم استطرد لذلك بذكر جلوى وراكبها ، فمدحه بكرم الطبع
جمال الصورة وجودة الزي[1] ثم رجع إلى ماقصده أولاً من التزهيد في الدنيا ببيان أن ماذكره
فائدة له في دفع الموت وتأخيره ، ولا فائدة له في تنفيس كربته وسكراته ، فصار لذلك قد

---

(١)الزي : اللباس .

أتى بنوع من الوعظ والتزهيد أقرب إلى الأخذ بمجامع القلوب مما كان شرع فيه أولاً ، وفيه قو
السموأل[٢] ابن عادياء : (طويل) .

ونحن أناس لآنرى القتل سُبَّة إذا مارأته عامر وسلول
يقرِّب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

وذلك أن السموأل مدح قومه بأنهم لايرون القتل عاراً ، ولايعدونه عيباً لشجاعته
وجلدهم عند ملاقاة أقرانهم ، ثم خرج عنه إلى هجو قبيلتي عامر وسلول ابني صعصعة بضد
ذلك ، ثم رجع إلى ماكان آخذاً فيه من مدح قومه بالشجاعة فقال : يقرب حب الموت الخ .
وفائدته إظهار فضل قومه على هاتين القبيلتين ، ونظيره قول الآخر : (طويل)

إذا مااتقى الله امرؤ وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم

ألا ترى أنه أخذ في فن المواعظ والزهد ، ثم خرج منه إلى قبيلة جرم ، ثم الاستطراد عل
ثلاثة أضرب ، ضرب غير مقصود ابتداء ، وليس فيه تقوية لما قبله كما في البيتين المتقدمين
وضرب غير مقصود ابتداء ، ولكنه أتى به تقوية لما قبله وتأكيداً له ، وذلك كقول جرير[١]
يهجو أم الفرزدق[٢] :

بها برص بأسفل أسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا

---

(٢) السموأل ــ هو السموأل بن غريض بن عادياء ، شاعر جاهلي حكيم من سكان خيبر شمال المدينة
وكان له حصن يسمى الأبلق ــ وإليه تنسب قصة الوفاء مع امرىء القيس مات نحو سنة ٦٥ قبل الهجرة (٤٠
ص ٤ جـ) اعلام والله أعلم .

(١) جرير ــ هو جرير بن عطية بن حذيفة اليربوعي ، أشعر أهل عصره ، ولد ومات باليمامة ، عاش
يناضل شعراء زمنه ، وكان هَجّاءً فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل ، له ديوان شعر مطبوع مات عام ١٠
هجرية .

(٢) الفرزدق ــ هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الشهير بالفرذدق شاعر من النبلاء من أهل
البصرة ، عظيم الأثر في اللغة ، يقال : لولا شعر الفرذدق لذهب ثلث اللغة العربية ، وهو صاحب الأخبار مع
الأخطل وجرير ، ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر ، كان شريفاً في قومه عزيز الجانب لاينشد الشعر إلا جالساً
له شعر مطبوع في ديوان ، وله كذلك نقائض جرير مع الفرزدق في ثلاث مجلدات مات عام ١١٠ هجرية .

لأنه هجا أولاً أمه ، ثم استطرد هجوه ، وفيه زيادة لهجوها وتأكيد له ، وضرب مقصود
تداء ، وإنما يؤتي بما قبله ليتوصل به إليه ، كقول أبي إسحاق الصابي : يمدح سيف الدولة :
كامل)

إن كنت خنتك في المودة ساعة فذممت سيف الدولة المحمودا
وزعمت أن له شريكاً في العلى وجحدته في فضله التوحيدا

ألا ترى أن المقصود إنما هو مدح سيف الدولة، وإنما أتى بما قبله ليتوصل به إليه.
الأقرب أن يكون المستطرد به وصفاً[1] لعلي رضي الله عنه وتفجعاً عليه، كما في «الدر المنثور»
أبي تميمة[2] الطائي لما أتاه نعي علي بن ابي طالب رضي الله عنه تفجع عليه بقصيدته التي لم
سمع السامعون مثلها حلاوة ولا طلاوة ولا جودة ولا غزارة معنى، جمعت درراً من البديع،
غرراً من البيان، أولها قوله: (وافر)

أحقاً أنه أودى علي تأمل أيها الناعي المشيد
أتدري من نعيت وكيف فاهتْ به شفتاك كان لها الصعيد
أحامي المجد والإسلام أودى فما للأرض ويحك لا تميد
تأمل هل ترى الإسلام مالت دعمائمه وهل شاب الوليد
وهل شيمت سيوف بني نزار وهل حطت عن الخيل اللبود
وهل تُسقى البلاد عشار مزنٍ بدرتها وهل يخضر عود
لقد هزت بمصرعه نزار بلى وتقوَّض المجد المشيد
وحل ضريحه إذ حل فيه طريفُ المجد والحسب التليد
أما والله لاتنفكُ عيني عليك بدمعها أبداً تجود

(١) كذا في الأصلين والكلام ناقص .
(٢) ليست هذه القصيدة لابي تميمة هذا وإنما هي لابي محمد عبد الله بن أيوب التيمي يرثي بها يزيد بن
زيد الشيباني ــ وقد استبدل الشيخ كل اسم ليزيد في القصيدة بعلي كما استبدل كلمة ربيعة بقريش في قوله:
لقد عزى ربيعة أن يوماً : الخ ..
والقصيدة طويلة أوردها بتمامها صاحب الأغاني في ترجمة يزيد (١١٥/١٨) كما أوردها صاحب العقد
فريد (٢٩٣/٣) والله أعلم .

فـإن تجمـد دمـوع لئـيم قـوم ... فـليس لدمع ذي حب جمـود
أبعـد عـلي تحزن البـواكي ... دمـوعـاً أو تصـان لهـا خـدود
لتبـكـك قبـةُ الإسـلام لمـا ... وهت أطنـابهـا ووهي العـمـود
ليبـكـك معـتر لم يـق دهـر ... له نشبـاً وقـد ضـنّ المعـيـد
فمـن يـدع الخميس إذا تعـايـا[1] ... بميـلة نفسـه البطـل النجيـد
ومن يـدع الأنـام لكـل خطب ... يعـم وكل معـضـلة تئـود[2]
ألم تعجب له أن المـنـايـا ... فتـكـن بـه وهن له جنُـود
لقـد عـزّى قريشـاً أن يـومـاً ... عـليهـا مثـلِ يومك لا يعـود

انتهى . ثم قال رضي الله عنه :

٢٦ ــ وَكَمْ ذِي دَوىً عَافَ الدَّوَاءَ وذِي ... سَرىً بِقَوْسِ سَراءٍ حُبَّ فَهُوَ مبَاءُ

قوله : وكم من لوازم الإضافة بمعنى التكثير ، ذي بمعنى صاحب ، دوى أي مرض ، وهو اسم استخرجته العرب من وصف ، لأنهم يقولون : داء دوي ، بمعنى عضال ولم يعرف له فعل ، إلا أن يكون على وزن من أوزان المبالغة ، قال الرسول ﷺ لما سأل قوماً من الأنصار عن سيدهم ، فقالوا : سيدنا فلان لولا بخل فيه ، فقال لهم أي داء أدوى من البخل[3] والدواء بالمدلغة في اللبن ، لأنه أسرع في شفاء المرضين معاً أعني الجوع والعطش ، ولما ذكره الله مدحه بخصلتين فقال : ﴿ **لبناً خالصاً سائغاً للشاربين** ﴾ [النحل : ٦٦] ولما سمع بعض الحكماء هذا قال : لايخاف منه الغصص وكان ﷺ كلما طعم طعاماً ، قال : « اللهم بارك لنا فيه ،

---

(١) تعايا عليه الأمر ــ اعجزه . ويروي البيت : ومن يحمي الخميس ــ بدل فمن يدع الخميس .

(٢) تئود ــ تثقل أو تشق .

والبيت حسب رواية العقد الفريد :

ومن يـدعـو الإمـام لكـل خطب ... يخـاف وكل معـضـلة تئـود

وكذلك البيت الذي بعده :

ألم تعـلم أخي أن المـنـايـا ... غـدرن بـه وهن له جنـود

(٣) حديث ــ «أي داء أدوى من البخل» ــ جزء من حديث رواه الحاكم في مستدركه كما رواه الطبراني في الصغير له ولفظه عند الحاكم : «من سيدكم يابني سلمة» قالوا الجد بن قيس ، إلا أن فيه بخلا قال : وأي داء أدوى من البخل ، بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور ــ قال الحاكم . صحيح على شرط مسلم ــ وأقره الذهبي سكوتاً (جـ ٣ ص ٢١٩) مستدرك . أما رواية الطبراني والتي فيها «بل سيدكم عمرو بن الجموح» فقد حسنها العراقي في تخريج الإحياء (جـ ٣ ص ٢٤٩) والله أعلم .

رزقنا خيراً منه » وإذا شرب اللبن قال « اللهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه »[1] . ولما أتى ليلة الإسراء بإناء من ماء ، وإناء من عسل ، وإناء من خمر ، وإناء من لبن ، اختار اللبن لسلامته من الآفات ، فقال له جبريل : أصبت الفطرة ، أصاب الله بك ، أما إنك لو أخذت إناء الخمر لغَوتْ أمتك ، ولو أخذت إناء العسل لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة ، ولو أخذت إناء الماء لغرقتْ أمتك ، وأما إذ وفقت فأخذت إناء اللبن فإنك قد رشدت ورشدت أمتك .

ومن رأى في المنام أنه يشرب لبناً ، فإنه ينال علماً إن كان بصدد ذلك ، وإلا فشفاء إن كان به مرض أو دين ، لأنه يوافق الفطرة ، والمتغير بحموضة أو نحوها مالٌ ، وإن كان في سقاء فإنه فقه أو نحو أو لغة من المعقولات ، وإن جهل اللبن فَعِلْمٌ ، ولبن الإبل والغنم علم ، ولبن البقر خصب ، وأموال وشفاء ، ولبن الخيل غنيمة ، ولبن الحمير والبغال أموال لاتحل ، ولبان السباع أموال تنال من أيدي الظلمة والملوك ، وألبان الوحوش ضلالٌ ، ومن رأى أنه يستخرج لبنا مما لا لبن فيه ، كالطير ، فإنه يبتدع ، ولبن بنات آدم أفضل الألبان في الرؤيا ، ومن رأى أنه استحال ماءً أو طعاماً ، فإنه يأخذ الرشا ، ومن رأى نفسه أو غيره يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، فإنه لايجد فائدته وحلاوته ، وربما حرمه ، ومن رأى عين لبن تفجرت له من الأرض حتى صارت أنهاراً ، فإن الله يؤتيه علوما لدنيات ينتفع به العالم ، ومن رأى أنه يرد اللبن في الضرع ، فإنه يحاول مالا يمكن ، ومن رأى نفسه يشربه ويتقيؤه ، فإن كان في إناء ، فإنه ينتفع بعلمه ويؤخذ عنه ، وإن كان إنما يتقيأ بالأرض ، فإن علمه يضيع ، وإن رأى كلاباً تلغ فيه ، فإنه يتعلمه عليه من لايستحقه ممن لاخلاق له .

قوله : وذي سرى ، أي وكم صاحب سرى بالقصر وهو السرى ، والسرى من حاز قصب السبق في جميع المكارم ، كعيسى بن مريم ، قال الله تعالى مبشراً لأمه مريم ، ومعنى مريم في العبرانية العابدة : ﴿ **قد جعل ربك تحتك سرياً** ﴾ [مريم : ٢٤] والسري في أصل اللغة : النهر الجاري . واختلف في السرى والفتى ، فقيل لفظان مترادفان ، وعليه الأكثر من محققي اللغويين وارباب الاشتقاقات ، وقيل : السرى يزيد على الفتى ، لأن الله لم ينعت في كتابه بالسراوة غير عيسى ، فقد مدح كل نبى بما فيه ، فصارت السراوة من جنس معجزاته الخارقة

---

(١) «حديث أن النبي ﷺ كان إذا أكل طعاماً» الخ .. رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وسكت عليه العراقي فى «تخريج الأحياء» (٢/٧) والله أعلم .

للعادة ، كإحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، ووجوده من غير ذكر ، وكلامه في المهد وإتيانه الحكمة صبياً .

قوله : بقوس سراء . القوس معروف ، وعبر به عن السهم ، إذ لايُشك إلا به ، والسراء بالمد : شجر النبع ، وهو من أصلب الأشجار وأنضرها ، ولاينبت إلا على قنن[1] الجبال .

قوله حب ، أي أصيبت حبة قلبه ، فهو مباء ، أي محمول متهيء لأن يغسل ويكفن ويدفن ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت** ﴾ [الحج : ٢٦] وقوله : عاف الدواء ، استعارة عن عيافة أهل الأهواء لدين الله ، ورغبتهم عنه مع مافيه من قُرة العين ومكافحة الأنوار ، والأنس بالعزيز الجبار ، وماذلك إلا لما جعل الله في قلوبهم من مرض النفاق ، وضعف المعاصي ، والشقاق ، كما يعاف ذو المرض الصفراوي ألذ الأشياء وأشهاها إلى النفوس ، كالماء واللبن ، وفي ذلك يقول البوصيري بَرَّد الله ضريحه (بسيط)

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقال غيره[2] : (وافر)

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مراً به الماء الزلالا

وربما كان اللبن كناية عن العلم، لأن نفوس الجهلة تمجه وتزدريه، وتستبعد تحصيله، مع ما فيه من لذة العاجل والآجل، قال الرسول ﷺ ((منهومان لايشبعان، طالب دنيا، وطالب علم، ولاسواء، فطالب العلم لايزداد من الله إلا قربا، وطالب الدنيا لايزداد من الله إلا بعدا))[3]

قال الشاعر: (من بحر السريع)

وقد يرى الجاهل في جهله ... مايرى العالم في علمه

هذا يرى الإحسان في رشده ... وذا يرى التوفيق في جرمه

وفي المثل السائر: من جهل شيئاً عاداه. قال الشاعر: (الوافر)

فمنزلة السفيه من الحليم ... كمنزلة الحليم من السفيه

فهذا زاهد في مثل هذا ... وهذا فيه أزهد منه فيه

---

(١) القنن ــ جمع قنة ــ رأس الجبل .

(٢) غيره هو أبو الطيب المتنبي .

(٣) حديث منهومان لايشبعان تقدّم تخريجه في ص ٥٧

وفي شطر البيت الثاني نوع من الاستطراد وهو الاستطراد غير المقصود، لأنه وصف الرجل بكونه سرياً، فلما بلغ بسراوته كل مبلغ وامتطى كل مجد وشرف. فلما قيل: قد تمت نخوته، وعلمت رتبته، إذ سهم المنية قد شك حبة قلبه، فإذا هو مباء مسلوب ما كان فيه من السراوة، مهيأ للموت، وحسرة الفوت، كأن لم يغن بالأمس، إذ صار رهين القبر والرمس.

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

يـا من بـدنيـاه اشتـغـل	وغـرّه طـول الأمـل
ولم يـزل بغـفـلة	حـتى دنـا منـه الأجـل
المـوت يـأتي بغتـة	والقـبر صـندوق العـمل

وكأنه المعني بقول أبي مدين الغوث: (من بحر المتقارب)

تمـر الليـالي بعـقـلي ومـالي	فيـا قوم مـالي عن المـوت سـالي
شبـابـي يفـر وشـيبـي يكـر	ومـا إن تمـر المـنـون بـبـالي
أفي المـوت ريب أيجـمـل عيب	لمـن لاح شـيب له في العـذالي
نهـاري جـدال وليـلي انجـدال[1]	وحـولي رجـال عـلى مثـل حـالي
يبيـعون رشـداً صحيحـاً بغي	فبـؤسـاً وسحقـاً لهـم من رجال[2]
أرى عظـم ذنبـي فيشتـد كربي	ولكـن ربي عظـيم النـوال
فسـيري طـويـل وزادي قـليـل	وحمـلي ثقـيـل فكـيف احتـيـالي
فيـاذا الجـلال ويـا ذا الجمـال	ويـاذا الكـمـال عـليك اتكـالي
فكـن عنـد ظـني ولاتسـلمـني	ولاتهـلكـني بسـوء فعـالي

اللهم يا ذا المنة والإفضال، يا عميم النوال، حسن أحوالنا، وزك أعمالنا، واجعل في طاعتك رسوبنا وانتقالنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

قال الناظم:

٢٧ ــ وَذِي بَيْتٍ أُعتَاضَ البهَا من بَهائِهِ ... وَرُبَّ عَفـاً مُثْـرٍ عَـلاَهُ عَفَـاءُ

قوله: « وذي بيت » أي ورب ذي بيت شرف، اعتاض من المعاوضة، وهي المبادلة، إلا أن المعاوضة إبدال الشيء بما هو دونه، والمبادلة إبدال الشيء بمثله.

---

(١) الانجدال: الارتماء على الأرض ــ والمراد هنا ــ النوم.

(٢) هذا البيت هكذا هو في النسختين.

قال الشاعر: (بسيط)

لكــــل شــــيء إذا فـــارقتـــه بـــدلٌ وليس لله إن فــــارقت من عـــــوضَ

والبهـا بالقصر وهو البيت المخرق، كنـاية عن القبر، لأنه كثيراً ما يتخرق من تقادم الأزمان، والبهاء بالمد: الجمال الرائع، والبها والبهو: نور الشمس، فلما تخرم سمي باسم ملازمه، وهو بهو الشمس، ورب عفا مثير بضم الميم: كثير المال والولد والخول،[1] والحشم علاه عفاء أي الرمل وذهاب الأثر، قال الرسول لأبي هريرة رضي الله عنه « إذا كان عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء ».

وقال زهير (وافر)

تحمـــل أهـــلهـــا عنهـــا فبـــانـــوا عــــلى آثـــار من ذهب العــــفــــاء

والبيت فيـه من البديع الاقتبـاس، فهو مقتبس من قوله تعـالى: ﴿ **يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ [الشعراء: ٨٨] إذ هو أول يوم من أيام الآخرة، وأول منزل من منازل القيامة، يستوي فيه الغني والفقير، والعظيم والحقير، وإنما كان القبر عوضاً من بيته البهي الدنيوي فيما يرى الراءون، وإن لم يكن إلا ذلك لكان فيه أعظم زاجر عن الدنيا.

وأما إذا كان روضة من رياض الجنة، فهو خير مما اعتيض منه، لقوله ﷺ : « القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار[2] » فظاهر القبر المخرق جنة بالنسبة إليه لو وجد سبيلاً إلى الفناء المحض، أمدنا الله برضاه آمين.

قال الناظم رحمه الله :

٢٨ ــ وما ربُّ هَطْلَى أمَّ هَطْلاَءَ فَارْتَوَى كَهَــلْكَـى اقْتَضَـي هَـلْكَـاءَ هُنَّ ظَمَـاءُ

قوله: « وما رب هطلى » ناقة تمشي رويداً لعظم طبيها[3] وأخلافها حتى صارت هطلاء لغزارة لبنهـا ، حتى يهطـل دائماً أم أي قصـد سحابة هطلاء بالمد أي دائمة التوكاف، واسعة

---

(١) الخول ــ العبيد والإماء وغيرهم.

(٢) حديث ــ « القبر إما روضة » الخ.. ــ رواه الترمذي وقال فيه: غريب ولفظه « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة »، وعنه الغزالي في « الإحياء »، وسكت عليه العراقي (جـ ٤ ص ١٧١).

(٣) الطبي ــ حلمات الضرع من ذوات الأربع.

الأكنـاف، وطفاء[1] ليست بخلب ولا جهام ولا جهمة جائلة[2] ولا كهام[3] تروي الظراب والآكام، وتزيل اللغوب[4] والهيام[5]، فارتوى منها فتى ارتدى عزمه واحتذى حزمه، فليس هو في حزمه وعزمه كهلكى جمع هالك، اقتضى أي أوجب قصدهم مفازة هلكاء، على وزن حمراء، أي كثيرة المهالك، إذ أهلكهم بها الظمأ لتفريطهم وإفراطهم، قال ﷺ ((المؤمن بين قصد واقتصاد، وحزم وعزم، والأحمق بين إفراط وتفريط)). وقال ﷺ لعلي رضي الله عنه ((أنت كعيسى، يهلك فيك رجلان، محب مفرط، ومبغض مفرط)) .

والبيت مفرغ في قالب التمثيل، فمن لاخبرة له بأمثال العرب، وفحوى خطابها،ولحن قولها، لايشق غباره، ولا يبلو أخباره، ولا يحتسى رشفة من أنهاره، ولا يسبح عباب تياره[6] . والشطر الأول مَثَل في طي كناية، لأنه كنى بالناقة الهطلى عن الدنيا التي هي أم الآخرة، فهو يسيرها بهمته العلية بعدما شد عليها رحل العزم ببطان الحزم، وقد تزود بدرها الهاطل، واستغنى بكونه خريتاً[7] حاذقاً عن اتباع[8] سراب الباطل، فقد جمع بين در الحمراء وشيم السحابة الوطفاء، فأصبح في نعم الله يتقلب، وإليه بأنواع طاعته يتحبب، صحب الزاد حتى تروى بري المعاد، فهو دنيوي، أخروي، سماوي، أرضي، فصـار المعنى بقوله ﷺ ((الدنيا نعم المطية للرجل الصالح، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر[9])) أي يبلغ على متن النجيبة الهطلى،

---

(١) الوطفاء ـــ وصف للسحابة إذا تدلت ذيولها.

(٢) الجائلة ـــ السحابة التي لاتستقر.

(٣) الكهام والكهيم ـــ الرجل المسن الذي لامال أو لاخير عنده، وربما استعير للسحاب التي لاماء فيها.

(٤) اللغوب ـــ التعب.

(٥) الهيام ـــ أشد العطش.

(٦) التيار موج البحر الهائج.

(٧) الخريت ـــ الدليل الماهر ـــ وتقدم مراراً.

(٨) في ـــ ب ـــ وانتجاع بدل واتباع.

(٩) الدنيا نعم المطية الخ.. لم أجده هكذا غير أن الطبراني روى من يتزود من الدنيا ينفعه في الآخرة وعنه الهيثمي وسكت عليه (٣١١/٨٠).

ويراد لبن علمها وعملها الهاطل غدرانها[1]. والجنة الهطلاء ذات الخمر والماء، والعسل والنعماء، وينجو من أن يكون من جملة الهلكى، وهم الذين طلبوا الدنيا للدنيا، وأخذ بمجامع قلوبهم سحرها، وأصم أسماعهم وأعمى أبصارهم ذفرها[2]، فاقتادهم الهوى إلى مهامه التوى[3] فوقعوا في المهامه الهلكى، والمفاوز الفيفاء، من غير دليل مرشد، ولا حميم مؤيد، فلمع لهم في البيداء سراب، فظنوه شراباً، فلما أتوه لم يجدوه شيئاً، فوجدوا الله عنده، فوفاهم حسابهم بتعجيل تبابهم[4] وفجاءة عذابهم، إذ ورّطهم عطش الحرص والاتهام[5] بسموم الشح والاتطام، فأصبحوا نكالاً لما بين يديها وما خلفها، وموعظة لمن يبغي خلقها وخلقها، فيتفسح في الساحات، ويجمع بين الماضي والآت، أينعت ثمراته فتولدت، وذهبت غمراته فتجلت، فبعد الصباح يحمد القوم السرى، وعلى قدر الارتقاء يبلغ القوم الكرام الذرى. فهذا مثل للعامة، وأما مثل الخاصة، فرجل امتطى ظهر كلمة الإخلاص وتملى بري لبن الاخلاص، فجد لما توجهت إليه مراكب الحب تحمل على ظهورها خلع القرب فمنت قلوصه الوجناء[6] إذ رأت أترابها يبشرنها باقترابها من معاهدها واسرابها، فأنشدت بفصيح لسانها المنبيء عن سرها وحالها فقالت (من بحر البسيط) :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها قرب المزار فتحيا عند ميعاد

فلما سمعها حادي الشوق خاطبها بلسان الذوق ، فقال لها: (الرجز)

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي الهوينا وتجي في الأول

فاعترضتها حور القصور بالتحف والحبور، فأنفت عن خطابهن وما قرأت حرفاً من كتابهن، ثم أنشدت في جوابهن: فقالت (من بحر الخفيف) :

---

(١) كذا في الأصلين وفي الغبارة بتر.
(٢) الذفر ـــ والدفر ـــ النتن .
(٣) التوى ـــ الهلاك .
(٤) التباب ـــ الهلاك .
(٥) الاتهام ـــ لعله من أتهم إذا سار في الأرض المنخفضة كتهامة .
تقول العرب: أتهم: إذا سار في مكان منخفض كتهامة كما تقول: أنجد: إذا سار في مكان مرتفع كنجد .
(٦) وجناء ـــ شديدة ـــ قوية .

تَنَحَّيْ يا حُورَ الجنان عنا ... مالك قَاتَلْنَا ولا قُتِلْنَا[1]
ولكنْ إلى مليككن اشتقْنَا ... فهو يعلم السر وما أعلنَّا

فلما سمعن ذلك قُلن : بخ بخ نفس واردة غير شاردة فلما سمعتْ قَولهن ، أنشدتْ مجيبةً لهن (من بحر الخفيف) :

لي حبيب خَياله نُصب عيني ... سِره في ضمائري مدفون
إن تذكرتُه فكلي قلوب ... أو تأملتُه فكلي عيون

فإذا جاوزَ هذا المركز خاطبتْه رجال الغَيب ، وأخْرجت له ما في الجيب فيجدونه وقد اذهله القلق، وخَامره الدهش والأرق ، فيَقُول لهم: لاتكدروا علي خلوتي، ولاتشوشوا علي نجعتي ، إنما إلى المحبوب قَصدتُ ، ومما لديه طلبتُ ، وإلى حضرته هربت ، ثم أنشدتْ فقالت (من بحر المتقارب) :

أسيرُ الهوى عينُه تَدمعُ ... وفي لَيْلِهِ العين ما تهجعُ
تُساعده عند تذكاره ... بدمع غزير وما تقلعُ
سل الليل عن حال أهل الهوى ... إذا لاحت الأنجم الطلع
يخْبرك لو أنه مخْبِر ... بأنَّهمُ سُجَّدٌ رُكَّعُ[2]
فَطَوْراً ينَاجُونَ مولاهم ... وهم في عبادته خُضَّعُ
يقُولون يا منْ يرى حالنَا ... ويعلم في الليل مانصنعُ
أعِنَّا بصبر على شوقنا ... إليك فَقَد شفَّنَا المطمعُ
سأبكي لأهل الهوى رحمةً ... لِعِلْميَ أن الهوى يَجمعُ
هم الأولياء لمحبُوبهم ... وهم في جنان العلى رُتَّعُ

فإذا جاوز هذا المركز، اشتاقَتْ إليه الأرواح الروحانية، لما اشتموا رائحة أريج[3] حبه، فيستأذنون الله في زيارته وقُربه، فإذا رأوه ورأوا ما به من الذبول والتَّحرق والذهول، رقُوا له، فقالوا : ألك حاجة ؟ فيقول : أما إليكم فلا، وأما إلى الله فبلى، فيقولون : ألا تَسأله ؟ فيقول لهم: إنه ليس بجاهل فأنبئه ، ولا بغافل فأنبهه ، فيقبل الله عليه حينئذ فيزيل عنه رواق دهش الجلال بفسحة لذة الجمال ، فسكن لذلك روعه ، وجعل الأكوان طوعه ، فوقَع على قُرة العين بزوال حجاب البين ، فَطاب وغاب ، وحير الألباب ، بسروره بعد قلقه ، ونومه بعد

---

(١) في النسخة (ب) ياحوراء الجنان .
(٢) هذا البيت ورد هكذا في النسختين .
(٣) الأريج ــ الرائحة الطيبة .

أرقه ، فتكثر القالة[1] ، وتضمحل الدلالة ، فلا يعرفه إلا شكله ، ولا يوصل إليه إلا حبله . فهذا ورد القوم، ليس هو في اليقظة، ولا في النوم، فيشربون خمرة الكلف[2] ، على بساط الدنف[3]، في كأس الشغف ، فسكروا فَما صحوا إلا وقد زالت الحجب ، وكافحهم المحبوب[4] فقال لهم: أين السبيل إليَّ إذ لا زَمن ولا أوان ، ولا جهة ولا مكان ، فيجيبه : لا كنت إن كنت أدري كيف السبيل إليك ؟ افردتّني عن جميعي ، فكنتُ سلماً لديك ، فيقول له : أدن أيها العبد، فقد خيرتُك ولذلك حيرتُك ، فيدركه الدهش هنيئة ، حتى إذا أمده الله بعلوم من لدنه نطق بجوامع الكلم فقال : (بحر — كامل —)

حيرتموني في جلال جمالكم ... فاحترتُ بين صفاتكم والذات
فبقيت من دهشي بكم حيناً بلا ... جمع ولا فرق ولا لذات
حتى أفضْتُمْ من بحار كمالكم ... سحب العناية والبقاء لذاتي

فينتعش بعد الفناء، ويستريح بعد العناء، إذ لم تبق معه بقيةٌ من حسه، إذ صارت قُرة عينه بنفسه، فيقول حينئذ أنا الكل ، وعلي فَدل وتلك رتبة المشاهدة المعبر عنها بالوصول ، فهي سبعون رتبة تَحْرم في شأنها العبارة، وتستقل الإشارة* .

(١) القالة — بالقاف — الراحة أو الرعدة .

(٢) خمرة الكلف — هي الخمرة التي تشتد حمرتها حتى تضرب إلى السواد .

(٣) الدنف — المرض الشديد — والقرب — . (٤) في النسخة (ب) وكافأهم المحبوب .

* هذه القصة تعرف عندهم بمقامات السالكين أو أحوالهم أو منازلهم أثناء سير القلب إلى ربه :

قال الإمام ابن القيم: قال أبو العباس وأما محبة الخواص فهي محبة خاطفة تقطع العبارة وتدقق الإشارة ولاتنتهي بالنعوت ولاتعرف إلا بالحيرة والسكوت اهـ

قال: فيقال ههنا مرتبتان في المحبة مختلف في أيتهما أكمل من الأخرى إحداهما هذه المرتبة التي أشار إليها المصنف وهي الدرجة الثالثة التي ذكرها شيخ الاسلام (وهو عبد الله بن محمد الهروي) مؤلف (منازل السائرين) في منازله فقال والدرجة الثالثة محبة خاطفة تقطع العبارة وتدقق الاشارة ولاتنتهي بالنعوت وهذه المحبة قطب هذا الشأن ومادونها مجال تنادي عليها الألسن وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول — والمرتبة الثانية عند صاحب المنازل ومن تبعه دون هذه المرتبة وهي المحبة التي تنشأ من مطالعة الصفات — فقال في منازله والدرجة الثانية محبة تبعث على إيثار الحق على غيره ويلهج اللسان بذكره ويعلق القلب بشهوده وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر في الآيات والارتياض بالمقامات، وإنما جعل هؤلاء هذه المحبة أنقص من المحبة الثالثة بناء على أصولهم فإن الفناء هو غاية السالك التي لاغاية له وراءها فهذه المحبة لما أفنت المحب واستفرغت روحه بحيث غيبته عن شهوده وفني فيها المحب وانمحت رسومه بالكلية ولم يبق هناك إلا محبوبه وحده فكأنه هو المحب لنفسه بنفسه إذ فني من لم يكن وبقي من لم يزل ولما ضاق نطاق النطق بهم عن التعبير عنها بكونها قاطعة للعبارة مدققة للاشارة يعني تدق عنها الاشارة ولأن الاشارة تتناول محباً ومحبوباً وفي هذه المحبة قد فني المحب =

وقد عبر المصنف رحمه الله عن كنايته بالإبل للمناسبة التي بين الإبل وبين الأسفار الشاقة، والمهامه الواسعة، إذ ليس من الأموال مايشاكلها، ولا من الحيوان مايواكلها، وقد رصع منظومته بروائع الآيات ، وغُرر الأحاديث المسندات ، ليأتي من فن البديع بالتلويح، بعد الكناية والتلميح، وليعلم من جاراه ما قَصد من التَّضمن والتفنن .

أما الآيات فمنها قوله تعالى : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحمَلون** ﴾ [النحل:٥] فبين بهذه الآيات أن الحيوانات ليس فيها ما يشاكل الفُلك ، إلا هي لأنها سفنُ البر . وقوله : ﴿ **وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه**

= فانقطع تعلق الإشارة به إذ الإشارة لاتتعلق بمعدوم وسر هذا المقام عندهم هو الفناء في الحب بحيث لايشاهد له رسماً ولا محبة ولا سبباً اهـ (١جـ ٣٢٣ ص) طريق الهجرتين وكلام الإمام ابن القيم هذا يشرح بوضوح مراد الشيخ .

وابن القيم رحمه الله يرى أن الفناء ثلاث درجات أعلاها الدرجة الثانية وهي أكمل عنده من الثالثة والأولى باطلة وبها يقول الحلوليون ــ وكذلك شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يرى هذا الرأي ــ لأنه الحق الذي لايصح العدول عنه ــ قال في فتاواه: الفناء الذي يوجد في كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور:

أحدها فناء القلب عما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته ومايتبع ذلك فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص وهو في الحقيقة عبادة القلب وتوكله واستعانته ومايتبع ذلك ــ إلى أن يقول ــ :

الأمر الثاني فناء القلب عما سوى الرب فذاك فناء في الإرادة وهذا فناء في الشهادة ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه فهذا الفناء فيه نقص ــ إلى أن يقول ــ الثالث فناء عن وجود السِّوى بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود وأنه لاوجود لسواه لابه ولابغيره وهذا القول والحال للالحادية والزنادقة اهـ (١٠جـ ٣٣٧ص) ومابعده فتاوى .

الخلاصة أن الفناء يطلق ويراد به الفناء عن وجود السِّوى والفناء عن شهود السِّوى والفناء عن إرادة السوى .

الأول لايقول به إلا الملاحدة القائلين بوحدة الوجود (الوحدة المطلقة)

الثاني: هو الذي يشير إليه أكثر الصوفية في القرون الوسطى ــ وليس مرادهم فناء وجود ماسوى الله في الخارج بل فناؤه عن شهودهم وحسهم:

وهذا الفناء يحمد منه شيء ويذم منه شيء ويعفى منه عن شيء يمدح منه فناؤه عن حب ماسوى الله وعن خوفه ورجائه والتوكل عليه الخ .

ويذم منه عدم الشعور بحيث لايفرق صاحبه بين نفسه وغيره ولابين الرب والعبد ــ مع اعتقاد الفرق ــ أما الذي قد يعفى عنه منه فهو الكلام الذي يقوله السالك أثناء السكر والمحو والاصطلام، أما الثالث فهو فناء القلب عما سوى الرب وهو أعلاها وهو التوحيد الصحيح ومعناه فناء القلب في الارادة الشرعية انظر إن شئت المزيد في مدارج السالكين لابن القيم (١جـ١٥٤ص) ومابعده

أعتقد أن الفناء الذي يريد المؤلف هو (فناء القلب عن إدارة السوى) لأن الشيخ من كبار الفقهاء المحدثين في زمنه المتمسكين بالسنة الداعين إليها وهذا واضح في جميع كتبه وأقواله وسيرته الذاتية، والله أعلم .

إلا بشق الأنفس [النحل:٧] ﴾ قيل : هي مكة ، وقيل: مواطن الغزو ، وقيل: سائر البلدان ، وقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً** ﴾ ــ إلى ــ ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾ [يس:٧١] فإن الله لم يجمع في شيء من الحيوانات ما جمع فيها من المنافع، ولولا أنَّه ذللها لنا ما انتفعنا بها، قال ﷺ : ((أكرموا الإبل، فإنها من نفس الرحمن)) وقال ﷺ : ((عليكم بالكريمتين النَّاقَة والنخلة ، المطعمات في المحل، والراسخات في الوحل)) وقال ﷺ : ((أكرموا الإبل ، فإنها مهر الكريمة، وفكاك النفس، وثمن الجنة)) وقال أيضاً ((الإبل أشرف أموال العرب وحصونها التي تأوي إليها)) .

وسميتْ إبلاً لأنها تأتي بالبلاء، وتذهب به. قال بعض العرب: سميت الإبل إبلا لأنها تبل ساقيها ، وتبول على ساقيها . قال أكثم بن صيفي : الإبل فيها من أخلاق الكرام أوصاف، منها أنها تكون مثقلة بالأحمال، ضمراً من الجوع والهزال ، فإذا حداها الحادي، نسيتْ ما كانت فيه، فتراها تجد في السير محاكاة للحادي، فتراها تمد الأعناق استعذابا للصوت، وتحرك الآذان، وربما سحتْ الدموع على الخدين ، كما قال الشاعر : (الطويل)

ترفق بنا يا حادي العيس والتفت	**فللنور بين الواديين وضُوح**
إذا العيس باحت بالغرام ولم تطق	**جَفاء فَما للصب ليس يبوح**
وقد مدت الأعناق شوقا إلى اللقا	**ومدمعها بالوجنتين سفُوح**
وآت مطايا الركب حتى كأنها	**حمام على غصن الإراك ينوح**
وإلا فما للكرب هاج اشتياقُه	**فكل من الشوق الشديد يصيح**
وما هاجه إلا مواطن طيبة	**وهذا سناها يغتدي ويروح**[1]

يروى أن رجلا من التَّابعين استضَاف حياً من أحياء بني تَميم ، يقَال لهم: بنُو حماد ، فإذا عند رجل منهم عبد مغلل مثقل في الحديد، فقال له: ما بال عبدك في الحديد، فقال له: ذلك عبد نقلني إلى حالة الفقر بعد إذ أنا غني ، فقال له: وكيف ذلك؟ قال: سافرنا إلى السواد فبعنا وأفضلنا، وانقلبنا بأموال كثيرة، وسلع جمة، فلما طال على الإبل السفر، وأدركها الكلال والضجر، أمره بعض من أمره بالحِداء، فَما هو إلا أن سمعت الإبل نغمته، خرجت من أصل طبعها، فقطعت الحبال، وألقت الأحمال، وكسرت الجوالق[2] فمنها ما توحش، ومنها ما هام،

(١) الشطر الأول ــ غير مستقيم في الأصل

(٢) الجوالق ــ والجواليق ــ العدل من صوف أو شعر وأصلها فارسية .

نها ما قُطع نياط قلبه فمات، فقال: إن شئت حبوتّني باطلاقه وأسمعتني بعض نَغماته بما لي
ن حق الضيافة، قال: أفعل، فأطلقه من قيده وغله ، وأقبل به إلى التّابعي، فما هو إلا أن جاءه
ل: أسمعني بعض ألحانك، فحدا العبد، فما هو إلا أن سمع حسن نغماته، فأثار كامن الشوق
شي عليه، فما أَفَاق إلا بعد حين، فقالوا له: كنا نسمع حداه ونغماته، فلا تؤثر فينا شيئا،
ال: أما إنكم على طبع الحمير، فان من لاتهيجه الأوتار، ولاتحركه الأشعار، ولاتشوقه
ألحان، ولا يخوفه القرآن ، فذلك غليظ الطبع ، قليل النفع، أليس الله تعالى يقول : ﴿ **تَقْشَعِرُّ**
هُ جُلُودُ الذينَ يَخْشَونَ رَبَّهُمْ ﴾ ، الآية [الزمر:٢٣] . ومنها أنها تبلغ الغَاية في العطش،
ذا أعطيت ماء كدرا مجته فعافته، ومنها أنها تأتي المكان الخصب النّابت على الدمن، وبها من
لجوع مالا مزيد عليه، فإذا شممته أففتْ وجاوزته، انتهى .

والبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **ضَربَ الله مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَم لا يَقْدِرُ**
لَى شَيْءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ ، أَيْنَمَا يُوَجْهه لا يأتِ بخيرٍ ، هَلْ يَسْتَوي هُو وَمَنْ يَأمُرُ
لْعَدلِ ، وَهُوَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:٧٦] .

قال الناظم رحمه الله :

٢ ــ وقَاكَ العَمَى مُزجِي العَمَاءَ فَعُذْبِهِ فَرُبَّ عَشًى أفْضَى إلَيْهِ عَشَاءُ

قوله: وقاك ، فعل ماض بمعنى الدعاء، معناه: جعل الله بينك وبين ماتكره وقايةً تقيك
عمى ، من عمى البصر ، وعمى البصيرة ، مزجي، أي سائق . العماء بالمد الغيم الرقيق، أو
و اسم لمطلق المطر، لأنه يأتي من العماء، وهو الغيب، ففي الخبر : « كلم الله موسى في
ماء » أي في غيم أبيض رقيق نوراني . ومزجي، فاعل وقَاك فَعُذْ به ، اي لذ به والفاء سببية،
لباء للالصاق ، والضمير عائد على الله، فرب للتكثير ، والفاء للسببية أيضا ، والمجرور
ذوف ، أي: رب صاحب عشى بالقصر ، وهو من عَشِيَ بالكسر يعشى بالفتح عشىً : إذا
ان يبصر بالنهار دون الليل، أفضى إليه، أي أدى إليه عشاء بالمد، وهو طعام الليل ، قال
ﷺ : ((إذا وضع العشاء واقيمت صلاة العشاء، فقَدموا العَشاء على العشاء))[1] .

---

(١) حديث « إذا وضع العشاء » إلخ.. حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وغيرهما بالفاظ مختلفة أكثرها
إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدأوا بالعشاء ـــ ونقل المناوي عن العراقي ان لفظ إذا حضر العشاء والعشاء
بدأوا بالعشاء لا أصل له بهذا اللفظ (ج ١ ص ٢٩٥) فيض .

والبيت أيضاً تمثيل قُصد به التصور لإتيان الشَّر من حيث يُحتَسبُ الخير ، وصُدو
الضرر من الجهة التي يُتَوقع منها النفع ، وإذا كان ذلك كذلك، فالركون إلى شيء من الأشيا
والاعتماد على سبب من الأسباب، جهل، فعلى هذا يكون البيت مقتبسا من قوله تعالى
﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعل
وأنتم لاتعلمون** ﴾ [البقرة:٢١٦] أي والله يعلم ما فيه لكم من الخير وإن كرهتموه، وما في
لكم من الشر وإن رغبتموه، فيصرفكم عما شاء لما شاء .

يروى أن الله يسوس أهل ولايته فيقلب لهم أعيان المحن منحا ، وأعيان المنح محنا ، لئا
يعتمدوا على غيره .

يروى أن يوسف عليه السلام نظر يوماً في المرآة فرأى حسنَهُ وجماله، فحدثته نفسه أن
احداً لايقدر على ثمنه، لجمال وجهه، وكمال صورته، وكونه ابناً ليعقوب نبي الله، فسلط الله
عليه إخوته الذين يعلمون نسبه وشرفه، فشروه[١] بثمن بخس دراهم معدودة، فلما يئس من
نسبه وحسبه، وذلت نفسه، ويئس من النصرة إلا من ربه، بيع بوزنه ذهباً، ووزنه ورقاً، ووزن
جواهر، ووزنه مسكاً، ووزنه كافوراً[٢] فلما اتخذه العزيز ولدا، فكساه الحرير والذهب، وطوق
باليواقيت، فلما ركن إلى ذلك بعض الركون، سلط الله عليه زليخا، فدعته إلى الفاحشة
فاستعظم وعصم، فلما خاف الفتنة، قال ﴿ **ربِّ السجن أحب إلي مما يدعونني إليه** ﴾
[يوسف:٣٣] فسلط الله عليه العزيز وزليخا اللذين كانا يكرمان مثواه، فجعلاه في السجن
فمكث اثنتي عشرة سنة حتى تم الله نعمته عليه بالنبوة، وأرسل الله إليه خلع الكرامة بسبب
رؤيا الملك الريان، فكان من أمره ما قص الله في كتابه فتمحض له ملك مصر من غير نزاع ولا
منازع، فصار الملك من جملة عبيده، ورد الله إلى زليخا شبابها وحسنها وبصرها فتزوجه
حلالا، وأظهر الله براءته وعفته من يومئذ إلى يوم القيامة، فما من كتاب سماوي، إلا وقد نزل
ببراءته وقصته، كما نزلا في القرآن العظيم. ثم ساق الله إليه إخوته أذلاء، حتى شفى غيظه منهم

---

(١) العبارة مبتورة لأن إخوة يوسف لم يشتروه ولم يبيعوه ، وإنما باعه الذين أخذوه من الجب: فالكلام
لذلك لايستقيم والله أعلم .

(٢) لا أدري من أين للشيخ رحمه الله بهذه التفاصيل الخاصة بالأوزان التي بيع بها يوسف عليه السلام .
والأرجح أنها لم تثبت والله أعلم .

تؤدة، ثم جمع الله شمله بابيه وأخيه وجميع عشيرته على أتم هيئة، وأحسن حال، فلما تم له
أمر تَاقتْ نفسه إلى ما هو أشرف من ذلك ، وهو لقاء ربه، فقبضه بعد ذلك بسبعة أيام أو
وها، فلما مات تنافس أهل مصر في دفنه، فكل قوم يريدون دفنه في محلهم رجاء بركته، حتى
رفوا على القتال، فلما أشفوا على القتال تداعوا إلى الصلح على أن يجعلوه في مجرى النيل،
جعلوه في صندوق من مرمر، ثم جعلوا على صندوق المرمر صندوقاً من ذهب، ثم جعلوهما في
ندوق من ورق، وكان لما احتضر عليه السلام أخذ العهد على بني إسرائيل إذا ذهبوا إلى
شام أن يحملوه معهم، فقالوا: أنذهب إلى الشام بعد ما اطمأننا بمصر، فقال: نعم إنه سيكون
ك جبار كافر يقال له الوليد يستعبدكم هو وقومه، ثم إن الله سيرسل نبياً كريماً، يقال له
سى: يستنقذكم على يديه، ويكون ذلك سبب هلاكه وهلاك قومه، فلما أرسل الله موسى بعد
ك، وكان من أمره مع فرعون وقومه ما كان، أمره الله تبارك وتعالى أن يسري بقومه إلى بحر
لزم[1] ، فلما انفصلوا من مصر ، غيمت عليهم السماء ، ومنعوا السير، فسأل موسى ربه أن
ره بسبب ذلك، فأوحى الله إليه أن يوسف عليه السلام أخذ العهد على بني إسرائيل أن
ملوه معهم إذا ذهبوا إلى الشام، فجعل موسى ينادي في بني إسرائيل: ألا من له علم بمحل
سف فليخبرني، ومن لاعلم له فاصم الله سمعه ، فلم يجد من يخبره إلا عجوزا من بني
رائيل، قالتْ إليَّ، فإن عندي نبأه ، لكن على شرط أن تدعو الله أن يرد عليَّ شبابي، وأن
علني رفيقك في الجنة، ففعل، فذهبت معهم فدلتهم على قبره، فحملوه معهم الى الشام، فلما
وه بدت النجوم، فجدوا في السير[2] وقال ﷺ: ((أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث
يحتسب))[3] وقال الله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزُقه من حيث**

(١) بحر القلزم ـــ هو خليج السويس المتفرع من البحر الأحمر .

(٢) ما أجدر هذه القصة أن تكون من الاسرائيليات، أعني قصة العجوز .

(٣) حديث ـــ أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لايحتسب الخ.. جزء من حديث طويل أخرجه
لمي، وأوله اجتمع علي بن أبي طالب وأبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم ، فتماروا في شيء
 لهم علي انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ إلى أن قال : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لايعلم » ـــ
ا حديث موضوع. قال ابن الجوزي في موضوعاته، قال ابن حبان ـــ هذا حديث موضوع، وأحمد بن داود
 كان يضع الحديث، وقال الدارقطني: هو متروك كذاب (جـ ٢ ص ١٥٣) موضوعات .

وأورده صاحب « كشف الخفاء » تحت رقم (٥٨) وقال: رواه القضاعي والعسكري بسند ضعيف بالمرة
أعلم .

لايحتَسب ﴾ [الطلاق:٢] وفي ذلك يقول الشاعر (من مقطوع الكامل) :

يــا طــالبــاً مجد النهـى بقــوة ... هيهــات أنت ببــاطـل مشـغـوفُ
رعت الأســود مع قـوة جيف الفــلا ... ورعى الذبــاب الشـهـد وهو ضـعيف

ويروى أن فاطمة بنت زيد الخثعمية كانت قَد قرأتْ الكتب القديمة، وقد ترقبت مو
رسول الله ﷺ، فأقبلت من اليمن بأموالها تؤم مكة، ترجو أن يكون النبي ﷺ ولدها، فوافق
اليوم الذي فدى فيه عبد الله بمائة من الإبل ، فعارضته فرأت النور في وجهه، فقالت له لـ
مثل الذي نحر عليك من الإبل، وقع علي الآن، فقال لها: (من بحر الرجز)

أمــا الحــرام فــالمــمــات دونــه ... والحــل لا حــل فــأستبـيـنــه
فكـيف بــالأمـر الَلذْ تبـغـيـنــه ... يحـمـي الكـريم عرضــه ودينــه

ثم ذهب مع ابيه إلى شعب بني هاشم، فزوجه آمنة بنت وهب، فوقع عليها الحين
فعلقت برسول الله ﷺ ، ثم رجع إلى الخثعمية، فقال لها: هل لك إلى ما طلبت مني، فنظر
إليه، فقالت له: هل أحدثتَ بعدي حدثاً ؟ قال: نعم، تزوجت آمنة بنت وهب، فوقع
عليها، فقالت له: هيهات إني لست ببغي، ولكني رأيت نورا فأردت أن يجعله الله مني، فأبى
أن يجعله إلا حيث شاء ، ثم أنشدت فقالت: (بحر الطويل)

بني هاشـم ماغادرت من أخيكم ... أمِيـنَــــة إذ للبـــاه يَعـــتركان
كما غــادر المصبــاح عنـد خموده ... فتــائــل قــد مِيثَتْ له بـدهــان
وما كل مايحوي الفتى من تلاده ... بحــزم ولا مـــافَــاتــه لِتــواني
فــأجمل إذا حاولتَ أمراً فإنه ... سـيكـفيكــه جَدَّان يَعْـتلجـان[1]
سيكفيكــه إمـا يد مقفـلحــة[2] ... وإمــا يــد مَبْسُــوطَــة ببنــان
فــلمـــا رأيت النــور قـد زال بهوه ... نبــا بصري عنـــه وكلَّ لســاني

(١) في النسخة أ ـــ و ـــ ب إذ للمياه يعتلجان .

(٢) هذه الكلمة غير واضحة في النسختين، وأقرب شيء ما أثبتناه، والذي يظهر لي والله أعلم أن القصـ
والشعر مختلقان على الرغم من أن أصحاب السير أوردوهما وقد وجدت في البداية والنهاية الأبيات وأثبت الكلمةـ
منقلعة ـــ ومعنى الاقتعال التنحية (٢/٢٥١) .

وعلى كل حال الأبيات تكثر فيها الأخطاء في النسختين أ و ب لذا قمنا بتصحيحها من البداية والنهاية لابـ
كثير .

يروى أن دانْيال عليه السلام لما غضب عليه بختنصر فألقاه في بئر وألقى عليه أسداً قد
جوعه ثم سد عليهما رأس البئر بصخرة عظيمة، فجعل الأسد يتمسح على دانيال، ويلحس
ثيابه، فلما أراد الله إنقاذ بني إسرائيل، وإخراج دانيال من الجب، رأى بختنصر رؤيا هالْته،
فأرسل إلى المنجمين والكهنة من اهل مملكته، فقال لهم: إني قد رأيتُ رؤيا هالتني، ولا أثق
بتأويلها إلا ممن أخبرني بها قَبل أن أقصها عليه، وقد أجَّلتكم ثلاثاً فان أخبرتموني، وإلا قطعت
ما فيه أعينكم، فلما رأوا الجد منه، وعلموا أنه لاقدرة لهم على ذلك، قالوا له: إن يكن علم ذلك
عند أحد، فعند فتىً من بني إسرائيل يقال له: عزير، يزعم أن له رباً في السماء يعلم السر وما في
الضمائر، فبعث إليـه، فلما مثُل بين يديه قال له: إني رأيت رؤيا هالتني، فإن لم تخْبرني بها
وبتأويلها، قطعتُ ما فيه عيناك، فقال له: إن ربي على كل شيء قدير، وإنه يعلم السر وأخفى،
وإن الله قد أخبرني برؤياك وبتأويلها قبل أن آتيك، لكن على شروط، وهي أن تعفو عن دانْيال،
وترد بني إسرائيل إلى أرضهم، وتجعل عليهم قَهرماناً من قهرماناتك ليعمروا بلادهم، فإنها أرض
المنشر والمحشر. وأرض الأنبياء، ويكون ذلك زيادة في ملكك، فقال له: أفعل، فأخبرني برؤياي،
فقال: أجل أيها الملك، إنك رأيت فيما يرى النائم صنماً رأسـه من حديد، وعنقه من نحاس،
وصدره من وَرِق، وبطنه من ذهب، وقائمتاه من فخار، فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبكِ حسنه
وجماله، إذ وقعت على رأسه صخرة من السماء فدقتْه حتى اختلط حديده ونحاسه وورقُه وذهبه
وفخاره، حتى صار على وجه الأرض رُفاتاً، ثم جعلت الصخرة تمتد حتى سدت مابين المشرق
والمغرب، فقال له: والنار إنها لهيَ، ما أخطأت منها حرفاً فما تأويلها ؟ فقال له: أما الصنم؛ فما
عليه أهل الأرض من الكفر والشرك، فملكك أقواه وأشده، وهو رأسه، وملك الترك دون ذلك
في القُوة، وهو النحاس، وملك الروم دون ذلك في القوة، وهو الورق، إلا أنه أنفس الملكين،
وملك بني إسرائيل دون الجميع في الصلابة والقُوة إلا أنه أشرف لكونهم مسلمين، ودون ذلك
في الملك والقُوة والحسن، والفُخَارَ وهم أمتان من اليمن يقال لإحداهما حمير، والأخرى كهلان،
وأما الصخرة التي رأيت نزلت من السماء، فإنه نبي من ولد إسماعيل يقال له: محمد ﷺ ، فهو
أفضل الأنبياء والرسل، يبعث بين يدي الساعة يُذِلُّ الله به أمم الضلال والشرك، فلا يبقى أحد
من الخافقين إلا دخل في طاعته، إما راغب في الاسلام، وإما مقهور بالسيف، يهلك الله على
يدي أصحابه بابل وأهله، حتى ينفقوا كنوزهم في سبيل الله، وإنه ليتْبعه عدد نجوم السماء، وأكثر
جنوده الملائكة، يسيرون معه حيثما سار.

فقال له: أما دانيال، فقد عفوتُ عنه، وأما بنو إسرائيل فسأنظر فيمن أبعث إليهم. فذهب من عنده إلى دانيال، فلما دنا من البئر سمعه يقول: سبحان من لاينسى مَنْ ذكره،و يخيِّب من دعاه، فوقف ليسمع مناجاته، فقال: ادن إليَّ يا عزير، فقال له: ومن أخبرك ؟ فقال الذي بعثك بالطعام، وأخبرك برؤيا الملك، فأزال الصخرة عن فم البئر، ثم أدلى إليه حبلاً، فقال له: أَخْرج الأسد قبلي، فإنه كان رفيقي في الجب، فاستخرج الأسد، فلما استخرجه جعل الأسد يعينه في استخراج دانيال، فلما خرج دانيال عليه السلام وضع بين يديه خبزاً ولحماً وتيناً وعصيراً، فجعل دانيال يناول الأسد من اللحم حتى شبع، فقال له عزير لِمَ لا أكلت قبل ثم أفضلت للأسد ؟ فقال له: ليس ذلك من الفتوة، فقال له عزير: هل استوحشت من الأسد في الجب ؟ فقال: كيف أستوحش من كلب ربي ؟ بل كنت أستأنس به، ثم تزود عزير وذهب إلى الشام فأنقذهم الله تعالى من التلف بالتلف، أي من التلف الذي هو الرق والجلاء بالتلف الذي هو بختنصر من غير سبب منه ولا منهم، بل بأمر رباني، وهو الرؤيا التي أرى الله بختنصر حتى دعته إلى العلم بفضل عزير وقومه، حتى ردهم الله إلى الشام، فبارك الله عليهم فنموا وكثروا في أقْصر مدة، واجتمعت إليهم أشياعهم من جزائر البحر ومن مصر، فأخرجوا عامله. فغزاهم بختنصر،[1] وقومه، فنصرهم الله عليه، فهزموه وقتلوا عساكره قتلاً ذريعاً[2] وذلك قوله تعالى : ﴿ **ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا** ﴾ [الإسراء: ٦].

وكذلك لما منع الله نبيه محمداً ﷺ بعمه وشد أزره بوزيرته وزوجته صديقة النساء خديجة بنت خويلد[3] فلما اطمأن إليهما، وركن بعض الركون توفاهما الله في عام واحد،

---

(١) بختنصر ــ ملك بابل ــ عاش في الفترة ما بين ٦٠٤ إلى ٥٦١ قبل الميلاد، أغار على مصر وفتح أورشليم ــ القدس وأحرقها وأجلى اليهود إلى بابل.

(٢) قصة الرؤيا والجب والأسد من الاسرائيليات التي لايعول عليها:
ونحن المسلمين بحمد الله في غنى عنها وعن مثيلاتها بما لدينا من التراث الصحيح الناصع.

(٣) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشية الأسدية زوج النبي ﷺ ، وأول من صدقت ببعثته مطلقاً، وكانت تدعى قبل البعثة: الطاهرة، تزوجها ﷺ قبل البعثة بخمسة عشرة سنة وكانت موسرة وثبت عنه ﷺ انه قال: « خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران » رواه مسلم. وولدت له ﷺ : القاسم، وعبد الله ، وبناته الأربع، وتوفيت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين،والله أعلم.

كان ﷺ يسمي ذلك العام عام الحزن، فنالت منه قريش ما لم تكن تطمع أن تنال من حياة
ي طالب وخديجة، فذهب إلى أهل الطائف من ثقيف ليسندوا ظهره ويؤازروه حتى يبلغ رسالة
ه، فأغروا به سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى ضرجوا عراقيبه بالدماء، فانصرف عنهم وهو
مموم، فدعا ربه بدعاء الفرج المشهور فقال: ((اللهم إنك ترى ضعف قوتي، وقلة حيلتي،
و اني على الناس، أنت رب الطيبين، إلى من تكلني، إلى عدو يتجهمني[1] أو إلى صديق وليته
ري، إن لم تكن ساخطاً علي، فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي
لأ أركان عرشك، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك، لك العتبى حتى
ضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)) فضجت ملائكة السماوات السبع، فقال لهم الله : اذهبوا
يه، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإن طلب منكم أمراً فاقضوه، فبينما هو عند قرن الثعاليب، إذا
سحابة قد أقبلت عليه تؤمه، فلما دنت منه، إذا الملك يسلم عليه من السحابة، ويقول له:
سلام عليك يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك وما ردوه عليك، وأنا ملَك الجبال، وإن الله
رني بطاعتك، فإن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فعلت، فقال له ﷺ : ((لا بل أرجو أن
رج الله من أصلابهم من يعبد الله ويوحده)) فرجع إلى مكة في جوار المطعم بن عدي، فما
و إلا أن رجع ألقى الله في قلب عمه حمزة[2] الاسلام، فأسلم، وكان أعزَّ فتى في قريش وأشده
كيمة، فكفت عنه قريش بعض الكف لعلمهم أن عمه غير مسلمه، إذ قد أسلم، ثم لما اشتد
لاء بأصحابه أمرهم بالهجرة إلى النجاشي[3] أصحمة ملك الحبشة، فنزلوا على خير جار بأعز
ر، فلما بلغ قريشاً عزهم عند النجاشي وكرامته لهم، غاظهم ذلك، فجمعت قريش هدايا
تحفاً، وأرسلت بها إلى النجاشي وبطارقته ليسلموا إلى عمرو بن العاص[4] وعمارة بن الوليد

(١) تجهّم: عبس في وجهه، أي استقبله بوجه عابس.

(٢) حمزة ــ هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، ولد
ل النبي ﷺ بسنتين، وأسلم في السنة الثانية من البعثة شهد بدراً وأبلى فيها وعقد له رسول الله ﷺ أول لواء عقد
الاسلام ولقبه أسد الله ، وسماه سيد الشهداء، قتل ثلاثين شخصاً قبل أن يقتل يوم أحد، وله من المآثر مالا
صر، استشهد رضي الله عنه في السنة الثالثة من الهجرة يوم أحد وهو دون الستين.

(٣) النجاشي ــ هو أصحمة بن بحر النجاشي ملك الحبشة، والنجاشي لقب له. أسلم في عهد النبي ﷺ
م يهاجر إليه، وكان ردءاً للمسلمين، ولما مات صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب. توفي رضي الله عنه في السنة
اسعة، والله أعلم.

(٤) تقدمت ترجمته في ص (١٣٧)

أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان بين عمرو بن العاص والنجاشي صداقة، فلما أتيا النجاشي أرسلا إلى كل بطريق هديته على حدة، ثم أرسلا إلى كل من زوجاته هدية، ثم قال لهم عمرو إني متوجه إلى الملك في أمر عظيم فأعينوني، ثم أمهل النجاشي حتى خرج إلى دسكرته[1] حيث تجتمع عليه بطارقته، فأتاه وسجد بين يديه على عادته، فقال له: مرحباً بحبيبي عمرو، وهل أتيتني بهدية ؟ قال: أتيتك بهدايا وتحف لم آتك بمثلها قط، لكن على أمر هو هين عليك عظيم موقعه منا، فبينما هو يخاطبه، إذ جاء أصحابه بالتحف والهدايا، فأعجبت النجاشي، وفرح بها فلما رأى ذلك من النجاشي، طمع عمرو وكان أشد شيء عليه أن يسمع كلام أصحاب محمد ﷺ ، فقال له: أيها الملك إن عصبة منا سفهاء خالفوا ديننا، ولم يدخلوا في دين الملك وقد بَعَثَنَا قَوْمُنَا وقومهم في أمرهم، فانهم أعلا[2] بهم عيناً وأعلم بتأديبهم، فقالت البطارقة: ر إليهم إخوانهم أيها الملك، فإنهم أعلا بهم عينا، فقال: دون أن أكلمهم ؟! لا ها الله لا أفعل، قو انضموا إلي، واختاروني عمن سواي، ثم بعث إليهم، فلما جاء الرسول جعفراً[3] وأصحابه، فزعو إلا ما كان من جعفر، فإنه قال: والله لانقول إلا الحق، كان فيه نجاتنا أو هلكتنا، لكن ذروني والقوم، فسأكفيكم أمرهم، فذهبوا إلى النجاشي، فلما وقفوا بالباب، قالوا: السلام عليك يستأذن أهل الله ، فلما سمع النجاشي خطابهم، قال: مرحباً بأهل الله، فأذن لهم فدخلوا، فلم دخلوا سلموا ولم يسجدوا، فقال لهم: ألا تسجدون كما يسجد كل من دخل علي ؟ فقالوا له إنا قد جئناك بتحية الله وتحية الملائكة وتحية أهل الجنة، ثم ابتدأ جعفر الكلام، فقال: أيها الملك سل هؤلاء الذين أتوك في أمرنا، هل كنا عبيداً لهم فأبقنا ؟ فسأل النجاشي عمرا فقال: لا بل كانوا أحراراً كراماً. ثم قال: أيها الملك، سلهم هل وتَرنَاهم ؟ فقال: هل وتروكم ؟ فقالا : لا ولا قدر محجم، ثم قال: سلهم أيها الملك، هل أخذنا لهم نهباً ؟ قال: هل أصابوا لكم نهباً ؟ قال:

(١) الدسكرة ـــ الصومعة ـــ أو ـــ بيوت للملاهي ـــ فارسية.

(٢) كذا في الأصلين ـــ والمراد أعلم بحالهم أو أحق بهم.

(٣) جعفر ـــ هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ابن عم النبي ﷺ ، وأحد السابقين إلى الاسلام ـــ قال أبو هريرة فيه: ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا ولا وطيء الأرض بعد رسول الله ﷺ : أفضل من جعفر بن أبي طالب، وكان يكنى أبا المساكين، وقال فيه رسول الله ﷺ : ((أشبهت خلقي وخُلقي)) هاجر إلى الحبشة، فأسلم النجاشي على يديه،ومنها هاجر إلى المدينة، توفي رضي الله عنه في غزوة مؤتة، عام ثمان في جمادى الأولى وعمره أربعون سنة، والله أعلم.

لا، ولا قدر أنف، ثم أقبل على الملك فقال: اسمع ما أقول لك،والحق أقول، كنا قوم أهل أوثان
شرك، يأخذ أحدنا حجرين يتخذ إحداهما صنماً يعبده، والأخرى أثيفة لقدره، وكنا في جاهلية
جهلاء، لانحل حلالاً، ولا نحرم حراماً، حتى بعث الله منا رجلاً قد عرفنا صدقه، وأمانته،
عفته، قد أرسله الله إلينا رسولاً، وأنزل إليه كتاباً، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولانشرك به شيئاً،
لما دعوناهم إلى الله وعبادته كذبوا الرسول الصادق، وآذونا في الله ، ففررنا إليك بديننا
دمائنا، لأنا رجوناك لما لم نرج له غيرك، وآمناك على ما لم نأمن عليه غيرك، فقال: أمسك،
إنك ذكرت أمراً عظيماً، فالتفت إلى البطارقة فقال: هلم بالإنجيل، وكان النجاشي أعلم
نصارى بالكتاب، فقال لهم: افتحوا عن موضع كذا، فإن فيه نعت أحمد الذي يأتي بين
عيسى والساعة، ففتحوه ودرسوا نعت محمد ﷺ ، ثم التفتوا إلى جعفر، فقالوا: هو يشبه هذا
رجل إن لم يكن هو، فقالوا: لا، إنما هو ابن عمه، ثم قال النجاشي: هل تقرأون شيئاً مما أنزل
ليه ؟ فقال جعفر: نعم، فأمره أن يقرأ عليهم بعضاً مما أنزل عليه ﷺ ، فقرأ سورة يس وسوراً
عدها، فلما سمعوا القرآن اخبتوا وخشعوا حتى أخضلوا مصاحفهم بالدمع، فقالوا: والله إن هذا
ما أتى به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة، فقال له عمرو بن العاص: إنهم ليقولون في
عيسى قولاً عظيماً، فالتفت إليهم فقال: ما تقولون في عيسى ؟ فقالوا نقول في عيسى ما قال الله ،
ال: ما يقول الله ؟ فتلا عليه جعفر قوله تعالى: ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه
ن تراب** ﴾ الآية [آل عمران: ٥٩] ثم قال له، ماذا يقول هو في عيسى ؟ قال: هو عبد الله
رسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فقال: والله إن عيسى لايزيد على ما تقول شيئاً، ثم
ل: اذهبوا فأنتم سيوم[١] ومن ظلمكم فقد عرم[٢]، والله لو أعطيت عليكم دبر[٣] ذهب ما
سلمتكم، فان الله لم يأخذ علي رشوة حين ولاني أمر الحبشة، أفآخذ الرشوة على أهل طاعته،
وا إلى عمرو وأصحابه هداياهم، فرجع عمرو بخيبة، ومات عمارة بأرض الحبشة مسحوراً قد
ن وتوحش، ثم أسلم النجاشي، وأسلم بطارقته وأهل مملكته بإسلامه.

ثم لم ينشب رسول الله ﷺ أن جاءته الأوس والخزرج، فبايعوه بيعة العقبة، وفشا

---

(١) سيوم ــ كلمة حبشية ربما كان معناها ــ أحرار، أو ضيوفي.

(٢) عرم ــ كذا في الأصلين والعرم: الشدة والخروج عن الحد، والأذى.

(٣) دبر ذهب ــ الدبر بالكسر المال الكثير.

الإسـلام في قبائل العرب، ثم هاجر ﷺ إلى المدينة، فاجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وصارت المدينة يعسوباً[1] للاسلام، وقراراً للمسلمين، وذلك قوله ﷺ : ((أمرت أن أهاجر إلى قرية تأكل القرى، يقال لها: طابة))[2] فأراه الله أن نصرته له أتم وأدوم من نصرة أبي طالب وخديجة، وذلك قوله تعالى: ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلَوا من قبلكم** ﴾ إلى ﴿ **قريب** ﴾ [البقرة: ٢١٤] فجاءته غيرة الحق بأمداد النصر حتى ظهر أمر الله وهم كارهون، وتلك عادة الله مع أنبيائه وأوليائه، كلما اطمأنوا إلى السبب زواه عنهم، حتى إذا يئسوا من نصرة غيره والتجأوا إليه، توجهت إليهم غيرته بأمداد المنح، مما لاتبلغه أوهامهم من الفتوحات وأنواع السرور والفرح قال الله تعالى : ﴿ **فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس: ٥٨] وقال ﷺ في حديث قدسي يرويه عن ربه: ((لايعتمد عبد من عبادي على أحد دوني أعلم ذلك من نيته فيكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت كيدهم في خسار))[3] .

ثم اعلم أنه رصع بيته بالتلويح، كما في قوله مزجي العماء إلى قوله تعالى: ﴿ **ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً** ﴾ الآية [النور: ٤٣] فإن قلت: ما الموافقة بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً** ﴾ ؟ [الروم: ٤٨] فالجواب أن الله تعالى يرسل الرياح فتثير السحاب من بين الخافقين، فإذا أثارته بعث إليه

---

(١) اليعسوب: ذكر النحل ـــ أو رئيس القوم ـــ والمراد مقر يأوي إليه المسلمون.

(٢) أمرت أن أهاجر الخ.. لم أجده بهذا اللفظ إلا أن البخاري ومسلماً والنسائي رووه بلفظ « أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد » فالحديث بهذا اللفظ متفق على صحته، والله أعلم.

(٣) هذا الكلام الذي ذكر الشيخ لا يصح إطلاقاً، لاستحالة معناه ولعله تصحيف من بعض الكتبة إذ من المعلوم المسلم به ان من اعتمد على غير الله لايمكن أن يجعل كيد أعدائه في خسار وعلى كل حال، فربما كان يقصد الحديث القدسي الطويل الذي رواه أبو تمام وابن عساكر والديلمي ولفظه:

أوحى الله إلى داود: وعزتي ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات والأرض بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه وأسخت الهوى من تحت قدميه ـــ إلى آخر الحديث ـــ

والحديث فوق هذا فيه يوسف بن السفر متروك، وقال البيهقي: هو في عداد من يضع الحديث، والله أعلم.

ملائكة، وكلهم يسوقه إلى حيث يشاء من بلاده وقيل: إن المزن تحمل، والرياح تلقح، والملائكة تسوق، والمعصرات تدر، كما تدر اللقحة باللبن.

قال أبو قيس: (من بحر المتقارب)

فأسلمتُ وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء ألقى عليها الجبالا[1]

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل ماء زلالا

إذا ما زجاها إلى بلدة ... أطاعت فألقت عليها سجالا[2]

ويصدق قَول أبي قيس هذا قوله تعالى: ﴿ والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض ﴾ [البقرة: ١٦٤] والحاصل أن الأسباب والمسببات لله تعالى ومن الله ، لايتوصل بها إلى غرض، ولا تُجدي في تَحصيل غرض، ولذلك صار ترك الأسباب مع الله سوء أدب، والاعتماد عليها شرك، والطريق بينهما وهو استعمال الأسباب من غير اعتماد عليها.

قال الناظم رحمه الله :

٣٠ ــ سَيَعْلُوكَ مَرْمُوساً سَفىً فالسَفاءَ دَعْ ... وَحِدْ عَنْ ذَكىً بِالْحزْمِ فَهُوَ ذَكَاءُ

أيها المجد في جمع الدنيا ومنعها والمنافسة فيها أقصر، فإنه سيعلوك أي يظلك وإن بلغت الغاية القصوى فيها من العز والملك الثروة.

مرموساً حال من الضمير، أي حال كونه مرموساً ملوثاً بتراب القبر،

سفى بالقصر الريح التي تجري على وجه الأرض، أو ما تجعله على القبر من الرمال الدقيقة فَاعل يعلوك.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

ونوفلٌ كان دون القوم خالصتي ... تُسفى الرياح عليه بين غزاة

قوله فالسفاء دع أي دع السفه وهو عدم التثبت في الأمور، وهو ضد الرشد والحلم،

---

(١) البيت هكذا هو في النسختين إلا أن رواية البداية والنهاية له:

دحاها فلما استوت شدها ... سواء وأرسى عليها الجبالا

(٢) والبيت الثاني في البداية هو:

إذا هي سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا

والشعر كما هو معلوم لأمية بن أبي الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل على اختلاف في ذلك ــ لا لأبي قيس

وهمزة المد مبدلة من الهاء كما يقال في هرق أرق، وحقيقة السفيه: الخفيف الطائش الذي لايستفيد ولا يستفاد منه، ولا يكظم الغيظ، ولا يطلب الفضل، ولا ينظر إلى العواقب.

وفي وصفه يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

وذي رحم قلمت أظفار ضِغْنه   بِحِلْمِي عنه وهو ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامني   قطيعتها تلك السفاهة والظلم
أشيد له مجداً ويهدم طائلي   وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم
يحاول حتفي لا يحاول غيره   وكالموت عندي أن يحل به غرم

قال عبد الملك[1] بن مروان يوماً لأرباب دولته وعشيرته: لينشدني كل واحد منكم أحسن ما بلغه من الكف عن السفيه والحلم على ذوي القُربى، فأنشد كل رجل ما عنده حتى إذا أَوْعَبُوا قال لهم: إن كل ما ذكرتُم لا يفي بالغرض، وإنما جماع ذلك وملاكه في هذه الأبيات، فأنشدهم الأبيات المتقدمة آنفاً، فاتفقوا أنها أحسن ما قيل في الكف عن السفيه والحلم على العشير.

قوله: وحد أي مل، عن ذكى بالقصر، وهو لهب النار، إذا تم وقُودها. بالحزم، وهو إفراغ القوة في التحرز من المعاصي من غير غفلة ولا توان، قال الرسول ﷺ : ((الحزم أن تشرب الماء على الماء، وجماعه الصبر والمصابرةُ والمرابطة)) قال الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فجعل الفلاح من وراء هذه الشرائط الأربعة، فهو أي الحزم ذكاء، أي من علامة كمال العقل، يقال: رجل ذكي، إذا كان تام العقل، وبذلك سميت الذكاة ذكاة، لأن بها يتم إزهاق النفس من غير تعذيب، قال الرسول ﷺ ((من قتل منكم فليحسن القتلة، ومن ذبح منكم فليحسن

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الخليفة الفقيه. ولي الخلافة بعد أبيه مروان، شهد مقتل عثمان وهو ابن عشر. واستعمله معاوية على المدينة، وكان ناسكاً قبل الخلافة، قال نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك، جاءته الخلافة والمصحف في يديه، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك، كان من رجال الدهر ودهاة الرجال، وكان الحجاج من ذنوبه، توفي في شوال سنة ٨٦ عن نيف وستين سنة.

الذبحة))[1] بأن يحد الشفرة ويجد في القطع ولا يحدها وهي تنظر ولا يذبحها وصاحبتها تنظر إليها، ولا يعنفها عند الإضجاع، وليسقها قبل الذبح.

وفي البيت من البديع الاقتباس، لأن البيت مقتبس من معنى قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ** ﴾ [التحريم: ٦] أي غلاظ القلوب قد نزع الله الرحمة من قلوبهم شداد لو شاء أحدهم لرفع أهل الأرض جميعاً بمرزبة في دفعة واحدة، ولو أنه وضعها على جبال الدنيا لذابت كلها.

قال الناظم رحمه الله :

٣١ ـ وَهَوِّنْ حَفىً أَفْضَىَ إِلَيـهِ حَفَـاؤهُ   بِبِـرٍ فَعُقْبَـاهُ سَـنىً وَسَنَـاءُ

أي هوِّن على نفسك ما تلاقيه من حفى مطاياك بالقصر، وهو مصدر حفي الحيوان بالكسر: إذا رق أسفل رجله من مباشرة خشونة الأرض وطول المشي حتى إنه لو وطيء لبل الأرض بدمه ولو أفضى ذلك إلى حفاء رجلك أيها الراكب والمسافر. والحفى مصدر حفي الرجل: إذا مشى حافي الرجل من حف أو انتعل.

قال الشاعر:

ألا فاحفوا أو انتعلوا أحيا نا...

ونعل لأجل بر تحاوله[2].

وفي المثل: من عرف ما طلب هان عليه ما بذل.

وقال الشاعر: (من بحر البسيط)

لا تحسب المجـد تمـراً أنت آكله   لن تبـلغ المجد حتى تلعق الصـبرا

وقال غيره: (من بحر البسيط)

الجد بـالجد والحرمـان بـالكسـل   فـانصب تصب عن قريب غاية الأمل

---

(١) حديث « من قتل منكم فليحسن القتلة الخ.. » جزء من حديث صحيح رواه مسلم وأحمد ولفظه « إن الله كتب الاحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته ».

وأورده السيوطي تحت رقم (١٧٦١) وكأن الشيخ نقله بالمعنى ، والله أعلم .

(٢) هذا الكلام فيه تقديم وتأخير في النسختين وغير مستقيم.

وفي المثل: من جدَّ وجد.

قال الشاعر : من بحر البسيط

لولا المشقة ساد الناس كلهم — الجود يفقر والإقدام قَتَّالُ

ولذلك كان نيل المجد صعباً كؤوداً. فعقباه، أي فإن عاقبة أمره سنى، بالقصر: أي ضوءاً، وسناء، بالمد: أي رفعة، لأن الأمور بعواقبها، فإن كانت العاقبة خيراً كانت البداية باطلاً، إذ خير العواقب ينسي الشر المتقدم.

كما قال الشاعر: (من بحر الطويل)

كأن الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى — ولم يك صعلوكاً إذا ما تمولا

ولم يك في بؤس إذا بات ليلة — يناغي غزالاً ساجي الطرف أكحلا

وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وتَرجون من الله مالا يرجون ﴾ [النساء: ١٠٤] من النصر والظفر والثواب وحسن العاقبة فيلحملكم ذلك على استطابة الألم فضلاً عن الصبر عليه. وقد رئي ذلك منهم عياناً، لأنه ﷺ في غزوة ذات الرقاع بعث رجلين من أصحابه رئية وكانا يتناوبان النوم، فنام أحدهما، وقام الآخر يصلي، فرماه بعض العدو بسهم فأصابه فنزعه وثبت قائماً في صلاته، فرموه بسهم آخر، فنزعه وثبت كذلك في صلاته حتى أصابه السهم الثالث، فحينئذ انفتل من صلاته وأيقظ صاحبه، فقال له: ما حملك على ما فعلت ؟ ولِمَ لَمْ توقظني عند أول سهم ؟ فقال: لما أجد في صلاتي من اللذة، ولولا أني خفت على رسول الله ﷺ والمسلمين ما انفتلت من صلاتي، فذهبا إلى العسكر، فأخبراه بقرب العدو، فلما رأت غطفان ذلك، فرت. ومن هذا ما روي عن عروة بن الزبير[1] أنه أصابته أكلة في ركبته، وكانت تؤذيه جداً، فزعم الأطباء أنه إن لم تقطع الرجل كانت سبباً لهلاكه فقالت لهما ابنته: إن أردتم ذلك فاتركوه حتى يأخذ من حزبه من الليل فافعلوا به ما بدا لكم، فإنه لايشعر، ففعلوا، فقطعوها وحسموها وهو رضي الله عنه على حاله

---

(١) عروة ــ هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الامام،عالم المدينة، أبو عبد الله القرشي الأسدي، أحد الفقهاء السبعة، ولد سنة ٢٣ هجرية وكان من كبار العباد، يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظراً ويقوم به بالليل، فما تركه إلا ليلة قطعت رجله. كان ثقة ثبتاً مأموناً كثير الحديث فقيهاً عالماً. توفي رضي الله عنه سنة ٩٤ هجرية.

حين أتوه وحين ذهبوا عنه، فلما أتم ورده إذا رجله قد قطعت، فقال لهم: متى قطعت رجلي ؟ فقالوا له: قطعناها وأنت تصلي، أما حسست بشيء من ذلك ؟ قال: لا، إلا أنني شممت رائحة الزفت[1]. وكذلك فعل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يوم مؤتة، وذلك أنه لما قدموا على الشام سمعت بهم الروم والعرب، فاجتمعت لهم في مائتي ألف، فلما بلغ أصحاب رسول الله ﷺ كثرة من تجمع لهم من الروم والعرب، أقاموا ليلتين على معان، فقال بعضهم: نبعث رسولاً إلى رسول الله ﷺ نُخبره بكثرة ما تجمع لنا من العرب والروم، فإما أن يمدنا، وإما أن يأمرنا بأمره، فشجعهم ابن رواحة، وقال: يا قوم، إنما هي إحدى الحسنيين، إما الشهادة، وإما الظفر والغنيمة، فشجع ذلك المسلمين، ورغبهم فيما عند الله ، فجعل ينشد وهم مصغون إليه، فقال: (من بحر الوافر)

جنبنا الخيل من أجأ وفرع ... يخرُّ من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصُّوان متناً ... أزلّ كأن صفحته الأديم
أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسومات ... تنفَّس في مناخرها السموم
فلا وأبي معانَ لنا غنياً[2] ... ولو كانت بها عرب وروم
فعبَّأنا أعِنَّتها فجاءت ... عوابس والغبار لها بريم
بذي لُجب كأنَّ البيض فيه ... إذا برزت قوانسها النجوم
فراضية المعيشة طَلَّقتها ... أسِنَّتنا فتنكِحُ أو تقيم

فلما التحم القتال، ترجل جعفر رضي الله عنه عن فرس له أشقر، فعقره وانغمس في العدو شاهراً سيفه، وبيده الراية وهو يقول: (رجز)

ياحبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ... عليَّ إن لاقيْتُها ضرابها

فقطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ثم قطعت شماله، فاحتضن الراية بعضديه حتى

---

(١) الزفت: القار.

(٢) هذه الكلمة غير واضحة في النسختين.

أخذها منه زيد، ثم اقتحم زيد كذلك حتى استشاط على رماح القوم، ثم أخذها عبد الله بن رواحه[1] رضي الله عنه، ثم جعل يقول: (رجز)

يـــانفسُ إلا تقتـــلي تمـــوتي   هــذا حمــام المــوت قــد صــليت
ومـــا تمنـــيت فقــد أعطــيت   إن تفــعــلي فعــلهــا هُــديت

ثم ترجل بعد تردد في النزول، وعقر فرسه، وفعل ما فعل صاحباه، فلما مات حمل الراية رجل من بلي، فحابى بها، وجعل يقول: من يتولى رايتكم ؟ فقالوا له: أنت، فقال: لست بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فانحاز عن المشركين، وانحازوا عنه، وفي هذا اليوم وقع عَلَم من أعلام نبوته ﷺ وهو رفعهم له بالمدينة وهم بالشام، فبينما هو بين أصحابه، إذ شخص ببصره نحو الشام، فذرفت عيناه، فقالوا: ما أبكاك يا رسول الله ؟ فقال « إنه رُفع إلي جعفر وعسكره، فرأيته حين ترجل عن فرسه فعقره، وقاتل حتى قتل شهيداً وقد أبلى، ثم أخذها زيد فأبلى ومات شهيداً، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فسكت النبي ﷺ حتى رئي التغيُّر في وجوه الأنصار، مخافة أن يكون صاحبهم قد أحدث حدثاً لايرضاه الله ورسوله، ثم قال: تردد هنيهة ثم تقدم فقاتل حتى قتل شهيداً، ثم أخذ الراية سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد، فانحاز بالقوم، وانحيز عنه، والله إني لأنظر إلى معركتهم ساعتي هذه، فلما قدم البريد قال له رسول الله ﷺ : ((إن شئت أخبرتني، وإن شئت أخبرتك)) فقال: بل أخبرني يا رسول الله، فجعل ﷺ يخبره كيف قتالهم مع المشركين، وعمن أغنى ومن لم يغْن، وعمن مات من المسلمين ومن مات من المشركين، وكيفية المعترك، وعمن أخذ خالد الراية، وكيف انحاز وانحيز عنه، فقال: والله إن الأمر لكما ذكرت، مازدت ولا نقصت.

فهذه معجزة من معجزاته ﷺ ، وهذا من فضائل أصحابه كرشفة عصفور من بحر زاخر، والحمد لله على ما أنعم وتمم.

قال الناظم رضي الله عنه :

٣٢ ــ وَصِلْ بِوَحَى الدَّاعِي الِوَحَاءَ إغَاثَةً   وَبَــارِ الْوَلَى نَفْـلاً يُحِطْكَ وَلاَءُ

وقوله: صل، فعل أمر. بوحى بالقصر: الصوت على وجه الاستغاثة، الداعي، مضاف

(١) عبد الله ــ هو عبد الله بن رواحة بن ثعلة الأنصاري الخزرجي الشاعر المشهور، كان أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً وما بعدها حتى استشهد رضي الله عنه في السنة الثامنة في غزوة مؤتة.

ه ما قبله. الوحاء بالمد: السرعة والإقبال وهو منصوب بالداعي. وإغاثةً، مفعول صل، أي
جعل صوت الشخص الداعي الوحاء، أي القائل في صوته: الوحاء، أي السرعةَ، موصولاً
غاثتك.

قوله: وبارِ الولى فعل أمر من بارى، من المباراة، والولى لغة في الوَلي وهو المطر الذي يأتي
ر الوسمي، بأن تجاريه جوداً وكرماً، والنفل: العطاء لله وفي الله ، يحطك: يحفظك ويحرسك،
لاء بالمد، أي عنَاية وتَولية من الله، قال الله تعالى: ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من**
ظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾
البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم** ﴾
محمد: ١١] وقال ﴿ **وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين** ﴾
التحريم: ٤] ويقال لفلان على بني فلان ولاء بعتْق أو ولادة، والولاء أيضاً: الوراثة بغير
سب والصهر، والولاء: الحِلْف بين القبائل على المناصرة.

قال عنترة العبسي: (من بحر الطويل)

ونحن منعنا بالفروق نساءنا   نطرد عنها مشغلات غواشيا

إلى أن قال:

فما إن وجدنا في الحروب إشَابة   وما إن وجدنا في الحروب مواليا

وبيته متضمن الحث على إغاثة اللهفان.

وفي قوله: (وصل بوحى الداعي الوحاء إغاثة) إشارة إلى قوله ﷺ : ((من كان في
حاجة أخيه المسلم، كان الله في حاجته))[1] وقال ﷺ : ((من قضى لأخيه المؤمن حاجةً
ضى الله له سبعين حاجة، ثلاثون في الدنيا، وأربعون في الآخرة، أدنى حوائج الدنيا الغنى،
دنى حوائج الآخرة الغفران))[2] وقال ﷺ : ((من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا،

---

(١) حديث: « من كان في حاجة أخيه المسلم الخ.. » ــ رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » له، وأورده
احب « الكشف » تحت رقم ٢٥٧٩ دون لفظ (المسلم).

(٢) حديث « من قضى لأخيه المسلم الخ » رواه الخطيب بلفظ « من قضى لأخيه حاجة من حوائج الدنيا
ى الله له اثنين وسبعين حاجة أسهلها المغفرة » وأورده ابن الجوزي بلفظ « من أعان ملهوفاً غفر الله له ثلاثاً
سبعين مغفرة، واحدة منها في صلاح أمره كله، واثنتان وسبعون درجات له عند الله عز وجل » (ص ٣٧٦ =

فرج اللهعنـه كربة من كرب الآخرة)) وفي رواية ((يؤتى بأهل الحوائج يوم القيامة وكأنه
ملائكة مقربون أو أنبياء مرسلون، يشفعون فيُشفَّعون))[1].

يروى أن الله يوقف عبده يوم القيامة، فيقول له: يا عبدي استحملتك فلم تحملني، أم
إنك لو حملتني لوجدت ذلك عندي، فيقول: أي رب، كيف أحملك وأنت رب العالمين ؟
فيقول له: استحملك عبدي فلان في دار الدنيا، فلم تحمله، أما إنك لو حملته لوجدت ذلك
عندي، ثم يقول له: استكسـوتك فلم تكسني، فيقول: أي رب كيف أكسوك وأنت رب
العالمين ؟ فيقول له: إنه استكساك عبدي فلان، فَلم تَكسه، أما إنك لو كسوته لوجدت ذلك
عندي، ثم يُقول: استطعمتُك فَلم تُطعمني، فَيقُول له: كيف أطعمك وأنتَ ربُّ العالمين ؟
فيقول له: استطعمك عبدي فلان فَلم تطعمه، أما إنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي، ثم
يقول له: استسقيتك فلم تُسقني، فيقول: كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول له: قد
استسقاك عبدي فُلان، فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدتَ ذلك عندي، ثم يؤمر به إلى
النَّار، ويقُول: إنما خلقْتُ رحمتي للرحماء من خلقي.

يروى أن رجلاً من التابعين أتى أبا هريرة رضي الله عنه فقال له: ادع اللهلابني زيد، فإنه
سافر في البحر، وإنه وقع في نفسي الخوفُ عليه، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: ارجع إلى
بيتك، وخذ شيئاً من خالص مالك، وتصدق به على الفقراء على وجه الفداء لزيد، فإنه أسرع
في إغاثة ابنك من دعاء أبي هريرة، فرجع إلى بيته مبادراً، فأخذ شاة كانت عنده فذبحها،
واشترى خبزاً كثيراً، فأطعم المساكين وهو يقُول: اللهم هذا فداء ابني زيد من البلاء، فوافق
ذلك ابنه زيداً ومن معه في السفينة وقد أشرفُوا على الهلاك والغرق، فإذا رجال بيض الثياب،
بيض الوجوه، كأنهم يحملون السفينة على وجه الماء، وإذا بهاتف ينَادي: ألا إن الفداء مقْبول،

= جـ ٢) كشف وقال ابن الجوزي في هذه الرواية: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، فيه زياد وهو ابن أبي
حسان، قال العقيلي: لا يعرف هذا الحديث إلا بزياد، ولم يتابع عليه، وقال ابن حبان: لايجوز الاحتجاج به إذا
انفرد، وقال الدارقطني: هو متروك اهـ (ص ١٧١ جـ ٢) موضوعات.

ولهذا الحديث ألفاظ كثيرة كلها ضعيفة، والله أعلم.

(١) حديث « من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا الخ.. » جزء من حديث متفق عليه، أوله « المسلم
أخو المسلم، لايظلمه ولا يسلمه الخ.. » وآخره « ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة ». أما الرواية التي أولها
« يؤتى بأهل الحوائج » فلم أجدها، والله أعلم.

د مغاث، حتى بلغوا قرية من قرى الساحل، فأرخوا ذلك اليوم وتلك الساعة، فإذا هو اليوم ي تصدق فيه أبو زيد على وجه الفداء لابنه زيد. وأصل ذلك قوله ﷺ ((عليكم بصنائع روف، فإنها تقي مصارع السوء))[1] وقال ﷺ : ((باكروا بالصدقة، فإن البلاء عداها))[2] وقال ﷺ : ((داووا مرضاكم بالصدقة))[3] وقال ﷺ : ((إن الله آخذ بيد ريم، كلما عثر أقامه)) وإلى ذلك أشار بقوله في عجز بيته :

. . . . وَبَارِ الوَلَى نَفْلاً يحطْكَ وَلاَءُ

وقال ﷺ : ((احفظ الله في الرخاء يحفظك في الشدة ، احفظ الله تجده مك[4])) .

يروى أن العبد إذا كان يذكر الله في الرخاء ويعبده ، ويَتَضرعُ إليه ويناجيه ، أصابته فاقة أو بلية فدعا الله ، قَالت الملائكة : إلهنا صوت معروف ، فيقول : نعم أجيبوه ضوا حوائجه ، وإذا كان العبد غافلاً عن ربه ، فأصابته شدة أو بلية فدعا الله ، قالت ئكة : إلهنا ، صوت مجهول ، فيقول : ذروه ، فإنه نسينا في الرخاء ، فننساه في الشدة .

---

(١) « عليكم بصنائع المعروف الخ.. » حديث ضعيف أخرجه القضاعي بلفظ « صنائع المعروف تقي رع السوء، وصدقه السر تطفيء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر » قال صاحب الكشف: وفيه ة بن عبد الله وثقه دحيم، وضعفه الجمهور (ص ٢٩ جـ ٢) وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٦٦٥ « الصدقة تمنع ميتة السوء » وقال: ضعيف، ثم عاد وحكم عليه بالوضع لوجود القاسم بن أحمد الملطي، والله .

(٢) حديث « باكروا بالصدقة فإن البلاء لايتعداها » حديث ضعيف رواه أبو الشيخ وابن أبي الدنيا بلفظ ن البلاء لا يتخطاها » وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٨٧٦ وقال: قال ابن حجر: ليس الحديث بموضوع، ه ابن الجوزي في موضوعاته، والله أعلم.

(٣) حديث « داووا مرضاكم بالصدقة » ضعيف جداً، رواه البيهقي في الشعب، وأوله « حصنوا أموالكم ة » قال صاحب الكشف: فيه فضالة بن جبير صاحب مناكير، ورواه الديلمي بلفظ « داووا مرضاكم دقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة الخ.. » وقال البيهقي: إنه منكر بهذا الإسناد (ص ٧٤٣٣ جـ ١) كشف.

(٤) حديث «احفظ الله في الرخاء الخ ..» حسن رواه الطبراني والقضاعي ، وهو جزء من حديث طويل «كنت رديف النبي ﷺ ، فالتفت إلي فقال : ياغلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف لله في الرخاء يعرفك في الشدة » وفي بعض رواياته ضعف .

قال الناظم رحمه الله :

٣٣ ـ وَهَبْ ذا الْقَصَى سُكْنَى الْقَصَاءِ وَدَعْ نَهىً وَبِالْعَسْجَدِ اجْبُرْ مَاأَفَاتَ نَهـ

وهب : أمر من الهبة ، وهي تمليك من غير أخذ عوض من المملَّك . ذا القصى :
صاحب النسب البعيد ، وهو مصدر قصى الشيء : إذا بعد ، ولذلك سمي قصَيٌّ قصياً ، لا
تقصي عن قومه مع أخواله من قُضاعة .

قوله : سُكْنى القصاء ، أي أَذْنِ منك ذا النسب البعيد حتى تُسكنه قَصاء دارك بالمد
أي فناءها ، وإذا فعلت هذا بقصي النسب ، فمن باب أحرى قَريبه . وفي المثل «دانق تحب
وتقرب ، خير من قنطار نسب مع تجنب» .

وقوله : ودع نهى بالقصر ، أي اترك نَهى في طلب نيل المال الخسيس بل اجبر ماأفات
واجبر ماأفسدته بالخلق النفيس وهو الودع وماشاكله من المال الخسيس ، لأن النفيس لاين
ولايشترى بالخسيس بل اجبر ماأفاته نهاؤك ، وهو كناية عن سوء صنيعك ، عبر عنه بالن
الذي هو عدم إنضاج اللحم بأنفس أموالك ، وهو العسجد ، أي الذهب النفيس الأحمر ،
هو الخليق بأن يرفع من شرفك ماقدم ، ويبني من طائل عرشك ماهدم ، ويقدم[٢] للعدو
أعد ، فارفع همتك وارباً بها عن سفساف الأمور ، واجنح إلى معاليها ، فإذا وقعت إساءة من
إلى أحد ، فامحها بأحسن شيء عندك وأنفسه ، قال الرسول ((التحبب إلى الناس نص
العقل ، والاقتصاد نصف العيش ، والطهارة نصف الإيمان))[٣] فكأنه يقول: قرِّب بقصي
أخلاقك الواسعة الأطراف كل من تقصّى عنك إلى الفِناء والأكناف لتكون من ذوي الهيئا
الأشراف .

---

(١) هذه العبارة التي هي (بل اجبر ماأفاته) موجودة في النسخة (ب) دون (أ) .

(٢) في (ب) : ويقدر على العدو إذا أعد .

(٣) حديث «التحبب إلى الناس الخ ...» ضعيف رواه البيهقي والعسكري والديلمي والقضاعي بألف
مختلفة ، كما أورده صاحب الكشف تحت رقم ٤٧٦ بلفظ «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة ، والتودد إلى النا
نصف العقل ، وحسن السؤال نصف العلم » وقال فيه : ضعفه البيهقي . وقال ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٨٤
سألت أبي عن حديث رواه هشام بن عمار عن المخيس بن تميم فذكره وقال : قال أبي : هذا حديث باطل ومخي
وحفص مجهولان أ هـ .

وقال الذهبي في ترجمة مخيس هذا : روى عنه هشام بن عمار حديثاً منكراً ، وساق الحديث (٤/ ٥
ميزان .

قال الشاعر : (من بحر الوافر)

لعمرك ماالمصيبة هدم دار ولا شاة تموت ولابعير

ولكن المصيبة موت حر يموت بموته بشرٌ كثير

ودع دني الأخلاق كالودع ، فإنه لا يلم شعثاً ولا يبرم نكثاً ، بل ماأفاته عليك نهاء حلاق غيرك هي الغاية في الأخلاق الحميدة ، والشيم الكريمة التي كنت توصف بها وتنسب يك ، أو كان فلتة من فلتات الكرام فأصلحه بعسجد أخلاقك الكريمة .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

وداوِ بلينٍ ماجرحتَ بغِلظةٍ فَطِبُّ كلام المرءِ طيبُ كلامه

وكنا نَعاف اللحم لنتنه وخبثه ، فلا تألفه طباعنا ، ولا تشتهيه نفوسنا ، لأن النفوس جه وتعافه ولا تألفه ، كما أن الخلق السيء تنفر منه الطباع ، ويعجز عنْ ثقله الدفاع ، تستبشع مباشرته البقاع ، فإنه ليبغض إلي الأولاد ، كما أن الخلق الحسن يحبب إلي الأضداد .

ال الشاعر : (من بحر السريع)

الناس كالأرض ومنها هُمُ من لين المس ومن خشن

فجندل تدمى به إصبع وإثمد يجعل في الأعين

وفيه التلويح بقوله : (ودع نهى) إلى قوله تعالى : ﴿ **ولا تَيَمَّموا الخبيث منه تنفقون ، لستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه** ﴾ [البقرة : ٢٦٧] أي فلا تيمموا الخبيث من الأخلاق فقون أو تدفعون به ، فإنه لايرتضيه لكم ، كما لايرتضي الخبيث منكم في الإنفاق ، كذلك يرضى منكم سيء الأخلاق ، لأنه طيب ، ولا يحب إلا الطيب صفةً كالخيار[1] ، وحقيقة الحلال ، لأن الله لايمحو الخبيث بالخبيث ، وإنما يمحو الخبيث بالطيب .

أما مافيه من الاقتباس ، فإن البيت مقتَبس من قوله تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن إذا ألذي بينك وبينه عداوة** ﴾ .. إلى ﴿ **ذو حظ عظيم** ﴾ [فصلت:٣٥] وهذه الآية كريمة من أمهات الأخلاق الكريمة والشيم ، ومن جوامع الكلم والحكم ، إذ لو تتبعنا تفنن فانينها ، وإيضاح أعلامها وبراهينها ، لأتينا في ذلك بمجلدات ، وفي هذه الآية وأمثالها يقول

(١) في النسختين (الخيار) والمعنى غير واضح .

رسول الله ﷺ ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))[1] وناهيك من خصلة تَجعل العدو ولياً حمي
وتنيل من تخلق بها عند الله حظاً عظيماً ، وتكسب يوم القيامة أجراً جسيماً ، ويكون في العا
العلوي والسفلي محبباً كريماً ، ويكون للألد الخصم خصيماً .

يروى أن عيسى بن مريم عليه السلام مر على ملأ من كبار بني إسرائيل ، فجعلوا يسبو
ويقولون له : يافاعل ابن الفاعلة ، ياساحر يابن الساحرة وهو يثني عليهم ، فقال له الحواريو
في ذلك ، فقال لهم : كل ينفق مما عنده ، امتلأوا شراً فأنفقوا منه ، وامتلأت خيراً فأنفق
منه .

وفي مثل هذا يقول الشاعر : (من بحر الطويل)

وكل إنـــاء بـــالذي فيـــه راشـــح وأهـــل الخنـــا والشـــر رشح الشـــرار

ويروى أن النبي ﷺ لما فتح مكة اجتَمعتْ إليه قريش وهي تخاف أن يسترقها ، قال
لهم : يامعشر قريش ماتظنونني فاعلاً بكـم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن كريم ، قال له
((اذهبوا فأنتم الطلقاء)) . ولما فتح مكة أهدر دماء رجال منهم ابن الزبعرى السهمي ، وكا
لسان قُريش وشاعرها ، وكان يباري حسان بن ثابت[2] في هجو النبي ﷺ والمسلمين، فلم
فتح النبي ﷺ مكة فر إلى نجران ، فأرسل إليه حسان بيتاً واحداً ، وهو قوله : (من بحر
الكامل) .

لاتَعـــدمن رجـــلاً أحـــلك بغضـــه نجـــران في عيش أجبَّ[3] لئـــيم

فلما بلغه البيتُ دبتْ في مفارق رأسه نخوةُ قُريش ، فقال : والله لأذهبن إلى ابن عمي

---

(١) حديث «ادبني ربي فأحسن تأديبي» لاسند له ثابت عن النبي ﷺ ومعناه صحيح رواه العسكري بسند ضعيف جداً . وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٤ وقال فيه : قال ابن حجر : إنه غريب ولكن معناه صحيح إلى أن قال : وأخرجه . السرقسطي في الدلائل له بسند واه ، ثم قال : وبالجملة فالحديث كما قال ابن تيمية لايعرف له إسناد ثابت عن النبي ﷺ . وقال في اللآلىء . معناه صحيح لكن لم يأت عن النبي ﷺ من طريق صحيح . وقال ابن الجوزي : لايصح ففي إسناده ضعفاء . ويتضح من كل هذه النقول أن الحديث لايصح من حيث السند وهو صحيح قطعاً من حيث المعنى ، والله أعلم .

(٢) حسان : هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام وستأتي ترجمته في ص (٢١٥) .

(٣) أجب : مقطوع ، والمراد أنه ناقص حقير .

وإنْ] كان في ذلك حتفي أو حياتي ، فقدم على النبي ﷺ منصرفه من حرب هوازن وأتى
صيدته التي أولها قوله : (من بحر الكامل) .

منع الرقَاد بلابلٌ وهموم	والليل معتلج[1] الرواق بهيم
مما أتاني أن أحمد لا مني	فيه فبتُّ كأنني محموم
ياخير من حملت على أوصالها	عَيْرانَةُ سرح اليدين[2] غشوم
إني لمعتذر إليك من الذي	أسديت إذْ أنَا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى[3] خطة	سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقُودني	أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمدٍ	قلبي ومخطىء هذه محروم
مضتِ العداوة وانقضت أسبابها	ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدىً لك والديَّ كلاهما	زللي فإنَّك راحم مرحوم
وعليك من علم المليك علامة	نور أغر وخاتَم مختوم
أعطاك بعد محبةٍ برهانه	شرفاً وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدتُ بأن دينك صادق	حق وأنك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفىً	مستَقْبَلٌ في الصالحين كريم
فرعٌ علا بُنْيانُه من هاشم	فرع تمكن في الذُّرى وأُروم

فعفا عنه رسول الله ﷺ ، وأكرمه وأدناه، حتى كأنه لم يعمل ظلماً، ولم يباشر
رماً ، وآلى على نفسه أن لاينشد قصيدة في هضم الإسلام إلا أنشد مثلها في تعظيمه وذكر
اسنه .

ومن أحسن ماقيل في هذا النمط قول الشاعر في الجناس التَّام : (من المتقارب)

خذ العفو وأمر بعرف كما	أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولِنْ بالكلام لكل الأنَا	م فمستحسن لذوي الجاه لين

والبيت الأول من أتم أنواع الاقتباس .

---

(١) معتلج : متلاطم .

(٢) سرح اليدين : سريعة الخطو أو المشي .

(٣) في ب : أشقى .

قال الناظم رحمه الله :

٣٤ ـ وَكَمْ ذي سَخيً أغْرَى السَّخَاءُ بِبَذْلِه لأنْقَى بَرَتْ أنْقَاءَهُ بُرَحَـ

قوله : وكم ، أي كثير من جمل . ذي . أي صاحب . سخيً ، بالقصر : أي ظا
يصيبه من وثبة ، وهو مصدر من سخا يسخو سخيً وسخاءً . قوله : أغرى السخاء بالمد
أي هيج الجود ربه وأغراه إلى بذله ، أي إلى إعطائه لرجل أنقى بالقصر ، أي دقيق العصب م
صفة الأنقى المُعْطى أنه قد برت أنقاءه بالمد[1] جمع نقو بالكسر ، وهو كل عظم فيه مخ برحاء
والبرحاء : الشدة ، أي أنحلت البرحاء عظامه ، ذاتَ النقى ، أي المخ ، فالسخاء الممدو
مرفوع على أنه فاعل أغرى ، ولام لأنقى متعلقة ببذله ، والمقْصود التزهيد فيما تتنافس في
النفوس من متاع الدنيا النفيس ، فإنه معَّرض للآفات التي تقتضي الرغبة وبذله .

وقوله : برتْ من البري ، وهو إزالة اللحم عن العظم ، كما يبرى القلم بالسكين .

قال الشاعر : (من بحر البسيط)

والشوق والوصل يبريني[2] ويبريني

ومن أحسن ماقيل في التزهيد في الدنيا من أجل مايعرض لها من الآفات ، قول صاحب
الرياض :

إخواني ألبسوا الدنيا جبة الهجر واسمعوا فيها من مواعظ الزجر
واحسبوها يوماً صُمتمُوه للأجر وصابروا لياليها فما أسرع إتيان الفجر

ولاتبيعوا الظن باليقين فحرام بيع الحق[3] الذي هو من علامات السفه .

ثم أنشد فقال : (من بحر البسيط)

يـاأيُهـذا الذي قـد غـره الأمـلُ ودون مـايـأمـل التنغيص والأجـلُ
ألا تَـرى أنمـا الدنيـا وزينـتهـا كمـنزل الركب حـلوا ثمتَ ارتحلوا
حتـوفهـا رصـد وعيشـهـا نكـد وصـفـوهـا كدر ومـلكـهـا دول

(١) العبارة مشوشة وهي موجودة هكذا في النسختين .

(٢) كذا في الأصلين ولعل المراد بيبريني الأولى من البري الذي هو الانتحال ، والثانية من البرء الذي هو الشفاء فتكون الأولى راجعة للشوق والثانية راجعة للوصل .

(٣) كذا في النسختين والكلام مبتور ولعل تمامه فحرام بيع الحق الذي هو اليقين بالباطل الذي هو الظن لأن ذلك من علامات السفه ، والله أعلم .

تظَـل تُفـرِغُ بـالرَّوعـات طـالبهـا فمـا يســوغ له لبس ولا جـذل
كأنـه للمـنَـايـا والردى غـرض بـه تظـل بنـاتُ الدهر تَنْتضـل[٢]
والنـفس هـاربـةٌ والمـوتُ يتْبعـهـا وكل عشـرة رجـل عِنـدهـا جـلل
والمـرء يسـعى بمـا يسـعى لوارثـه والقـبر وارث مـا يسـعى له الرجـل

وفي مثل هذا يقول : (من بحر الطويل)

إذا امتحـن الدنيـا لبيب تكشـفت له عن عـدوٍّ في ثيـاب صـديق
ومـايعـدم الدنيـا الدنيـة أهـلهـا شـواظ لهيب أو دخـان حـريق
فـلا تحسب الدنيـا إذا مـاسكنتهـا قـراراً فمـا دنيـاك غـير طـريق
عـليـك بـدار لاتـزول ظـلالهـا ولا يتـأذى أهـلهـا بمضيـق
وقُـل لغـريب الدار إنك راحـل إلى مـنزل نَـاء المحـل سحيـق

وقال غيره : (من بحر الطويل)

تَـزود قَـرينـاً من فعـالك إنمـا قرينُ الفَتـى في القـبر مـاكان يفعـل
ولن يصحب الإنسـانَ من بعد موته إلى قَـبره غـير الذي كان يعـمـل
ألا إنمـا الإنسـان ضـيف لأهـله يقـيم قـليـلاً عنـدهـم ثم يرحـل

وقال غيره : (من بحر الرمل)

إن لله عبـاداً فُطـنـا طـلقـوا الدنيـا وخـافوا الفتنـا
فكَّـروا فيهـا فـلمـا أيقـنـوا أنهـا ليستْ لحَيٍّ وطنـا
جعـلوهـا لجـةً واتخذوا صـالح الأعمـال فيهـا سفُنَـا
نـزلوا فيهـا رجـال قَبـلنـا رحـلوا عنهـا وخـلوهـا لنـا

وقال مطر القَاري : غلبني النوم ليلةً فنمت عن حزبي ، فرأيت فيما يرى النائم جاريةً كأنها القمر المستتم ومعها رَقٌ ، فقالت : أتقرأ أيها الشيخ ؟ قلت : نعم ، قالت : اقرأ هذا الكتاب ، ففحتُه ، فإذا فيه مكتوب (من بحر الوافر)

أألهتـك اللذائـذ والأمـاني عن الفـردوس والظـلل الدواني
ولذة نـومـة عن خـير عيش مع الخـيرات في غـرف الجنـان
تَعـيش مخلداً لا مـوت فيهـا وتبـقـى في الجنـان مع الحسـان
تيـقـظ من منـامك إن خـيراً من النـوم التهجـد بـالقـرآن

(٢) انتضل السهم : أخرجه ، والمراد تعبث به .

وقال مالك بن دينار: كان لي جار بطّال ، فبينما هو ذات ليلة في بطالته ولهوه ، إذ سمع هاتفاً يُنْشد : (من بحر البسيط)

يــــاأهـــلَ لذة دار لادوام لهـــا ... إن المـنـــايـا تبيــد اللهــو واللعبــا
كم قَـد رأينـــاه مســروراً بـلـذتـه ... أمســى فـريـداً من الأهـلين مغـتربـا

قال : فتاب وحسن رجوعه إلى الله والحمد لله .

وقال مالك بن دينار[1] : ترك الرجل درهماً من حرام إذا تركه من خشية الله خير له من أن يتصدق بمائة ألف دينار ، ونحو هذا عن سحنون . قال عياض في «المدارك» قال يحي بن عمر : كان سحنون يقُول : ترك الحرام أفضل من جميع عبادة الله تعالى ، وترك الحلال لله أفضل من سبعين ألف حجة تتبعها سبعون ألف عمرة مبرورة متقبلة ، وأفضل من سبعين ألف فَرس في سبيل الله بزادها وسلاحها ومن سبعين ألف بدنة يهديها إلى بيت الله العتيق ، وأفضل من عتْق سبعين رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل ، فبلغ كلامه هذا عبد الجبار بن خالد ، فقال نعم ، وأفضل من ملء الأرض إلى عنَان السماء ذهباً وفضة كسبت من حلال ، وأنفقت في سبيل الله لايراد بها إلا وجه الله تعالى . انتهى من «المدارك من ترجمة سحنون» .

وقال القشيري في «التحبير» قَال : يؤخذ بالدانق من الفضة سبعمائة صلاة مقْبولة فتعطى للخصم يوم القيامة . قَال أبو محمد بن عتَّاب في «شفائه» قال مالك بن دينار : لو أن رجلاً نادى بباب المسجد : أخْرجوا شركم رجلاً ماسبقني أحد إلى الباب قال : فبلغ قوله عبد الله بن المبارك ، فقال : بهذا صار مالك بن دينار مالكاً .

وعن خلف بن تَميم قال : التقى إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي بمكة ، فقال إبراهيم لشقيق : ماكان بدء أمرك الذي بلغك هذا ؟ فقال : سرتُ يوماً في بعض الفلوات ، فرأيت طائراً مكسور الجناحين ، فقلت : من أين يأتي رزق هذا ؟ فقعدتُ بحذائه ، فإذا أنا بطائر قد أقبل وفي منقاره جثة جرادة ، فوضعها في منقار الطائر المكسور الجناحين ، فقلت لنفسي : يانفس الذي قيض الطير الصحيح للطير المكسور في هذه الفلاة ، قادر على أن يرزقني حيث كنت ، فتركت التكسب ، واشتغلت بالعبادة . وذكر ابن عتَّاب في ترجمة شقيق البلخي أنه أوصى حاتماً الأصم أن لايجلس في الأسواق ، فإن الجلوس فيها يبعد من رحمة الله ، وهذا يوافق

---

(١) تقدم في ص (١٠٥)

ماذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» له ولفظه : ولما كثر الباطل بالأسواق ، وظهرت فيها المناكر ، كره علماؤنا دخولها لأرباب الفضل والمقتدي بهم في الدين تنزيهاً لهم عن البقاع التي يعصي الله فيها ، وإذا كره لهم دخولها ، فالجلوس بها أشد ، إذ لايخلو الجالس بها من مشاهدة منكر .

وقال سهل[٢] بن عبد الله : من خاف الله أمنه ، ومن رجا منه أمراً بلغه ، ومن تقرب إليه قَبله ، ومن توكل عليه لم يكله إلى نفسه .

وقال : أعمال الخير يعملها البر والفاجر ، والمعاصي لايتجنبها إلا الصِّدِّيقون ، وقال : ومن أخلاق الصديقين وسيرهم أن لايحلفوا بالله لاصادقين ولاكاذبين ، وأن لايغتابوا أحداً من خلق الله ، وأن لايشبعوا بطونهم ، وإذا وعدوا لم يخلفوا .

وقال : مامن يوم إلا والله عز وجل يقول : يابن آدم ماتنصفني ، أذكرك وتَنْساني ، وأدعوك إليَّ وتذهب إلى غيري ، وأدفع عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا ، فماذا تقول إذا أتيتني غداً ؟

وقال : علامة حب الله عز وجل حب القرآن ، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ ، وعلامة حب النبي ﷺ ، اتباع سنته .

ومن أولى ماينبغي اجتنابه من زخارف الدنيا وشهواتنا العاجلة : النساء ، لأنهنَّ حبائل الشيطان . قال الشميط بن عجلان : ماخلا رجل بامرأة ليست منه بمحرم إلا بسط الشيطان حبائله بينهما ، ودعا كل عضو منها إلى كل عضو منه ، وكانا في سخط الله حتَّى يفترقا ، وما من نظرة تنظر إليه أو ينظر إليها إلا هويا بها في النار مائة عام .

وقال رضي الله عنه : من رضي بالفسق فهو من أهله ، ومن رضي أن يعصي الله لم يرفع الله له عملاً .

وقال : إن الله تعالى جعل قوة المؤمن في قلبه ، ولم يجعلها في أعضائه ، ألا ترى أن الشيخ يكون ضعيفاً يصوم الهواجر ، ويقوم الدياجر[١] ، والشاب يعجز عن ذلك .

---

(١) سهل بن عبد الله بن يونس التستري أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال ، له كتاب في التفسير وغير ذلك توفي عام (٢٨٣) هجرية .

(٣) الدياجر : الظلم .

قال عبد الله بن شميط : سمعت أبي يقول : إن المؤمن أبصر الدنيا فأنزلها حيث أنزلها الله ، فإن هي أقبلت عليه قال : لامرحباً بك ولاأهلاً ، والله ماأظنك جئت بخير ، ومافيك من خير ، إلا أن أفتدي بك من النار ، وأطلب بك الجنة ، فإن أدبرت عنه قال : عليك العفى ، وعلى من يتبعك نفسه السفى ، الحمد لله الذي صرف عني بليتك وشرك .

وقال محمد بن واسع : بينما أنا قائم أصلي وأنا يومئذ غلام ، إذا أنا برجل على فرس فقال : ياغلام ، عليك بالبر والتقوى ، فإن البر والتقوى يهديان إلى الإيمان ، وإياك والكذب والفجور ، فإن الفجور والكذب يهديان إلى النار ، ثم قال : يابن أخي اصحب أولياء الله ، فقلت : بأي شيء أعرف أولياء الله ؟ فقال : إن أولياء الله ، العقلاء الحذرون المسارعون في رضوان الله ، الراغبون له ، فإذا رأيت أهل هذه الصفة فاقترب منهم ، فإنهم أولياء الله ، فقلت له : كيف أعرف أهل النفاق والكذب والفجور ؟ فقال : أولئك قوم إذا رأيتهم يأباهم قلبك ، ولايقبلهم عقلك ، وإذا سمعت كلامهم سمعتَ كلاماً لامنفعة له ، وإياك أن تصحب أهل الخلاف ، قلت : ومن أهل الخلاف ؟ قال : المفرقون بين الكتاب والسنة ، أولئك عبيد أهوائهم ، تراهم مصطحبين وقلوبهم يلعن بعضهم بعضاً ، فاحذر هؤلاء ، وعليك بالصلاة والتقرب إلى الله عز وجل بالنوافل ، فإنك إذا كنت كذلك كنت شاكراً عالما .

قال : ثم التفتُّ فلم أر أحداً .

ومن وصايا وهب بن منبه : أكثر من ذكر الموت ، وقصر أملك ، وخطةٌ ثالثة إذا كنت أصبتها ظفرت بالغاية القصوى وألقيت بها عنك حملاً ثقيلاً وحملت أمرك على من هو أقوى عليه منك ، قال : ماهي ؟ قال : التوكل على الله سبحانه وتعالى .

قال أحمد بن حرب : بلغنا أن النبي ﷺ قال : ((من أطاع الله فقد ذكره وإن قل صيامه وصلاته وتلاوته القرآن[1])) .

---

(١) حديث : «من أطاع الله .. الخ» رواه الطبراني ، وأورده السيوطي تحت رقم ٨٤٦٣ وفيه زيادة : «ومن عصى الله لم يذكره وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن» ، قال المناوي : قال الهيثمي : وفيه الهيثم بن جماز وهو متروك (٦/٧٠) .

والغريب أن السيوطي رمز له بالحسن ، إلا أن المناوي تعقبه .

وبلغنا عن ابي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((يأبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس[1])) .

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((فضل العلم خير من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع[2])) .

وعن وهب المكي أنه قال : إذا كانت العبادة الصلاة والصيام فما أيسرها وإنما العبادة الورع .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : ((لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ماتقبل منكم إلا بورع صادق)) .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «جلساء الله غداً أهل الورع والزهد في الدنيا»[1] .

وبلغنا عن كهمس أنه قال : قال الله سبحانه لموسى عليه السلام : إنه لم يتزين إلي المتزينون بشيء خير من الزهد في الدنيا ، ولم يتقرب إلي المتقربون بشيء خير من الورع عما حرمت . قال : يارب ، فبم أثبتهم ؟ قال : أما الزاهدون في الدنيا فإني أثبتهم بالجنة يتبوأون منها حيث شاءوا . وأما الورعون فإنه لم يخطر خاطر الحساب يوم القيامة إلا ناقشته ونصبته للحساب إلا أهل الورع فإني اجلهم وأستحيي منهم أن أسألهم عن شيء ، وأما أهل الدموع فإنهم سكان الرفيق الأعلى جعلنا الله من جملتهم وأن يحشرنا في زمرتهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، آمين .

قال الناظم رحمه الله :

٣٥ ـ وَعَجْلَى لَدَى الْعَجْلاء حَنَّتْ لِبَارِقٍ بِغَمِيٍّ وَلِلْغَمَّاءِ مِنْهُ ضِيَاءُ[2]

---

(١) حديث : «كن ورعاً تكن أعبد الناس الخ» هذا أول حديث رواه البيهقي والقضاعي ، وهو ضعيف جداً .
وأورده السيوطي في جامعه تحت رقم (٦٤٢٢) ورمز له بالضعف، قال شارحه المناوي : قال العلائي وأبو رجاء : متكلم فيه ، وأقول أيضاً : فيه ، يزيد بن سنان أورده الذهبي في الضعفاء ، قال : يرى القدر وبه يعرف ٥/٥٢ فيض .

(٢) (فضل العلم : زيادته) وحديث «فضل العلم الخ» أوردها ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٧/١) .

(٣) حديث «جلساء الله غدا أهل الورع الخ» ضعيف رواه الديلمي وابن لال وأورده السيوطي تحت رقم (٣٥٩٧) ورمز له بالضعف، وقال شارحه المناوي: إسناده ضعيف (٣٥٠/٣)

(٤) في النسخة (أ) (بغمى ولاغماء ثم تناء) وعلى هذه الرواية شرح الشيخ رحمه الله .

أي ورب امرأة عجلى بالقصر : أنثى العجلان ، يقال : رجل عجلان وامرأة عجلى كثكلى وثكلان . لدى : أي عند المكان المسمى بالعجلاء ، بالمد . حنت : اي اشتاقت إلى إلفها لأجل رؤية بارق لمع من جهته بليلة غمى ، بالقصر : أي غم فيها الهلال ، وهو فعل من الأفعال التي لاتأتي إلا مبنية للمجهول وهي : غم وحم وسقط وجن وكف وطل ، في حال كونها على فرس غماء ، بالمد ، أي مستورة : الجبهة بشعر الناصية ، ولايختص ذلك بالخيل ، فهي لأجل ذلك غماء . ثم تناء أي : تنهض ، مضارع أناءها أي : أنهضها ، مبني لما لم يسم فاعله . والمقصود أن صفاء هذه الدار مشوب بالأكدار ، وحلوها متعقب بالمرارة ، وقد تعذرت فيها الأوطار ، فيحمل الأحرار على استعمال الأسفار ، واقتحام الأخطار ، واعتساف الأقفار ، والإدلاج ، في ظلمات الليل على متون العتاق من الخيل ، حتى يتسبب عن ذلك الحنين لرؤية البارق ، وطلوع الشارق ، بقلب خافق ، لأجل أسىً غير موافق ؛ ولذلك قال ﷺ : «لأن أموت بين شعبتي رحلي في طلب الحلال أحب إلي من أن أموت غازياً في سبيل الله » .

ويروى أن رجلاً من الأنصار كان كثير الإقبال والإدبار في طلب الحلال ، وكان قوياً شديداً ، وكان كلما قدم من سفر أول مايبدأ به أن يدخل على رسول الله ﷺ ويستصحب معه مقدوره من الهدية ، فدخل عليه ذات يوم وعنده أبو بكر وعمر فقالا : ليت قوته يارسول الله كانت في سبيل الله ، فقال ﷺ : أتريدان بسبيل الله الجهاد ؟ قالا : نعم ، قال : ماالجهاد بأفضل مما هو فيه إن صحت نيته » .

وقال ﷺ : ((إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا صيام ولا حج ولا جهاد إنما يكفرها الكدُّ في طلب الحلال))[1] .

وقال ﷺ : ((من ضاعت دنياه فآخرته أضيع)) .

وقال ﷺ : ((اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً))[2] فهذا من الأحاديث التي جمعت من العلوم مالا يدخل تحت حصر .

(١) «إن من الذنوب ذنوباً الخ» ضعيف رواه الطبراني وأبو نعيم والخطيب ، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٧٨٣ وأورده صاحب الإحياء ٢/٢٣ مختصراً ، قال العراقي : وسنده ضعيف .

(٢) حديث «اعمل لدنياك الخ» لاأصل له مرفوعاً ، رواه ابن قتيبة في غريب الحديث له موقوفاً ، وابن المبارك في الزهد ، والبيهقي مرفوعا بسند ضعيف ، وعنهم الألباني في موضوعاته تحت رقم ٨ وقال : لاأصل له مرفوعاً ، والله أعلم .

قال الشاعر : (من بحر البسيط)

فـإنمـا رجـلُ الدنيــا وواحـدُهـا مَنْ لايعـوِّل في الدنيـا علـى رجـلِ

وقال غيره : (من بحر الكامل)

احتـلْ لنـفسـك أيهـا المحتـالُ ومِنَ المـروءة أن يُـرى لك مـالُ

وقال الله تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً** ﴾ [النساء : ٥] لأديانكم ومروءاتكم .

وقال ﷺ : ((ناقش عند درهمك فإن المغبون لامأجور ولامشكور)) .

قال الناظم رحمه الله :

٣٦ ـ وأظْمَى لَدَى الأَظْماءِ يَنْفعُ مَورِداً وإنْ بَعُـدَتْ عَنْـهُ رَحىً وَرَحَـاءُ

أي : رب رمح أظمى أي : سريع الورود عند الهيجاء لتعطش صاحبه إلى ملاقاته الأقران ، فيورده من نجيع أجوافهم حتى يرويه ، فلما كثر وقوع ذلك منهما صار بذلك الرمح وكأنه اكتسب الظمأ من سريان حال حامله إليه إذ لم يكن جباناً ولامعرداً[١] .

قال حسان[٢] رضي الله عنه في قصيدته المشهورة : (من بحر الوافر)

عـدمنَـا خيـلَنـا إن لم تـروهـا تُثـير النـقـع مـوعـدهـا كداءُ

ينَـازعن الأعنـة مصـعـداتٍ على أكتـافهـا الأُسـلُ الظمـاءُ

وأظمى : نعت لمحذوف . ولدى : بمعنى عند . الأظماء : جمع ظِمءٍ ، بالكسر ، وهو مابين الشربتين ، فينفعه رمحه إذ قد تعود ذلك وإن بعدت عن ذلك المورد رحى ، بالقصر : أي أعوانه في الحرب المتكاثرون الذين يدورون في الحروب كدوران الرحى تطحن فلا تجاوز مركزها وإن دارت ولاتسعى في غير توهين ماصادمته حتى تأتي على آخره . والرحاء ، بالمد : لغة شاذة في رحى : الطاحون ، وإنما أتى بها مراعاة للازدواج .

---

(١) معرداً : هارباً .

(٢) حسان : هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري الخزرجي ثم النجاري شاعر رسول الله ﷺ ، قال أبو عبيدة : فضل حسان على الشعراء بثلاثة : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي ﷺ في أيام النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام ، كان ﷺ يقول له : «أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس» . وقال له : «هاجهم وجبريل معك» . مات رضي الله عنه بعد سنة أربعين وعمره مائة وعشرون سنة . ويعد حسان من المخضرمين ، عاش في الإسلام ستين سنة وفي الجاهلية ستين سنة ، والله أعلم .

وفي البيت من البديع الكناية مع كونه مفرغاً في قالب التمثيل ، فكنى عن الحزم بالرمح ، وعن العزم بالإيراد ، وعن الشدائد بالأظماء ، فالنحرير السميدع المقدام الذي قد أعد للأمور أقرانها إذا ناب خطب مذهل أضمر في نفسه أن ليس لرده غيره ؛ فيمتطي جواد عزمه ، ويعتقل رمح حزمه ، وقد لبس درع صبره ، وأفرغ على رأسه قوس خيره ، وتقلد سيف اعتما ، وأخذ جُنَّةَ اعتقاده ، فناهده ثم جاهده ، فلا يفتح الخطب باب ريح حرب إلا فتح عليه إعصارها ، حتى يحقق خيبتها وخسارها ، فيصير ليلها نهاراً وصرحها غباراً ، فلا يبالي إن بعدت عنه رحى قومه لكفايته بعزمه وحزمه وجلده ، فهو واحد نسجه وفريد عصره ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : عمر نسيج وحده . وقال ابن دريد : (من بحر الرجز)

والنـــاس ألفٌ منهـــم كواحـــدٍ　　　وواحـــدٌ كالألف إن أمـــرٌ عـــنَى

وقال ﷺ : ((الناس اليوم كمائة من الإبل لاتكاد تجد فيها راحلة)) ، وفي المثل : ((رب رجل كألف وألف كأف)) .

وفي مثل هذا يقول الشاعر : (من بحر الطويل)

ولا يكشف الغمـــاء إلا ابن حـــرةٍ　　　يـــرى غمـــرات المـــوت ثم يـــزورهـــا

يروى أن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموي وكان سيداً لبيباً مقداماً سرياً[1] متنسكاً مجاهداً ، وكان قد أعطي التأييد على كافة المشركين وخصوصاً الروم ، وكانوا لايملأون صدره ولايهولونه ، وكان إذا رأى منهم جمعاً تقدم في نحورهم وهو يقول لأصحابه : « غمرات ثم تنجلي » وكانوا إذا رأوه أيقنوا بالغلبة ، وكان كثيراً مايغزو في البحر ، ولقد انتهى في غزوه إلى قرى وجزائر في البحر لم يبلغها غازٍ قبله ، وكان يذهب بنفسه طليعة ليتجسس أخبار العدو ويطلع على عوراتهم ، فلما اراد الله كرامته بالشهادة ذهب طليعةً في زورق صغير مظهراً أنه تاجر ، فلقيته عجوز من عجائز الروم فقالت له : أسألك بدينك ودين نبيك إلا مانفعتني ، فحثاً لها في ثوبها من التبر حثياتٍ ولم ينظر إلى ماأعطى ولا إلى مابقي ، فرجعت إلى الروم فقالت : هل لكم في سعيد بن عمرو بن سعيد ؟ فقالوا لها : أنى لك سعيد وقد أباد الروم ودوخ صناديدها ؟ فقالت : والله إنه لهو ، فقالوا : تقدمت لك به معرفة ؟ قالت : لا ولكني رأيت رجلاً يحثو حثوَ الملوك ولايقبض قَبض التُجار ، ورأيت وجهاً منيراً كأنه البدر السافر ،

---

(١) السري : السيد : والسري : النهر الصغير .

الله ماهو بوجه تاجر ، فثارت عليه أعلاج الروم من كل جانب فقتلوه ، فقدم الجيش أميراً ، فلما التحم الحرب جعل الأمير يدمر القوم ويقول : تقدموا لعنكم الله ، فقالت له بنت سعيد : ماهكذا كان أبي يقول ، فقال : ماكان يقول ؟ قالت : كان يدفع في نحور القوم ويقول : غمرات ثم تنجلي . فانهزم جيش المسلمين .

وفي سعيد هذا يقول الشاعر : (من بحر الوافر)

ترى الغر الجحاجحَ من قريش إذا ماالأمر في الحدثان غالا[1]

قياماً ينظرون إلى سعيد كأنَّهُمُ يرون به هلالا

ويروى أن أبا ليلى العبسي انفرد عن حيه يوماً في ظعنه وإبله ، فبينما هو يسير إذ غشيته خيل العدو وكان قد اعتقل رمحه فنسيه من شدة الدهش ، فقال له بعض القوم : ياأبا ليلى إن أتيت إلينا برمحك تركنا لك ظعنك ، فقال : لاأبا لك أو معي رمحي ؟ فنظر فإذا معه رمحه ، فأخذه وكر عليهم ، فطعن رجلاً فدق صلبه ، ثم طعن رجلاً آخر فدق صلبه ، ثم طعن رجلاً ثالثاً فدق صلبه ، ثم جعل يستنقذ منهم الإبل وهو يقول : (من بحر الرجز)

ردوا على دانيها الأقاصيا إني لها بالمشرفيِّ حاميا

ذكرتني الطعن وكنت ناسياً أنا أبو ليلى ونعم الداعيا

وممن كان يستغني بنفسه عن الجيوش مروان القرظ ابن ظالم العبسي ، وذلك أنه لما قتل عمروٌ ملاعبُ الأسنه ابن جعفر بن كلاب العامري ابن عَمه علم أنه لاينجو منه ففر إلى النعمان ، فلما أتاه قال له : يانعمان أجرني فإني عملت دماً ثقيلاً ، قال : لاتخف فإنك قد أوت ووقعت في جوار لايضام وكنف لايرام . فلما سمع مروان موت ابن عمه قال لبني عبس : يابني عبس ، اشتغلوا بحربكم فإني ذاهب إلى عمرو ملاعب الأسنة لأقتله . فقالوا له : ومن لك بقتله وقد دخل في جوار النعمان ؟ فقال : والله لأقتلنه ولو كان في حجره .

ثم أخذ أهبته وسافر إلى العراق ، فلما وصل العراق دخل على الملك وكان ملاعب الأسنة لايأكل إلا معه فوجد الملك يؤاكل عمراً وأخاه تمراً ، فحيّا الملك وأقبل عليه ودعاه إلى المؤاكلة ، فأخذ بيده تمراً ، فقال له العامري : يامروان ، قتلت ابن عمك وأفرغت لك رئاسة بني عبس ، فجعل يرتعد والتمر يتساقط من يده وهو يقول : أأنت قتلته ؟ واحمرت عيناه

(١) البيتان قالهما الفرزدق في سعيد بن العاص بن أمية لا في سعيد بن عمرو كما قال الشيخ ، انظر سير أعلام النبلاء (٤٤٤/٣) .

وانزمع[1] فأشار النعمان إلى عمرو بالانصراف ، فخرج هو وأخوه ، فقال الملك ، يامروان ، هل لك في المال ؟ فقال : أبيتَ اللعن أيها الملك ! إن دماء بني رواحة أشرف من أن تباع بالأموال ، فقال : ذلك خير لك من الفوات فإنه دخل جواري ، فقال مروان : كفاني شرفاً أن لايجير عليَّ غيرك، ولئن أجرته عليّ فلن تجير أكفاءه من أبناء عمه .

فلما خرج مروان من عند الملك دخل عليه عمرو فقال له : أيها الملك إني خفت على نفسي من هذا الفاتك وإنه لم يأت إلا لشر ، فقال : أتخافه وأنت تحت جواري وفي مستقر ملكي ؟! فقال: أبيت اللعن إن بني رواحة نكد أباة ، وكان النعمان قد بنى لعمرو وأخيه قبةً خارج القصر ، فقال له : أعطيك سلسلة فطوق بها قبتك ، فأخذ السلسلة وطوق بها قبته ونام بها هو وأخوه . فلما ذهب وهن من الليل ذهب مروان إلى القبة فإذا هو بها مطوقة بالسلسلة ، فضربها بسيفه فقطعها وشق القبة ودخل عليهما فأيقظ عمراً وقال له : تأهب ياقاتل فلان ، فلبس أهبته فقتله وأخذ درعه وسلاحه وانصرف ، وترك أخاه ، فأقبل أخوه يقول : واسوء جواراه ، قال له : وما ذاك ؟ قال : إن مروان قتل أخي عمراً ، قال له، كيف وجد السبيل إليه ؟ قال : لو وجد دونه جبلاً لهدّه حتى يخلص إليه ! فقال له : مايرضيك ؟ أنبعث معك الدوسر حتى تقتله وتبيد قومه ؟ فقال : أجل أيها الملك يرضيني كل الرضى ، فلحقوه ، فجعل يطاردهم حتى قتل منهم رجالاً واستنقذ منهم خيولاً ، ثم رجعوا بخيبة ، وسار إلى أهله وقد أدرك وتره وشفى غيظه وأخفر الملك في مستقر سلطانه مع ماأتى به من الغنيمة والذكر والشرف ورفع الصيت ، وحكايات مثل هذا عن صناديد العرب تخرج عن قصد الاختصار .

ومنهم البراض الكناني وفيه يقول الشاعر : (من بحر الخفيف)

والفتى من تُعَرِّفُهُ الليالي	والقيان كالحية النضناضِ
وله بالزمان في كل يوم	فتكةٌ مثلُ فتكة البرّاضِ

ومنهم ربيعة بن مكدم الكناني ، وهو المعروف بحامي الظعن ، وكان فتىً كما[2]، فبينما هو يسير مع ظعن فيه أمه إذ غشيتهم خيل كثيفة من سليم ، فجعل يطاردهم عن الظعن ويطردهم حتى كفهم وهابوه بعد ماقتل منهم رجالاً ، فأصابه سهم غرب[3] فأتى أمه فقال: اسقني ماء

---

(١) انزمع : اصابته رعدة ، واصل الزمع رعدة تصيب الإنسان إذا هم بأمر عظيم .

(٢) بياض في النسختين .　　(٣) غرب : طائش .

صبي لي هذا الجرح فإني هالك لكن سأحميكن ميتاً كما حميتكن حيّاً ، فقالت له : لن
نك الماء ، فاذهب فكف القوم ، فإنك إذا شربت استرخيت ، ثم قال (رجز)

ضـمـي عـليَّ العصبَ أمَّ سَيّـارْ فقـد رُزِئتِ في فـتىً كالدينـارِ

فجعلت تعصب جرحه وتقول : (رجز)

إنّـا بـني ربيـعـةَ بن مـالك مـرزأ خيـارنَـا كذلك

مـايـين مقتـول وبـين هـالك .... (1)

ثم كر راجعاً إلى القوم ، ووقف في نحورهم على الثنية ، واعتمد على رمحه وقد فاضت
ه، فوقف كذلك ساعة زمنية وهم يحجمون أن يقتحموا الثنية وهو واقف بها ، فلما طال
م الوقوف قال بعضهم لبعض : مابال الفتى لايحمل علينا ولايتبع الظعن ؟! فلعله نزفه الدم
تمد على رمحه أو هو ينتظر أصحاباً له ، فهلم فلنزم الفرس بسهم ، فإن قمص الفرس فألقاه
ميت ، أو قد نزفه الدم ، وإلا فهو ينتظر أصحابه ، فالنجاء فإنه قد غلبكم وحده فكيف
كان له أصحاب من قومه ؟! فرموا الفرس بسهم فقمص فألقاه ، فطلبوا الظعن ففاتهم ،
مع ابن عمه بخبره ، فأتاه فواراه ، ونصب عليه حجارة ليعرف مكانه ، فلما ركب قلوصه
ب نفرت من الحجارة المنصوبة عليه ، فجعل يقول : (من بحر الكامل)

لايبـعـدنَّ ربيـعـةُ بن مُكَـدَّمِ وسـقـى الغـوادي قَـبره بذَنُوبِ

نفـرتْ قـلوصي من حجـارة حَرَّةٍ نصبت عـلى طَـلْقِ اليـدينِ وَهوبِ

لاتنـفـري يـا نـاقُ منـه فإنـه شـريبُ خمـر مسـعـرٌ لحروبِ

لولا السـفَـارُ و بعـدُ قفْـرٍ مَهْمَـهٍ لتركتُـهـا تحبـو عـلى العرقُـوبِ

ولم يبلغنا أن أحداً في جاهلية ولا إسلام حمى ميتاً غيره ، حمانا الله مصارع السوء بمنه
مه ، آمين .

قال الناظم رحمه الله :

ـ وأهْلُ الْغبَى مِثْلُ الْغَبَـاءِ فَدَعْهُـمُ وَحِـدْ عَنْ ذَمىً تُنْـعَشْ وَيَحْيَـى ذمَـاءُ

قوله : وأهل الغبي ، بالقصر والفتح : أي أرباب الجهل الذين صاروا أهلاً له واتخذهم
ل أهلا بأن استوطنهم . والجهل جهلان : منه ما هو ضد العلم وهو عبارةٌ عن ترك

(١) هكذا في النسختين .

ماينبغي لمثله علمه كعلم الكتاب والسنة والفرائض ، قال الرسول ﷺ : ((العلم آية محكمة وسنة قائمة ، وفريضة صادقة ، وماسوى ذلك فضل[1])) .

وقال ﷺ : ((عليكم بعلم الفرائض فإنه أول علم يرفع حتى يظل الرجل يطوف فلايجد من يقسم له فريضة[2])) .

وقال ﷺ : ((قَيدوا العلم بالكتاب))[3] .

وقال ﷺ : ((كل علم ليس في كتاب الله دليله فهو جهل)) .

قوله : مثل العَبَاء ، بالمد والفتح : الغبار لكونهم يضرون ولاينفعون ، وفي المثل ((إياك وصحبة الجاهل فإنه يريد أن ينفعك فيضرك)) . ومن الجهل ماهو ضد الحلم ، قال الشافعي رضي الله عنه : العلم في الرجل الحليم كرامة ، ومصيبة في الأحمق الطياش ، كل ذي علم غرثان[4] إلى حلم . والفرق بين الحلم والصبر هو أن الحلم تحمل الأذى من الخلق والصبر حبس النفس على امتثال مايرد عليها من جانب الحق كالسكون تحت عساكر البلاء بالرضى والتسليم وعدم الشكوى والضجر ، وتحت عساكر العطايا بالشكر ، وتحت بوارق

---

(١) حديث «العلم آية محكمة الخ» ضعيف رواه أبو داود وابن ماجه في السنة والحاكم في الرقاق ، وأورده السيوطي تحت رقم ٥٧٠٩ بلفظ : (العلم ثلاثة وماسوى ذلك فضل : آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة) . ورمز له بالصحة ، قال شارحه المناوي : قال الذهبي في (المهذب) وتبعه الزركشي : فيه عبد الرحمن بن أنعم ضعيف ، وقال في (المنار) : فيه أيضاً عبد الرحمن بن رافع التنوخي لم تثبت عدالته بل أحاديثه مناكير أ هـ . وأقول : فيه أيضاً عند ابن ماجه وغيره رشد بن سعد ، ومن ثم قال ابن رجب : الحديث فيه ضعف مشهور (٣٨٦/٤) فيض ، وسكت عليه الحاكم ، وقال الذهبي : ضعيف (٣٣٢/٤) مستدرك .

(٢) حديث (عليكم بعلم الفرائض الخ) رواه ابن ماجه والدارقطني والحاكم ، ولفظ الحاكم : « تعلموا القرآن وعلموه الناس ، وتعلموا الفرائض وعلموه الناس ، فإني امرؤ مقبوض ، وإن العلم سيقبض ، وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لايجدان من يقضي بها » أ هـ .

وقال : صحيح الإسناد وله علة ، وقال الذهبي : صحيح كذا رواه النضر (٣٣٣/٤) مستدرك .

(٣) حديث « قيدوا العلم بالكتاب» لاأساس له من كلام النبي ﷺ ، وقد يكون من كلام انس اورده صاحب الكشف تحت رقم ١٩٠٦ بلفظ «قيدوا العلم بالكتابة» وقال : رواه الطبراني وأبو نعيم .. إلى أن قال : ماأحسبه من كلام النبي ﷺ بل من قول انس ١٣٠/١

وروى عبد الله بن المثنى عن ثمامة أنه قال : كان أنس يقول لبنيه : قيدوا العلم بالكتابة ، والله أعلم .

(٤) غرثان : جائع ، أو محتاج .

وامر بامتثال الأمر ، وتحت رعود الزواجر باجتناب مواضع الشر . قال تعالى : ﴿ **إنما يُوفَّى** **صابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ [الزمر : ١٠] وفي الخبر : ((الصبر على ثلاثة أقسام : بر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصبر على المصيبة ، فالصابر على الطاعة له في الجنة ثمانمائة درجة ، كل درجة كما بين السماء والأرض ، والصابر عن المعصية له ستمائة درجة كما بين سماء السابعة إلى الأرض ، والصابر عن المصيبة له تسعمائة درجة ، كل درجة كما بين العرش ثرى[1])) .

قوله : فَدعهم: أي اترك صحبتهم والإعجاب بزيِّهم ؛ فالغبى اسم من غَبِي الرجل لكسر، غباوةً فهو غبي إذا كان جاهلاً، قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وكم من لحيـة طالت على ذقن جاهل ... ومـا تحتهـا إلا الغبـاوةُ والجهـلُ

وقوله: أهل؛ مرفوع بالابتداء، ولا وجه لنصبه على الاشتغال لدخول فاء الاستئناف لى الفعل المفسر إذ لايعمل مابعدها فيما قبلها. قوله: حد أي: مل عن ذَمىً، بالقصر والفتح : ل رائحة منتنة تأنفها النفوس الشريفة . تنعش : أيّ تقوى بعد ضعف وتعلو منزلتك بعد خف، قال ابن الخطيب: (من بحر المجتث)

من أنت مـولاه حـاشـا ... عـلاه أن يتـلاشـى
والله يـا روح قَـلـبـي ... لا خـاب من بك عـاشـا
قـوم لهـم أنت سـاقٍ ... لا يـرجعـون عطـاشـا
بـل النـعـيم مقـيم ... لمـن أوجبتَ انتـعـاشـا
لا قَصَّ دهـرٌ جنـاحـا ... له وفـاؤك راشـا
ومن بحـولك يقـوى ... فكـيفَ لا يُتَحـاشـا

قوله: ويحيا: من موت الجهل أو الهوى . ذماء: بالمد: تقول: ذَمِيَ المذبوح يذمى : إذا رك وارتفع بعد الذبح، قال الله تعالى: ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ الأنفال:٢٤] وهو العلم والعمل به ونور الحكمة. قال الله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من**

---

(١) حديث «الصبر على ثلاثة أقسام الخ» موضوع رواه أبو الشيخ وابن أبي الدنيا ، وأخرجه السيوطي في امعه تحت رقم ٥١٣٧ ورمز له بالضعف . قال شـارحه المناوي : والحديث كما قال ابن الجوزي موضوع ٤/٢٣٥) هذا مع أن الألفاظ التي أورد بها الشيخ هذا الخبر لاتماثل لفظ السيوطي ولاابن أبي الدنيا ، وفيها تقديم أخير ، والله أعلم .

عباده العلماء ﴾ [فاطر:٢٨] وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ((تعل
العلم؛ فإن تعلمه لله خشية ، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعلي
صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس في الوحش
والمحدث في الخلوة، والجليس في الوحدة، والصاحب في القربة، والدليل على السر، والمعين ع
الضر، والزينة عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، به يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجا
العلى، ومجالسة الملوك في الدنيا ، الفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، به توص
الأرحام، وبه يعرف الله ويوحد، وبه يطاع ويعبد، ولغدوة في طلب العلم أحب إلى الله من ما
غزوة))[1] . وقال علي : أقل الناس قيمةً أقلهم علما . وقال بعض السلف: العلوم أربعة: الف
للأديان، والطب للأبدان، والتنجيم للأزمان ، والنحو للسان . وقال الهرواني : (من ب
الكامل)

النحو يصلح من لسان الألكنِ ... والمرء تكرمه إذا لم يَلْحَنِ
لحنُ الشريف يُزيله عن قَدره ... فتراه يسقط من لحاظ الأعينِ
وترى الدنيَّ إذا تكلم معربا ... حاز الفصاحةَ باللسان البيِّنِ
وإذا طلبت من العلوم أجلَّها ... فأجلُّها منها مُقيمُ الألسنِ

وقال آخر : (من بحر الرمل)

إنما النحويُّ في مجلسه ... كهلال لاح من بين السدف[2]

---

(١) حديث « تعلموا العلم الخ » كلام موضوع على رسول الله ﷺ ، رواه المرهبي، وأورده صاحب (تنزي
الشريعة) وقال: فيه محمد بن تميم السعدي وهو آفته، وقال: أخرجه ابن عبد البر وقال: حديث حسن ولكن ليس ل
إسناد قوي، وقال: رويناه عن طريق أبي عصمة وهو أحد الكذابين .

وأما قول ابن عبد البر في الحديث: حسن فلعله أراد معناه لا الحسن المتعارف عليه عند المحدثين بدليل أنه
قال: ليس له إسناد قوي .

قلت: وهذا الكلام عزاه صاحب (تنزيه الشريعة) إلى الحافظ العراقي في تخريج « الإحياء » إلا أني لم أجده
فيه. إلى أن قال: فإن موسى بن محمد راوي الحديث نسب إلى الكذب والوضع، وعبد الرحيم متروك، ووالده مختلف
فيه، والحسن لم يدرك معاذاً ا هـ (٢٨٢/١) تنزيه .

قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه أبو الشيخ وابن حبان وابن عبد البر وقال: ليس له سند قوي (١٢/١)
إحياء .

(٢) السدف : الحجب أو الظلمة .

يُخــرج اللفــظــةَ من فيــه كما تخرجُ الدرةُ من بـــين الصـــدف
احــترِ النَّحــو من العــلمِ فقــد يــدركُ النحــويُّ بــالنحــو الشــرف

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون !

وكلّم أبو موسى بعض قواده فرد عليه الجواب بلحن فقال له: لو نظَرتَ في العربية ! فقال : بلغني أن من نظر فيها قلَّ كلامه، فقال له: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر بالخطأ .

وكان يقال : مجالسة الجاهل مرض العاقل .

وقال أبو الأسود الدؤلي : إذا أردت أن تُعذب عالما فاقرن به جاهلاً .

وقال ﷺ : ((الناس أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فهو عالم فاتبعوه ، ورجل يدري ولايدري أنه يدري فهو غافل فنبهوه، ورجل لايدري ويدري أنه لايدري فهو جاهل فعاموه، ورجل لايدري ولايدري أنه لايدري فهو هالك فارفضوه)) .

وسأل رجل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ فقال : ((العلم بالله، والفقه في دينه)) . وكررهما عليه فقال: يا رسول الله، أسألك عن العمل فتخبرني عن العلم؟! فقال: ((إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لاينفعك معه كثير العمل)) .

وقال ﷺ : ((من علم وعمل وعلَّم عُدَّ في الملكوت الأعظم عظيما)) .

وقال الخليـل: للعـلوم أقفـال، ومفاتيحها السؤال[1] . وعنه : زلةُ العالم مضروب بها الطبل، وزلةُ الجاهل يخفيها الجهل .

وقال يزيد بن ميسرة: من أراد بعلمه وجه الله أقبل الله عليه بوجهه ووجه العباد إليه ، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله عنه وجوه العباد .

وقال الحسن: رأيتُ قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وهو كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلباً لايضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لايضر بالعلم .

---

(١) حديث « للعلوم أقفال الخ » ضعيف، رواه أبو نعيم بلفظ: « العلم خزائن مفاتيحها السؤال ألا فاسالوا فإنه يؤجر فيه اربعة: السائل والعالم والمستمع والمحب لهم » وبهذا اللفظ أورده كذلك الغزالي في الإحياء، وقال العراقي، إسناده ضعيف (١/١٠) إحياء .

روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال : ((بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ اقبل علينا بوجهه الشريف فقال : الا أخبركم بأجود الأجواد؟ قلنا: بلى يا رسول الله ، قال: الل أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجود الناس بعدي رجل عَلِمَ عِلْماً فنشره يبعث يوم القيام أمة وحده ، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى قتل))[1] .

وعن الفضيل بن عياض رضي الله عنه : لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذ العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقادت لهم الناس وكانوا له تبعا، ولكن أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون أعظم بها من مصيبة !

ولقد أحسن كل الإحسان علي بن عبد العزيز الجرجاني حيث يقول : (من بحر الطويل)

يقولون فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهُمُ هان عندهم ... ومن أكرمتهُ عزةُ النفس أكرِما
وما زلت منحازاً بعرضيَّ جانبا ... عن الذم أعْتَدُّ الصيانةَ مغنما
إذا قيل هذا مشرب قُلت قد أرى ... ولكنَّ نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض مالا يزينها ... مَخافةَ أقوال العدى فيم أوْ لِمَا
فما كل برق لاح لي يستفزني ... وما كل من في الأرض أرضاه مَغْنما
ولم أقض حقَّ العلم إنْ كنت كلما ... بدا طمع صَيَّرتُه لي سُلَّما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم مَنْ لاقيتُ لكن لأخدَما
أأغرسه غرساً وأجنيه ذلةً ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
فإن قلت جَدُّ العلم كابٍ فإنما ... كبا حين لم يحرس حماه وأُسْلِما
ولو أن أهل العلم صانُوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوهُ فهان ودنَّسُوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

---

(١) حديث « ألا أخبركم بأجود الأجواد الخ » موضوع، أورده الشوكاني في فوائده تحت رقم ٣م٨ـ٣ وقال: رواه ابن حبان وقال: منكر باطل (١/٢٧٣) ، وأورده كذلك صاحب (تنزيه الشريعة) وقال: رواه ابن حبا وقال: منكر باطل، وفيه نوح بن ذكوان عن أخيه أيوب حديثهما منكر. قلت: وفيه أيضاً سويد بن عبد العزي متروك (١/٢٥٦) .

قلت: وليس فيه (ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى قتل) ، والله أعلم .

وقال لقْمان : جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر .

وقيل : من عرف بالحكمة لاحظته الأعين بالوقار .

وكان ابن مسعود إذا رأى طلاب العلم قال: مرحبا بكم، ينابيع الحكمة، ومصابيح الظلام، خلقان الثياب، جداد القلوب، ريحان كل قبيلة .

قال علي كرم الله وجهه : كفى بالعلم شرفاً أنه يدعيه من لايحسنه ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل صلفا أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه .

وعن النبي ﷺ قال : ((ما آتى الله أحداً العلم إلا أخذ عليه الميثاق أن لايكتُمه أحدا))[1] .

ودعا بعضهم لآخر فقال : جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لارواية .

وعن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ((على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً كثدي النساء تخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب والناس عطاش)) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ((من تعلم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً))[2] .

وفي مثل ذلك يقول الشاعر : (من بحر البسيط)

العلمُ أنفَس ذُخر أنت ذاخره ... من يدرسِ العلمَ لم تدرس مفاخره

أقبل على العلم واستقبل مقاصده ... فأول العلم إقبال وآخره

---

(١) حديث: « ما آتى الله أحداً العلم الخ.. » رواه أبو نعيم وأخرجه في الإحياء وسكت عليه العراقي (١/١٠) .

(٢) حديث: « من تعلم باباً من العلم الخ... » موضوع أخرجه الحاكم وعنه الكناني في كتابه تنزيه الشريعة قال: وفيه الجارود بن اليزيد (١/٢٧٥) .

قلت: الجارود بن يزيد أبو علي العامري النيسابوري كذّبه أبو أسامة وأبو حاتم وقال الحاكم: روى عن الثوري أحاديث موضوعة، والله أعلم .

يروى أنه دخل عبد الله بن مسلم الهذلي في القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في المغنين فأخذ عشرة آلاف درهم، ثُم دخَل في القصاص فأخذ عشرة آلاف درهم ؛ فقال المهدي : لم أر كاليوم أجمع مما جمع الله في أحد منك .

وقيل : لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ من البحر قطرة، ثم انحط على ورك الخضر، فرفرف وطار، فنظر الخضر إلى موسى وقال : يا نبي الله، إن هذا العصفور يقول: يا موسى أنت على علم من علم الله علمكه لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه إياه لاتعلمه أنت، وانا على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ولا الخضر ، وما علمي وعلمك وعلم الخضر في علم الله إلا كقطرة من هذا البحر .

قال الله تعالى : ﴿ **ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ [المدثر: ٣١] .

قال ابن عباس[١] رضي الله عنهما : خلق الله أربعين ألف عالَمٍ ، الجن والإنس عالمان، والباقي لايعلمهم إلا الله »[٢] .

وقال موسى : يا رب، لو لم تطعك السماوات والأرض ماذا كنت فاعلا بهما ؟ قال: يا موسى ، كنت آمر دابة من دوابي تبتلعهما، قال موسى: يارب، أين تلك الدابة؟ قال في مرج من مروجي، قال: يا رب، أين ذلك المرج؟ قال: لايعلمه إلا أنا[٣] .

وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : ((خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكر قال : فيم تفكرون؟ قالوا: نفكر في ذات الله ؛ قال : تفكروا في خلق الله ؛ فإن الله خلق من جانب الغرب أرضاً يقال لها البيضاء مسيرتها تقطعها[٤] ، الشمس اربعين يوما فيها خلق م

---

(١) ابن عباس: هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، قال له ﷺ يوماً بعد ما ضمه إليه: « اللهم علمه الحكمة » وكان يقال له: حَبْر العرب، وكان عند وفاة النبي ﷺ ابن ثلاث عشرة سنة، غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد سنة (٢٧) وفيه قال النبي ﷺ : ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)) ويكنى حبر الأمة ، مات رضي الله عنه بالطائف بعد ما عمي سنة ثمان وستين .

(٢) هذا الكلام من الإسرائيليات، وإن صح عن ابن عباس فلا أشك انه أخذه من بعض أحبار اليهو الذين أسلموا .

(٣) هذه المحاورة من الإسرائيليات ولم تصلنا بسند يوثق به .

(٤) في النسخة (ا): تقطعه الشمس .

عصوا الله طرفة عين، فقال عمر، يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: ماعلموا أن إبليس خلق أو ما خلق، قال: أمن بني آدم هم ؟ قال ما يعرفون آدم وماسمعوا به))[1] .

فهذه كلها مما أعد الله في غيبه بقوله : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه تُرجعون** ﴾ [يس:٨٢] والحاصل أن العلم لايحصله إلا من استفرغ فيه جميع جهده وافنى فيه سائر عمره . وفي المثل: (العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه وإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً منه). وفي ذلك يقول الشافعي رضي الله عنه : (من بحر الطويل)

أخي لن تنال العلم إلا بستَّةٍ ... سأنبيك عن تَفصيلها ببيانِ
ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبلغةٌ ... وهمةُ أستاذ وطول زَمانِ

وقال غيره : (من بحر الطويل)

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم ... وعنه فباحث كلَّ من عنده فهمُ
فإني رأيتُ الجهل يُزري بأهله ... وذو العلم في الأقوام يرفعه العلمُ
وما أبصرتْ عيناك أقبحَ منظراً ... من أشيب لا علمٌ لديه ولا حلمُ
هي الخصلة السوداء فاحذر سماتها ... فأولها خِزْيٌ وآخرها ذمُّ
فخالط رواة العلم واصحب خيارهم ... فخلطتهم زَيْنٌ وصحبتُهم غُنْمُ
ولا تَعدُوَنْ عيناك عنهم فإنهم ... نجوم إذا ما غاب نجم بدا نجم
فو الله لولا العلمُ ما اتضح الهدى ... ولا بان من غير الأمور لنا رسم

وقال أبو الأسود الدؤلي : (من بحر البسَيط)

العلم زينٌ وتشريف لصاحبه ... فاطلب هُديتَ فنونَ العلم والأدبا
لا خير فيمن له أصل بلا أدب ... حتى يكون على مازانه خربا
كم من كريم أخي غنى وطمطمة ... فَدْم لدى القوم معروف إذا انتسبا[2]
في بيت مكرمة آباؤه نُجبٌ ... كانوا رؤوساً فأمسى بعدهم ذَنبا

---

(١) حديث « فيم تفكرون الخ.. » ضعيف رواه أبو نعيم وابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بالفاظ مختلفة بعضها قريب من لفظ الشيخ كما أورد صاحب الكشف جزءاً منه تحت رقم ١٠٠٥ وأورد بعض طرقه، قال : وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسبها قوة ومعناه صحيح (٣٧٢/١) .

قلت: هذا لايخرج الحديث عن الضعف الشديد، والله أعلم .

(٢) الطمطمة: العجمة أو اللكنة . والفدم: العيّ عن الكلام، الأحمق .

وساقط خامل الآباء ذي أدبٍ نال المعالي والاداب والرُّتَبا
اضحى عزيزاً عظيم الشأن مشتهرا في خَدّه صَعَرٌ قد ظل منحجبا
قد يجمع المالَ شخصٌ ثم يُحرَمُه عما قريب فيلقى الذلَّ والحَرَبا
وجامع العلم مقبول به أبدا ولا يحاذر منه الفوتَ والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدلنَّ به دُرّاً ولا ذهبا

ولما كان العلم أكثر من أن يحاط به كان ينبغي للانسان أن ينتخب من كل فن أنفعه عاقبة وأجمعه غائبة، قال الشاعر : (من بحر البسيط)

من كل علم تعلم تبلغ الأملا ولا يكن لك فن واحد شغلا
فالنحل لما رَعَتْ من كل نابتة أبدت لنا الجوهرين الشمع والعسلا
الشمع بالليل نور يستنار به والشهد يُبري بإذن الواحد العللا

ويقال: علم بلا أدب كنار بلا حطب .

وقال بعض الحكماء: العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام .

وقال علي كرم الله وجهه : الأدب كنز عند الحاجة، عون على المروءة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة، تعمر به القلوب الواهية، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ماطلبوا .

ويقال: علم بلا أدب كشجاع بلا سلاح .

ويحكى أن رجلا تكلم بين يدي المأمون فأحسن؛ فقال : ابن من أنت ؟ فقال: أبي الأدب يا أمير المؤمنين؛ فقال: نعم النسب انتسبت إليه .

ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد. وفي ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك مضمونه عن النسب
إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعاً، وبعد صيته وإن كان خاملا، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيرا .

وقال الشاعر: (من بحر السريع)

لكــــل شـــيء زينـــةٌ في الورى وزينـــــة المـــرء تَمـــامُ الأدبْ
قــد يَشْــرُفُ المــرءُ بــآدابــه مِنَّـــا وإن كان وضـــيع النسبْ

وفي المثل : (المرء فضيلته لا بفصيلته ، وبكماله لا بجماله وبآدابه لا بأنسابه) حقق الله نسبتَنَا إليه آمين .

وفي البيت اقتبـاسـان: فصدره مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف:١٩٩] وعجزه مقتبس من قوله ﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ [الأنفال:٢٤] وفيه أيضاً تلميح إلى المثل السائر : (الجهل عار ولا يرضاه إلا حمار) ؛ لأنه لمح إليه بقوله : (وحد عن ذمى) أي: مل عن نتن الجهل ؛ لأن نتن الجهل أنتن من كل منتن ؛ إذ منه تنشأ جميع الأخلاق السيئة، فاذا رفعت همتك عنه واشتغلت باقتناء العلم النافع انتعشت موات أحوالك بالعلم النافع ، واهتزت وربت أجاديب أعمالك بأزاهر الحكمة، فأنبتت من كل زوج بهيج ، فيحيا ذماء قلبك المذبوح بمدية الهوى، ويتروى من بساتينه ما قد ذوى . أنعش الله هممنا بوابل عرفانه .

قال الناظم :

٣٨ ــ وَصَيْدُ الْمَهَى عُدْمُ الْمَهاءِ يَزِينُهُ كَمَـا زَانَ مَشْـدُوداً نَجاهُ نَجاءُ

المهى بالقصر : بقر الوحش، سمي بذلك لبياضـه ، والمعروف المتداول أنه نوع من اليواقيت ، قال حاتم بن عبد الله الطائي : (من بحر الخفيف)

رب بيــضـــاءَ كالمـهـى تهـادى قــد دعتــني لنـفـسـهـا فـأبيتُ
لم يكـن شـيـمـتي العفـافُ ولكـن كنت نـدمـان زَوجهـا فـاستحيتُ

والمهاء ، بالمد: اعوجاج في السهم يمنعه من حسن الأقصاء . والنجا بالقصر : أعواد الهودج، وبالمد : سرعة السير ، يقال : قلوص نجيبةٌ إذا كانت لاتجارى .

قال ﷺ : ((إذا كنتم في خصب فأعطوا الدواب حقها ، وإذا كنتم في جدب فأنجوا عليها)) ، أي : أسرعوا بها حتى تبلغوا الخصب .

وفي البيت من البديع الكنـاية ، فإنه كنى بصيد المهـا عن السعي في تحصيل الحسنات بالقصد المستقيم والحزم المستديم، كما يظفر بالصيد القانص إذا استعان عليه بالسهم المسدد

والرمي بالحديد، فإن الله خص بنيل الدرجات واقتناء الكرامات وما أعد في دار كرامته من الحور العين والولدان والرفق والخيرات الحسان ﴿ **الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ [فصلت: ٣٠] فلم يمل بهم عن السبيل فسقٌ ولا ابتداعٌ، ولا زيغ ولا ارتفاعٌ، ثم لايتم لهم ذلك إلا بالحزم المصمم والجد المتمم . وقول الناظم : (كما زان مشدوداً نجاه نجاء) اي نجاه حزمه لسبب نجاء عزمه ومجده . قال الله تعالى : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سَعْيَها** ﴾ [الإسراء: ١٩] وقال ﴿ **إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ الآية [الذاريات: ١٥ــ١٨] .

قال مالك بن دينار : لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها . وقال حاتم الأصم لما قيل له : هلا استرحت هنيهة ؟ فقال: كيف يستريح رجلٌ النارُ تسعر تحته والجنة تزخرف فوقه وهو سائر لا محالة إلى إحداهما وقد كتب اسمه في الديوان ومع ذلك لايدري أفي ديوان السعداء كتب اسمه فيهنأ أم في ديوان الأشقياء كتب اسمه ؟! فواخجلاه فقد جلت مصيبته عن التعزية، وعظمت رزيته عن الثُكل فبأي حجة وبأي وجه يقابل الملك الجبار وقد عصى أمره واقتحم نهيه؟! ثم غشي عليه فما افاق إلا بعد حين .

قال الناظم رحمه الله :

٣٩ ــ وَكَمْ فِي قَسًى مِنْ ذِي قَسَاءٍ وَذِي رَجاً ... بِدُنْيَاهُ دَامَتْ رَغْبَةٌ وَرَجَاءُ

أي: كثير من صاحب قساء ، بالمد : أي قساوة في القلب، حَالٌ . قسى، بالقصر: موضع من بلاد العرب. ومن ذي رجا: أي صاحب رجا أي: مرتج عليه في كلامه. يروى أن عثمان رضي الله عنه قام يوماً ليخطب فأرتج عليه في خطبته؛ فقام طويلا وهو ساكت، ثم نزل عن المنبر، ثم قال: السكوت عما لايليق خير من النطق به . وهو مصدر رجي ، بالكسر: إذا حصل له ذلك، من صفة ذي الرجاء أنه دامتْ رغبتُه في دنياه ورجاؤه، أي خوفه من ذهابها مثلا. وبالخوف فُسر الرجاء في قوله تعالى: ﴿ **مالكم لاترجون لله وقارا** ﴾ [نوح:١٣] أي لاتخافون . ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي : (من بحر الطويل)

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وخالفها في بيت نَوْبٍ عواسل

والنوب : النحل لأنهن سود كالنوبة، والنوبة جنس من السودان منهم أبو طالب المكي

ولقمان الحكيم. قال ﷺ : ((لاتسبوا النَّوبة فإن منهم رجلين من سادة أهل الجنة لقمان الحكيم وبلال بن حمامة))[1] .

والمعنى أن الدنيا ملئت بقساة القلوب الذين لايرغبون في غيرها ولايخافون سواها . والبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد** ﴾ [الإسراء:١٨] وهم الكثيرون عدداً القليلون مدداً، بخلاف الشاكرين فإنهم القليلون عددا الكثيرون مددا . قال الله تعالى : ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ [سبأ:١٣] وقال ﷺ : ((إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى آدم أن يخرج من ذريته بعث الجنة فقال: أي رب، وكم هم؟ فيقول: من كل ألف واحد إلى الجنة وتسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ؛ فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ حتى كثر حنينهم بالبكاء ، فقال لهم: أبشروا فإني أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنـة ؛ فكـبروا، ثم قال: أبشروا فإني ارجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ، فكبروا واستبشروا، ثم قال: أبشروا فإني أرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة؟ فقالوا : يارسول الله مامعنى نجاة الواحد من الألف ؟ وما يبلغ في الجنة ؟ فقال: ما مثلكم في المشركين وياجوج ومأجوج إلا كالثلمة السوداء في الثور الأبيض أو كالشامة البيضاء في الثور الأسود)) . والحديث مخرج في الصحاح الستة بأسانيد متعددة[2] وألفاظ مختلفة حتى إنه بلغ حد التواتر .

قال الناظم رحمه الله تعالى :

٤٠ ـ ومَرْدىً بِمرْدَاءٍ لَدَى مُتَوكِّلٍ وَأرْضٌ سَـوىً لِلْوَارِدِينَ سَـوَاءُ

قوله: مَردىً، بالفتح والقصر: المهلكُ مكاناً أو مصدرا، كالمهدى ومثوى. والمرداء:

---

(١) حديث « لاتسبوا النوبة الخ.. » لم أره بهذا اللفظ إلا أن ابن حبان وعنه صاحب تنزيه الشريعة رواه بلفظ « اتخذوا السودان فان فيهم ثلاثة من سادات أهل الجنة: لقمان والنجاشي وبلال »(٣٢/٢) .

قلت: وفيه أبين بن سفيان المقدسي ويقال له ابان ، قال ابن حبان: روى أشياء موضوعة .

وقيل: ابان غير أبين، قال الذهبي في المغني: كلاهما له بلايا . وللحديث شاهد رواه الحاكم بلفظ: « خير السودان لقمان وبلال ومهجع مولى رسول الله ﷺ »، والله أعلم .

(٢) الحديث كما قال الشيخ متفق على صحته : رواه البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة كما رواه غيرهما، وأول الحديث عند البخاري : « يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك فيقول: أخرج بعث النار.. الخ » كتاب أحاديث الأنبياء .

الأرض التي لانبات فيها ، يقال رجل أمرد إذا لم تكن له لحية كما يقال : أرض مرداء إذا لم يكن فيها نبات . قال الشاعر: (من بحر البسيط)

منـــا الذي هـو مـــا إن طرّ شـــاربه والعـــانســـون ومنـــا المردُ والشيبُ

وأرض سوى : وهي أرض بها ماء من مياه العرب يقال له : سَوى وسواء ، بالمد: أرض مستويةٌ .

والمعنى : رب مهلك ، أي مكان للهلاك ، أو هو نفسه ، كان في أرض قفراء لانبات فيهـا وقد حل به متوكل على الله ، أي معتمد عليه ، نابذ للدنيا وراء ظهره ، لارغبة له في حصولها ، ولا رهبة له من زوالها ، وقليل ماهم ، كأبي تراب النخشبي رضي الله عنه ، فإنه مات في البيداء ونهشته الحيات . هذا مقابل لقول الناظم : وَكَمْ في قَسى مِنْ ذي قَسَاءٍ البيت . فإنه إخبار بكثرة من في الدنيا من قساة القلوب الذين لارغبة لهم إلا فيها ولارهبة لهم إلا منها ، وهذا صادق مع قلة غيرهم ومع عدم وجودهم رأساً ، فأخبر في هذا البيت بوجودهم على سبيل القلة ، فإن (رُبَّ) المقَدرة معناها التقليل بدليل السياق والمجرور بها مرفوع بالابتداء ، و (بمرداء) صفة له ، و (لدى متوكل خبره . وأما قوله : (وأرض سواء إلى آخره) فمعناه أن ارض هذا الماء المسمى بسوى بالقصر مستوية في حق الواردين لاتفاوت لهم فيها ولا يمنع منها إلا من أبى وتكاسـل ، وهذا كناية عن أرض الجنة فإن الله دعا إليها كل عباده حيث قال سبحانه ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ [يونس : ٢٥] أي كل عباده على ماقاله أئمة التفسير ودل عليه الحديث ، قال ﷺ : ((كلكم يدخل الجنة إلا من أبى))[1] .

وقد فسر الحديث الشريف بما هو ظاهر في عدم سلوك طريقها بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، فإن الشيء إنما يتوصل إليه عن طريقه ، فمن لم يسلك طريقه التي توصل إليه فقد أباه ، قال الشاعر :

ترجو النجـــاة ولم تســلك مســالكها إن الســفينــة لاتَجري على اليبسِ

(١) « كلكم يدخل الجنة الخ ..»حديث صحيح رواه الطبراني في الأوسط ، والحاكم ، وأورده السيوطي تحت رقم ٦٣٦٩ بلفظ : « كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله» أ هـ وصححه ، قال المناوي شارحه : قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير علي بن خالد وهو ثقة (٣٨/٥) .

ورواه البخاري بلفظ : «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : يارسول الله ومن يأبى ؟! قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى» (كتاب الاعتصام) ، والله أعلم .

لأنه استعمل طاقته وصرف إرادته إلى غير طريق الجنة فيما يظهر من اختياره واستطاعته إن كان مجبوراً على تلك الإباية بحسب الباطن لاقتضاء حكمة الحكيم سبحانه ذلك فهو يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد، وما ربك بظلام للعبيد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، كلٌّ يعمل على شاكلته ، وميسر لما خلق له ؛ يسرنا الله لما يرضيه عنا، آمين .

قال الناظم رحمه الله :

٤ ــ وَإِنَّ سَــدىً فَوْقَ السَّــداءِ لآيَةٌ فَحَصِّلْ جَلىً إِنْ غَابَ عَنْكَ جَلاءُ

السدى ، بالقصر والفتح : الندوة أو الندى ، وحقيقته ما يعلو الأشجار صباحاً إلا أنه لا يكثر جداً إلا في الأرض الوبية وربما كثر في سنة الخصب إذا لم يكثر هبوب الرياح. والسداء، بالمد والفتح: البلح بلغة أهل المدينة، يقال من الأول: سديت ليلتنا، بالكسر: إذا كثر نداها ، وقلما يقال: سدي اليوم. والجلى ، بالقصر: ضرب من الكحل. والجلاء، بالمد: البياض، يقال: ماأقمت عندهم إلا جلاء يوم أي نهاراً واحداً. قال الشاعر: (بحر الرجز)

مــالي إذا أقصــيتــني من مقعــدِ إلا جــلاء اليــوم أو ضحــى الغــدِ

والمعنى : أن الندى فوق البلح آية أي عبرة ودلالة دالة على كمال قدرته تعالى وتمام إرادته يعتبر بها المعتبرون بآيات الله وعجائب قدرته فيزدادون بذلك يقيناً وبما عنده إيماناً، فحصل كحلا لعيني بصيرتك بالنظر إلى عجائب مصنوعاته لتتوصل بذلك إلى معرفته إن فاتتك تلك المعرفة التي عبر عنها بالجلاء بالمد ؛ فتترق من علم اليقين إلى عين اليقين بالجلى، بالقصر، الذي أريد به علم اليقين إلى الجلاء، بالمد الذي أريد به عين اليقين. والبيت مقتبس من قوله تعالى : **﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ الآية** [البقرة:١٦٤] ولما نزلت هذه الآيةُ وكانت ليلة صعد فيها ﷺ على سقف بيته وقال : ((يا ربات الحجال قُمْنَ فإنَّهُ نزلت عليَّ الليلة آيةٌ ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها)) والآية في السماء ؛ سمكها بغير عمد ولا علاقة ، وما فيها من الكواكب السيارة والأفلاك الدوارة، والمنازل والبروج المرتبة على تقديرات الدهور من ساعات الليل والنهار، وارتحال الشمس ومكثها في كل برج من البروج، مع ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل شتاء وصيفا، واعتدالهما في ليلتين : ليلة في الربيع، وليلة في الخريف، وكل ذلك بحسبان لايتجاوزانه كحسبان الرحى بحكمة ربانية تبهر العقول، فالشمس تعوم الفلك لانتهاء العام وبذلك سمي

العام عاماً . والآية في الأرض مايرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والثمار والأنهار
النوع الثاني اختلاف الليل والنهار في المجيء والذهاب والتكوير والنور والظلمة وقدم الليل لأن
الظلمة اقدم، وجعل أحدهما للتكسب والثاني للراحة والسكون. والآية في الفلك تسخيرها
وجريانها على وجه الماء وهي موقرة[1] بالأثقال والرجال فلا ترسب ، وجريانها بالريح مقبلة
ومُدبرةً ، وتسخير البحر بحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجانه فلا ينجي منه إلا الله
تعالى . واصل الفكر إعمال الخاطر بالشيء وتردد القلب في ذلك الشيء، وهو قُوة متطرقة
للعلم الموصل إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القُوة بحسب نظر العقل ، ولايمكن التفكر إلا
فيما له صورة في القلب ؛ ولهذا قيل: تفكروا في آيات الله ولاتتفكروا في ذات الله ؛ إذ هو منزه
عن أن يوصف بصورة ؛ فلذلك أخبر عن عباده الصالحين لأنهم يفكرون في خلق السماوات
والأرض وما أبدع فيهن من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته . ليدلهم ذلك على كمال قُدرة
الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا أن لها خالقاً قادراً مدبراً حكيماً ؛ لأن عظم آثاره وافعاله تدل
على عظم خالقها سبحانه وتعالى ، كما قيل : (من بحر المتقارب)

وفي كل شـــيء له آيـــة تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد

وقيل : إن الفكر مقلوب عن الفرك لأن الفكر مستعمل في المعاني وهو فرك الأمور
وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها . وقيل : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشيةَ كما
يحدث الماء للزرع النماء ، وما حليتْ القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة، ولذلك
قال الرسول ﷺ : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة »[2] وقال : ((كل كلام في غير حكمة

(١) موقرة : مثقلة ؛ محملة .

(٢) حديث « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » لا أصل له من حديث النبي ﷺ .

ذكره الفاكهي وقال: إنه من كلام سري السقطي، وأورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ١٠٠٤ كما أورده في الجامع تحت رقم ٥٨٩٧ بلفظ « فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة » ورمز له بالضعف ، وقال شارحه المناوي بعد أن أورد كلام ابن الجوزي فيه: اقتصر العراقي على تضعيفه في الإحياء وقال: له شاهد (٤/٤٤٢) كما أورده ابن الجوزي بهذا اللفظ وقال: هذا خديث لايصح وفي الإسناد كذابان فما أفلت وضعه من أحدهما إسحاق بن نجيح قال أحمد : هو أكذب الناس .

وقال يحيى : هو معروف بالكذب ووضع الحديث، وقال الفلاس: كان يضع الحديث على رسول الله ﷺ صراحاً . والثاني عثمان قال ابن حيان : يضع الحديث على الثقات (٣/١٤٤) ورواه هناد بن السرى في كتاب الزهد له موقوفا على ابي الدرداء بسند صحيح بلفظ (تفكر ساعة خير من قيام ليلة (٩٥٧) والله أعلم .

هو لغو ، وكل سكوت بغير فكرة فهو سهو، وكل نظر بغير اعتبار فهو لهو)) . وقال علي كرم
له وجهه : لا خير في عبادة لايصحبها تفكر ، ولاخير في قراءة لايصحبها تَدبر . وقال ابن
باس : الذي يقرأ القرآن ولايتدبره كمثل الحمار يحمل أسفاراً . يروى أن الشافعي رضي الله
نه استضاف أحمد بن حنبل برسم الزيارة ، وكانت لأحمد ابنة متعبدة تتمنى رؤية الشافعي
علم كيفية عبادته فقالت لأبيها : اجعلني في البيت الذي يليه لأنظر إليه من الطاقة ، وكان
حمد أعدَّ له منزلا[1] وطعاماً كثيراً ، فأكل الشافعي رضي الله عنه حتى شبع ، ثم شرب حتى
وي ، ثم استلقى على قفاه ، فلم يزل كذلك حتى اصبح فصلى بغير وضوء ولاتيمم، وكان
لك بمرأى منها فاصبحت وقد سقط من عينها، فأتاها أبوها رضي الله عنه فقال لها : ما رأيت
بارحة من أمر الشيخ؟ فقالت له: لم أر طائلاً؛ أكل كثيراً وشرب كثيراً ونام طويلا وصلى بغير
ضوء ولا تيمم؛ فذهب في الحين إلى الشافعي رضي الله عنه فقال له : ماشيء بلغني عنك؟
لك أن ابنتي كانت مشتاقة إلى رؤيتك لما بلغها من عبادتك، فلما كان البارحة طلبت مني أن
جعلها في البيت الذي يليك لتنظر إليك وإلى عبادتك من الطاقة، فلما أصبحت أتيتُها
سألها عما رأت من عبادتك فقالت: لم أر طائلاً؛ أكل كثيراً ، وشرب كثيراً، ونام طويلا،
صلى بغير وضوء ولاتيمم ، فقال له الشافعي : أما إنَّ ابنتك قد صدقت: أما قولها : أكل كثيراً
نه بلغني عن رسول الله ﷺ ((أن طعام الأحبة شفاء)) فأحببتُ أن أستكثر من الشفاء ،
طعام يستدعي الشراب فشربت كثيراً. وأما قولها: نمت طويلا، فإني لما فرغت حضرني قوله
ﷺ : ((ما فعل النغير ياأبا عمير)) فعلمت أنه لاينطق عن الهوى ، ففكرت في هذا[2]
حديث، ففتح الله علي ، فاستخرجتُ منه ثمانين مسألة : أربعين في الحلال، واربعين في الحرام
صبحتُ ولم أنم ولم أحدث فصليتُ بغير وضوء ولاتيمم ، فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ
أن تفكر ساعة خير من عبادة سنة))[3] فكيف بتفكير ليلة ؟! وقد استخرجت فيها كنوزاً
ي الحلال والحرام[4] .

---

(١) في ب: ونزلا .

(٢) في النسخة (ب) : ففكرت فيها، وهو خطأ .

(٣و٤)لاأعتقد أن قصة الشافعي هذه تصح عنه للأسباب الآتية :

أولا ـــ لأن الشافعي رحمه الله خرج من بغداد إلى مصر عام ١٩٩ ومات بها عام ٢٠٤ ولم يعد إلى بغداد =

ثم قال الناظم رحمه الله :

٤٢ ـ وَرُبَّ خَوىً عِنْدَ الْخَوَاءِ اسْتَطَابَهُ مُوَالِي ضَحىً لَمْ يُزْوَ عَنْهُ ضَحَاءُ

قوله : رب حرف جر بمعنى التكثير ، هنا خوى، بالفتح والقصر: أي جوع استطابه عند الخواء ، بالمد والفتح، أي الخلاء لأنه يحتوي على ساكنه كما تحتوي الأمعاء على الجوع والشبع، وهو من باب تسمية الظرف باسم المظروف ، لأن الأمعاء تُسمى بالأحواء فمفردها حينئذ حَوىً ، وتسمى بالحوايا ، قال تعالى : ﴿ **إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا** ﴾ [الأنعام:١٤٦] ومفرده كذلك حوى ، وهذا كنايةٌ عن استطابة المتنسك الأعمال الشاقة لما يجد فيها من قرة العين تارة ومن رجاء الثواب أخرى ، وإنما خص الصوم هنا بالذكر والإشارة

= هذه الفترة، وعمر الإمام أحمد رحمه الله آنذاك فوق الثلاثين بقليل؛ وسيأتي انه لم يتزوج إلا بعد الأربعين من عمره .

ثانياً ـــ إن في القصة نوعاً من التجسس لايقره الإمام أحمد قطعاً لما عرف عنه من التمسك بالشريعة والابتعاد عن الشبه .

ثالثاً ـــ علامات التأليف واضحة في القصة لضعف الأسلوب وكثرة المبالغات التي هي أقرب إلى الكذب .

رابعاً ـــ الحديث الثالث في القصة الذي هو « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » موضوع، ومن المستبعد أن يستدل الشافعي بحديث موضوع ويقره الإمام أحمد وهو سيد النقاد في ذلك العصر وربما في العصور التي بعده إلى اليوم .

خامساً ـــ وعلى كل حال فالحديث الأول المذكور في القصة والذي هو « طعام الأحبة » لم أجده بهذا اللفظ ، وقد روى الدارقطني في غرائب مالك: « طعام البخيل داء وطعام الجواد شفاء » واورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٥٣ وقال: قال الذهبي : كذب، وقال ابن حجر: منكر، وأورد له الفاظا كثيرة. والثاني الذي هو «مافعل النغير» صحيح، والثالث موضوع وسبق أن خرج؟.

سادساً.روى الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء في ترجمة الإمام أحمد قال: قال حنبل: سمعت ابا عبد الله يقول: تزوجت وانا ابن اربعين سنة..... إلى أن قال: قال أبو بكر الخلال في كتاب أخلاق أحمد: أملي علي زهير بن صالح بن أحمد قال: تزوج جدي عباسة بنت الفضل فلم يولد له منها غير أبي ، وتوفيت، وتزوج بعدها ريحانة فولدت عبد الله عمي، ثم توفيت فاشترى حُسْنَ فولدت له أم علي زينب والحسن والحسين توءمان وماتا بقرب ولادتها ، ثم ولدت الحسن ومحمدا (١١/١٨٥) .

قلت: وبهذا يتضح انه لم تولد له بنت اصلاً إلا بعد موت الشافعي بزمن طويل ، بل لم يتزوج إلا بعده، والله أعلم .

نه أقرب أعمال البر إلى الإخلاص لقول الله تعالى : ((كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه ، وأنا أجزي به))[١] .

يروي أن الثوري رضي الله عنه لما احتضر بكى فقيل له: ما بكاؤك؟ فقال : والله بكائي جزعاً من الموت ولا حرصاً على البقاء في الدنيا ولا على غرس الأشجار وإجراء الأنهار إنما بكائي على مافاتني من ظمأ الهواجر وقيام الدواجر[٢] ومزاحمة العلماء بالركب .

ويروى أن الشافعي رضي الله عنه قال : لو يجد هؤلاء المنهمكون في الشهوات مايجده تملقون بالأسحار لخرجوا عما هم فيه وللزموا الفلوات .

ويروي أن طيفور بن عيسى البسطامي كان يواصل خمسة عشر يوماً ولا يفطر إلا على فه، فقيل له في ذلك فقال : أما بلغكم قول رسول الله ﷺ ((إني أبيت عند ربي يطعمني يسقيني))[٣] . هيهاتَ هيهات لو تجدون مايجد الصائمون في صومهم من النعيم وقرة العين هدتم في النعيم الخسيس .

وقامت رابعة العدوية حتى اقعدت ، وبكت حتى أظلمت عيناها ، وصامتْ حتى تغير نها ؛ فاجتمعت إليها عشيرتها وقالوا لها ألا ترحمي هذا الجسم المسكين ؟! أليس لعينيك عليك حق ولنفسك عليك حق؟! فقالت: الرفق أردتُ به ، فإن كان له عند الله خير فإنما هي أيام لائل ثم يستريح الراحة السرمدية، وإن لم يكن له عند الله خير فهذا أهون ما يلاقي ، فجعلت كي حتى انصرفوا عنها وتركوها .

وكان ﷺ لا تشاء أن تراه صائماً إلا رأيته صائماً ، ولاتشاء أن تراه مفطراً إلا رأيته فطراً[٤] . وكان ﷺ يقول : ((أفضل الصيام صيام داود عليه السلام ؛ كان يفطر يوماً

---

(١) حديث « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم الخ » جزء من حديث متفق على صحته ، رواه البخاري سلم وأبو داود والنسائي والترمذي .

(٢) الدواجر: الليالي ذوات الظلم . وفي النسخة (ب): مايبكيك .

(٣) حديث « إني أبيت عند ربي الخ » جزء من حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم وغيرهما في ب الوصال بالفاظ كثيرة منها : « إني يطعمني ربي ويسقيني » « وإني أطعم وأسقى » وغير ذلك .

(٤) هذه زيادة في النسخة (أ) أي قوله : وكان ﷺ لاتشاء أن تراه صائماً إلا رأيته ولا تشاء ان تراه مفطر لا رايته مفطراً .

ويصوم يوماً))[1] .

وكان ﷺ يقول : ((من صام ثلاثة ايام من كل شهر فقد صام الدهر كله))[2] .

وكان ﷺ يقول : ((عليكم من الدين بما تطيقون فإنه ما شادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه وأحب الأعمال إلى الله ما كان ديمة وإن قل))[3] .

وقال ﷺ : ((دين الله يسر فأوغلوا فيه برفق)) .

وقال ﷺ : ((إياكم والمُنْبَتّ فإنه لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)) .

وفي الخبر : ((إن بالجنة نهراً يقال له الريان لا يشرب منه إلا الصائمون))[4] .

وافطر ابن عمر رضي الله عنهما من بثرة في إصبعه. وكان ﷺ يأمر الشيخ الفاني والمرضع والحامل بالإفطار والإطعام، ويأمر الزمن[5] والضعيف والمريض بالإفطار من غير إطعام . وكان اصحاب رسول الله ﷺ يُكرهون مماليكهم على الصوم من غير قتل إذا اقروا بالإسلام .

وكان ﷺ يثبت دخول شهر رمضان برؤية عدلين أو عدل واحد أو خبر عن حي أو مدينة. وكان ﷺ يقوم ليالي رمضان ويأمر بقيامها من غير أن يكون ذلك حتماً منه. وكان يأمر بصيام عاشوراء وتاسوعاء ورجب وشعبان[6]. وكان ﷺ يقول : ((ما من ايامِ الصومُ فيه

---

(٢) حديث « أفضل الصيام الخ » جزء من حديث متفق عليه رواه البخاري في باب صوم داود ن ومسلم في باب صوم الدهر بالفاظ كثيرة . وأول الحديث عند البخاري « إنك لتصوم الدهر » والقول موجه لعبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) حديث « من صام ثلاثة ايام من كل شهر فقد صام الدهر الخ » جزء من حديث صحيح، متفق عليه وهو من الحديث الأول ، ولفظه عند البخاري: « صوم ثلاثة ايام صوم الدهر كله » .

(٤) حديث « عليكم من الدين بما تطيقون الخ » حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وغيرهما، ورواية البخاري: « خذوا من العمل ماتطيقون فإن الله لايمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ مادووم عليه وإن قلّت » (البخاري باب صوم شعبان) بزيادة: « وكان إذا صلى صلاة داوم عليها » والله أعلم .

(٥) « إن في الجنة نهراً يقال له الريان الخ » لم أجده بهذا اللفظ، غير أن البخاري ومسلماً والنسائي والترمذي رووا: « إن في الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون الخ » والحديث أطول من هذا ، وألفاظه كثيرة، والله أعلم .

(٦) الزمن: الضعيف من كبر أو مرض .

(٧) لم يثبت عنه ﷺ انه أمر بصيام رجب وشعبان، فقد ثبت عنه أنه كان يصوم أكثر شعبان .

ضل بعد رمضان من عشر ذي الحجة)) . وكان لايخص بصومه يوماً معيناً بل يصوم متى اء ويفطر متى شاء . وكان السلف رضي الله عنهم يقولون : الصوم على أربعة أقسام : صوم خاصة الخاصة ، وصوم الخاصة، وصوم الصالحين، وصوم عامة المؤمنين ؛ فصوم خاصة لخاصة هو الصوم عما سوى الله ، وصوم الخاصة هو أنهم يصومون عن الدنيا ويفطرون على لآخرة، وصوم الصالحين هو الصوم عن الكلام إلا أن يكون ذكراً أو تلاوة أو ما في معناهما ن العلم النافع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصوم عامة المؤمنين هو كف اللسان الجوارح عن المفسدات شرعاً وحقيقة .

قوله: استطابه: اي استحلاه واستلذه . موالي: اي مباشر. ضحى، بالقصر، مصدر ضَحِي، بالكسر: إذا برز للشمس، قال الله تعالى : ﴿ **لاتظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ [طه:١١٩] ، أي لايصيبك وهج الشمس . وفيه المد لغةً ، والضُّحاء بالمد لا غير وهو لوقت الذي يقرب من الزوال . وقوله : يزو : مبني للمجهول مضارع زوى الشيء بالزاي فانزوى اي انقبض مجزوم بلم .

ومعناه: إنما يرجو حسن الثواب من زويت له مسافة الدنيا حتى شاهد بعين بصيرته ما يأتي؛ ولذلك هانت عليه موالاة وهج الشمس في الضحى والضحاء ؛ فصبر في حال كونه سالكاً ، واشتاق والْتذَّ وذاق في حال كونه مشاهداً واصلا مواصلا ؛ إذ الدين مبدؤه سلوك ومجاهدة ومنتهاه ذوق ومشاهدة، قال الله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ [العنكبوت:٦٩] . وفي ذلك يقال: (من بحر الطويل)

تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سرٍّ	**وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر**
وقدم إماما كنت أنت إمامهُ	**وصل صلاة الظهر[1] في أول العصر**

ثم قال الناظم رحمه الله :

٤٣ ــ حَوَى جَلَداً فَاقَ الْعَلَى لِعَلائه فَلَوْ بِوَرىً يُبْلَى وَقَاهُ وَرَاءُ

قوله: حوى: أي حاز موالي ضحى جلداً: أي قُوة على موالاة ما ذكر ففاق بذلك الجلد. العلى ، بالقصر: جمع علاة، وهي منسأة[2] الحداد لأجل علائه أي شرف نفسه وعلو

(١) في (ب) : الصبح .

(٢) المنسأة: العصا، وفي (ب): المسأة: وهي آلة يشحذ عليها الحداد آلاته .

همته، فلو قد رأيته يبلى اي يمتحن بورى بالقصر: داء في الجوف، وقاه أي حماه وراء بالمد
مايستتر به أي فدى لعزته وعظيم موقعه في النفس مما يفدى به من رفيع الأشياء وأحبها إ
النفوس من كل بؤسٍ ومن الورى المقصور الممثل به . وهذا البيتُ إنما جيء به تتميماً لمعن
البيت السابق لأنه متضمن معناه وليس تحته طائل معنى .

ثم قال الناظم رحمه الله تعالى :

٤٤ ــ فَمَا بالصَّبَا يُهْدَى الصَّبَاءُ لِقَلْبِهِ   وَكَيْفَ الكَرَى والمُسْتَقَر كَرَاءُ

الصبا: الريح الشرقية. والصباء، بالمد: مصدر صبا بالفتح إذا مال إلى الهوى ، أو هو
مطلق الميل، وقيل في الميل عن المرغوب فيه إلى المرغوب عنه؛ ولذلك كان مشركو مكة يسمون
من أسلم منهم الصابي لأنهم مالوا بزعمهم عن دين مرغوب فيه إلى دين مرغُوب عنه، وكانو
إذا قالوا لأحد منْهم: صبوتَ قال: ما صبوت ولكني أسلمت لرب العالمين؛ ولذلك سمي
إبراهيم حنيفاً لأنه مال وحده عن جميع أديان الكفر إلى الحنيفية السمحة، قال الله تعالى:
﴿ **ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ [البقرة:١٣٥] والحنيف والحنيفية مأخوذان من حنف إبهام الرجل
إلى جانب عن جميع الأصابع ، وبذلك سمي الأحنف بن قيس أحنف، وكانت أمه ترى فيه
مخاييل الحلم والكرم وهو صبي، وكانت إذا اجتمع عليها نساء بني تميم ترقصه وتقول : (الرجز)

والله لولا حنف بــــرجــــله   ودقَّــة أبصرهـــا في ســـاقـــه

ما كـان من صبيـانكم كمثلـه

وقد أسلم صبياً وحسن إسلامه ، فأدرك العلم والحكمة، وكان إليه المنتهى فيهما، وكان
يكنى أبا بحر. يروى أنه دخل على معاوية في ملأ من بني تميم، وكان دميماً، فاقتحمته عين معاوية
فقال: يابني تميم لِمَ سادكم الأحنف ولم يكن أحسنكم وجهاً ولا اشرفكم بيتاً ولا أكثركم جمعا؟
قالوا: كان يحلم إذا جهلنا، ويجود إذا بخلنا، ويثبتنا إذا جَبُنّا، ويحوطنا إذا غفلنا . فقال : والله لو
كانت هذه الخصال في ضَبٍّ لساد، انتهى .

وصَبِي بالكسر لعب مع الصبيان. وكيف استفهام إنكاري بمعنى النفي. الكرى: النوم
مصدر كرِي، بالكسر: إذا نام. وكراء[1] ، بالمد: ثنية، وهو محل معروف بالخوف تغزوه العرب
من اليمن وبلاد غطفان ونجد والسواد، فلذلك لاينبغي لكل ذي عقْل سليم الكرى والغفلة في

(١) كراء بالمد: جبل عظيم بين الطائف ومكة .

دار الدنيا مع مافيها من مخاوف النفس والشيطان والهوى؛ فيستعين على تلك الأعداء والمخاوف بالتوكل على الله والالتجاء إليه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه لينصره على أعدائه، فإن الله تعالى يقول: ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ [محمد:٧] إذ ربما أصبح الرجل منقطعا فلا يمسي إلا وهو واصل [١] ، وربما أصبح مطيعاً فلا يأتي عليه المساء إلا وهو في ظلمات المخالفات .

حكي أنه كان في بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي ، وكان شيخاً لكل[٢] من في العراق، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات . فخرج في بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما : قال الشبلي: فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار، فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية وإذا نحن بكنائس وفيها شماميس[٣] ، وقساوسة ورهبان وهم يعبدون الأصنام والصلبان ؛ فتعجبنا من قلة عقولهم، ثم انصرفنا إلى بيت[٤] في آخر القرية فإذا نحن بجوارٍ يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن منها ولاأجمل وفي عنقها قلائد الذهب، فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه بنت من؟ فقيل له : ياسيدي بنت ملك هذه القرية، قال: فلم لايدللها[٥] أبوها يدعها تستقي الماء؟ قلن: ياسيدي أبوها يفعل ذلك بها لئلا تعجب بنفسها فإذا زوجها برجل من قومه أكرمته وخدمته، فجلس الشيخ ونكس راسه ، ثم أقام ثلاثة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم يكلم أحداً غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه لايدرون مايصنعون .

قال الشبلي: فتقدمت وقلت: ياسيدي إن أصحابك يعجبون من سكوتك ثلاثة ايام لم تكلم أحداً؛ قال: فأقبل علينا بوجهه[٦] وقال: يا قوم اعلموا أن الجارية التي رأيتها بالأمس شغفت بها حبّاً فلا أقدر على فراق هذه الأرض، قال الشبلي: فتقدمت وقلت: يا سيدي أنت شيخ العراق ومعروف بالزهد والورع ومريدوك اثنا عشر ألفاً فلا تفضحنا وإياهم بحرمة كتاب

(١) في (ب) إذ ربما أمسى الرجل وأصلا فلا يمسي إلا وهو منقطع .

(٢) في (ب) لمن بالعراق .

(٣) الشماميس: جمع شماس: رتبة لرجال الدين النصارى .

(٤) في (ب) إلى آخر القرية.

(٥) في (ب) ويكرمها .

(٦) بوجهه زائدة في (أ) .

الله. فقال: يا قوم جرى القلم بما هو[1] كائن ووقعت في بحار العدم، وقد انخلعتْ عني عقد الولاية، وطويت أعلام الهداية، ثم بكى بكاء شديداً، وقال: يا قوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر؛ فتعجبنا من أمره ، وسألنا الله أن يُنجيّنا من مكره ، ثم بكينا بكاءً أروينا التراب منه .

ثم انصرفنا عنه جميعاً إلى بغداد ، فخرج الناس إلى لقائه ، وخرج مريدوه من جملة الناس فلم يروه ؛ فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً ، وجعل الناس يتضرعون ويسألون الله أن يرد عليهم الشيخ، وأغلقت الرباطات والزوايا والحوانيت ولحق الناس حزن عظيم .

فأُقمنا سنة كاملة، ثم خرجت مع اصحابي لنكشف خبره، فأتينا القرية ، فسألنا عن الشيخ فقيل: إنه في البرية يرعى الخنازير ! قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها، فأبى أن يزوجها إلا من هو على دينه يلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ؛ ففعل ذلك كله فهو في هذه البرية يرعى الخنازير! قال: فانصدعت قلوبنا، وانهملت بالدموع عيوننا، وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير[2] ، فلما رآنا نكس رأسه فإذا عليه قلنسوة النصارى وفي وسطه زنارهم وهو متوكىء على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام على المحراب، فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا: ياشيخ ماهذا وماذاك وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟! قال:ياإخواني وأحبائي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف فيّ كيف شاء وحيث شاء وحيث أراد بعدي عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبائه؛ فالحذر الحذر ياأهل وداده من صده وإبعاده ، والحذر الحذر ياأهل المودة والصفا من القطيعة والجفا. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي لم يكن ظني بك هذا، ثم جعل يستغيث ويبكي وينادي: يا شبلي اتعظ بغيرك؛ فنادى الشبلي بأعلى صوته: بك المستعان، وأنت المستغاث، وعليك المتوكل، اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك، فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين ايديهم، وزعقوا زعقات عظيمة دوت منها الجبال .

قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديداً قال الشبلي

---

(١) في (ب) جرى القلم بما حكم .

(٢) قدام الخنازير: ليست في النسخة (ب) .

فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك وقد استُرعيتُ الخنازير بعدما كنت أرعى القلوب؟! قلنا: ياشيخ كنت تحفظ القرآن بالسبع فهل بقي معك منه شيء؟ قال: نسيته كله إلا آيتين، قلت: وماهما؟ قال: قوله تعالى: ﴿ **ومن يُهنِ الله فما له من مكرم** ﴾ الآية [الحج:١٨] والثانية قوله: ﴿ **ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل** ﴾ [البقرة:١٠٨] قلت: يا شيخ كنت تحفظ عن رسول الله ﷺ : ثلاثين ألف حديث فهل بقي معك منها شيء قال: حديث واحد ، وهو قوله ﷺ : ((من بَدلَ دينه فاقتلوه))[1] قال الشبلي : فتركناه وانصرفنا عنه ونحن متعجبون من أمره .

فسرنا ثلاثة أيام فإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر ثم طلع وهو يتشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا وقال: يا قوم أعطوني ثوباً طاهراً ، فأعطيناه إياه، ثم صلى وجلس، فقُلنا : ياشيخ الحمد لله الذي ردك إلينا وجمع شملنا بك، ثم قلنا له: صف لنا ماجرى بك؛ قال: لما وليتم من عندي سألتُ الله فقلت: يا مولاي أنا المذنب الجاني فاعف عني بجودك وغطني بفضلك وإحسانك، فقلنا له: بالله هل كان لمحو محبتك من سبب؟ قال: نعم؛ لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حولها قلت في نفسي: ما قدر هؤلاء عند الله أنا مؤمن موحد وهم مشركون؟! فنوديت في سري: ليس هذا منك ولو شئنا عرفناك، ثم أحسست بطائر خرج من صدري فكان ذلك الطائر الإيمان، قال الشبلي : ففرحنا به فرحاً شديداً، وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوراً، فتحت فيه الرباطات والزوايا والحوانيت، وركب الخليفة للقاء الشيخ، وارسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه اربعون الفاً ، وقام على ذلك زماناً طويلا، ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك .

فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح إذا بطارق يطرق باب الزاوية، فنظرت من الباب فإذا شخص ملتحف بكساء أسود فقلت: ماتريد؟ فقال: قُل لشيخك إن الجارية الرومية التي تركت بالقرية قد جاءت لخدمتكم ، قال: فدخلت وعرّفت الشيخ، قال: فاصفر لونه وارتعد، ثم أمر بإدخالها ، فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً؛ فقال لها الشيخ:

---

(١) حديث « من بدل دينه فاقتلوه إلخ » حديث صحيح أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الجهاد، كما أخرجه الأربعة، وأورده السيوطي تحت رقم ٨٥٥٩ قال شارحه المناوي: قال ابن حجر: استدركه الحاكم فوهم (٦/٩٥) .

كيف جئت؟ ومن أوصلك إلى هنا؟ قالت: ياسيدي لما وليت من قريتنا كان من أخبرني بك
فبت ولم يأتني قرار، فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول لي: إن أحببت أن تكوني من المؤمنات
فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعي ذلك الشيخ وادخلي في دينه؛ فقلت: ومادينه؟
قال: دين الإسلام، قلت: وماهو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ
فقلت: كيف لي بالوصول إليه ؟ قال: أغمضي عينيك وأعطني يدك، ومَشى قليلا ثم قال
افتحي عينيك ففتحتها فإذا أنا بشاطىء دجلة، قال: امضي إلى تلك الزاوية وأقرئي الشيخ مني
السلام ثم قولي له: إن أخاك الخضر يسلم عليك. قال: فادخلها الشيخ على جواريه وقال
تعبدي هاهنا. فكانت أعبد أهل زمانها؛ تصوم النهار، وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير
رسمها؛ فمرضت مرض الموت، واشرفت على الفوات، ومع ذلك لم يرها الشيخ، فقالت: قولوا
للشيخ يدخل علي قبل الموت، فلما سمع ذلك الشيخ دخل عليها، فلما رأته بكت فقال
لاتبكي فإن اجتماعنا غداً يوم القيامة في دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله، فلم يلبث الشيخ
بعدها إلا أياما قلائل حتى مات رحمه الله .

قال الشبلي : فرأيته في المنام وقد تزوج سبعين حوراء، وأول ماتزوج بالجارية، وهما من الذين
أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

قال الناظم رحمه الله :

٤٥ ــ يَرَى وَهُوَ أَحْنَى مِلْءَ أَحْنَائِهِ ضَحَىً ... وَلاَ يَشْتَكِي إِنْ عِيقَ عَنْـهُ ضَحَـاءُ

الأحنى، بالفتح والقصر: المنحني الظهر من شدة الجد والتشمير وعدم الونى والفتور
والأحناء : جمع حِنْو وهو كل ضلع معوج. والضحى، بالقصر والفتح: مصدر ضحِي، بكسر الحاء
أي عرق . والضحاء ، بالمد والفتح: الغداء . وملء الشيء: المقدار الذي يملؤه .

والمعنى : يبصر موالي ضحى وهو منحني الظهر من شدة الجد والتشمير المقدار الذي يملأ
أضلاعه كافياً له من الغذاء ولايتعداه لطلب ماسواه مكاثراً مفاخراً ولو لم ينله إلا بعد عرق وكد
بل ولو منع منه ذلك المقدار الذي يملأ احناءه فلا يظهر لأجل ذلك شكوى إلى مخلوق وإن منع منه
ما لابد منه من ضرورياته كغذائه مثلا[1] فأحرى ما لم تدعه إليه ضرورة. فجملة (وهو أحنى)

(١) في النسخة (ب) بعد قوله: (مثلا) هذا البيت:

إن الكريم إذا نالته مخمصة ... أبدى إلى الناس ريا وهو ظمآن

وبعده : **يطوي الضلوع على مثل الغضا حرقا ... والوجه غمر بماء البشر ريان**

فاحرى ما لم تدعه ضرورة إليه .

موضع نصب على الحال من مرفوع يرى، وأما ملء أحنائه ضحى فيصح نصبها حالا منه أو من فاعل أحنى . والبيت فيه من البديع التضمين وهو متضمن معنى قوله تعالى : ﴿ **وأنك لاتظمأ فيها ولاتضحى** ﴾ [طه:١١٩] أي في الجنة. وفيه الحث على الاكتفاء باليسير لأنه مقتبس من قوله ﷺ : ((خيركم رجل خفيف الحاذ قل تراثه وقلت بواكيه وقل حسابه))[1] .

قال علي كرم الله وجهه : رجال هذه الأمة أربعة ، وخيرهم رجل ارتحل من جنة إلى جنة، ويليه رجل ارتحل من نار إلى جنة، وخير الرحلين الأخيرين رجل ارتحل من جنة إلى نار، وشر منه رجل ارتحل من نار إلى نار .

وهو الذي قال فيه ﷺ : ((اشقى الأشقياء رجل جمع الله عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة))[2] .

وهو يشير ايضاً إلى التعفف عن المسالة بما يناله من عرق جبينه وكد يمينه لأنه من أحل الحلال وهو مراد الشارع .

يروى أن الله تعالى لما أهبط آدم من الجنة قال له : اهبط إلى دار الدنيا فإنك لاتنال العيش فيها إلا كداً ، فصابر جنود الهوى والشيطان بالجد والاجتهاد وكأنك بالعيش الماضي وقد رجع إلى أحسن من المعتاد ، فقال : أي رب ، وكيف أجاهده وأكابده وقد شغلتني بالكد في طلب المعاش وقد سلطته عليَّ وأفرغته لي ؟ قال : إني سأعينك عليه فإني أغفر لك ولبنيك

---

(١) ((خيركم رجل خفيف الحاذ إلخ..)) ضعيف روي بطرق كثيرة حكم على بعضها الصغاني بالوضع، ورواه الحاكم في مستدركه بلفظ « إن أغبط الناس عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة الله واطاعه في السر غامضا في الناس لايشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك، ثم نفض رسول الله ﷺ بإصبعه وقال: عجلت منيته وقلت بواكيه وقل تراثه » اهـ .

وقال: هذا إسناد للشاميين صحيح عندهم ولم يخرجاه، وعقب عليه الذهبي قائلاً : لا بل إلى الضعف هو، والله أعلم (١٢٣/٤) مستدرك وسبق تخريج الحديث.

(٢) حديث « اشقى الأشقياء إلخ.. » موضوع أخرجه الحاكم والطبراني والقضاعي، كما أورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ١٣٩ وصاحب الكشف تحت رقم ٣٧٥ واورده السيوطي في جامعه، وقال المناوي شارحه: من العجب العجاب أنه رمز لصحته، وأورده الهيثمي وقال: رواه الطبراني في الأوسط باسنادين في أحدهما خالد بن يزيد وقد وثقه أبو زرعة وضعفه الجمهور، وفي الأخرى أحمد بن طاهر وهو كذاب (٢٦٧/١٠) .

قلت: ومن الغريب أن الحاكم قال فيه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٣٢٢/٤)، والله أعلم .

مااقترفتم مالم تغرغروا ، إني جعلت الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها وأعفو عن الكثير ، وإني رفعت القلم عن الصبي حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ ، وإني عفوت عنك وعن ذريتك الخطأ والنسيان ومااستكرهتم عليه وماحدثتكم به أنفسكم ، وإني جعلت مهلكاتك ثلاثاً وكلٌ قد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق عينيك ولسانك وفرجك ، وإني جعلت الهم بالحسنة حسنة وغفرت الهم بالسيئة ، وإني جعلت صاحب اليمين مقدماً على صاحب الشمال فلا يدعه يكتب السيئة إلا بعد تسع ساعات ليبصر مبصر وليستغفر مستغفر ولايهلك علي إلا هالك[1] .

ويروى أن داود عليه السلام لما آتاه الله الملك والنبوة جعل يخفي نفسه ثم يطوف في رعيته ليسأل الناس عن سيرته حتى لقيه ذات ليلة جبريل عليه السلام يظنه إنساناً قال له : مابلغك عن هذا الرجل الذي يقال له داود في سيرته وعدله ؟ فقال له : لم يبلغني عنه إلا خير إلا أن فيه عيباً واحداً ، قال له : وما هو ؟ قال : إنه يعيش من بيوت الأموال ولايعيش من كد يمينه ، فسقط داود عليه السلام على وجهه ، وجعل يمرغ وجهه في التراب ، ويسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل له حرفة يتكسب منها ويعيش فيها ، فألان الله له الحديد فلا يأخذ حديداً إلا لان في يده فصار كالزبد ، وهو أول من صنع الدروع . وكان عليه السلام يصوم يوماً ويفطر يوماً على بلغة من قيمة الدروع .

وكان ﷺ يقول : ((خيركم المحترف)). وكان ﷺ تاجراً قبل النبوة ، فلما أرسل وأمر بالجهاد جعل الله رزقه تحت ظل سيفه ، فأحل له الغنائم ، وخصه بالخمس طعمة ، وأحل له الهدايا ، وحرم عليه الصدقة والمن ليستكثر ، ومع ذلك كان لايبيت على موجود ، ويؤثر على نفسه حتى لبس الحصير ، وحتى لايجد مايقع منه موقعاً ؛ فعاتبه ربه في ذلك فقال : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ [الإسراء : ٢٩]. ولقد فتحت على أصحابه ﷺ كنوز كسرى وقيصر وأجبيت إليهم الأموال من الأقاليم فما غيرتهم وما أخذت منهم حتى لحقوا بصاحبهم على الحالة التي فارقوه عليها .

يروى أن عمر رضي الله عنه لما ذهب إلى الشام ذهب إليه على حمار وعليه مرقعة ومعه

---

(١) هذا الكلام مؤلف من عدة احاديث بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها صحيح المعنى والله أعلم .

عبدان له يتناوبانه ، فما قدم الشـام تلقته أمراء الأجناد ، فأول من لقيه منهم أبو الأعور[1] السلمي وعمرو بن العاص السهمي على زي أهل الشام وعليهم ثياب بيض ، فجعل عمر رضي الله عنـه يحثو التراب في وجهيهما ويقول لهمـا : ماأسرع ماأخَذتْ منكم الدنيا وأخذتم منها وغَيرتكم ! ماعلى هذا فارقتم محمداً وأصحابه . ثم لقي أبا عبيدة رضي الله عنه وعليه مرقعة ، وبيده رمح ملعب ، وتحته سرج خلق؛ فعانقه والتزمه وجعلا يبكيان ، فقال له عمر : أنت أخي والله، مانلت من الدنيا ولانالت منك، ولاأراك إلا ملاقياً صاحبك على الهيئة التي تركك عليها. ثم لقيه معاوية في موكب عظيم وقد أتاه بفرس من فره خيل الشام فقال له: اركب عليه فقال: إن في حماري الكفاية عما أرى ، فقال : اركب عليه فإن بالشام جواسيس الروم وبقايا من أجنادهم ، وركوبك على الفرس أهيب لك في صدورهم ، فقال : هيهات ! إنكم ترون الأمر من هاهنا ، وأشـار إلى الأرض ، وأنا أراه من هاهنا ، وأشـار إلى السماء ، فإن الله إنما أعزنا بالإسـلام ؛ فلا تزالون أعزة ماتمسكتم بهذا الدين ، فإذا ضيعتموه وتنافسـتم الدنيا سلط الله عليكم عدوكم ، فأذلكم بعد الغزة ، ومزقكم بعد الجماعة . فلما علا عمر رضي الله عنه على جبل القدس لقيه أسقف إيلياء وهو على حالته وقد أخذ من مخلاته فتات خبز شعير يابس يأكله من غير إدام ، فرجع إلى أهل إيلياء وقال : ويلكم أعطوه ماسأل ، فإني لقيت رجلاً لو حاول إزالة جبل لأزالة ، وإنه لعلى زي نبي لازي ملك ، لا كبرياء معه ولاتجبر ولاحرس ولاشرط ، وإنه لصاحبكم الذي تجدونه في كتبكم، ففتحوا له إيلياء ، وأعطوه ماسأل . ودخل المسجد الأقصى، فلمـا دخله أمر بلالاً[2] أن يؤذن ، فأذن ، فلما سمع أصحاب رسول الله

---

(١) أبو الأعور السلمي : هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمي ، كان من أصحاب معاوية بالشام، وغزا بأمر منه قبرس، وليست له صحبة على الصحيح ، روى عن النبي ﷺ مرسلاً (٥٣٣/ الإصابة)، والله أعلم .

(٢) بلال : هو بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ ، يكنى أبا عبد الله ، مولى أبي بكر الصديق ، اشتراه بخمس أواق ثم أعتقه ، وكان خازن رسول الله ﷺ مع الأذان . شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد ، وهو سابع شخص دخل الإسلام، وأسلم علناً ، وعذب لذلك عذاباً شديداً ، كان صادق الإسلام طاهر القلب ، أصله مولى لبني جمح ، ومولده في مكة أو في السراة ، واسم ابيه رباح ، واسم أمه حمامة ، توفي رضي الله عنه عام ٢٠ بدمشق ، أذّن حياة النبي ﷺ وحياة أبي بكر ، ثم ترك المدينة وسافر إلى الجهاد في سبيل الله ، ولم يؤذّن خلافة عمر إلا مرة واحدة ، والله أعلم .

ﷺ أذان بلال تذكروا رسول الله ﷺ ؛ فارتج المسجد بالبكاء ، فسأل النصارى عن ذلك ، فقيل لهم : إنه لما أذن مؤذن رسولهم ذكروه فبكوا لفقده ، فقالت النصارى : أما هؤلاء فلا يناوئهم أحد إلا ظهروا عليه ماداموا على هذه الحالة من الرقة والوفاء والعدل واليقين ، لكنهم سيغيرون ويتغيرون كما فعلت الأمم قبلهم ، ولن ينصروا بعد ذلك إلا بالعدد ، ولم يكونوا أكثر الأمم ، ثبتنا الله على دينه ولاجعلنا ممن يغير فيغير عليه .

قال الناظم رضي الله عنه :

٤٦ ـ كَفاهُ الْمَشاهَمَّ الْمَشاءِ فلا شَرىً لَدَيْـــهِ لأقْــوَاءٍ[١] حَـــوَاهُ شَـــرَاءَ

المشى ، بالقصر والفتح : نبت معروف يقال له الفصة ، والفصيص تأكله العرب عند المخمصة وربما أكلته تفكها . والمشاء ، بالمد والفتح : كثرة النسل ، ومنه سميت الماشية ماشية . والشرى : شدة الغضب ، يقال : أشر الرجال ، بالكسر : إذا استشاط غضباً ، وربما سمي به كل شيء بلغ فيه الغاية مما لاينبغي قال الله تعالى : ﴿ **كذاب أشر** ﴾ [القمر : ٢٥] ، ويطلق الأشر فيراد به النهامة ، يقال : أشر أكول . والشراء ، بالمد والفتح ، موضع معروف تعتزل فيه المتصوفة .

والمعنى : كفى من ذكر وهو موالي ضحى إذ الضمير عائد عليه أي أغناه مافيه كفافه وماتقوم به بنيته من الحلال كالمشي مثلاً وما في معناه من نبات الأرض الذي لايفتقر في تحصيله إلى كبير مؤونة ولايخشى معه تبعة لمخلوق . همّ : مفعول كفى ، والمشى : فاعله . والمشاء ، بالمد : مضاف إليه ، أي كفاه هم غيره ككثرة النسل أي الاهتمام به ، وهو ميل النفس إلى تحصيله ، أو الهم الكائن لأجله بعد حصوله الذي يوجبه فقدان مايحتاج إليه من مأكله ومشربه وملبسه ، ومنشأ الكفاية أن الاقتصار على مافيه الكفاف من الحلال ينور البصيرة ، فتطيب السريرة ، فتصرف النفس عن الدنيا الحقيرة ، وتطمح إلى المراتب الخطيرة ، فتعد من أجل ذلك كل كبيرة صغيرة ، ومن كان كذلك فلا غضب لديه لأجل مافاته من دنياه ، إذ لايغضب كبير خطير لفوات صغير حقير لأنه صار لسيده الكبير الذي هو أكبر كل شيء عبداً فلا يرى مادونه كبيراً . ((قوله : لأقواء : جمع قوى ، وهو المكان القفر[٢])). وقوله :

---

(١) في النسخة (١) : لأفوات بدل (لأقواء) ، والأول عليه الشرح .

(٢) مابين القوسين زيادة من نسخة (ب)

واه : أي ضمةّ مكان قفر ينفرد فيه بربه حرصا على صفاء قلبه وجلاء مرآة لبه . وقوله : فوات ، جمع فائت ، وهذا كله منه حث على العزلة والخلوة بالله عز وجل والتبرؤ من الخلق فرار إلى الخالق . قال الرسول ﷺ : ((الخمول نعمة وكل الناس يأباه ، والظهور نقمة وكل اس يتمناه[1])) .

وقال بعضهم : تخلق بالخمول تعش سليماً وجالس كل ذي خلق كريم .

وقال غيره : كم وحدة أنفع من جليس ، ووحشة أنفع من أنيس .

وكان أبو معاوية الضرير يقول : فيّ خصلتان مايسرني بهما رد بصري : قلة الإعجاب سي ، وخلو قلبي من حب اجتماع الناس إليّ .

وقال عمر رضي الله عنه : خذوا حظكم من العزلة .

وصعد حسان على أطم[2] من آطام المدينة فنادى : واصباحاه ؛ فاجتمعت إليه الخزرج الوا : ماعندك ؟ فقال : قُلت بيت شعر أحببت أن تسمعوه ، قالوا : هات قال : (من بحر لطويل)

وإن امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ماجنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبي وقاص منزله بالعقيق قيل له : تركت منازل إخوانك وأسواق الناس لت العقيق ؟! فقال : رأيتُ أسواقهم لاغية ، ومجالسهم لاهية ؛ فوجدت الاعتزال فيما بينهما فية .

وقيل لعروة أخي مرداس : لم لا تحدثنا ببعض ماعندك من العلم ؟ فقال : أكره أن يميل ي باجتماعكم إلى حب الرئاسة فأخسر الدارين .

وقال سفيان بن عيينه : دخلنا على الفضيل نعوده فقال : ماجاء بكم ؟ والله لو لم ئوني لكان أحب إلي ، ثم قال : نعم الشيء المرض لولا العيادة .

---

(١) «الخمول نعمة وكل الناس يأباه إلخ ..» ليس بحديث وإنما هو من كلام بعض السلف أورده صاحب كشف تحت رقم ١٢٢٦ والسخاوي في المقاصد تحت رقم ٤٤٦ وقالا : ليس من كلام النبي ﷺ ، إلا أن احب الكشف قال : ثبت معناه عند مسلم مرفوعاً : «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي» .

إلى أن قال : قال ابن الغرس : وقد رأيت في بعض التعاليق زيادة : (والشهرة نقمة وكل يتوخاها) أ هـ ، ل : وقد جاء في السنة وفي كلام السلف مايدل لهذه الزيادة والله أعلم (١/٤٦٠) .

(٢) الأطم : الحصن .

وقيل للفضيل : إن ابنك يقول : وددت أني بالمكان الذي أرى الناس فيه ولا يرونني فقال : ويح علي لم لاأتمها فقال : لا أراهم ولايرونني ؟

وقال عليه الصلاة والسلام : ((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن لز بيته ، وأكل قُوته ، واشتغل بطاعة ربه ، وبكى على خطيئته ، وكان من نفسه في شغل والناس منه في راحة[1])) .

وقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا الزهد في النَّاس .

وقيل لراهب في صومعته : ألا تنزل ؟ فقال : من مشى على الأرض عثر . ثبت الله أقدامنا على طاعته ولاجعل لنا سبيلاً إلى معصيته ، آمين .

قال الناظم رحمه الله :

٤٧ ـ وتَـأْلَفُـهُ الْخَيْطَا وَخَيْطَـاءُ إلْفُـهُ وَلَوْلاَ الْمَـنَـى لَمْ يَـرْضَ مِنْـهُ مَنـا

وتألفه : أي تسكن إليه وتستأنس به ، والضمير راجع على المنفرد بالشراء للخلوة بربه . والخيطا : لغة في الخيطة وهو القطيع من النعام . والخيطاء، بالمد والفتح: النعامة الطويلة العنق والقائمتين ، وقيل: التي يخالط سوادها بياض .

والمنى ، بالفتح والقصر : لغة شاذة في القدر ولذلك اشتق للمنية اسم منه فيقال : المنية يأتي بها المنى . قال الشاعر : (من بحر الرجز)

إن الْمَـنَـى تـأبَى الْمُـنَـى فـاخـتر رِضىً وسـلم

والمناء ، بالفتح والمد : محل النهوض أو النهوض نفسه ، والنوء والمناء : النهوض عن ثقل وتؤدة حتى لايكاد يفعل ، قال الله تعالى في صفة أموال قارون : ﴿ **ماإنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة** ﴾ [القصص : ٧٦] .

---

(١) «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» ، هذا القدر من الحديث رواه الديلمي وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٧٣ ، قال : في التمييز : أخرجه البزار بإسناد حسن (١/٦٠)، وأورده كذلك السخاوي في المقاصد تحت رقم ٦٦٣ وقال: رواه الديلمي عن أنس ، وأورد السيوطي الجزء الأول منه في جامعه تحت رقم ٥٣٠٦ والجزء الثاني تحت رقم ٥٣٠٨ .

قال المناوي شارحه : وقال العراقي بعد ذكر طرقه : وكلها ضعيفة (٢٨١/٤) أما الجزء الثاني من الحديث الذي هو « طوبى لمن ملك لسانه إلخ » فقد قال فيه الهيثمي : حسن ، ورمز له السيوطي بالحسن تبعاً لذلك ، والله أعلم .

والمعنى : وتألف من ذكر في شراء أي تصحبه فيه جماعة من النعام ، وإلفه أي مؤالفة
عامة موصوفة بطول العنق والرجلين أو باختلاط البياض والسواد فيها ، أي من شدة فراره عن
اس وطول ملازمته للفلوات ألفته وجاورته وأنست به ، ولولا القدر لم يرض أحد نهوضاً في
ال كونه منه ، بمعنى أن كل من تجرد لربه بقلبه وجسمه فهو ملحوظ بعين السخط والاحتقار
د العامة لنبو العين عنه وازدراء النفوس له فلا يعبأ به لقلته[1] وذلته ، ولعله ممن لو أقسم على
ه لأبَرَّه ، وإنما يرضى نهوضه مع مايجد من الاحتقار والأمور الشاقة على النفس باعتبار أن الله
دره على ذلك وتعلقت بتخصيصه إرادته القديمة لا بالنظر لصدوره منه .

وليس بعجب لزوم الوحوش للصالحين المتجردين ، ولقد كثر ذلك حتى صار أمراً
روريا ، كما روى صاحب الرياض أن أبا مدين رضي الله عنه قال : أول مافتح به عليَّ في
لوتي أني كنت كلما أتيت متعبدي وموضع خلوتي انحدرت إليَّ من الجبل غزالة ، فتلحسني
ن قدمي إلى مفرق رأسي ، ثم تبرك بإزائي ، وتجعل تجتر وتنظر إليَّ ، حتى ذهبت يوماً إلى بعض
رى ، ففتح علي بخمسين ديناراً ، فصررتها في مرقعتي ، وأتيت بها متعبدي ، فما هو إلا أن
ع بصرها علي ، أقبلت إلي تعدو ، فجعلت تنطحني حتى كادت تمزق علي مرقعتي ، فعلمت
ه لم يصبني ماأصابني إلا من تلك الخمسين ؛ فألقيتها في الماء ، فلما ألقيتها رجعت إلى عادتها
ي وجعلت تلحسني .

ويروى أن قس[2] بن ساعدة كان يَرِد الغدران والمياه ، فإذا طرد القوي من الوحش
ضعيف أخذ بقرونه وقال : والله لاتشرب حتى يشرب الضعيف ، وكان يذودها كما يذود
جل غنمه .

ويروى أن رجلاً ضلت له إبل ، فطلبها شهراً ، ولم يترك أرضاً من بلاد الله إلا طلبها فيها
وادي بيشة فإنه تحاماه لكثرة سباعه وقطاعه ، فلما أشفى على الوادي إذا هو بإبله ترعى ،
ذا هو بولي من أولياء الله في غيضة[3] من تلك الغياض ، فتلطف حتى دنا منه ، فلما دنا منه

---

(١) القلة : الحقارة .

(٢) قس بن ساعدة بن جذامة الإيادي تقدم في ص (٣٢)
أما قضيته مع الوحوش التي أورد الشيخ فقد ذكرها ابن شاهين عن رجل من قوم قس عن قس ، وأوردها
ابن حجر في الإصابة وسكت عليها ، إلا أنه قال : السباع بدل الوحوش (٣/٢٦٥) والله أعلم .

(٣) الغيضة : مجتمع الشجر في مغيض الماء (الأجمة) .

إذا بأسد يحمل غزالاً على رقبته حتى وضعه بين يديه فقال له : هذا فطورك أتيتك به ، وإذ
بأسد آخر قد أقبل وليس معه شيء فقال له : ياولي الله طردت هذا الغزال حتى أتعبني طرده
فلما أخذتُه لأذهب به إليك جاء هذا الأسد فغلبني عليه وذهب به إليك ، فجعل يأخذ بأذن
الأسد ويصفعه ويوبخه وهو يبصبص بذنبه ، ثم قال : اذهبا بغزالكما فلا حاجة لي به ، فبين
هو كذلك إذا بطائرين كل منهما يقول : أفطر بي ياولي الله ، فقال لهما : نعم ، أحدكما لي
والثاني لضيفي صاحب الإبل الذي يظن أني لم أعلم به ، فأتاه وجعل يقبل يديه ورجليه ، ثم
أقبل عليه وقال له : إن إبلك عندي منذ شهر ، خلصتها من السباع والطوارق ، فذبح الطائران
من غير ذابح ، ونتفا من غير ناتف ، ونضجا من غير منضج ، فناوله أحدهما ثم قال له : إياك
أن تكسر له عظماً ، فلما فرغنا من الأكل جمع عظامها وجعل عليها كمه ثم قال : ارجعا إلى
هيئتكما بإذن الله ، فما استتم كلامه حتى طارا بإذن الله ، فجعلت ألتزمه وأبكي وأطلب منه
الدعاء ، فالتفت وهو يبكي ويقول : اسأل الله أنت لي فإني لاأدري أينا الفائز أنا أم أنت ؟
فإنك مؤمن لم يعجل لك من حسناتك شيء وأنا قد عجل لي ماترى ، فإن الكرامات بلايا في
أشخاص ، عطايا ، فالمغتر بها هالك ، والمعتمد عليها منقطع ، والمنكمش عنها على خطر
عظيم . ثم أخذ في البكاء والنحيب ، فاستقت إبلي وتركته يبكي[1] .

ويروى أن أخوين من أهل تونس كانا وليين لله تعالى ، أحدهما متجرد ، والآخر
متكسب ، وكان المتجرد كثيراً مايطعن في المكتسب ، وقد بلغ من تجرده أنه كان يركب أسداً
ويلجمه بأسود سالخ[2] وكان لكل منهما مريدون ، فأرسل المتجرد رجلاً من تلاميذه فقال له :
اذهب إلى أخي المفتون عن الله فسلم عليه مني وقل له : إلى متى هذا الشغل عن الله ؟ فذهب
المريد ، وجعل لايمر على بستان من بساتين قرية المتكسب إلا قيل له : هذا لفلان المتوجه إليه
حتى دخل القرية فإذا الأموال تجبى إليه من كل ناحية ، فرأى من ذلك أمراً عظيماً ، فبينما هو
كذلك إذ أقبل الشيخ في غاشيته[3] قد لبس الوشي ومريدوه حافدون[4] في خدمته ، فلما رأى
ذلك اشمأزت نفسه حتى همَّ بأن لايراه ولايبلغ له رسالة أخيه المتجرد ، ثم قال : لأؤدين رسالة

(١) ماأشبه هذه الحكاية بحكايات الخرافات!!

(٢) الأسود : الثعبان ، السالخ صفة له ، ومعناه الحية التي تنسلخ من جلدها كل سنة .

(٣) الغاشية : الخدم . والزوار .

(٤) حافدون : مسرعون .

لشيخ إليه ولا أبالي بحال هذا الهالك ، فبلغه الرسالة والسلام ، فلما قال له المريد ماقال تبسم لشيخ المتسبب ثم قال له في تؤدة : سلم على أخي المتجرد بزعمه وقل له : أخوك يسلم عليك يقـول لك : إلى متى وأنت في سـكـر حب الدنيـا ؟! ولو أتيتني لرأيت ما لم يكن لك في حساب .

فانصرف المريد غير مكترث برسالة الشيخ لسخطه عليه ، فلما قدم على الشيخ أقبل عليه يسأله عن أمر أخيه وماقال له ، فقال المريد لشيخه : إنك ماأرسلتني إلى أحد! فقال له : مع ذلك فأخبرني بما قال ، قال : إنه يقول : سلم على أخي المتجرد بزعمه وقل له : أخوك سلم عليك ويقول لك : إلى متى وأنت في سكر حب الدنيا ؟ ولو أتيتني لرأيت ما لم يكن لك ي حسبان ، فلما سمع مقالة أخيه خرّ مغشياً عليه ، فقال : لقد صدقني أخي والله ونصحني ، لو كنت مكانه لافتتنت . ثم تأهب وسار إليه في تلاميذه ، فلما قدم إليه بنى له فسطاطاً[1] بسط له ماينبغي ، وقد أمر زوجاته بتزين الجواري ، وقد قيد أسده بأسوده ، وقال في نفسه : والله إنهن لجميلات لولا أن فيهن مشغلاً عن الله ، فأقبل على أسده لما أراد الذهاب على عادته ، هرّ له الأسد وفغر الأسود فاه وهما به ، فلما بلغ الشيخ المتسبب ذلك أقبل إليه وأخذ بأذن لأسد يقوده ذليلاً ، ثم حل الأسود من رجليه خاضعاً فقال لهما : على زلة من أخي تسيئان معـه الأدب ؟! أقبـل ياأخي واركب على كلبك واذهب إلى الصحراء فإنما كان يسـترك أصحابك الفرار والحيل ، فها أنت قد فتنت بجوار يحملن الطعام ! فما ظنك ولو وقع بصرك على سيداتهن وقد لبسن الحلي والحلل وتضمخن بالطيب كأنهن البدور المسفرات ، وقد رفعت لرجال عنهن الهمم ، وهن في قبضة الملك ، وعلى بساط الإباحة ، شغلاً بالله ، وماينظرون ليهن إلا كما ينظرون إلى الحجارة اكتفاء بالمحسن[2] عن المُحسَّن . وليس الشأن في قتل الحية ، نما الشأن في أخذها وهي حية ، وشتان مابين من منع نفسه بالميدان ونهنه عن ساحته في مارسة الأقران وبين الفار الجبان المرتعش الولهان[3] الذي لايبالي إن سلم بذلٍّ ولاهوان[4] .

---

(١) الفسطاط : خيمة كبيرة من شعر ، ج فساطيط .

(٢) كذا في الأصلين ولعل المعنى اكتفاء بالمحسن باسم الفاعل عن المحسن باسم المفعول والله أعلم .

(٣) الولهان : الخائف .

(٤) وهذه القصة لاتقل غرابة ولابعداً عن السابقة . ولعل هذه القصص كانت تصدق قديماً أما الآن فلم يعد لها مكان .

وحكاياتهم رضي الله عنهم في مثل هذا لاتنحصر . حصر الله رجاءنا عليه . وف
لديه ..

قال الناظم رحمه الله :

٤٨ ــ وَلَيْسَ كَذِي جَرْبَا بِجَرْبَاءَ ماكِثٍ قَرِيبِ الْكَدَا فَالْوَصْلُ مِنْهُ كَدَاءُ

أي وليس المتجرد بشراء على وجه الخلوة بربه حرصاً على صفاء قلبه وجلاء مرآة لبه مثل صاحب إبل ذات جرب ، واحدها جربي بمعنى أجرب ماكث في أرض جرباء ، بالمد : أي مقحوطة . قريب الكدا ، بالقصر : أي الغضب ، فالوصل معه لأجل ذلك كداء ، بالمد : أي مقطوع ، بل هو على خلاف صاحب شراء البعيد الغضب القريب الرضى الواسع الصدر لزهده في الدنيا ورغبته في الاخرة واتساع صدره للصاحب والخليل لمعرفته بالله واعتماده عليه وحسن إخائه فيه ، فحبله لمن وصله موصول ، وفضله مبذول ، وقربه معسول ، كما قال الشاعر :

(من بحر البسيط)

تكاملت فيك أوصاف خُصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة والكف مانحة والنفس واسعة والوجه منبسط

وفي البيت من البديع التلميح إلى قوله تعالى : ﴿ **وأعطى قليلاً وأكدى** ﴾ [النجم : ٣٤] ، وفي أكدى اشتراكات : منها أكدى بمعنى بخل ، وأكدى بمعنى قطع وأمسك ، وأكدى البئر إذا ظهرت فيه كدية دون الماء ، وأكدى الفرس إذا لقيت حافره كدية منعته من تمام اعتماده عليها . لاأكدى الله علينا في الإحسان ، ولاضيق علينا في ميدان المن والامتنان .

قال الناظم رحمه الله :

٤٩ ــ يَقِي ذو الْعَظَا دَاءَ الْعَظَاءِ بِكَرِّذي وَقً مَالَهُ دُونَ الْقَضَاءِ وَقَاءُ

العظا ، بالقصر والظاء المشالة : مصدر عظي البعير ، بالكسر ، إذا اشتكى من أكل العنظوان ، وهو ضرب من الحمض . والعظاء ، بالمد : جمع عظاية ، وهي دويبة تؤلم الإبل وتضنيها ، وأصل ياء العظاية الهمزة ، ووضع الياء محل الهمزة في هذا وماأشبهه من كل مفرد يزيد على جمعه بالتاء جائز . والوقى : مصدر الواقي من الخيل ، وهو المتوقي الأرض لعرج به . والوقاء ، بفتح الواو وكسرها : مايتوق به الشيء .

والمعنى : يقي ذو الإبل الجرباء اللابث في جرباء الجمل الذي اشتكى من أكل العنظوان داء العظاء ، أي يستره منه ويحاول حمايته بجري فرس صاحب عرج يتألم من مس حافره الأرض لأجل ظلع أصابه فيجتهد ولا يجدي ، ويزيد بذلك غمه ، ويتضاعف همه ، ويكثر غضبه ، ولايزول غضبه[1] ، فالمثال لذي نفس شريرة خبيثة دنيئة اكتسبت مالاً من سحت وحرام ، كلما حاولت فلاحاً ونجاحاً ازدادت عطشاً لتعذر أسباب الفلاح لخبثها وخبث مكتسبها . فالإبل الجرباء كناية عن الكسب الخبيث الذي أفرده عن أبناء جنسه ، لأن الخبيث الطبع القليل النفع لايألف ولا يؤلف ؛ فيتجنبه الناس لخبثه ، ويتجنبه الناس لسوء أخلاقه وبخله وإملاقه ، فبقدر مايتوغل في أخلاقه يزيد من الله بعداً ، ويزداد الناس فيه زهداً : فلا خير عنده يعهد ، ولاخصب بأرضه يقصد . والجرباء ، بالمد ، كناية عن أحواله المجدبة ، فمنها ماهو سباخ لاينبت ولو كثرت عليه الهتون ، ومنها ماهو حزن[2] خبيث قليل الخير فينبت مالا نفع فيه كالعشر[3] والخمط[4] والعنظوان والشبرق والزقوم واليرزيز[5] ، وإن نبت معه حشيش نبت قليلاً متفرقاً . قال الله تعالى : ﴿ **والذي خبث لايخرج إلا نكداً** ﴾ [الأعراف : ٥٨] فينبت عشر الرياء والسمعة والبطر والغفلة وعنظوان الإسراف والقتر وشبرق الشح والأشر وزقوم المخالفات ويرزيز المعاندات ، فإن طرقه طارق خيرٍ أو داعي رشد لم يجد في الساحات قابلية وإن قصد إليها طيف وابله جَرْياً حَيَّال[6] ، وله من جنسه عيال، أدلقهم جوع وهزال ، وأقلقهم شح وانتحال، فجمل حزمه منعوظ ، وجواد عزمه موقى منحوظ[7] ، فلا هو للقضاء يدفع ، ولاهو للبلاء يرفع ، ولا له عند الله جاه فيشفع ، ولا له من الله عناية فيضرع ، ولا له في سابق القدر سهم فيخشع ، ولا له آلة النهوض فيفزع ؛ فحزنه طويل ، وجاره ذليل ، وقربه ثقيل ، لايغني فتيلاً ، ولا يريش نزيلاً ، ولايمنع دخيلاً ، عقده محلول ، والمنتصر به مخذول ،

(١) كذا كرر غضبه مرتين ، وهذا في النسختين (أ) و (ب) ولعله غير ذلك .

(٢) حزن : صلب .

(٣) العشر: شجر له أوراق كبيرة لايؤكل وله إفراز يشبه اللبن في الشكل .

(٤) الخمط : المتغير الرائحة ، والمراد هنا الشجر الذي لاشوك له .

(٥) العنظوان والشبرق والأرزيز : نباتات لاخير فيها .

(٦) العبارة غير واضحة في النسختين ولعلها (جرياً سيال) أي كثير السيل .

(٧) منحوظ : نحظ الفرس إذا أطلق صوتاً مكتوماً من الإعياء .

وعرشـه مثلول ،. فَجَرِبُ أخلاقه لايداويه الهنا ، وشؤم أحواله لايزيله العنا ، وعنظ[1] عزم
لايداوى ، وعرج حزمه لايناوى ، وعظاء مصائبه لايرد ، ووباء نوائبه لايسد ، إذ على قد
تقوى الله تأتي المواهب ، كما أنه على قدر الذنوب تأتي المصائب ، وفي ذلك يقول القائل : (مر
بحر الطويل)

على قدر تقوى الله تـأتي المـواهب وتـأتي على قدر الذنوب المصـائب

وفي البيت وماقبله نوعان من البديع : وهما الكناية كما ذكر آنفاً ، والاستطراد لأنه مدح
موالي ضحى بالأبيات الثلاثة ، ثم استطرد يذم الجرباء بثلاثة أبيات .

قال رحمه الله :

٥٠ ـ يَظَـلُّ بِمَثْنَى جِيدِ مَثْنَـاءَ مُغْرَماً وَيَهْـوَى وَرىً مَـا يَنْتَقِيـهِ وَرَاءُ

قوله يظل : من أخوات كان ، مغرماً : خبره ، بمثنى : جار ومجرور متعلق بيظل ، وهو
المنعطف من الجيد والخصر ونحوهما . ومثناء ، بالمد ، فعلاء : وصف لامرأة تشتكي مثناتها من
السمن . والورى : مصدر وري المخ ، بالكسر : إذ كثر . والوراء ، بالمد ، ولد الولد .

والمعنى : يظل صاحب الجرباء لدناءة همته مغرماً أي مولعاً بعطف جيد امرأة مشتكية
مثناتها ، ويهوى أي يحب اكتناز المخ من السمن لما تعوده من لؤم الطبع وخبث الأخلاق ؛
فقصـاراه في الدنيا ماشية كإبل تعب في تحصيلها ورعايتها ويفني أيامه في معالجة مابها من
الآفات ، وامرأة حسناء تشغله بمحاسنها عن المقصود بالذات والاستعداد لما هو آت مما بعد
الممات ، فهي تسايره في لؤم الأخلاق ، وتباريه في الفسق والنفاق ، وإيقاع يهوى على ورىً
لأجل أنه السبب في هوى صاحبته، فهو في الحقيقة إنما يهوى الورى وما ينتقيه أي يخرج
نقيه[2]، وليس ذلك من هم الرجال العقلاء الأذكياء، وإنما هو مما يولع به صغار البنين كالولد
وولد الولد مثلاً لذمامته؛ فتجد النفوس تعافه وتَذُم فاعله ، يقال : انتقيت العظم : إذا
استخرجت نقيه ، وانتقيت المخ : استخرجته من العظم .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

ولانَنْتَق المخ الذي في الجمـاجم

---

(١) العنظ : الفحش .

(٢) نقيه : مخه .

ثم بالغ أيضاً في ذمه ووصفه بالضلال وعدم الهداية بحال ، فقال رحمه الله :

٥٠ ــ كَأَنَّ بِغَطْشَى مِنْهُ غَطْشَاءَ أُغْشِيَتْ بِعَــوَّى فَــلاَ عَــوَّاءَ ثَــم تَنَــاءُ

يعني كأنه في ضلاله بأرض غطشاء : وهي التي لايُهتَدى فيها بمَنَار ولا يكاد الخريت يجد فيها سبيلاً إلى النجاة لاتساعها وقلة مائها وبعدها عن العمران وخلوها مِن القَاطن ؛ فهي لاتسلك ولاتملك ، وكأنه في جهالته وعدم علمه ناقة غطشاء ، بالمد ، وهي العمشاء التي لاتكاد تبصر نهاراً ، وفي حمقه وقلة ذكائه وعدم استبصاره ناقة عشواء : وهي التي لاتبصر ليلاً ؛ فهو مسرمد الضلال ، دائم الخبال، ظاهر الوبال ، فإذا وقَع عليه ضوء النهار منعه العمش ، وإذا أجنّه الليل حبسه العشا والرمص ، وإذا سار في باديته منعه الغطش[1] وأحاط به العطش ، ومع ذلك فزمنه زمن العوى : وهي منزلة من منازل القمر كثيرة الرياح والغيوم شديدة الحر والسموم ؛ فلا عواء ، بالمد ، تحمله ، وهي الهرمة من النوق التي لاتكاد تنأى ، أي تنهض ، لهرمها وهزالها مع أنها لم توُجد أصلاً ؛ فهذه حالة صاحب الشهوات ، المطرح لما هو آت ، الذي لاهمة له ترفعه ، ولا سابقة عناية له من الله تنفعه ، ولاحب يقوده ، ولاتقوى تذوده ؛ فعلى ذلك يكون البيت مقتبساً من قوله تعالى : ﴿ **أو كظلماتٍ في بحر لُجّيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موج من فوقه سحاب ظلماتٌ بعضُها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدْ يراها** ﴾ الآية [النور : ٤٠] نوّر الله بصائرنا ، وجعل تنويرها من لدنه .

ثم ذمه ايضاً رحمة الله عليه بنوع آخر من الدنَاءة ليس هو من جنس ماقبله ، فقال :

٥١ ــ يُضَاهِي الْغَرى مَنْ لاغَرَاءَ ولاضَرَى لَهُ بــالتُّـقَى لا أُمَّ مِنْــهُ ضَــرَاءُ

قوله : يضاهي الغرى : أي يشابه ويماثل الغرى ، وهو ولد البقرة أول مايولد حتى يشتد لحمه ، فهو لبلهه وعدم فطنته يظن كل مارأى أمه فيطلب منه إرضاعاً وانتفاعاً وربما كان ذلك سبب جتفه بأن يرمحه رامح فيتلفه أو يضربه ضارب فيؤلمه ، فكذلك من لاغراء له ، بالمد مصدر غَرِي بالشيء بالكسر ، أي ولع به لما يبصر فيه من حسن عاقبته لذكاء عقله ونفوذ نور بصيرته ، بخلاف من لاغراء له فإنه يرى كل بيضاء شحمة وكل مدور كعكاً . وقَصر الغراء أشهر من مده كما نقله العيني وغيره . والضرى ، بالقصر : مصدر ضَريَ بالشيء ، بالكسر : إذا اعتاده وَتَدرَّبَ به ، وفي المثل : (قطع الضراوة عداوة) ، وفي الخبر : لذئب ضار أبقَى على

(١) الغطش : الظلمة .

الغنم من عالم السوء على الأمة . وفي رواية : بأفسد للغنم من عالم السوء للأمة . والضراء
بالمد : أرض مستوية ذات شجر وتلال ، وهو مأخوذ من الضرى وهو الدف . وأمَّ : فعل
ماض بمعنى الدعاء مبني لما لم يسم فاعله ، أي لاقصد منه ضراء ، والضراء : المنعة والالتجا
ووجود الرفق ، وضراء : نائب فاعل أم .

والمعنى : يشابه الحيوانات العجم من لا ولوع له بالتُقَى ولاضراوة له عليها ؛ لأن فضيلتَ
عليها إنما هو انتفاعه بعقله فيما يعود عليه نفعه في عاجله وآجله كالولوع بتقوى الله ، فإذا سلب
من ذلك سلب من حال مزيته عليها وساواها في مجرد التناول على مقتضى الشهوة وماتَّدعو إلي
النفس من ارتكاب هواها في تحصيل مناها على أن فيه رداها ، أما بالنظر إلى المآل فهي افضل
منه حيث كانتْ لاتحاسب ولاتعاقب ؛ فالبيت حينئذ مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **إنْ هم إ**
كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الفرقان : ٤٤] لأن الله تَبارك وتَعالى جعل العالم الحساس عل
ثلاثة أقسام : قسم ركب فيه العقل دون الشهوة وهم الملائكة ، وقسم ركب فيه الشهوة دو
العقل وهم البهائم ، وقسم ركب فيه عقل الملائكة وشهوة البهائم وهم الثقلان ، فمن غلب عقا
على شهوته فهو كالملائكة بل هو أفضل ، ومن غلبت شهوته على عقله فهو كالبهائم بل ه
أضل ؛ إذ أعطي آلة الشرف فضيعها ، إذ هي الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض
والجبال ﴿ **فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما** ﴾ [الأحزاب
٧٢] بتضييعها بعد أخذ العهد عليه من الله بصيانتها وتَرفيعها ، (جهولاً) بقدرها وغلا
قيمتها ، إذ بسببها سجدت له الملائكة الكرام ، ووجب عليهم بسببها التبجيل والإعظام ؛ فه
يحرسونه من طغاة الجان ، ويحفظون عليه أعماله إلى منتهى الأزمان ، ويستغفرون له في ك
حين وأوان ، وبلغ عن عظمته أن حملة العرش الذين يحملون العرش ومن حوله يستغفرون
ويدعون له بالهداية ويسألون الغيث في كل سنة لعياله وعالته ، قال الله تعالى : ﴿ **الذي**
يحملون العرش ومَنْ حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا رب
وسعتَ كلَّ شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ الآية [غافر : ٧] .

قال الناظم رحمه الله :

٥٣ ــ وآلى بــآلاءٍ كآبَى إذا طَغــى   فَــآبَــاؤهُ مِنْــهُ إذاً بُــرآءُ

أَلِيَ الرجل : إذا عظمت أَلَيتاه ، يقال له : رجل ألوى وألي إذا عظمت أليتاه

لآلاء : النعم واحدها الية[1] ، قال الله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ [الرحمن : ١ ومابعدها] ، وآبى ، بالفتح والقصر : وزنه أَفْعل ، وهو ذو همزتين قلبت ثانيتهما وهي التي محل الفاء ، وهو وصف للعنز التي أَبِيَتْ ، بالكسر ، أي أصابها الأبى ، بالفتح ، وقد تقدم سيره في قوله :

كأن الورى والموت نسي-وراءهم ذوات الأبى قد حازهن أباء

والمؤنث : عنز أبواء .

وآباء ، بالمد : جمع أب . فآلى يصح فيه أن يكون مجروراً بواو رب أو برب المحذوفة دها وهو مرفوع بمعنى الابتداء ، وخبره كآبى ، ويصح فيه أن يكون مرفوعاً عطفاً على (من) قوله : ﴿ **من لاغراء له ولاضرى له** ﴾ ، وقوله : [إذا طغى] راجع لآبى ، وهو المنظور به بتشبيه الآلى بالآبى .

ومعنى تركيب البيت يضاهي الغرى الذي لاغراء له بالتقى ، وألي اي صار عظيم ألْيتين لفراغ قلبه بالتنعم بالآلاء في حال كونه مثل عنز أصابها مرض الأبى عند طغيانه ، أو زمن طغيان ذلك الآبى بسبب نعم الله ، فالمشبه بالشيء في حالة طغيانه أي طغيان المشبه به زم منه أن يكون هو طاغياً وإلا لما حضر ذلك القَيد في المشبه به حال التشبيه ، وحاصل لأمر أن الآلاء أي النعم أطغت الآلى بالقصر وأبطرته ؛ فشبه بسبب طغيانه بالنعم وبطره بها عنز الأبى عند طغيانه ، وحالة المشبه به إذ ذاك الوقوف والصياح ، وذلك يكسبه ضرراً ؛ هكذا الطاغي بنعم الله تعالى يعود وبال ذلك عليه عاجلاً وآجلاً : أما عاجلاً فإن النعم التي طغى بها تزول عنه كائنة ماكانت ؛ لأن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ولو لم يحصل في الآجل إلا تَحسره على مافوّته عليه الطغيان بالنعم من عدم الشكر عليها لكان ذلك كافياً . وأما براءة آبائه منه فلانتفاء الشبه بينهم وبينه ، فتتحقق غيريته[2] لهم ، والغير براء من ميره ، ويعني بآبائه آباءه الأقدمين من النبيين والمرسلين ومن تبعهم من الأئمة الهادين المهتدين تبرُّؤ السلف الصالح من الخلف الطالح الذين قال الله في مثلهم : ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بعدهم خَلْفٌ ضاعوا الصلاة واتَّبعُوا الشهواتِ فسوف يلقون غَيّاً** ﴾ [مريم : ٥٩] بخلاف الخلف ،

---

(١) في القاموس المحيط : «والآلاء : النعم ، واحدها : إلي وألو وألي والى وإِنى» وليس فيه (ألية) .

(٢) في (ب) مغايرته لهم ، والغيرية والمغايرة واحد .

بالفتح فإنهم الذين خلفوا الأسلاف باقتداء آثارهم واتباع سننهم بالشكر على النعم الشكر التا
الذي يستوجب المزيد ؛ وهو استعمال الجوارح فيما خلقت له ، واستغراق النعمة في عين المن
مع رؤية التقصير .

والنعم على قسمين ظاهرة وباطنة ، وكل منهما لايتأدى شكرها إلا من جنسها ؛ فشك
النعمة الظاهرة لايتأدى إلا بالشكر الظاهر ، فالظاهرة نعمة الإسلام ، فلا تتأدى إلا بامتثا
الواجبات وما يتعلق بها من السنن والمندوبات ، مع لهج اللسان بالذكر والشكر على التوفيق
والنعم الباطنة الإيمان ، ولا يتأدى شكرها إلا باستحضار القلب لتحقيق متعلقاته من البراهي
والدلائل العقلية والنقلية إن كان من أرباب السلوك ، وأما إن كان من أرباب المشاهدات
فالغيبة والغفلة في حقهم محال ، إذ قد استغرقوا في معارف الله ومشاهداته ، فيستدلون به عل
الأكوان ولايستدلون بالأكوان عليه لتلاشي الكائنات في قلوبهم .

يروى أن المدمن على ثلاثة لايموت إلا على الإيمان : مدمنُ الشكر على الإيمان ، ومدم
الخوف على سلب الإيمان ومدمن النفع لأهل الإيمان .

وقيل : الظاهرة : نعمة الغنى ، والباطنة نعمة الإنسانية ، إلى غير ذلك مما لايدخ
تحت حصر . قال الله تعالى : ﴿ **وإن تَعُدُّوا نعمة الله لاتحصوها** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، فإ
شكر نعمة الغنى بالبذل والرفق بالمسكين وعدم احتقار الفقير والضَّرير ، وأن لايشغله جمعه ع
نوافل الدين، وأن يشكر الله من غير أن يرى نفسه غنياً أو يرى نفسه خيراً من أحد بسبب
غناه ، قال الله تعالى ﴿ **إنَّ الإنسان لَيَطغى أنْ رآهُ استغنى** ﴾ [العلق:٦ـ٧] . وأما شك
الصحة فاستعمال البدن في طاعة الله تعالى ومنافع المسلمين : بأن تحمل لأخيك المسلم ع
دابته ، وتأخذ بركابه، وتُميط الأذى عن الطريق ، وتهدي الضال ، وترشد الأعمى، وتم
المستضعف .. إلى غير ذلك .

قال الرسول ﷺ : ((اغتنم أربعاً قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك
وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))[1] . وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ التي

(١) حديث « اغتنم اربعاً قبل أربع إلخ.. » حديث حسن أخرجه الحاكم بلفظ : « اغتنم خمساً قبل خمس
شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك الخ.. » وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وسكت عليه الذه
(٣٠٦/٤) كما أورده السيوطي في المواعظ ، وروي مرسلا (١٦/٢) وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٦
بلفظ: « اغتنم خمساً قبل خمس الخ.. » وقال : رواه الحاكم والبيهقي وأحمد في الزهد مرسلا، والله أعلم .

اء العلماء لأتوا فيها بدفاتر من العلوم . قال الشاعر في ذم من لم يستعملها فيا يجب :

رجز)

إن الشبـــابَ والفـــراغَ والجِـدَهْ ... مفســـدةٌ للمـــرء أيُّ مَفْسَـدَه

واختلف في الحمد والشكر أيهما أشرف ؛ فقيل : الحمد أشرف لأنه حظ الله من
ده ، والشكر حظ العبد من ربه، وشتان مابين ماهو للرب وما هو للعبد ؛ ولأن الحمد هو
ذي أثنى به على نفسه أزلاً فثبت له أبداً ، بخلاف الشكر، وأن الحمد لا يستدعي العلة
لشكر يستدعيها ، ولأنه يلازم الاسم الأعظم لمشاكلته إياه فتقول : الحمد لله كما تقول : باسم
له ، لأن الله اشتق لنفسه منه اسماً وهو الحميد، وكذلك اشتق لأحب عبيده إليه وأخصهم به
اتم النبيين وسيد الأولين والآخرين اسماً فسماه أحمد ومحمداً وحامدا ، فأحمد على أشرف وزن
ن أوزان المبالغة وهو بمعنى حمده لربه دنيا وبرزخا وأزلا وما لايزال ، والثاني اشتقه من حمد
كائنات له، وهو دون الأول وصفاً ورتْبةً؛ إذ الأحمدية له والمحمدية لغيره، فكلٌّ من الاسمين
سبَ أصله وعنصره، وأما اسمه حامد فهو دون الأحمدية وفوق المحمدية، وفي ذلك يقول
سان بن ثابت رضي الله عنه : (من بحر الطويل)

أغـــر عـــليـــه للنبـــوة خـــاتم ... من الله من نـــور يـــلوح ويشـــهـد
وضَـــمَّ الإلهُ اســـمَ النبيِّ إلى اسمه ... إذا قـــال في الخمس المـؤذن أشْـهَـدُ
فشـــق له من اسمـــه ليجـــلَّهُ ... فـذو العـــرش محمـــود وهـذا محمـد

ولأنه تعالى ختم الكون بالحمد كما بدأه به فقال: ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب عالمين** ﴾ [يونس: ١٠] وقال حكاية عن أهل الجنة : ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَنَ نَّ ربنا لغفور شكور الذي أحَلَّنا دارَ المُقامةِ من فضله** ﴾ [فاطر: ٣٤ـ٣٥] ، ولأنه أول
كلمة انفتق عنها لسان آدم عليه السلام فاغتنمتها حملةُ العرش فأضافوها إلى التسبيح فأصبحوا
قد خف عنهم حمل العرش، ولأنه يقع على السراء والضراء بخلاف الشكر، ولأنه يطلق على
مايطلق عليه الشكر من العهد والجنس والاستغراق والحقيقية .

وقيل: الشكر أفضل لأنه في مقابلة الكفر، قال تعالى: ﴿ **واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾
البقرة: ١٥٢] ، ولأنه يقتضي المزيد ويدفع العذاب، قال تعالى: ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** ﴾ [إبراهيم: ٧] ، ولأنه اشتق لنفسه منه اسماً فسمى نفسه

الشكور ، .لأنه يستوعب الأعمال كلها فتدخل فيه بخلاف الحمد ، قال الله تعالى
﴿ **اعملوا آلَ داودَ شكراً وقليل من عبادي الشكور** ﴾ [سبأ:١٣] ولما قام النبي ﷺ
حتى تورمت قدماه قيل له: أتشق على نفسك وقَد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر
فقال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً))[١] . وقال تعالى : ﴿ **وقليل من عبادي الشكور**
[سبأ:١٣] ، والقليل هم الأنبياء والأولياء ، إذ هم القليلون عدداً ، الكثيرون مدداً ، ولأن
القليلون في الوجود ، الكثيرون في العهود ، ولأنهم القَليلون تَرفاً ، الكثيرون شرفاً ، فنسبتهم
القياس كنسبة الشمس إلى الكواكب ، فالكواكب كثير عددها قليل مددها ، والشمس قلي
عددها كثير مددها ، إذ لانور للكواكب أصلا، وإنما يستَمدون نورهم من نور الشمس
لمرورها عليهم نهاراً ، فإذا غابت ليلا ظهر عليهم من نورها ما اكتسبوه من مرورها ، فنسبتُ
إلى الكواكب كنسبة الرسول ﷺ إلى سائر الأنبياء والرسل لاستمدادهم من نُوره حين الأخ
والطواف فظهروا بتِلك الأنوار قبل مظهره ﷺ ، وكلٌّ بشَّرَ به ، وأخذ على أمته لئن أدرك
ليؤمنن به ولينصرنه ، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين**
آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنُنّ به ولتنصُرنَّهُ قال أأقرر
وأخذتم على ذلكم إصري قالوا اقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آ
عمران:٨١] فبان من هذا أنه ﷺ رسول الرسل ، إذ لو أدركوا زمنه لوجبت عليهم طاع
والإيمان به ، فيكون رسولا إليهم ، ويكونون رسلا إلى أممهم بواسطته ﷺ ، وظهر مصداق
ذلك ليلة الإسراء لصلاته بجميعهم ، وفي المحشر لاختصاصه بلواء الحمد، وكونهم تحت ظ
لوائه ، وتدافعهم الشفاعة الكبرى التي خلصت إليه ، ونسخ شرعته الشريفة شرائعهم، وف
ذلك يقُول البوصيري برد الله ضريحه: (من بحر البسيط)

فإنه فضل شمس[٢] هم كواكبها ... يُظهرن أنوارها للناس في الظلم

حتى إذا طلعت في الأفق عَمَّ هدى ... للعالمين وأحيت سائر الأمم

---

(١) حديث « افلا أكون عبداً شكوراً الخ .. » جزء من حديث متفق على صحته رواه البخاري في باب
قيام النبي ﷺ ، ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة ، وأوله عند البخاري: « كان ﷺ يقوم ليصلي حتى ت
قدماه الخ.. » .

(٢) في (ب) : فإنه شمس فضل هم كواكبها .

فيتحصل من جميع ما ذكر أن الحمد أشرف رتبةً واعظم مزية، والشكر اقرب عائدة وأكثر فائدة، إذ الشكر في مقدور الخلق والحمد منه ما هو في مقدورهم ومنه ماليس في مقدورهم لمحله من العظمة والجلال .

قال ﷺ : ((من ظفر منكم بنعمة أو لقي حبيباً فليقل: الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات ؛ فإنه يغفر له ما تقدم من ذنبه وقد أدى شكر تلك النعمة بالغة ما بلغت، ومن اصابه مايكره فليقل: الحمد لله على كل حال ما كان ؛ فإن الله يفرج كربته ويغفر ذنبه ويخلفُ عليه ما ضاع له ، وإذا لبس أحدكم ثوباً فليقرأ الفاتحة وليقل: الحمد الله الذي كساني هذا الثوب وستر به عورتي وأعطاني ما أتجمل به في صلاتي؛ فإنه لايكتب عليه ذنب مادام لابسه، وإذا طعم فليقل: الحمد الله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ؛ فإنه لايحاسب عليه يوم القيامة ولا يسيغ لقمة منه أو جرعة إلا كتب له بها عمل صالح ، وإذا شرب ماء فليقل : الحمد لله الذي سقانيه عذباً فراتاً برحمته ولم يسقنيه ملحاً أجاجاً بذنوبي[1] . وإذا استفاد عبداً أو أمة أو دابة فليأخذ بناصيتها وليقرأ آية الكرسي وهو ينظر إليها حتى يتمها وليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما جبلت عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ماجبلت عليه. وإذا تزوج امرأة فليأخذ بناصيتها وليقرأ الفاتحة والمعوذتين وليقل: اللهم اكفني مؤونتها وامْنَحني معونتها، واجعلها علي نعمة، ولاتجعلها لي فتنة: وارزقني منها رزقاً طيباً كثيراً مباركاً ، اللهم اهد إلى طاعتك وطاعتي قلبها ، وارزقني حبها ، وجنبني شؤمها وخبها[2] ، إنك على كل شيء قدير ، وإذا أتيتها فقل : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا ، فإنه إذا قضي بينكما ولد لم يضره الشيطان. وإذا زاد عند أحدكم ولد فليلبه[3] بسورة الإخلاص يقرؤها ، ثم يؤذن في أُذنه اليمنى، وليقم في أُذنه اليسرى ، وليجعل يده على يافوخه وليقل: البرُّ سبعاً ، وليرقه برقية إبراهيم ابنه إسحاق وإسماعيل وهي: باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد ثم

---

(١) حديث « الحمد لله الذي سقانيه عذبا ... الخ » رواه الطبراني مرسلا بلفظ: « الحمد لله الذي جعل الماء عذبا فراتا برحمته ... الخ » وسكت عليه العراقي (٢/٦) .

(٢) خبها : خداعها أو فسادها ، أو خبلها .

(٣) فليلبه : أي يلتزمه ويدنيه .

يقول: أنبتَك الله نباتاً حسناً ، سبعاً ، اللهم اجعله بَراً تقيّاً ولا تجعله فاجراً شقياً . وإذا مرض
فليقل : الحمد لله على مادفعت مما هو أعظم مما به أصبت ، اللهم اجعل مرضتي هذه مثوبة
وطهرة ، ولاتجعلها عقوبة وحسرة، اللهم أرضني بقضائك، وفرحني بلقائك، ثم ليكثر من قراءة
سورة الإخلاص ؛ فإنه إن ماتَ ماتَ شهيداً ، وإن شفي شفي مغفوراً له، وأبدله الله دماً خيراً
من دمه ، ولحماً خيراً من لحمه . وكان النبي ﷺ إذا برىء أحد من اصابة من مرض قال
له : أوف بنذرك فإنه ما مرض مؤمن إلا ونذر لله على نفسه تَوبة . وأما المنافق والكافر فإنه
كالجمل عقله أهله ثم أطلقوه فلا يدري فيم عقلوه ولا فيم أطلقُوه . وإذا عوفي فليقل : اللهم
أنت الذي أمرضت فأبليت ، وأنت الذي عافيت فأوليت ، فلك الحمد على ما أسديت
تباركت وتعاليت ، اللهم عرفني نعمك بدوامها ، ولا تعرفنيها بزوالها عني، اللهم قُدني إليك
بسلاسل الامتنان، ولاتقدني إليك بسلاسل الامتحان، اللهم كما مننت علي بإطلاقي من أسر
البلايا فوفقني للعمل بأسباب العطايا، اللهم يسرني للصالحات، ويسر علي أسبابها ، وافتح لي
بابها ، لا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا رادَّ لما قضيت ، أنت المقدم وأنت
المؤخر ، وأنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وأنت على كل شيء قدير ، اللهم لك الحمد
كله ، ولك الشكر كله ، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره ، لك الحمد إنك على كل
شيء قدير)) . فإنه مجرب الإجابة مؤدٍّ لشكر النعمة .

قال الناظم رحمه الله :

٥٤ ــ كَأعْيَا إذا الأعْيَاءُ يَوْماً لَهُ اعْتَزُوا بِــأهْـوَى وَفي أهْـوَائِهِـم غُـلَوَاءُ

يعني وهذا البائس اللئيم الذي لاغراء له بالتقوى فإنه في انتسابه إلى آبائه الأقدمين
وافتخاره بهم دون أن يهتدي بهديهم ويقتدي بكريم أفعالهم فهو في ذاك كاعتزاء الأعياء ، وهو
جمع عيي، والعيي من لا قدرة له على الإفصاح عما في ضميره فيستعين على ذلك بالإشارة بيده
ومع ذلك لايأتي بلفظ سليم ولا بمعنى مستقيم ، بخلاف الأعيا بالقصر وبنيه فإنهم قوم فتق الله
ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة والبيان، وإنما سموه بأعيا نفياً للعين عنه كما سموا امرأة رائعة
الجمال بقبيحة ، والأعيا رجل من قضاعة، وأبو أعيا بطن منهم، فيكذبهم الحال والمقال وهو أن
أرض بني أعيا بالقصر أهوى كما قال شاعرهم :

عِقَابٌ وعِقْبَاتٌ[1] ترى من حذارها ثعالب أهوى أو أشافر تصرخ

والأهواء ، بالمد: جمع هوى. والغُلَواء، بضم الغين المعجمة وفتح اللام : العلو الارتفاع. فقوله: كأعيا في محل نصب على الحال من ضمير يرى في البيت قَبله .

والمعنى : فآباء من ذكر بسبب كونه كما ذكر برآء منه في حال كونهم مماثلين للأعيا زمن انتساب الأعيا له بالمكان المسمى بأهوى في حالة غلوائهم وطموح مناهم ، وحالة أعيا إذ ذاك البراءة منهم كل البراءة، ولسان الحال منه يصيح: ليسوا مني ولستُ منهم في شيء؛ إذ هما متغايران بواضح البرهان. وتشتد البراءة في خصوص المكان كأهوى مثلا، فإنه أدخل في البراءة منهم، وأشد عونا على نفيهم عن أعيا ، وتكذيبهم في دعواهم أنهم من بنيه وذويه، ويزيد ذلك إذا كان في الأهواء غلواء في الاعتزاء ؛ ولذلك قال: وفي أهوائهم غلواء ، أي لهم لجاج في الاعتزاء . وهذا البيت متضمن لمعنى البيت قبله ، وإنما جيء به لتتميم معناه ؛ فقوله : كأعيا : خبر لمبتدأ محذوف . وإذا: ظرف لما يستقبل. والأعياء: فاعل فعل محذوف تقديره : إذا اعتزى الأعياء يوما له اعتزوا ؛ لأن إذا لاتدخل على الجملة الاسمية إلا بدخولها على فعل محذوف يفسره ما بعده كقوله تعالى : ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ [الانشقاق:١] ويوماً : ظرف زمان. واعتزوا: فعل ماض مفسر مؤكد للفعل المحذوف بعد إذا . بأهوى: جملة في موضع نصب على الحالية . وفي أهوائهم: خبر مقدم . وغلواء : مبتدأ مؤخر .

والبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعاً لست منهم في شيء** ﴾ [الأنعام:١٥٩] وهذه الآية الشريفة من أعلام نبوته ﷺ لأنها إخبار عن أهل الأهواء الآتين من أمته بعده، وهم: القَدرية[2] والجبرية[3] والحرورية[4] والشيعة والأباضية الصفرية والنصيبية والخوارج والمعتزلة والزيدية وغير ذلك[5] من الفرق الضَّالة أهل الأهواء

---

(١) عقاب جمع عقبة المرقى الصعب من الجبال ومنه جمرة العقبة .

(١) القدرية: بالفتح، فرقة إسلامية تقول: إن كل عبد من عباد الله خالق لفعله، متمكن من عمله أو تركه بإرادته .

(٢) الجبرية: فرقة إسلامية تقول: إن العبد لا قدرة له مكتسبة، وهو مسير في كل عمله خيره وشره (عكس القدرية) .

(٣) الحرورية: فرقة من الخوارج، وهم الذين قاتلهم علي رضي الله عنه .

(٤) وكل ماذكر بعد ذلك فرق إسلامية لها عقائد تخالف ما عليه سلف هذه الأمة، يضيق المجال عن تعريف كل فرقة على حدة .

الباطلة والآراء الفاسدة ؛ ثبتنا الله على الطريق المرضي والنهج المستقيم السوي .

قال الناظم رحمه الله :

٥٥ ـ فَأَقْنَى وَأَقْنَاءً وَشَرْوَاهُمَا اطَّرِحْ وَهَوِّنْ كَدىً حَتَّى يَلُوحَ كَدَاءُ

قوله : فأقنى : المحدودب الأنف الذي في قصبته علو وارتفاع وفي عرنينته سهولة وحسن حدب، وهو من علامات جودة الفرس وكونه عتيقاً ، وقد يقال أيضاً للإنسان: أقنى الأنف . والأقناء، بالمد: جمع قنو، وهو شماريخ النخل، وقيل: هو مجرد الكباسة ويقال لها : العرجون . وقوله: شروى : وهو من شَرَى الشيء ، بالفتح والقصر : تعب في تحصيله أو لم يكن إلا بمشقة فادحة لنفاسته وعلو منصبه ومثله قوله : وهون كدى، بالقصر والفتح: مصدر كديت الأصابع : إذا أصابها كلل وخشونة من الكد. وكدى الفصيل: فسد جوفه من شرب اللبن. وكَداء : ثنية معروفة بأعلى مكة، وهي بحسب المعنى مستعارة للمعنى المطلوب والغرض المقصود .

والمعنى: اطرح ، أي انبذ، فرساً أقنى واقناء من النخل ومثلهما فلا تشغل بهما قلبك فإنهما من الأعراض التي تفنى، وهون ما تلقاه في هذه الدار من أعراضها التي تأتي من حيث لاتحتسب ولاتقدر على دفعها والتحفظ منها، وعدّ ذلك هيناً كما تتحمل ما كلفته من مشاق التكليف والدأب على ما التزمته مما أمرت به ونهيت عنه، حتى تظفر بمطلوبك، وتحصل على الطائل من مرغوبك مما لم يخطر على قلبك ولا على قلب بشر، فكأن قد فجأك ذلك، ونسيت كل ما لقيته قبل ذلك، حتى كأن لم تكن مصيبة فادحة .

قال الشاعر : (من بحر البسيط)

إن ابتغيت المعالي فازددنْ[1] تعبا أو ارض بالذل واختر راحة البدن

فالبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ [الرعد: ٢٤] واعلم أن خيري الدنيا والآخرة لا ينالان إلا باستصحاب ثلاثة أمور: التقى بأنواعه، والصبر بأنواعه ، ولايوجدان إلا

---

(١) في النسختين: فازدد تعبا ، والبيت مكسور الوزن ، فإذا قال : فازددن استقام الوزن .

باستصحاب الإحسان ، قال الله تعالى : ﴿ إنه من يتَّقِ ويصبرْ ــ إلى قوله ــ المحسنين ﴾ [يوسف: ٩٠] وفي مثل هذا يقال: (من بحر الطويل) والقافية لاتخلو من خلل

وليس بِنَــوم الجفــن تغتــنم العــلى ... ولكــن بــإسهــار الجفــون وبــالجدِّ
وبــالغض من دار الغــرُور وزهـوهــا ... وبــالصــبر يجنى الرطب من فننِ المجد
ومن بعد وخز النحل شور[1] شهاده ... ومن بعــد قطع البيــد يظفــر بــالمجد
ومن بعد غوص البحر في لجج الدجى ... يُنــال الغــنى من لؤلؤ وزبــرجــد
وبعــد اغــتراب واقــتراب من النوى ... تَجَــهبــذ ذو جهــل ففــاز بمقصــد
ومن بعــد حبس النفس عن شهــواتها ... يفــز بــالمنى والسعــد في جنــة الخلد
وحـــــور وولدان ورَوْحٌ ورحمـــــة ... ومــلك مقــيم في ذرى المــلك الفــرد
كأنك لم تتــعب إذا فــزت بــالمــنى ... ولم تفتــقــر يومــا إذا فــزت بــالمجد

فأقنى، بالقصر: مفعول مقدم لا طرح. وأقناء، بالمد والنصب: عطفا عليه. وشرواهما: معطوف أيضا ومضاف إليه. وهوِّنْ : فعل أمر بمعنى سَهِّلْ . وكدى: مفعول لهون . وحتى يلوح: ناصب ومنصوب . وكداء: فاعل يلوح ؛ فكدى، بالقصر: كناية عن الكد .

ومعناه: اصبر على كد الكروب والشعُوب[2] والشجون حتى تظفر بفرح[3] مرح كداء المرغوب، إذ المعلوم المتعاطى جاهليةً وإسلاماً تحمل المشاق وجَوْبُ الآفاق وسير العتاق إلى البيت العتيق . قال الله تبارك وتعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام لما بنى البيت العتيق: أُعْلُ على جبل أبي قبيس، وقيل: على جبل حراء ، فأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر . فقال: أي رب ، وما عسى أن يبلغ صوتي؟! فقال له تبارك وتعالى : عليك الدعاء وعليَّ البلاغ. فنادى إبراهيم عليه السلام وجعل إصبعه في أذنه فقال: إن الله يأمركم بالحج إلى البيت العتيق فحجوا ؛ فلم يبق أحد يومئذ إلى يوم القيامة إلا أجابه بلبيك ، فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، فلم يبق نبي من الأنبياء إلا حجه، حتى مر عليه سليمان عليه السلام تحمله الريح حين غزا سبأ ، فلما مر عليها ولم ينزل ولم يطف بكتْ الكعبة فقال الله تبارك وتعالى لها : مَهْ يا كعبة ، فقالت : يا رب، هذا نبي من أنبيائك ورسول من أصفيائك ومعه المؤمنون مر

(١) هذه الكلمة في النسختين غير واضحة، والشور أخذ العسل من محله .

(٢) المراد بالشعوب: مفارقة الأحباب، ومجاهدة النفس، وأصله لجام الفرس.

(٣) كذا في النسخة (ب) أما (أ) ففيها : حتى تفرحَ بمرح كداء .

عليَّ ولم يطف بي ولم يحل بساحتي؛ فقال: لا تبكي فإني باعث منك وشيكاً نبياً كريماً، أصطفيه على جميع الأنبياء والرسل، هو خيرتي من خلقي ، وأمتُه خير الأمم ، أجعلك قبلته وقبلة أمته ، يحجونك من الآفاق شُعْثاً غبراً ، فيأتونك من كل فج عميق ، يحنون إليك حنين النَّاقة إلى حوارها ، ويزفون إليك زفوف الطير إلى أوكارها، فلايبقون حولك صنماً إلا كسروه يطهرونك من الأوثان وعبادة الشيطان ، فلا تزالين مطهرة مصونة إلى آخر الأزمان .

فهي وإن كانت بواد غير ذي زرع أخصب من جميع المدن والقرى، وذلك من زمنه ﷺ إلى يوم القيامة، وذلك لما يجبى إليها من الثمرات من جدة وزبيد وصنعاء والبحرين والبصرة والكوفة والطائف واليمامة وحضرموت والهند .

واختلف في وجوب الحج : هل هو على الفور أو التراخي ؟ فذهب مالك وأصحابه إلى أنه على التراخي، وذهب الشافعي ومن وافقه من المالكية إلى أنه على الفور. ولا خلاف أنه على الفور إذا خيف الفوات. ولما أنزل الله قوله : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾ [آل عمران:٩٧] سأله بعض أصحابه: هل هو واجب في كل سنة؟ فسكت ﷺ حتى ظنوا أنه يوحى إليه ، ثم التفت إليهم فقال: ((لا تسألوا عن مثل هذا؛ لو قلت: نعم ، لوجب عليكم كل سنة ولعجزتم فهلكتم، فإذا أمر الله بأمر فامتثلوه وإذا سكت فاسكتوا)) فأنزل الله قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم** ﴾ الآية [المائدة:١٠١] ((وإذا أمركم في غير عزيمة فافعلوا من ذلك ماتستطيعون))[1] .

وأركانه خمسة اتفاقاً وعلى المشهور: الإحرام، وطواف الإفاضة، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والسعي بين الصفا والمروة[2] .

---

(١) الحديث الذي أورد الشيخ رحمه الله دليلا على وجوب الحج مرة واحدة صحيح، رواه مسلم وغيره وبألفاظ كثيرة، وأوله عند مسلم: « خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل: أكل عام.. الخ » .

(٢) قول الشيخ رحمه الله : (وأركانه خمسة اتفاقا) فيه نظر؛ فالأركان المتفق عليها ثلاثة فقط هي: ١ ــ الإحرام . ٢ ــ طواف الإفاضة . ٣ ــ الوقوف بعرفة .

والسعي ركن عند الجمهور وواجب عند أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه ←

واختلف في تاركه عمداً ، فقيل : يكْرَهُ ، وقيل[1] : لايكره . قال سحنون : إن ادعى عذر دين وإلاضيق عليه حتى يحج . وقال ابن وهب : إنما الإكراه على الصلاة والزكاة فقط ، أما الحج والصوم فإنهما موكولان إلى المؤمن ؛ لأن الله قَيدهما بالاستطاعة ؛ فحيث كان الحج على التراخي لم يكن للإكراه وجه ، إلا أن النبي ﷺ يقول : ((من استطاع أن يحج هذا البيت فلم يحجه فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً[2])). وقال ﷺ : ((من ماتَ ولم ينوِ الحج ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق[3])) .

ويروى أنه لما خلق الله الأرض ودحاها على الماء بسطها من تحت البيت وهو ياقوتة حمراء يُنِيرُ أساسه من الأرض السابعة إلى أن اتصل بالبيت المعمور فقال : أنا الله ذو بكةَ لأغنين الحاج ولو بعد حين ، ولأفقرن الزاني ولو بعد حين ، وإني جعلتك بيت أضيافي يفدون إليَّ من جميع الآفاق ، وأنا أحق من أكرم ضيفه ، ولا أرضى لهم بكرامة دون كرامة الجنة .

يروى أن الله يبعث يوم القيامة ملائكة إلى مكة فيزفونها كما تزف العروس وقد كسيت نوراً وبهاء ، فإذا أرادوا أن يزفوها قالت : إلى أين ؟ قالوا : إلى الجنة ، فتقول : لاأرضى بدون أن يذهب معي زواري وعماري ؛ فتعطى ذلك ، فيحفون بها وقد أسدلتْ عليهم أستار الأنوار حتى تستقر بهم في بحبوحة الجنة . جعل الله قرارنا إليه آمين .

وهناك ركن خامس : وهو المبيت بالمزدلفة عند بعض التابعين والظاهرية وبعض الشافعية .

أما رمي الجمار فلم يقل أحد من أهل العلم بأنه ركن إلا ما ذكر عن عبد الملك بن الماجشون من أصحاب مالك من أن رمي جمرة العقبة ركن ،والله أعلم .

(١) يكره على الحج ، وقيل : لايكره عليه ، أي يجبر على فعله ، وقيل : لايجبر .

(٢) حديث : «من استطاع أن يحج هذا البيت الخ» ضعيف جداً ، رواه الترمذي وابن عدي ، وأورده صاحب (تنزيه الشريعة): بلفظ: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً. أهـ (٢/١٦٧) وأورده ابن الجوزي في موضوعاته وقال فيه: عن علي وأبي إمامة رضي الله عنهم ـــ وحديث علي هو الذي أوردنا نصه ـــ قال فيه: قال الترمذي: هلال بن عبد الله مجهول، والحارث كذبه الشعبي وغيره (٢/٢١١)، والله أعلم .

قلت : وأما حديث أبي هريرة وابي امامة فهما موضوعان ، وصح عن عمر رضي الله عنه من قوله : من أمكنه الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً، والله أعلم .

(٣) حديث : «من مات ولم ينو الحج .. الخ» لم أقف عليه .

قال الناظم :

٥٦ ـ كَالأَعْمَى الَّذِي الأَعْماءَ يَغْرُو فلا تَدَع سَبِيلَ الْهُدَى مَاعَنْ عَدَاهُ عَدَاءُ

قوله : كالأعمى : التشبيه فيمن ترك طريق الهدى عمداً أو جهلاً ، بل الأعمى خير منه لقوله ﷺ : ((أعمى العمى الضلال بعد الهدى)) . وكذلك كل من يأتي شيئاً من غير علم ولا برهان من ربه فهو كالأعمى ؛ ولذلك لاينْبغي للإنسان أن يفعل فعلاً حتى يعلم حكم الله فيه ، وهذه الرتبة يقال لها : المرضية ، ولذلك قال موسى عليه السلام لأخيه هارون لما استخلفه على بني إسرائيل فعبدوا العجل زمن غيبة موسى ليأتي بالتوراة فقال له هارون : ﴿ **إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي** ﴾ [طه : ٩٤] . وأن قوم صالح لما ضلوا بعد الاستبصار وصفهم الله بالعمى فقال : ﴿ **فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ [فصلت : ١٧] . وقال لرسوله استبعاداً لذلك : ﴿ **أفأنت تسمع الصم أو تهدي العُمْيَ** ﴾ [الزخرف : ٤٠] . ويقال : ارتكب العماء والعمياء : إذا ذهب في غير مذهب ، ومنه قول الحجاج عند موته لما أرجف به المرجفون وشمت به الشامتون وسمع بعض الأقوام يحلفون إنه لمن أهل النار فقال منشداً : (من بحر البسيط)

يارب قد حلف الأعداءُ واجتَهدوا أيمانهم أنني من ساكني النارِ
أيحلفون على عمياء ويلهم ماظنهم بعظيم العفو غفار

والأعماء ، بالفَتح والمد : مالا يهتدي فيه من الأرضين . ويغرُو : أي يتبع كيشعر ، ومنه استغراء الكلب على الصيد وهو الإشلاء . عدى ، بالفتح والقصر : جهة الشيء ووجهته وطريقته ، ومنه العدوتان . والعداء . بالفَتح والمد : مالابد منه أو مالامتجاوز عنه ، تقول : عَدتْك حالي ، أي جاوزتك ولم يصبك شؤمها .

والمعنى : إن الذي يتتجعُ الأرض التي لايهتدي فيها مماثل للشخص الأعمى في عدم الهداية ؛ فلا تترك طريق الهدى فما عن ناحيته بد لسالك ، وإلا فقد تورط في المهالك .

والبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون** ﴾ [الزمر : ٩]. علمنا الله من العلوم مايحصل به الانتفاع والارتداع آمين .

الإعراب : كالأعمى : جار ومجرور في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : الضال كالأعمى أو الذي يتتبع مالا يهتدي إليه كالأعمى ، والذي يترك طريق الهدى عمداً

كالأعمى ، فعلى كل الوجوه هو خبر إما لمبتدأ محذوف أو للذي فيكون خبراً مقدماً . والذي يغرو : مبتدأ مؤخر . والأعماء ، بالمد : مفعول ليغرو . وفاء فلا تدع : سببية ولاتدع : جازم ومجزوم . وما : نافية . وعداه : جار ومجرور ومضاف إليه ، وهداه: اسم ماعلى لغة تميم لأنهم لايطلون عملها بتقديم خبرها على اسمها ، بخلاف سليم وأهل الحجاز ، فعلى مذهبهم عداء مبتدأ مؤخر ، وعن عداه : خبر مقدم ؛ ولذلك سوغ الابتداء بالنكرة لتخصيصها بالنفي وحرف الجر .

قال الناظم رضي الله عنه :

٥٧ ــ وَرُمْ رَاحَةَ الأَنْسَى والآنْسَاءَ راعِهَا لِنَسْيَا وَنَسْيَاءً فَذَاكَ وَفَاءُ[١]

قوله : ورم : أي حاول تسكين وجع المريض الذي يشتكي عرق النساء . وراع الأنساء : أي التّافه الحقير المعرض لأن ينسى في حال كونه لذي ضَرورة كنسيا ونسياء مثلاً ، فذلك أي رومك راحة المبتلى وكونك فيما قل من حاجته مشمراً فضلاً عما جل . والأنسى : وصف لرجل مصاب بداء عرق النسا فتقول في ذلك : رجل نَسيً وامرأة نسياء . وقوله : لنسيا ، بالقصر : أي فقير معدم ، وكذلك إذا كان لنسياء ، بالمد ، وهو جمع نسى ، وهو الضعيف المحتقر الذي لاحيلة له ، فقيامك واجتهادك في الحقير من أمورهم فضلاً عن الخطير وفاء بحق الصحبة وقياماً بواجب الفتوة ؛ فإنك إذا كنت رحيماً بذي العاهة والضعيف ومن لااعتناء به وكنت في عونهم واهتممت بالحقير من شأنهم فضلاً عن الخطير كنتَ من الذين خلقهم الله لمنافع عباده وأمدهم بأمداده ، فَإليهم يلجأ الضعيف والشريف .

يروى أن النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن كان مما قال له في وصيته إياه : ((يامعاذ كن للضعيف كالأخ الشفيق ، والمسكين كالأب الشفيق ، وللأرملة كالزوج العطوف ، ولليتيم كالأب الرؤوف ، وإياك أن تشبع وجارك جائع)) .

وقال ﷺ : ((إنما ترحمون وترزقون وتنصرون بضعفائكم)) .

ويروى أن النبي ﷺ شكا إليه بعض أصحابه قساوة قلبه فقال له : ((إن شئت أن يلين قلبك ويغفر ذنبك وتُدرك حاجَتك فواكل المسكين وجالس الفقير وامسح رأس اليتيم وبلغ حاجة من لايقدر على بلاغها ونفّس كربة المكروب ، وأنا زعيم لك بما طلبتَ)) .

---

(١) بنقل الحركة في الأنساء .

وقال ﷺ : ((إن الله لايزكي قوماً لايأخذ فيهم الضعيف حقه إلا بالتقية)) .

ويروى ((أن النبي ﷺ كان تأخذ بيده العجوز الفانية فتذهب به في حوائجها حتى تطوف به المدينة فما يُنتزع يده منها حتى تكون هي التي تركته)) .

ولما أتاه عدي بن حاتم ليُسْلِمَ وجَدَه في المسجد ، فاستصحبه إلى بيته ، فبينما هو يمشي معه إذ أتت النبي ﷺ عجوز فأوقفته في الشمس تخاطبه حتى فرغت من حاجتها ؛ قال عدي : فقلت في نفسي : والله ماهذا بشأن ملك ولاصنيعهُ ، فلما أتينا بيته إذا هو ليس فيه إلا وسادة من أدم حشوها ليف ، فألقَاها إلي لأجلس عليها ، فاستعظمت أن أجلس على الوساد وهو جالس على الأرض ليس بينه وبينها بساط ولا حائل ، فألقاها إلي وقَال : لايجلس عليها غيرك ، فجلست على الوساد وجلس ﷺ على التراب ، فقلت في نفسي : وهذا أيضاً ليس بزي ملك ولاجبروته ، فأقبل عليَّ ﷺ وأخذ يخبرني بالمغيبات ، فأسلمت ، ورجعت إلى قومي فَدعوتُهم إلى الإسلام ، فرزقهم الله الإسلام فأسلموا .

وقال ﷺ : ((الخلق عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))[1] .

وقال ﷺ : ((أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة))[2] .

وقال ﷺ ((من لايرحم لايُرحم))[3] .

وقال ﷺ ((ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))[4] .

وكان ﷺ يقول لأصحابه : ((اشفعوا تؤجروا ، ويقض الله على لسان رسوله مايشاء))[5] .

---

(١) و (٢) حديث «الخلق عيال الله الخ ..» تقدم في ص (٥٨)

(٣) حديث : «من لايرحم لايرحم» صحيح ، اخرجه البخاري في قصة الأقرع ابن حابس وتقبيله ﷺ للحسن .

(٤) حديث : «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» رواه أبو داود والبخاري في الأدب ، وأحمد والترمذي، وقال: حديث صحيح، وصححه الحاكم كذلك لما له من الشواهد .

وأورده صاحب (الكشف) تحت رقم ٢١٤ ، والله أعلم .

(٥) حديث : «اشفعوا تؤجروا الخ ..» حديث صحيح رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وأورده السخاوي تحت رقم ١١٧ وصاحب (الكشف) تحت رقم ٢٦٨ وفيهما: «ويقض الله على لسان نبيه» بدل «رسوله» والله أعلم .

ولما احتضر ﷺ كان من آخر ماقال : ((الصلاة ، وما ملكت أيمانكم)) حتى جعلت تتجلجل في صدره ولاينبس بها لسانه .

ومما مدح الله به أصحاب رسول الله ﷺ أن وصفهم بالرحمة فيما بينهم والشدة على المشركين فقال : ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ [الفتح : ٢٩] وليست شدتهم على الكفار تنافي رحمتَهم بهم ؛ لأن شدتهم عليهم هي نفس الرحمة بهم ، ولأن شدتهم عليهم إنما كانت ليخرجوهم من ظلمات الشرك إلى نور التَّوحيد ، أو ليريحوهم من زيادة الآثام ، وليكون قتلهم داعياً إلى إسلام من هو على رأيهم ودينهم من أبنائهم وأشياعهم وإخوانهم ، قال تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

الإعراب : رم : فعل أمر من رام كقام . راحة : مفعول به . الأنسى : مضاف إليه ماقبله . والأنساء ، بالمد : منصوب بالاشتغال تقديره : راع الأنساء . وراعها : فعل أمر ، والضمير مفعول به . ولنسيا : مجرور متعلق براعها . ونسياء ، بالمد : معطوف على نسيا . فذاك : اسم إشارة في محل رفع على الابتداء . ووفَاء : خبره .

* * *

ولما انتهى كلامه على المفتوح قصراً ومداً ، مع تقديم المقصور وتأخير الممدود ، ووضع أبياته على الجناس والاقتباس وغير ذلك من أنواع البديع كالاستطراد والتَّلميح والكناية والتصريح ، التي تشهد على غزارة علم نَاظمها ووسع باعه في العلوم ، فليس يماشيه فيها إلا القليل فضلاً عن أن يجاريه ، مع ماتضمنته منظومته من الأحاديث النبوية والقدسية . ولقد هم رجال بشرحها ، فوجدوا ذلك كالثريا من يد المتناول ، أو السحابة من هامة المتطاول ؛ فاقتصروا على فتح لغاتها مع عدم الإجادة وقلة الإفادة ، فلما رأيت ذلك حملتني الغيرة أن تحفها بشرح يكون بين الاختصار والإطناب ، والتقصير والإسهاب ، فيأتي بعون الله وتوفيقه على وفق أمنية جميع الطلاب .

شرع يبين مايفتح فيقصر ويكسر فيمد مع اختلاف المعنى[1] ، فلا مَدَّ مع فتح ، ولاقَصر مع كسر ، فقال رضي الله عنه :

---

(١) في النسخة (ب) : فقال : باب مايفتح فيقصر ويكسر فيمد باختلاف المعنى .

باب

مايفتح فيقصر ويكسر فيمد مع اختلاف المعنى

٥٨ ـ طَلاً وَطِلاَءً دَعْ وَلا تَصْحَبنْ لَعىً   فَـإنَّ نُغُوسَ الأَشْـرهِينَ لِعَـاءُ

فالطلا ، بالفتح والقصر : الصغير من كل شيء ، وقيل : ولد : الغزال خاصة ، وقد
وضعت العرب لكل صغير من أنواع الحيوانات اسماً يختص به : فولد الإنسان صبي ، وولد
الأسد شبل ، وولد النمر ردع ، وولد الطير فَرخ ، إلا النعامة فولدها رَأْل ، وولد الفيل نَوص
وولد الخنزير خِنَّوْص ، وولد الظبي خشف ، وولد الكلب والذئب والسبع والضبع والدب
جرو ، وولد الأرنب خِرْنِق ، وولد البقرة عجل إنسية كانت أم وحشية ، وولد الناقة سَقْب
وولد العنز جدي ، وولد الضأن خروف ، وولد الفرس فلو ، وولد الحمار جحش ، وم
الفرس بغل .

والطِلاء ، بالكسر والمد : الذي يربط به الطلا ، بالقصر . واللعى ، بالقصر والفتح
الرجل الشره ، واللعاء ، بالكسر والمد : جمع لعوة ، وهي الكلبة الحريصة على الأكل .

فكأنه يقول : اترك الطلا لتستغني عما يحتاج إليه من الطلاء ، ولاتصحب صاحب
شره فإن نفوسهم كلاب حريصة ، ويخشى عليك من خلطتهم أن تَرجع نفسك إلى أصلها
فإن من شأنها أن تحن إلى سربها ، وتضيق ذرعاً بنقلها عن حزبها ، فإنك إن أعطيتها ف
الانفساح شبراً طلبت منك ذراعاً ، وإن أعطيتها ذراعاً طلبت منك باعاً ، وبقدر ما تتعب
تريحك ، وبقدر ماتريحها تتعبك ، وبقدر ماتضيق عليها تُوسع عليك ، وبقدر ماتوسع علي
تضيق عليك ، وإن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ؛ فتفرغ لجهادها ، وحبسها عن مألوف
طبعها ، بزمها بحبل الصيام، وضربها بسوط القيام ، وترك مايشغلك ويشوش عليك قلبك
كالولد الذي تهتم بما يحتَاج إليه ، فتجد النفس إليك سبيلاً في تحصيل أغراضها العاجلة فتقول
لك : اتق الله في عيالك فَإن نفقتهم تجب عليك ، فإن وجدت منك ذلك قالت لك : وس
على عيالك فإن ذلك من واجب حق المروءة ، فلا تزال بك حتى تطلب المكاثرة والمفاخرة
فتورد نفسك حينئذ موارد الهلاك ، فيكون ذلك آخر العهد بك ، وينقطع الرجاء منك .

قال بعض القوم : (من بحر الطويل)

لعمرك ماأبكي على ساكني الثرى ولكنني أبكي على المتزوج

وقيل : لادين قبل التزويج ولاعلم بعده . وقيل لبعضهم : تزوج ، فقال : إنما يتزوج النساءَ الرجال ولست برجل ، وقلما تزوج مريد قبل التمكين فأفلح .

وإنما قَصد المؤلف رحمه الله بيته الحديث المستحسن المخرج في صحيح أبي داود ، وهو قوله ﷺ : ((إذا مضى من الزمان خمسمائة عام فتكون أمتي حينئذ شوكاً بلا ورق ، إن فررت منهم طلبوك ، وإن أقبلت إليهم فتنوك ، فتكون حينئذ فتنة الرجل في أبويه ، فإن لم يكونا له ففي زَوجته ، فإن لم تكن له زَوجةٌ ففي عشيرته . فقالوا : كيف ذلك يارسول الله ؟ قال : يعيِّرونه بالفقر فيورد نفسه موارد الهلاك ، وهي الوقوع في الحرام والشبهة طلباً للمكاثرة ، فيكون المؤمن في ذلك الزمان كشاة بين ذئب وأسد ودب وضبع[1])) .

فقيل الأسد هو السلطان لجوره ، والدب هو القاضي لحيفه ومكره ، والذئب هو الخليطة[2] في الدنيا لخيانته وغدره ، والضبع هو اللص والمحارب .

فإن قُلت : ماالجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ : ((إذا تزوج الرجل في حداثة سنه صاح الشيطان وقال : ياويلاه ، قد عصم مني دينه))؟ فالجواب أن هذا كان في صدر الإسلام حيث كانت الفتنة مأمونة ، والأمة مستقيمة ، والإخوان في الله كثيرون ، والأعوان على الدين موجودون . وأما حيث لم يبق من الدين إلا اسمه ومن القرآن إلاّ رسمه فتركه أولى ، بل ربما وجب ؛ إذ من الواجب على المؤمن الفرار وهجرة البقعة التي ظهرت بها الفواحش والآثام ، فإن النكاح فيها والإقامة بها علامة الرضى بالمنكر والفواحش ، فيعمه من الغضب والعذاب مايعمهم . وفي ذلك يقول القائل : (من بحر الطويل)

إذا شاع في أرض فساد ومنكر وليس بها ناهٍ مطاع وزاجرُ

ففر ولاتقم بساحة بلدة يموت بها عرف وتَحيا المناكر

فإن عقاب الذنب حين خفائه يخص وإن يظهر يعم المجاور

وفي مثل ذلك يقول الشاعر ايضاً : (من بحر الطويل)

---

(١) حديث : «إذا مضى من الزمان خمسمائة عام الخ ..» لم أجده في أبي داود ...

(٢) في (ب) : الخليط ، ولعل المراد الشخص الذي يخالط الإنسان .

يلومونني أن بعت بالرخص منزلي ولم يعلموا جاراً هناك ينغص

فقلت لهم كفوا الملام فَإنَّما بجيرانها تغلو الديار وتَرخص

واتفقت الأمة على أن المنكر إذا شاع وظهر وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يعلم عدم الفائدة ، فإذا علم عدم الفائدة وجب الفرار حينئذ . وفي ذلك أنزل الله قوله : ﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : ٢٥] وذلك أن المنكر إذا ظهر ببلدة ولم ينكر عم العقَاب فاعله وغير فاعله ، قال ﷺ : ((لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعقاب من عنده)) .

وفي رواية : ((لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم ظلما لايرحمون صغيركم ولايوقرون كبيركم ، يدعو عليهم خياركم ولايستجاب لهم فيهم[١])) .

وقال ﷺ : ((إذا رأيتم من ولاة أموركم جوراً في الأحكام وظلماً في الأموال فلا يحملنكم ذلك على الركون إليهم ولكن اركنوا إلى الله بالتوبة فإن قلوب الملوك ونواصيهم[٢] بيده فإما أن يعطفهم عليكم وإما أن يريحكم منهم)) .

وهذا البيت مشتمل على النهي عن اتخاذ الولد ليجتنب بذلك النكاح الذي هو سبب الولد ، وهما سبب ثقل المؤونة والشغل عن الله إلا من عصم الله ، إذ البيت مقتبس من قول تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : ١٥] ، فإنما للحصر والإثبات ، فيكون الأنسي بحسب معنى الناس والآية[٣] إما مشغول عن الله بهما فهو هالك دنيا وأخرى، ومختبر فإن أعطى كل ذي حق حقه فأدى حق الله بالعبادة ، وحق المال بالصيانة والإنفاق في وجوه البر ، وحق العيال بالتأديب والتعليم والحياطة من غير إسراف ولاإقتار ، ويرى نفسه في جميع

---

(١) حديث : «لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر الخ» رواه الترمذي بلفظ : «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» وقال حديث حسن . ت (٢١٧) .

أما الرواية الأخرى فقد رواها الطبراني في الأوسط والبزار ، قال الهيثمي : وفيه حيان بن علي وهو متروك وقد وثقه ابن معين (٢٦٦/٧) ، والله أعلم .

(٢) ونواصيهم : زيادة من (ب)

(٣) هذه العبارة هكذا هي في النسخة (ب) ، وفي النسخة (أ) : فيكون الناس بحسب معنى الآية إما مشغول : الخ . وفيها عدم تناسق في النسختين كما ترى .

ذلك واسطة ، فهو ناج ، فإذا لم يكن كذلك وقع في الخطر ، فيكون كما قال ﷺ : ((الولد مَجْبَنَةٌ مبخلة[1])) .

ومعنى ذلك أنه إذا التحم الحرب في جهاد المشركين أداه حبهم والشفقة عليهم إلى الجبن مخافة أن يموت عنهم فيهلكون جوعاً،لأنه يرى نفسه رازقاً لهم ؛ فيقوده ذلك إلى كبيرتين :

إحداهما في عقيدته ، وهي تخيله رازقاً غير الله ؛ فيكون سبباً لضعف يقينه أو ذهابه بالكلية .

قال ﷺ : «أخوف ماأخاف على أمتي ضعف اليقين ، قالوا : يارسول الله ، وماضعف اليقين؟ قال: الشك في المقدور ، وكثرة الاهتمام بالرزق»[2]. ولذلك كان كثيراً مايقول في دعائه : ((اللهم إني أعوذ بك من خوف الخلق ، وهم الرزق ، والرضى عن النفس ؛ لأنهن أمهات الخبائث)) .

الثانية: التولي يوم الزحف، والتعريد[3] من خوف الحتف، قال الله تعالى ﴿ **ومن يُوَلِّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله** ﴾ [الأنفال : ١٦] .

ومعنى كونه مبخلة أن الرجل لاتزال نفسه سخية ببذل المال وإنفاقه ما لم يولد له ، فإذا ولد له ، وكان ممن يرى الرزق من المال ، بخل بإنفاقه ؛ مخافة أن يتركهم عالة ، أو يكون ذلك سبباً للإقْتار عليهم . فهذا معنى كون الولد مبخلة .

الثاني : النهي عن صحبة الحريص وخلطته لخبر : ((المرء على دين خليله فاختر من تخالل)) . وفي رواية : من صحب الأبرار حشر معهم ولو لم يعمل بعملهم ، ومن صحب الفجار حشر معهم ولو عمل بعمل الأبرار ؛ لقوله ﷺ : ((من أحب قوماً حشر

---

(١) حديث : «الولد مجبنه مبخلة» : رواه ابن ماجه والحاكم ، وأوله : «أن النبي ﷺ أخذ حسناً فقبله ، ثم أقبل عليهم وقال : إن الولد مجبنة مبخلة ، وأحسبه ، قال : مجهلة» .

وأورده صاحب (الكشف) تحت رقم ٢٩١٦ والسخاوي تحت رقم ١٢٦٩ في المقاصد الحسنة .

(٢) حديث : «أخوف ماأخاف على امتي» لم أجده مخرجاً بهذا اللفظ .

(٣) التعريد ، ومعناه الهروب .

معهم[1])). والمصاحبة تستدعي المودة غالباً، وإلا بأن لم تحصل مودة فلا تزر وازرة وزر أخرى، وقال ﷺ: ((إياك وجليس السوء، فإن الطبع يسرق من الطبع بحيث لايعلم السارق ولاالمسروق منه[2])) وقال ﷺ: ((الجليس الصالح كحامل المسك: إما أن تشتري منه، وإما أن يعطيكه، وإما أن تجد من ريحه. وجليس السوء كصاحب الكير: إما أن يحرق ثيابك بناره، وإما أن يصيبك بدخانه وقتره[3])). قال الله تعالى: ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ [الزخرف:٦٧] .

قال الناظم رضي الله عنه[4]:

٦١ ـ وإنَّ صَدَى مَنْ لأَصِدَاءَ لَهُ أذىً ... وإنَّ الغَـرَا بـاللَّهْـوِ فيـهِ غِرَاءُ

الصدى ، بالفتح والقصر : مايرجع إلى المتكلم من صوته عند الجبل ، ويطلق ويراد به السواد ، قال كعب بن مالك :

إنَّ أخا الحرب أصدى اللون مهزول ....

والصدى أيضاً : صدأ الحديد والنحاس ، والصدى أيضاً : شيء كانت تقوله العرب ؛ وهو أن الميت إذا مات انتقلت روحه إلى طائر أو حية بفناء القبر ، فإذا رأى مايحب صاح ، وفي ذلك يقول شاعرهم : (من بحر الطويل)

ولو أن ليلى الأخيلية سلَّمت ... عليَّ ودوني جندل وصفائحُ
لَسَلمت تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدى من جانب القبر صائحُ

---

(١) حديث : «من أحب قوماً حشر معهم» رواه الحاكم في مستدركه جازماً بلا سند ، وأورده السخاوي تحت رقم ١٠٥١ وصاحب (الكشف) تحت رقم ٢٣٥٣ وله شاهد متفق عليه بلفظ : «المرء مع من أحب» والله أعلم .

(٢) حديث «إياك وجليس السوء ... الخ» لم اجده بهذا اللفظ ، إلا أن ابن عساكر روى في تاريخه : «إياك وقرين السوء فإنك به تعرف» ٣٣٣/٤ ، وهذا اللفظ موضوع ، وآفته إما محمد بن مسلمة الواسطي ، وإما شيخه موسى الطويل ، هذا مع أن السيوطي أورده تحت رقم ٢٨٩٠ ورمز له بالضعف ، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٨٤٧ وحكم بوضعه ، والله أعلم .

(٣) حديث «الجليس الصالح كحامل المسك ... الخ» متفق عليه ، وأوله : «مثل جليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير» .

(٤) سقط من النسختين (أ و ب) بيتان وجدتهما في نسخة خطية هما :

٥٩ ـ وَتَأبَى طَلَي الأسدِ الطَلاءِ فلن ترىَ ... جَدى الدهرِ طلوا يقتفيه جداءُ
٦٠ ـ مطيعُ الطلا مثلُ الطلاءِ فلا مِرىً ... حداً بل كمثل الضأن هُنَّ جداءُ

ويطلق ويراد به الظمأ، ويطلق ويراد به الحب. والصداء، بالكسر والمد: المماراة[1] كالمصاداة . والغرى ، بالقصر والفتح : الولوع بالشيء . والغراء ، بالكسر والمد : مصدر من غاريت بالشيء لاححت به أو عليه ، قال كثير : (من بحر الطويل) .

إذا قلت مهلاً غارت العين بالبكا غراءً ومَدَّتْها مدامعُ حُفَّلُ

والغراء أيضاً : الموالاة بين الشيئين . والغراء أيضاً : اللصاق ، ويطلق ويراد به الملازمة . فكأنه يقول : إن حكاية صوت الشخص الذي لايوالي الناس ولا يؤالفهم أذىً له ولهم : أما له فإنه لاأمان له منهم لسوء صنيعه بهم ، فيرتاع لكل صوت سمعه ، وإن كان حكاية صوته عند الجبل . وأما لهم فإنهم لم يتعودوا منه إلا قبح المعاملة ، فإذا سمعوا صداه تأذوا منه ؛ لأن رؤية المؤذي كسماع صوته ، فإنهما يذكران إذايته ، وفي ذلك يقول المتنبي : (من بحر الخفيف) .

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيه غذاء تضوى به الأجسامُ

قوله : وإن غرا باللهو : أي الولوع باللهو فيه ملامة ؛ إذ الولوع باللهو يستدعي الانكباب عليه وعدم الانفكاك عنه ؛ إذ النفس الأمارة بالسوء لشدة شرهها وحرصها إذا نالت شيئاً من مطلوبها قوي شرها واشتدت نهامتها ؛ فتلح في الحرص والطلب ، فكلما نالت بعد ذلك شيئاً ازداد شرهها على حسب مانالت من شهواتها ؛ فلا تنفك من أسرها ، ولاتحيط بها بأسرها ، وفي ولوعها بالشيء غاية خسرها ، نسأل الله السلامة من شرها ، هذا إذا ظفرت به ، وأما إذا لم تنل منه شيئاً فإنها لاتزال تتحسر عليه ، وتحن ولو بعد حين إليه ، ولاتزال بصاحبها حتى يعض على مافاته منه يديه ، ويصير أسوأ حالاً من الفاعل الذي لايريد العودة إلى الفعل ، فأحرى الفاعل النادم ؛ لأن الندم على الفعل توبة ، والندم على الترك إصرار . قال الشاعر : (من بحر البسيط)

إذا غدا ملك باللهو مشتغلاً فاحكم على ملكه بالويل والحرب

وقال ﷺ : ((إذا رأيت وهناً في بدنك ، أو حرماناً في رزقك ، وقساوة في قلبك ، فاعلم أنك اشتغلت بما لايعنيك)) .

---

(١) في (أ) المرآة ، أما في (ب) فأقرب شيء إلى الكلمة المماراة .

وقال ﷺ : ((أشد النّاس عذاباً يوم القيامة أكثرهم خَوضاً في الباطل))[1] .

ونَـاهيك من سـوء حـاله أن سـاوى الله بينـه وبين المكذبين بيوم الدين فقـال : ﴿ **ماسـلككم في سقر قالوا لم نك من المصـلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخَائضين وكنانكذب بيوم الدين** ﴾ [المدثر : ٤٢] ، وقال : ﴿ **ومَن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم** ﴾ الآية [لقمان : ٦] .

وقال ﷺ : ((أشد الناس ندامةً يوم القيامة أكثرهم كلاماً فيما لايعني)) وقال ﷺ : ((إن الرجل ليقول الكلمة ليضحك بها جلسـاءه يبلغ بها من عذاب الله مالم يكن له في الحساب[2])) .

يروى أن حاتماً الأصم رضي الله عنـه بينما هو جالس ذات يوم إذ نظر إلى باب دار فقال : لمن هذه الدار ؟ ثم ازدجر فا ستغفر واستعبر ثم قال : لقد تكلمت فيما لايعنيني ، وأي حاجة لي في البيت وبابه ؟ فنذر لله عليه صوم سنة كفارة لتلك الكلمة .

وقال ﷺ : «كل لهو يلهوه الإنسان فهو باطل إلا رمي الرجل بسهمه، أو ملاعبته زوجته ، أو تأديبه فرسه ليعلمها ويتعلم» ولهذا حرم الله المياسر كلها .

ومن الحكم الداوودية : ينبغي للرجل أن يقسم أوقاته بين عمل لآخرته ، ومرة لدنياه فيما لابد له منه من ضروريات طبعه ومؤونة عياله ، وساعة يشتغل فيها بمنافع الخلق ، ووقتاً يخلو فيه بنسائه ، وساعةً يحاسب فيها نفسه يخلو فيها بربه ، ولا يترك نفسه سدى كالبهيمة الراتعة .

وقال ﷺ : «من كان غَده خيراً من يومه فهو فائز ، ومن استوى غده ويومه فهو خاسر ، ومن كان يومه خيراً من غده فالموت خير له من الحياة» .

وقال ﷺ : «إن الله يبغض الفرحين المرحين»[3] .

---

(١) حديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة .. الخ» رواه ابن أبي الدنيا مرسلاً والطبراني موقوفاً ، وسند الطبراني صحيح ، ورجال ابن أبي الدنيا ثقات ، قاله العراقي (١١٢/٣) إحياء ، وهو عنده بلفظ (أعظم) بدل (أشد) .

(٢) حديث «إن الرجل ليقول الكلمة ليضحك بها جلساءه الخ» رواه ابن أبي الدنيا وفيه : «يهوي بها أبعد من الثريا» وسنده حسن ، وأصله عند الشيخين والنسائي بلفظ : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفاً في النار» والله أعلم .

(٣) حديث : «إن الله يبغض الفرحين المرحين» موضوع رواه الديلمي بلفظ : «إن الله يبغض البذخين

وقال ﷺ في حديث يرويه عن ربه «إني خلقت خوفين وأمنين فلا أجمعهما على عبد: من خافني في الدنيا أمنته في الآخرة ، ومن أمنني في الدنيا خوفته في الآخرة» . قال الله تعالى : ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : ٩٩] لأن من جعل أهوال القيامة نصب عينيه ، وكشف قناع الغفلة عن قلبه ، وزالت كثائف[1] الطبع عن بصيرته ، لم تسمح نفسه أن يلهو مع اللاهين ، ولا أن يغفل مع الغافلين .

وقال ﷺ : «لاينبغي لحامل القرآن أن يلهو مع اللاهين ، ولا أن يجهل مع الجاهلين ، فإذا فعل قال له القرآن : ويلك ألا تستحي مني وأنا بين جنبيك فإني شاهد لايرد ، وشفيع لايصد ، أما لك فيَّ عبرة ؟ أما لك فيما نزلت به موعظة ؟ فلو أنزلت على جبل لتخشع وتصدع» .

فعلى هذا يكون البيت مقتبساً من قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ . إلى ﴿ يؤفكون ﴾ [المنافقون : ٤] ، لأن البيت إنما جيء به في نعت المنافقين .

قال الرسول ﷺ : «في قلب كل مؤمن صوت نائحة ، وفي قلب كل منافق صوت مزمار» ولذلك صار النبي ﷺ الذي هو أتم الخلق إيماناً أكثرهم حزناً .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : «كان ﷺ ظاهر البشر ، متواصل الأحزان ليست له راحة ، وكان إذا كان في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[2] .

وكان يقول ﷺ لأصحابه : «لو رأيتم مارأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[3] .

الراحين ، ويحب كل قلب حزين» وأورده السيوطي تحت رقم ١٨٥٠ قال المناوي شارحه : فيه إسماعيل بن أبي زياد الشامي قال في الميزان : قال الدارقطني : متروك يضع الحديث (٢٨٤/٢) هذا مع أن السيوطي رمز له بالضعف فقط . قلت : وعلته من إسماعيل هذا ، والله أعلم .

(١) في نسخة (ب) : كثافة .

(٢) حديث : «وكان إذا كان في الصلاة يسمع لصدره ازيز الخ » رواه الترمذي في الشمائل وأحمد ٢٥/٤ وأبو داود في الصلاة والنسائي ١٣/٣ في السهو وإسناده قوي ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان واخرجه البغوي في شرح السنة ٢٤٥/٣ بلفظ :

«أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل ، يبكي» ، وفي رواية : «من البكاء» .

وفي رواية : « كأزير الرحى » والأزير : الصوت المكتوم ، والله أعلم .

(٣) حديث : «لو رأيتم مارأيت لضحكتم قليلاً الخ» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي والنسائي .

وأوله عند البخاري «لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» ؛ والله أعلم .

وروي أنه ﷺ كان يقول في بعض خطبه : ((عجبت لمن أيقن بالنار كيف ينام ، ولمن يعلم أن الله مطلع عليه كيف يعصيه ، ولمن أيقن بالجنة كيف لايجد في طلبها ، ولمن علم خداع النفس كيف يطيعها ، ولمن علم زوال الدنيا كيف يركن إليها ويطمئن فيها ، ولمن علم أن المال عارية بيده كيف يبخل به عما يعود عليه نفعه في الآخرة))[1] تقبل الله أعمالنا ، وأصلح أحوالنا ، وأخذ بنواصينا إليه آمين .

قال الناظم :

٦٢ ـ أخَا الدِّين أوْلَى بالإخَاءِ فَذَا نَدىً أجِبْـــهُ إذَا مَــاكَانَ مِنْـــهُ نِـدَاءُ

قوله: أخا الدين: مفعول ثان لاتخذ، تقديره: اتخذ أخا الدين أخاً، فهو أولى: خبر لمبتدأ محذوف، وبالإخاء متعلق بأولى. والإخاء، بالمد: المصافَاة في الله، والأثرة على النفس، وهي سنة متبعة وقاعدة من قواعد الإسلام معتبرة، سنها رسول الله ﷺ لما قدم مهاجراً ومعه من أسلم من قومه، فآخى بين كل رجلين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة صدراً من الإسلام حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ [الأنفال: ٧٥] فنسخ التوارث وبقيت المصافاة، وكان الأنصاري إذا كانت له زوجتان نزل عن إحداهن لأخيه من المهاجرين، وربما شاطره إن احتاج إلى ذلك ورضيه، إلا ما كان من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فإن أخاه من الأنصار كان أبا أيوب فقال له: اختر أي زوجاتي أحببت أنزل لك عنها وأشاطرك مالي ورباعي[2]، فقال له: بارك الله عليك فإنك قد أديت حق الإخاء، وإني رجل تاجر، فأعرني منزلاً، وأسلفني، ففعل، فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى رد عليه ما أسلفه، واتخذ منزلاً، وتزوج امرأة من فضل تجارته، فأتى النبي ﷺ وعليه أثر صفرة[3] فقال: مه يا عبد الرحمن ؟! قال: تزوجت جاريةً من الأنصار، واشتريت منزلاً من فضل تجارتي، وقد طلب مني أخي الأنصاري أن ينزل لي عن أي نسائه أحببت، وأن يشاطرني ماله، فأبيت إذ لا أحب أن أكون كَلاً على أخي في الله ؛ لأني كنت رجلاً تاجراً،

(١) حديث : «كان ﷺ يقول في بعض خطبه الخ» لم أجده بهذا اللفظ .

(٢) الرباع: البيوت.

(٣) اثر صفرة: اثر طيب.

ل له رسول الله ﷺ : بارك الله لك في صفقة يمينك. فنال بركة دعاء رسول الله ﷺ
ان من أمره ما تقدم في صدر الكتاب.

وأما علي رضي الله عنه فإنه لما وقعت المؤاخاة ولم ير النبي ﷺ آخى بينه وبين أحد من
نصار، قال : وأين أخي يا رسول الله ؟ فأخذ بيده فقال : أنا أخوك. فصار ذلك من مفاخر
ي رضي الله عنه ؛ إذ كأنه لم ير له كفئاً غير نفسه، وفي ذلك يقول: (من بحر الوافر)

محمـــد النبـــي أخي وصهـــري	وحمـزة سـيـد الشـهـداء عمـي
وجعـفـــر الذي يغـدو ويُمســـي	يطـــير مع المـلائكـــة ابن أمي
وبنت محمـد سـكـني وعرســـي	منـــوطٌ لحمــهـــا بـدمي ولحمـي
وسبـطـــا أحمـدٍ ابنـــايَ منهـــا	فـــأيكـــمُ له ســهـــمٌ كسهـمي
ويشـــهـــد بـــالولاية لي عـليكـــم	رســـول الله يـــوم غَـديـــر خُــمٍّ
سبـــقتكُـــم إلى الإســـلام طـرّاً	صبيّـــاً مـــا بـلغتُ أوانَ حُـلمي

ومثل هذا من المحاسن والفضائل والمناقب، وما كان اختص به من زوائد الفضل. مدحه
ض ملوك اليمن فقال: (من بحر البسيط)

ســـائل قريشـــاً به إن كنت ذاعَمَهٍ	من كان أثبـتـهـــا في الدين أوتَـــادا
من كان أقدمهـــا ســلمـــاً وأكثرهـا	عــلمـــاً وأطهـــرهـــا زوجـــاً وأولادا
من وحـــد الله إذ كانت مكـــذبـــة	تـــدعـــو مع الله أوثَـــانـــاً وأنـــدادا
من كان يقـــدم في الهيجـــا إذا نكـــلوا	عنهـــا وإن بخــلوا في أزمـــة جـــادا
من كان أعـدلهـــا حكـمـــاً وأبسطهـــا	عــلمـــاً وأصـــدقهـــا وعداً وإيعـــادا
إن يصـــدقوك فـلن يعـدوا أبـا حسـن	إن أُنت لم تـــلق للأبـــرار حســـادا
إن أنت لم تـلق أقوامـاً ذوي صـــلف	وذا عنـــــــاد لحق الله جحـــــادا

يقال: آخاه وواخاه، وآخوته وأخيته أخوة وإخاء ومؤاخاةً فهو مؤاخ. وإنما آخى رسول
ﷺ بين أصحابه ليشد بذلك من عضدهم، ويذهب به عنهم وحشة الغربة ومفارقة الأهل
طن،وليحرك به من نشاطهم إلى الجهاد، وليهز به أعطاف توادهم، وتأكيد ألفتهم المشار
ا بقوله تعالى :

﴿ **لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبكم** ﴾ الآية [الأنفال: ٦٣]
انوا كذلك حتى إن الرجل منهم إذا مات ورثه أخوه في الدين دون أخيه في النسب، فلما

أكثر الله المسلمين وجاء الفتح زالت الوحشة لدخول الناس في الدين أفواجاً، فنسخ ال
التوارث بالأخوة الإسلامية؛ ورجع إلى الأخوة النسبية، وبقي التوادد والمصافاة والموالاة الموج
للنصرة والمعاضدة والمؤازرة، فأكد الله تعالى بقاءها فيما بينهم بقوله تعالى: ﴿ **إنما المؤمنو**
إخوة ﴾ [الحجرات: ١٠]. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام: ((**المؤمنون تتكافأ دماؤهم**
ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يَدٌ على من سواهم)).

وكان رسول الله ﷺ لما آخى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة آخَى بين معاوية بن أبي
سفيان والحُتات[١] بن زيد بن علقمة المجاشعي، فلما ولي الشام رحل إليه ولازمه لتلك الأخوة
فأحسن إليه معاوية، وبقي معه إلى أن أفضت إليه الخلافة، فمرض الحتات ومات، فحاز معاوي
جميع مخلفاته،وادعى أنه أولى بإرثه لتلك الأخوة، وإلى هذا يشير الفرزدق ويشنع عليه تلك
الخصلة إذ يقول:

(من بحر الطويل)

أبـوك وعمـي يـا معـاوي أورثـا تُـراثـاً ليحتـاز التراث أقـاربـه
فمـا بـال مـيراث الحُتـات أكلتـه ومـيراث صخـر جـامـد لك ذائبـه

وفي تأكيد نسب الدين وإبطال نسب الطين قال الرسول ﷺ : ((لاتوارث بين
ملتين شتى))[٢] ؛ ولذلك من لارحم له في الإسلام ترثه جماعة المسلمين، وكذلك السائبة
ومن علم إسلام قومه ثم جهلت أعيانهم.

واختص بالأخوة التامة من هذه الأمة أهل التصوف رضي الله عنهم؛ فبقوا على ما كا
عليه سلفهم الصالح من أصحاب رسول الله ﷺ لم يزد لديهم إلا تأكيداً؛ فأوجبوا تقديم حق

(١) الحتات ــ بضم الحاء وتخفيف التاء ــ بن زيد بن علقمة، وفد على النبي ﷺ في وفد بني تميم وأسلم
وقصة الأخوة مع معاوية ذكرها ابن إسحاق والكلبي. وفيها أنه مات عند معاوية في خلافته فورثه (١/٣١٠
إصابة.

قلت: ومن المستبعد عندي أن تكون هذه الأخوة صحيحة، لأن الأخوة إنما تمت بين المهاجرين والأنصا
في الصدر الأول من الإسلام.

ومعاوية لم يهاجر قطعاً إلا بعد الفتح، ولم يسلم على الصحيح إلا بعده، ثم ان معاوية وهو خليفة لايحتاج
إلى ميراث الحتات.

(٢) حديث: « لاتوارث بين ملتين الخ » صحيح رواه مسلم بلفظ: « لايرث المسلم الكافر ولا يرث الكاف
المسلم » (٥/٥٩).

الأخ من الشيخ على الأخ للأب والأم[1]، بل صيروا أخا النسب أجنبياً؛ فلا يستحلون في طريقتهم أن يمنع أحدهم من أخيه ما يحتاج إليه من ماله، ويتحرجون من قوله: مالي، وهذا لي، إلى ما لا يدخل تحت حصر من مآثرهم رضي الله عنهم، إذ تتبعه يخرجنا عن قصد الاختصار.
وفي ذلك يقولون:

(من بحر الرجز)

إن أخـــاك الحق من يســعــى معك ... ومن يضر نفســـه لـيـنـفـعـك
ومن إذا ريب الزمـــان صـــدعك ... شتت فيــك شمــله ليجــمــعــك

وبقي نوع آخر من الأخوة وهو أخوة العامة وهي المناصرة ظاهراً دون المصافاة باطناً ، وذلك ماتُساس به دول الملوك وألفة القبائل فيما بينها .

يروى ان عبد الملك بن مروان جلس يوماً بدير سمعان، واجتمع إليه وجوه الناس فقال نبئوني بأحسن ما قيل في الأخوة ؛ فأخذ كل منهم يقول ما عنده ، فلما فرغوا قال لهم: أحسن ما قيل في الأخوة قول الشاعر : (من بحر الخفيف)

إنَّمـــا خِـلُّك المصـــاحب في المَرْ ... رِ وأين المصـــاحب في المرِ أيْنَـا
الذي إن حضرت زانك في الحــــــ ... ـــي وإن غبت صـــار أذنـاً وعينـا

فاتفقوا على أنه أحسن ما قيل في المؤاخاة. ومن هذا القبيل قول بعض الفضلاء: (من بحر الطويل)

أحب من الإخـــوان كل مـــوات ... عفيفـاً غضيض الطرف عن عثرات
يـــوافقـــني فيما أروم وأشـــتهـــي ... ويســـعـــدني حيـــاً وبعـــد ممـــات
فمــن لي بهــذا ليتــني قــد وجدتــه ... أقـــاسمــه مـــالي ومن حســنـــات

قوله : فذا ندىً: منصوب على الاشتغال أي أجب ذا ندى، أي صاحب كرم أجبه.
وإذا: ظرف لما يستقبل، وما: زائدة توكيدية. وكان: فعل ماض ناقص. ونداء، بالكسر والمد: اسم كان، وخبرها المجرور قبله.

والمعنى : إذا ناداك الكريم ، أي دعاك ، فأجبه ولا تخيب نداءه ؛ فإنه إنما يدعوك إلى فضل أوفضيلة فهو خليق بأن يجاب نداؤه ؛ لأن «السخي قريب من الله ، قريب من الجنة ،

---

(١) الأخوة الاسلامية شاملة لجميع المسلمين، أما اختصاصها بأخوة الشيخ فلا أظن الأدلة تساعد على ذلك، والله أعلم.

قريب من الناس ، بعيد عن النار» ، كما روي عن رسول الله ﷺ[1] . فمن هذه أوصافه خليق أن يُواخى . وفي مثل ذلك يقول الشاعر : (من بحر البسيط)

إذا دعـاه كريم يـوم مسـغبـة　　يقـول لاغـائب مـالي ولا حـرمُ

وقال غيره : (من بحر الطويل)

وليس بدُحرورٍ[2] إذا سيل حاجة　　ولا بمنكب　ثـرى الأرض ينكت

وقال غيره : (من بحر الطويل)

فما خُذِّلٌ قومي فـأخضـع للعدا　　ولكـن إذا أدعـوهـم فهـم هـم

ومن مآثر الكرام أنهم يكسبون مجالسهم والمتسير بسيرتهم أخلاقاً حميدة وشيماً كريمة لما يسري إليه من غرائب نفوسهم المهذبة ؛ فتكتسب منه الأخلاق الحميدة فضلاً عن صحبتهم ؛ فمن ذلك ماأنشده حاتم الطائي لما ألح عليه قومه بالعذل على الكرم ؛ إذ كان كلما نفد ماله استلف واستدان مخافة أن يسري في عرضه خلل أو في مكارمه فشل ؛ فقال[3] : (من بحر الطويل)

يـلومـونـني في الدَّين قـومي وإنمـا　　ديوني في أشيـاء تكسبهـم حمدا
لهـم جـلُّ مـالي إن تتـابع لي غنىً　　وإن قـل مـالي لا أكلفهـم رفـدا
فـإن شتمـوا عرضي وفرت عروضهـم　　وإن هـدمـوا مجدي بنيت لهـم مجداً
ولا أحمـل الحقـد القـديم عـليهـم　　فليس رئيس القوم من يحمـل الحقدا
وإني لعبـد الضـيف مـادام نـازلا　　ولاشـيمـة لي غيرهـا تشبـه العبـدا

وله أبيات في الموضوع غير هذه .

وقال ﷺ : ((ولتجبْ إذا دعْيت إلى وليمة العرس وأنت في الأكل بالخيار)).

ومن واجب الأخوة العامة ماقاله الصادق المصدوق ﷺ حيث يقول : حق المسلم على أخيه المسلم أن يرد عليه السلام إذاسلم ، وأن يطعمه إذا استطعتم ، وأن يشمته إذا

---

(١) حديث : «السخي قريب من الله قريب من الجنة الخ» ضعيف جداً ، اخرجه الترمذي (١٤٣/٣) والعقيلي في الضعفاء (١٥٤) وابن عدي (١٨٣/٢) قال الترمذي : غريب ، وقال العقيلي : ليس لهذا الحديث أصل من حديث يحي ولاغيره . وقال ابن حبان : غريب غريب . وأورده ابن الجوزي في موضوعاته ، وتعقبه السيوطي في اللآلىء (٩٢/٢) ، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ١٥٤ وقال : ضعيف جداً ، والله أعلم .

(٢) الدحرور والدحور : الذي يدفع الناس عنه أو يطردهم .

(٣) المعروف أن هذه الأبيات للمقنع الكندي ، وليست لحاتم الطائي كما ذكر .

عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويشهد جنازته إذا مات ، ويجيبه إذا دعاه ، وإذا افتقر إلى مواساته إساه ، وينصحه إذا حضر ، ويحفظه إذا غاب ، وإن استأذنه في الدخول أذن إن لم يكن شغل أو مانع ، ولايدخل عليه بغير إذن ، ولايزيد في الاستئذان على الثلاث بل ينصرف عند الاستئذان الثالث ، ولاينقر الباب وإن نقر خفف ، وليذكر اسمه إذا سئل ، ويحرم النظر إلى داخل البيت عند الاستئذان ، ومن ذلك القيام بحق الجار والأجير والمستجير . قال ﷺ : ((مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه[1])) .

وقال ﷺ : ((أربعون داراً جار[2])) .

وقال ﷺ : ((جار له أربعة حقوق ، وجار له ثلاثة حقوق ، وجار له حقان ، وجار له حق واحد ؛ فالذي له أربعة حقوق : جار ورحم مسلم قريب المنزل له حق الجوار وحق الرحم وحق الإسلام وحق قرب المنزل. والذي له ثلاثة حقوق: جار مسلم قريب المنزل له حق الجوار وحق الإسلام وحق قرب المنزل. والذي له حقان: جار مسلم له حق الجوار وحق الإسلام. والذي له حق واحد جار مشرك له حق الجوار فقط))[3] .

---

(١) حديث : «مازال جبريل يوصيني بالجار الخ» متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) حديث : «أربعون داراً جار الخ» ضعيف ، اخرجه الطبراني بلفظ : «إلا أن أربعين داراً جوار ، ولايدخل الجنة من خاف جاره بوائقه»الخ .

وأورده الهيثمي (١٦٩/٨) مجمع — وفيه : يوسف بن السفر وهو متروك ، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٢٧٥ وقال : ضعيف : روي هذا الحديث بسند رجال ثقات ولولا أنه مرسل لحكمت بصحته ، أما الموصول فهو ضعيف ، قال العراقي في تخريج احاديث (الأحياء) بعد أن ساق الحديث من الوجهين : المرسل والموصول كلاهما ضعيف (٢١٢/٢) .

قلت : أول الحديث ضعيف ، وآخره «ولايدخل الجنة من خاف جاره بوائقه» فصحيح لأن مسلماً رواه في صحيحه ، والله أعلم .

(٣) حديث: « جار له أربعة حقوق الخ » ضعيف جداً ، رواه أبو الشيخ والبزار وأبو نعيم : وأوله عندهم الجيران ثلاثة الخ » . قال الحافظ العراقي بعد أن أورد الحديث : رواه البزار وأبو نعيم وأبو الشيخ بسندين وكلاهما ضعيف (٢١٢/٢) .

وأورده الهيثمي وقال : رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد وهو وضاع (١٦٤/٨). كما أورده صاحب (الكشف) تحت رقم ١٠٥٥ وقال : ضعيف ، والله أعلم .

وهذه الرواية غريبة جداً ، وإنما المشهور الموجود في جميع الصحاح مانصه : ((جار له ثلاثة حقوق ، وجار له حقان ، وجار له حق واحد)) .

قال الله تعالى : ﴿ **والجار ذي القربي والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل** ﴾ [النساء : ٣٦] وإنما أتى الله بهم على هذا النسق لتأكيد حقهم دون سائر المسلمين .

وقال ﷺ : ((المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه))[١] .

وقال ﷺ : ((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقالوا : أما نصره مظلوماً فقد عرفناه فما نصره ظالماً ؟ قال : أن تأخذوا على يديه[٢])) .

وقال ﷺ : ((المسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً[٣])).

وقال ﷺ : ((المسلمون كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى كله بالألم والسهر[٤])) .

وقال ﷺ : ((ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم رجل استأجر أجيراً فأدى ماعليه ثم أكل أجرته ، ورجل اقتطع نصيباً من مال مسلم بيمين فاجرة بعد العصر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه[٥])) .

---

(١) حديث : «المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه الخ» متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذي ، وهو عند البخاري في كتاب (المظالم) .

(٢) حديث : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي وهو عند البخاري في باب (المظالم) .

(٣) حديث : «المسلم للمسلم كالبنيان الخ» متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ثم شبك بين أصابعه» .

والحديث عند البخاري في كتاب (الأدب) ، والله أعلم .

(٤) حديث : «المسلمون كالجسد الواحد الخ» متفق على صحته رواه الشيخان وأحمد ، وأوله عند مسلم وأحمد : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم الخ» أما أوله عند البخاري فهو : «ترى المؤمنين في توادهم» (كتاب الأدب) .

(٥) حديث : «ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة الخ» أخرجه الجماعة بلفظ غير لفظ الشيخ ؛ فهو عند البخاري بلفظ «ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع إماماً لايبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سخط ، ورجل

وقال ﷺ: «أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه[1]» .

وقال ﷺ : ((أنا خصيم من أكل حق أجير)) . وفي رواية : ((من أكل حق أجير كان الله خصمه ، ومن كان الله خصمه أنا خصمه)) .

ومن واجب الأخوة أيضاً حفظ حرمة المستجير ، قال ﷺ : ((من استغاث بك فأغثه ، ومن استجار بك فأجره)) .

وفي ذلك يقول الشاعر : (في بحر المنسرح)

إن الكـــريم يحـــلم مـــالم يـــرَيَنْ من أجـــاره قـــد أُهِيـــنـــا[2]

وفيه أيضاً يقول السموأل في قصيدته المشهورة : (من بحر الطويل)

فمـــا ضرنـــا أنـــا قـــليـــل وجـــارُنـــا عـــزيـــز وجـــار الأكثرينَ ذَليـــلُ

وهذه الخصلة مما يستوي فيه المسلم والمشرك صيانة لذم الإسلام . قال الله تعالى : **﴿ وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾** [التوبة : ٦] . ولقد بالغوا في ذلك حتى صار أحدهم يحمي الجراد إذا نزل بساحته من أن يستباح حتى يرتحل .

ومن تمام حق الأخوة الإحسان إلى المملوك، قال ﷺ: «سوء المملكة شؤم».

وقال ﷺ : ((أفضل الصدقة ماتصدق به على مملوك يساء إليه[3])) .

وقال ﷺ : ((إخوانكم خولكم[4] جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت

أقام سلعته بعد العصر فقال : والله الذي لاإله غيره لقد اعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل ، ثم قرأ : ((إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً)) البخاري كتاب (المساقاة) .

(١) حديث : «أعط الأجير حقه الخ» ضعيف رواه أبو يعلى في مسنده بلفظ : «اعطوا الأجير اجره» وأورده السيوطي تحت رقم ١١٦٤ بهذا الفظ ورمز له بالضعف ، قال المناوي : وبالجملة فطرقه كلها لاتخلو من ضعيف أو متروك لكن لمجموعها يصير حسناً (٥٦٣/١) .

(٢) البيت مختل الوزن . وربما كان

إن كريم الاصـــل ليحـــلم مـــا لم يـــرينْ من أجـــاره قـــد أهـــين

(٣) حديث : «أفضل الصدقة ماتصدق به على مملوك .. الخ» ضعيف رواه الطبراني في الأوسط له بلفظ : «أفضل الصدقة ماتصدق به على مملوك عند ملك سوء» .

وأورده السيوطي تحت رقم ١٢٦٤ وقال فيه : مالك بدل ملك ، وهو الأولى ، ورمز له بالضعف .

قال المناوي نقلاً عن الهيثمي : فيه بشر بن ميمون وهو ضعيف (٣٨/٢) ، والله أعلم .

(١) الخول : الخدم والعبيد الذين يتعهدون الأمور .

أيديهم فأطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون وإذا كلفتموهم فأعينوهم[1])) .

وكان ﷺ يأمر أصحابه أن يريحوهم في أحد الملوين[2] .

وماضرب ﷺ مملوكاً بيده إلا أن يكون في حد من حدود الله .

ومن واجب حقوق الأخوة دفع زحوف المشركين عن مدائن المسلمين وثغورهم على قدر الاستطاعة والطاقة ، فيكون الدفع حينئذ فرضاً على كل قَرية من قرى الأمة حيث كانت المدينة لاتقوم بدفع الزحف . وقيل : إنما يجب ذلك على الأمراء لوجوب طاعتهم ؛ فيجب حينئذ الجهاد والدفع على من دعوه إليه ، كما فعل المعتصم بالله في القرن الخامس[3] ؛ وذلك أن نُوفلس ملك الروم أغار على ثغر من ثغور المسلمين فأباد رجاله وسبى نساءه فسبى علج من أعلاج الروم بنت كبير من كبراء المسلمين ، فعنفها ؛ فقالت : وامعتصماه ، فلطمها وقال : مايغني عنك المعتصم ؟ فلما بلغت كلمتها المعتصم خرج من فوره وهو يقول : لبيك لبيك . فلما أجمع الغزو جاءه المنجمون فَقالوا له : لاتغْز أيها الأمير فإننا نرى فيما عندنا من كتب التنجيم أنك إن غزوتهم الآن استصعبوا عليك ولم تقدر لهم على شيء : فقال : آمنت بالله وبرسوله وماجاء به من الله وكفرت بالنجوم ، فنزل على عمورية ، فبذلوا له الأموال على أن ينصرف عنهم ، فقال : والله لارجعت عنها أو أقلع أساسها . فأتاه المنجمون من الروم فقالوا له : انصرف أيها الملك فإنه ما حاصرها قوم فأدركهم نضج التين والعنب إلا استؤصلوا فأفناهم الطاعون ، فقال : آمنت بالله وتوكلت عليه ، والله لاأنثني حتى أستأصلها أو أموت دونها . فنازلها حتى خربها وقتل تسعين ألفاً من صناديدها ، ففر نوفلس . وسبى المعتصم من الروم مالا

---

(١) حديث : «إخوانكم خولكم» متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والنسائي بألفاظ يزيد بعضها على بعض غير أنها متقاربة ، وهو عند البخاري قريب من هذا اللفظ في كتاب (الإيمان) ، والله أعلم .

(٢) الملوين : الليل والنهار ، ولم أعثر على هذا الأمر الذي هو قول الشيخ : «وكان يأمر اصحابه أن يريحوهم أحد الملوين» .

(٣) المعتصم بالله : هو محمد بن الرشيد هارون بن محمد الخليفة العباسي ، ولي الخلافة بعد أخيه المأمون عام ٢١٨ وتوفي عام ٢٢٧ ، والقصة التي ذكر الشيخ وقعت له في مدينة عمورية ، وليس هو ولا هي في القرن الخامس الهجري وإنما في أول القرن الثالث . واسم ملك الروم نوفل بن ميخائيل حسب رواية ابن خلدون (٣/٢٦٢) والله أعلم .

يحصيه العدد بعدما استنقذ ماباأيديهم من سبايا المسلمين وفيهم المرأة التي استغاثت به ؛ فأنشأ أبو تمام القصيدة التي مطلعها قوله معرضاً بالمنجمين الذين قالوا له : إنها لاتفتح في هذا الوقت : (من بحر البسيط)

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيض الصفائح لاسود الصحائف في ... متونهن جلاءُ الشك والريب
وَالْعِلْمُ في شُهبِ الأرماحِ لامعةً ... بَيْن الخميسَينِ لا في السبعة الشهب
أين الروايةُ بل أين النجومُ وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرُّصاً وأحاديثا ملفقةً ... ليست بنبع إذا عدت ولا غَرَب[1]
عجائباً زَعموا الأيامَ مجفلةً ... عنهن في صَفَر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياءَ مظلمةٍ ... إذا بدا الكوكب الدري ذو الذنب[2]
وصيروا الأبرج الْعليَا مرتبةً ... ماكان منقلباً أو غيرَ منقلبِ
يقضون بالأمر عنها وهي غافلةٌ ... مادار في فلك منها وفي قُطبِ
لو بَيَّنَتْ قط أمراً قبل موقعه ... لم يَخْفَ ماحل بالأوثان والصُّلُبِ
فتح الفتوح تَعالى أن يحيط به ... نظمٌ من الشعر أو نَثْرٌ من الخُطَبِ
فتحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السماء له ... وتَبرزُ الأرض في أثوابها القُشُبِ[3]
يايوم وقعة عمورية انصرفتْ ... عنك المنى حفلاً معسولةَ الحلب
أبْقَيْتِ جدَّ بني الإسلام في صعُدٍ ... والمشركين وجد الشرك في صَبَبِ[4]
لما رأى الحربَ رأي العينِ نُوفلَسٌ ... والحربُ مشتقة المعنى من الْحَربِ
غدا يصرف بالأموال جِرْيَتَها ... فَعَزَّهُ البحر ذو التيار والعَبَبِ
هيهاتَ زُعزعت الأرضُ الوقُورُ به ... من غزو محتسب لاغزو مكتسب
لم ينفق الذهب الْمُربي بكثرته ... على الحصى وبه فقر إلى الذهب

---

(١) النبع : شجر ينبت في أعالي الجبال مشهور بالصلابة . والغرب بالتحريك : نبت ينبت على الانهار ليس له قوة . والمعنى أن هذه الاحاديث الملفقة ليست قوية كالنبع بل ولا ضعيفة كالغرب ، بل هي لاشيء ، وهذا النوع معروف في وصف الشيء بالعدم ، والله أعلم .

(٢) في (ب) : دهياء داهية بدل مظلمة ، وكذلك الكوكب الدري بدل الغربي الموجودة في الدواوين المطبوعة .

(٣) القشب : جمع قشيب : الجديد النظيف الأبيض .

(٤) في النسخ المطبوعة من الديوان : (ودار الشرك) بدل (وجد الشرك)

إن الأسـودَ أسـودَ الغـاب همتُهـا يـوم الكريهـة في المسلوب لا السلَبِ
ولّى وقـد ألجـم الخَطّيُّ منطقـهُ بسكتـة تحتهـا الأحشـاء في صخب
أحْسـى قـرابينـه صرف الردى ومضى يحث أنجى مطـايـاه من الرعب[1]
مـوكلاً بيفـاع الأرض يـذْرعهـا من خيفـة المـوت لا من خفـة الطرب[2]
إن يَعـدُ منْ حـرهـا عَـدْوَ الظـليم فَقـدْ أوسـعتْ جَـاحِمَـهَـا من كثرة الحطب[3]
تسعـون ألفـا كآسـاد الشرى نضجتْ جـلودهـم قبـل نضـج التـين والعنب

ومن الأخوة ماهو على دخل ، وهي أخوة اللئام والمنافقين ، وفي المثل : (كن بذوي القرابة شديد الاسترابة ، فالمدخر الشفيق لا الشقيق ، والمعتبر الوداد لا الولاد) ، معناه ، كن كثير ظن السوء في جميع أقاربك ، ولا تطمئن إلى أحد من أبنائك فضلاً عن إخوانك . وهذا مثل قول الطغرائي[4] رحمه الله تعالى : (من بحر البسيط)

أعـدى عـدوك أدنى وثقت بـه فحـاذر النـاس واصحبهم على دخل

ومثله قول الآخر : (من بحر البسيط)

العجـز ضر ومـا بـالحزم من ضرر وأحزم الحزم سـوء الظن بـالنـاس

وفي ذلك يقـول النبي ﷺ : ((اللهـم إني أعوذ بك من إخوان العـلانيـة أعداء السر)) .

وقال علي كرم الله وجهه : الحزم سوء الظن بالناس ؛ لأن أكثر الناس المنافقون واللئام وأقلهـم الأصفيـاء الكرام لقوله تعـالى : ﴿ **وقليـل ماهم** ﴾ [ص : ٢٤] وفي ذلك يقول الشاعر : (من بحر الوافر) .

صحبت النـاس جيـلاً بعـد جيـل فـلم أر غـير مغتـال وقـالِ

---

(١) في (أ) : (أحفى) بدل (أحسى) ، و (يحثحث) بدل (يحث) ، ومن الهرب بدل الرعب .

(٢) اليفاع : المرتفع من الأرض . والبيت في ديوان أبي تمام هو :

مـوكلاً بيفـاع الأرض يشـرفـه من خفـة الخوف لا من خفـة الطرب

(٣) الجاحم : الذي يوقد النار .

(٤) الطغرائي: هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي الملقب بمؤيد الدين المشهور بالطغرائي المتوفى سنة ٥١٣ من قصيدة له تعرف بلامية الطغرائي ، وأولها :

أصـالة الرأي صـانتـني عن الخطـل وحـليـة الفضـل زانتني لدى العطـل

وهي طويلة ومليئة بالحكم ، وتسمى لامية العجم .

وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشريد : (من بحر البسيط)

ترى الأمور سواءً وهي مقبلة وفي عواقبها تبيان ماالتبسا
ترى الجليس يقول القول تحسبه نصحاً وهيهات مانصحا به التَّمَسا
فَجالسْنه ولاتأمَنْ غوائلَه والبس له ثوب غل مثلما لبسا

فاسمع مقالته واحذر عداوته ، فغايةُ مايجتنى من صحبة اللئام والمنافقين السلامة من شرهم وغوائلهم كما أنه لايجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك صحبتهم ، وأخوتهم ليست لها عاقبة تحمد كما قال الله لنبيهﷺ في التحذير من خلطتهم وأُخوتهم وأمره بتجنبهم وعدم مصافاتهم : ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ [المنافقون : ٤] ، وفي مثلهم يقول الشاعر : (من بحر الوافر)

تَخِذْتُهمُ سهاماً للأعادي فكانوها ولكن في فؤادي
وقَالوا قَد صفَتْ منا قُلوبٌ نعم صدقُوا ولكن من ودادي
فلما خفت شرهمُ رَمَيْنا صحيح القرب منهم بالبعاد

وحقيقة الأخوة على دخل هو أن تكون أخوتهم منعقدة على الأغراض، ومموهة على الأمراض، إن وجد من أخيه ما أحب وما هوي شكر ، وإن رأى غير ذلك يوماً ما أنكر ثم كفر ؛ وفي مثلهم يقول الله تعالى : ﴿ **فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون** ﴾ [التوبة:٥٨] . وقال رسول الله ﷺ : ((شر الناس عند الله منزلة من صحب إماماً على دخل إن أعطاه من الدنيا رضي وإن لم يعطه سخط)) .

وفي مثلهم يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

إن يَسمَعوا سُبَّةً طاروا بها فرحاً مِنِّي وما سمعوا من صالح دفنوا

وقال غيره: (من بحر الطويل)

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذي هو فيه
فلا خير فيمن لا يرى عيب نفسه ويَنْسِبُ عيباً باطلاً لأخيه

ومثالب إخوان السوء لاتحصى، لا جعلنا الله منهم ، ولا جعلهم إلينا .

قال الناظم رضي الله عنه آمين :

٦٣ ــ وَأَهْلَ اللَّخا اهْجُرْ واللِّخَاءَ اتَّبعْ بِهِ وَخَا السَّلَفِ المَرْضي مِنْهُ وِخَاءُ

قوله: أهل اللخا، بالقصر والفتح: كثرة الكلام بالباطل. والزم اللخاء ، بالكسر والمد:

أي العطاء في ذات الله وما يصون العرض والمروءة ، ويقال : الموافقة والمخالفة بالحاء المهملة. قوله: اتبع بها سبيل السلف الصالح، وهو وخا، بالقصر والفتح: أي مايرضي منه. وخاء، بالمد والكسر: أي مؤاخاة ومصافاة .

وهذا البيت تتميم للبيت قبله، وهو من باب التضمين المجازي؛ لأنه حض على الكرم بقوله: الزم اللخاء، بالمد: تلميحاً لقوله ﷺ : ((شر الناس ثلاثة: غني بخيل، وشيخ فاسق، وفقير متكبر)) .

وقال علي كرم الله وجهه: الملك البخيل شر من الغني البخيل؛ لقوله ﷺ : ((ابخل الناس من بخل بمال غيره)) ، وهو الملك، كما قال الشاعر في الجناس: (من المتقارب)

إذا مـــلك لم يكـــن ذا هبـــه　　　فـــدعـــه فـــدولتـــه ذاهبـــه

وقال غيره: (من بحر الطويل)

فـــلا تجمـــع الأمـــوال إلا لبـــذلهـــا　　　كما لا يســـاق الهـديُ إلا إلى النحـــر

وقال ﷺ : ((خلق الله أربعا لأربع : خلق المال للإنفاق لا للإمساك ، والولد للموت لا للبقاء ، والبناء للخراب لا للدوام، وخلق العلم للعمل لا للتعلم)) .

يروى أن عزرائيل عليه السلام يصيح كل يوم بأهل الدنيا: لدوا للموت وابنوا للخراب .

والبذل منه محمود ومذْموم ؛ فالممدوح منه ما أفاد أجراً ، أو أكسب ذكراً ، أو صان عرضاً، وأصلح فرضاً . والمذموم منه ما كان سرفاً ، وأدى إلى تلف ؛ فلا هو مأجور ولا عند الله مشكور . قال الله تعالى : ﴿ **ولاتبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾ [الإسراء:٢٦] .

وليس التبذير بكثرة البذل، وإنما التبذير ما كان لغير الله وإن قَل ، أو وضعه في غير موضعه . وأما ما كان لله وفي موضعه فليس بتبذير وإن أتى على جميع المال . كان ابو بكر رضي الله عنه يتجرد من ماله مراراً فلم ينكر ذلك عليه رسول الله ﷺ ، بل باهى الله به ملائكته من فوق سبع رقَاع[1]، وقد تخللت الملائكة يومئذ لتخلله غبطة بما صنع، لكن من لم يكن في اليقين كأبي بكر ينبغي له أن يبقي لورثته كما قال النبي ﷺ لأبي لبابة لما تيب عليه فقال: إن من توبتي يا رسول الله أن أنخلع من جميع ما أصبحت فيه، فقال ﷺ : ((لاتفعل بل تصدق

---

(١) الرقاع : السماوات .

بالثلث والثلث كثير؛ فلأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون النَّاس))[1] .

ومن أحسن ماقيل في الكرم ومكارم الأخلاق والإقدام ما رثى به أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ابن حميد بن مخطبة الأزدي وعشيرته فقال: (من بحر البسيط)

عهدي بهم تستنير الأرض إن نزلوا | بها وتَجتَمع الدنيا إذا اجتمعوا
ويضحك الدهر منهم عن غطارفة | كأن ايامهم من حسنها جمع[2]
يوم التُّباجِ لقد أبقيتَ بَائجةً | أحشاؤنا أبداً من ذكرها قِطَع[3]
من لم يعاين أبا نصرٍ وقاتله | فما رأى ضَبُعاً في شدقها سَبُعَ
فيم الشماتةُ إعلاناً بأسد وغى | افناهم الصبرُ إذ أبقاكم الجزع
لا غَرْوَ إن قتلوا صبراً ولا عجبٌ | فالقتل للحر في حكم العلا تَبَعُ

ومن ذلك النمط قول أبي تمام أيضاً في مرثية محمد بن حميد إذ يقول : (من بحر الطويل) .

وقد كان فَوْتُ الموت سهلاً فَرَدَّهُ | إليه الحِفاظُ المرُّ والخلُق الوعْرُ
ونفسٌ تعافُ العارَ حتى كأنَّما | هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبتَ في مستنقع الموت رجلَه | وقال لها من تحت أَخْمَصِكِ الحشرُ[4]

ومن ذلك قول الحارثي: (من بحر الطويل)

ولا يكشف الغمّاء إلا ابنُ حرةٍ | يرى غمرات الموت ثم يزورها
نقاسمهم أسيافَنا شرَّ قسمةٍ | ففينا غواشيها وفيهم صدورها

ومن ذلك قول مسلم بن الوليد يمدح ابن مزيد الشيباني: (من بحر البسيط)

يفتر عند افترار الحرب مبتسماً | إذا تغيّر وجه الفارس البطلِ

وقول الآخر : (من بحر الوافر)

تراه وأوجه الأبطال سود | يضيء كأنه قمر منيرُ

ومن هذا النمط قول أبي الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة: (من بحر الطويل)

---

(١) حديث « الثلث والثلث كثير الخ » متفق على صحته رواه الشيخان وأحمد وابن ماجه إلا أنهم رووه في قصة سعد بن أبي وقاص لا في أبي لبابة، والله أعلم .

(٢) الغطارفة: جمع غطريف، وهو السيد الشريف .

(٣) البائجة : الداهية .

(٤) الأخمص : مالا يصيب الأرض من باطن القدم .

وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تَمُرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقال حاتم بن عبد الله الطائي : (من بحر الطويل)

أضاحك ضيفي ثم أحمل رحله فيخصب عندي والمكان جديب
وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب[1]

ويذمون بضد هذا، قال الأشتر النخعي: (من بحر الطويل)

فأبقيتُ وفري وانحرفت عن العلا ولاقيت اضيافي بوجه عبوس

ونظيره قول الفرزدق : (من بحر الطويل)

لقد خنتَ قوماً لو لجأت إليهم طريدَ دمٍ أو حاملاً ثقل مَغْرَمِ
لألفيتَ فيهم معطيا أو مطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوم

وفي البيت اللف والنشر المعكوس. ومن هذا النمط قول أبي الطيب يمدح شجاع بن محمد الطائي : (من بحر الكامل)

وصن الحسام ولا تذله فانه يشكو يمينك والجماجم تشهد
يبس النجيع عليه وهو مجرد من غمده فكأنما هو مغمد

ومنه أيضاً قول أبي الطيب يمدح الأمير محمد ابن إسحاق التنوخي فقال: (من بحر الطويل)

يزور الأعادي في سماء عجاجةٍ أَسِنَّتُها في جانبيها الكواكبُ
فتسفر عنه والسيوف كأنما مضاربُها مما انفللن ضرائب
طلعن شموساً والغمود مشارق لهن وهاماتُ الرجال مغارب

وقد سبقه إلى ذلك علي بن محمد الحماني حيث قال: (من بحر المتقارب)

وإنّا لتصبح أسيافنا إذا ما انتضين ليوم سُفوكْ
مطالعهن بطون الأكف وأغمادهن رؤوس الملوكْ

---

(١) في النسخة (أ) : ولكنما وجه الكريم للأضياف خصيب
والبيت معه لايستقيم .
والبيت الأول في العقد الفريد هو :
أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب
(٢٣٦/١) .

ومن أحسن ما قيل في الهمة واستصغار الأمور العظام وإن كانت عظيمة في أنفسها، ذلك غاية المدح، وإنما يمدح به الرؤساء، كقول دريد بن الصمة يذكر قتل ربيعة بن مكدم الكناني لأصحابه بوادي الخزامى : (من بحر الكامل)

أردى فـوارسَ لم يكـونـوا نـهـزة ... ثم استـمـر كأنـه لم يفـعـل[1]

متهـللا تبـدو أسـرة وجهـه ... مثل الحسام جلته كفُّ الصيقل

ومن أحسن ما قيل في علو الهمة أيضاً والإقدام على الأمور العظام قول الصابىء بن حارث البرجمي: (من بحر الطويل)

سـأغسـل عني العار بالسيف جالبا ... علـيَّ قضـاءُ الله مـا كان جـالبـا

وأذهـل عن داري وأجعـلُ هـدمَهـا ... لعـرضي من بـاقي المذلة حـاجبـا

ويصـغـر في عيني تِلادي إذا انثنت ... يميـني بـإدراك الذي كنت طـالبـا

عـليكـم بـداري فـاهدموهـا فإنها ... تـراث كريم لايخـاف العـواقبـا

أخي عَـزَمـاتٍ لايـريـد على الذي ... يهـم بـه من مفـظع الأمر صـاحبـا

إذا هـمَّ ألْقـى بـين عينيـه عزمـه ... ونكّب عن ذكر العـواقب جـانبـا

إذا هـم لم تـردع عـزيمـة همـه ... ولم يـأت مـا يـأتي من الأمر هـائبـا

ولم يستشـر في أمـره غـير نفسـه ... ولم يرض إلا قـائم السيف صـاحبـا

ومن ذلك أيضاً ما مدح به الفرزدق يزيد بن المهلب بن أبي صفرة العتكي ثم الأزدي قال: (من بحر الكامل)

وإذا الرجـال رأوا يـزيـد رأيتهـم ... خضـعَ الرقَـاب نـواكسَ الأبصـارِ

إني رأيت يـزيـد عنـد شبـابـه ... لَبِسَ التـقـى ومهـابـة الجبـار

مَـلِكٌ عـليـه مهـابة الملك التقى ... قمـر التَّـمـام بـه وشمس نهـار

مَهَـدَت جيـاد يزيد كل مـدينـة ... بـين الردوم وبـين نخـل وبـار

شـعث موسـومـة على أكتـافهـا ... أسـد هـواصر بـالكـرام ضـوار[2]

يـدني خـوافق من خـوافق تـلتقي ... في ظـل معـترك العجـاج مثـار

(١) النهزة : الشيء الذي لك معرض كالغنيمة .

(٢) سقط من النسخة (أ) بيت بعد هذا البيت وهو في النسخة (ب) :

مـازال مـذْ عقـدت يـداه إزاره ... فسما فـأدرك عشـرة الأشبـار

ثم قال الناظم رحمه الله تعالى :

٦٤ ـ وَكُنْ ذَا رَدىً لا في رِدَاءٍ وَلاَ أذىً ... وَحِدْ عَنْ دَنـاً لاَ يَدْنُ مِنْكَ دِنَاءُ

قوله: كن ذا ردى: صاحب ردى، بالقصر والفتح: أي زيادة. لا في رداء، بالكسر والمد: أي دَيْن ، وبه فسر قول علي رضي الله عنه : من أراد النساء ولا نساء فليباكر بالعذراء وليخفف الرداء ، وليقلل غشيان النساء . أي: كن صاحب زيادة في غير الدَّين والأذى لا فيهما ؛ لأن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من المغرم والمهرم. قيل يا رسول الله ، ما لنا نسمعك كثيراً ما تتعوذ من المغرم؟ قال ﷺ : إذا غرم الرجل كذب فخان ، ووعد فأخلف)) .

وكان يقول: ((الدين هم ولو كان درهماً))[1] .

وقال أيضاً : ((الدين رق فاختر من يرقك)) .

وقال ﷺ : ((من أخَذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله))[2] .

وفي اصطلاح القوم: الدَّين شين الدين . ويقولون: الدين سبب البين، وجالب المين وعادية الرين[3] .

نعم حمل الدين لايذم على الإطلاق ؛ لأنه قَل من ماتَ من السلف إلا وذمته عامرة من الديون ؛ فإن عمر رضي الله عنه ماتَ وعليه أربعون الفاً ، فلما احتضر أرسل إلى ابنه عبد الله فقال له : أي بني إنه علي من الديون أربعون الفاً لم أتحملها سرفاً ولا تشهياً ، إنما كنت أعطيها للوفود، وأجعلها في مصالح المسلمين، فإذا أنا متّ فاقضها من أموال آل الخطاب، فإن لم يكن في أموالهم وفاء بالدين فسـل في بني عدي ولاتسـأل غيرهم ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) حديث « الدين همّ ولو كان درهما »: رواه الديلمي والطبراني بلفظ (الدين ولو درهم، والعائلة ولو بنت، والسؤال ولو كيف الطريق) .

وأورده السخاوي في المقاصد له تحت رقم ٥٠١ وقال: لا استحضره في المرفوع ومعناه صحيح، والله أعلم .

(٢) حديث « من أخذ أموال الناس يريد أداءها الخ » صحيح أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، وابن ماجه بهذا اللفظ، والله أعلم .

(٣) الرين: الوسخ .

ول : ((المرء مرتَهن بدينه)) إلا أني سمعته يقول: ((من مات وهو يحسن النية في أدائه ولم رك وفاء أدى الله عنه يوم القيامة)) .

وكان ﷺ يسأل عن الميت: هل عليه دين؟ فإن قيل: نعم، انصرف، وقال: صلوا على احبكم. وإن قيل له: لا، صلى عليه. وذلك في صدر الإسلام، فلما فتح خيبر واليمن صار ول : ((أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كان عليه دين فعلي قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو رثته)) . فيصلي على صاحب الدين وغيره[1] .

وكانت عائشة رضي الله عنها لاتقضي ديناً إلا حملت مثله ؛ فقيل لها في ذلك فقالت: عت رسول الله ﷺ يقول: ((من استدان ديناً في غير إسراف لم يزل في ذمة الله حتى ضيه، وأحب أن أكون في ذمة الله))[2] .

يروى أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه قد ركبني من ين ما أثقل ظهري فهل من حيلة؟ فقال له ﷺ : هلم أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن ى الله عنك دينك ولو كان مثل أحد ذهباً : قُل إذا أمسيت وإذا أصبحت : اللهم فارج م كاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمني حمني رحمة تغنيني بها عمن سواك[3] .

ولم يمكث إلا قليلاً حتى أتى النبي ﷺ فقال له: إن الله قد قضى ديني ووسَّع علي .

وكان ﷺ كثيراً مايقول: ((اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من جز والكسل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقَهر الرجال))[4] .

قوله: وحد: أي مل عن دنى، بالفتح والقصر: أي عن قلة وإقتار .

---

(١) حديث « كان ﷺ يسأل عن الميت الخ » متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي، وهو عند خاري في كتاب الحوالات .

(٢) حديث « من استدان دينا الخ » رواه أحمد والطبراني في الأوسط، وأوله عندهما: « من أدان بدل ندان، وسكت عليه العراقي في تخريج الإحياء ٢/٨٣ » .

(٣) حديث « اللهم فارج الهم الخ » روى الترمذي آخره وقال : حسن غريب ، وأوله عنده : « اللهم ني بحلالك عن حرامك » .

(٤) حديث « اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل الخ » متفق على صحته، رواه الشيخان مع اختلاف ير في الألفاظ .

قال ﷺ : «جهد من مقل كثير» .

وفي مثل ذلك أنزل الله قوله في مدح أبي طلحة وزوجته وجميع الأنصار : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ [الحشر : ٩] فذلك أدل دليل على سماحة النفس والكرم الغريزي . قال الشاعر : (من بحر الكامل)

ليس العطـــاء من الفضـــول سماحـةً ... حـــتى تجود ومـــا لديك قـــليـــلُ

قوله : لايدن منك دناء ، بالكسر والمد : جمع دنا ، وهذا دعاء للمخاطب أو هو نفسه ؛ لأنه جرد من نفسه شخصاً بأن لايقرب من دنا ؛ لأن قرب الدنا فضلاً عن الدناءة يورث الدناءة ، فحينئذ يخلع جلباب الحياء عن وجهه فلا يبالي بما ارتكب ولا ما اكتسب فيمتطي برذون لأبالي فما هو في المعالي المتوسط ولا التالي، فيخسر مع الخاسرين ، ويرتبط بربقة المارقين .

قوله : ولا أذى : عبارة عن الغمز واللمز والهمز ، وهي أخلاق الخبثة الضعفة من المنافقين واليهود ومن لاخلاق له من فسقة المسلمين .

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني** ﴾ [الصف : ٥] .

وكان ﷺ إذا أوذي في الله قال تأسّياً وتسلياً : «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١) .

وبالجملة فلما كان الدين ركناً من أركان العمارة ولم يكن للناس بُدٌّ منه اعتنى الله تعالى بأمره في كتابه فقال : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ثم قال : ﴿ **ولا يأبَ الشهداء إذا مادُعُوا** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ثم قال : ﴿ **فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لايستطيع أن يُملَّ هو فليملِلْ وليُّه بالعدل** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وذلك كله حسماً للنزاع ، وقطعاً للدفاع ؛ رحمة من الله وعناية لهذه الأمة الشريفة ، ثم لما خيف الحرج وسع فقال : ﴿ **إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ولاتشهدوا عليها . ثم حض عبادهُ على الصدق والوفاء وأداء الأمانة والنصح وعدم الكتمان بقوله : ﴿ **فإنْ أَمِنَ بعضكُم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتُمِنَ أمانته وليتقِ الله ربَّه** ﴾

---

(١) حديث : «رحم الله موسى لقد أوذي الخ» متفق عليه ، وهو عند البخاري في كتاب الأدب .

[البقرة : ٢٨٣] ﴿ ولايبخسن منه شيئاً ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . ثم قسم الغرماء فجعلهم ثلاثة أصناف صنف لاغرم عليه ولاأداء ، وصنف أمر بإنظاره ، وصنف أمره بالأداء من غير تأخير ولا إنظار ؛ فالأول : الفقير المعدم ، قال الرسول ﷺ : ((لاغرم على معدم)) الثاني : المعسر ، فإن الله ورسوله أمرا بإنظاره والتوسعة عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾ [البقرة : ٢٨٠] . وقال ﷺ : ((من أنظر ذا عسرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وصلت عليه ملائكة الرحمن ، وكان في ذمة الله مابقي بذمة غريمه درهم من دينه[١])) . الثالث : الغني ، قال ﷺ ((مطل الغني ظلم[٢])) والظالم أحق أن يحمل عليه حملنا الله على أقوم سبيل بفضله ، آمين .

قال الناظم :

٦٥ ــ وَكُنْ كَأَبــاً في اللهِ نَــاءِ إبَــاؤُهُ ذَرَاهُ نَجــاً جَــادَتْ عَـلَيْـهِ نِجَـاءُ

قوله : أي مثل (أبا) بالفتح والقصر ، وهذه لغة شاذة ؛ لأن الأسماء الخمسة أوجه الإعراب فيها بالحروف لابالقصر إلا بشرط الإضافة ، وإنما سمع قول من قال بقصرها على لغة هذيل لاستدلاله بالبيت وهو قوله :

إن أبـــاهـــا وأبـــا أبـــاهـــا قــد بــلـغــا في المجــد غــايتــاهــا

أي كن على عباد الله في الله موصوفاً بالشفقة والرحمة ، كما أن الأب كذلك على بنيه . قوله : ناء : أي بعيد ، ونأى : أي بعد إباؤه ، بالمد والكسر : أي بعد امتناعه ، أو نأت داره أو مكـانه الذي يستقر فيـه لأجل شفقتـه عليهم وكف أذاه عنهم . قال ﷺ : ((تزاوروا ولاتجاوروا))[٣] .

وفي المثل: المجاورة تورث المحاورة وماجمعت عمد إلا تقعقعت[٤] قوله: ذراه: أي كنفه

---

(١) حديث : «من أنظر ذا عسرة الخ» لم أجده بهذا اللفظ ، نعم ، روى أحمد ومسلم : «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله في ظله يوم لاظل إلا ظله» وهو جزء من حديث طويل .

(٢) حديث : «مطـل الغني ظلم» متفق على صحتـه رواه الشيخـاني والترمذي والنســائي ، وفي لفظ البخاري : «.وإذا اتْبِعَ أُحدكم على مَلِيء فليتبع» . (كتاب الحوالات) .

(٣) «تزاوروا ولاتجاوروا» لم أجده من كلام النبي ﷺ .

(٤) تقعقعت: تفرقت وارتحلت أو اصطدم بعضها ببعض .

ومأواه . نجا . بالفتح والقصر . أي شجرة دحداحة[1] لاكتفائه باليسير ولتعففه عن المطاو
والبنيان .

قال ﷺ : ((لن تقوم الساعة حتى ترى الحفاة العراة العالة[2] من أهل البادية يتطاولو
في البنيان))[3] .

ويطلق النجا أيضاً ويراد به جمع نَجاة وهي الغصون الناعمة . قوله : جادت عليه ، أ
على ذلك النجا الذي هو ذرى الأبا . نجاء ، بالكسر والمد : أي صبت عليها سحابة ، وواح
النجاء نجو ، وهو الذي نماؤه من السحاب .

أي : لتكن شفيقاً على خلق الله في الله بمثابة الأب من ولده ، واعتزلهم من الشفقة
واقتصر على مالا بد منه مما يواريك من الحر والبرد كأغصان الأشجار التي أصابتها الأمطار
قال الشاعر :

والفتى ظاعن ويكفيه ظل السِّـدْ ر عن ضرب أطنـــاب وأوتَـــادِ

وقال غيره : (من بحر الطويل)

أمـا كان في ظـل الإدراك كفـايـة لمـن كل يـوم يقتـضـيــه رحيــل

وقال أبو العتاهية للمنصور لما استنْشده حين أتم بناء قصره المشهور الذي لم يبنَ مثله ف
المعمور وقد جمع عليه ندماءه ، فقال له بديهة : (من مجزوء الكامل)

عش مــــابـــــدا لك آمِنـــــاً في ظـــل شـــامخة القـصـــور
يُجْبَـــى إليـــك نَعـيـــمُـهـــا بعـــد العشـــي وفي البـكـــورْ

قال له : قد أحسنت ، ثم قال له :

فَـــإذا النـــفـــوس تحشـــرجت يـــومـــاً وضـــاق بهـــا الصـــدور
أيقــــــنت أنك لم تَـــــزل من طــــول عمـــرك في غـــرور

وقال عدي بن زيد بن عمر في التزهيد في الدنيا وتحقير شأنها والكفاية باليسير منه
فقال : (من بحر الخفيف) .

---

(١) الدحداحة : القصيرة .

(٢) العالة : الفقراء .

(٣) حديث «لن تقوم الساعة الخ» حديث متفق على صحته رواه الشيخان وباقي الجماعة بألفاظ مختلف
ومتقاربة أحياناً . وهو حديث طويل ، وهذا جزء منه عند بعضهم ، وهو عند البخاري في كتاب الإيمان ، وأوله :
«كان ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : ماالإيمان .. الخ» .

أيها الشامتُ المُعَيِّرُ بالدهـ ـــر أأنت المبرّأ الموفورُ
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ـــام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خَلَّيْنَ أم مَنْ ذا عليه من أن يُضام خفيرُ
أين كسرى كسرى الملوك أنو شِرْ وان أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصفرِ الكرامُ ملوكُ الر وم لم يبق منهمُ مذكور
وأخو الحضر[1] إذ بناه وإذ دجـ ــلة تُجْبَى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلَّلهُ كلسـ ــاً فللطير في ذَرَاهُ وُكور
لم يهبه ريب المنون فبان الْـ ـملك عنه فبابه مهجور
وتذكر ربَّ الخوَرْنق إذ أشْـ ــرف يوماً وللهوى تذكير[2]
سره ماله وكثرةُ مايمـ ــلِكُ والبحرُ معرضاً والسديرُ
فارعوى قَلبُه وقال فما غِبْـ ــطةُ حيٍّ إلى الممات يصير ؟
ثم بعد الفلاح والملك والنعـ ــمة وارتْهُمُ هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورقٌ جَـ ــف فألوتْ به الصَّبا والدَّبور

وقد ذكر أبو الفرج الأصبهاني وغيره من أهل الأخبار حكاية عجيبة وقعت للنعمان بن امرىء القيس مع رجل من الراضة ، وهم قوم زُهاد لايخلي الله الأرض منهم ، وهو القائمون له بالحجة ، وهي التي أشار إليها زيد بن عمرو بن نفيل بقوله :

وتأمل رب الخورنق .. البيت .

وذلك أنه لما بنى الخورنق ، وهو قصر له على دجلة ، وبين يديه السدير ، وهو نهر آخر عن يمينه، والبساتين تخترقها جداول المياه كأنها أراقم[3] مسيرة ستة أميال من كل ناحية ، وكان الذي بناه له سنمار الرومي ، فلما أكمل بناءه بعد عدة سنين جاءه النعمان فتأمله فأعجب به غاية الإعجاب ، فلما رأى سنمار إعجابه به قال له : أيها الملك ، والله لو شئت لبنيت أحسن منه ، وإن في طوقي أن أبني قصراً يدور مع الشمس كيفما دارت ؛ فأمر به فقذف من فوق

---

(١) في (أ) الخضر ، وفي (ب) : القصر : وفي الأخبار والعقد : الحضر ، بالحاء والضاد : وهو حصن عظيم كان على شاطىء الفرات بناه ساطرون من أجداد النعمان بن المنذر .

(٢) أورد ابن عبد ربه هذا البيت فقال : (وتبين) بدل (وتذكر) ، و (للهدى) بدل و (للهوى) .

(٣) الأراقم : جمع أرقم : الثعبان .

القصر ، فمات ؛ فضربت العرب مثلاً فيمن أحسن إلى غيره وأساء إليه . قال سليط بن سع
التميمي : (من بحر البسيط)

جزى بنوهُ أبا الغيلان عن كبر ... وفعل خير كما يجزى سنمَّارُ

وقال غيره يذكر رجلاً أحسن إليه فأساء إليه الرجل : (من بحر الطويل)

جزاني جزاه الله شر جزائه ... جزاء سنمار وَمَا كان ذا ذنب
سوى رصد البناء عشرين حجة ... يعالى عليه بالقراميد والسكب

ثم لبث بعد ذلك ماشاء الله أن يلبث فصعد ، يوماً إلى أعلى الخورنق ومعه قوم م
خاصته ومعهم رجل من الراضة ، فأشرف نحو المشرق ، فرأى مايعجبه من كثرة الأشجا
وجداول تخترقها من تلك الأنهار ، ثم نظر إلى الشمال فرأى مثل ذلك ، ثم نظر إلى المغرب فرأ
مثل ذلك ، ثم نظر إلى الجنوب فرأى مثل ذلك ؛ فسره حسن ذلك وترتيبه وكثرته ومامد
من بحر دجلة ونهر السدير كما أشار إليه عدي بقوله : (من بحر الخفيف)

سره ماله وكثرة مايـ ... ـلك والبحرُ معرضاً والسدير

فقال لخواصه : لمن هذا كله ؟ قالوا : إنه للملك أدام الله سروره ووالى عليه حبوره
فقال لهم : هل رأيتم من ملك مثله ؟ قالوا لاأيها الملك ، قال : وهل سمعتم أن أحداً أعطى مثل
ماأعطيتُ ؟ قالوا : لاأيها الملك ، فقام إليه رجل فقال له : أيها الملك قد سألت عن أمر أفتأذ
لي في الجواب عنه ؟ فقال له : نعم ، قال : أرأيت ماأنت فيه أشيء لم تزل فيه ؟ أم هو شي
صار إليك ميراثاً من غيرك ؟ وهو زائل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك منه ؟ فقال
فكذلك هو ، قال له : كيف عجبتَ بشيء يسير تقيم فيه قليلاً وتغيب عنه طويلاً وتكون غد
بحسابه مرتهناً ؟ قال : ويحك فأين المهرب ؟ وإلى أين المطلب ؟ قال له : إما أن تقيم في ملكك
وتعمل بطاعة ربك على ماساءك وسرك ومضك وأرمضك[1] ، وإما أن تضع تاجك وتضع عل
ظهرك أطمارك[2] وتلبس أمساحك[3] وتعبد ربك في هذه الجبال حتى يأتيك أجلك . قال
فإذا كان السحر فاقرع على بابي فإني أختار أحد الأمرين ، فإن اخترت ماأنا فيه كنت وزير
لاتعصى ، وإن اخترت السياحة كنت رفيقاً لايخالف . فلما كان وقت السحر قرع عليه بابه

(١) أرمضك : أوقعك في الرمضاء : التراب الحار .
(٢) الأطمار : الثياب البالية .
(٣) المسوح : نسيج من الشعر يلبس على البدن تقشفاً .

فإذا هو قد وضع تاجه ولبس أمساحه وتهيأ للسياحة ، فلزما الخلوات ورفض الشهوات حتى ماتا ، كما أشار إليه عدي بقوله :

فارعوى قلبه وقال فما غبـ ـطةٌ حي إلى الممات يصير

والبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل** ﴾ [النساء : ٧٧] .

يروى أن النبي ﷺ وعظ أصحابه يوماً فقال لهم : ((الدنيا قليل ، ولم يبق منها إلا قليل ذهب صفوه وبقي كدره ؛ فلا يفتننكم قليل ذهب صفوه عن كثير دائم كله صفو))، ويكفي من عظمة نعيم الآخرة أن سماه الله كبيراً فقال : ﴿ **وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيا وملكاً كبيراً** ﴾ [الدهر : ٢٠] وأنت وشيك الارتحال إليه ، سريع الأنقلاب إليه .

يروى أن النبي ﷺ قال : ((إن المؤمن ليؤاجر على كل نفقة ينفقها في غير رياء ولاسمعة إلا ماأنفقه في الماء والطين[1])) يعني البنيان .

وقال ﷺ : ((إذا بنى الإنسان فوق سبعة أذرع ناداه ملك من السماء فقال له : إلى أين تريد ياطاغي[2])) .

فإن قلت : الماء والطين منها المساجد والرباطات ، وقد وردت آثار صحاح في الثواب عليها ، فهل بين الخبرين معارضة ؟

قلت : لا ؛ لأن المساجد والرباطات من العمل لله والدار الآخرة بخلاف ماسواهما من بناء الدور والقصور المؤدين للمفاخرة ، والإخلاد إلى العاجلة ، وإتلاف مال الله في غير فائدة ولا عائدة .

واختلف فيما كان للتحصن من العدو ، فقال قوم : يثاب عليه لأنه من باب الرباط

---

(١) حديث «إن المؤمن ليؤاجر .. الخ » حسن رواه ابن ماجه بلفظ : «كل نفقة العبد يؤاجر عليها إلا ما ينفقه في الماء والطين» . وفيه : «إلا في التراب» .

قال العراقي في تخريج الإحياء : إسناده جيد (٣٢١/٤) .

(٢) حديث «إذا بنى الإنسان فوق سبعة أذرع ناداه ملك الخ» موضوع أو ضعيف جداً .

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧٥/٣) بلفظ : «إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة اذرع ناداه مناد من السماء : أين تذهب ياأفسق الفاسقين» .

وآفته تفرد الوليد بن موسى القرشي به وهو ضعيف ، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ١٧٤ وقال موضوع والله أعلم .

لعموم المنفعة . وقال آخرون : إنما قصاراه أن لا يكون فيه محذور ، كما لو كان في قصر من بلاد السيبة يكثر فيه النقب والتسور والفساد ؛ فإنه ينبغي أن يبنى ويحكم ويرص بنيانه حتى يأمن ساكنه على نفسه وماله ، إذ يكون ذلك حينئذ من باب حفظ النفس والمال الواجب حفظهما ، فيجازى عليه إن عري من قصد المفاخرة ، وإلا فمكروه .

وأما البناء على القبور وزخرفتها فحرام إن كان من أجل المفاخرة وإلا فمكروه .

وأما بناء الفنادق للفقراء وابن السبيل فما وقفت على نص في ذلك صحيح أو صريح إلا أنه ينبغي أن تكون من أعمال البر إن صحت نية بانيها .

وأما المساجد فقد وردت فيها آثار جمة بأسانيد مختلفة ؛ منها ماأخرجه البيهقي من طريق أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : «من بنى لله قدر مفحص قطاة يصلي فيه بنى الله له بيتاً في الجنة[1]» .

وقال ﷺ : «شرفوا بيوتكم ، واجعلوا مساجدكم جماء» .

وكان ﷺ أول مايشترط على من أسلم من العرب أن يبنوا المساجد بساحتهم ، وأن ينوهوا بالأذان فيها ، وأن يعلموا صبيانهم كتاب الله ، ولا يقبل منهم عذرا .

قال ﷺ : ((وسعوا مساجدكم تملأوها)).

وفي حديث قدسي قال الله تعالى : ((أيما قوم شيدوا دورهم وقصورهم وخربوا بيوتي ووضعوها إلا خربت دورهم وقصورهم ولم أجعل لهم نصيباً فيما عندي ولأصيبنهم بالهوان)) .

قال الله تعالى : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه** ﴾ [النور : ٣٦] بأن يعلى بنيانها وصوامعها على البيوت لشرفها ، وليكون ذلك أبلغ في رفع صوت المؤذن ، وأطول لمد صوته ، والتطهير من الأقذار بالقم[2] والصيانة ، ولا تدخلها حائض ولا جنب ولا مشرك ، ولايتحدث فيها بحديث الدنيا ، ولاتُرفع فيها الأصوات .

---

(١) حديث «من بنى لله قدر مفحص الخ» حديث صحيح رواه البزار والطبراني وابن ماجه بهذا اللفظ ، ورواه الترمذي بلفظ قريب من هذا ، وفيه : «مسجداً صغيراً كان أو كبيراً» بدل «مفحص قطاة» ورواه الشيخان بلفظ : «من بنى مسجداً يبغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة» .

وأورده بلفظ الشيخ صاحب الكشف تحت رقم ٥٧٧٥ والله أعلم .

(٢) القم : التنظيف .

وقال ﷺ : جّنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم وبيعكم وشراءكم ودوابكم وسل سيوفكم وخصوماتكم[1]» انتهى .

ولاينام فيها إلا غريب ، ولاتتخذ ممراً ، وتقطع فيها البعوث ، وينشد فيها من الأشعار مافيه توهين أمر الشرك ورفع أمر الإسلام ، وكذلك ماكان منه في المواعظ والحكم .

يروى أن عمر رضي الله عنه وجد حساناً رضي الله عنه ينشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ فانتهره وقال له : أتُنْشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ ؟! فقال حسان : أنشدته في موضعي هذا بين يدي من هو خير منك ، يعني رسول الله ﷺ ؛ فالتفت عمر على من هو في المسجد من أصحاب رسول الله ﷺ كأنه يستشهدهم فقالت طائفة منهم : صدَقك حسان ؛ فأمسك عمر رضي الله عنه .

وبالجملة فالشعر ينقسم على أقسام الشريعة الخمسة : فالواجب منه مايرد به على المشركين إذا هجَوا الإسلام وأهله وغضوا منهما ؛ يروى أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة ووجد بها أنصاراً ومأوى وقراراً خافت قريش دهماء العرب فأذلقتْه بألسنتها هجواً وتزهيداً في الإسلام ، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال : مابال رجال نصرونا بسيوفهم لاينصروننا بألسنتهم ،؟ فبلغ قوله ﷺ حساناً وكعباً وعبد الله بن رواحة وكانوا شعراء بني قيلة ؛ فأتاه حسان أولاً فقال له : إن قريشاً قد آذتك في الله فهلا أثرت عليها هذا الأسد الرابض ؟! وأخرج لسانه حتى جعله على عرنينه[2] . وكان لايقْدر على ذلك غيره ؛ فقال له رسول الله ﷺ : كيف تخرجني منهم وهم العشيرة والأصل ؟ فقال : والله لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين . وكان أشد شعراء قريش له أذى ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقال له : إن كنت فاعلاً فاذهب إلى أبي بكر فإنه أنسب قريش لقريش ، فما حذرك منه فاتركه ،

---

(١) حديث «جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم .. الخ» ضعيف رواه ابن ماجه ، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٠٧٧ بلفظ : «جنبوا مساجدكم صبيانكم» وقال : قال البزار : لا اصل له (١/٤٠٠) / وأورده السخاوي تحت رقم ٣٧٢ في مقاصده وقال : ضعيف ، ولكن له شاهد عند الطبراني والعقيلي وابن عدي بسند فيه العلاء بن كثير وهو ضعيف ، إلى أن قال : وفي الباب مما يستأنس به لتقويته بعدة أحاديث كحديث: «إن رأيتموه يبيع أو يبتاع في المسجد أو ينشد ضالة» (١/١٧٦) والله أعلم .

(٢) العرنين : الأنف كله ، أو ماصلب منه .

ومأأمرك به فافعله . فكان يمضي إلى أبي بكر فيقول له : كفّ عن فلان وفلانة ، واهج فلاناً وفلانة .

فلما هجا أبا سفيان بن الحارث بقوله : (من بحر الطويل)

وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وما ولدت أفْناء زَهرة منكمُ ... كريماً ولم يقرب عجائزكَ المجد

ولست كعباس ولا كابن أمه ... ولكن لئيم لايقوم له زَند[1]

وإن امرأ كانت سمية أمه ... وسمراء مغلوب إذا بُلغَ الجهد

فلما سمعه ابو سفيان قال : هذا كلام لم يغب عنه ابن أبي قحافة . وهو ممن حكم له شعره بالجنة ، وذلك أنه قال مجيباً لأبي سفيان : (من بحر الوافر)

هجوتَ محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

فقال له رسول الله ﷺ : جزاؤك على الله الجنة . ولما قال :

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمدٍ منكم وقاءُ

قال له ﷺ : وقاك الله حر النار .

واتفق العلماء أن أشعر أهل المدن[2] أهل يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف . وعلى أن أشعر أهل المدر على الإطلاق حسان بن ثابت . وزعم بعضهم أنه ممن خاض في الإفك فبرأته عائشة رضي الله عنها فقالت : لم يقل شيئاً من ذلك[3] ولكنه قال : (من بحر الطويل)

---

(١) البيت في ديوان حسان هو :

ولست كعباس ولا كابن أمه ... ولكن هجين ليس يورى له زند

(٢) أهل المدر : أهل المدن ، والمدر : التراب .

(٣) ماقاله الشيخ هنا من أن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يقل شيئاً من ذلك خلاف التحقيق ، والصحيح ماروى الشيخان عن مسروق قال : دخلنا على عائشة رضي الله عنها وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعراً يشبب بأبيات له وقال :

حصان رزان ماتزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة : لكنك لست كذلك . قال مسروق : فقلت لها : لم تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى : ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ ؟! فقالت : وأي عذاب أشد من العمى . قالت له : إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ . (البخاري كتاب المغازي ٦٤ باب حديث الإفك ٣٤) ، والله أعلم .

حصـــان رزان مــاتُـزنُّ بـريـبــةٍ وتصبـح غـرثى من لحوم الغـوافـل[1]
عقــيــلة حي من لؤي بن غــالبٍ كرام المســاعي مجدهـم غير آفل[2]

وأمـا ما حكي عنـه من الجبن فإنه كذب وباطل ، ولقد هاجى فحول الشعراء فلم يسمع عنهم أنهم هجوه به ، ولو كان كذلك لذكروه .. وكان قبل إسلامه من فحول الشعراء المطبوعين ومن مكثريهم المجيدين، وكان ينتجع آل جفنة من ملوك غسان بالشام وفيهم يقول : (من بحر الكامل)

أولاد جفـنــة حـول قـبر أبيهـم قـبر ابن مـاريـة الكـريم المفـضـل
يَسْـقُـونَ من ورد البريص عـليهـم بَرَدى يصفق بـالرحيق السـلسـل[3]
يُغْشَـوْنَ حـتى مـاتهـرُّ كلابهـم لايَســألون عن الســواد المقبـل
بيـض الوجـوه كريمـة أحسـابهـم شـمُّ الأنـوف من الطـراز الأول

قال عبد الملك بن مروان : هذا أمدح شعر قالته العرب .

وتوفي حسان رضي الله عنه بالمدينة سنة خمسين ، وقيل : سنة أربع وخمسين ، وهو ابن مائة وعشرين سنة : ستون منها في الجاهلية وستون في الإسلام ، وهو أحد المخضرمين ، مع ماحصـل له من عظيم الصحبة والغناء . وكان يأتي قريشـاً وسائر العرب في الهجو من قبل أنسابهم وأنصابهم[4] . وكعب بن مالك يخوفهم الحرب ، وابن رواحة يعيرهم بالكفر. وبلغني أن إسلام دوس كان سببه قول كعب : (من بحر الوافر) .

قضـيـنــا من تهـامــة كل ريب وخَيبَـر ثُـم أجْمعنـا السـيـوفـا
نسـائـلهـا ولو نطقت لقـالـت قـواطعـهـن دوسـاً أو ثقيـفـا[5]

فلما سمعوا هذا من الشعر وبلغتهم وقعة رسول الله ﷺ بثقيف قال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ نأخذ منه الأمان لأنفسنا قبل أن ينْزل بنا مانزل بثقيف .

ويروى أن كعباً قال : يارسول الله ، هل لي من أجر في هذا الشعر الذي أنافح به عنك

---

(١) غرثى : جائعة ، كناية عن أنها لاتخوض في أعراض الناس .

(٢) آفل : زائل .

(٣) البريص : نهر بدمشق ، وبردى كذلك ، والرحيق : الخمر ، والسلسل : السهل .

(٤) الأنصاب : جمع نصب : الأصل .

(٥) رواية الاستيعاب : (نخيرها) بدل (نسائلها) .

وعن الإسلام ؟ فقال : ((من أعانني بسيفه ولسانه كان له أجر رجلين ممن جاهد في سبيل الله)) فأنزل الله مصداق ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا** ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ ــ ٢٢٧] فقوله : ﴿ **والشعراء يتبعهم .. إلى قوله : يقولون مالا يفعلون** ﴾ نزل في شعراء المشركين كابن الزبعرى وأبي سفيان بن الحارث وكعب بن زهير وابن هبيرة وضرار بن الخطاب الفهري وغيرهم من شعراء مضر والمستثنون شعراء رسول الله ﷺ ككعب وحسان وعبد الله بن رواحة ومن سلك سبيلهم من شعراء المسلمين إلى يوم القيامة ؛ لأن رسول الله ﷺ قال لحسان : ((قل ومعك روح القدس)) ، وفي رواية : ((أيدك الله بروح القدس[1])) ، وقال لكعب لما قال في غزوة الأحزاب : (بحر الكامل) .

جاءت سخينة كي تغالب ربَّها ... فَلْيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ

وهي طويلة ، فقال له رسول الله ﷺ : ((لقد شكر الله قولك ياكعب : جاءت سخينة)) إلى آخر البيت . ومطلعها قوله :

أبقى لنا حدثُ الحروب بقيةً ... من خير نِحْلَةِ ربِّنا الوهاب[2]

بيضاء مشرفة الذرى ومطاعنا ... حم الجذوع غزيرة الأحلاب

كالثوب يبذل جمها وجفيلها ... للجار وابن العم والمنتَاب

ونزائعاً مثل السراح نمى بها ... عَلف الشعير وجِزَّةُ المقضاب[3]

عَرِي الشوى منها وأردَنَ نحضُها ... جرد المتوُن وسائر الآراب[4]

---

(١) حديث : «قل ومعك روح القدس» : متفق على صحته ، رواه الشيخان وغيرهما ، ورواية البخاري : «أهجهم أو هاجهم وجبريل معك» وفي رواية أخرى : «اللهم أيده بروح القدس» . (كتاب بدء الخلق ٥٩ ــ باب ذكر الملائكة ٦) .

(٢) النّحلة : العطية عن طيب نفس .

(٣) النزائع : الخيل التي حملت من ارضها . والسراح ، بالحاء : جمع سرحة : الشجرة الطويلة . والجزة ، بكسرة الجيم مايجز لها من النبات . والمقضاب : آلة القضب .

(٤) الشوى : الأطراف . وعريت : تجردت من الشعر . والنحض : اللحم . وأردف : كثر في الأرداف . جرد المتون : لا شعر بها . والمتون : الظهور . والآراب : المفاصل .

قُوداً تراح إلى الصياح إذا غدتْ فعل الضِّراء تُراح للكُلاّب[1]
وتحوط سائمة الديار وتارة تُردي العدى وتؤوب بالأسلاب[2]
يغدون بالزُّغْفِ المضاعف شكه وبمترصات في الثقاف صياب[3]
وصوارم نزع الصياقل غُلبَها وبكل أروعَ ماجدِ الأنساب[4]
يصل اليمين بمارنٍ متقارب وكلت وقيعُته إلى خباب[5]
وكتيبة ينفي القِرانَ قتيرُها وتَردّ حد قواحز النّشاب[6]
أعيتْ أبا كَرِبٍ وأعيتْ تُبعاً وأبتْ بسالتُها على الأعراب
ومواعظٌ من ربنا نُهْدىَ بِهَا بلسان أروع طيب الأثواب
عرِضَت علينا فاشتهينا ذكرها من بعد ماعُرضت على الأحزاب

وقال أيضاً : (من بحر الطويل)

لقد علم الأحزاب حين تألَّبوا علينا وراموا ديننا مانُوادِعُ[7]
أضاميم من قَيس بن عيلان أصفقت وخِنْدف لم يدروا بما هو واقع
يذودوننا عن ديننا ونَذودهم عن الكفر والرحمن راءٍ وسامع
إذا غايظونا في مقامٍ أعاننا على غيظهم نصرٌ من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضله علينا ومن لم يحفظ الله ضائع

وقال أيضاً : (من بحر الوافر)

---

(٣) القود : جمع اقود : الطويل . تراح : يذهب بها . والصياح: جلبة الحرب . والضراء : الكلاب ، والكُلاّب : بضم الكاف وتشديد اللام : الذي يصيد بالكلاب ، ويجوز الفتح ، فيكون صاحب الكلاب .

(٢) يعني انها تحمي الماشية وأحياناً ترجع بالأسلاب والغنمية بعد أن تهلك الأعداء .

(٣) الزغف : الدروع الواسعة الطويلة . والشك : النسج . والمترصات : الرماح المثقفة . والصياب : جمع صائب : الذي لايخطيء في مرماه .

(٤) الصوارم : السيوف . والغلب : الخشونة .

(٥) المارن : الرمح اللين . الوقيعة : الصنيعة . وخباب : هو خباب بن الأرت الصحابي المعروف ، وكان حداداً في الجاهلية .

(٦) القِران : النبال . والقتير : رؤوس المسامير في الدروع . والنشاب ، بضم النون : السهام ، وبفتحها : الرامي بالنشاب .

(٧) مانوادع : مانسالم ، وهو من الموادعة .

ألا بـــلغ قـريشـــاً أن سَـــلْعــاً ... ومــابـين العُـريض إلى الصِّـمَــاد[1]
نـــواضــح في الحـروب مـدربـاتٌ ... وخــوص ثُقّبَتْ من عهــد عــاد[2]
رواكد يـــزخــر المُـــرَّارِ فيهـــا ... فـليست بـالجمـام ولا الثِّمــاد[3]
بـــلاد لم تُثَـــرْ إلا لكيما ... نجــالد إن نَشِـطْتُـم للجـلاد[4]

أثـرنـا سكـــة الأنبــاط فيهـــا ... فـلم نـر مثـلهـا جلهـات واد[5]
أجيبـــونـا إلى مــانجتـديكـم ... من القـــول المبيّـــن والســـداد[6]
وإلا فـــاصــبروا لجلادِ يـــوم ... لكـــم منـــا إلى شـطـر المذاد[7]
نصبحكـــم بكـــل أخي حـروب ... وكل مطــهــم سَـلِسَ القيـــاد
وكل طمـــرة خَفِـقٌ حشـــاهـــا ... تـدفُّ دفيفَ صـــفـراءِ الجراد[8]
خيـــولٌ لاتضــــاع إذا أضيـعت ... خيـول النـاس في السنـة الجمـاد
ينـــازعْنَ الأعنـــة مُصْـغيـاتٍ ... إذا نــادى إلى الفـــزع المنــادي
إذا قـــالتْ لنـــا النُّــذُرُ استعـدوا ... تـــوكلنـــا عـــلى رب العبـــاد

وقـلنـــا لن يفـرّج مـالقينـــا ... ســوى ضرب القـوانس والجهــاد[9]
أشـــد بســـالة منـــا إذا مـــا ... أردنـــاهـــا وألين في الوداد
ولم تـــر عصبـــة ممن لقينـــا ... من الأقـــوام من قَـــار وبـــاد
إذا مـــا نحن أشْـــرجنـــا عـليهـــا ... جِيَـادَ الجُدْلِ في الأُرب الشـداد[10]

(١) سلع : جبل بالمدينة . والعريض : واد . الصماد ، بالصاد المكسورة : جبل كذلك .
(٢) الخوص : الآبار الصغيرة . وثقبت : حفرت .
(٣) الرواكد : السواكن . يزخر : يعلو . المرار : الكثير المرور ، ويروى : المداد . والجمام ، بفتح الميم : البئر الكثيرة الماء . والثماد : جمع ثَمدٍ وهو الماء القليل .
(٤) تثر : تحرث . نجالد : نحارب .
(٥) السكة : الطريق المستوي . والأنباط : قوم من العجم . والجلهات : جمع جلهة : حافة الوادي .
(٦) نجتديكم : نطلبه منكم .
(٧) المذاد : موضع ، والمعنى : إلى جهة المذاد .
(٨) الطمرة : الفرس ، الجواد الطويل القوائم . خفق : مضطرب . والدفيف : المشي الخفيف .
(٩) القوانس : جمع قونس ، وهي أعلى بيضة الحديد .
(١٠) الجدل : الدروع المحكمة النسج . والأرب ، بضم ففتح : جمع أربة ، وهي العقدة .

قـذفن في السـوابغ كل صعـر | كريم غـير معتـلث الزنـاد[1]

وقال حسـان يجيب ابن الزبعرى عن كلمة قالها في مدح الأحزاب والغض من المسلمين : (من بحر الكامل)

هـل رسـمُ دارسـه المقام يَبابِ | متـكـلم لمحـاور بجـواب
قفر عفَى رهْمُ[2] السحـاب رسومه | وهبـوبُ كل مطـلة مـربـاب
ولقـد رأيت بهـا الحلول يَزينهـم | بيض الوجـوه ثواقب الأحسـاب
فـدع الديـار وذكر كل خـريـدة | بيضـاء آنسـة الحديث كعـاب
واشـك الهموم إلى الإله ومـا ترى | من معشـر ظلموا الرسول غضاب
سـاروا بـأجمعهـم إليـه وألبـوا | أهـل القـرى وبـواديَ الأعـراب
جيشٌ عُيَـيْـنَـةُ وابنُ حرب فيهـم | متخـمـطـون بحلـيـة الأحزاب[3]
حـتى إذا وردوا المـدينـة وارتجوا | قتـل الرسـول ومغـنم الأسـلاب
وغدوا علـينـا قـادرين بأيْدِهمْ[4] | ردوا بغـيـظـهـم على الأعقـاب
بهُبوب معصـفـةٍ تفرق شملهـم | وجنـودِ ربك سـيـد الأربـاب
فكـفـى الإلهُ المؤمنـين قتـالَهـم | وأثـابهـم في الأجـر خـير ثـواب
من بعـد مـاقـنطـوا ففرق جمعهـم | تـنزيـل نصر مـليكنـا الوهـاب
وأقـر عـين محمـد وصحـابـه | وأذل كل مكـذب وتَـاب
عـاني الفـؤاد مـوقع ذي ريبـة | في الكـفـر ليس بطـاهـر الأثـواب

ولما قال هبيرة بن وهب المخزومي قصيدته التي يفتخر فيها بغزوهم المدينة التي كانت سبب غزوة أحد وهي وقوله : (من بحر البسيط)

مـابـال هـم عميـد بـات يطرقني | بـالود من هنـد إذ تعـدو عواديهـا
بـاتت تعـاتبـني هنـد وتعـذلني | والحرب قـد شـغـلت عني مواليهـا
مهـلاً فـلا تعـذليني إن من خـلقي | مـاقد علـمت ومـا إن لست أخفيهـا
مُسـاعفُ لبـني كعب بمـا كلفـوا | حمـالُ عبءٍ وأثقـال أعـانيهـا

(١) السوابغ : الدروع الوافرة . والزناد المعتلث : هو الذي إذا قدح لم يور ناراً .

(٢) الرهم : جمع رهمة ، بكسر فسكون : وهي السحابة الدائمة المطر . والمرباب : الدائمة .

(٣) متخمطون : مختلطون ، أو غضاب متكبرون . والحلبة : مضمار السباق ، أو الخيل التي تعد للرهان .

(٤) أيدهم : قوتهم .

وقد حملت سلاي فوق مُشْترف ... ساط سبُوح إذا تجري تُباريها[1]

كأنه إذ جرى عير بفدْفَدِهِ ... مكدمٌ لاحقٌ بالعُون يحميها

من آل أعوج يرتاح الندِيُّ لَهُ ... كجذع شعراء مستعل مراقيها

أعددته ورقاقَ الحد منتخلاً ... ومارناً لخطوب قد ألاقيها[2]

هذا وبيضاءَ مثل النِّهْيِ محكمة ... نيطتْ عليّ فما تبدو مساويها[3]

سقنا كنانة من أطرف ذي يمن ... عُرْض البلاد على ماكان يزجيها

فأجابه حسان رضي الله عنه بقوله : (من بحر البسيط)

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم ... إلى الرسول فَجُنْدُ الله مخزيها

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً ... فالنار موعدها والقتل لاقيها

جمعتموها أحابيشاً بلا حسب ... أئمة الكفر غرتكم طواغيها

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت ... أهل القليب ومن ألقينه فيها

كم من أسير فككناه بلا ثمن ... وجزّ ناصية كنا مواليها

وأما المندوب منه فما كان في الحكم كلامية العجم ، أو ماكان في مدح الرسول ﷺ كبُردة المديح .

وأما المباح منه فما كان في التفجع ، وذكر فراق الأحبة ، وذكر الوطن ومدحه والبك عليه .

وأما المكروه فمدح الغني لأجل غناه . واختلف في مدح الظالم فقيل : يدخل في هـ الباب ، وقيل : حرام ؛ لقوله ﷺ : ((إذا مدح الظالم اشتد غضب الرب[4])) . و الحكم : من أحب بقاء ظالم فقد أحب أن يعصى الله في أرضه .

---

(١) المشترف : المنتصب . والساطي : الفرس البعيد الخطو . والسبوح : السريع .

(٢) رقاق الحد : السيوف . المنتخل : المتخير . والمارن : الرمح .

(٣) النهي ، بكسر فسكون : الغدير ، وقد تفتح النون . والبيضاء : الدرع .

(٤) حديث «إذا مدح الظالم اشتد غضب الرب الخ» منكر رواه أبو يعلى والبيهقي وابن عدي وأبو الشي والخطيب بلفظ : «إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش»وأورده بهذا اللفظ السيوطي تحت رقم ٦ قال المناوي : رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي خلف ، وأبو خلف هذا قال الذهبي فيه : قال يحيى : كذاب وقال أبو حاتم : منكر الحديث ، وقال ابن حجر في الفتح : سنده ضعيف ، وقال العراقي : سنده ضعيف ، و الميزان : خبر منكر (١/٤٤) والله أعلم .

وأما الحرام فذكر القدود والخدود في التشبب والمجون ، وكذلك الهجو ، قال الرسول ﷺ : ((أشد الناس فرية من هجا قبيلة)). وفي مثل الأخير وردت الآثار والأخبار في الزجر عن الشعر كقول أبي هريرة رضي الله عنه : ((لأن يمتلىء صدر أحدكم قيحاً يريه خير له من أن يمتلىء شعراً[1])) . وقال ﷺ : ((أحب الأصوات إلى الله صوت رجل مؤمن يتغنى بالقرآن ، وصوت رجل يثوب بالأذان . وأبغض الأصوات إلى الله صوت المغنى وصوت النائحة)) .

يروى أن الله لما أهبط إبليس من الجنة مذموماً مدحوراً قال : يارب إنك جعلت لآدم كتاباً ولم تجعل لي كتاباً ، فقال له : كتابك الشعر ، فقال : وجعلت له أذاناً ، فقال : أذانك المزمار ، وجعلت له حبالة ولم تجعل لي حبالة ، فقال : حبائلك النساء ، فقال : وجعلت له طعاماً ولم تجعل لي طعاماً قال : طعامك وشرابك ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : وجعلت له بيتاً ولم تجعل لي بيتاً ، فقال له : بيتك الحمام)) انتهى .

وبالجملة فإن أشعار العرب صارت في زماننا هذا علوماً من أشرف العلوم إذ كيفما كانت فإنها لاتخلو من فائدة : إما لغة تقتنى ، وإما إعراب يجتنى ، أو مثل يضرب ، أو آداب تكتسب . قال رسول الله ﷺ لما سمع الشنفرية قال : ((علموا أبناءكم أشعار العرب فإن فيها الشجاعة ومكارم الأخلاق)) ، علمنا الله من العلوم ماينفعنا ديناً وعقبى ، آمين .

قال الناظم رحمه الله :

٦ ــ وشُدَّ الْمَطا وارعَ الْمِطَاءَ ولاَيَخِبْ لِمُــغْــلِي وَعىً يَـرجُـو نَـدَاكَ وِعَـاءُ

قوله : وشد المطا : أي قوِّ ظهرك برعاية أهل الود القديم ، أو شد ظهورهم برعاية ودهم وعهدهم القديم ، قال الرسول ﷺ : ((إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي[2])) أي : يموت . فالمطا ، بالفتح والقصر : الظهر ؛ ولذلك سميت المطية مطية لأن

---

(١) «لأن يمتلىء صدر أحدكم قيحاً الخ» حديث متفق على صحته . وليس من كلام أبي هريرة كما ذكر الشيخ ، بل هو حديث رواه الشيخان وابن ماجه ، ولفظ البخاري في كتاب الأدب : «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً» والله أعلم .

(٢) حديث «إن من أبر البر الخ» صحيح رواه مسلم بهذا اللفظ وابو داود وابن ماجه بلفظ «جاء رجل من بني سلمة إلى النبي ﷺ فقال : هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ وفي آخر الحديث «وإكرام صديقهما» . وسند هذا الحديث صحيح باستثناء علي بن عبيد الساعدي لم يوثقه غير ابن حبان ، والله أعلم .

راكبها يمتطي ظهرها ، وهو من باب تسمية الشيء باسم ملازمه ، وإنما يقوى الرجل ويعز إذا
كان كلما التفت إلى ظهره رأى أعوانه وإخوانه وراء ظهره يتبعونه أينما سلك ، قال الله تعالى :
﴿ **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك** ﴾ [القصص : ٣٥] وقال موسى عليه السلام ، كما أخبر الله :
﴿ **أخي اشدد به أزري وأشْرِكْهُ في أمري** ﴾ [طه : ٣١] ولذلك سميت المظاهرة مظاهرة
لأن كلاًّ منهم يحمي ظهر صاحبه عند الهيجاء أو عند غيبته، قال الله تعالى: ﴿ **والملائكة بعد
ذلك ظهير** ﴾ [التحريم : ٤] .

يروى أن الصحابة لما فتحوا اليمامة وقتلوا مسيلمة كان رأي أبي بكر رضي الله عنه أن
لايترَك أحد منهم مر عليه الموسى[1] إلا قتل؛ ليستأصل شأفة الردة لأنهم لايزالون من فتنة
كذابهم في شر ، فألفى ذلك خالد قد أوقع الصلح بينه وبينهم بعدما أفنى أكثرهم على أن
يعطوه شطر السبي وعلى البيضاء والصفراء الحلقة والسلاح والخف والحافر . وكان رأي
الأنصار فيهم يوافق رأي الخليفة أبي بكر رضي الله عنه ، فلما جاء كتاب أبي بكر حملته
الأنصار إلى خالد فقال : صلح قَد مضى وعقد قَد استحكم لم يكن لي أن أنقضه والله تعالى
يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ [المائدة : ١] فقالت له الأنصار : طاعة أبي
بكر مقدمة على طاعتك ، فقال : إن كانت طاعة ابي بكر فوق طاعتي فطاعة الله فوق طاعته
قال تعالى : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا** ﴾ [الإسراء : ٣٤] فلما فرغ من
أمرهم ذهب بوفدهم إلى الخليفة ، فأمر أبو بكر أن لايؤويهم أحد ولا يكلمهم ؛ فبقوا حيارى
لايقدرون على الرجوع إلى أهليهم ولا على المقَام ؛ فأمرهم بعض أصدقائهم من أهل المدينة أن
يذهبوا إلى عمر رضي الله عنه وقد قَتَلوا أخاه زيداً وهو حامل لواء المهاجرين وقد وجد[2] عليه
أخوه عمر لما مات وجدا عظيماً ، فدخلوا على عمر رضي الله عنه وفيهم قاتل أخيه ، فوجدوه قد
اعتقل عنزاً له يحلبها على رغائف وابن أخيه زيد آخذ بعاتقه الأيمن وابنته آخذة بعاتقه الأيسر
فلما رآهم اشتد حلبه حتى جعل الخبز يتطاير من الإناء ، فسلّموا وأظهروا الضراعة والإسلام
فقال : أنشدكم الله هل ماتقولونه بألسنتكم ثَابتٌ في أفئدتكم ؟ فقالوا : إي والله إن مانقوله
بألسنتنا ثابت في قلوبنا فلا تردوا علينا ماقبلتموه من غَيرنا ، وهو الإسلام ، فتمهل عمر ، ثم

(١) مر عليه الموسى : كناية عن البلوغ .

(٢) وجد : حزن .

بل عليهم وهو يقول : الحمد لله الذي جعل لنا من المسلمين مايشد به ظهورنا ، فذهب بهم
ى أبي بكر ، فقبلهم ، وجعل عليهم رجلاً منهم .

ويحتمل قوله : وشد المطا : معنى آخر غير ماتقدم ذكره ، وهو أن يشد ظهر بعيره ،
يستعمل الرحلة لنيل الأوطار ، واقتفاء الأخطار . قال الرسول ﷺ : ((سافروا تصحوا
غنموا[1])) . فالغنيمة تحتمل الدنيوية والأخروية ، كما أن الصحة تقتضي البدنية والقلبية، إذ
ما لقيت في رحلتك ولياً من الأولياء؛ فتحصل بسببه سعادة الدارين ؛ لأن لحظة واحدة منهم
ما أغنت الغناء السرمدي .

قال ابن عطاء الله : سبحان من لم يجعل الدليل عليهم إلا من حيث الدليل عليه ، ولم
وصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه .

قال ابن عباد : معرفة الولي أبعد من معرفة الله وأصعب ؛ لأن الله ظاهر لتجليه لقلوب
ؤمنين بجماله وجلاله ، واستدلاله العامة عليه بما يرون من آثار قدرته ، بخلاف الولي فإن الله
حجبه عن أفئدة المطرودين بالصورة البشرية ، فطوى عنهم الحقيقة الربانية ، وأشهدهم الصورة
بشرية ، فإذا رأوه قالوا كما قالت أشياعهم ﴿ **ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه
يشرب مما تشربون** ﴾ [المؤمنون : ٣٣] فيطرد بنور المنع وظلمة الطبع فينقطع عن النفع ،
من أراد الله انتفاعه طوى عنه الصورة البشرية ، وأشهده اللطيفة الربانية ، فأدرك إدراكاً قطعياً
ظنياً ولا حسبانياً ، فوصل بسببه إلى الله في لحظة ؛ إذ لا مكان ثَمَّ ولا زمان يفتقر إلى الرحلة
نجعة ؛ إذ الأولياء عرائس مخدرات ، فحرام على الأجانب رؤيتهم ؛ إذ لايعرفهم إلا أشكالهم
من أراد الله أن يغيثه ببركاتهم* . قال بعضهم : (من بحر الطويل)

إذا خفت ضيقاً أو ذهاب مروءة ... فسافر ففي الأسفار خمس فوائدِ[2]
وتفريج همٍّ واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ماجد

---

(١) حديث «سافروا تصحوا وتغنموا» منكر ، رواه ابن عدي والطبراني في الأوسط (١/١١٢) وابن بشران
ي الأمالي (٣/٦٦) والخطيب في تاريخه (١٠/٣٨٧) عن محمد بن عبد الرحمن بن رداد ، قال ابن عدي : لاأعلم
رويه غير الرداد هذا ، وعامة مايرويه غير محفوظ . وقال ابن أبي حاتم : ذاهب الحديث . وأورد الحديث الذهبي
ي الميزان وقال : منكر . وقال ابن أبي حاتم في العلل (٢/٣٠٦) : قال أبي : هذا حديث منكر . والله أعلم .

(٢) البيت كما في الخزانة هو :

تغرب عن الأوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

* لعله يريد بدعواتهم ــ وكذلك قوله في أول الصفحة لأن لحظة واحدة منهم ربما أغنت ــ لعله كذلك يقصد دعاءهم
لاستفادة منهم علماً أو سلوكاً والله أعلم .

وقال صاحب لامية العجم : (من بحر البسيط)

لو كان[1] في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمَل

وقال غيره : (من بحر البسيط)

والتبرُ كالتربِ ملقىً في أماكِنِهِ والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطب

وقال غيره : (من بحر الكامل)

والماء يكسى بالركود كدورة ويروق رونقه إذا لم يركد

قوله وارع : فعل أمر من رعى . والمطاء ، بالمد والكسر : مفعول به ، وهو معدول من المواطأة؛ لأن الأصدقاء تتواطأ أهواؤهم وآراؤهم كما تتواطأ وتتعاضد قواهم . قال الرسول ﷺ : ((أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر من رمضان[2])) . وفي رواية: ((مرائيكم)) : جمع رؤيا .

وقال ابن الخطيب : تواطأ قلب رسول الله ﷺ وقالبه عند المشاهدة ، وسمعه وبصره فما زاغ بصره وماطغى قلبه .

تقول : تواطأ مواطأة وتواطؤاً ، وقوم مطاء : إذا وصفتهم بالتواطؤ والمواطأة كما تقول : رجل مهداء ، وقوم مهداء ، ورجل معطاء ، ورجال معطاء ، ورجل مسقام إذ كثر سقامه .

والمعنى: وارع الأصدقَاء في سرك وجهرك، وفي حضورك وغيبتك. ولا يخب: من الخيبة، وهي خلف الرجاء والأمل، أي لايخب لشخص معلٍ صوته في حال كونه يرجو فضلك وعاءٌ. فوعاء: فاعل، وهو أحد الظروف. والوعى، بالفتح والقصر: رفع الصوت، وهو مقلوب عوى، فأعطِ من رفع صوته لك بالسؤال بأن أعلن حاجته لك وأظهر فاقته ملء وعائه، لاترده خائباً، فيبقى وعاؤه خاوياً، وكفه صفراء من مكارم مواهبك، فإن ذلك مما يخل بالمروءة ويبطل الفتوة ويذهبها رأساً.

يروى أن بعض الأعراب أتى ملكاً من الملوك العباسيين يحمل على رأسه قلة، فلما وقف ببابه سخر منه الحجاب، فذهب بعضهم إليه وقال له: إن بالباب رجلاً يحمل قلةً على رأسه،

---

(١) في (ب) ، وهو موافق لما في اللامية المطبوعة .

(٢) حديث «أرى رؤياكم قد تواطأت الخ» متفق على صحته ، رواه الشيخان . وهو عند البخاري في كتاب التراويح .

رهم بإدخاله، فلما دخل والقلة على رأسه ومُثل بين يديه ضحك منه الخليفة فقال: ما هذه لة على رأسك ؟ فأجابه بديهة فقال:

(من بحر الطويل)

فلما رأيت الناس أدلو دلاءَهم إلى بحرك الطامي أتيت بقلتي
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا البخل يبقيها إذا هي ولت
إذا جادت الدنيا عليك فجدْ بها على الناس طرّاً قبل أن تتفلت

فأمر له بملء قلته سبع مرات من الذهب، وخلع عليه خلعة سنية.

وكان الشافعي رحمه الله مع ما آتاه الله من العلم والورع جواداً بالمال ذا فتوة ومروءة، ومما ل على فتوته ورفع منصبه قوله: (من بحر البسيط)

يالهف نفسي على مال أجود به على المقلين من ذوي المروءاتِ
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ماليس عندي لِمَنْ إحدى المصيبات

وكان رضي الله عنه يقول: (من بحر الوافر)

أرى نفسي تتوق إلى أمور ويقصر دون مبلغهن مال
فلا نفسي تطاوعني ببخل ولا مالي يبلغني فعال

ويروى أن رجلاً من سادات حمير جاء حاجاً فماتت مطاياه، وكان شريف النفس عظيم أن، فاستشار بعض أصدقائه فقال له: إني قد انقطعت بي الأسباب وإني رجل شريف، ـه لا بد أن أسأل أحد سادات قريش، فدلني على رجل إن أرقت إليه ماء وجهي خيبني؛ فإني رجل شريف، ولئن اجتمع لي إراقة ماء وجهي مع خيبة المسعى فإنه الموت. ل: أدلك على عبد الله بن جعفر؛ فإنه سيد فاضل، ومن بيت النبوة، وإني ضامن لك عدم بية والإسعاف ببغيتك. فلما أتاه جعل جبينه يرشح عرقاً، فأقبل إليه ابن جعفر فقال له: حباً بك وأهلاً، تكلم أخا العرب، فإني أرى وجهاً خليقاً بأن يسعف بحاجته، ولعله لم يتعود سألة؛ لأني أرى عليه علامة الخجل، فقال: يابن عم رسول الله ﷺ، إني رجل من حمير ت حاجّاً فماتت دوابي وظهري، وجئت أستحملك، ولم أر من هو أهل أن يريق الكريم عليه محياه غيرك، فإن تسعف فمشكور، وإن حال من دون ذلك حائل فمعذور، فلما سمع عبد قوله هزّه ماسمع؛ فالتفت إلى وكيله فقال له: كم أصبح عنْدَنا ؟ فقال له: مائة بعير،

وخمسمائة بغلة، وألف دينار، وأسفاط[1] من فاخر الثياب. فقال له: ائتني بجميع ذلك الساعة؛ فأتاه به فقال للحميري: خذ جميع ما ترى، ولولا أنك جئتني على نفاد لأجزلت لك في العطاء، فقال له: أيها السيد إني أكتفي منك بأقل من هذا، وإنما جئت أستحملك، وإني رجل غني بأرضي. فقال له: خذ أيها الرجل جميع ذلك فإنه قليل من كثير، فإن العطايا نتعاظم عليها ولا تتعاظم علينا، والله ما أديت من واجب حقك علي قدر دانق، وإن منتك لفي عنقي ما بقيت، وكيف لايكون ذلك وقد بت تتلوى على فراشك وحاجتك تتردد في صدرك، ولم تر لها من سادات قريش غيري ! فذهب الحميري بجميع ذلك، ووصل منه من دله على عبد الله بن جعفر رضي الله عنه. وحكاياتهم في مثل هذا لاتنْحصر، والحمد لله على فضله وتفضله على هذه الأمة الشريفة.

قال الناظم رحمه الله :

٦٧ ــ وَغَيْرَ الشَّوَى هَيِّءْ شِوَاءً لِطَارِقٍ ... يَرُومُ ذَرىً فِيهِ سَلاً وسِلاَءُ

وغير: مفعول مقدم لهيء. والشوى، بالفتح والقصر: هنا أرذل المال كالمريض والشارف والعجفاء والزَّمِن ومالا منفعة فيه.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

أكلنا الشَّوى حتى إذا لم ندع شَوى ... أشرنا إلى خيراتها بالأصابع

أي أكلنا الأشرار أولاً حتى أفنيناها فتعدينا إلى الأخيار صوناً لأعراضنا ومروءاتنا. والشواء، بالكسر والمد: هو اللحم ينضج بالفوار دون اللهب والملة[2] فإنه يقال لذلك الصِّلى، وأما السميط فهو أن يزال الشعر أو الصوف بماء مسخن ثم يجعل في الفرن حتى ينضج، فهو أطيبه وألذه، إلا أنه من أطعمه الرفاهية لما فيه من السرف؛ وهو إتلاف الجلد لاحتياج الناس إليه في اللباس والبُسط.

روي أن رسول الله ﷺ مات ولم يأكل سميطاً ولا سميداً وهو الخبز المرقق المغربل، وما كان ذلك لإقتار ولا قلة، وإنما كان تنزهاً عن التغالي في التنعم. خلافاً للباجي الطليطلي فإنه قال في أثناء مناظرته لعلماء الأندلس: إن زُهد رسول الله ﷺ لم يكن اختياراً منه، ولو وجد

---

(١) أسفاط: جمع سفط: وعاء كالقفة أو الجوالف.

(٢) الملة: الجمر أو الرماد الحار. وعادة يكون في حفرة الفرن.

التنعم لتنعم؛ فحكموا بزندقته لاستخفافه بحق رسول الله ﷺ لتسميته إياه يتيم أبي طالب أثناء المناظرة المتقَدمة آنفاً.

والذرى: تقدم. والسلا، بالقصر والفتح: مصدر سلا كدعا، والسلاء، بالكسر والمد: السمن فكأنه يقول: هيء ويسر وأعد لمن طرقك من شخص قَاصد محلا فيه سلو لنَفْسه وشواء أي لحماً مشوياً من خيرات مالك لا من شراره كالشوى؛ فإن الله لا يقبل إلا طيباً، فجد بأنفس ما عندك على من قَصدك لابرده؛ فإنَّ ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ لأن الفتوة تقتضي إنزال الطارق والأضياف على قدر أقدارهم، وبحسب تفاوتهم في معائشهم، ولذلك وصف النَّاظم الطارق الذي له الشواء غير الشوى بكونه يروم فيه سلا وسلاء.

قال الرسول ﷺ : ((أمرت أن أنزل الناس منازلهم))[1]

ويروى أنه قدم على النبي ﷺ وفدان: أحد الوفدين أشراف، والآخر دونهم في الشرف ففضل النبي ﷺ الأشراف، فقال له عمر رضي الله عنه: مالي أراك يا رسول الله تفضل هؤلاء على هؤلاء ؟! ولا أرى ذلك إلا أنك اعتبرت عليهم في الجاهلية وقد هدم الله ذلك بالإسلام، وكل من الفريقين إنّما جاء ليسلم؛ فقال له رسول الله ﷺ : ((إن ربي أمرني أن أنزل الناس منازلهم، وأن خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)).

وهو يشير بقوله:

وغير الشوى هيء شواء لطارق

إلى وجوب الضيافةِ، وليس من أداء واجبها إشباعه فقط بل لابد من إكرامه وكرامته، فالكرامة خدمته بالنفس؛ كإنزال رحله، ورعي دوابه، والمبادرة إليه قبل النزول، والترحيب به، وبسط الوجه، كما قال حاتم بن عبد الله : (من بحر الطويل)

---

(١) حديث « أمرت أن أنزل الناس منازلهم » حديث حسن رواه أبو داود وابن خزيمة والبزار والبيهقي في الأدب، وأخرجه مسلم تعليقاً بلفظ: « أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم » (٤/١) مسلم المقدمة، وأورده السخاوي تحت رقم ١٧٩ وقال بعد أن أورد طرق الحديث: صححه الحاكم وغيره، وتعقب بالانقطاع وبالاختلاف على رواية في وقفه ورفعه... إلى أن قال: وبالجملة فحديث عائشة حسن (٩٢/١)، والله أعلم.

وأما الجزء الأخير منه والذي هو « وان خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام إذا فقهوا » فهو جزء من حديث صحيح تقدم تخريجه وليس من الحديث الأول. والله أعلم.

أباسط ضيفي قبل إنزال رحله   فيخصب عندي والمكان جديب[1]

وقال: (من بحر الطويل)

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً   ولاشيمة لي غيرها تشبه العبدا

قال الشافعي: أربعة أنواع من الخدمة لايتولاها إلا كريم ولا يأنف عنها إلا لئيم: خدمة الشيخ، وخدمة الوالد، وخدمة الضيف، وخدمة الفرس.

ومن كرامته أن يبدأ بالسلام، ثم بالطعام، ثم بالكلام، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك بصنيع أول من سن القِرى وهو إبراهيم الخليل عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ **فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم** ﴾ [الذاريات: ٢٦] فإنه بعدما سلم عليهم ورحب بهم راغ بأن أخفى عنهم ذهابه إلى بيته لئلا يخجلهم فجاءهم بعجل سمين محنوذ.

ومن سنَنِه مجيئه إلى الأضياف مع الطعام، وتلقيمهم، وحضهم على الأكل، وتطييبهم بمثل المسك والغالية والعود، وإلآنَةِ فرشهم، وأن يتخير لهم من الأطعمة ما يعلم أنه يعجبهم كالثريد واللحم والفاكهة، وإذا كان زمن الشتاء فليأتهم بالنار والحطب، وليتول وقودها غيرهم وإلا أشعل المصباح.

والحاصل أن الأضياف أنواع: منهم الكريم واللئيم، فإن كان كريماً فضيافته ما تقدم ذكره، وإن كان لئيماً فأشبعه من أرذل الطعام كالفول والجلبان والعدس، وإن كان أعلى من ذلك ولم يكن من الكرام فهيِّء له شبعه من مثل الدخن والذرة، ولا تبجله فإن التبجيل ليس من طبعه، فإنه ربما دعاه إلى المقَام عندك حتى يحرجك. قال الشاعر: (من بحر الطويل)

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومن كرامة الضيف علف فرسه، وقد نظم ذلك بعض الأدباء فقال: (من بحر البسيط)

للضيف عشر خصال من أحاط بها   وَفَى وإلا فإن الضيف قد بُخِسَا

إلى أن قال:

لن تكرم الضيف حتى تعلف الفرسا

إلى أن قال: (من بحر البسيط)

وإن يكن من لئام الناس فابغ له   من جودك الفول والجلبان والعدسا

---

(١) في (ب): اضاحك.

ثم الضيف على خمسة أقسام: ضيف الله ، وضيف رسوله، وضيف الدنْيا، وضيف نفسه، وضيف الشيطان. فضيف الله الفقير المسلم، وضيف رسوله العالم، وضيف الدنيا ذو المال الذي يرجى نائله، وضيف نفسه السلطان، وضيف الشيطان الظالم.

قال ابن عباد: لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلا تقي. وهذا على مذهب القوم لكن بعضه حديث لابأس بإسنَاده، وهو قوله ﷺ : ((إذا أحب الله مالاً جعله في أهل الحفاظ وإذا أبغضه جعله في غيرهم))[1].

والبيت مقتبس من قوله ﷺ : ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه))[2].

وقال ﷺ : ((الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم ليلة، ولاينبغي لضيف أن يقيم فوق ثلاث))[3] انتهى. فإن أقام فهو كالسائل المتطفل إن شاء أطعمه وإن شاء منعه ولا حرج.

واختلف في إقامته بعد ثلاثة أيام، فقيل: هي حرام لتحريجه المضيف، وأكله الحرام، واقتحامه النهي، بل ينبغي له أن لايزيد على ليلة إلا أن يكون رجلاً قد انقطعت به الأسباب، فلا ينبغي له أن يزيد على ثلاث ليال.

وفي المثل: الضيف أول ليلة يكون ذهباً فإذا أصبح مقيماً صار نحاساً، فإذا أقام بعده صار حديداً، وبعدها يكون جندلاً[4] لايباع ولايقتنى ولايعبأ به.

وكان علي رضي الله عنه ينهي عن التكلف للضيف ويقول: إنه يبغِّض إليك الضيف، وربما جلب الرياء والسمعة. وكان يقول: لاتبخل بموجود، ولا تتكلف بمفقود.

---

(١) حديث « إذا أحب الله مالاً الخ.. » لا أعرفه.

(٢) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر الخ.. » جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي وابن ماجة، وهو عند البخاري في كتاب الأدب، وأوله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » والله أعلم.

(٣) حديث « الضيافة ثلاثة أيام الخ.. » جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان، وأوله: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »، وآخره: « والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة » خ (١٠/٤٤١) م (٣/١٣٥٢) ولمسلم: « لايحل لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه. قالوا: يارسول الله، وكيف يؤثمه ؟ قال: يقيم عنده ولا شيء يقريه به »، والله أعلم.

(٤) الجندل: الحجر.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

مـا كلف الله نفسـاً فوق طاقتهـا ولن يجـود امـرؤ إلا بمـا وجـدا

ولأن الله مدح أبا طلحة بقوله: ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ [الحشر: ٩] على رأس شاة لم يكن له لَيْلَتَئِذٍ غيره، فنوم صبيانه، وباتوا طاوين، وأعطاه لضيفه.

وأما قول من يقول: الضيافة على أهل الوبر لا على أهل المدر، ويزعمون أنه مروي عن رسول الله ﷺ ، فكذب وافتراء كما نص على ذلك ابن حجر في شرحه للأربعين حديث للنووي.

يروى أن رسول الله ﷺ قال: ((طلبت خمسة فوجدتها في خمسة: طلبت رضوان الله فوجدته في إكرام الضيف، وطلبت صفاء القلب فوجدته في صيام الصيف، وطلبت السلامة فوجدتها في الصمت، وطلبت الغنى فوجدته في القناعة، وطلبت خير الدنيا والآخرة فوجدته في قيام الليل)) .

وربما كان الرجل جواداً بالمال بخيلاً بالطعام، فلا ينقله ذلك من خسة اللؤم: لترك الواجب المتكرر للمندوب النزر الذي ربما لايقع إلا مرة في الدهر.

يروى أن إبراهيم عليه السلام لما بنى المسجد الحرام صلى عند كل سارية ألف ركعة فأوحى الله إليه أن تقرب إليَّ بما هو أفضل من الصلاة، فقال: وأي عبادة أفضل من الصلاة ؟ فقال له: إطعام الطعام؛ فارتحل إلى الشام، فاتخذ زاوية بجبل حلب، فجعل يطعم منها الطعام حتى توفي عليه السلام.

وكان بعض الفضلاء يكثر الطعام للضيف حتى يفضل؛ فقيل له في ذلك، فقال: إني لا أكثره إسرافاً ولا رياء، ولكن بلغني عن رسول الله : ((أن سؤر الأضياف من النعيم الذي لايسأل عنه))[1] . فأحببت أن آكل وأطعم عيالي من سؤر الأضياف رجاءَ أن لاأسأل عنه.

---

(١) حديث « سؤر الأضياف من النعيم الخ.. » لم أجده بهذا اللفظ، نعم روى الدارقطني في الأفراد: « من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه » كما ورد: « سؤر المؤمن شفاء »، ولفظ ثالث: « الشرب من فضل وضوء المؤمن شفاء من كل داء أدناها الهم ».

أما بالنسبة للأول فقد رواه الدارقطني،وأورده عنه ابن الجوزي في موضوعاته وقال: موضوع؛ لأنه من رواية نوح بن أبي مريم. وأورده كذلك الألباني تحت رقم ٧٩ وقال: موضوع.

وقال رسول الله ﷺ : ((إذا نزل الضيف نزل برزقه، وإذا ارتحل ارتحل بذنوب أهل البيت))[1].

يروى أن إبراهيمَ عليه السلام استضافه مشرك فَحَرَمَه، فلما أصبح انصرف وقد يئس من القرى، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال له: إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: لِمَ حرمت عبدي ؟ فقال له: إنه مشرك، فقال له جبريل: إن الله يقول لك: أأنت خلقته أم أنا ؟ فقال: بل أنت. ثم قال له: إنه يقول لك: أكان كفره بك أم بي ؟ فقال كان كفره بك. قال: إنه يقول لك: أأنت كنتَ ترزقُه فيما مضى من عمره أم أنا ؟ قال: بل أنتَ رازقني ورازقه. قال: إنه يقول لك: أهو خلق الكفر في قلبه أم أنتَ خلقته وجبلته عليه ؟ قال إبراهيم : بل أنت. قال جبريل: إنه يقول لك : أكان كفره يضره أو يضرك ؟ قال : بل يضره ، قال له : إنه يقول لك: إن كان ذلكَ كذلك فلم حرمتَه وهو عبدي وأخوك؟ فإنه لايخلو من حالتين: إما أن أشقيه فأجعله غذاء لناري ومحلاً لجريان واجب غضبي واقتداري وإما أن أتوب عليه فأجعله من جملة أحبائي وأسكنه دار رحمتي وعطائي؛ فلحقه إبراهيم عليه السلام، ولقيه وجيفاً[2]، فتلطف به، وراوده على الرجوع ليطعمه، فقال له: إن لك نبأ: حرمتني أولاً، ثم تلطفت آخراً وكأنك أنت الذي تطلب الحاجة إلي ! إن ربي عاتبني فيك، فقال له: نعم الرب ربك إذ يعاتب حبيبه في عدوه، فأسلم ولازم العبادة مع إبراهيم عليه السلام حتى مات رحمة الله عليه[3] .

واختلف في الضيف الذي تجب ضيافته وجائزته؛ فقال الثوري في مسنده: قال: هو المسافر المتزود الذي يطول سفره حتى يفنى زاده ولاسوق ثَمَّ يشتري منه زاداً، وأما إذا كان مليّاً

= وأما الثاني فلا أصل له، أورده الألباني تحت رقم ٧٨ وقال: لا أصل له، وأورده كذلك العجلوني تحت رقم ١٥٠٠ وقال: قال النجم: ليس بحديث.

وأما الثالث فقد قال الألباني: إنه موضوع كذلك (١/ ١٠٥)، والله أعلم.

(١) حديث « إذا نزل الضيف الخ » ضعيف رواه الديلمي وابن أبي شيبة بألفاظ مختلفه، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٩٤٣ بلفظ: « الضيف يأتي برزقه ويرتحل بذنوب القوم يمحص عنهم ذنوبهم »، ورقم ٢٢٧ بلفظ: « إذا دخل الضيف »، وقال: ضعيف. كما أورده السخاوي تحت رقم ٦٢ إلا أنه قال: « وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم »، وقال: ضعيف، والله أعلم.

(٢) وجيفاً: مضطرباً، أو ساقطاً من الخوف، أو مسرعاً على دابة.

(٣) ما أشبه أن تكون هذه القصة مختلقة من الإسرائيليات.

وفي بلاد الأسواق فلا ضيافة له، ولا يحل له أن يستحمل الناس مؤونته، فيكون ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، بخلاف من لا زاد له أصلاً أو فني زاده ولا مال معه فأما هذان فتسوغ لهما الضيافة، ويجب على من نَزلا عليه أن يضيفهما ويحسن جائزتهما. وكذلك الغزاة وطلاب العلوم والسعاة والبريد والمحتسب، وأما غير هؤلاء فلا ضيافة لهم تجب، إلا أنه من شاء أن يعطيهم صوناً لعرضه أو طلباً للمثوبة إن رأى ذلك، جعل الله أعمالنا ونياتنا له آمين.

ثم قال رحمه الله :

٦٨ ــ فَكَمْ ذِي غَشيً أَضْحَى غِشَاءَ مُهَنَّدٍ صَـلاَةً لِكَيْ يُخْتَـارَ مِنْـهُ صِـلاَءُ

قوله: فكم ذي غشى، كم: اسم عدد ملازم للإضافة. ذي بمعنى صاحب غشى، بالفتح والقصر: أي فَرس سابل الغرة، وذلك من علامة يمنه وجودته وعتاقته. قال ابن دريد في مقصورته: (من بحر الرجز)

كأنما الجــوزاء في أرســاغــه والنجــم في جبهتــه إذا بــدا[1]

والفرق بين الغرة والغشوة والدينار والرثمة هو أن الغرة ما بلغ الأنف من بياض الوجه أو كاد، ومنه قوله ﷺ لما قيل له: كيف تعرف أمتك من بين الأمم ؟ قال: ((إنهم يبعثون من قبورهم غرّاً محجلين من آثار الوضوء))[2].

فالغرة في حقهم شعاع نوراني يغشى وجوههم. وقيل: هو نور أبيض كالغرة يتميزون به كبياض يد موسى.

والغشوة: ما غشى وجه الفرس أو البعير حتى يعم الوجه كله والمشفرين. والرثمة: بياض يخص المشفرين أو أحد المشفرين فقط. والدينار: بياض مدور يكون قدر الكف أو دون ذلك، وهو أحسن الأصناف عند العرب، وكان من أثر مسحة جبريل عليه السلام، وذلك أنه لما أدخل آدم الجنة يحمله على عاتقه أتحفه الله بأن بعث إليه الفرس والبراق، وصحبه رضوان خازن الجنة فقال له: إن الله أرسلني إليك بهاتين الدابتين لتختار أيهما شئت لركوبك، فالتفت إلى

---

(١) الجوزاء: نجم معروف، والنجم: هو الثريا، يصف غرة فرس وتحجيله.

(٢) حديث « إنهم يبعثون يوم القيامة الخ.. » متفق على صحته، رواه الشيخان وأحمد بلفظ « إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء »، زاد مسلم: « فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل ».
(البخاري ــ كتاب الوضوء ــ باب فضل الوضوء والغر المحجلين).

جبريل كالمستشير، فقال له: اختر أحسنهما وجهاً؛ فاختار الفرس، وكان أحسن وجهاً من البراق، فقال له جبريل: اخترتَ عزك وعز بنيك إلى يوم القيامة، فمسح جبريل ناصيته وبارك فيه، فلما رفع كفه إذا موضع كفه غرة بيضاء تلوح، فالتفت إلى آدم فقال: هذه علامة يمن الخيل إلى يوم القيامة[١].

قال ﷺ : ((كل شؤم من الفرس يذهبه الدينار والدرهم)).

وكان ﷺ يكره الشكال؛ وهو أن تكون اليد اليسرى بيضَاء والرجل اليمنى كذلك، بل يكره ذلك ولو كان من جانب واحد ما لم يكن الفرس أغر. أخرجهما السيوطي في جامعه[٢].

قوله: أضحى: من أخوات كان، اسمها صلاهُ، وخبرها غشاءً، بالكسر والمد، أي: صار صلاه غشاء، أي غمداً لسيف مهند، فمهند نعت لسيف المحذوف، كقوله تعالى ﴿ **أن اعمل سابغات** ﴾ [سبأ: ١١] أي دروعاً سابغات. المهند: الذي سقي مرة بعد مرة مع انتخاب حديده المصاغ منه حتى يترطب ويلين بحيث إذا أثبته ثم أطلقه يرجع إلى حاله قبل العطف، وإن بقي معوجاً فرديء، وإن بقي فيه حنو فعيبه بقدر ذلك، وأفضلها وأشرفها الهندوانية التي تصنع بالهند لكونها تقطع الحديد، إلا أنها إذا ضرب بها في يوم بارد تحطمت متُونها.

ولما كان يوم اليمامة برزت حنيفة إلى عسكر خالد وقد جردتْ سيوفها، فقال خالد للمسلمين: أبشروا فإن القوم قد فشلوا؛ أما ترون إلى سلهم سيوفهم يرهبوننا بها ؟! وكان فجاعة أسيراً عند خالد فقال: إنهم لم يجبنوا وليس الجبن لهم بخلق، ولكنها الهندوانية، وقد خافوا عليها أن تتحطم متونها، فأبرزوها للشمس لتتصلب. فلما دنوا من معسكر المسلمين قالوا: إنا نعتذر إليكم من سل سيوفنا فإنَّا لم نسلها جبناً ولا لنرهبكم بها وإنما هي الهندوانية، وكانت غُدوة باردة فأبرزناها للشمس لتتصلب متُونها حتى نلقاكم، وسترون ذلك إذا لقيناكم.

والصلى: واحد الصلوين، وهما ما عن يمين الذَّنَبِ ويساره. والصلاء، بالمد والكسر: المشوي بالملّة.

فالمعنى: كأنه يقول: كثير من فرس فارهٍ[٣] كالأغشى صار صلاه غشاء لسيف مهند

---

(١) لا أظن هذه القصة تصح بأي حال، والله أعلم.

(٢) حديث « كان ﷺ يكره الشكال من الخيل الخ.. » حديث صحيح رواه مسلم في كتاب الإمارة (٧/٣٣) وأحمد.

(٣) في (أ): فرس فاره، وفي (ب): فرس بدل فارس، ولعل الأول أصوب.

عرقبه به فغشاه وغطاه صلاه لأجل أن يختار من لحم ذلك الفرس صلاء؛ فعل ذلك جود وكرماً.

يحكى أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ سأل زوجة حاتم بعد ما أسلمت، فقال لها: حدثيني ببعض غرائب حاتم في الكرم؛ فقالت: أصابت طيئاً مجاعة أفنت الخف والظلف، وقد أفنى حاتم ماله في تلك المجاعة بذلاً وعقراً وبيعاً في الزرع والثمر ليطعم الجائع والطارق حتى إنه لم يبق في ملكه غير فرسه، وبتنا طاويين وسَفَّانَةُ وعدي صبيان وقد أجهدهما الجوع، فجعل يعلل سَفَّانَة لتنام، وجعلت أعلل عديّاً. فلما ناما أقبل علي يحدثني ليشغلني بذلك عن ألم الجوع لعلي أنام؛ فَنَومت نفسي شفقة عليه، فقال لي: نمت ؟ فلم أجبه، فظن أني قد نمت، فجلس، فبينما هو كذلك إذا بسواد قد أقبل فقال: من هذا ؟ فقالت: جاريتك فلانة، وقد تركت صبياني يتضوَّرون جوعاً، فقال لها: والله لأشبعنهم وإياك، فارجعي إلى بنيك وائتي بهم؛ فرفعت رأسي وقلت له: وبم تشبعهم وما نوّمنا صبياننا إلا بالتعليل ؟! فأخذ سيفه فعقر فرسه ثم ذبحه وأجج ناراً، ثم أمر المرأة أن تأكل وتشبع صبيانها، وأيقظ سفانة وعديّاً وناولني المدية فقال: كلي وأطعمي صبيانك وعبيدك، ثم نهض فقال: والله إنه للؤم أن أشبع وأهل الحي جياع؛ فذهب إلى الحي يوقظ أهل كل بيت فيقول لهم: هلموا إلى النار فإن آل حاتم قد نحروا؛ فاجتمع أهل الحي على النار حتى لم يتركوا إلا حوافره وهو متقنع بردائه، فوالله ما طعم منه مضغة وقد كان أحوجنا إليه وأشدنا جوعاً !!

يروى أن الله يجعل له في النار بيتاً من برد فلا يجد ألم النار لجوده وكرمه، ولايدخل الجنة لأن الله حرمها على المشركين[1].

ومراد الناظم الحث على الجود بأنفس الموجود، والتَّرغيب في إفراغ الجهد في ذلك على الوجه المحمود؛ عملاً بما عليه أرباب الإرادة الذين قصروا المقصود على رضا الرب المعبود ومالك الموجود والمعدوم، لنكون من أهل السعود، الموفين بالعهود، القائمين على الحدود، الذين أحلهم تواجدهم[2] جنة الوجود، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) القول بأن حاتماً يبنى له بيت من برد في النار لجوده غير صحيح ، والله أعلم .

(٢) لم يتضح المقصود من كلمة (تواجدهم) إلا إذا كان يريد حبهم لله أو فرحهم للقائه. فأصل التواجد أن يرى الإنسان من نفسه الوجد أي الفرح أو المحبة أو الحزن ، والله أعلم .

ثم قال رحمه الله :

٦ ـ وَذَاتَ الحَذَا اصْنَعْ مِنْ نَجَاهَا حِذَاءَ ذي وَجيً واغْتَنِمْ صَوْماً فَفِيهِ وِجَاءُ

قوله: وذات الحذا: أي اعمد إلى بقرة ذات حذا، بالفتح والقصر، وهو مصدر حذيت البقرة أو الناقة: إذا انقطع سلاها في بطنها، فاصنع من نجاها أي جلدها حذاء شخص صاحب وجيً، بالقصر: مصدر وجي الرجل، بالكسر: اشتكى باطن قدمه، فإن زاد فهو حفيً. والحذاء، بالمد: النعل. واغتنم صوماً؛ فذلك الفعل والصوم وجاء، بالكسر والمد: أي رَضُّ الأنثيين من غير نزع لهما من محلهما، فقطعهما خصاء.

قال مالك بن المرجل في نص الفصيح له: (من بحر الرجز)

وقد خصيت الفحل والخصاء أن تنزع الخصيين والوجاء

أن يتركا هناك بعد رض ينوب عن نزعهما وغض

وقد وقع في الحديث: قال ﷺ : ((من لم يستطع منكم الباءة[1] فعليه بالصوم فإنه له وجاء))[2]؛ لما فيه من قطع مادة الشهوة بالاستقلال عن الأكل والشرب.

قال البوصيري رضي الله عنه: (من بحر البسيط)

إن الطعام يقوي شهوة النَّهِمِ

وقال ﷺ : ((لا رهبانية في الإسلام، ورهبانية أمتي الصوم والجهاد)).

وإنَّما يكسر الصوم سورة الشهوة بالطول والإدمان عليه، وأما أول مرة فلا تزداد الشهوة إلا إيقاداً لما في ذلك من تجفيف الرطوبات التي من شأنها أن تُرخي العصب وتكسر سورة الحرارة الغريزية، كما في كتاب المدخل.

قوله: وذات الحذا: عبارة عن الدنْيا؛ لأن قطع السلى من المرض المخوف إذْ قلما أنتن في جوف البهيمة فسلمت. قال ابن دريد: (من بحر الرجز)

ولا أقول إن عرتني أزمة[3] قول القنوط أنقد في البطن السلى

---

(١) الباءة: النكاح لغة، والمراد هنا الأهبة له، أي من استطاع منكم مؤونة النكاح فليتزوج.

(٢) حديث « من لم يستطع منكم الباءة فعليه بالصوم الخ.. » متفق على صحته، رواه الشيخان في كتاب الصوم، ولفظه عند البخاري: « من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ».

والوجاء أصله رَض الأنثيين، وأطلق على الصوم مجازاً؛ لأن كلا منهما مذهب للشهوة، والله أعلم.

(٣) في النسخ المطبوعة من قصيدة ابن دريد: (نكبة) بدل (أزمة).

وإذا كانت الدنيا كذلك فَاتخذ من نَجاها حذاء للعمل ومنْ لحمها زَاداً لبلوغ الأمل
واقطع شهواتها التي هي كأحلام النوم بالزهد فيها والرغبة عنها، فذلك المقْصود بالصوم، تكن من
المفـلحـين، وتلحق بالقَوم ، وإلا فأعد جلبـاباً للتوبيخ واللوم ، واستحضر فجـاءة الشقـا
والشؤم ؛ فإنه ليس بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار ، وذلك معنى قوله ﷺ : ((من ضَاعت
دنْياه فآخرته اضيع)) . وضياعها عدم التزود منها، إذ هي فانية زائلة لا محالة، فمن فاتته و
يتزود منها فقد ضاعت عليه دنياه في غير فائدة، وآخرتُه أضيع ؛ إذ لا آخرة إلا بزاد من التقو
والعمل الصالح يقدمه لآخرته من دار دنياه، فإن فاته هذا فلا دنيا له ولا آخرة ، ومن لادنيا ل
ولا آخرة فالنار مثواه ، والخزي والوبال مأواه ؛ إذ الآخرة بنت الدنيا ونتيجتها .

قال علي كرم الله وجهه : منْ قدم دنياه أمامه أحب اللحوق بها ، ومن أفنى دنياه في
شهواته وهواه كره القدوم على دار قد خرّبها ، ولا بد له من ذلك؛ فيندم حيث لاينفع الندم
لاجعلنا الله ممن قدّم الأمل وأخر العمل حتى فجاءة الأجل ، آمين .

ثم قال رحمهُ الله :

٧٠ ــ وَكُنْ لِوَزىً هَابَ الوَزَاءَ مُؤْمِّناً   فَشَـرُّ الْبَرى مِنْـهُ الْكِرَامُ بِرَاءُ

كن: فعل أمر من الكون، وخبره مؤمناً ، واسمه مستتر وجوباً . لوزى : جار ومجرور
متعلق بكن، وهو القصـير الهلب من الدواب، والضعيف من الرجال، ومن لاقرن له، وهو
بالزاي المعجمة مع فتح وقصر . هاب: فعل ماض، وضمير فاعله المستتر عائد على وزى .
الوزاء، بالكسر والمد: الأقْوياء ، وهو مفعول هاب .

قوله : فشـر البرى . فشرُّ: مبتدأ ، والبرى، بالفتح والقصر: مضـاف إليه ما قبله .
والكرام: مبتدأ ثان، وبراء : خبره. والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول. ومنه: متعلق ببراء،
فالبرى الخَلْق، ومعناه: فشر الخلق منه الكرام بِرَاء، جمع بريء وبراء .

وقد وقع في الحديث الصحيح أن ((من شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه))[1] ،

---

(١) حديث « إن من شر النـاس الخ » جزء من حديث متفق على صحتـه، رواه الشيخـان وأبو داود
والترمذي؛ وسببه أن رجلا استأذن على النبي ﷺ ، فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة فلما جلس تطلق في وجهه ،
فلما انطلق الرجل قالت له عائشة يارسول الله ، حين رأيت الرجل قلت له: كذا وكذا ، ثم تطلقت في وجهه
وانبسطت إليه ! فقال: ياعائشة، متى عهدتني فحاشاً ؟ ثم قال ــ حسب رواية البخاري ــ : « إن شر الناس عند
الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره » (كتاب الأدب) .

والرجل المشار إليه هو الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري .

ي داراه الناس وغمضوا عنه عيونهم اتقاء ما يصدر منه، ونزاهة عن فحشه؛ لما يستخرجه صح والزجر منه مما هو شر منه من كان عليه، وهو من الذين إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة لإثم ؛ فحسبه مؤدباً وزاجراً ومستعتباً جهنم وبئس المصير؛ إذ لا دواء له غيرها؛فهو كالزبوق[1] يصلح إلا للنار ، « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث »؛ معناه: إنْ ظه لايتعظ، بل لاتزيده الموعظة إلا خبثاً؛ لأنها تثير مافي بطنه من خبث الطوية، أو تتركه فَلا ظه لايزال على ماجبل عليه من الضلال والشر والفحش والطيش ؛ لأن الله لم يجعل له في ير حظّاً ولا نصيباً .

قال ﷺ : ((أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن، وإن الخلق السيء ليفسد العمل يفسد الخل العسل))[2] .

وقال ﷺ : ((إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم)) . وفي رواية: درجة الصائم الذي لايفطر والقائم الذي لايفتر)) .

وقال: ((لو كان الحياء رجلاً لكان رجل خير ، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجل ء))[3] .

وقال: « البذاءة من النفاق » .

ثم قال رحمه الله :

٧ ـ وَحَاذِرْ كَهىً مِنْ ذِي كِهَاء عَلَى قَرىً   وَمَـا هَمُّـهُ إلاَّ لُهـىً وقِـرَاءُ

قوله : وحاذِرْ : فعل أمر من حاذر . كهىً ، بالفتح والقصر: مفعول حاذرْ ، أو صوب بنزع الخافض، أي: حاذر أن تكون كذي كهى[4] ، والكهى: مصدر كهي الرجل، كسر إذا كان جباناً مخلعاً .

قال ﷺ : ((إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية ، ويبغض الجبن ولو من أسد

---

(١) كالزبوق: كذا في الأصلين ولعل في الكلمة خطأً إلا إذا كانت كالزيوف، الذي هو المزيف من هم، فهذا فعلا لا يصلح إلا للنار، والله أعلم .

(٢) حديث « أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن » . رواه الطبراني وأبو الشيخ، وعنهما صاحب ف دون الزيادة التي هي: « وإن الخلق السيء الخ » وهو عنده تحت رقم ،٨٢٩ والله أعلم .

(٣) حديث « لو كان الحياء رجلاً لكان رجل خير الخ » تقدم ذكره .

(٤) وفي هذه الحالة لا يكون منصوباً بنزع الخافض .

حرد))[1] . والكهاء ، بكسر الكاف والمد : المفاخرة بعظم الجسم ، وذلك من شأن م
لاخلاق له، قال الشاعر : (من بحر الوافر) .

تـرى الرجـل النحيف فـتزدريـه   وتحت ثيـابـه أسـد هصـور
ويعجبـك الطـريـر فتبتـليـهِ   ويخـلف ظنك الرجـل الطـرير[2]

يروى أن النبي ﷺ لما أتاه وفد عبد القيس سألهم فقال: هل فيكم الأشج؟ فقالوا له: ذاك هو
وكان رجلاً قصيراً دمياً، فلما نظر النبي ﷺ إليه خاف أن يكون قد انكسر قلبه لدمامته
وتكون عينه رسول الله ﷺ قَد اقتحمته، فقال: ((ادن ايها الرجل فإن الرجال لايستقى
مسوكها[3] إنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه)). وأول من قال ذلك شقة التميمي، وكان يحار
النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وقد نهب أمواله وقتل أبطاله؛ فطلبه كل الطلب فلم يقْدر عل
مع قوة سلطانه وكثرة أعوانه ، فلما يئس منه بعث إليه رجلاً من قومه فقال له: سلم على ش
وقل له: إن أنتَ أتيتني وسالمتني أعطيتُك ألف نَاقة؛ فوفد إليه، فلما رآه اقتحَمته عينه واحتقر
لدمامته وقصر قامته ، ففهم ذلك شقة، وكان رجلا لبيباً مفوهاً ، فقال له: أيها الملك، أبي
اللعن، إنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا نطق نطق ببيان، وإذا صال صال بجنان؛ فاقبل إل
الملك ، وأدنَاه، ورفع منزلته ، فلما ناطقه أعجبه ما رأى من فصاحته ، وجودة عقله، وكمال أد
وثبات جأشه، فقال له: أي شقة، إني كنت أسمع بمكارمك وليس الخبر كالعيان، وإني
رغبتُ فيك كل الرغبة، فإن شئت أعطيتك من الأموال مايحيط بالأموال ، وإن شئت كنت
نَديماً وأنا لك بكل ما تشتهيه نفسك زعيماً ؛ فقال له: المال محبوب لكني لا أختار على المل
شيئاً ؛ فقال له : لله أبوك يا شقة ! عجزت الرجال أن تماثلك ، وقصرت الأبطال عن
تطاولك، فلأجمعن لك بين الحباء[4] والاحتباء ، فأعطاه من الأموال ما يقصر عنه الوصف ،
اتخذه نديماً .

والكهـاء ، المتقدم ذكره ، مصـدر كاهى الرجل الرجل: إذا فاخره بعظـم الجسـ

---

(١) حرد: غضب .

(٢) الطرار : النشال ، السارق. الطرير: الذي طلع شاربه، والرجل الطرير : ذو طرة وهيئة حسنة وجمال
ويقال: رجل جميل وطرير ..

(٣) المسوك : الجلود .

(٤) الحباء : العطية. والاحتباء: النصرة .

قرى، بالفتح والقصر: الظهر. واللُّهى، بضم اللام المشددة: جمع لهية، وهي العطية والمآكل.
ل الشاعر:

واللُّهـــى تفتــح اللَّهـــا

والقراء، بالكسر والمد: الحياض، جمع قرة.

ومعنـاه: احذر جبناً من ذي مفاخرة بعظم جسمه حال كونه مستلقيا على ظهره
فاه، وليست له همة إلاّ فيما يأكل ويُعْطىَ، أو فيما يشرب منه من الحياض، أو بمرح فيه من
رياض؛ فَهو بهيمة في صورة إنسان، كما قال الشاعر: (من بحر الكامل)

ابـــنيَّ إن من الرجـــال بهيـمــــةً ... في صــورة الرجـل الفطــين المبصرِ

فطــن بكـــل مصيـــبــة في مـــاله ... وإذا يصــاب بـــدينـــه لم يـــصر

عكس الأبله.

قال رسول الله ﷺ: ((خير ابنائكم الأبله: قالوا: وما الأبله يا رسول الله؟ قال: من
فطنة بأمر دينه ولا فطنة له بأمر دنياه، وهم أكثر من يدخل الجنة بعد الفقراء.)) جعلنا الله
ن جمع له خير الدنْيا والآخرة وعافيتهما، آمين.

ثم قال رحمه الله:

٧ــ وَكُلَّ مَـلاً بُذَّ المِـلاَءَ رِضىً وَذَا ... خَــلاً دُمْ فَطَـوْعٌ لاَ يَدومُ خِـلاَءُ

قوله: وكل ملا: الكـل: لفظ موضـوع للعموم، الملا: أحد الملوين: الليل والنَّهار.
لملاء، بالكسـر والمد: جمع مليء، أي غني. بُذَّ، بالذال المعجمـة: أي غلبهـم وفاقهم،
يضبط بضم الباء وفتح الذال، ويجوز ضمها وكسرها، كما هو الشأن في الأمر من الثلاثي
ضـاعف كلذوا وشـذوا. وكل: منصـوبٌ بالظرفية. والمِلاء: الكلام الحسن. والخِلاء،
لكسر والمد: مصدر خلأت الناقة، وهو فيها بمثابة الحران. ومنه ما في الحديث: خلأت
قصوى، وهي ناقة النبي ﷺ، فقال ﷺ: ((ما خلأت القصوى وما هو لها بخلق ولكن
حبسها حابس الفيل))[1].

والخلاء أيضاً: المشاركة.

والمعنى: وكل واحد من الليـل والنهـار غلب الأغنيـاء والأقوياء وأهل العيافة والتنجيم

(١) « ما خلأت القصوى الخ » قاله ﷺ في قصة الحديبية لما بركت ناقته ﷺ.

وفاقهم ، فإنما ينبغي لك حينئذ الرضى بما قدر لك والتسليم لأمر الله ؛ فينتج لك ذلك الرض
في كل وقت بما يوافقه .

قال ابن عطاء الله : ماترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت ما ليس فيه، و
تختر على ربك، وليكن رضاك بفقرك أكثر من رضى الأغنياء بغناهم .

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

وسلّم للمهيمن في قضاه ... ولا تختَرْ فليس لك اختيارُ

ودم صاحب كلام حسن. فطوع لايدوم خلاء: أي فذلك الطوع لايدوم، فكأنه
يفعل اولاً . قال ﷺ : ((أحب الأعمال إلى الله ما كان ديمة ولو قل))[1] .

وقال ﷺ : ((اعملوا ولاتفتروا فإن الله لايمل حتى تملوا)) .

فإن العمل إذا صنع ثم قطع فكأنه لم يفعل، وذلك مما يفسد النفس، ويحملها علي
الفشل والرعونة والكسل، إذ النفس كالناقة التي تخلأ قلما تحمل عليها بعد المتَاركة .

فالكلام دعاء مفرغ في قالب الخبر ؛ فَالملا : مضاف إليه ما قبله . وبذ: فعل ماض
والملاء : مفعوله. وفي البيت تعقيد وتقديم وتأخير؛ فَدُمْ : فعل أمر بمعنى الدعاء حال كونك ذ
رضى وذا كلام حسن بما يجري به الملوان من المقادير، فسلم له حال كونك ذا رضى. فرضىً
وخلا: حالان من ضمير دم. وطوع: مبتدأ. لا: نافية. يدوم: فعل مضارع، والجملة وصف
لطوع، ومحله الرفع. وقال المبرد: لامحل لها لكونها اعتراضية بين المبتدأ وخبره، وإنما قصاراها أن
تكون مسوغة للابتداء بالنكرة . وخلاء: خبره .

ثم قال رحمة الله عليه :

٧٣ ــ وَعِظْ نَفْسَكَ السَّهْوَى لِسِهْوَاءِ انْقَضَتْ ... وعُدَّ لَقىً مَا حُدَّ مِنْهُ لِقَاءُ

قوله : عظ نفسك: عظ: فعل أمر من وعظ يعظ وعظاً : إذا ذكر وأُنذر ، ودعا من
الغفلة إلى اليقظة ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الكسل إلى الخدمة، ومن التواني إلى العزمة، إذا
كان في السامع قابلية .

قال رسول الله ﷺ : ((من لم يكن له واعظ من نفسه فلا واعظ له)) .

---

(١) حديث « أحب الأعمال إلى الله الخ » متفق على صحته رواه الشيخان بالفاظ مختلفة ، وأورده صاحب
الكشف تحت رقم ١٢٢ والسيوطي تحت رقم ١٩٧ والله أعلم .

نفسك : مفعول به ومضـاف إليه ما قبله . السهوى : نعت لنفسك، وهو مؤنث
سهوان: الذي يسهو كثيراً .
وفي المثل : (كيف ترجو من الناس وعداً وهم بنو سهوان؟) لأن أباهم آدم عليه السلام
و أول من سها . قال الله تعالى: ﴿ **فنسي ولم نجدْ له عزماً** ﴾ [طه:١٥٥] . قال الشاعر :
من بحر البسيط

فـلا تـلم من نَسِـيٍّ في محاورة   فـإن أولَ نـاسٍ أولُ النـاسِ

لسهواء : ساعة من الليل معروفة، فلسهواء: جار ومجرور متعلق بعظ . انقضت : فعل ماض
ت لسهواء . وعد: أي اترك . لقى، بالقصر والفتح: وهو ما لايعبأ به من سفساف الأمور،
لأرذال من الناس . واللقاء، بالكسر والمد: من الملاقَاة .
والمعنى: عظ نفسك الساهية كثيراً، أي حذرها وأنذرها وذكرها مايزجرها عن
مهاكها، وانتشلها من انتشابها في وحل الغي، وارتباكها في تُرهات الزي، وكرر ذلك عليها
ضي كل ساعة من ليل أو نهار، وعد، أي احبس، نفسك عن كل لقىً من الحقير الخسيس
ن أمور الدنيا، فإنه إن لم يكن في نفسك كذلك فهو في الحقيقة كذلك؛ لأن الدنيا
مذافيرها لاتساوي عند الله جناح بعوضة؛ فما فَات منها مما تحاوله قليل من قليل، وهون عليك
ا لم تنل من أمور دنياك بتحقيرك إياه وتصغير قدرها، بالإضافة إلى ما تطلبه تفتح لك بحول
له وقوته أبواب السلوك ، وتصل إلى محل لايصل إليه إلا الملوك، وما ذلك على الله بعزيز ، وهو
لذي يعلي الخسيس بإضافته إليه، ويخلع خلع العز والقبول عليه، لا حرمنا الله من ذلك. وإن
م نكن اهلا له، آمين .
قال رحمه الله تعالى :

٧ ـــ وَكُنْ لِخفَا النَّجْوى خِفَاءً يَقِي جَوىً   فِبالصَّـوْنِ للنَّجْوَى تُصَانُ جِوَاءُ

فالخفا ، بالقصر: الشيء الخفي. والنجوى: مشتقة من طلب النجاة؛ لأن بصيانة السر
حصل السمة، وقيل: هي مشتقة من النجوة: وهي الأرض التي لا عمارة فيها؛ لأن المتناجيين
طلبان محلاً خاليا من الناس .
روي أنه ما أذيع سر إلا كانت إذاعته سبباً للتلف قال الله تعالى حكاية عن يعقوب
عليه السلام: ﴿ **يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك** ﴾ الاية [يوسف:٥] ، فلما أفشى

يوسف رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت امرأته إخوته ؛ فحل به ما حل. ولقد ارشد الله أهل عنَايته إلى كتمان السر وتبجيله ، بما حكاهُ عن خلوته بصفيه وخليله ، بمستوى وحيه وتنزيله فقال: ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ [النجم:١٠] .

وفي الحديث : ((استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود))[1]

وقال علي كرم الله وجهه : سرك أسيرك، فإذا تكلمت به صرتَ أسيره .

وأعلم أن أمناء الأسرار أقلِ وجوداً من أمناء الأموال ، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار ؛ لأن الأموال تحرز بالأبواب والأقفال ، والأسرار بارزة يدفعها لسان ناطق ، ويشيعها كلام سابق ، فإن الرجل يكون سره في قلبه ؛ فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحق من حمل الأثقال ، فإذا أذاعه سكن قلبه ، واستراح خاطره ، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً .

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوب أوعية ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها فليحفظ كل إنسان مفاتيح سره .

ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرتْ خُزّانها كان أوثق لها ، والأسرار كلما كثرت خزانها كان أضيع لها .

قال أنو شروان : من حصن سره فله بتحصينه خصلتان : الظفر بحاجته . والسلامة من السطوات .

قال كعب بن سعيد القنوي : (من بحر الطويل)

ولست بميد للرجال سريرتي ... ولا أنا عن أسرارهم بسؤولِ

وقال أبو مسلم صاحب الدولة : (من بحر البسيط)

قد نلت بالعزمِ والكتمانِ ماعجزتْ ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

مازلت أسعى بجهد في دمارهم ... والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا[2]

---

(١) حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان الخ » ضعيف . رواه الطبراني وأبو نعيم بسند ضعيف والبيهقي وابن ابي الدنيا بسند فيه سعيد بن سلام وقد كذبه أحمد . والعسكري بسند ضعيف وفيه انقطاع، واللفظ عند أكثرهمُ: « استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود » .

وأورده بهذا اللفظ صاحب الكشف تحت رقم ٣٤٢ والله أعلم .

(٢) رواية الذهبي في سير أعلام النبلاء لهذا البيت هي :

طفقت أسعى عليهم في ديَارهم ... والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا

(٥٣/٦) .

مــازلت أضربهــم بــالسيف فانتبهوا　　　من نــومــة لم ينـمـهــا قبــلهــم أحد
ومن رعى غنماً في أرض مسبــعــــة　　　ونــام عنهــا تــولى رعيهــا الأســدُ

قال بعضهم لرجل استودعه سرّاً : أحفظت ؟ قال : بل نسيت .

وقال المهلب بن أبي صفرة : أدنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيانه ماأسر إليه .

ومن أحسن ماقيل في كتمان السر قول الشاعر : (من بحر الكامل)

ولهــا ســرائر بــالضـمــير طويتهــا　　　نَســيَ الضـمــيرُ بــأنهــا في طيّــهِ

وقيـل : كتمان السـر يدل على جوهرة الرجل ، كما أنه لاخير في آنية لاتمسك مافيها فكذلك لاخير في لسان لايمسك سره .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

ومستــودعي ســراً كتمت مكــانــه　　　عن الحسِّ خــوفــاً أن يــنمَّ بــه الحسُّ
وخفت عليــه من هوى النفس شهوةً　　　فــأودعتُــه من حيث لاتعــلم النفسُ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : (من بحر الطويل)

ونــاس أمِنّــاهــم فــأفشــوْا حديثنــا　　　فَــلمــا كتمنــا الســر عنهــم تقَوَّلوا

وقال المتنبي : (من بحر الطويل)

وللســـرِّ مــني مــوضــع لاينــاله　　　نــديمٌ ولا يُفْــضي إليــه شَــرابُ

قوله : الخفاء ، بالمد : الغطاء ، بالغين المعجمة ، من أي شيء كان ، وهو خبر كن . والجوى : هنا النتن ، و كُنِّي به عن قبح إفشاء السر ، ودناءة صاحبه ، وعدم نظره إلى عواقب إفشاء السر ، ومايؤول إليه من المفاسد ، وأراد الناظم بذلك لازم معنى النتن من القبح وسوء الطوية والبعد عن مكارم الشيم ، ويصح أن يكون لفظيّاً ؛ فَالجوى استعارة لإفْشاء السر . والجواء ، بالمد والكسر : جمع جواء وهو المكان المطمئن ، وخصهما على ماقاله لأن سكناه إنما يكون في المصالحة والمهادنة . يقول : وكن للسر الخفي غطاء ، كفى ذلك الغطاء قبح إفشاء السر ، فبالصون للسر من الإفشاء أي بكتمانه تصان جواء ، ويدوم الأمن والمصالحة والحياء ، وتنـأى عن السـاحة الأعداء ، وتتآلف الأهواء ، وتقل بسبب ذلك الشكوى والشكواء[1] ،

---

(١) الشكواء ، بالمد : المرض .

ويرفع البلا والبلواء ، وتكثر الآلاء ، وتزول اللأواء[1] ، وتقطع الشحناء ، وتحل مكان الضراء السراء ، وتنجلي الأزمات وتحل مكانها السراء ، جعلنا الله ممن يسره لليسرى ، وفتح عليه باب الذكرى ، وأصلح له الدنيا والأخرى ، آمين بجاه الأمين .

قال رحمه الله :

٧٥ ـ تَوَقَّ الرَّدَى وَالْبَسْ رِدَاءً مِنَ التُّقَى لَعَلَّ الشَّفَا يُلْفَى لَدَيْهِ شِفَاءُ

قوله : توق : أي احتفظ من الردى أي الهلاك مصدر رَدَي بالكسر إذا هلك ، والبس رداء كائناً من التقى ، لعل الشَّفا ، بالقصر والفتح : وهو طرف كل شيء ، والمراد به هنا آخر العمر ، يوجد عنده شفاء ، بالمد والكسر : اي برء أو مايقع به البرء من الأدوية وشبهها ؛ فالردى هنا كناية عن المهلكات من الذنوب الموبقات ، أو مايجر إليه من الأهواء والانكباب على الشهوات ، فإذا لبست درع الصيانة ، وجعلت على رأسك بيضة الأمانة ، وأخذت بشمالك جُنَّةَ التقوى ، وهززت بيمينك صارم التوكل والنجوى ، فقد أخذت أهبة النجاة من المهالك ، وسلكت أنجح المسالك ، واستحصلت ماضاع عليك بأفضل المدارك فاستدركته ، وجز حينئذ بسيف العزم مسافة التسويف، وعُلَّ بعد الآثخان[2] عَلَّ برح التعريف ، تجد كلما أشفَيت على المخاوف ظهيراً من اللطيف ، يجبر كسر الضعيف ، عندما يطوف به طائف من الشيطان المخيف ، قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] بدفع مكائدهِ وسد ثغور مصائده ، وتحصنوا بالتَّوبة النصوح من الغي والفضوح[3] ، فوقع الشفاء، وحصل بعد الشفا على الخطوة الاصطفاء ، فاضمحل المحذور ، ووقع الأمن والسرور ، وانحسم الغرور ، وتضاعف الحبور ، فأصبح العيش هنيّاً والفقير غنيّاً .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

وجُزَّ بسيف العزسوف ولاتكن وإياكَ عَلَّ فَهْي أخطر عِلَّةِ

قال الرسول ﷺ : ((إذا أراد الله بعبده خيراً بصره بأمره وجعل له كلما عثر من ينبهه منْ نومه ، وإذا أراد الله بعبده سوءاً لم يجعل له منبهاً وتركه ونفسه)) .

---

(١) اللأواء : الشدة والضيق .

(٢) الاثخان : الجراح الشديدة .

(٣) كذا في الأصلين : الفضوح .

يروى أن رجلاً من السلف كان له ورد من صلاة ، وكان له محراب : فغلبته عيناه ليلة ، فبينما هو نائم إذ محرابه قد انشق عن سبع جوارٍ : ستة منهن عليهن الحلي والحلل وكأن وجوههن أقمار صحو ، وإذا معهن جارية سوداء شوهاء منتنة الرائحة ، فقال لها : مالك أيتها الجارية قد شوه الله خلقك بين صواحباتك ؟ فقالت : أو ماتعرفني ؟ قال لها : لا والله ماأعرفك وهذه صورتك ، فقالت له : أنا ليلتك هذه التي نمتها ، ثم أنشدت فقالت : (من بحر البسيط)

اضرع إلى الله في ردي إلى حـــالي ... فأنت شـوهت شكلي بين أشكالي
لاتـرقـدن الليــالي مـاحييت فـإن ... نِمْتَ الليــالي فهـي الدهـر أمثـالي
نحن الســرور لمن نـال السـرور بنـا ... جَوف الظـلام بسكنى المنزل العالي
وقــد أردت بخــير إذ وعظْت بنــا ... فـابشــر فـأنت من المولى على بال

والبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾ [الأعراف : ٢٦] لأنه أستر للعورات ، وأدفع للروعات ، وأنفع في الماضي والآت ؛ لقوله تعالى : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثِيًا**[١] ﴾ [مريم : ٧٢] ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب** ﴾ [الطلاق : ٢] أمدنا الله باليقين ، وجعلنا من حزبه المتقين .

ثم قال رحمه الله :

٧٦ ــ وَشِبْهُ الْهَجا أَهْلُ الْهِجَاءِ فَلاَ تَكُنْ[٢] ... حَجَـا مَعْشَـرٍ هـم بِـالهِجَـاءِ حِجَـاء

قوله : وشبه الهجا : فيه تقديم وتأخير ، وترتيبه : أهل الهجاء ، أي أصحاب الهجاء ، شبه الهجا وهي الضفادع ، لأنهم ينطقون ويصوتون بغير فائدة كالضفادع في الماء ، بل الضفادع خير منهم لأنها ترفع أصواتها بذكر الله ، إلا أنها لاتفهم ، لقوله ﷺ : ((إن الله لم يخلق دابة من دواب البر ولا من دواب البحر أعبد ولا أكثر ذكراً لله من الضفدعة)) .

ولذلك قيل بتحريمها لكثرة ذكرها لله . ويكون تحريمها تحريم حرمة لاتحريم خبث ولافساد كتحريم لحم الإنسان ، كما قاله الدميري .

ويروى عن علي كرم الله وجهه أنها تقول في نقيقها[٣] : سبحان الواحد القهار ، سبحان المعبود في البحر والقفار . ذكره في جملة من أذكار الحيوانات لما سأله عن ذلك حبر

---

(١) جثيا : جمع جاث : جلس على ركبتيه ، أو قام على أطراف أصابعه .

(٢) في النسخة (ب) فلا تطر ، وعليها شرح المؤلف .

(٣) النقيق : صوت الضفادع .

من أحبار يهود ، فأجابه عنه كما في التوراة ، انظر البحر المحيط عند قوله : ﴿ **يا أيها النَّاس علمنا منطق الطير** ﴾ [النمل : ١٦] .

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : مامن حيوان يصوت إلا ذكر الله ماعدا الحمار والغراب فإنهما يلعنان العشارين فإذا رغى البعير فإنه يقول : حسبي الله ، وكفى بالله وكيلاً . وإذا حن فإنه يقول : كيف يستطيع السكوت من لم يجد القوت ؟ وأما الفرس فإنه يقول : سبحان الله حافظي إذا التقت الأبطال واشتغل الرجال بالرجال . ويقول كلما أصبح وأمسى : اللهم من ملكته ناصيتي فاجعلني من أحب أمواله إليه . وتقول الشاة في ثغائها : سبحان اللطيف رازق الضعيف . وتقول البقرة في خوارها : سبحان من بسط رزقه ولم يضيع خلقه . وتقول الفاجة[1] في هديرها : سبحان من أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . ويقول الديك في تأذينه : اذكروا ربكم ياغافلون . ويقول الصرد في ضجيجه : سبحان من لاينسى من ذكره ولا يكرم من كفره . إلى غير ذلك مما يطول ذكره ولاتحمله هذه العجالة المختصرة .

فالهجاء ، بالكسر والمد : المشاتمة بالأشعار على وجه المبالغة . وهو مما لاينبغي شرعاً ولاعادة .

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : ((إذا عظمت على أمتي الدنيا رفعت عنها هيبة الإسلام ، وإذا لم يتناهوا عن منكر فعلوه رفعت عنهم بركة الوحي ، وإذا تسابوا وتهاجوا أسقطوا من عين الله)) .

والحجا ، بالفتح والقصر : الناحية . والحجاء . بالكسر والمد : جمع حجا ، وهو الفرج ، كأنه يقول : أهل المشاتمة بالأشعار في الأشرار شبه الضفادع ؛ فلا تحم حول ناحية معشرهم ، وهم مولعون بالمشاتمة بالشعر . فلا تطر : يقال : طاره يطروه طوراً : حام حوله . والحجاء أيضاً : الفرج ، وتصح إرادته هنا بأن يكون المعنى هم فروج أي مثلها في الاستقذار ، والحجا يطلق ويراد به الولوع بالشيء والحجاء : العقال .

وهذا حيث لم يكن الهجو محموداً ، وهو على قسمين : محمود ومذموم :

فالمحمود منه : ماكان في توهين الشرك ، وذم أهله ، وتحقير الفجور ، وشتم أهل الشرك .

---

(١) الفاجة : كذا في الأصلين ، ولعل المراد الفالج ، وهو الجمل الضخم ذو السنامين ، ويسمى كذلك الدهانج . ذكره الدميري (٢٠٢/٢) .

والمذموم : ماكان في شتم أعراض المسلمين ، وهتك أستارهم وحرماتهم . والتفكه بلحومهم ، وهذا حرام بلاخلاف ، وقبيح ، ويجرح أهله ، لكنه ينبغي تعلمه تدريباً وتفصحاً واستعداداً لرد مثله إن وقع من أهل الكفر والفجور ؛ لقوله ﷺ : ((من تعَزَّى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضُّوه بهَنِ أبيه ولاتكنوا[1])) .

وإنما ينبغي تعَلمه لما فيه من ألفَاظ فصيحة ومعان بديعة ، وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ولا على صدق الشاعر فيما رماه به . فما كل مذموم بذميم ، وقد يهجو الإنسان بهتَاناً وظلماً وعبثاً وإرهاباً .

قال المتوكل لأبي العيناء: إلى كم تَمدح الناس وتذمهم ؟! قال: ما أحسنوا وأساءوا.

وقد رضي تعالى على عبده أيوب فقال: ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص: ٤٤]، وغضب على عبد فقال: ﴿ **منّاع للخير معتد أثيم عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم** ﴾[2] [القلم:١٣] .

وقال دعبل في المأمون بعد البيعة له وقَتْل الأمين: (من بحر الكامل)

إني من القوم الذي هم هم ... قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهدِ[3]

فقال: ما أبهته ما أبهته ! ليت شعري متى كنت خاملاً وفي حجر الخلافة ربيت وبثدييها رضعت ؟!

ولما قتل جعفر بن يحيي بكى عليه أبو نواس وحزن، فقيل له: أتبكي عليه وقد هجوتَه ؟! فقال: ذلك لركوبي الهوى، بلغه أني قلت فيه، (من بحر الطويل)

ولست وإن أطنبت في وصف جعفر ... بأول إنسان خرى في ثيابه[4]

فكتب إلى عامله أن يدفع لي عشرة آلاف درهم أغسل بها ثيابي.

---

(١) حديث «من تعزى عليكم الخ» رواه أحمد والنسائي وابن ماجه ، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٤٣٧ .

(٢) الزنيم : الدعي .

(٣) الأوهد : السحيق ، وشطر البيت كما هو في العقد الفريد :

رفعوا محلك بعد طول خموله .

(١٩٦/٢) عقد .

(٤) يعني أنه ليس أول إنسان تغوط في ثيابه .

ومن العبث بالهجو ما روي عن الحطيئة أنه أصبح وقد هم بهجاء، فلم يجد من يستحق إلا نفسه؛ فهجاها فقال: (من بحر الطويل)

أبت شفتاي اليوم إلا تكلُّما ... بسوء فلا أدري لمن أنا قائلُهْ

أرى لي وجهاً قَبَّحَ الله خلقه ... وقُبِّح من وجه وقُبِّح حاملُهْ

وعبث يوماً بأمه فقال: (من بحر الوافر)

تنحي واقعدي مني بعيداً ... أراح الله منك العالمينا

فغربالاً إذا استودعْتِ سراً ... وكانوناً على المتحدثينا

حياتك ما علمت حياة سوء ... وموتك قد يسر الصالحينا

وقال رجل: ما أبالي أهجيت أم مدحت؛ فقال الأحنف بنُ قَيس: « أرحت نفسك من حيث تعب الكرام »: لأن الإنسان إذا كان لايخشى على عرضه فقد يستوي عنده المدح والذم، وبئس الرجل ذلك..

وكان الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل ؟ قال: من بني نمير، فلما هجاهم جرير بقوله: (من بحر الوافر)

فغضَّ الطرفَ إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

صاروا إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل ؟ قال: من بني عامر. وما لقيتْ قبيلة من العرب من الهجو ما لقيت بنو نمير من بيت جرير هذا[1].

وهجا ابن بسام رجلاً فقال: (من بحر الخفيف)

ياطلوع الرقيب ما بين إلف ... وغريماً أتى على ميعاد[2]

ياركودا في يوم غيم وصيف ... يا وجوه التجار يوم الكساد

يروى أن أهجى شعر قالته العرب : (من بحر البسيط)

قوم إذا نبح الكلاب ضيفهم ... قالوا لأمهم بولي على النار

فتمسك البول خوفاً أن تجود به ... ولاتبول لهم إلا بمقدار

---

(١) وبعد هذا البيت قوله :

ولو وضعت شيوخ بني نمير ... على الميزان ماعدلت ذباباً

وهذا منتهى الذم .

(٢) في (أ) :أتى لغير ميعاد .

وفي النسختين : مابين ألف ، والعبارة غير واضحة .

وقصد ابن عيينة قبيصة المهلبي فمدحه ولم يسمح له بشيء ؛ فانصرف مغضباً ، فتوجه إليه داود بن زيد فأرضاه وأحسن إليه ؛ فقال : (من بحر الكامل)

داود محمـــود وأنت مُـــذَمَّـــمٌ ... عجبـــاً لذاك وأنتما من عـــود

ولرب عـــود قـــد يشـــق لمسجـــد ... ويكـــون بـــاقيـــه لحش[1] يهـــود

فـــالحش أنت له وذاك لمسجـــد ... كم بـــين مـــوضـــع مسـلح[2] وسجـود

هـــذا جـزاؤك يـــاقبيـــص فـــإنـــه ... جـــادت يـــداه وأنت مثْـــل حديـــد

وقال في هجاء خالد : (من بحر الطويل)

أبـــوك لنـــا غيث يعـــاش بـــوبـــله ... وأنت جـــراد لاتبـــقـــي ولاتـــذرْ

له أثـــر في المـكـــرمـــات يســـرنـــا ... وأنت تُعَـــفِّـــي دائمـــاً ذلك الأثـــرْ

ويروى أن أبا دُلامة دخل على المهدي وعنده إسماعيل بن علي وعيسى بن موسى والعباس بن محمد في جماعة من وجوه بني هاشم ، فقال له المهدي : والله لئن لم تهج واحداً ممن هو في هذا البيت لأقطعن لسانك ؛ فنظر إلى القوم ، وتحير في أمره ، وجعل ينظر إلى كل واحد ويغمزه بأن عليه رضاه إن كفَّ عنه ؛ فازداد حيرة ؛ فلم يرَ له أسلم من أن يهجو نفسه ، فقال : (من بحر الطويل)

ألا بـــلِّغ لديك أبـــا دلامَـــه ... فـــلست من الكـــرام ولا كرامَـــهْ

جمعت دمـــامـــةً وجمعت لؤمـــاً ... كذاك اللؤم تَتْبـــعـــه الدمـــامَـــهْ

إذا لبس العـــمـــامـــة قـــلت قـــرداً ... وخـــنزيـــراً إذا وضـــع العـــمـــامـــهْ

فضحك القوم ولم يبق منهم إلا من أجازه .

وقال ابن الأعرابي : أهجى بيت قاله المُحْدَثون قول محمد بن وهب في محمد بن هاشم قال : (من بحر البسيط)

لم ينـــد كفـــك من بـــذل النـــوال كما ... لم ينـــد ســـيفـــك ممن قتـــلتـــه بدم[3]

ولابن منقذ ابن طليب وقد احترقت داره : (من بحر الكامل)

---

(١) الحش : الكنيف .

(٢) المسلح : مكان الغائط ، أي المكان الذي يتبرز فيه

(٣) هذا العجز لايستقيم هكذا ولعل الصواب

لم ينـــد ســـيفـــك من قـــاتـــلتـــه بـــدم

أنظر إلى الأيام كيف تسوقنا ... قهراً إلى الأنوار بالأقدار
ماأوقد ابن طليب قط بداره ... ناراً وكان خرابها بالنار

وكان للوجيه ابن سورة المضري دار موصوفة بالحسن فاحترقت ، فجعل فيها ابن جهم هذه الأبيات : (من بحر الطويل)

أقول وقد عاينت دار بن سورة ... وللنار فيها وجهة تتضرّمُ
فما هو إلا كافر طال عمره ... فجاءته لما استبطأته جهنم

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار كان يسكنها فقال : (من بحر الكامل)

دار سكنت بها أقلُّ صفاتها ... أن تسكن الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد ... والشرُّ دانٍ من جميع جهاتها
من بعض مافيها البعوض عدمتهُ ... كم أعدم الأجفان طيبَ سِناتها
وتبيت تسعدها براغيثٌ متى ... غنت لها رقصت علىَ نغماتها
رقص بتنقيط ولكن قافه ... قد قدمت فيه على أخواتها[1]
وبها ذباب كالضباب يسد عيـ ... ـن الشمس عن نظراتها[2]
أين الصوارم والقنا من فتكها ... فينَا وأين الأسْد من وثباتها
وبها من الخطاف ماهو معجز ... أبصارنا عن حصر كيفياتها
وبها خفافيش تطير نهارها ... مع ليلها ليستْ على عاداتها
وبها من الجرذان ماقد قصرت ... عنه العتاق الجُرد في حملاتها
وبها خنافس كالطنافس أفرْشت ... في أرضها وعلت على جنباتها
لو شم أهل الحرب منُتن فسوها ... أودى الكماة الصيد عن صهواتها
وبناتُ وردانٍ وأشكالٌ لها ... مما يفوت العين كنْه ذواتها
وبها من النمل السليماني ما ... قد قل ذرّ الشمس عن ذراتها
سجعت على أوكارها فظنتها ... ورق الحمام سجعْنَ في سحراتها
وبها زَنَابيرٌ تظن عقارباً ... لابرءَ للملسوع من لدَغاتِها
ما راعني شيء سوى وزغاتها ... فنعوذ بالرحمن من نزغاتها

(١) يعني قرصا .

(٢) في إحدى النسخ المطبوعة :

الشمس ماطربي سوى غناتها وهو الصحيح

وبهـا عقـارب كالبغـال فـترتعي　　فينـا حمـانـا الله لدغ حمـاتهـا
كيف السبيـل إلى النجـاة ولا نجا　　ة ولا حيـاة لمـن رأى حَيَّـاتهـا
منسـوجـة بـالعنكبـوت سمـاؤها　　والأرض قـد نُسجت بـيرقـاتهـا
فضجيجهـا كالرعد في جنبـاتهـا　　وتـرابهـا كالوَبْـل من حصيـاتهـا
والبـوم عـاكفـة عـلى أرجـائهـا　　والدود ينحت في ثـرى عرصـاتهـا
والنـار جزء من تـلهب حـرهـا　　وجهـنم تعـزى إلى لفحـاتهـا
شـاهدت مكتـوبـاً على أرجـائها　　ورأيت مسـطـوراً عـلى عتبـاتهـا
لاتقـربـوا منهـا وخـافـوهـا ولا　　تـلقـوا بـأيـديكـم إلى هـلكـاتها
أبـداً يقـول الداخـلون ببـابهـا　　يـارب نج النـاس من آفـاتهـا
قـالوا إذا نـدب الغـراب منـازلا　　يتفـرق السكـان من سـاحـاتها
وبـدارنـا ألفـا غـراب نـاعق　　كذب الرواة فـأين صـدق رواتهـا
صـبراً لعـل الله يعقب راحـة　　للنـفس إذ غـلبت على شهـواتهـا
دار تبـيت الجن تحرس نفسهـا　　فيهـا وتنطق بـاختـلاف لغـاتهـا
كم بت فيهـا مفـرداً والعـين منْ　　شـوق الصبـاح تسيـل من عبراتها
فـأقـول يـارب السماوات العلى　　يـارازقـاً للوحش في فـلواتهـا
أسـكـنتـني بجهـنم الدنيـا وفي　　أخـراي هب لي الخلد في جنـاتهـا
وأجمع بمن أهـواه شمـلي عـاجـلاً　　يـاجـامعَ الأرواح بعـد شتـاتهـا

جمع الله شملنا بدنيانا وأخرانا غير خزايا ولاندامى ، آمين .

ثم قال رحمه الله :

١ ــ عَلَى الْغِرِّ يَخْفَى ذُو الفَرَى لِفَرَائِهِ　　وَذِي الدَّارِ وَالنَّوْكَى فَلاً وَفِلاَءُ

الغر : الذي لاتجربة له بالأمور . والفرى : الدهش ، مصدر فري ، بالكسر . والفراء ، بالمد [...]كسر : جمع فروة بمعنى ثروة : وهي كثرة المال . والنوكى : الحمقى ، جمع أنوك . قال الشاعر : [...] بحر الرجز)

أنْـوَكُ من عبـد ومن عِـرسـهِ　　من حَكَّـمَ العبـد عـلى نفسـه

والفلا ، بالفتح والقصر : جمع فلاة . والفلاء ، بالمد والكسر : جمع فِلْو : وهو ولد [...]مار .

يقول : على الغر يخفى دهش صاحب الدهش لكثرة ماله ، لاعلى غير الغر فَلا يخفى [...]ه ، وهذه الدار ، أي دار الدنيا ، كالخلاء إذ لايحصل فيها على طائل والحمقى رتع فيها ،

لقصور هممهم عليها ، واكتفائهم بزرجونها[1] ، كجحوش الحمير في الفلوات ، يأكلو
فيشبعون ، ثم يروثون فيمرحون . ولذلك قال ﷺ : ((لولا الحمقى لخربت الدنيا)) .
وقال ﷺ : ((الدنيا جيفة وطالبها كلب)) .

يعني أن كون الحمقى في هذه الدرا يشبه كون الفِلاء في الخلاء ؛ لأن هممهم مقصو
على الأكل والشرب ونزو بعضهم على بعض ، فإذا أحسوا بخطر نفروا فتفرقوا ، فإذا غاب عن
رتعوا حتى يؤخذوا في غراتهم أو مأمنهم . ومن أعظم النوكى أهل الفرى لأجل الفِراء ؛ لأن لم
شبهاً بالفلا في الفلاء .

تنبيه: أفاد الإتيان بقوله : ((وذي الدار ... إلى آخره)) عقب ماضمن تقديم حالم
من عدم فراهم لأجل فِراهم تنبيهاً على غير الغر ، وهذا يقال لختم التنبيه به .

وقد تضمن نكتة يتم المعنى بدونها ، وتلك النكتة هي تمثيل حالهم في الدنيا بحال الفلا
وفي البيت من البديع الاقتباس لتضمنه قوله تعالى : ﴿ **كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فَرَّتْ م**
قسورة ﴾ [المدثر : ٥١] .

ثم قال رحمة الله عليه :

٧٨ ــ يَرَى ذُو الْحَنَاذَاتَ الحِنَاءِ فَيَرْتَجِي حَظَىً بَـاطِـلاً والحـادِثـاتُ حِظَـ

قوله : يرى ذو الحنا : أي يبصر المرء صاحب الحنا ؛ أي انحناء الظهر من الكبر المر
صاحبة الحناء ، بالمد والكسر : أي التي تشتهي الفحل ، وهو مصدر حَنِيَت الشاة : إ
اشتهت الفحل ؛ فيرتجي ذو الحنا بسبب رؤيته ذاتَ الحناء حظىً ، بالفتح والتخفيف
والقصر : أي ظَفَراً منْها بمراده ، وهو مصدر حظي بالشيء ، بالكسر : إذا سعد به باطلاً
لأن حوادث الدهر قد تحول بينه وبين مارجاهُ وقد ، بين ذلك بقوله : ((والحادثات حظاء)
أي : سهام مصيبة له قبل أن ينال مالرتجاه .

وجملة قوله ((والحادثات حظاء)) تذييلية لامحل لها من الإعراب ؛ لأنها أكدتْ مفهو
قوله : (باطلاً) ؛ لأن ذلك يفهم أنه لايدرك ما ارتجاه لمانع ، وإلا كان حقاً لاباطلاً ، وف
ذلك نظر ؛ لأن الجملة بحسب هذا أنها ليست تذييلية فتكون حالاً من فاعل يرتجي .

والبيت مفرّغ في قَالب التمثيل . وذو الحنا عبارة عن طلب الدنيا ، وهو مع قرب أجا

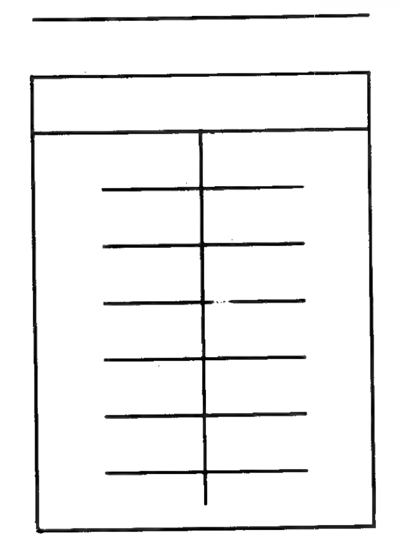
---

(١) الزرجون : صبغ أحمر ، والمراد : الزخرف ، والكلمة فارسية .

يحاول كل مادعاه إليه هواه ، ولو كان لايصل إليه بحال .إن نواه ، لتغطية غبارِ حبّه شعاعَ بصيرته ولبه .

قال ﷺ : ((الحب يعمي ويصم)) . وفي رواية : ((حبك الشيء يعمي ويصم))[1] .

يروى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس بين أصحابه إذ خطّ خطاً مربعاً هكذا ،



ثم خط في وسطه خطاً مستقيماً ، ثم خطوطاً صغاراً عن يمينه وعن شماله ، ثم خط خطاً مستعرضاً بين المربع والمستطيل وراء الجميع فقيل له : ماهذا يارسول الله صلى الله عليك ؟ قال : ((أما الخط المربع فإنه القدر المحيط ، وأما الخط المستطيل فإنه الأجل والمدة ، وأما

---

(١) حديث «حبك الشيء يعمي ويصم» ضعيف ، رواه أبو داود موقوفاً ومرفوعاً ، كما رواه أحمد ، وفي سنده ابن أبي مريم وهو ضعيف ، وقد أورده الصغائي وحكم عليه بالوضع ، وتعقبه العراقي قائلاً : إن ابن أبي مريم لم يتهمه أحد بالكذب إنما سرق عليه حلي فأنكر عقله . وقال الحافظ ابن حجر تبعاً للعراقي : يكفينا سكوت أبي داود عليه ؛ فليس بموضوع ولاشديد الضعف . وقال القاري بعد أن ناقش طرقه : فالحديث إما صحيح لذاته أو لغيره لاينحط عن درجة الحسن لذاته وإن لم يثبت مبناه أ هـ .

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٠٩٥ بلفظ الشيخ وقال : في سنده ابن أبي مريم ، ضعيف .

كما أورده السخاوي تحت رقم ٣٨١ وقال : رواه أبو داود والعسكري من حديث بقية بن الوليد .. إلى أن قال : وابن أبي مريم ضعيف . وأورد المناقشة المتقدمة باختصار ، والله أعلم .

الخطوط الصغار فما يلاقيه من الأعراض ، وأما الخط الخارج من وراء الجميع فإنه الأمل ، وأما
الخط المستعرض دون المربع ووراء المستطيل)) فإنه الموت ، فلا يزال المرء يسعى في طلب
الأمل حتى يفاجئه دونه الموت ويحيط به القدر»[1] .

ولذلك كان علي رضي الله عنه يقول في بعض مناجاته وهو يخاطب الدنيا فيقول لها
إلي تعرضتِ ، أو إلي تشوقت ، هيهات لما طلبت ! فإني قد طلقتك ثلاثاً ، عمرك قصير
وشأنك حقير ، وخطرك خطير ، تباً لمن غره تَمويهك ، أو زاغ به تزويقك ، فعهدك
مكذوب ، وعزك مسلوب ، وصاحبك عليك مغلوب بعدما هو على شهواتك مكبوب ، فأنت
سريعة الانقلاب ، وشيكة الخراب ، حظ الحمير والكلاب ، فظاهرك غرة ، وباطنك عبرة .
فلئن عبثت باللئام فقد عبث بك الكرام ، ياعجباً لمن يعرفك ثم يركن إليك ؛ لأنك غدارة
غرارة ، لاتفي بعهد ولا يوثق منك بود .

وذات الحناء هي الدنيا ، لأن الله خلقها مهيأة لآدم وبنيه ، فالمؤمن يتزود ، والكافر
يأكل ويتمتع ، والمنافق في ريبه يتردد ، والفاسق في غفلته يجهد ، ولغيره يسعى ويحفد . قال الله
تعالى في حق المؤمنين : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ [البقرة : ١٩٧] وفي حق
الكفار : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتَمتَّعوا ويلههم الأمل** ﴾ [الحجر : ٣] وفي حق المنافقين :
﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ [النساء : ١٤٣] ثم وصفهم بكونهم
في الدرك الأسفل من النار لتعظيمهم حرمة الخلق دون حرمة الخالق ؛ فجازاهم بذلك جزاء
وفَاقاً ، إذ يرجى للكافر من الخير مالا يرجى للمنافق ؛ إذ المنافق أضله الله على علم ، بخلاف
الكافر فإنما يمنعه من الإسلام حجاب الجهل أو مجرد التقليد ، كقوله تعالى حكاية لقول
المشركين : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ [الزخرف : ٢٣] ،
وربما منعه الإسلام نخوةُ التكبر بأن لايرضى أن يكون ذنباً تابعاً بعد أن كان متبوعاً . وأما
الفاسق الخارج عن محض الطاعة خروجاً فإنما بينه وبين الفكرة رواق رقيق ، فكلما تفكر

---

(١) حديث «بينما النبي ﷺ جالس بين أصحابه إذ خط مربعا .. الخ» صحيح رواه البخاري في كتاب
الرقاق (باب في الأمل) ، كما رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه بألفاظ مختلفة ورسوم مختلفة كذلك
منها : [الانسان الأمل ////] وقيل : هكذا [— ////] وقيل : [رسم] قال ابن حجر في
الفتح بعد أن أورد خمس صور : والأحاديث متوافقة على أن الأجل أقرب من الأمل ، والله أعلم .

ادكر فتقـه فاعتبر ، فإن طال اعتباره قاده إلى التَّوبة النصوح ، وإلا بقي في تلويثه ووحله وتنكيثه .

فالدنيـا سـوق المتجر ، والآخرة مدينـة الجمع ، والملائكة هم الوكلاء والنخاسون ، والرب هو مالك السوق والمدينة ، والثقلان عبيده ، وقد بعثهم إلى السوق بجواهر نفيسة ؛ فمن عرف حق الجواهر ، وأدى واجب صون الأمانة ، ولم يبخس سلعته بل نَاقَش عنها حتَّى ربح ، أفضل ، وأتى برأس ماله سالماً ، فأداه إلى الملك ، وأراه الفضل ، وعلم منه صيانة الأمانة ، كرمه وبجله ، وفي دار كرامته أدخله . ومن أضاع الجواهر ولم يعرف لها قَدراً ، وخان أمانته ، ولم يصنها عن خطر ، أو بخس في تَجره ، وضيَّع المال فباعه بدون قدره ، أو أضاع رأس المال بتفريطه وتبذيره ، ولم يأتِ بالفضل لسوء تدبيره ، بعث إليه الملك زبانيته ، وأمرهم بتوبيخه وتعزيره ، وأن يخبروه بطرده وتخسيره ، فيأتون به إلى الحضرة مغلولاً ، مسربلاً باللعنة مخذولاً ، يأتون به وقد اسوّد محياه ، إذ باع آخرته بدنياه ، وقد انقطع من رحمة الله رجاه ، فينادى على رأسه باللعنة والتوبيخ ، ثم يؤخذ بناصيته فيلقى في نار الزخيخ[1] ، فيجد ماقد استبعده قَريباً ؛ إذ لم يجعل له الرحمن من نور العقل نصيباً ، فيلقى في نار جهنم ملوماً مخذولاً .

فهذه حالة الفريقين في دنياهم ، وكيفية منقلبهم ومثواهم ، جعلنا الله من حزبه الأمين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، آمين بجاه النَّبي الأمين .

ثم قال رحمهُ الله :

٧٩ ــ وَمَامِنْ توىً يُنْجِي التِّوَاءُ وذُو النَّوى فَــلَيْسَ بِمُــدْنٍ مَــانَــواهُ نِــوَاءُ

قوله : (وما من توى) : فما : نافية ، ومن ، حرف جر يدل على التعميم ، كقوله : ﴿ **وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقُها** ﴾ [هود : ٦] ؛ لأن إتْيَانها بعد (ما) النافية يكسبهـا التعمـيم ويورثها العموم، كما في مختصر ابن الحاجب[2]. والتوى، بالقصر والفتح: الهلاك . والتواء ، بالكسر والمد : سمة من سمات الإبل كانت تفعله العرب في الجاهلية تدفع به إصابة العين . والنَّوى ، بالقصر والفتح : ماينوي المسافر بلوغه من سفره ، وقد يعبر به عن البعد ، ويطلق ويراد به الفرقة ، ويطلق فيراد به المناوأة وهي معالجة الشيء ومكابدته . والنواء ،

---

(١) الزخيخ : بريق الجمر أو النار .

(٢) يريد أن النكرة في سياق النفي نص في العموم .

بالكسر والمد : جمع ناوٍ ، وهو السمين من الإبل وغيرها ، ومن استعماله في سمن الإبل قول
الأنصارية لحمزة بن عبد المطلب رضيَ الله عنه : (من بحر الوافر)

ألا يــا حمــزُ للشــرف النّــواء[1] فَهــن مُعَــقّــلاتٌ بــالفنــاءِ
ضــعِ السكــين في اللبّــاتِ منْهــا وضَــرّجْهُــنَّ حمــزةُ بــالدمــاءِ

وكان قد ثمل ، فرأت الأنصارية نياقاً سماناً قد اشتراهن علي رضي الله عنه ليولِمَ بهن على
فاطمة رضي الله عنها[2] ، فأتاهن حمزة رضي الله عنه فنحرهن كلهن ، فلم يفجع علياً رضي الله
عنه ـــ وقد أتى إليهن ليستاقهن ـــ إلا وخواصرهن موضوعة على الأرض وقَد سلخن ؛ فسأل
مَنْ فعل هذا بشوارفي ؟ فقيل له : عمك حمزة ، فرجع إلى النبي ﷺ وهو مغضب فقال له
يارسول ا لله مالقيت كاليوم من حمزة ! فجعني في شوارفي ولم أجمعهن إلا بعد جهد ؛ فذهب
إليه النبي ﷺ ، وقيل : أرسل إليه ، فلما قام عليه قال له : ماحملك على ماصنعت بشوارف
علي ماصنعت ؟ فصعَّد النظرَ في رسول الله ﷺ ثم صوبه فقال : هل أنتم إلا عبيد أبي ؟! فعلم
رسول الله ﷺ أنه لايعقل شيئاً ، فذهب عنه وتركه .

فلما رجع رسول الله ﷺ[3] قال له عمر : وددت يارسول الله أن لو سألت الله تعالى
فحرم الخمر على أمتك ، فسكت عنه حتى أنزل عليه قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر
والميسر قُل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعها** ﴾ [البقرة : ٢١٩]
فقالوا : إن الله لم يعزم في تحريم الخمر ؛ فشربه من شربه ، وتركه من تركه .

ثم بعد ذلك بحين شرب رهط من الأنصار وكانوا إخوة أحباء في الله ، فلما ثملوا عبث
بعضهم ببعض ، فوقعت بينهم خموش ، فلما أفاقوا جعل الرجل يسأل : من خمشني ؟
فيقولون : أخوك فلان ؛ فيقول : لو كان مشفقاً عليّ مافعل بي مثل هذا ؛ فوقعت بينهم
الضغائن لذلك ، فأنزل الله تبارك وتعالى تحريم الخمر بقوله : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع**

---

(١) النواء ، بكسر النون والمد مخففاً : جمع ناوية ، وهي الناقة السمينة ،

(٢) لم يكن علي اشترى الناقتين ، ولا كان يريد أن يولم بهما ، وإنما كان يريد أن يأتي عليهما بإذخير ليبيعه
ويستعين بثمنه على الوليمة ، وإحداهما كانت له من غنائم بدر والأخرى أعطاها له رسول الله ﷺ من الخمس
والله أعلم .

(٣) قصة حمزة هذه صحيحة ، رواها الشيخان بألفاظ تقرب أحياناً من لفظ الشيخ ، وهي عند البخاري
في كتاب فرْض الخمس ٥٧ باب (أ) .

كم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم تهون ﴾ [المائدة : ٩١] فقال الصحابة : انتهينا ربنا انتهينا .

ويروى أنه وقع فيما بين الأمرين أن رهطاً من أهل العالية أدركتهم الصلاة فقدموا رجلاً هم ليصلي بهم ، فلما أحرم جعل يهذي ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ((اللهم أفتنا في خمر)) فأنزل الله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا تقولون** ﴾ [النساء : ٤٣] ، فقال الصحابة : لاخير في شيء يحول بين المرء وصلاته ؛ ركته طائفة لذلك ، وبقي من بقي متمسكاً بأصل الإباحة المتقدمة ، فبعد ذلك بيسير بت ه تحريمه بنزول الآية المتقدمة آنفاً .

ومِنْ : متعلقة بينجي . ونواء ، آخر البيت : اسم ليس . وبمدن : خبره ، والباء زائدة ه . وجملة (ليس بمدن .. إلى آخره) خبر مبتدأ وهو (ذو النوى) .

والمعنى : وماينجي الوسم الذي في الجمل والناقة صاحبةَ مما قضى الله عليه من إصابة ين وغيرها من الآفات . قال الشاعر : (من بحر الكامل)

وإذا المنيــــة أنشبت أظفــارهــا   ألفـيتَ كل تميـمـــة لاتنـفـعُ

وصاحب البعد لايقرب منه النوى الذي نواه إبلٌ سمان إذا لم يقدّر له على ذلك؛ فحق على المريد سالك أن لايسند وجود شيء إلى حادث إلا على سبيل الاقتران العادي والربط الخارجي ، جزم أنه لايقتضي أحدهم الآخر بحسب الحقيقة ؛ فبان من هذا أن الاعتماد على سبب من أسباب أو موجود من الموجودات مع إهمال الحقيقة وإغفال أمر الله مخلٌّ بالسلوك مُفسدٌ عقل ، كما قدمتُ ذلك مبسوطاً في صدر الكتاب ؛ فليتأمل ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي ظيم .

ثم قال رحمه الله :

٨ ــ وَمَـاكُلُّ مَـأتىً ظل مِتَاءَ رِفْقَةٍ   وَلاَ لِأَلى كُلَّ الإلاَءَ تهــــــــــــاء

المأتى ، بالقصر والفتح : المذهب . والمتاء ، بالكسر والمد : الطريق والمَهْيَع المؤثر بكثرة سالكين . والألى ، بالفتح والقصر : من ألي الحيوان : إذا عظمت أليته . والإلاء ، بالمد كسر : جمع ألية .

وكأنه يقول : ليس كل مذهب سلكته الرفاق فتأثر بسلوكهم فصار مهيعاً بمنج من

سلكه من التلف بمجرد كونه مسلوكاً ، فكذلك الطريقة والسنة لاتؤخذ من بطون الكتب
بكون السلف قد أجمعوا على الأخذ بها والعمل بمقتضاها حتى درجوا على ذلك ؛ إذ لابد من
شيخ يريك شخوصها ويكشف لك شموسها ، كما روي : أن العلم في بطون الكتب ومفَاتيحه
في صدور الرجال ؛ فلا يؤخذ إلا على شخص واصل قد ارتضع ألبان الوصول ودربته أيدي
الفحول ؛ يريك مسالكها ، ويجنبك مهالكها ، حتى يوردك عذب زلالها ، ويسمعك طيب
مقالها ، بل يفهمك فحو خطابها ، فتتضلع من لذيذ شرابها ، قبل غوصك في لجة عبابها ، فإن
زال جلبابها ، وفتح بابها ، حتى يقول لك : هاأنت وربك ، فاخْرج أو ادرج ، فرب مسلك
لايسلكه إلا الخريت الماهر العالم بالطرق وسهابها ونباتها وشعابها فإذا سلكه غيره هلك في
حيرة ، فلم تحصل نجاة ولاميرة ؛ فوقع عليه قول الشاعر : (من بحر البسيط)

لمـــا رأى واشـقٌ إقعـاص صــاحِبـهِ ... ولا سبيــــل إلى عَقْــلٍ ولاقَـوَدِ
قــالت له النـفس إني لاأرى طمعــاً ... وإن مــولاك لم يســـلم ولم يَصِــدِ

وكذلك أيضاً ليست كل ألية عظيمة تُهاء : فرب ألية عظيمة شحمها رذل وعظمها ذو
آفة وعلة ؛ فأكلها قد يحدث داء عضالاً . يقال : هَاء الأمر ، ويهاء ويهيء : أخذ له أهبته
كتهيأ له ، وهو من غريب اللغات ولو جاء به صاحب القاموس كذلك ؛ فعلى هذا فالأصل
يهاء لها ، فحذف اللام ، وعَدَّى الفعل بنفسه ، فقال : تهاء ، بضم التاء : مبني لما لم يسم
فاعله ، وهو ضمير لإلاء ، بالمد ، أو ضَمنه معنى تهيأ .

وهذا كله تمثيل أشار به إلى أنه لا بدّ للمريد السالك من مصاحبة الدليل المرشد ، وهو
الذي تسلك به الفلوات التي تتحير فيها الأدلاء ، وتقْطع بها المفاوز والمجاهل الفيحاء[1] ، التي
تضـل فيهـا القطـا ، وتقـل فيهـا آثار الخطـا ، ويكشف عن الأدلاء الغطا ، وتهابها الخيطى
والخيطا[2] لوسع المطا وقلة المطا[3] ، ولابد له حينئذ من العلم النافع في المهيعين الذي يقف
على عين ما أبيح له تناوله قطعاً، فيتناوله على بصيرة من أمره، وبينة من ربه، ويتلوهما شاهد

(١) كذا في (أ) : الفيحاء ، وفي (ب) : الفيح ، والأول اصح ، ومعنى الفيحاء الواسعة .
(٢) الخيطة : النعامة . الخيطى : الجماعة من النعام والجراد .
(٣) المطى الأولى : مسافة السير أو امتداد السير ، والثانية : الظهر أي ما يركب عليه من المطي .
وفي النسخة (ب) زيادة : (ويكثر فيها الخطا وتكثر فيها آخر الخطا) ، بعد قوله : (ويضل فيها القطا) .

من نفسه، يعين له ماتشابه فيتركه، ومابنبغي فيسلكه، ومايقربه من ربه فيجعله هِجِّيرَهُ، فيكون نصب عينيه ، ولايخطر بباله خطر، ولايقوده إلى مالا ينبغي وطر؛ فيصل وإن سار الهوينا كما قال الشاعر: (من بحر الرجز)

من لي بمثل سَيْرِكَ المدلل ... تمشي الهوينا وتجي في الأول

وإنما يحتسب وقوع الخطر من استحضر الحذر ، إذا ساعده بمساعدة القدر ، وليس كل متسمن بسمين ، وكل متدين بمدين ، ولا كل متورم بسمين ؛ إذ ليس المتنبىء كالنبي ، ولا المتولي كالولي ؛ إذ المتألي على الله يكذبه ، والكاذب عليه يعذبه . لأن النبي ﷺ لم يتقول إسماعيليٌّ النبوةَ قبله صيانةً لناموس الوحي ، وإرهاصاً للنبي ﷺ ، وتأسيساً لنبوته .

يروى أن شيخاً من بني عامر كان كلما رجع حجاج بني عامر سألهم : هل حَدَثٌ حدثٌ بالحرم ؟ أو هل خالف على قريش رجل منهم ؟ حتى قدموا عليه حجتهم التي عرض عليهم فيها رسول ﷺ نفسه ، فسألهم كما كان يسألهم ، فقالوا له : لا ، إلا أنه أتانا فتى من قريش ثم من بني هاشم ، فعرض علينا نفسه يزعم أنه رسول الله إلى الناس على أن نحمله إلى بلدنا ونمنع ظهره حتى يؤدي رسالة ربه ، فأبينا عليه ، وآذاه من آذاه من سفهائنا . فلما سمع ذلك ضرب يديه على رأسه وقال : هل لذناباها من تلاق[1] ؟ أين ذهبت عنكم عقولكم يابني عامر ؟! والله ماتقولها إسماعيلي قبله . فقالوا : إن قومه يكذبونه ، فقال : والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون ، ولو أنكم أخذتموه لنلتم به شرف الحياة وفوز الممات .

فلما ثبتت نبوته ﷺ وظهر أمر الله وهم كارهون ادعى رجال النبوة طمعاً في نيل ماناله النبي ﷺ واستدراجاً من الشيطان ؛ فوكَّلهم الله إلى أنفسهم : كمسيلمة الكذاب من بني حنيفة ، والأسود العنسي من مذحج ، وطليحة من بني أسد ، وسجاح من بني تميم ، وذلك قبل موت النبي ﷺ بقريب أو بعده بقريب . أما مسيلمة والأسود العنسي فقد أخبر بهما قبل موته بقريب ، كما في الصحيح قال : « رأيت فيما يرى النائم سوارين في يدي من ذهب وقد أهمني أمرهما ؛ فنفختهما ، فطارا ، فقالوا : يارسول الله ، ماأولتهما ؟ فقال : أولتهما كذابين ، أما أحدهما فالأسود العنسي باليمن ، وأما الثاني فمسيلمة بن خليفة باليمامة ، وإنما سيقتلان

---

(١) هل لذناباها من تلاق ؟ مثل يضرب للأمر المهم الذي فات ، ومعناه : هل لهذا الأمر العظيم من عودة ؟!

بعدي ؛ أما الأسود العنسي فيقتله العبد الصالح فيروز ، وأما مسيلمة الكذاب فإن أصحابي سيقتلونه من بعدي[1] .

وأخبر ﷺ ((بأن ثقيفاً سيكون فيهم كذاب ومبير))[2] : أما الكذاب فالمختار بن عبيد بن بن عمرو بن عمير بن ياليل بن عبد كلال بن مالك الثقفي . وأما المبير فالحجاج بن يوسف . فأمكن الله من الجميع ، فاستأصلهم ومحا آثار أباطيلهم التي تمجها الآذان وتنفر منها الأذهان .

وكذلك كلما أظهر الله وليّاً ادعى أقوام جهلة الولاية ؛ فيكذبهم الله ويفضحهم ، لظهور جهلهم ، وكسوف أنوارهم ، ونفور الطبع من أخبارهم ، فيموهون والنَّاقد بصير ، ويسرقون والمالك خبير ؛ فيكونون كالزبد على وجه الماء ، فيظن أنه علا ، بل ذهب وخلا[3] . قال الله تعالى : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جُفاءً وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ [الرعد : ١٧] ، نفعنا الله بما آتانا ، وبارك لنا فيما أولانا وتولانا في آخرتنا وأولانا ، آمين بجاه النبي الأمين .

ثم قال رحمه الله :

٨١ ــ وهَذا الجَأى فَاني الحِنَاءِ يَسُوسُهُ وَليــــقُ الدَّوى لِلْكَــــاتِبــــينَ دِوَاءُ

---

(١) حديث: «رأيت فيما يرى النائم سوارين الخ» صحيح رواه مسلم في كتاب (الرؤيا) بألفاظ كثيرة كما رواه غيره (٧/٥٨) .

ولفظ مسلم في إحدى رواياته : «بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب أهمني شأنهما ، فأوحي إلي في المنام أن أنفخهما ، فنفختهما ، فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي . فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة» . انتهى .

أما الزيادة التي أورد الشيخ وهي «سيقتلان بعدي الخ» فلم اجدها من كلام النبي ﷺ ، والعلم عند الله .

(٢) حديث «أن في ثقيف كذابا ومبيراً الخ» صحيح أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (٧/١٩٠) كما أخرجه غيره في قصة قتل الحجاج بن يوسف لعبد الله بن الزبير وصلبه إياه ، وأن أمه أسماء قالت للحجاج حدثنا رسول الله ﷺ : أن في ثقيف كذاباً ومبيراً» ، فأما الكذاب فرأيناه ، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه .

ومعنى المبير: المهلك، ومعناه: كثير القتل، الكلام الأخير تفسير من أسماء للحديث، والله أعلم .

(٣) في النسخة (ب) بعد خلا : (ويظن أنه غالب فإذا هو منعدم ذاهب ، فصار جفاء قد حملته الرياح وألقته على الصفاح ، فصار هباء لازبداً ولاماء) ، وهذا ليس في (أ) .

الجأى : بالفتح والقصر : هو الكميت من الخيل ، وهو الذي يُخالط حمرته سواد ، وهو من أحب الشيئات[1] إلى العرب . قال الشاعر : (من بحر البسيط)

ياخير من فرحت كمتُ الجياد به عند الهياج إذا ماستوقد الشرر

وقال قيس بن زهير في حرب داحس : لم يصبر معنا في حربنا هذا إلا الكميتات من الخيل ، وسمر النعم ، وبنات العم .

والجأى ، بالفتح ، وهو مصدر جئيَ الفرس فهو جأى : إذا كان أحمر إلى السواد . والجئاء ، بالمد والكسر : جمع جئات : وهي غشاء القدر أو شيء يوضع عليه من جلد أو غيره . وقيل : الجئاء : هو مايكسوها ، تقول : جأوت الشيء أجؤوه إذ كسوته . قوله : يسوسه : يديره بالرياضة . والدوى ، بالفتح والقصر : جمع دواة ، ووزن الدواة (فَعَلَة) بالتحريك كشجرة ، وأصلها دَوَيَةٌ ، فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ماقبلها ، واشتقاقها من الدواء لأن بها صلاح أمر الكتابة . وليقها : جعل الليقة فيها: وهو المداد ، وقيل : الليقة جمع المداد والصوف ، مصدر ألقتها فهي مليقة ، ويقال : ألقتها أيضاً فهي ملاقة ، ولايقال لصوفتها إذا بلت ، وقيل : ذلك يقال لها حيث خلطت بالمداد من غير بلل وإلا فهي صوفة . والدواء ، بكسر الدال والمد : مصدر دوى الشيء كالمداواة إذا أصلح وأتقن ، ويقال : دوى الشيء : إذا لم ، ودوى النهار : إذا اشتد حره ، ودوى إذا صار له دوي كدوي النحل . وأما الدواء ، بالفتح : فاسم مايتداوى به .

ومعنى البيت : فهذا الفرس ذو الجأى ، وهو الجون ، جعله نفس الجأى مبالغة لاشتداد حوأته حتى كأنه نفس الجأى ، كقول الشاعر :

قد سنه غلمان أشؤم ....[2]

أي ذوو شؤم ، وكما يسمى ذو الفرح فرحاً ، يسوسه فاني الجأى لاغيره ؛ إذ تقديم الفاعل يدل على الحصر ، وهذا إشارة إلى كرم صاحبه واشتغاله بإطعام الطعام لاستحضاره القدور لنضجه وأوعيته وهي الجئاء إذ من عال آلة كلفها ، والله يعين المرء على قدر همته ، ويجعل معونته على قدر مؤونته .

---

(١) الشيئات : جمع شيئة : كل لون يخالف معظم لون الشيء .

(٢) هذا الشطر بدون عجز في النسختين .

يروى أن النبي ﷺ قال : ((رأيت جفنة ابن جدعان يأكل منها الراكب)) . وهو

رجل من بني تيم بن مرة .

وكان هاشم بن عبد مناف يطعم الطعام في جاهليته جبلة من الله جبله عليها ، وماجعل

في صلبه من نور النبوة ، وكان قد ولي السقاية والرفادة ، وكان فيما يزعمون إذا حضر الحج قا

صبيحة هلال ذي الحجة ويأتي البيت ، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيحض قوم

على رفادة الحاج التي سنها لهم قصي بن كلاب ، فيقول لهم في خطبته : يامعشر قريش أنت

سادات العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسط العرب أنساباً ، وأقرب العرب

بالعرب أرحاماً ، يامعشر قريش إنكم جيران بيت الله ، أكرمكم الله بولايته ، وخصكم بجوار

دون بني إسماعيل ، حفظ منكم أحسن ماحفظ جار من جاره ، وإنه يأتيكم في هذا الموس

زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم أضياف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ؛ فأكرمو

ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح ، وقد أزحفوا وأرملوا

فاقروهم وأعينوهم ، فورب هذه البنية لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموهم ، وأنا مخرج من

طيب مالي وحلاله مالم تقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يؤخذ فيه حرام فواضعه ، فمن

شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعله ؛ وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لايخرج رجل منكم من

ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً لم تقطع فيه رحم ولم يؤخذ غصباً .

فكانت بنو كعب بن لؤي وسائر قريش يجتهدون في ذلك ، ويترافدون[1] عليه حتى يأتو

به هاشم بن عبد مناف ، فيضعونه في داره . وكان هاشم يخرج في كل سنة مالاً كثيراً ، وكان

قوم من قريش أهل يسار ربما أرسل كل رجل منهم مائة مثقال هرقلية[2] ، وكان هاشم يأم

بحياض من أدم[3] ، فتجعل في موضع زمزم من قبل أن يحفر ، ثم يستقي فيها الآبار التي في مك

قبل التروية[4] بيوم ، ثم بمنى ، ثم بجمع[5] وعرفة ، يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر

---

(١) ترافدوا : تعاونوا ، أي يرفد بعضهم بعضاً .

(٢) هرقلية : منسوبة إلى هرقل .

(٣) الأُدم : الجلد .

(٤) يوم التروية : هو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة ، وهو اليوم الذي يروى فيه الحجاج ويذهبون إلى
منى .

(٥) جمع : مزدلفة .

ويجعل لهم الماء ، فيطعمهم ويسقيهم حتَّى يصدروا ، وكان اسم هاشم عمراً ، ويقال له : عمرو العلاء ، وإنما سمي هاشماً لهشمه الخبز لقومه بمكة ، وهو أول من سن الرحلتين : رحلة الشتاء والصيف ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء : (من بحر الكامل)

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتون عجاف[1]

سُنَّتْ إليهِ الرحلَتانِ كِلاهُما سفرُ الشتاء ورحلة الأصياف

ثم ولى ذلك عبد المطلب بعده، ولما هلك عبد المطلب ولى زمزم والسقاية ابنه العباس وهو يومئذ من أحدث إخوته سناً ؛ فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهي بيده، فأقرها له رسول الله ﷺ على مامضى من ولايته .

وكان ﷺ يجله إجلال الولد للوالد ، يقول كريب مولى ابن عباس : وما ينبغي لرسول الله ﷺ أن يجل إلا والداً أو عماً فضيلة خص الله بها العباس دون من سواه .

وقال ﷺ : ((احفظوني في عمي العباس ، فإن عم الرجل صنو أبيه[2])) .

وطلع يوماً على رسول الله ﷺ قال : ((هذا العباس أجود قريش كفّاً ، وأوصلها للرحم[3])) .

ولم يزل العباس سيداً في الجاهلية والإسلام ؛ يمنع الجار ، ويبذل المال ، ويعطي في النوائب .

قال الزبير : كان للعباس بن عبد المطلب ثوب لعاري بني هاشم ، وجفنة لجائعهم ،

---

(١) مسنتون: أصابتهم سنة أي هم مصابون بجدب وشدة ، وعجز هذا البيت في النسختين :

قوم بمكة مسنتين عجاف

وهي رواية ابن هشام (١٤٥/١) وما أثبتناه رواية اللسان (٤٦/٢) وهي أصح ، والله أعلم .

(٢) حديث «احفظوني في عمي العباس فإن عم الرجل صنو أبيه» رواه أبو بكر في الغيلانيات له ، وأورده السيوطي في جامعه تحت رقم ٥٦٢١ ورمز له بالحسن ، وسكت عليه المناوي ولفظه : «عمي وصنو أبي العباس» .

ورواه الطبراني بلفظ : «استوصوا بالعباس خيراً فإنه بقية آبائي فإنما عم الرجل صنو أبيه» ، قال الهيثمي : وفيه عبد الله بن خراش ، وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان وقال : ربما أخطأ ، وبقية رجاله وثقوا (٢٦٩/٩) مجمع .

(٣) حديث «هذا العباس أجود قريش .. الخ» حديث حسن رواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط له بألفاظ متقاربة :

قال الهيثمي : وفيه محمد بن طلحة التيمي وثقة غير واحد، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح (٢٦٨/٩) والله أعلم .

ومقطرة لجاهلهم . والمقطرة : خشبة ذات سلسلة يحبس فيها الناس . وفي ذلك يقول إبراهيم بن علي بن هرمة : (من بحر الطويل)

وكان لعباس ثلاثٌ يعدها ... إذا ماجناب الحي أصبح أشهبا
فسلسلة تنهي الظلوم وجفنة ... تناخ فيكسوها السنام المرعّبا
وحلة عصب ماتزال معدةً ... لعار ضريك ثوبه قد تهدبا

قال ابن شهاب: لقد جاء الله بالإسلام وإن جفنة العباس لتدور على فقراء بني هاشم، وإن قيده وسوطه لمعدان لسفهائهم. قال: فكان ابن عمر يقول: هذا والله الشرف: يطعم الجائع، ويؤدب السفيه، ويكسو العاري. وكان ابنه عبد الله ترجمان القرآن كذلك. ثم تداولت وتوارثت إطعام الطعام الخلفاء والصالحون إلى يومنا هذا، وذلك من أشرف الشرف، وأدنى القربات إلى الله إن صحت النية .

وليق الدوى مداواة للكاتبين لا لغيرهم ، وهذا تنظير[1] وتمثيل لكون الأشياء لمن هي له لا لكل أحد ، إذ ليس الشبعان كالمتشبع ، ولاالمطبوع كالمتطبع ، فإطعام الطعام ـــ وإن كان من أشرف الشرف ـــ فإنه من أصعب الكلف ، فيحتاج إلى طبع غريزي في الكرم ، وعرق ينزعه من آبائه القُدم ، وتدريب وعناية ربانية ، وتربية تنشأ عنها ، فاعتادها من غير تكلف ولاتشوف ، تسوقه رغبة الأجر ، وتقوده مخالفة الوزر .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

لكل امرىء من دهره ماتعودا ... وعادات سيف الدولة الطعْن في العدا

وفي البيت من البديع الاقتباس ؛ إذ هو مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **ويطمعون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**﴾ إلى قوله: ﴿ **قمطريراً** ﴾[2] [الإنسان: ٨ـــ١٠] ثم قال الله تعالى في وصف ماأعد لهم : ﴿ **فَوقاهم الله شر ذلك اليوم ولَقَّاهم نَضْرَةً وسرورا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **تذليلاً** ﴾ [الإنسان : ١١ ـــ ١٤] ؛ فلم يأت سبحانه على عمل من الأعمال بعد التوحيد بمثل ماأتى به في إطعام الطعام لوجه الله الكريم ؛ ولذلك اختاره لخليله عليه السلام كما قدمته ؟ قبل . عودنا الله مايرضاه ويرضيه عنا .

---

(١) في (ب) وتمثيل لكل الأشياء لمن هو أهل له لا لكل أحد .
(٢) القمطرير : الشديد من الأيام .

ثم قال رحمه الله :

٨٢ ـ وَيَشْفِي الصَّهَارَوْمُ الصِّهَاءِ وبالنها عَنِ الرَّيْثِ تـرْضِـي الواردين نِهَـاءَ

قوله : ويشفي : أي يبرىء . الصَّهَا ، بالفتح والقصر : مصدر صهي الجرح ، بالكسر : إذا ندَّ[1] . والصِّهاء : ذروة كل شيء ، وهي جمع صهوة . والنها ، بالفتح والقصر : مصدر نهي عن الشيء ، بالكسر ، بمعنى انتهى عنه . والنهاء ، بالمد والكسر : جمع نهيٍ ، وهو الغدير . وروم : بالرفع فاعل يشفي .

والمعنى : يشفي رومُ الصهوات ، أي قصدها ومحاولة نيل المراتب العلية ، الجرحَ الذي نَدَّ ، وبالانتهاء أي الكف عن الريث : وهو البطء ، تروى الواردين أي الأشخاص الذين يردون الماء الحياض التي يردونها ، بمعنى أنها تسعهم ويجدون فيها كفايتهم . والمقصود الاغراء بطلب معالي الأمور والتصدر ؛ فإن في ذلك شفاء للصدر ، والتحذير من التسويف والونى والفتور في فعل الخيرات خوفاً من العوارض والعوائق ، كما قيل : (من بحر الوافر)

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل عاصفة سكون
وإن درت نياقُك فَاحتلبها فما تدري الفصيل لمن يكون

ومن ذلك القبيل قوله: (من بحر البسيط)

تَتَبُّعُ الأمر بعد الفَوْتِ تغريرُ وتركه مقْبلاً عجز وتقصيرُ
وكلُّ ما يتمنى المرءُ[2] يدركه بالاعتماد وتركُ الحق محظورُ
وكل وجدان حظ لاثباتَ له فإنه عدم محض وتكدير
وكل كسر فإن الحق يجبُرُهُ وما لكسرِ قناةِ الدين تجبير
وكل حيٍّ وإن طالت سلامته فإنه ميت والحق تنوير
وكل ما راحة قبل الممات فلا تغررك فَالموت تنغيص وتكدير
وإنما بعدها ما تشتهيه وما تخشاه والعمر أرباح وتحسير[3]
فاجعل قرينك تقوى الله تحظ بما ترجوه فالدهر تيسير وتعسير

---

(١) ند : انفجر بعد برءٍ .

(٢) في نسخة (ب): العبد.

(٣) هذا البيت ليس في النسخة (ب).

حتى تمر لياليه القصار كما … تمر عادية النجدين تشمير
الميت يحزنه تضييع ساعته … لا المال والأهل والتعمير تعمير

ثم قال رحمه الله :

٨٣ ــ وَمَا بَالفَضَا يُحْصَى الفِصاء وقَلَّمَا … يَهُونُ الأَسَى إنْ لَم تُرِمْهُ إسَاءُ

قوله: وما بالفضا: فالواو: للاستئناف، وما: نافية بمعنى ليس. بالفضا: جار ومجرور متعلق بيحصى. والفَضا، بالفتح والقصر هنا: الآراء المختلفة. والفضاء بالكسر والمد: جمع فِضية، وهو الماء الذي يجري، على وجه الأرض. ويحصى: أي يعد. والأسى، بالفتح والقصر: يقال: أسوت الجرح: أصلحته. والإساء، بالكسر والمد: جمع آس، وهو الطبيب، كما قال الحطيئة العبسي في هجو الزبرقَان بن بدر: (من بحر البسيط)

لما بَدا لِيَ منكمْ عيبُ أنفسكم … ولم يكن لجراحي منكمُ آسِ
أزْمعت يأساً مبيناً من نوالكم … ولا ترى طارداً للحرِّ كاليأس
ما كان ذنبُ بغيضٍ لا أبالكمُ … في بائس جاء يحدو آخر الناس
جار لقوم أطالوا هونَ منزله … وغادروه مقيماً بين أرماس
مَلّو قراه وهَرَّتْهُ كلابُهُمُ … وجرحوه بأنْيابٍ وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها … واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ولما سمع الزبرقَان هذه القصيدة غضب وقال: ليس لي في المكارم إلا أني طاعم كاسٍ، قد هجاني والله أشد الهجو، فبلغ ذلك الحطيئة فقال: (من بحر الوافر)

وإني قد علقت بحبل قوم … أعانهمُ على الحسب الثراءُ
إذا نزل الشتاء بجار قوم … تجنب جارَ بيتهم الشتاء
هم الآسون أُمَّ الرأس لما … تواكلها الأطبة والأساء
ألم أكُ نَائياً فدعوتموني … فجاء بي المواعد والرجاء
فلما أن أتيتكمُ أبيتم … وشرُّ مواطن الحُبِّ الإباء
ألم أكُ جاركم فتركتموني … ككلب في دياركمُ عواءُ
ولما أن أتيتهم حبوني … وفيكم كان لو شئتم حباء
فلما أن مدحت القَوم قلتم … هجوت وهل يحل لي الهجاء
فلم أشتمكم حسباً ولكن … حَدَوْتُ بحيث يستمع الحداء

فكأنه يقول: ليست تعد المياه الجارية على وجه الأرض بالآراء المختلفة والعزائم التي

ست بمرتبطة، بل إنما تنال وتستخرج ويقدر على تمشيتها في البساتين والأشجار، والانتفاع بها
لآراء المتفقة والعزائم التي ليست بمختلفة ولا مفتلة، وقلما يسهل إصلاح الجرح ومداواة المرض
لى من رامه من غير الآراء الصالحة وإيساء الأطبة الحاذقة. وهذا تمثيل، والمعنى: أنه لا يصلح
لدلالة على الطريق إلا من كان على بصيرة من مواردها ومصادرها، بحيث لا يتغير له رأي، ولا
حل له عزيمة، فإن لم يكن كما ذكر هلك وأهلك. وكذلك أيضاً لا يصلح لمداواة الأمراض إلا
ن كان آسياً عالماً بالأدواء والأدوية التي تليق بالدواء، وإلا أهلك من يعالجه في الغالب.

قال الرسول ﷺ : ((يذهب العلماء الأول فالأول، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس
ؤساء جهلة: فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا))[1]

وقال الرسول ﷺ : ((ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ولكن إن اتخذه عمله))[2].

يروى أن الجنيد رضي الله عنه كان يقول: أخوفُ ما يخاف على هذه الأمة جهلة
تصوفة، وعلماء الألسنة جهلة القلوب : المتصوفة يضلون الناس بألسنتهم فيدعون منْ ضلالة
ى ضلالة أشد منها، وعلماء الألسنة جهلة القلوب يدعون إلى الضلالة بأقوالهم وأفعالهم، فتميل
م أهواؤهم إلى ترك العمل بما علموا؛ فيغتر بهم الجاهل فيقول: إنه لم يفعل ذلك إلا لعلم عنْده
م نبلغه؛ فيكون أشد في الضلالة من الجاهل؛ لأن الجاهل لا يهتم من أمره بشيء إن هو فعله
ى علم، ولا يغترون بمجرد فعله لعلمهم بجهله، وربما حمله الغرور على الفتوى بالشاذ،
رتكاب التأويلات؛ حباً للرياسة، وطمعاً في طعمة ينالها ممن أفتاه؛ فيكون قد اقتحم باباً من
واب السحت بعد إضلاله المقتدي والمستفتي؛ فيضل المقتدي به بحيث لا يعلم: فيكون
ستَدْرَجاً وَمُسْتَدْرِجاً، وذلك معنى قوله ﷺ : ((إن من العلم لجهلاً، وإن من الشعر
حكمة، وإن من البيان لسحراً))[3].

---

(١) حديث « يذهب العلماء الأول فالإول الخ » متفق على صحته، ولفظه عند البخاري: « إن الله لا
ض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساءَ
هالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » (كتاب العلم ـــ باب كيف يقبض العلم) والله أعلم.

(٢) حديث « ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلخ..» سبق تخريجه في ص (   )

(٣) حديث « إن من الشعر لحكمة الخ.. » صحيح رواه البخاري وأبو داود والنسائي ومالك، ولفظه عند
خاري: « إن من البيان لسحرا »، أو « إن بعض البيان لسحر » (كتاب الطب).

قال ﷺ : ((سيهلك المتنطعون من أمتي. قالوا: وما المتنطعون يارسول الله؟ قال: شر الرجال، يجمعون شرار المسائل، يعمون بها خلق الله)).

وقيل: هم المتكلفون الذين يتكلفون إلى علمهم علم مالا يعلمون؛ فيستحي أحدهم أ يقول فيما لايعلم: لا أعلم.

قالَ مالك بن أنس رضي الله عنه: ألا أنبئكم بعلم العلماء وحكم الحكماء ؟ قالوا: بلى قال: إذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل: لا أعلم.

وقال ابن القاسم: كان مالك رضي الله عنه كثيراً ما يقول إذا سئل: لا أعلم، ولقد كا يقول ذلك في المجلس ثلاثين مرة، وربما قال: لا أعلم، ثم يفتي بعد ذلك ويجيد الجواب.

وقال ﷺ : ((إنه سيأتي زمان تكثر فيه المسألة ويقل الفقه، فإما أن يعجز أحدكم أ يكون منافقاً، فمن أدرك منكم ذلك الزمان فليعجز ولا يكن منافقاً)).

ويروى أن رجلاً من المتنطعين أتى عاصم بن عمر فسأله عن مسألة فقال له: لا أدري فقال له: إنه يقبح بمثلك أن يسأل عن شيء من أمر الدين فلا يوجد عنده فرج ولا مخرج وأنت ابن إمام من أئمة المسلمين وخليفة من خلفاء رسول رب العالمين. فقال له: أقبح من ذلك أ أقول فيما لا أعلم: إني أعلم؛ فأفتي بجهل؛ فأَهلَك وأُهلك، أو ما بلغك قول الله تعالى: ﴿ ولا **تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال رسول الله ﷺ : ((إنَّ من أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أرى عينيه ما لم يَرَيَا، وأسمع أذنيه ما لم تسمعا)).

ويروى أن بعض السلف قال: إن الناس يرون الورع في الكف عن الشبهات. وتَرك ما لابأس فيه مخافة أن يقعوا فيما فيه بأس، وإنَّما الورع ورع اللسان.

يروى أن المقداد لم يروِ عن النبي ﷺ مع طول صحبته إياه إلا حديثاً واحداً. فقيل له: مالنا لا نراك تروي عن رسول الله ﷺ الآثار كما يرويها أصحابك ؟ فقال. أما إني قد سمعت من رسول الله ﷺ مثلما سمعوا، وعقلت عنه مِثلما عقلوا. ولكني تورعتُ أن أروي عن رسول الله ﷺ فأزيد وأنقُص بعد ما سمعته يقول: ((من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من

= أما اللفظ الثاني الذي هو « وإن من الشعر لحكمة » فهو صحيح كذلك أخرجه البخاري في كتاب (الأدب) وأبو داود وابن ماجه. أما قوله في أول الحديث: « إن من العلم لجهلاً » فلم أجده والله أعلم.

نار))[1]. فرأيت الكف عن الرواية أسلم إلي وقد تَولى عني أصحابي ما هنالك، فلست أخاف من وعيد قوله ﷺ : ((ومن كتم علماً وهو يعلمه ألجم بلجام من نار))[2].

وفي رواية : « من سئل عن علم وهو يعلمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة ». فهم لا يسألونني لما رأوا من عدم اشتغالي بالرواية. انتهى.

وقال مسلم في صحيحه: اعلم وفقك الله أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثقات الناقلين لها من المتهمين، أن لا يروي منها إلا ما عرف صحة مخارجه، والسِّتارة[3] في ناقليه، وأن يتقن ما كان عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع.

والدليل على الذي قلنا من أن هذا هو اللازم دون ما خالفه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ [الحجرات: ٦] الخ، وقال عز وجل: ﴿ **ممن ترضون من الشهداء** ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقال: ((وأشهدوا ذوي عدل منكم)) [الطلاق: ٢].

فدل بما ذكرنا من هذه الآي أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول، وأن شهادة غير العدل مردودة.

والخَبر وإن فارق معناه معنى الشهادة في بعض الوجوه فقد يجتَمعان في أكثر معانيهما؛ إذ كان خبر الفاسق غير مقبول عند أهل العلم، كما أن شهادته مردودة عند جميعهم.

ودلت السنة على نفي رواية المنكر من الأخبار كدلالة القرآن على نفي خبر الفاسق، وهو الأثر المشهور عن رسول الله ﷺ ((من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين))[4] ﴾

---

(١) حديث « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » حديث متفق على صحته، رواه الشيخان وغيرهما، وهو من المتواتر النادر.

قال العلماء: إنه مجمع على تواتره، والله أعلم.

(٢) حديث « من كتم علماً وهو يعلمه ألجم يوم القيامة الخ » صحيح رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة، وابن حبان والحاكم وصححاه، وقال فيه الترمذي: حسن صحيح. وأورده السخاري تحت رقم ١١٦٨ .

قلت: وله طرق كثيرة أوردها ابن الجوزي في العلل المتناهية له، والله أعلم.

(٣) الستارة: هي كالسترة، والمعنى: مايستتر به، المراد هنا معنى الصيانة.

(٤) حديث « من حدث عني حديثاً الخ » رواه مسلم في مقدمة صحيحه (١/٧) وهو صحيح.

روى شعبة عن منصور عن ربعي بن خراش أنه سمع علياً يخطب قال:
قال رسول الله ﷺ : ((لاتكذبوا عليَّ فإنه من يكذب علي يدخل النار))[1].

وقال: قال علي بن ربيعة: أتيت المسجد والمغيرة أمير الكوفة، قال: فقال المغيرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد))[2].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ((كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّث بكل ما سمع))[3].

وقال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: لايكون الرجل إماماً يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع.

وقال سفيان بن حسين: سألني إياس بن معاوية فقال: إني أراك قَد كلفت بعلم القرآن فاقرأ علي سورةً من القرآن وفسرها حتى أنظر فيما علمت، قال: ففعلت، فقال لي: احفظ عني ما أقول لك: إياك والشناعة في الحديث فإنه قَلما حملها أحد إلا ذل في نفسه وكذب في حديثه.

وعن عبد الله بن عبيد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود قال له: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وعن عثمان بن يسار عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((سيكون في آخر أمتي ناس يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آبائكم فإياكم وإياهم))[4].

وفي رواية: ((يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولاآباؤكم، وإياكم وإياهم، فلا يضلونكم ولايفتنونكم))[5].

(١ و ٢) حديث « لاتكذبوا علي » تقدم تخريجه.

(٣) حديث « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » رواه مسلم في مقدمة صحيحه (٨/١)، وعن القضاعي. كما أورده السخاوي تحت رقم ٨٠٧ .

(٤) حديث « سيكون في آخر أُمتي الخ.. » أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (٩/١).

(٥) وهذه الرواية أيضاً في مقدمة صحيح مسلم (٩/١).

وقال: حدثني أبو سعيد الأشج عن وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المسيب بن رافع عن عامر بن عبادة قال: قال عبد الله: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل، فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث.

وعن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان، فستخرج فتقرأ على الناس قرآناً.

وعن طاوس قال: جاء بشير بن كعب فجعل يحدث عن ابن عباس، فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا؛ فعاد له ثم حدثه فقال له: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له، فقال له: ما أدري أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا؛ فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذا لم يكن يكذب عليه، قال: فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه.

وحدث نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: كتبت إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لي كتاباً ويخفي[1] عني، فقال: ولد ناصح اختار له الأمور اختياراً وأخفي عنه، قال: فدعا بقضاء عليّ، فجعل يكتب أشياء ويمر بالشيء فيقول: والله ما قضى بهذا علي إلا أن يكون ضل.

وقال سفيان بن عيينة: عن طاوس قال: أُتي ابن عباس بكتاب فيه قضاء عليّ فمحاه إلا قدراً، وأشار سفيان بن عيينة بذراعه.

وعن الأعمش عن أبي إسحاق قال: لما أحدثوا تلك الأشياء بعد علي رضي الله عنه قال رجل من أصحاب علي: قَاتلهم الله أي علم أفسدوه علينا. فلما رأى السلف ذلك أحدثوا الإسناد دفعاً لتقول المتقولين ورداً لغلو الغالين.

قال إسماعيل بن زكرياء عن عاصم الأحول عن ابن سيرين قال: لم يكونوا يسألون

---

(١) كذا ورد في مقدمة صحيح مسلم بالخاء، وفي رواية بالحاء، فيكون المعنى على رواية الحاء: ولا تكثر علي، أو يكون من باب الاستقصاء والإلحاح ، ويكون عني بمعنى علي ، أي استقصر ماتحدثني ، وقال ابن الصلاح : هو بالخاء المعجمة، ومعناه: أي يكتم عني أشياء ولايكتبها لي إذا كان فيها عليه مقال من الشيع المختلفة وأهل الفتن؛ لأنه إذا كتبها ظهرت، وإذا ظهرت خولف فيها وحصل فيها قال وقيل. نقل هذه الأقاويل النووي رحمه الله (٨٢/١) والله أعلم.

عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فَيُنْظَرُ إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظرُ إلى أهل البدعة فَلا يؤخذ حديثهم .

وعن عبد العزيز بن سليمان بن موسى قال: قلت لطاوس: إن فلاناً حدثني بكذا وكذا قال: إن كان صاحبك مليئاً[1] فخذ عنه.

وقال أبو بكر بن خالد الباهلي قال: يقول سعد بن إبراهيم: لاينبغي أن يحدث عن رسول الله ﷺ إلا الثقات. وإن الله قد خص هذه الأمة بالإسناد، وتنقيح الرواة وانتخاب السند إليهم.

وكان ابن المبارك يقول: الإسناد من الدين؛ ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

وقال عبد الله بن عباس: بيننا وبين القوم القوائم يعني الإسناد.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني: قلت لعبد الله بن المبارك: يا أبا عبد الرحمن الحديث الذي جاء: « من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صومك » قال: فقال عبد الله: يا أبا إسحاق، عمن هذا ؟ قلت: هذا من حديث شهاب بن خراش، قال: ثقة، عمن قال ؟ قلت: عن الحجاج بن دينار، قال ثقة، عمن ؟ قلت: قال رسول الله ﷺ ، قال: يا أبا إسحاق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تقطع فيها أعناق المطي، ولكن ليس في الصدقة اختلاف، غير أن الله تبارك وتعالى قيض لهذا العلم في كل قَرن عدولاً يحفظونه من زيغ الزائغين، وتبديل المبتَدعين، وغلو الغالي، جعلهم الله فرقاناً بين الحق والباطل حتى يأتي أمر الله؛ اقرأوا إن شئتم: ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾ [الأنفال: ٢٩].

يروى أن المتقول[2] على النبي ﷺ وشهداء الزور يؤتى بهم يوم القيامة وقد أدلعت ألسنتهم. حتى قيل في بعض الآثار: إنهم يطأون عليها. وكفى بهذا زاجراً عن ترك الورع في الرواية والشهادة ورؤيا المنام؛ إذ هي نوع من النبوة؛ فلا ينبغي التهاون بها ولا التساهل في شأنها.

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إن الله يكلف من أرى عينيه في المنام ما لم تريا يوم القيامة أن يصنع حبلاً من تراب وما هو بصانع. وكذلك المصور يكلفه أن ينفخ الروح فيما

---

(١) قوله مليئاً: يعني ثقة.

(٢) في نسخة (ب): المتقول على الله وشهداء الزور الخ.

ور وليس بفاعل؛ فلا يزالان يعذبان بأنواع العذاب حتى يفرغ أهل المحشر من الحساب، ؤمر بهما فيلقيان في سواء الجحيم)).

فالحاصل أن المقتدي بالجاهل كالمستدل بالأعمى؛ فأنى له الرشاد ؟ والمقتدي بالفقيه اغب في جمع الحطام، ولاسيما إن كان يأخذ الرشى، كالمستدل بمن به لمم من الجن فلا يزيده ر خبال. وأما غير الراغب فقصاراه أن يعلم قوانين الشرع الظاهر، وليس له سبيل إلى الرشاد دم تَمام الوراثة، وإنما يرشد من ورث علم الرسول ﷺ وأحواله ومقاماته لوجود الأمداد بانية، فيغذي القلوب والأرواح بأمداد الفطرة الربانية والمواهب القدسية، ويجذبهم بأحواله ركية، لوجود الإذن في التعبير، والتوفيق للتنوير، لنقاء ثوبه، وصفاء قلبه، ولين لبه، فهو والدٌ بٌّ، وواجد ملب، وواحد بعلوم الحقائق[1]، تضلع من علوم الشريعة بعد ما تضلع من علوم حقيقة، ليس بفظ ولا غليظ، ولا متشبع عنيظ[2]، وهب لربه كله، واستحمله كَلَّه، يغضب لا لنفسه، فيومه خير من أمسه، قد طوى خمسه في خمسه، وباطنه في حسه؛ فهو الطبيب هر، والخريت الظاهر، والمشرب الطاهر، والنور الباهر* ﴿ **يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل سلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾ [المائدة: ١٦] وفقنا الله بنوره لنوره، وخصنا ـوره، آمين. ثم قال رحمه الله :

٨ ــ وَلَيْس جَــوىً عنْــدَ الجِوَاء أَثَــارَهُ يُداوَى بِمَغْـنىً في سَحَــاهُ سِحــاءُ

قوله: جوى: اسـم ليس، وجملة (عند الجواء أثاره): صفة له. ويداوى: خبر ليس. لجوى: فهو بالفتح والقصر: كل ألم باطن، وفعله جَوِيَ، بالكسر، يَجْوَى، بالفتح،والمراد به ـا الشوق والغرام، كما يقتضيه سياق البيت. قال الشاعر:

حوى الجوى وحشا الأحشاء منه هوىً من محيــــاه وربع الدار عـــمران[3]

(١) بياض في النسختين قدر كلمة واحدة ولعلها (قد).

(٢) العنيظ: الساخر البذيء.

(٣) هذا البيت في النسخة (أ) غير واضح، وهو في (ب) هكذا:

جوى الجوى وحشــا الأحشــاء منــه هــوى حي المــربع بــالدار عــمران

ووزنه مختل.

* يرى القوم أن هناك أمران ــ حقيقة ــ وشريعة ــ وقد قال بها كثير من العلماء الأقدمين حتى الذين اشتهروا بدفاعهم الشديد ـ السنة كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فنزاه يقول في فتاواه أثناء استعراضه لكتاب الشيخ عبد القادر الجيلي قال وقد ـ أن صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائماً الأمر الشرعي الظاهر إن عرفه والأمر الباطن (١٠حـ ٥٢٥ص) فتاوى

والجواء، بالكسر: كل واد واسع، وقيل: هو ما بين العدوتين من سهب واسع تخترقه السيول وليس بواد، بل هو رياض نقية وبقاع طيبة تخترقُها السيول، وتثير مراعيها الذيول، تمر على الطل، ولا تقلى بوخم ولا سل، رقيقة الترب كثيرة العشب .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذكر هجرته مع رسول الله ﷺ :

يعسفن عرض البلاد بعد أطولها ... وكل سهب رقيق التراب موار

وهي قصيدة طويلة، ونريد أن نأتي بها للتبرك بقائلها، أولها قوله رضي الله عنه : (من بحر البسيط)

قال النبي ولم يجزع يوقرني ... ونحن في سدفة من ظلمة الغار[1]

لاتخشَ شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد تكفل لي منه بإظهار

وإنما كيدُ من تخشى بوادرَهُ ... كيدُ الشياطين كادتْه لكفار

وأنت مرتَحل عنهم وتاركهم ... إما غُدُواً وإما مدلج سار

وهاجرنْ أرضهم حتى يكون لنا ... قَوم عليهم ذوو عز وأنصار

حتى إذا الليل وارتْنا جوانبُهُ ... وحال من دون من نخشى باستار

جاء الأريقط يهدينا وأينقه ... ينعينَ بالقَوم نعياً تحت أكوار

يعسفن عرض البلاد بعد أطولها ... وكل سهب رقيق الترب موار

حتى إذا قُلت قد أنجزن عارضها ... من مدلج فارس في منصب وار

يردى به مشرف الأقطار معترم ... كأسْدِ ذي اللبدة المستأسد الضاري

فقال كروا فقلنا إن كرتنا ... من دونها لك نصر الخالق الباري

إن يخسف الله بالأجْوَى وفارسه ... فانظر إلى أربع في الأرض غوار

فهيل لما رأى أرساغ مِقربة ... قد سخن في الأرض لم تحفر بحفار

فقالَ هل لكمُ أن تطلقوا فرسي ... وتأخذوا موثقي بنصح أسرار

واصرف الحي عنكم إن لقيتهمُ ... وأن أعور منهم عين عوار

فادعوا الذي هو عنكم كف عدوتَنا ... يطلق جوادي وأنتم خير أبرار

فقال قولا رسول الله مبتهلا ... يا رب إن كان منه غير إخفار

فنجه سالما من شر دعوتنا ... ومهره مطلقاً من كل آثار

فَأظهر الله إذ يدعو حوافره ... وفاز فارسه من هول أخطار

(١) السدفة : الظلمة .

وسراقة هذا هو الذي أظهر الله فيه هذا العلم العظيم من أعلام نبوته ﷺ قد أظهر الله فيه أيضاً أثراً من الآثار الشاهدة له عليه السلام؛ لأن الله أطلعه على الغيب في حياته بما ظهر مصداقه بعد وفاته .

روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى الأشعري عن الحسن أن رسول الله قال لسراقة بن مالك: ((كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟))[1] .

قال : فلما أتي عمر رضي الله عنه بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة ابن مالك فألبسه إياهما ، وكان سراقة رجلا أزب كثير شعر الساعدين، وقال: ارفع يديك وقل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب النَّاس ، والبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيّاً من بني مدْلج ، ورفع بهما عمر رضي الله عنه صوته . انتهى .

فلما رجع سراقة وفى لرسول الله ﷺ بما عاهده عليه، فما لقيَ أحداً يطلب رسول الله ﷺ إلا رده ، حتى لقي موكبا من قُريش فيه أبو جهل فسأله عن النبي ﷺ ، فقال: أما هذا الوجه فقد كفيتكموه؛ فقال له أبو جهل: لعلك لقيتَه فأمنته ؛ قال: وإن كان ذلك كذلك فلا سبيل إلى طلبه، ثم أنشده بعد محاورة فقال: (من بحر الطويل)

أبا حكم واللات لو كنت شاهدا ... أمام جوادي حين ساخت قوائمه[2]
علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه
إليك فرد القوم عنه فإنني ... أرى أمرهُ يوماً ستعلو[3] معالمه
بأمر تود النضر طرّاً بأسرها ... بأنَّ جميع النَّاس طرّاً تسالمه[4]

فرجعت قريش وكنانة لجواره ومنعه إياهم من الطلب. انتهى .

---

(١) حديث « كيف بك إذا لبست سواري كسرى » أورده ابن حجر في الإصابة بلفظ الشيخ وبالسند المذكور، وسكت عليه (٢/١٨) إصابة .

(٢) هذا البيت في الاصابة هكذا :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

(٢) في الاستيعاب: ستبدو بدل تعلو .

(٤) هذا البيت في الاستيعاب هو :

بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طراً يسالمه

(٢/١١٩) استيعاب.

قوله: أثاره/ أي حركة وأهاجه. والمغني، بالغين المعجمة: المكان الذي غني أي عمر، قال الله تعالى: ﴿ **كأن لم تَغْنَ بالأمس** ﴾ [يونس:٢٤] معناه: أنها خربت وعفى أثرها حتى كأنَّها لم تتقدم لها عمارة بالأمس، والمراد بالأمس ما مضى من الزمان وإنْ بعد العهد به، لا مايسبق إلى الوهم وهو ما قبل يومك هذا الذي أنت فيه. والسحى ، بالفتح والقصر : جمع سحاة ، وهي الساحة. قال الرسول ﷺ لما وقع بصره على حصون خيبر: ((الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذ نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين))[1] . والسحاء، بالكسر والمد: نبت حلو ذكي له نَورٌ أبيض إذا رعته النحل طاب عسلها .

فكأن الناظم يقول: ليس يداوي الشوق والحزن اللذين هيجهما عهد الجواء، أي ذكر ما عهد فيه من نيل الأوطار وجميل الآثار التي فيها قُرة عينه، بالحلول في مكان قفر بنت في ساحته السّحاء . والمعنى أنه لايُسلي الخَسيس عن النفيس ، فالدنيا لخستها لاتغني عن الآخرة لنفاستها، فجواه إنما اثاره جواء معاهد الجنة وما أعد الله فيها لأوليائه ؛ فَلا يبرئه منه زرجون[2] هذه الدار التي ملئت بالأكدار، ولا راحة لمؤمن فيها دون لقاء ربه، والظفر بمقتضى حبه .

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ولم أرَ في عيـــوب النـــاس عيبـــاً كنـقــص القَــادرين عـلى التمـام

فالتمام إفراغ الجهد في طلب الدار الباقية رغبة في أن يكون فيها جاراً للحبيب ومنادماً للقريب المجيب. وتخصيص الشوق لمن أمدك بالذوق، إذ القلب محل القُرب وموضع نظر الرب، قال الرسول ﷺ ((إن الله لاينظر إلى صورِكم وأعمالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأحوالكم))[3] . فجدير بمن بلغه هذا الأثر الشريف أن لايجعل حبه إلا لله وفي الله، وإلا فقد علق الجوهر في أعنَاق الخنازير . ورام الكتابة من غير قَلم ولا مداد ، والسلطنة وهو جالس على المزبلة ، والقطع بدون المدية .

---

(١) حديث « الله أكبر خربت خيبر الخ » حديث صحيح رواه مسلم (١٨٥/٥) كما رواه غيره وهو جزء من حديث طويل .

(٢) الزرجون : تقدم .

(٣) حديث « إن الله لاينظر إلى صوركم الخ » صحيح رواه مسلم في صحيحه وابن ماجه بلفظ : « إن الله لاينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » .
وأورده بهذا اللفظ صاحب الكشف تحت رقم (٧٣٨) .

ثم قال رضي الله عنه :

٨٥ ـ وَمَا ذُو نَسىً بَيْنَ النِّسَاءِ بِمُبْرِىءٍ ذَواتِ طَنـاً أشْفَتْ بِهِنَّ طِنَـاءُ

قوله : وما ذو نسى : أي وليس صاحب نسى : بالفتح والقصر: مصدر نسى الرجل إذا اشتكى نساه ، فذو : اسم (مَا) . نَسىً : مضاف إليه ما قَبله . بمبرىء : خبره. بين النساء: ظرف ومضاف إليه ماقبله، والجملة خبر لمبتدأ محذوف ، أي: هو كائن بين النساء . والمبرىء من المرض : الذي يشفي منه بالعلاج الموافق لدفع العلة من عُقَار وغيره: من مبرد في وران الحرارة، ومسخن في هيجان البرودة، وغلبتها، بل ولو كان ذلك بغذاء موافق للطبيعة والجسم. قال الرسول ﷺ : ((عّودوا كل جسم ما اعتاد))[1] .

والطَّنى، بفتح الطاء المهملة والقصر: التصاق طحال البعير بجنبه من شّدة العطش واليبس، وليس هو خاصا بالبعير، بل يقال: طنى الإنسان: إذا عظم طحاله من الحمى وغلبة الصفراء ، وهو مصدر طَنِي، بكسر النون فيهما . والطناء ، بالكسرِ والمد : جمع طَنِيء ، بالكسر والهمز : وهو بقية الروح ، ومنه قيل: هذه حية لاتطنىء، أي لا يعيش لديغها .

قوله: أشفت: اشرفت على الموت .

فكأنه يقول: ليس رجل صاحب شكاية بوجع نساه في حال كونه بين النساء قد أحطن به يمرضنه لشدة مرضه بمداوٍ إبلاً ذوات طنى ، أي مطحولة، أُشرفت على الموت، فهو لأجل مرضه ودنفه وكونه بين نساء قَد أحطن به لايغني عن ذوات الطنى التي لم يبق فيها إلا بقايا من الأرواح ، كيف وقد شغل بنفسه ، وقد دنَا من مواراته في رمسه ، وحيث عجز عن مداواة نفسه، فعجزه عن علاج غيرها أحرى .

والكلام مفرغ في قالب التمثيل؛ فهو كناية عمن يأمر بالمعروف ولايفعله، وينهى عن المنكر ثم يقتحمه، إذ لسان الحال أصدق من لسان المقَال ، فَغاية أمره ونهيه أن يجلب بهما الازدراء لنفسه . قال الشاعر : (من بحر الكامل) .

---

(١) حديث « عودوا كل جسم ما اعتاد » ليس له أصل من كلام النبي ﷺ ، رواه الخلال وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٧٨٨ وقال: قال العراقي: لم أجد له أصلا.

كما أورده السخاوي تحت رقم ٧٢٢ بلفظ « بدن » بدل « جسم » ورقم ١٠٣٥ وقال: لم أجد له أصلاً، وأورده الشوكاني تحت رقم ٨٠٩ ـــ ١٦٢ وقال: قال في المختصر: لم يوجد، وقال في المقاصد: لايصح رفعه إلى النبي ﷺ، وأوله عنده: « البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء » ، وأورد باقيه سواء بسواء، والله أعلم .

يــا أيهــا الرجــل المــعــلم غــيرَهُ	هَــلاّ لــنـفـســك كان ذا التــعــليمُ
فَـابدأ بنفســكَ فــانهـهــا عن غيهــا	فــإذا فعــلــت إذاً فــأنت حكــيم
فهنــاك يُســمـع ما تقول ويُقتدى	بــالقــول منــك ويــنــفــع التَعــليمُ
لا تَنْــــهَ عن خــلق وتــأتِيَ مثــله	عــار عــلــيك إذا فعــلتَ عظــيم

فكما لايبلغ المنهل إلا الخريت الماهر كذلك لا يوصل إلى الله إلا الواصل المتصل كما قيل: من اتصل بشيخ واصل وصل، ومن اتصل بشيخ منفصل بان وانفصل. هيهات! كيف يوصل إلى الملوك من جهل كيفية السلوك؟ أم كيف يداوي أمراضَ الذنوب من هو متلوث بهفوات العيوب ؟ أم كيف يخرج أضغان القلوب من لم يغص في غمرات الغيوب؟ أم كيف يقوم اعوجاج النفوس من لم يشرب من مشارب القدوس؟ أم كيف يطرد جنود الهوى من لم تلج فؤاده التقوى؟ أم كيف يحيي الموتى من عاش ومن العلوم اللدنية* لم يؤتى؟[1] أزال الله بلوانا ، ولا خيب مسعانا ، آمين .   ثم قال رحمة الله عليه :

٨٦ ــ وَلاَ ذُو الحَقَى يَكْفِي بِكُثْرِ حِقَائِهِ ... وغَـايَةُ ذِي الدُّنْيَـا ضَـنًى وَصِـنَـاءُ

يعني أن صاحب الحَقى، بالقصر والفتح: جمع حقو، وهو وجع الخَاصرة ؛ إذ الحقو إنما هو موضع ربط الإزار، وهو منْ أصغر ضلع إلى منتهى الورك، كما روي أن رسول الله ﷺ لما ماتت إحدى بناته دخل على النساء وهن يغسلنها فقال: ((اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر. واجعلن في الأخيرة كافوراً ، فإذا فرغتن فآذنني . قالت: فلما فرغنا ألقى إلينا حقوه فقال: أشعرنها إياه))[2] . وهو منْ باب تَسمية الشيء باسم محله أو ملازمه : فيقال للإزار حقو، كما يقال للمحل .

أي لايكفي من مؤونة الموت ولا من إصـابة البلايا والمحن بسبب كُثْرٍ ، وهو بضم الكاف هنا مراعاة للتاء المحذوفة فإذا اعيدت فتح الكاف وجوباً، فإذا قلت: بِكَثْرَةٍ فتحتها،

(١) لعله يريد موتى القلوب لا أموات الأجسام ؛ إذ لاسبيل إلى ذلك بعد ما اعطى الله عيسى وأخبر به على سبيل الإعجاز .

(٢) حديث: « اغسلنها ثلاثا الخ » حديث متفق على صحته، رواه الجماعة. والذي أورد الشيخ إحدى روايات البخاري، وهو عنده في كتاب (الجنائز) . أما المغسَّلة فهي زينب بنت النبي ﷺ .

* العلم اللدني هو العلم الذي يقذفه الله في القلب إلهاماً بلا سبب من العبد ولذا سمي لدنياً: والحقيقة أن دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال ليس بصحيح والله أعلم .

وإذا قلت: بكثر ضممتها، أي بكثرة حِقائه ، بالكسر والمد: جمع حقو، وهو الرداء . فالمراد أن عرض الدنيا لايكفي[1] صاحبه غرضاً من الأغراض التي تناله فيها . والصَّنى ، بالفتح والقصر: حجر مطروح لا يلتفت إليه . والصِّنَاءُ ، بالكسر والمد : الرماد . فالمعنى أن غاية ذي الدنيا ولو بلغ فيها صاحبها المنتهى في الملك والشرف والثروة فإنما مصيره ومأواه أن تنصب عليه أحجار لايبالي بها ويصير تحتها رميماً ، ثم بعد صيرورته رميماً يصير تراباً، فيندرس رسمه، فلا يذكره ذاكر، ولايزوره زائر، كما كان ﷺ يقول: ((اللهم ارحمنا إذا عرق الجبين وكثر الأنين، وفارقنا الحبيب، ويئس منا الطبيب، اللهم ارحمني إذا درس رسمي، ونسي اسمي ولم يزرني زائر، ولم يذكرني ذاكر)) .

فالبيت موضوع للتزهيد في الدنيا واحتقارها، وهو في قوة قوله تعالى: ﴿ **متاع الدنيا قليل** ﴾ [النساء:٧٧] كما في المثل : غاية كل متحرك السكون، وغاية كل متكون أن لايكون .

ثم قال رحمه الله :

٨٧ ــ وَرُبَّ قَوىً آضَ القِواءُ بِهِ غَمىً ... وَقَد كَانَ مِنهُم في القُحُوطِ غِماءُ

قوله: رب قويً : أي كثيراً ما أصبح الموضع القفر عمراناً بعد ما كان خلاء، وربما اصبح البلد العامر بالأموال والرجال والأشجار والعقار قوى، أي خالياً لا عمارة فيه وبذلك سمي المسافر مُقْوِياً ، وجمعه مقوون؛ لأنه يقطع المفاوز ويجاوز العمران طلباً للأرباح ورجوعاً إلى المراح، فيقال: قوى المكان: إذا أقفر. والقواء، بالمد والكسر: جمع قوي، وهو على غير قياس؛ لأن القياس في جمع قوي: أقوياء، ويقال فيه: أولُو قُوَّةٍ : إذا كان بمعنى شدة البطش وكثرة الخطو . قال ﷺ : « إنما القوة الرمي » . وقال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ [الأنفال:٦٠] ويسمى القوى ايضاً ؛ بالتشديد .

قال الرسول ﷺ : ((ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[2] ﴾

---

(١) كذا في الأصلين : لايكفي ، وربما كان الصواب لايقي، من الوقاية .

(٢) حديث « ليس الشديد بالصرعة الخ » حديث متفق على صحته ، رواه الشيخان وابن حبّان والنسائي، وهو عند البخاري في كتاب (الأدب ــ باب الحذر من الغضب) . ولفظ الشيخ كلفظ البخاري سواء بسواء .

وفي ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

ليس الشـديد الذي يحمي فريستـه — يوم الوغـاء ونـار الحرب تشتعـلُ
لكنّ من غضَّ طرفـاً أو ثَنى قَدمـاً — عن المحارم هـو الفـارس البطـل[1]

وآض : عاد، وهي من أخوات (كان) . والغَمَى ، بفتح الغين المعجمة والقصر: الذي أغمي عليه لغلبة المرض أو من إفراط الضعف، وهو أشد من الغَشْي ودون السكر .

وفي صحيح مسلم: ((كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي أصابه مثل الغشي الخفيف ؛ فينفصم عنه وقد تفصد جبينه عرقاً فهو كالجمان)) .

فَالغشي للأنبياء والصلحاء ، والإغماء للمرضى والضعفاء ، والسكر لأهل الأهواء عند الموت. والجلاء: الذهاب بالكلية، وأما التخبط فالصرع، والتخبط لمن به لمم الجان ولأكلة الربا عند اللقاء؛ قال الله تعالى: ﴿ **الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ [البقرة:٢٧٥] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ [الحج:٢] . فالغمى لايثنى ولايجمع ولايؤنث كما في التسهيل . والغماء ، بالكسر والمد: الغيوم. قال الشاعر: (من مخلع البسيط)

هـم العطيـة والأمـاني — والمُـدْنُ والمُـزْنُ والغيـومُ
لم تتـغـير بنـا الليـالي — حـتى عفتْ منهـمُ الرسـومُ
وهـمْ حيـاتي ولذيـذ عيشـي — ونـور عيـنيَ والطـعـومُ
مـني عـلى كلهـمْ سـلام — ينهـل مـا دامت الديـومُ

ومفرده غيم، وربما قيل في مفرده: غماء كسماء، وماضيه غيِّم مضعفاً . قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فـإن غَيَّمَتْ فـالويل للظهر والعصر — ــــــــــــــــــــ[2]

ووقع سماعاً غَمَى على وزن رمى كما قال البناني: وإذا أسند إلى الهلال جيء به على صيغة البناء للمجهول فتقول: غم، بضم الغين المعجمة وتشديد الميم، وله أخوات لاتأتي مواضيها إلا على هذه البنية كجم وسقط وجن وألحق وأفلس ، انظر القبوس شارح القاموس .

(١) الشطر الثاني مكسور الوزن، والرواية الصحيحة:
عن الحـرام فـذاك الفـارس البـطـل

(٢) كذا في الأصلين، لم يرد إلا شطر.

فكأنه يقول: رب أقوياء ذوي أموال كانوا يفتخرون بقوة أجسامهم ولأجل غناهم فصاروا بعد ذلك فقراء ضعفاء حتى كادو يهلكون بسبب فقرهم وضعفهم؛ فلم يغن عنهم شيئاً مالهم ولا مناهم بعد تغير حالهم بعدما كانت سيول نوالهم تغني عن الغيوم في سني القحوط؛ وهو جمع قحط، أي قحوط المطر بيبسه وقلته بسبب صرفه عن الخلق لأجل ذنوبهم وظلمهم؛ فيصرفه إلى البحار الملحة والأرض غير المعمورة، حتى إذا نفذ فيهم أمره فتاب تَائب أو تذكر متذكر صرفه إليهم بقدر ما يشاء.

ولأبي الشيخ ابن حبان في كتاب (العظمة) قال: إن الغيث لاينقص ولا يزيد، فهو ينهمل من يوم خلق الله السماوات والأرض، لاينقطع طرفة عين حتى تقوم الساعة، وهو معظم الجزء الواحد الذي أرسل الله إلى الدنيا من تجزئة مائة جزء، ورحمة الله لا تنقطع؛ فلا يقطع المطر، ولكن يصرفه إلى الثلث الخراب من الدنيا والبحار، ولو أن بني آدم أطاعوا الله ولم يعصوه لأمطرهم بالليل، ولأخرج لهم الشمس بالنهار، ولما أسمعهم صوت الرعد. انتهى.

والقحط جند من جنود الله، يؤيد به أنبياءه، ويؤدب به أعداءه، كما في الصحيحين أن النبي ﷺ لما استصعبت عليه مضر ورَدَّت عليه أمر ربها قال: « اللهم أعني على مضر بسبع كسبع يوسف »[1].

وفي رواية: « اللهم أشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ».

فَأَصَابتْهم سنة حصت الأموال حتى أكلوا الميتة والعظام والعلهز[2]، وحتى صار الرجل منهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من الجهد، فارتحل تميم وضبة والرباب إلى السواد، حتى ارتَهَن زرارة ابنه وقوسه عند كسرى، وأما سليم وأسد وغطفان فإنهم نزلوا بعوالي المدينة وأظهروا الإسلام أو من أظهره منهم، فأنزل الله في شأنهم: ﴿ **قالت الأعراب آمنا قُل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ [الحجرات: ١٤] فلما تَيقنت قريش الهلاك وفد إلى رسول الله ﷺ أبو سفيان مع من وفد معه من أشراف قريش، فقال أبو سفيان: إن قومَك قد هلكوا فادع الله لهم كما دعوت عليهم، فإننا ننشدك الله والرحم أن لايكون هلاك قومك على يديك، وإنك كنت تأمرنا بصلة الرحم، فادع ربك أن يغيثنا؛ فأنزل اللهعليه: ﴿ **إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم**

---

(١) الحديث متفق عليه كما قال الشيخ، وهذا أوله عند البخاري، وهو أطول من هذا ودون ذكر العلهز.

(٢) العلهز: تقدم. وهو الدم مع الشعر ييبس ثم يدق في الشدة ويؤكل.

عائدون ﴾ [الدخان: ١٥] فدعا لهم؛ فأغيثوا من يومهم حتى سال وادي قناة شهراً، وكان في الوفد رجل من كنانة، وكان قد أسلم قال: يارسول الله ، إني قلت في أمرك هذا وإغاثة مضر شعراً إن أذنت لي أسمعتك إياه؛ فأذن له، فقال: (من بحر المتقارب)

لك الحمـد والحمـد ممن شـكـرْ ... سـقـينـا بـوجـه النبي المطـرْ
دعـا الله خـالقَـهُ دعـوةً ... إليـه وأشخـص منـه البـصر
ومـا كان إلا ككف الردى ... أو أسـرع حـتى رأينـا الدرر
بـه قـد سـقـى اللهُحيَّ مضر ... وهـذا العـيـان لذاك الخـبر
نبـي كريم دعـا ربـه ... عـليـه شعـاع كضـوء القـمـر

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى قحوط المطر عن أهل مصر زمن الملك الريان سبباً لولاية يوسف عليهم وملكه إياهم.

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى قحوط الشام سبباً لنقلة يعقوب عليه السلام من البدو إلى مصر ولقائه لقرة عينه يوسف، وفي ذلك يقول الله حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ **هذا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ قد جعلها ربي حقّاً** ﴾.. إلى قوله: ﴿ **هو العَليم الحكيم** ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وكذلك جعل الله القحط سبباً لطواعية بني إسرائيل لإلياس عليه السلام؛ لأن الله أرسله إلى أهل بعل، وكانوا قد كفروا من بعد موسى عليه السلام فعبدوا صنماً يقال له: بعل، فلما دعاهم إلى الله هموا بقتله؛ ففر منهم إلى الجبال، ثم جدوا في طلبه، فصار كلما جاءته طائفة منهم دعا الله أن يكفيه أمرهم بما شاء؛ فيرسل الله عليهم ناراً فتحرقهم عن آخرهم ولا ينجو منهم إلا المخبر. فلما يئس من فلاحهم سأل اللهأن يجعل مطرهم بيده سبع سنين، فقال الله :إني أرحم بخلقي من ذلك، قال: ست سنين، فلم يزل يستنقِصهُ حتى جعلها ثلاث سنين؛ فمنع الله عنهم الغيث ثلاث سنين حتى هلكت أشجارهم وزروعهم ومواشيهم، وأخذ الموت في الناس حتَى مات خلق كثير؛ فبعثوا إليه اليسع يناشدونه الله والرحم، وأرسل إليهم أنه لايرجع إليهم حتى يهدموا بعلاً، فهدموه، فأخبره أنه سيخلفه على بني إسرائيل إذا أسلموا، وعلامة ذلك أن ينزل عليه كساءً من السماء ودابة كلون النار، فرجع إلى بني إسرائيل، ورفع يده إلى السماء، فأمطروا من ساعتهم، وجاءته الدابة كما وصف، فركب عليها، فطارب به إلى السماء، وجعل الكساء على رأس اليسع، واستخلفه على بني إسرائيل[1].

(١) هذه القصة من الإسرائيليات التي لاسند لها فيما أعلم.

وقد نزل بالعراق ونواحيه قحط مجحف زمن الحجاج؛ فوفَدت عليه ليلى الأخيلية. فلما
دخلت عليه استَنسبها فانتسبت، فقال لها: ما أتَى بك يا ليلى ؟ فقالت له: إخلاف النجوم،
وقلة الغيوم، وكلب البرد، وشدة الجهد، وأنت لنا بعد اللهالرفد. فقال: صفي لنا ما مررت به
من الفجاج، فقالت: الفجاج مغبرة،والأرض مقشعرة، والمبرك معتل، والعيال مختل، والمختبط
مقل، والضارع للذل، والناس مسنتون، ورحمة الله يرجون، أصابَتْنَا سنون مجحفة مبطلة، لم
تدع لنا هبعاً[1] ولا زبعاً[2] ولا عابطة[3] ولا نَافطة[4]، أذهبت الأموال، وفرقت الرجال، وأهلكت
العيال. ثم قالت: قد قُلت في الأمير أبياتاً فليأذن لي في ذكرها، قال: هاتي ما قلت، فقالت:
(من بحر الطويل)

أحجـاج لا يفـلل سـلاحك إنما	المنـايا بكف اللهحيث يـراهـا
أحجـاج لا تعط العصـاة منَاهـم	ولا الله يعطي للعصـاة منَـاهـا
إذا هبط الحجـاج أرضـاً مريضـة	تتبـع أقصى دائهـا فشـفـاهـا
شفـاها من الداء العضـال الذي بها	غـلام إذا هـز القنـاةَ سقَـاهـا
سقـاهـا فرواها سجـالاً سجـالة	دمـاء رجـال حيثُ شـاء حشـاهـا
إذا سمع الحجـاج رنَّ كتـيبـة	أعـد لهـا قَبـل النزول قـراهـا
أعـد لهـا مسـمومة فـارسـيـة	بـأيدي رجـال يحـلبـون صراهـا
فمـا ولد الأبكـار والعـون مثـله	ببحـر ولا أرض يجف ثـراهـا

فقال لها: حسبك ويحك، سلي تعطي، فقالت له: مثل الأمير أعطى من غير مسألة،
فأعطاها مائة ناقة برعائها.

ويروى أنه وقع قحط زمن موسى عليه السلام، فاستسقى موسى لقومه ليالي فلم يزد
الأمر عليهم إلا شدة، فقال: أي رب، لم منعتنا الغيث وأنت الواسع المفضال ؟ فقال له: لو
رفعتم إلي أيديكم حتَّى تسقط مناكبكم، وسجدتم حتى تنقطع أعناقكم فتصيروا كالحنايا، لما
نفعتكم وفيكم نمام ؛ فقال : أي رب نبئني به أقتله ، فقال : يا موسى افهم ما تقول !

(١) الهبع: الفصيل الذي ينتج في الصيف، أو الحمار.

(٢) الزبع: الشيء الحقير، والمراد أنه لم يبق لهم شيء.

(٣) العابطة: الذبيحة تنحر وهي سمينَة.

(٤) النافطة: الماعزة.

كيف أخبركم به فأكون نماماً وقد نهيتكم عن النميمة ؟! ولكن ادع قومك إلى التوبة من النميـ
ومن كل ذنب أسقهم ؛ ففعل موسى عليه السلام ، فتابوا كلهم وأخلصوا لله نياتهم
فسقاهم ، وقد تَاب النَّمام من جملة من تاب[1] .

وروى أيضاً عيسى عليه السلام خرج في أمته يستسقون وقد قحطوا قحطاً فادحاً، فلـ
خرجوا نزل عليه الروح الأمين فقال له: إن ربك يقول لك: إن كنت تحب السقيا فلا يخر
معك للصلاة إلا من لم يعصني فيما مضى من عمره، فرجع القوم إلا رجلاً واحداً، فقال
عيسى عليه السلام: يافتى، هل عصيتَ ربك قط ؟ قال: لا يا روح الله إلا أني التفتُّ يوماً فوق
بصري الأيمن على أجنبية من غير قصد فَاقتلعتها من أصلها ورميت بها، فقال له عيسى عل
السلام: اسأل السقيا للناس فأنت أحق بذلك مني، فرفع يديه إلى السماء، وشخص ببصره
فسقوا[2].

ولما أراد الله كرامةَ علي رضي الله عنه بالإسلام أسنتت[3] قريش، وكان أبو طالب مـ
سيادته قليل المال كثير العيال، فأتى النبي ﷺ العباس رضي الله عنه، وكان أكثر بني هاش
مالاً، فقال له: إنك ترى ما نزل بالناس منْ هذه الأزمة، وإن عمي وأخاك أبا طالب كثـ
العيال قليل المال، فهلم فلنأخذ من صغار بنيه اثنين: آخذ واحداً وتأخذ واحداً، فأجابه إلـ
ذلك، فأتياه، فأخذ النبي ﷺ علياً رضي الله عنه، وأخذ العباس جعفراً رضي الله عنه، فلـ
ينشب النبي ﷺ أن نبىء وهو في حجره؛ فدعاه إلى الإسلام فأجابه وهو ابن سبع سنين
وقيل: ابن عشر، أسلم بعد خديجة بثلاثة أيام، فصارت تلك الأزْمة سبباً لكرامته، وإلا لكا
كسائر إخوته؛ إذ منهم من ماتَ مشركاً كطالب، ومنهم من تأخر إسلامه إلى الفتح كعقيل.

وقولي: أسنتت بسكون السين يلحنه كثير ممن ينسب إلى الفصاحة فيقول: أَسَنَ بفتـ
السين، ومنهم من يقول: أسنت، وذلك كله لحن وتصحيف، بل وزنه (أفعل) بناء على أ
التاء لما صارتْ عوضاً من الواو المحذوفة اعتدوا بها وصيروها كأنها من نفس الكلمة، فاشتقو
منها[4] الفعل، كما نقل عن سيبويه، وأن يكونوا افتعلوا البنَاء على أن التاء لم يعتدوا بها وإ

---

(١) وهذه القصة أيضاً من الإسرائيليات التي لا سند لها حسب علمي.

(٢) وهذه القصة كالسابقة.

(٣) أسنتت : أي قحطت.

(٤) في (أ): منها، وفي (ب) منه، والأول هو الأصح.

صارتْ عوضاً لكونها غير أصلية، وإنما لم يردوه إلى الأصل فيقولون: أسنى القوم، بمعنى أجدبوا
لا يلتبس بقولهم: أسنوا في هذا المكان، إذ مكثوا فيه سنة، وهذا وإن نقل عمن له حذاقة في
هذا الفن فليس بقوي؛ لأن مرادهم الدلالة على القحط بقولهم: أسنت القوم فهم مسنتون،
السنة هكذا، فصار استعمالها في القحط أكثر من استعمالها في السنَة التي هي العام، ولو لم
يعتدوا بها وأنزلوها منزلة لام الكلمة لوجب حذفها عند الجمع في قولهم: هم مسنتون، كما
حذفوها في جمع سنة بمعنى العام على سنين بحذفها[1]، وإن كانت عوضاً فلم حذفوه من قولهم:
أكلتهم السنة، أي أذهبتهم شدة القحط، ولام السنة واو، لأنها مأخوذة من سنا يسنو، ثم
حذفت وعوض عنها التاء، واشتقوا منه أسنت بعد التعويض، أي: أسْنت القوم، بسكون
السين، وسن الرجل فهو سان: إذا سَنّ سنة.

قال الرسول ﷺ : ((من سن سنة حسنة فله أجرها.... الخ))[2]

وسن الرجل فهو مسن، إذا بلغ السن. واستن البعير فهو مستن إذا ركض طرباً وفرحاً.

قال الرسول ﷺ : ((ولو أنها قطعت طيلها[3] فاستنت شرفاً[4] أو شرفين))
الحديث[5].

وأسّنوا، بتشديد السين: أقاموا بالمكان سنةً فهم مسنتُون، وأسنت الجلد فهو مسنت:
إذا دبغ، وآسن فهو آسن: إذا تغير، ووسن فهو وسنان: إذا أخذته السِّنة، وهو النوم الخفيف،

---

(١) هذه الكلمة غير واضحة في النسختين، وأقرب شيء إليها (بحذفها) مع عدم مناسبتها تماماً.

(٢) حديث « من سن سنة حسنة الخ.. » صحيح رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه بألفاظ
مختلفة.

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٥٠٩ بلفظ ((من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر
من عمل بها إلى يوم القيامة؛ ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)).

(٣) طيلها: الطيل، بكسر الطاء: الحبل الطويل يربط فيه الفرس فيرعى مكانه.

(٤) شرفاً: مسافة من الأرض نحو الميل.

(٥) حديث « ولو أنها قطعت طيلها الخ » جزء من حديث طويل متفق على صحته رواه الشيخان.
وأوله: « الخيل لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر » وهو عند البخاري في كتاب المساقاة.

وأسنى المكان: إذا كثر به السَّنى. قال ﷺ: « لو كان للموت دواء لكان السنا »[1]. وقال
« عليكم بالسنا والسنوت »[2].

فالسنَا معروف، والسنوبت[3]: سمن تكون فيه خطوط من عسل أو رب؛ فهو خاص
كان في عكة الأعراب.

قَوله: رب قوى: فَرب عند جمهور البصريين حرف موضوع لإنشاء التقليل وقد تستع
للتكثير في مقام الافتخار كثيراً. واستدلوا على حرفيتها بأنَّها لإنْشاء التقليل، والأصل في الإنش
أن يكون بالحروف كما في الاستفهام والأمر والنهي والنداء؛ ولذلك لزمت الصدر فلا تَدخُ
عليها العوامل، ولو كان اسماً لدخلت حروف الجر عليه كما تَدخل على كم الخبرية؛ فلا تقول
برِب رجل أكرمت، ولا غلام رب رجل ضربت، كما تقول: بكم رجل مررت ؟ وغلام كم رج
اشتريت؟.

وتشكل حرفيتها بنحو قولهم: رب رجل كريم أكرمت؛ لأن حروف الجر موضوع
للإفْضَاءِ بفعل معنَاه آيل إلى مفعول لولاها لم يفض إليه؛ فأكرمتُ يتعدى بنفسه فلا يحتَاج إ
تعدية بحرف فإن زعموا أنه إنما عدي به لضعفه عن العمل بالتأخير كقوله تعالى: ﴿ **إن كن
للرؤيا تعبرون** ﴾ [يوسف: ٤٣]. قيل لهم: المُطَّرِد في مثله أن يتعدى الفعل باللام لما فيه م
معنى الاختصاص دون غيرها من الحروف الجارة.

وتشكل أيضاً بنحو قولهم: رب رجل كريم لقيته؛ لأن الفعل لايتعدى إلى المفعو
بالحروف وإلى ضميره بنفسه؛ فلا يجوز أن تقول: لزيد ضربته، ولا للرؤيا تعبرونها إجماعاً. فإ
زعموا أن (أكرمته) جملةٌ وقعت صفة للرجل والعامل في المجرور محذوف مقَدر بما يساعد علي
المعنى قيل لهم: هذا المقدر غير محتاج إليه لاستقامة معنى الكلام بدونه، فتقديره غير سائغ؛ عل
أن المعنى لايساعد على تقديره من غير لفظ ما ذكر بعده ومن غير معناه، فلقيتُه هو العامل

---

(١) حديث « لو كان للموت دواء لكان السنا الخ » صحيح أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد و
يخرجاه، ووافقه الذهبي (٤/٤٠٤) مستدرك. والله أعلم.

(٢) حديث « عليكم بالسنا والسنوت الخ » أخرجه ابن ماجه والحاكم، وأورده السيوطي في جامعه ورمز ل
بالحسن، وزاد: « فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام وهو الموت ». قال المناوي: قال الحاكم: صحيح، وتعقب
الذهبي بأن عمرو بن بكر اتهمه ابن عدي بأن له مناكير (٤/٣٤١).

(٣) السنوت: الكمون.

الضمير للمصدر المدلول عليه بالفعل لا للمجرور، كما قالوا في قول الشاعر: (من بحر البسيط)

هذا سراقة للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا إن يلقها ذئب

أي يدرس الدرس، ولقيت اللقاء. قيل لهم: هذا تخريج على ما هو قَليل الورود في كلامهم، ونَحو (رب رجل كريم لقيته) شائع فيه؛ فلا يسوغ ترجيح القليل النادر على الكثير الشائع. فإن زعموا أن (لقيتَه) صفة ثانيةٌ وهي مفسرة للقيت مقدر يعمل فيه قيل لهم: أجمعوا على أن ما لا يجوز أن يعمل بنفسه لولا شاغل شغله لايفسر عاملاً. وأجمعوا على أن الصفة لاتعمل في الموصوف ولا فيما تقدمه؛ فَلا يجوز أن نفسر عاملاً يعمل فيها. على أنه لم يثبت في كلامهم تفسير عامل المجرور بفعل ظاهر بعده؛ فلا يجوز أن يقال: بزَيد جاوزته، على التقدير مررت بزيد جاوزْته، بل زيداً مررت به على التقدير: جاوزت زيداً .

وعند الأخفش والكوفيين هو اسم موضوع لإنشاء التقليل كما أن (كم) اسم موضوع لإنشاء التكثير، وهما مضافان للنكرة بعدهما. وإنما لم تَدخل العوامل اللفظية على (رب) ولا يعمل فيها ما بعدها كما دخلت على (كم) وعمل فيها الفعل بعدها؛ لأن (رب) لما وضعتْ لإنشاء التقليل ضارعت أدوات النفي: في لزوم الصدر، وعدم دخول حروف الجر عليها، وعمل ما بعدها فيها. بل لزمت الابتداء؛ لأن عامله معنوي؛ فهي دائماً عندهم مبتَدأ لا خبر له كما في قولهم: أقل رجلٍ يقول ذلك إلا زيدٌ، إذ معناه: ما رجل يقول ذلك إلا زيد.

ومثله قول المتنبي: (من بحر المديد)

غير مأسوف على زمن ينقضي بالهم والحزن

والمعنى لاتأسف على ما هذه الصفة صفته، فلما استقَام المعنى بدون وجود اللفظ ولم يتوقف على تقديره وجب الاستغناء عنه كما في قولهم: أقائم الزيدان، وذلك أن قولنا: رب رجل لقيته، قَليل من هذا الجنس. وكثيراً ما تطلق القلة ويراد بها النفي لاستلزامها إياه؛ ولذلك كان لها الصدر، ولا يتقدم عليها عامل لفظي؛ فوجب أن يكون المعنى: ما لقيتُ من هذا الجنس إلا رجلاً واحداً، لأنه جواب لقول من قال: هل لقيتَ أحداً ؟ وهذا المعنى تَام في نفسه من غير أن يتوقف على تقدير شيء.

ويؤيده ما يحكى عن أبي عمرو بن العلاء أن (رب) لاعامل لها لأنها ضارعت النفي، والنفي لايعمل فيه عامل، ولكونها بمعنى النفي التزموا أن يصفوا مجرورها بجملة فعلية، كقولهم:

رب رجل لقيته، ورب غلام اشتريته؛ لأن النفي يطلب الفعل طلباً حثيثاً، كما التزموا ذلك
قولهم: أقل رجل يقُول ذلك إلا زَيد؛ ولذلك وصفَ المتنبي زمناً في قوله:

غـــير مــأســوف عــلى زمن

بجملة فعلية؛ لأن المعنى لا تتأسف على زمن ينقضي متلبساً بالهموم والأحزان. لكن
(رب) لما كانت تستعمل في معنى الكثرة على وجه الاستعارة كثيراً خرجت لذلك على معنى
النفي؛ فجاز في مجرورها أن يوصف بجملة اسمية، كقول الشاعر:

يارب هَيْجا هي خير من دَعَهْ

أو باسم مفرد كقوله ﷺ : « رب كاسيات في الدنيا عاريات يوم القيامة ».
والأكثر الأفصح في كلامهـم أن يوصف مجرورها بجملة فعلية مراعاة لأصلها وإن
استعيرت للتكثير، كقول الأعشى: (من بحر الخفيف)

رب رفـد نصـعتـه ذلك اليَـوْ   م وأسـرى من معشـر أقيـال

وقول امرىء القيس: (من بحر الطويل)

ألا رب مكـروب كررتُ وراءه   وطـاعنت عنـه الخيـل حتى تَنَفَّسَـا

قَولي: مجرور برب على أنها حرف جر هو مذهب سيبويه والبصريين، وبالإضافة إلى
مذهب الأخفش والكسائي والكوفيين. آض: فعل ناسخ. القواء: اسمه. وغمى: خبره، والجملة
الفعلية صفة لمجرور (رب)، والباء من به: سببية، والضمير راجع على قوى. وقد: حرف تحقيق.
كان: ناقصة، اسمها غماء. منهم: شبه جملة في محل خبرها والقحوط : جمع قحط مضاف
لمحذوف دخل عليه حرف الجر ، وهو زمن القحوط ، متعلق بالكون. وهو مقتبس من قوله
تعالى: ﴿ **قل سيروا في الأرض فَانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل** ﴾ [الروم: ٤٢]
ففي ذلك زاجر لكم عن الانهماك في شهوات الدنْيا والاغترار بعزها، فإنهم كانوا كما كنتم بل
أشد قوة وآثاراً، وستعودون كما عادوا، وتَبيدون كما بادوا.

قال الشاعر وهو عمرو بن الحارث الجرهمي: (من بحر البسيط)

يا أيها النـاس سـيروا إن قَصدكُم   أن تصبحـوا ذات يوم لاتسـيرونـا
حثـوا المطـايـا وأرخوا من أَزِمَّتِهـا   قبـل الممـات وقضـوا مـا تُقَضُّـونـا
كنـا أنـاسـاً كما كنـتم فَغَيَّـرَنَـا   دهـرٌ فـأنـتم كما كنـا تكـونـونـا

كان الله لنا في الحالتين، آمين.

* * *

باب

ما يكسر فيقصر ويفتح فيمد مع اختلاف المعنى

يعني أنه إذا كسر قُصر ولا يمد، وإذا فتح مد فَلا يقصر، فغاية المكسور أن يكون مقصوراً، وغاية الممدود أن يكون مفتُوحاً؛ فلا مد لمكسور، ولا قَصر لمفتوح؛ فهو عكس الباب الذي قبله؛ لأنه قدم في هذا الباب المكسور فقصره، وأخر المفتوح ومده.

فقال:

٨ ــ سِوَى مَسْلَكِ الأَبْرارِ يَمِّمْ سَواءَهُ   فِـدَاكَ نُفُــوسٌ عَــافَهُــنَّ فَدَاءُ

قوله: سوى، بالكسر والقصر: عبارة عن نفس الشيء أو عينه، وهي لغة نادرة من باب تسمية الشيء باسم نقيضه لم تسمع إلا في الشعر، كما قيل: (من بحر الرجز)

كأنهــا نَــائحــة تفجــع   تبــكـي لميت وســواهــا مــوجع

أي نفسها موجعة.

ومنْه قَول حسان بن ثابت: (من بحر الطويل)

أتَــانــا ولم نعــدل ســواه بغــيره   فجدنـا له بـالنفس والمـال والنَّســلِ

أي لم نجعل لنفس النبي ﷺ عدلاً أي مساوياً يماثله في المودة والإكرام والطواعية.

والعدل، بفتح العين وقد تكسر: أحد جانبي الحمل، والحمل بالفتح أيضاً، وقد تكسر، قال الله تعالى: ﴿ **ولمن جاء به حمل بعير** ﴾ [يوسف: ٧٢]. قال المبرد: إذا أريد به عدل الحمل فتح، وإذا أريد به إحدى الغرارتين كسر.

وسواء، بالفتح والمد: وسط الطريق. قال موسى عليه السلام: ﴿ **عسى ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾ [القصص: ٢٢]، وقال الله تعالى: ﴿ **فاطلع فرآه في سواء الجحيم** ﴾ [الصافات: ٥٥] والفدا، بالكسر والقصر: جمع فدية، وهو ما يفتدى به. قال الله تعالى: ﴿ **فاليوم لا يؤخذُ منكم فدية ولا من الذين كفروا** ﴾ [الحديد: ١٥].

وقال ﷺ : ((لا فدية في الإسلام ولا سباء)).

ولما هزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر فَقَتَل سبعين من أشرافهم وأسر سبعي
اختلف أصحابه ﷺ ؛ فمنهم من كان هواه قَتلهم، مِنْهم عمر وسعد بن معاذ، ومنهم من كا
هواه الإبقَاء عليهم، منهم أبو بكر، وكان ذلك هوى رسول الله ﷺ ، ومنهم من كان هواه أخ
الفداء لفاقة المهاجرين وإبقاء على قومه. وكان الفداء أربعمائة درهم عن كل أسير، فلما تَ
الأمر نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لَمَسَّكم فيا أخذ
عذاب عظيم** ﴾ [الأنفال: ٦٨] فهذه الآية من جملة الآي التي وافق الله فيها رأي عمر
فتقنع النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وجعلا يبكيان، فأتاهما عمر رضي الله عنه فقال لهما
مالكما تَبكيان ؟ فقال له رسول ﷺ : كاد العذاب أن ينزل لأخذنا الفداء واستبقا
المشركين. فخير النبي ﷺ أصحابه بين أخذ الفداء ويقتل منهم العام القابل عدد الأساري
وبين أن يتركوا الفداء ولا ينال المشركون منهم نيلا، فاختاروا أخذ الفداء على أن يُقتل منه
العام القابل مثلهم، قالوا: ما نكره من الشهادة مع ما نتقوى به على جهاد العدو من الفداء
فقتل منهم بأحد سبعون.

فإن قلت: ما وجه كراهة الله الفداء والإبقاء مع أنه لو شاء لنسخه كما نسخ سائ
الأحكام ؟

قلت: الوجه فيه أن ذلك وافَاهم وقد أمضوا القضية فيكون في نقضها أمران محذوران
أحدهما: نقض العقود بعد إبرامها وتوكيدها وذلك ممنوع في سائر الشرائع.

الثاني: القتل بعد التأمين وهو أيضاً محرم لما فيه من إيهام الغدر؛ فبين الله لرسوله وأوليائ
ما هو أولى، ثم أبرم أمره وأمضى حكمه مع ما قضى في سابق علمه أنه سيكون: من إباحة
الفدية والغنائم لهذه الأمة، وقتل من قتل بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولما في ذلك من
التسلي لهم إذ قد تسببوا له ورضوا به قبل وقوعه.

ولقد كان في هزيمة أحد وما أصاب المسلمين من الفوائد والتأييدات مالا يدخل تحت
حصر؛ منها: تمحيص المسلمين، وكرامة من مات منهم بالشهادة، وكسر ساحة أنفسهم؛ لأنهم
لما هزموا جموع فهر ببدر أشرت[1] نفوس من لافقه له منهم« فظن أن ذلك لشدة بطشهم

(١) أشر: بطر ومرح، والبطر غير وارد في حق الصحابة حتى قليلي الفقه منهم، والله أعلم.

وبسالتهم، فلما أصابهم ما أصابهم يوم أحد انكسرت أفئدتهم، فتاب الله عليهم لأنه عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

ومن الدلائل على أشر أنفسهم ما روي أن رسول الله ﷺ لما فصل من بدر فبلغ الروحاء[1] لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش: لا تهنئونا به، فوالله إنْ لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعقلة فنحرناها؛ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: يابن أخي أولئك الملأ، ولكن وقى الله شرهم وأعان عليهم بجنود السماء.

ومنها أن المنافقين كانوا يكتُمون نفَاقهم قبل وقعة أحد، فلما وقعت أظهروا الشماتة وبينوا ما كان في ضمائرهم، فعلم المسلمون أن لهم عدوّاً بدارهم.

ومنها أنه كان سبباً لنقض يهود ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من المواثيق، فأفاء الله على رسوله أموالهم، فقتل قريظة على دم واحد، وأجلى النضير وقينقاع وهذيلاً إلى أذرعات وخيبر.

وحكمة الله اقتضت أن ينال من الرسول أولاً ثم ينالون، وذلك أنهم لو نُصروا دائماً لدخلهم من ليس منهم، ولو كسروا دائماً لذهبت فائدة الرسالة.

وقوله: فداك: يحتمل أن يكون منصوباً على أنه مفعول لجعل محذوف، ونفوس مفعوله الثاني، فتقول: جعل الله فداك نفوساً، وهو مصدر بمعنى الدعاء، فتقول: فداك، بالإضافة، وتقول: فدى لك، فَإذا أضيف عمل فيما بعده، وربما جيء به بدلاً من فعله، ويكثر ذلك في المصادر اللائي بمعنى الدعاء، كقول الخنساء بنت الشريد: (من بحر الوافر)

فـدى للفَـارس الجشـمي نفسـي وأفـديـه بمـالي من خـليـل[2]

ومنه: سحقاً وبعداً وجدعاً وسقيا وغَوثاً وريثاً وخبثاً ولا كرامة وتبّاً ورويداً ومهلاً وسهلاً وأهلاً، إلى غير ذلك، وإن شئت رفعت (نفوس) على أنها فاعل للمصدر المحبوس بالإضافة، كقول الشاعر: (من بحر البسيط)

أفـنى تـلادي ومـا جمعتُ من نَشَبِ قـرع القـواقـيز أفواهُ الأبـاريقِ[3]

(٢) الروحاء: بئر بين المدينة وبدر، وهو عن المدينة قرابة ٧٠ كيلو متراً.

(٢) هذا البيت في النسختين هكذا، وهو غير موجود في ديوان الخنساء المطبوع. والجشمي: ربما كان معناها النِّسْبَة إلى تجشم الأمور الصعبة أي تحملها.

(٣) القواقيز: الكؤوس الصغار، وفي بعض النُّسخ: القوارير.

على القول برفع أفواه وهو مذهب المبرد وابن جني، وهو مشكل، وإن شئت قلت
نفوس: مبتدأ مؤخر، وفداك: خبره، وسوغ الابتداء به كونه موصوفاً. وكثر استعمال التفدي
حتى صار الرجل يقول لصاحبه: إلي أو هلم يا فديتك ويا فِدىً لك، وربما استغنوا عنه بمتعلق
فيقتصرون على قولهم: بأبي أنت، أو بأبي أنت وأمي، وربما اقتصروا على بأبي، ويقولون: فداك
أبي، ولا يفدى عندهم إلا السري[1]. والمفدون سعد بن أبي وقَّاص الزُّهري، وفاطمة بنت
محمد ﷺ ، وبشر بن الحارث الأنصاري، وعلي يوم قتل عمرو بن عبدود[2] .

أي وقاك من كل مكروه يجري به الزمان بنفوس خبيثة عافهن عن تَيمم. أي قصد
سبيل، كل بر من السلف والخلف، المشمرين خوف الوقوع في التلف. فداء، بالفتح والمد: كل
مائدة وضع عليها ألوان من الأطعمة مما يتباهى به من لا خلاق له من التمر والعسل والثريد
والسُّكر والزبيب والإسفنج[3]، وربما صَفَّروا بعضه بالزعفران .

قال الشاعر: (من بحر الوافر).

كأن فَـــــداءه إذ جــــــردوه وطــــافـوا حــوله ســـك يتــيـم[4]

وفيه من البديع التجريد، وهو أن يجرد الإنسان من نفسه شخصاً يخاطبه، فكأنه يقول
له: أيها الأخ في الله ، انتخب نفس مسلك الأبرار، والمسلك: هو الطريق الأرحب. والأبرار:
الأخيار من كل جيل، واحدهم بر، بغير ألف، ولا تقتصر على مجرد السلوك،بل يمم، أي
اقصد، وسطه، وكن من خيار أهله، ولا يمنعك من ذلك ما منع اللئام المنْهمكين في طلب ما
ضمن لهم، المقَصِّرين في تَحصيل ما وكل إليهم.

قال ابن عطاء الله : اشتغالك بما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك دليلٌ على طمس
البصيرة. نَسأل الله أن يعافينا من ذلك.

والبيتُ مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **ويتَّبِعْ غير سبيل المؤمنين نُولِّهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جهنَم**

---

(١) السري: السيد، والنهر الصغير.

(٢) فدَى النبي ﷺ علياً يوم قتل عمرو بن عبد ود في الخندق، وسعد فُديَ يوم أحد، وفاطمة رضي الله عنها في مناسبات عدة.

(٣) الإسفنج: كائن بين النبات والحيوان بحري، ولايوضع عادة على الموائد.

(٤) السك هنا: الدرهم، يتيم فريد، هذا مع أن للسك معاني كثيرة، منها: البئر الضيقة، والطيب، وغير ذلك.

وساءت مصيرا ﴾ [النساء: ١١٥] ولما تبرأت الروافض-قالوا لابن عمر وقد حاورهم: نَبِّئْنا بما يدل على وجوب تَرليهم من كتاب الله ؛ فقال لهم: قوله تعالى : ﴿ ويتّبع هير سبيل المؤمنين ﴾ [النساء: ١١٥] إلى آخر الآية، فأفحموا؛ فتاب منْ تَاب منهم.

عافهن فداء: فعل وفاعل، والضمير مفعول به، والجملة الفعلية نعت لنفوس.

فإن قلت : مم اشتق الفداء ؟

قلت : من الفد ، وهو رفع الصوت بالدعوة به ، وقيل لرفع أصوات رعاع النَّاس وغنائهم حوله . ومن ذلك قوله ﷺ : ((الكبر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر[1])) .

وقال الشاعر : (من بحر الوافر)

إذا مـــاجئت حَيَّـــهــــمُ بخصبٍ	تَجــدْ أغنـــامَهـــم ولهـــا فـديـدُ
فَـلا أضـيـــافُهـــم يجـدون رحبـــاً	ولا للجـــار عـنــدهـــم مــزيــدُ
فسحـقـــاً ثم سحـقـــاً ثم سحـقـــاً	وليت دونهـــم أمـــداً مـــديــدُ[2]

ثم قَال رحمه الله :

٨٩ ــ وحِدْ عَنْ عِنَى ٱلأهْواءِ تُكْفَ عَنَاءَها فَعِــزُّ العِــزَى أَنْ يُسْتَــدامَ عَــزَاءُ

فقوله : حد ، أي مل وانحرف . قال تعالى : ﴿ وجاءتْ سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد ﴾ [ق : ١٩] أي تنْفِر وتفر . عن : حرف جر متعلق بحد . وعنى ، بالكسر والقصر : حافة الشيء وناحيته والقصد إليه ، تقول : عنيت كذا : قَصدته دون غيره .

يروى أن مروان بن الحكم أيام ولايته على المدينة وقف يوماً على الحسن رضي الله عنه ، فجعل يسب عليّاً رضي الله عنه والحسن معرض ، فقال له مروان : إياك عنيتُ ؛ فقال الحسنُ : وعنك أعرضت ؛ فخجل مروان وانصرف ، وقد فهم أن الحسن يعرض له بقَوله تعالى : ﴿ ﴿وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩] فاقتص منه من غير فحش بل بمجرد الفحوى والعناء ، بالفتح والمد : التعب . والعزى ، بالكسر والقصر : جمع عزة ، وهي الفرق الضالة ، قَال الله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ [المعارج : ٣٧] . والعزاء بالفتح والمد : الصبر ، وإذا أطلق فهو التصبر عن الميل . قَال الشاعر : (من بحر الطويل)

---

(١) حديث «الكبر والخيلاء الخ» جزء من حديث صحيح ، وقد تقدم (ص ٥١)

(٢) الشطر الثاني من البيت مختل الوزن والإعراب .

تَعَزّ فلا شيءٌ على الأرض باقيا ... ولا وَزَرٌ مما قضى الله واقيا

وقال غيره : (من بحر الطويل)

تَعَزَّ فما لما قضى الله دافع ... ولاشيءَ في دهمِ المنية نافعُ

قَوله : فعزُّ العِزَى : وهو الانتساب إلى مذهب من المذاهب ؛ إما أن يكون إلى آبا
الحق والحقيقة ﴿ **من الذين أنعم الله عليهم من النبيينَ والصديقين والشهداء والصالحين** ﴾
[النساء : ٦٩] ، ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالعزاء الذي هو الصبر بأنواعه الثلاثة ؛ فيحص
حينئذ عز الاعتزاء بسبب كونك محقاً غير مبطل ؛ إذا المنتسبون منهم محق وهو المقتفي المصا
الصابر ، ومنهم المبطل ، وهو المدعي المخلف المدابر ، ومنهم المقتفي لأهل الأهواء ، الطال
للهباء ، فَسعيه باطل وقَصده عاطل ، وهم أهل الأهواء الذين يتبعون ماسولت لهم به أنفسه
من غير هدىً من الله أتاهم ، ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله إن الله لايهد**
القوم الظالمين ﴾ [القصص : ٥٠] ، فهذه الآية وإن نزلت في المشركين فإنها تشمل أه
الأهواء من الخوارج والرافضة والشيعة والقَدرية والجبرية والمرجئة والزيدية والصفرية والمعتز
والإباضية والإسماعيلية[1] وغير ذلك من أهل البدع ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : ((افترق
اليهود إلى سبعين فرقة ، وافترقت النصارى إلى إحدى وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي إلى اثنت
وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة وهي الناجية ، فقالوا : يارسول الله ، أخبرنا ع
الواحدة، قال: الذين اتبعوا ماأنا عليه وأصحابي[2])) .

---

(١) هذه كلها فرق تنتسب إلى الإسلام وكل فرقة تدعي أنها على صواب وأن ماسواها من المسلمين ض
ومنحرف .

والحق أن كل فرقة تمسكت بسنة رسول الله ﷺ فهي ناجية ، وعلى قدر بعدها من السنة تقرب
الضلال ن والله الهادي إلى سواء السبيل .

(٢) حديث «افترقت اليهود إلى سبعين فرقة الخ» صحيح ، اخرجه الأربعة والحاكم وابن حبان بألفا
كثيرة ، وصححوه . كما أورده السيوطي تحت رقم ١٢٢٣ بدون ذكر «كلهم في النار» .

قال المناوي : قال الزين العراقي : اسانيده جياد . ورواه الحاكم من عدة طرق . ثم قال : هذه أسانيد تقوم
الحجة ، وعده المؤلف من التواتر (٢/٢٠) ف .

وأورده بلفظ آخر صاحب الكشف تحت رقم ٤٤٦ وأورد له طرقاً كثيرة وألفاظاً مختلفة منها ، قال : رأي

وقال ﷺ ((الخوارج كلاب النار)) .

وقال ﷺ في شأن ذي الخويصرة لما قال لرسوله الله ﷺ عندما أعطى المؤلفة قلوبهم : اعدل يامحمد ؛ فإني أرى قسمة ماأريد بها وجه الله ؛ فتلون وجه رسول الله ﷺ وقال : من يعدل إن لم أعدل ؟! فقال له أصحابه : دعنا يارسول الله نضرب عنقه ؛ فقال : ذروه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاتَه مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم ، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، وإنه يخرج من ضِئضِئ هذا الرجل أقوام هم أشد على أمتي من الروم ، ولو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد . ثم التفَتَ إلى علي فقال : هذا وشيعته تقاتلونهم حتى تقتلوا ذا الثدية ، فقالوا وماذو الثدية ؟ قال : رجل يده كثدي المرأة تدر دراً[1] .

فقال أبو هريرة : أشهد لقد سمعته من رسول الله ﷺ ، ولقد قاتلتهم مع علي ، فَلما قتلناهم أمر علي بالتماسه في القتلى ؛ فالتمسناه ؛ فوجدناه في القتلى : فجئنا به إلي علي ، فجمع الصحابة حتى رأه ؛ ليكونوا على بصيرة من أمرهم ، وليروا هذا العلم من أعلاه نبوته ﷺ ، ليزدادوا إيماناً ويقينا ؛ فرفعوا عند رؤيته أصواتهم بالتكبير .

وأما قوله تعالى : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء** ﴾ [الأنعام : ١٥٩] فالمشهور أنها نزلت فيهم .

ومعنى قول الناظم : وحد ، أي : مل عن سبلهم إلى اتباع سنة الرسول . وصالح السلف تكف معاناتها ، وتكف التعب والمشقة النَّاشئين عن تلك الأهواء عاجلاً وآجلاً ، إذ هم قد تكلفوا من تلقاء أنفسهم ما لم يأت النَّبِيُّ به ، ولاسنَّه أصحابه من بعده ، ولولا أن القرآن محفوظ لحرَّفوه ، بل حرفوا معانيه بحسب أهوائهم الفاسدة ، وكان غرضهم إبطال الدين وذهاب أصله بتكفيرهم أصحاب رسول الله ﷺ ، إذ هم حملوا الينا الكتاب المبين ، وبلغوا

في هامش الميزان مذكوراً في تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر بلفظ : «تفترق أمتي علي بضع وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا واحدة وهي الزنادقة» أهـ ، وأسنده (١٦٩/١) .

قلت : والتوفيق بين الروايتين إن صحت الثانية أن أهل الجنة في الرواية الثانية مآلاً ، أي مآل الفرق الجنة إلا واحدة ، والله أعلم .

(١) حديث ذي الخويصرة متفق على صحته ، رواه الشيخان وغيرهما بألفاظ كثيرة باستثناء قوله : «أقوام هم أشد على أمتي من الروم .. إلى ثم التفت إلى علي فقال : هذا وشيعته تقاتلونهم» فهذا القدر لم أجده في الروايات الصحيحة ، والله أعلم .

لنا السنة والدين . وقارعوا عنه الزحوف حتى أذاقوهم الحتوف ، وجردوا السيوف طلباً لمرضا
الله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا حتى أتاهم اليقين ، فلا يغيظون إلا كافراً مكابراً ، وبذلك
استدل مالك على كفرهم[1] . فمن لم يتبع سننهم وعصى أمرهم فقد دخل في زُمرة الأذلين .
ومن لم يحبهم ويتولهم فهو في سواد المنافقين .

قال الرسول ﷺ : ((احفظوني في أصحابي لايطالبكم الله بحقهم ، فإن الذنب فيهم
ليس كالذنب في غيرهم ، فإنه ليس مما يتركه الله)) .

وقال ﷺ : ((إذا ذكرتم أصحابي فاذكروهم بخير أو أمسكوا ، وإذا ذكرتم القدر
فأمسكوا)) .

وقال : ((أصحابي يهفون من بعدي هفوة تغفر لهم بصحبتي وسابقتهم ، وإنه يأتي من
بعدهم أقوام يترخصون للقتال بما وقع بينهم ؛ فيكبهم الله في النار على مناخرهم[2])) .

وقال : ((أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم[3])) .

وقال : ((أنا أمان لأصحابي ، فإذا مت أتى أصحابي مايوعدون)) .

وفي الصواعق المحرقة للسيوطي[4] قال : قال رسول الله ﷺ : ((لحوضي أربعة أركان :
فأبو بكر رضي الله عنه على ركن من أركانه ، وعمر رضي الله عنه على ركن ، وعثمان رضي الله

---

(١) الضمير عائد على الخوارج ، والخلاف فيهم مشهور .

(٢) هذه الأحاديث الثلاثة لم أجد لها سنداً عن النبي ﷺ .

(٣) حديث «أصحابي كالنجوم الخ» موضوع ، رواه ابن عبد البر : في جامع العلم (٢/٩١) ، وابن حزم في الأحكام له (٦/٨٢) .

وقال ابن عبد البر : هذا إسناد لاتقوم به حجة . وقال ابن حزم : هذه رواية ساقطة ، أبو سفيان ضعيف ، والحارث بن غصين هو أبو وهب الثقفي ، وسلام بن سليمان يروي الأحاديث الموضوعة ، وهذا منها بلا شك . أ هـ .

وقد أورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٥٨ وحكم عليه بالوضع وقال ، الحمل في هذا الحديث على سلام بن سليم ، ويقال : ابن سليمان ، وهو الطويل ، فإنه مجمع على ضعفه ، بل قال ابن خراش : كذاب ، وقال ابن حبان : روى أحاديث موضوعة (١/٧٩) .

قلت : أبو سفيان ليس ضعيفاً كما قال ابن حزم بل هو صدوق كما قال الحافظ في التقريب ، وقد أخرج له مسلم في صحيحه ، والله أعلم .

(٤) الصواعق المحرقة ليس للسيوطي وقد تقدم ذلك في (٤٤)

عنه على ركن ، وعلي رضي الله عنه على ركن ، فمن أحب أبا بكر وأبغض عمر لم يسقه أبو بكر ، ومن أحب عمر وأبغض أبا بكر لم يسقه عمر ، ومن أحب الشيخين وأبغض عثمان لم يسقه الشيخان ، ومن أحب عثمان وأبغض الشيخين لم يسقه عثمان ، ومن أحب علياً وأبغض عثمان لم يسقه علي ، ومن أبغض علياً وأحب عثمان لم يسقه عثمان ، ولايشرب من حوضي إلا من أحب جميع أصحابي[1])) .

وقال : ((حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي واجب كوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج[2])) .

الإعراب : حد : فعل أمر . عن عِنَى : جار ومجرور . الأهواء : مضاف إليه ماقبله . فالتقدير : حد عن أهل الأهواء ، أو عن طريق الأهواء ؛ إذ الأهواء أمور معنويةٌ لايسند إليها بالاستقلال . تكف : مبني للمجهول ، وهو جواب الأمر ، نائبه مستتر . عناءها : مفعول لتكف ومضاف . فعز العزى : مبتدأ ومضاف إليه ، والفَاء سببية . أن يستدام : أنْ مصدرية ناصبة ليستدام : مركب للمجهول ، ونائبه عزاء . والجملة خبرية ، فَهو مبتدأ ثان لأنه يفهم من سياق الكلام ، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ ، فهو في قوة قولك : عز العزى هو استدامة العزاء .

وبالجملة : فالصبر محمود إلا عن رسول الله ﷺ . قال الشاعر (من بحر الكامل)

والصبر يحمد في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لايحمد

ولذلك قال : ((من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني ، وليس من حقي أن أجفى[3])) .

(١ و ٢) حديث «لحوضي أربعة أركان الخ» وحديث «حب أبي بكر وعمر الخ» لم أجد لهما سنداً ثابتاً عن النبي ﷺ .

(٣) حديث «من حج البيت فلم يزرني الخ» موضوع ، رواه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء وفي غرائب مالك للدار قطني .

وقال الذهبي في الميزان : موضوع (٣/٢٣٧) ، كما أورده الصغاني في موضوعاته ، والزركشي وابن الجوزي والشوكاني . وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٤٦٠ ورقم ٢٦١٢ وقال عند الرقم الأول بعد إيراد كلام ابن حجر فيه : ومع هذا فلا ينبغي الحكم عليه بالوضع فتدبر . وقال عند الرقم الثاني بعد إيراد النقول عنه : ولايصح

ملحوظة :

(وليس من حقي أن أجفى) لم أجدها ، والله أعلم .

يروى أن زيد بن حارثة كان شديد الحب لرسول الله ﷺ ، قليل الصبر عنه ، فجاءه يوماً وكان قد نزفه الدم ، فقال له : مالك يازيد ؟ قال : مابي من مرض إلا أني إذا غبت عن عيني استوحشتُ فلا يسكن جأشي حتى أراك ، ثم أنشأ يقول : (من بحر الوافر)

الا ياصاحب الوجه المليح — بحقك لاتغب فأنت روح
إذا ماغاب وجهك عن عياني — عُدِمتُ فلا يُرى إلا ضريح
فراق مُغْرَمٍ في الحب أمسى — وأصبح ذا أسى دَنِفاً طريح
محب ضاق بالأدواء ذرعاً — وآوى منك للكرم الفسيح

فقال له رسول الله ﷺ : ((أبشر فَأنت معي في درجتي يوم القيامة)) .

ويروى أنه كان رجل من الأنصار قلما يفارق مجلس رسول الله ﷺ ، وكان لايجلس إلا قُبالةَ وجهه ؛ فلا يزال يتأمل وجهه الشريف ، فقال له رسول الله ﷺ : مالي أراك تتأمل وجهي كثيراً ؟ فقال : أتَمَتَّع بالنظر إليك في الدنيا قبل يوم القيامة فإني أخاف أن لاأراك ، فَإن دخلتُ النار فإني لاأراك أبداً ، وإن دخلتُ الجنة كنتَ في درجات الأنبياء وكنتُ في درجة دون ذلك ، فسكت رسول الله ﷺ حتى نزل عليه قوله تعالى : ﴿ **أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً** ﴾ [النساء : ٦٩] فتلا عليه رسول الله ﷺ الآية . فما فرح أصحاب رسول الله ﷺ بشيء فرحهم بهذه المعية الشريفة .

وهناك معية أشرف من هذه وهي قوله تعالى : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ [النحل : ١٢٨] إلا أن بينهما مغايرة : فالنبوة تقتضي المكان ، بخلاف الربانية فإنما هي بالنصر والمعونة . وقيل : بالمكانة لا بالمكان .

يروى أن النبي ﷺ قال : ((حُبّب إليَّ من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة[1])) .

وقال أبو بكر : حبب إلي يارسول الله ثلاث : النظر إليك ، والجلوس بين يديك ، وإنفاق المال عليك .

---

(١) حديث «حبب إلي من دنياكم ثلاث الخ» سبق تخريجه في ص (٧٥) ، وقد اتفق الحفاظ على أن كلمة (ثلاث) ليست من الحديث ، والله أعلم .

وقال عمر : حبب إلي يارسول الله ثلاث : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .
ذلال أهل الشرك .

وقال عثمان : حبب إلي يارسول الله ثلاث : تلاوة القرآن ، ومداومة الإحسان .
واساة الإخوان .

وقال علي كرم الله وجهه : حبب إلي يارسول الله ثلاث : صيام الصيف وإكرام
ضيف ، والضرب بين يديك بالسيف .

ومن علامة فضيلة أبي بكر أن كان جميع ماحبب إليه في رسول الله ﷺ ، فهو حبّه
خليفتُه دون مدافع ومن غير نزاع .

قال محمد بن إسحاق : لما توفي رسول الله ﷺ ، وارتفعت الرنة ، وسجي ، دهش
س ، كما روي عن غير واحد من الصحابة ، وطاشت عقولهم ، وأفحموا ، واختلطوا ؛ فمنهم
خبل ، ومنهم من أصمت ، ومنهم من أقعد ، فكان عمر رضي الله عنه ممن خبل ، فجعل
يح ويقول : إن رجالاً يقولون ماتَ رسول الله ﷺ ! والله مامات رسول الله ، ولايموت
ى يقطع أيدي رجال وأرجل آخرين ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد
ب عن قومه أربعين ليلةً ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . وأما عثمان بن عفان فقد
مت حتى جعل يُذْهب به ويجاء ولايتكلم . وأقعد علي رضي الله عنه فلم يستطع حراكاً ،
ضني[1] عبد الله بن أنيس فمات مكانه، وبلغ الخبر أبا بكر وهو بالسنح[2] ؛ فجاء وعيناه
لان . وزفراته تتردد في صدره، وغصصه[3] ترتفع كقطع الحجارة، وهو في جميع ذلك جلد
ل والمقالة، حتى دخل على رسول الله ﷺ ، فأكب وكشف عن وجهه، فمسحه، وقبل
ينه، وجعل يبكي ويقول:

بأبي أنتَ وأمي ، طبتَ حيّاً وميتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء ؛
ظمت رزيتك عن الصفة ، وجلت عن البكاء ، وخصصت حتى صارت مسلاة ، وعممتْ
ى صرنا فيك سواء ، ولو أن موتك كان بالاختيار لجدنا عنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت

---

(١) أضني : مرض .

(٢) السنح ، بضم السين : موضع بالعوالي جنوب شرق المدينة .

(٣) غصصه : أي شيء أعترض في صدره .

عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشجون ، وأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وحزن يتخالفا
لايبرحان ، اللهم فأبلغه عنا السلام ، اذكرنا يامحمد عند ربك ، ولنكن منك على بال ، فلو
ماخلفت من السكينة لم نقم بما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا السلام ، واحفظ
فينا .

ثم خرج إلى الناس وهم في عظيم غمراتهم ، وشديد سكراتهم ، فقام فيهم بخطبة ، جله
الصلاة على النبي ﷺ ، ثم قال :

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه
وأشهد أن الكتاب كما أنزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال
وأن الله هو الحق المبين .. في كلام طويل . ثم قال:

أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد ماتَ ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي
لايموت ، وإن الله قد قدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً ، قال الله تعالى : ﴿ **وما محمدٌ إلا
رسولٌ قد خَلَتْ من قَبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتهم على أعقَابكم ومن ينقلب على
عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، وإن الله
سبحانه قد اختار لنبيه ﷺ ماعنده على ماعندكم ، وقبضه إلى جواره ، وخلف فيكم كتاب
وسنة نبيه ؛ فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر ، ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين
بالقسط** ﴾ [النساء : ١٣٥] ، ولايشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولايفتننكم عن
دينكم ؛ فعاجلوا الشيطان بالخزي تعجزوه ، ولاتستنظروه فيلحق بكم .

فلما فَرغ من خطبته التفَت إلى عمر فقال : ياعمر ، أنت الذي بلغني عنك أنك تقول
على باب رسول الله ﷺ : والذي نفس عمر بيده مامات نبي الله ؟! أما علمت أن رسول الله
ﷺ قال يوم كذا : كذا وكذا ، وقال الله في كتابه : ﴿ **إنك ميتٌ وإنهم ميتون** ﴾ [الزمر
٣٠] ، فقال عمر : والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قَبل ذلك اليوم لِمَا نزل بنا ، أشهد أ
الكتاب كما أنزل ، وأن الحديث كما حدث ، وأن الله حي لايموت ، صلوات الله على رسو
وعند الله نحتسب رسوله .

ولما سري عن عمر وأيقَن بوفاة رسول الله ﷺ بقول أبي بكر وقع إلى الأرض لاتحمل
رجلاه ، فقال : (من بحر الطويل)

لعمري لقد أيقنتُ أنك ميتٌ ولكن ماأبدى الذي قلته الجزعْ
وقلت يغيب الوحي عنا لفقده كما غابَ موسى ثم يأتي كما رجعْ
وكان هوائي أن تطول حياتهُ وليس لحيٍّ في بقا ميتٍ طمَعْ
فلما كشفنا البرد عن حُرِّ وجهه إذا الأمر بالجزع المرعب قَد وقَعْ
فلم تك لي عند المصيبة حيلةٌ أرد بها أهلَ الشماتة والفَزعْ
سوى أذان الله الذي في كتابه وماآذنَ الله العبادَ به وقعْ[1]
وقد قُلت من بعض المقالة قولةً لها في حلوق الشامتين بها شيعْ
ألا إنما كاّن النبي محمدٌ إلى أجل وافى به الموتُ فانقطَعْ
ندين على العلات منّا بدينه فنعطي الذي أعطى ونمنعُ مامَنَعْ
فوليت محزوناً بعين سخينة أكفكف دمعاً والفؤادُ قد انصدعْ
وقُلتُ لعيني كل دمع خَزَنْتِهِ فجودي به إن الشجى له دفَعْ

وذكر موسى بن عقبة أن المقام الذي قام به أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد الذي كان من عمر رضي الله عنه من القول هو أنه خرج سريعاً إلى المسجد يَتَوَطَّأ ب الناس حتى أتى المنبر وعمر يكلم الناس؛ ﴿ فجلس عمر حين رأى ابا بكر مقبلاً، فقام بكر على المنبر ، وأمر النَّاس بالجلوس ؛ فجلسوا وأنصتوا ، فتشهد شهادة الحق ثم قَال : إن قد نعى لكم نبيكم ونعاه لنفسه وهو حي بين أظهركم ، ونعاكم لأنفسكم ، فما هو إلا وتُ حتىلايبقى أحد إلا الله تعالى ، فإنه يقول : ﴿ **ومامحمد إلا رسول قَد خَلت من قبله رسل** ﴾ ... إلى ﴿ **وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، وقال : ﴿ **إنك تٌ وإنهم ميتون** ﴾ [زمر : ٣٠] ، وقال : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ [آل عمران : ١٨] وقال : ﴿ **كل من عليها فان ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ [الرحمن : ٢] ، ثم إن الله عَّمر محمداً وأبقاه حتى أقام دين الحق ، وأظهر أمر الله ، وبلغ رسالة الله ، جاهد أعداء الله حتى توافاه الله صلوات الله عليه وهو على ذلك ، وترككم على الطريقة لى ؛ فلا يهلك هالك إلا من بعد البينة ، فَمن كان الله ربه فإن الله حي لايموت ؛ فليعبده ، ن كان يعبد محمداً ويراه إلهاً فقَد هلك إلهُهُ ، أفيقوا أيها الناس ، واعتصموا بدينكم ، وتوكلوا ى ربكم ؛ فإن دين الله قائم ، وإن كلمته باقية ، وإن الله ناصر من ينصره ، ومعز دينه ، وإن ـاب الله بين أظهرنا هو النور والشفاء ، وبه هدى الله محمداً ، وفيه حلال الله وحرامه ،

(١) شطر هذا البيت لايستقيم وزنه هكذا .

والله لانبالي بمن أجنب علينا من خلق الله ، إن سيوف الله لمسلولة ماوضعناها بعد ، ولنجاهد من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ ؛ فلا يبكين أحد إلا على نفسه .

ثم أنصرف وانصرف المهاجرون معه .

قال ابن إسحاق : فلما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين ؛ فكانت عائشة فيما بلغني تقول لما توفي رسول الله ﷺ : ارتدت العرب ، واشرأبت[1] اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، حتى جمعهم الله على أبي بكر .

وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثرأهل مكة لما توفي رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتَّاب بن أسيد ، فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه . فتراجع الناس ، وكفوا عما هموا به ، وظهر عتَّابٌ .

وقد تقدم لنا أن رسول الله ﷺ قال في سهيل بن عمرو لعمر بن الخطاب وقد قَال له : انزع ثنيتي سهيل ليدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً ، فقال له رسول الله ﷺ : ((إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمه فيه)) . فكان هذا المَقام المتقدم هو الذي أراد رسول الله ﷺ وهذا أيضاً منْ أعلام نبوته ؛ إذ قاله يوم بدر ، ولم يظهر مصداقه إلا بعد وفاته .

ولما انصرف الناس قالت فاطمة لعلي : ياأباالحسن ، دفنتم رسولَ الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قالت : كيف طابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ ؟! أما كان في صدوركم رحمة لرسول الله ﷺ ؟! أما كان معلم الخير ؟ قال : بلى ، ولكن أمر الله لا مرد له ، فجعلت تبكي وتندب : واأبتاه ، أجاب ربّاً دعاه ، واأبتاه في جنة الفردوس مثواه ، واأبتاه إلى جبريل ننعاه .

ولقد كان رسول الله أَسَرَّ إليها في مرضه أنه مقبوض ؛ فبكت شفقةً من فراقه ، فأسر ثانية أنها أول أهله لحوقاً به ؛ فضحكت راضية بالموت ، مسرورةً به ، في جنب ماتستعجله من لقياه في حضرة القدس ومحل الرضوان والكرامة .

فلما رجعت إلى بيتها واجتمع عليها نساؤها قالت منشدة : (من بحر الكامل)

---

(١) اشرأبت : ظهرت وبانت رؤوسها بعد أن كانت منخفضة .

اغـــبرّ آفـــاق السما وكوِّرتْ شمس النَّــهــار وأظـلم العـصرانِ
فــالأرضُ من بعـد النبي كئيبــةٌ أسـفــاً عـليــه كثـيرةُ الرجفــانِ
فـليبكــه شــرقُ البــلاد وغربُها ولتبـــكــــه مضرٌ وكلُّ يمـــاني
وليبكـــه الطــودُ المـعظــمُ جَوُّهُ والبـــيتُ ذو الأستَــــار والأركانِ
يـاخـاتم الرســل المبارك ضنؤه[1] صـــلى عـــليــك مـــنزِّلُ القُــرآنِ

وقالت أيضاً لما أخذت كفّاً من تراب قبره الشريف وجعلت تشمه : (من بحر الكامل)

مـــاذا عَــلَى من شــم تـربــةَ أحمـدٍ ألاَّ يَشَـــمَّ مدى الزمـان غواليــا[2]
صُبَّتْ عـــليَّ مصـــائبٌ لو أنهـــا صُبَّتْ على الأيـام عُـدْنَ ليــاليــا[3]

وجلست أم أيمن ــ وكانت حبشية ــ تبكي رسول الله ﷺ وهي حاضنتُه ، وقيل لها : مايبكيك يا أم أيمن ؟ قد أكرم الله نبيه ، وأدخله جنَّتــه ، وأراحه من نصب الدنيا . فقالت : إنما أبكي على خبر السماء ، كان يأتينا غضّــاً جديداً كل يوم وليلة ، وقد انقطع ورفع ؛ فعليه كنت أبكي . وعجب الناس من قولها وهي عجمية سوداء ، وبكوا لبكائها .

وقال أنس بن مالك ؛ لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ، ولما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا .

وحدث ابن عباس رضي الله عنهما عنه ﷺ أنه يقول : ((من كان له فَرطان[4] من أمتي أدخله الله بهما الجنة)) قالت عائشة: ومن لم يكن له فرط من أمتك ؟ قال : ((فأنا فرط لأمتي لن يصابوا بمثلي)) . ولله در حسان إذ قال (الطويل)

وهــل عــدلتْ يــومــاً رزيــةُ هــالك رزيـــةَ يـــوم مـــاتَ فيـــه محمَّــدُ

وقال ﷺ : ((ليُعَزِ المسلمين في مصائبهم المصيبة بي)) .

فَيالها والله من مصيبة ، أحرقت الأكباد ، وعمرت بالأسف والحزن الآماد والآباد ،

---

(١) الضِّنء : الأصل والمعدن . (اللسان ــ ضنأ) .

(٢) صحة البيت كما في نهاية الأرب (ج١٨ ، ص ٤٠٣) :

مـــاضر من قــد شـــم تــربــة أحمــد ألا يشـــم مـــدى الزمـــان غـــواليـــا

(٣) (صرن) بدل (عدن)

(٤) الفرط : مايقدمه الإنسان من ولده قبل موته .

ورزءاً ثقيلاً آد[1] أهل الإيمان منه مآد ، وخطباً جليلاً أودى بكل صبر جميل أو كاد ولولا أن ال
سبحانه ربط على القلوب من بعده بأمر من عند الله لأودت مكانها كمداً ، ولما وجدت إل
البقاء متسعاً ولا عن الرضا باللقاء ملتحداً ، ولو رجفت الأرض لفقدان أحد لأصبحت لفقد
راجفة ، ولو نسفت الجبال لمهلك هالك لعادت رواسيها على حكم الأسف متنافسة ، ول
كسفت النَّيراتُ لمصرع حي لأمست دُررها منثورة ، ولو تغيرت المشارع الموردة لموت إنسا
لأمر لموته على كل وارد عذب مشرعه ، هيهات هيهات ! ذلك والله الرزء الكُبَّار ، والنازلة الت
يعي بها الاحتمال والاصطبار ، والخطر الذي تصاغرت دونه الأخطار ، والخطب الذي سق
بمضاضة مشاهدته المهاجرين والأنصار ، والمفقود الذي لاعوض منه أبداً ولو تطاولت الدهو
والأعصار ، ولو غير الأقدار أصابته لبذلت فيه أعْلاق المهج ، أو غير المَنايا أتته لتعذر عل
قاصده وجه السبيل المنتهج ، ولكنها السبيل التي لايتخطاها سالك ، وماسبقت به مشيئة الدا
الباقي الذي كل شيء سواه هالك ، فلا مجال في الدفاع ، ولاحيلة في الامتناع ، ولا شي
يضمه حكم الممكن المستطاع ، غير الانقياد لأمر الله والانقطاع ، والهفاً ثم لهفاً عليه ، وي
برح شوق القلوب المشربة بنور الإيمان عليه ، نزوعها إليه ، ويالدموع أجريت عليه صلوات الل
وبركاته واصلة إليه ، لقد أجريت بحراً ، وجرت أجراً ، وحرمت نهياً عن إسبالها وزجراً . ولقد
كان من يقدم المدينة بعد أن استأثر به مولاه الذي شرح له صدراً ورفع له ذكراً إذا أشرفو
عليها سمعوا لأهلها ضجيجاً يصم السمع ، وللبكاء في جنباتها عجيجاً أصحل[2] الحلوق ونزف
الدموع .

حدث أبو ذؤيب الهذلي قال : إنه بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل ؛ فاستشعرتُ حزناً
وبت بأطول ليلة لاينجاب ديجورها ، ولايطلع نورها ، فبتْ أقاسي طولها ، حتى إذا كان قرب
السحر أغفيت فإذا بهاتف وهو يقول : (من بحر الكامل)

خطب أجلُّ أناخ بالإسلام ... بين النخيل ومقعد الآطام
قبض النبي محمد فعيوننا ... تذري الدموع عليه بانسجام[3]

قال أبو ذؤيب : فوثبت من نومي جزعاً ، فنظرت إلى السماء ولم أر إلا سعد الذاب

---

(١) آد : أثقل .

(٢) أصحل : بح من البكاء .

(٣) كلمة (انسجام) لاتنسجم وزناً مع بحر الكامل .

ولته ذبحاً يقع في العرب ، وعلمتُ أن النبيَّ ﷺ قد قبض فركبتُ ناقتي فسرت ، فلما
سبحت طلبتُ شيئاً أزجر به ، فعن لي شيهم[1] ، قد قبض على صل[2] ، فهو يلتف عليه
شهم بقضمه حتى أكله ، فزجرت ذلك وقلت : الشيهم شيء مهم ، والصل التواء الناس على
ائم ، وأكل الشيهم إياه غَلبةُ القائم بالأمر بعد رسول الله ﷺ ، حتى إذا كنت بالغابة زجرت
طائر فأخبرت بوفاته ، وزجرت غراباً ناعباً فنطق بمثل ذلك ؛ فتعوذت بالله من شر ماعَنّ لي
ي طريقي . وقدمت المدينــة ولها ضجيج بالبكـاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام ؛
لت : مه ؟ فقالوا : قبض رسول الله ﷺ ، فيممت المسجد ، فوجدته خالياً ، فذهبت إلى
ته فإذا هو مرتج وقد خلا من أهله ، وقلت : وأينَ الناس ؟ فقيل لي : ذهبوا إلى الأنصار وهم
سقيفة بني ساعدة ؛ فجئت الأنصار ، فوجدت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة وسالماً مولى أبي
حذيفة وجماعة من قريش ، ورأيت الأنصار وفيهم سعد بن عبادة وكعب وحسان في ملأ من
شرافهم فأويت إلى قريش ، وتكلم الأنصار وأطالوا الخطاب وأكثروا الصواب ؛ فتكلم أبو بكر
لله دره من رجل لايطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخطاب ، وقد تكلم بكلام لايسمعه
حد إلا انقاد له ومال إليه ؛ فبويع أبو بكر بعد ما كاد الحرب أن يقع بين الحيين ، ثم عصم الله
دينه فجمعهم على أفضلهم ، ثم انصرفوا إلى الصلاة على رسول الله ﷺ ، فصليت معهم ،
لما حملوهُ استعبر أبو بكر ، ثم انشد فقال : (من بحر الوافر) .

فقــدنـــا الوحيَ إذ وَلَّيْتَ عنـــا ... فـــودعَنـــا من الله الكـــلامُ
ســوى مـاقـد تـركت لنــا رهينـاً ... تضـــمـنـــه القـــراطيس الكـــرام

وقال أيضاً : (من بحر مجزوء الكامل)

كنت الســـواد لنـــاظـــري ... وعـــليـــك شـــاب النَّـــاظـــرُ
من شـــاء بعـــدك فـليـمتْ ... فَعـــليـــك كنتُ أحـــاذرُ

ولما دفنوه استقبل القبر الشريف ، فتنهد حتى كاد يرهقه الغشى ، وقال : (من بحر الكامل)

لمـــا رأيت نبـيـنــــا متجـنـدلاً ... ضـــاقت عـــليّ بعـــرضهـن الدورْ
وارتَـــاع قـلبي عنـد ذاك لهُـلكـه ... والعـظـــمي مـــاحييتُ كسـيرُ

---

(١) الشيهم : ذكر القنافذ ، ج شياهم .

(٢) الصل : الحية .

أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى		فالصبر عنه ماحييتَ عسيرُ
ياليتني من قبل مهلك صاحبي		غيبتُ في جدث علَيَّ صخورُ
فلتحدثن حوادثٌ من بعده		تعيا بهن جوانحٌ وصدورٌ

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم يبكي رسول الله ﷺ : (من بحر الوافر)

أرقتُ فبت ليلي لايزول		وليل أخي المصيبة فيه طول
وأرقني البكاء وذاك فيما		أصيب المسلمون به قَليل[1]
لقد عظمت مصيبتنا وجَلَّتْ		عشية قيل قد قُبض الرسولُ
وأمست أرضنا مما عراها		تكاد بنا جوانبها تميل
فَقَدنا الوحي والتنزيل فينا		يروح به ويغدو جبرئيلُ
وذاك أحق ماسالت عليه		نفوس الناس أو كادت تسيلُ
نبي كان يجلو الشكَّ عنا		بما يوحى إليه وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً		علينَا والرسول لنَا دليلُ
أفاطمُ إن جزَعْتِ فذاك عذرٌ		وإن لَمْ تجزعي ذاك السبيلُ
فقبر أبيك سيدُ كل قبر		وفيه سيد الناس الرسولُ

وقال أبو ذؤيب يبكي رسول الله ﷺ : (من بحر الكامل)

لما رأيت الناس في غمراتهم		مابين ملحود له ومضرحِ
متَبادرين لمشرع بأكفهم		خضع الرقاب لفقد أبيض أروحِ
كسفت لمصرعه النجومُ وبدرها		وتزعزت آطام بطن الأبطحِ
ولقد زجرت الطير قَبل وفاته		بوفاته وزجرتُ سعد الذابحِ
وتزعزعتْ أجبال يثرب كلها		ونخيلها بحلول خطب مُفْدِحِ

ولما بلغت عمرو بن العاص السهمي وفاة رسول الله ﷺ وهو يومئذ بعُمان أنشد يبكي رسول الله ﷺ ويتفجع عليه : (من بحر الطويل)

أتاني ورحلي في عُمان مصيبة		فبتُّ بعين طرفها طرف أرمدِ
غداة نعى الناعي النبي محمداً		فأعزز علينا بالنبي محمَّدِ
فقدنا به وحيَ السماء ونعمةً		تروح علينا بالمراد وتَغْتَدِي

---

(١) في البداية والنهاية لأبن كثير : (واسعدني) بدل (وأرقني) (٢٨٢/٥) .

وأوحش منه منبر كان زينةً ... ومسجدُه وحشٌ فيا خير مسجدِ
فلو كنت يوماً شاهداً بوفاته ... لَمَسْتُ تراباً من ضريحه باليدي
بأذن يراه أهله ومكيدة ... أسود بها ماعشت يومي وفي غَدي
كما نالها منه المغيرة غرةً ... ومأأنا دون الطائفيِّ الحَفَيْدَدِ

وقال عبد الله بن أنيس الجهني قبل موته وقد أضني : (من بحر الطويل)

نفى النومَ مالاتبتغيه الأضالُع ... وخطبٌ جليلٌ للرزية جامعُ
غداة نعى الناعي محمداً ... وتلك التي تستك منها المسامعُ
فلو رَدَّ نفساً قتلُ نفسٍ قتلتُها ... ولكنه لايدفع الموتَ دافعُ
فآليت لاأبكي على هُلْكِ هالكٍ ... من الناس ماأرسى ثبيرٌ وفارعُ
ولكنني باك عليه ومتبعٌ ... مصيبته إني إلى الله راجعُ
وقد قبض الله النبيينَ قَبله ... وعادٌ أصيبت بالردى والتبابعُ
فإن مات فالإسلام حيٌّ وربُّنا ... لذا الدين ممن كاده اليومَ مانعُ
فياليت شعري من يقوم بأمرنا ... وهل لقريشٍ ياإمامُ منازعُ
ثلاثة رهط من قريش همُ همُ ... أزمة هذا الأمر والله صانِعُ
عليٌ وصديقٌ ألا عمرٌ لها ... فليس لها بعد الثلاثة رابعُ
أولئك خير الحي فهر بن مالك ... وأول من تُحنى إليه الأصابع
أولئك إن قاموا بها سلكوا بنا ... محجتنا العظمى وقَلَّ المنازع
وكل قريش والذي أنا عبدُه ... على كل حال للثلاثة تَابعُ
فَإن قَال منا قائل غير هذه ... أبينا وقلنا الله راءٍ وسَامعُ
فيا لقصي قلِّدوا الأمر بعضكم ... فإن ضجيع العجز للسن قارعُ
ولاتبطئوا عنها فواقا فإنها ... إذا قطعت لم تسر فها المطامعُ

ولأبي الهيثم بن التيهان الأنصاري ، وكان من صلحاء الصحابة ، وكان قد رأى الشماتة من النصارى واليهود والمنافقين ، فشكا ذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه لما مّر عليه ، فقال في ذلك : (من بحر الطويل)

ألا قد أرى أن المُنَى لم تُخلِّدِ ... لأن المنَايَا للنفوس بمرصَدِ
لقد جُدِعَتْ آذاننا وأنوفُنا ... غداة فُجعنا بالنبي محمد
تكلم أهل الشرك من بعد غلظةٍ ... لغيبة هادٍ كان فيها ومهتَدِ
ثلاثة أصناف من الناس كلهم ... يروح علينا بالشنار ويغتدي

نصارى يقولون الفِرَى[1] ومنافقٌ شبيه بذاك الشامتِ المتهودِ
وأوعد كذابُ اليمامة جهدَهُ فأخلف عوداً باللسان وباليد
فإن يك هذا اليوم منهم شماتةً فلا يأمنوا مايُحدث الله في غدِ
وما نحن إن لم يجمع الله شملَنَا بخير قريشٍ كلها بعدَ أحمدِ
بأمنع من شاة بقفرا مطيرةٍ بقيعةِ قَاع أو ضباب بفرقَدِ
وإني لأرجو أن يقُومَ بأمرنا عليّ وصديق أو المرء من عدي
أولئك خير الحي فهر بن مالك وأنصار هذا الدين من كل معتدِ

ولما انتهت وفاة رسول الله ﷺ إلى ملوك همدان تكلمت سفهاؤهم بما لم يقبله حلماؤهم ؛ فقام عبد الله بن مالك الأرحبي ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ، وله هجرة وفضل في دينه ، فاجتمعت إليه همدان فقال : يامعشر همدان إنكم لم تعبدوا محمداً ، إنما عبدتم رب محمد ، وهو الحي الذي لايموت ، غير أنكم أطعتم رسولكم بطاعة الله ، ودعاكم فأجبتموه ؛ فهداكم ، فاتبعتموه ، واعلموا أنه ولي نعمتكم في دينكم : فأما دينُكم فاستنقذكم الله به من الشرك في الدنيا ومن النار في الآخرة ، وأما دنْياكم فاستنقذكم الله به من الرق ، ولم يكن الله ليجمع أصحاب رسول الله على ضلالة وقد وعدهم أن يهديهم عندما اختلفوا من الحق بإذنه ؛ فأطيعوا من اختاروا ، وقدموا من قدموا .. في كلام غير هذا تكلم به على هذا المثال ونسجه على هذا المنوال ، ثم قال : (من بحر الطويل)

لعمري لئن مات النبي محمد لما مات يابن القَين ربُّ محمد
وما كان إلا مرسلاً برسالة يبلغها والحادثاتُ بمرصدِ
ولما قَضَى من ذلك الأمر ماقضى ولم يبق شيءٌ فيه إلحاد ملحِد
دعاه إليه ربُّه فأجابَهُ فيا خير مدعوٍ وياخيرَ منجدِ
ومانحن إلا مثل من كان قَبلَنَا فريقَين شتى كافرٍ وموحِد
ونحن على ماكان بالأمس بينَنَا من الدين نَهدي منْ أراد ونهتدي

ثم قام ابن أبي مروان وكان من سادات همدان وملوكها فتكلم فيهم فأطال نفس الكلام ، وحض على التمسك بالدين ، وحمل على الطاعة للقائم بالأمر بعد رسول الله ﷺ ، ثم قال يرثيه ويتفجع عليه : (من بحر الخفيف)

---

(١) الفرى : جمع فرية : الكذبة .

إن حزني على الرسول طويلُ ذاك مني على الرسول قليلُ
قُلتُ والموتُ كربة ياإمامُ ليتني متُّ يوم ماتَ الرسولُ
ليتني لم أكن بقيت فُواقاً بعده والفُواق مني طويلُ
بكت الأرض والسماءُ عليه وبكاهُ خليله جبريل
ياهلا رحمة أصيب بها الخلْـ ـق تَولت وحان منها الرحيل
ليس للناس ياإمام من الأمْـ ـر فتيل وأين أين الفتيل

وقال مسروق بن الحارث الأرحبي ـ وكان سيداً من سادات حمير وفتىً من فتيانها يبكي رسول الله ﷺ : (من بحر الخفيف)

إن فقد النبي جدعنا اليو م فدته الأسماع والأبصار
وفَدته النفوس ليس من المو تِ فرار وأين أين الفرارُ
ماأصيبت به الغداة قريشٌ لا ولا أفردت به الأنصارُ
دون من وجَّهَ الصلاة إلى الله وقد هنأت به الكفار
ورجال منَافقُون شماتاً حين واروه كفرهم إسرار[1]
من بكته السماء تسعدها الأر ض وبكته بعد القفار البحار
وإسرافيل قد بكاه وجبريـ ـل وميكال والملأ الأطهار
ياهلا كلمةٌ يضيق بها الخلـ ـق أتانا بنقلها السفارُ
قيل مات النبي فانصدع القلـ ـبُ وشابت من هولها الأشعارُ
فعليه السلام ماهبت الريـ ـحُ ومدتْ جنحَ الظلام أنوارُ

ولما بلغت أزد السراة وفاته ﷺ قام فيهم سواد بن قارب الدوسري يحذرهم سوء عاقبة الارتداد ، وكان قد سادهم وشرف فيهم ، فأجابوه إلى مادعاهم إليه ، وهو الذي أسلم بإرشاد رئيه ، وكان كاهناً في جاهليته ، فلما بعث رسول الله ﷺ أتاه رئيه ، فركضهُ برجله ، فقال له : (من بحر السريع)

عجبت للجن وإبلاسها وشدها العيس بأحلاسها[2]
تَهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها

---

(١) في الأصل الشطر الأول من هذا البيت غير مستقيم وقد أصلح .

(٢)هذا البيت في الإصابة ٢/٩٥ هو :

عجبت للجن وأرجاسها ورحلها العيس بأحلاسها

فارحل إلى الصفوة من هاشم ... واسمُ بعينيك إلى راسها

فقال : إني نائم ، فانصرف الرئي ، ثم أتاه في الليلة الثانية ، فركضه برجله ثم قال : (من بحر السريع)

عجبت للجن وترحالها ... وشدها العيس بأحبالها

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنو الجن كأرذالها

فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بين روابيها وأجبالها

فقال : إني نائم ، فانصرف عنه وتركه ، فلما كانت الليلة الثالثة أتاه فركضه برجله ثم قال : من بحر السريع)

عجبت للجن وتكرارها ... وشدها العيس بأكوارها

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنو الجن ككفارها

فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بين بطحاها وأحجارها

فقام من حينه ، وكسر وثنه ، وشد رحله على قلوصه حتى أتى النبي ﷺ ، وقص عليه ما وقع له مع رئيه ؛ فأعجب رسول الله ﷺ قوله ، فجمع أصحابه ، وأمره أن يقص عليهم قصته مع رئيه ؛ ففعل ، ثم قال : (من بحر الطويل)

أتاني رئيٌّ بعد هدءٍ ورقدةٍ ... ولم أكُ فيما قد بَلَوت بكاذب

ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤي بن غالبِ

وأشهد أن الله لارب غيره ... وأنك مأمونٌ على كلِّ غائبِ

وأنك أدنى المرسلين شفاعةً ... إلى الله يابن الأكرمين الأطايبِ

فَمُرْنا بما يأتيك ياخير مرسلٍ ... وإن كان فيما جاء شيبُ الذوائبِ

فكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعةٍ ... بمغنٍ فتيلا عن سواد بن قارب[1]

وقال رضي الله عنه يبكي رسول الله بعد وفاته : (من بحر الكامل)

جلت مصيبتك الغداة سواد ... وأرى المصيبة بعدها تزدادُ

أبقى لنا فَقْدُ النبي محمد ... صلى عليه الله مايعتادُ

حزناً لعمرك في الفؤاد مخيماً ... وهل لمن فقد النَّبي فُؤادُ

كنا نحل به جناناً ممرعاً ... جف الجَنانُ وأخفق الروادُ

فبكت عليه أرضنا وسماؤنا ... وتَصدعت وَجْداً به الأكباد

(١) هذا العجز في الإصابة ٢/٩٥ هو : سواك بمغن عن سواد بن قارب .

قـل المتـاع بـه وكان عيـانـه | حـلمـاً تضـمن سـكـرتيـه رُقادُ
كان العيـان هو الطريق وحزنه | بـاق لعـمـرك في الفـؤاد تـلادُ
إن النبـيَّ وفـاتُـه كحيـاتـه | الحقُّ حقّ والجهـاد جهـادُ
لو قيـل تفـدون النبـي محمـداً | بـذلت له الأمـوالُ والأولادُ
وتسـارعت فيـه النفـوس لبـذلها | هـذا له الغـيـابُ والأشـهـاد
هـذا وهـذا لايـردُّ نبـيَّنَـا | لو كان يفـديـه فَـداه سـوادُ

ولما بلغت وفاته ﷺ ملوك نجران ــ وكانوا نصارى أهل كتاب فأسلموا بهدى الله وبما بأيديهم من نعت رسول الله ﷺ ــ قام فيهم عبد الحارث بن أنس بن عبد المدان فجعل يبكي رسول الله ﷺ بعدما قَام فيهم أحسن مقَام ، فقال : (من بحر الطويل)

لعـمـري لئـن كان النبـي محمـد | عـليـه سـلام الله أودى بـه القـدرْ
لقـد كسـفت شمس النهـار لفقـده | وبكّتْ عليـه الأرض والشمس والقمر
وبكَّتْـه افـاق السماء ومـالهـا | وللأرض شجـو غـير ذاك ولاغـيرْ
ولو قيـل تفـدون النبـي محمـدا | لقـلنـا نعـم نفديـه بـالسمع والبصرْ
وقـل له منـا الفـداء وهـذه | وإن بـذلت لايسـترد بهـا بشـرْ
فـإن يك وافـاه الحمـامُ فدينـهُ | على كلّ دين خـالف الخلق قد ظهرْ
ونحن بعـون الله هـامـة مـذحج | بنـو الحـارث الخَيْر الذين هـم الغررْ
بنجـران نعطي من سعى صـدقـاتنـا | مـوفـرة مـافي الحـدود لهـا صـعـرْ
ونحن عـلى دين النبـي نـرى الذي | نهـانـا حـرامـا والأمـر مـاأمرْ
أحـاذر إن لم يـدفع الله جـولة | مجدعـة يـبيضُ من هولهـا الشّـعـرْ
فيحـي فيهـا الله من خف حـلمـه[1] | ويسـعـد فيهـا ذو الأنـاة بمـا صبرْ
نطيع قريشـا مـاأطاعوا فـإن عصـوا | أبينـا ولا نشـري السـلامة بـالغررْ
وكان لهـذا الأمـر منهـم ثـلاثـة | عـلي أو الصـديق أو ثـالث غمـرْ
فـلم يُخطئوا إذ وسـدوهـا لبعضهـم | هـمْ مـاهـمْ مـالكـل إلا رعـاة مطر[2]

ومثل هذه المقامات لسادات العرب وملوكها نظما ونثرا لايحيط بها حصر ، يستعينون بها على دفع هذه الداهية الدهياء ، ويبردون بها حرّ هذه الحادثة النكراء ، وعظيم المصيبة بوفاة

---

(١) في (ب) : (حكمه) بدل (حلمه)

(٢) هذا الشطر في النسخة (ب) هو : وماهم إلا رعاة مطر وهو مختل الوزن في النسختين .

من حق في حقه بكاء الأرض والسماء ، وقل لفقده أن تسح المدامع عوض الدموع بالدماء ، إ
هو الرزء الذي ابتدع الرزايا وقال لأعين الثقلين : جودي بالعطايا ، فيبكي من لم يدرك زمن
على الفوت ، كما يبكي من أدركه على الموت ، وهو مغناطيس أهل الإيمان ، وهديل جمي
الأزمان ، فمن لم يُذْر الدموع عند ذكر وفاته فقد أعوزه الحب بموافاته ، فبكاؤه حينئذ عل
نفسه أولى ، حتى تعزيه بمصائبه الثكلى ، فكيف ينسى أو يتسلى من ديم إفضاله في كل نفس
علينا هطلى ، ولله در خطيب الشعراء[1] حيث يقول : (من بحر الطويل)

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد ... منيرٌ وقد تعفو الرسوم وتَهْمَدُ

ولاتمحي الآياتُ من دار حرمةٍ ... بها منبر الهادي الذي كان يصْعَدُ

وواضحُ آثارٍ وباقي معالمٍ ... وربعٌ له فيه مصلى ومسجدُ

بها حجرات كان يسكن وسطها ... من الله نور يستضاءُ ويوقدُ

معارف لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى والآيُ منه تَجدَّدُ

عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبراً بها واراه في الترب ملحِدُ

ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تَسعَدُ[2]

يُذكِّرْنَ آلاء الرسول ومأأرى ... لها محصياً نفسي فنفسي تَبلَّدُ

مفجعةٌ قَد شفها فقد أحمد ... فظلت لآلاء الرسول تُعدِّدُ

وما بلغت من كل أمر عُشَيْرَه ... ولكن لنفسي بعدُما قد توجدُ

أطالت وقوفاً تذرف الدمع جهدها ... على طلل القبر الذي فيه أحمدُ

فبوركت ياقبر الرسول وبوركتْ ... بلادٌ ثَوَى فيها الرسولُ المسدَّدُ

وبورك لحدٌ منك ضُمّن طيباً ... عليه بناء من صفيح مُنَضَّدُ

تهيل عليه التُّرْبَ أيدٍ وأعينٌ ... عليه وقد غارت بذلك أسعُدُ

لقد غيبوا علما وحلما وسؤدداً ... عشية علوه الثرى لايوسَّدُ[3]

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضدُ

---

(١) هو حسان بن ثابت

(٢) في (أ) : (عيون الأثر ومثلها من العين يسعد) صحة العجز .

عيون ومثلاها من الجفن تسعد .

وهكذا هو في السيرة (٤/٤٦٩)

(٣) هذا البيت في السيرة (٤/٤٦٩) هو :

لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشية دلوه الثرى لايوسد

يُبَكُّون من تبكي السماوات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالنَّاس أكْمدُ

وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزَيةَ يوم ماتَ فيه محمدُ

تقطع فيه منزل الوحي عنهم ... وقَد كان ذا نور يغور وينجِدُ

يدل على الرحمن منْ يقتَدى به ... ويُنْقذ من هول الخزايا ويُرشِدُ

إمام لهم يهديهم الحق جاهداً ... معلم صدق إن يطيعوه يسعَدُوا

عفو عن الزلات يقبل عُذرهمْ ... وإن يحسنوا فَالله بالخير أجودُ

وإن نَاب أمر لم يقوموا بحمله ... فَمن عنْده تَيسير مايَتَشدَّدُ

فبيناهمُ في نعمة من الله بينَهم ... دليل به نهج الطريقَة يُقْصَدُ

عزيزٌ عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريصٌ على أن يستقيموا ويهتَدُوا

عطوف عليهم ليس يثني جناحَهُ ... إلى كنف يحنو عليه ويَمْهَدُ

وبينَاهم في ذلك النور إذ عدا ... على نُورهم سهم من الموت مُقْصِدُ

فأصبح محموداً إلى الله راجعاً ... يُبَكِيهِ حق المرسِلات ويَحْمَدُ

وأمست بلاد الحرم وحشاً بقَاعها ... لغيبة ماكانت من الوحي تَعْهَدُ

قفاراً سوى معمورة اللحدِ ضَافَها ... فقيد يُبَكّيهِ بَلاَطٌ وغَرْقَدُ

ومسجده فالموحشاتُ لفقده ... خلاء له فيه مقَامٌ ومقْعدُ

وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت ... ديارٌ وعرصاتٌ ورَبْعٌ ومؤْلدُ

فأبكي رسولَ الله ياعين عبرةً ... ولا أعرفنك الدهر دمعك يَجْمَدُ

ومالك لاتبكين ذا النعمة التي ... على النَّاس منها سابغٌ يَتغمَّدُ

فجودي عليه بالدموع وأَعْولي ... لَفقد الذي لامثلُهُ الدَّهرَ يُوجَدُ

ومافقد الماضون مثْلَ محمدٍ ... ولامثله حتى القيامةِ يُفْقَدُ

أعف وأوفى ذمةً بعد ذمةٍ ... وأقْربُ منهُ نَائلاً لا يُنَكَّدُ

وأبذل منه للطريف وتَالدٍ ... إذا ضَنَّ معطاء بما كان يتْلدُ

وأكرم صيتاً في البيوت إذا انتمى ... وأكرمُ جَداً أبطحياً يُسَوَّدُ

وأثبتُ فَرعاً في الفُروع ومنْبِتاً ... وعوداً غَذاهُ المزْنُ فَالعود أغْيَدُ

تناهت وصاة المسلمين بكفهِ ... فلا العلم محبوسٌ ولا الرأي يُفقَدُ

وليس هواي نازعاً عنْ ثنائه ... لعلي في جَنَّة الخلد أَخْلدُ

مع المصطفى أرجو بذاك جواره ... وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجْهَدُ

فهذه رشفة عصفور من مراثي حسان رضي الله عنه .

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه يبكي رسول الله ﷺ : (من بحر الطويل)

وبـاكيـةٍ حَرَّى تَحَـرَّق بـالبكـا ... وتَـلطـم منهـا خدهـا والمقـلَّدا
عـلى هـالك بعـد النَّبـي محمـدٍ ... ولو عقـلتْ لم تبـك إلا محمـدا
فـلست ببـاك بعـد فقـد محمـدٍ ... فقـيـداً ولو كان القـريبَ المسـودا
فجعنـا بخير الخـلق حيّـاً وميتـاً ... وأدنـاه من أهـل السماوات مَقْعـدا
وأعظمهـم فقداً على كل مسلمٍ ... وأكرمهـم في النَّـاس كلهـمُ يدا[1]
متى تـنزل الأمـلاك بـالوحي بعـده ... عـلينـا إذا ماالبس فينـا تردَّدا
إذا كان منـه القـول كان موفقـاً ... وإن كان وحيـاً كان نـوراً مجردا
جزى الله عنـا ربُّنـا خَير ماجزى ... نبيَّ الهدى الداعي إلى الخـير أحمدا

وقال عمر بن سالم الخزاعي : (من بحر الطويل)

لعمري لئن جادت لك العين بالبكا ... لمحقـوقـةٌ أن تستَـهـل وتـدمعـا
فيـا حفصُ إن الأمر جَـلَّ عن البكـا ... غَداةَ نعى النـاعي النَّبـيَّ فـأسمعـا
فـلم أر يومـاً كان أعظـمَ حـادثاً ... ولم أرَ يـومـاً كان أعظـمَ مَوْجِعَـا
ولم أر من يـوم أعـمَّ مصـيبـةً ... ولاليـلةً كانت أمـرَّ وأفظَـعَـا
تَعَـزَّيْ بصبر واذكري الله واعـلمي ... بأن سوف يُجْزَى كُلُّ ساع بما سعى
ولاتُـرْزَئي محض الحيـاة فتـفجـعي ... بـدينك والدنْيـا فَتُرْزيهمـا معًـا
فـإن يك قد مـاتَ النبي فبعـدما ... نعى نفسـه بدءاً وعوداً فـأسمَعَـا
إذا ذكرتْ نفسـي فـراقَ محمـد ... تهَيَّـج حُزْني والفـؤادُ تقـطـعـا
فيـالك نفس لايـزال يـزيـدهـا ... على الدهر طول الدهر إلاّ تَصدعَا[2]
جزى الله ربُّ النـاسَ أفضَـل ماجزى ... نبـيّـاً هـدانـا ثم ولَّى وودعَـا
فـوالله لأنسـاك مـادمتُ ذاكراً ... لشـيء ومـا قبـلت كفّـاً وإصبعَـا

وقد أكثرت الشعراء منْ مراثيه صلواتُ الله وسلامه عليه قديماً وحديثاً ، وقضوا من التفجع عليه حقّاً ؛ إذ هو الحدث الذي لاينبغي أن يكون عهده نكيثاً ، ولم يمنعهم تقادم الأيام وتطاول الأعوام من تجديد البكاء عليه وتوكيد الحنين إليه ، وكيف لايكون ذلك إذ هو الرزء الذي من حقه أن ينسي جميع الأرزاء ؟ والحادث الجلل الذي يقبح معه حسن العزاء ،

---

(١) هذا العجز غير موجود في النسخة (ب) .

(٢) في (أ) : طول البين .

راعية الأسف عليه دائماً من الشهادات بالإخلاص لمن قام بها واستقام على سواء السبيل ، لنا الله ممنْ أحبه حقّاً ، وكتبنا فيمنْ غدا لشفاعته المشفعة مستحقّاً . ومن بكاء المتأخرين قفت عليه لأبي إسحاق إسماعيل بن القاسم العنزي المعروف بأبي العتاهية من كلمة يعارض حساناً رضي الله عنه فقال : (من بحر السريع)

على رسول الله مني السلام ... ماكان إلا رحمة للأنامْ
أحيا به الله القلوب كما ... أحيا موات الأرض صوبُ الغمامْ
أكرم به للخلق من مُبْلِغٍ ... هادٍ وللناس به من إمامْ
وأصبح الحق به قائماً ... وأصبح الباطل دحض المقامْ

وقال أيضا : (من بحر الطويل)

ليبك رسول الله من كان باكياً ... ولاتنسَ قبراً بالمدينة ثاويا
جزى الله عنا كل خير محمداً ... فقد كان مهديّاً دليلاً وهادياً
لمن تبتغي الذكرى بما هو أهله ... إذا كنت للبَرِّ المطهر نَاسياً
أتَنْسى رسول الله أفضل من مشى ... وآثاره بالمسجدين كما هيا
وكان أبرَّ الناس بالنَّاس كلهم ... وأكرمهم بيتاً وشِعْباً وواديا
تَكَدَّر مِنْ فَقْدِ النبي محمدٍ ... عليه سلام الله ماكان صافيَاً
فكم من منار كان أوضحه لنا ... ومن عَلَمٍ أمسى وأصبح عافياً
رَكَنَّا إلى الدنيا الدنيةِ بعده ... وكشَّفت الأطماعُ منا المساويا
وإنا لنُرْمَى كل يوم بِعِبْرةٍ ... نراها فما نزداد إلا تَعامياً
كأنَّا خُلقنا للبقاء وأيُّنا ... وإن طالت الأيامُ ليس بفانيا
أبى الموتُ إلا أن يكون لمن نرى ... من الخلق طرّاً حيثما كان لاقيا
حسمتَ المنى ياموتُ حسماً مُبَرِّحاً ... وعلَّمْتَ ياموت البكاءَ البواكيا
ومزقتنا ياموتُ كلَّ ممزق ... وعرفتنا ياموت منك الدواهيا

ولأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال الأندلسي في ذلك قصيدة قَد تداولتها علماء البدو مصار على تطاول الأعصار ، فهي دليل على متانته في العلم وحسن التأله واليقين ، فله ان الذي يلحقه بأقرانه من العلماء المتقنين وناهيك من براعته أن ساجل حساناً فأربى ه ، إلا أن المتقدم له فضل السلف على الخلف ولو كان المتأخر أعلى رتبةً وأوسع باعاً في وم ، لأن العلم لما كان منحاً ربانية ومواهب قدسية لم يكن مستحيلاً على الله أن يعطي منه

لبعض المتأخرين ما لم ينله جميع المتقدمين ، فَهو من رجال الطبقة الرابعة . فمنها قوله يعار
حساناً في قصيدته الأولى ، ويمشي في التوجع والتفجع على منواله ويسبح على مثاله ، فقا
(من بحر الطويل)

لطيبةَ آثارٌ تُحج وتقصَدُ ... ودار بها لله نور مخلَّدُ
ومَهبط جبريلٍ بوحيٍ وحكمةٍ ... يُبَيِّنُها للعالمين محمَّدُ
ومظهر آيات كأن رسومَها ... على ما محا منها البلى تَتَجدَّدُ
وفي مسجد التقوى تأجج ضوءُهُ ... عليه من الفردوس ظل مُمَدَّدُ[1]
يُفَاوِحُها طيب الجنان وتُربة ... تبوأها من جنة الخلد أحمدُ
ومنبره الأعلى على ذروة التقى ... وجذع له فيه حنينٌ مرددُ
ومولد إبراهيم حيث تمخضت ... به أمه مثوى كريمٌ ومَوْلِدُ
وموقفه من نفسه واختياره ... له اسم خليل الله فخرٌ مسيَّدُ
وإعلانه بالحزن تَدمع عينهُ ... له رحمة والنفس تَرقَى وتَصعَدُ
ومبنَى عليٍّ والهُدى يألفُ الهُدَى ... بفاطمة نُور بِنُورٍ يُقَيَّدُ
ومولدُ سِبْطَيْهِ ورَيْحانُ قَلْبِهِ ... مكانُهما من عاتقيه مُمَهَّدُ
وحيثُ ابنةُ العاص أمامةُ ترتقي ... يقُوم بها حبّاً لها ثم يَسْجُدُ
وحيثُ بَنَى بالطيباتِ نِسائه ... بعصمته الوثقى وجبريلُ يَشْهَدُ
ومَتْلَى كتاب الله في حجراته ... يقمن به في الليل والنَّاسُ هُجَّدُ
وثَمتَ أصحاب الكساء طهارة ... من الله يحييها الكتابُ الْمُؤَيَّدُ
مشاهد إيمان تألَّق نُورُهَا ... ففي كل حَيٍّ جذوة تَتَوَقَّدُ
وكَانَتْ أماناً ثم عادت مخافةً ... فزائرها فوق الردى يَتَوسَّدُ
فيا أيها الدارُ التي حَقٌّ أهْلِهَا ... على الناس في التنزيل أن يَتَودَّدُوا
لقد درستْ منك المغاني وأوْحَشتْ ... وكان إليها الدينُ يأوي ويَصْمَدُ
ذكرتُك ذكرى من يهيم فؤادُهُ ... بقربك لكني من القرب مُبْعَدُ
وَمثُلتِ لي في بهجة الدين والتقى ... وأمر رسول الله يعلو ويَمْهَدُ
إذا أبرقت نوراً أسارير وجهه ... تُزحزح قِطْعَ الليل والليلُ أسْوَدُ
والْقَتْ إليه الأرضُ أفلاذها التي ... تُحل بها عِصَمُ الأمورِ وتُعقَدُ

---

(١) صحح البيت اعتماداً على النسخة (ب) .

وغزو تبُوك ثم حَجُّ وداعه ... ولم يبق تبيينٌ ولم يبق مَشْهَدُ

ومثلت لي والمسلمون بشكوة ... فرائصهم من روعة البين تَرْعُدُ(1)

وقد جلَّلَ الدنْيا سوادٌ مطَبَّقٌ ... فحال به ليل على الناس سَرْمَدُ

فما راعهم إلا وفاةُ رسولهم ... وكلٌّ يرى أن الرسولَ مخلَّدُ

وقد ذهلِوا أنَّ التي يقرؤونها ... إذا جاء نصر الله للموت مَرْصَدُ

وودع جبريلٌ وداعَ مفارقٍ ... فَلا ودَّ يُستثنى ولا حيَّ يُعهَدُ

وآوى إليها مسبَلاتٍ دمُوعها ... كما انحل من سلك فَريد مبدَّدُ

فأوعدها سرّاً بكت بنحيبه ... فأثنى بسر فانثنت تتجلَّدُ

وقد أعلنت عند الرسول بكربها ... لكرب أبيها وَهْوَ بالموت يُجْهَدُ

فقال لها كفي دموعك واصبري ... فما بعد هذا اليوم كربٌ يُعَدَّدُ

وبشرها عن قرب مَلْحقِها بهِ ... ببشرى حديث صادق لايُفنَّدُ

فيامن يرى حيّاً يُعَزَّى بموتِهِ ... فيرضى كأن الموتَ خُلْدٌ مُؤَبَّدُ(2)

فراراً من الدنيا إلى قرب ربها ... وشحّاً عليها من حياة تُنَكَّدُ

ولطفاً من الله العظيم بموتها ... وبابُ الرزايا المستكناتِ مُوصَدُ

ولو أنها امتدت طويلا حياتُها ... لشرد عنها النومَ ليلٌ مسهَّدُ

وغصت على كره بشكل ابن عمها ... وبعد شهيد حزنُه ليس يُفْقَدُ

أقام كتاب الله في كل مارق ... يُقِرُّ به في زعمه وهو يَجْحَدُ

فقَيض أشقى الناس يزجي شهادة ... لمن هو أولى بالأمان وأسْعَدُ

فكيف بها والله يأبى هوانَها ... لمصرع سبط أول وهو مقْصَدُ(3)

وقد جرعته حتفَه كف جعدة ... بمكرع سم مجه فيه أسود

ولو حدثت عن كربلاء لأبصرتْ ... حسيناً فتاها وهو شَلْوٌ مقدَّدُ

وثاني سبطيْ أحمدٍ جعجتْ به ... عُتَاةٌ جفاةٌ وهو بالأرض أوْحَدُ

ولم يرقبوا إلا لآل محمد ... ولم يذكروا أن القيامة مَوْعِدُ

وأن عليهم في الكتاب مودةً ... لقرباه لاينحاش عنها مُوَحِّدُ

---

(١) في (ب): فرائصهم من روعة هي ترعد .

(٢) في النسخة (ب) : كأن الموت خلد مايباد .

والعبارة غير واضحة في النسختين ، والبيت لايستقيم هكذا في (ب) .

(٣) هذا العجز غير واضح في النسختين، وهكذا هو في السيرة .

فيا سرع ما ارتدوا وصدوا عن الهدى ... ومالوا عن البيت الذين بهم هُدُوا

وجلِّي عن بَردِ الفرات عطاشهم ... فَرُوِّيَ منهمْ ذابلٌ ومُهَنَّدُ

فيا أوجهاً شاهت وتاهتْ عن الهُدى ... أهذا التشفي منكم والتَّوَدّدُ

وترتم رسول الله في ذبح سبطه ... ويؤتم بنارٍ حَرُّها ليس يَبْرُدُ

فما لكُمُ عند الشفيع شفاعةٌ ... وما لكُمُ في كوثر الحوض مَوْرِدُ

لعمري لقد غادرتمُ كل مؤمنٍ ... على مضض برح يقُوم ويَقْعُدُ

نفضتم الحيا وأرضيتُم العدى ... وأنتم لغير الله جندٌ وأعبُدُ[1]

فيا كبدي إن أنت لم تتصدعي ... فأنت من الصفوان أقسى وأجْلَدُ

ويا عبرتي إن لم تَفيضي عليهمُ ... فنفسيَ أسخى بالحياة وأجوَدُ

أتَنْتَهِبُ الأيام أفلاذَ أحمدٍ ... وأفلاذُ من عداهمُ تُتَوَدَّدُ

وَيَضحى ويظما أحمدٌ وبنَاتُهُ ... وبِنْتُ زياد وردها لايُطَرَّدُ

أفي دينه في أمنه وبلاده ... يَضيق عليهم فسحة تتوَرَّدُ

وما الدين إلا دين جدهمُ الذي ... به أصدروا في العالمين وأَوْرَدُوا

يَنامُ اليهود والنصارى بأمنهم ... ونومُهمُ بالخوف نوم مشرَّدُ

وما هي إلا ردةٌ جاهلية ... وحقد قديمٌ بالحديثِ يُؤَكَّدُ

ألهفي على سُبْلِ الهدى ونبوة ... جرى لهما يوم من الشر أنكدُ

شهيدين متبوعين من كل مؤمن ... بكل صلاة برة تتعقَّدُ

فهذا أذابت سَوْرَةُ السم كبده ... وهذا أفارقه قسى تكابدُ[2]

فما عذر أهل الأرض والقسط قائم ... وكلهمُ في موقف الفصل يشْهَدُ

أيفعل هذا بابن بنت نبيكم ... فليس لكم في النصر يوم ولاغَدُ

أبى الله إلا أنَّ في النفس حسرةً ... بغصتها أُضحي وأمسي وأرْقُدُ

إلى أن يقيد الله من كل واتر ... على أن كفّاً مُمْنَعاً ليس يوجَدُ

وأي دم يوفي دم ابن محمد ... حسين وأمسى وهو سبط موَحَّدُ

فيا خاتم الأسباط إنَّ تحيتي ... تؤمك من أرض بعيد وتَقْصِدُ

مُثقَّلَةً بالدمع شوقا ولوعةً ... على زفرة من حرها أتوأدُ

ويا أسوة للمؤنسين كريمة ... يلين عليها الحادث المتشدد

---

(١) الشطر الأول من هذا البيت مختل الوزن .

(٢) هذا العجز غير موجود في النسخة (ا)، وهو في (ب) هكذا، ووزنه مختل .

فمن ينكر البلوى وأنت بِكَرْبَلا ... لذي البثّ والشكوى إمام مقلّدُ
فإن تجهل الدنيا عليك وأهلُها ... فإنك في أهل السماء مبَجَّدُ
أبوك شفيعُ الناسِ وهُوَ الذي له ... مقامٌ كريمٌ في البريةِ يُحْمَدُ
ومشربه الحوض الروي بكفه ... تذاد رجال دونها وتطرد
وممن يذود الله عنها عصابةً ... بقتلك في طغيانها تتجمدُ
وذنبُهم في قتلك الذنْب كله ... فما لهم إلا الجحيم معَمّدُ
وهل كنتَ إلا مثل عمكَ جعفرٍ ... قتيلا لكفارٍ بذي العرش ألْحَدُوا
وإلا كليث الله عمك حمزةٍ ... وحربةُ وَحْشِيٍّ إليه تُسدَّدُ
وما منهمُ إلا عريقُ شهادةٍ ... حَيَاتُهُمُ موصولةٌ حين تَنْفَدُ
ومثل أبي حفصٍ وعثمانَ بعده ... ومثلُ عليٍ وهو للخلق سيدُ
دماؤهمُ مسك ذكي وأجرها ... على الله لا يحصى ولا يَتحدَّدُ
أقولُ ببثٍّ مستكنٍّ وظاهرٍ ... مضاضَتُهُ عن حبهمْ تَتَولَّدُ
وما سرني أني خليٌّ من الهوى ... هوىً هو في حاميمِ يُتْلَى ويُسْنَدُ
سريرةُ حبٍّ يومَ تُبلى سرائرٌ ... يقومُ بها عني الصفيح المنضَّدُ
سلامٌ على تلك المعاهدِ إنَّها ... لآل رسول الله طهرٌ ومَسْجِدُ
فيارب وفِّدني إليها مُسلِّماً ... ويا طيبَ مسرى من إليها يُوَفَّدُ
أفيض بها دمعي وأنقع غُلَّتي ... وأنعم في رَبْع الرسول وأنجدُ
وأدعو إلى الرحمن دعوةَ تائبٍ ... إلى عفوه من طيبةٍ يتزوَّدُ
وأسمو إلى البيت العتيق بفرضه ... فكلٌّ به من ذنبه يَتجرَّدُ
ولستُ على قبر الرسول بمؤثر ... ليحشر من ذاك البقيع محمدُ
فيارب حقق منيتي ومنيِّتي ... هنالك والأوراحُ جندٌ مُجَنَّدُ

وقد اقتصرت على هذا من مراثيهما رغبة في الإيجاز ، ولو كانت غَير خالية من متاع ، بغوامض اللغة ، والإطناب في المعاني البليغة ، والألفاظ الفصيحة ، وإثارة القريحة ، يهيج الشوق ، وقدح نار الحب في سويداء القلب .

ومما ينبغي الإمتاع به في هذا المحل مرثية حسان لحُمزة سيد الشهداء : (من بحر السريع)

أتعرف الدار عفا رسمها ... بعدكَ صوبُ المُسْبِل الهاطلِ
بين السراديح فأُدْمانةٍ ... فمدفعُ الرَّوْحاء في حائلِ

سـاءلتهـا عن ذاك فـاستعجمت ... لم تـدر مـا مـرجوعـةُ السـائـل
دع عنـك داراً قـد عفَـا رسمُهـا ... وابكِ عـلى حمـزةَ ذِي النـائـل
المـالىء الشِّيزى إذا أعصفت ... غـبراءُ في ذي الشَّـبمِ المـاحـل[1]
والتـاركِ القِـرْنَ لَدَى لبـدة ... يعـثر في ذي الخُرُصِ الذابـل[2]
واللابس الخيـل إذا أحجـمت ... كالليث في غـابتـه البـاسـل
أبيـضُ في الذروة من هـاشـم ... لم يمـر دون الحق بـالبـاطـل
مـال شـهيداً بين أسيـافكـم ... شُـلَّتْ يـدا وحشـيٍّ من قـاتـل
أي امـرىءٍ غـادر في ألَّةٍ ... مطـرورة مـا رنـةِ العـامـل[3]
أغْـبرت الأرض لفـقـدانـه ... واسـودَّ نُور القَمـر النـاصـل[4]
صـلى عـليـه الله في جنـة ... عـاليـة مكـرمـة النـازل[5]
كنـا نـرى حمـزة حـرزاً لنـا ... في كل هـول نـابنـا نـازل
وكان في الإسـلام ذا تُـدْرَاً ... يكـفيـك فقـد القـاعد الخاذل
لا تَفْـرَحي يـا هنـد واستحلبي ... دمعـاً وأذري عـبرة الثـاكل
وابكـي عـلى عتبـة إذ قطـه ... بـالسـيف تحتَ الرهج الجـائـل[6]
إذ خـر في مشـيخـة منكـمُ ... من كل عـات قـلبـه جـاهـل
أرْ[illegible]هـم حمـزةُ في أسـرة ... يَمشـون تحت الحـلق الفَـاضـل
عـداة جـبريـل وزيـرٌ له ... نعـم وزيـر الفـارس الحـامـل

و[illegible] أيضاً يبكي أصحاب مؤته : (من بحر الطويل)

تَـأوَّبـني ليـلٌ بيـثرب أعسـرُ ... وهـم إذا مـا نـوَّم النـاسُ مُسْـهـرُ
لذكرى حـبيـب هيجت لي عـبرةً ... سـفوحاً وأسبـابُ البكـاءِ التذكر[7]
بـلى إن فقـدان الحبيب بـليـةٌ ... وكم من كريم يبتـلى ثم يصـبر

---

(١) الشيزى: قصعة كبيرة تصنع من خشب صلب. والشبم: البارد. الماحل: المحل، القحط. والعاصف الريح .

(٢) القرن: الند، وذي الخرص: الرمح .

(٣) مطرورة: مسنونة أي حادة والمارنة: اللدنة الصلبة .

(٤) [illegible] أصبحت بدل أعبرت .

(٥) [illegible] مكرمة تداخل بدل النازل .

(٦) الرهج [illegible] النائر . (٧) هذا البيت وزنه مختل .

رأيت خيــــار المـــؤمنـــين تـواردوا شـعـوبـا[١] وخلفـا بعـدهـم يتـأخر
فـلا يُبْـعِـدَنَّ الله قتـلى تتـابعـوا جميعـاً وأسبــاب المنيــة تخطـر[٢]
غـداة مضَــوا بـالمـؤمنـين يقـودهـم إلى المـــوت ميمـون النقيبــة أزهـرُ
أغرُّ كضـوء البـدر من آل هـاشـم أبِيّ إذا ســيم الظُّــلامـةَ مِجْسَــرُ
فطــاعنَ حتى مـال غـير مُوَسَّـدٍ بمعـــترك فيـــه القنـــا متكسـرُ
فصـــار مع المستشـــهـدين ثـوابـه جنـــان ومـلتفُّ الحـدائق أخضرُ
وكنـــا نـرى في جعـفـر من محمـد وفـاءً وأمـراً حـازمـاً حـين يـأمرُ
ومـا زال في الإســلام من آل هـاشـم دعـــائمُ عـــز لايُـزلْنَ ومَفْخَـرُ
همُ جبـل الإســلام والنـاسُ حولهم رِضـــامٌ إلى طـود يروق ويقْهَـر[٣]
بهـاليـلُ منهـــمْ جعفـرٌ وابن أمِّـه عـــلِّي ومنهـــمْ أحمـدُ المتخـيَّـرُ
وحمــزةُ والعبـــاسُ منهـــمْ ومنهـــمُ عقيـل ومـاء العـود من حيث يُعْصَـرُ
بهـم تُفـرج اللأواء في كل مـأزقٍ عِماسٍ[٤] إذا ما ضاق بالناس مصدر
هـمُ أوليــاء الله أنـزل حكـمَــه عـليهـم وفيهـم ذو الكتـاب المُطَهَّرُ

ولما مات العباس رضي الله عنه وجد عليه ابنه عبد الله وجداً شديداً حتى لزم بيته فلا كلم أحداً ، وقد عُزِّيَ مراراً فلم ينْجع فيه العزاءُ، حتى أتاه رجل من الأعراب، وقد بلغه حزنه ولزومه بيته ، فقال له منشداً : (من بحر الكامل)

خـــير من العبـــاس أجـرُكَ بعـده والله خَيْـــرٌ مِنْـــكَ للعبــــاسِ
فـاصـــبر على البـلوىنكنْ بك صُبَّراً صـــبرُ الرعيـــة عنـد صـــبر الراس

فعزي فقـال له : إنه قد عزاني النـاسُ بالايات والآثار والمواعظ ولم أتعز إلا ببيتيك

---

(١) شعوب: المنية، وسميت بذلك لأنها تشعب الأحبة. أي تفرقهم. ونُصبت على نزع الخافض: تواردوا إلى شعوب .

(٢) البيت في السيرة هكذا :

فـــلا يبـــعـــدن الله قتـــلى تتـــابعـــوا بمـؤتـة منهـــم ذو الجنـــاحـين جعفـر
وزيـــد وعبـــد الله حـــين تتـــابعـــوا جميـــعـــاً واسبـــاب المـنيـــة تخطـــر

(٣) الرضام: جمع رضم: الحجارة يركب بعضها بعضاً . والطود : الجبل .

(٤) عماس: مظْلم شديد . واللأواء : الشدة .

هذين، فلم أفهم قول رسول الله ﷺ : ((إن من الشعر لحكمة))[1] إلا من يومي هـ
فعلمت أن للأشعار المستحسنة مواقع في النفوس لايبلغها غيرها لكونها كفئاً لها، بخلاف
التنزيل فإنه قولٌ ثقيل تذوب تحت تجليه النفوس فيؤودها[2] حمله؛ فأعطى الأعرابي ألف دين
ومائة ناقة، وحمل له على قَلوصه من الثياب الحسنة ما تستطيعه ، ثم خرج إلى المسجد فأقب
إليه الناس يهشون من كل شارع، فقال لهم: إني تعزيت ببيتين من الشعر أتى بهما أعرابي م
البادية ؛ فعلِّموا ابناءكم الأشعار المستحسنة ؛ فإنها تورث ذكاء وكرماً .

ولما ماتت بنت رسول الله ﷺ فحزن عليها أتاه أعرابي فقال له : يا رسول الله ، عو
سترت، ومؤونة كفيت؛ فتبسم رسول الله وقال : ((لقد عزاني بقولك هذا جبريل آنفاً)) .

ولما مات ابن معاذ رضي الله عنه وجد عليه وجداً شديداً ؛ فكتب إليه رسول ال
ﷺ : ((من محمد بن عبد الله إلى معاذ بن جبل، السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أ
بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لاإله إلا هو، أما بعد : فإنه بلغني موت ابنك ، فحسن ال
عزاءك ؛ فإن أبناءنا نورُ أبصارنا ، وربيع أفئدتنا ، متعنا الله بهم في غبطة ، ثم سلبهم في عافية
فلا يُفسدن عليك ما ترتجيه من الأجر ماتجده من الجزع ؛ فتجتمع عليك المصيبتان ، ولتستع
يا معاذ لمثلها فكأن قد ، والسلام عليك)) .

وقال معاذ: فوالله ماهو إلا أن قرأتُ كتاب رسول الله ﷺ أفْرغ الله عليَّ درعاً م
الصبر من هامتي إلى ان عَفَّى اثري . فما وجدتُ على ميت بعد ذلك إلى يومي هذا .

وهذا الباب بحر لايدرك ساحله، ومشرب عذب لايروى منه جاهله ؛ فلنقتصر عل
هذه النبذة اليسيرة من هذه القصة العسيرة، لا أنسانا الله ذكرها ولا أعوزنا شكرها ، آمين بجا
النبي الأمين .

قال رحمه الله :

٩٠ ــ وذُدْ عَنْ زِنىً وأْمُرْ زَنَـاءً بطُهْرِهِ　　　ولَشَّ القِضى اختر إنْ دَعَاكَ قَضَاءُ

قوله : وذد أي : اكفف نفسك واقرعها واحبسها عن زنى: وهو مباشرةُ ما لايحل م

---

(١) حديث « إن من الشعر لحكمة » صحيح رواه البخاري وأبو داود وابن ماجة . وهو عند البخاري ف
باب الأدب .

(٢) يؤود: يثقل .

معالجة النساء ، سواء كان ذلك بالعين أو باليد أو باللسان أو بالرجل ، ومن باب أحرى إن كان بالفرج، قال الرسول ﷺ : العين تزني، واليد تزني ، واللسان يَزْني ، والرجلُ تزني، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه[1] .

وقال ﷺ : ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن))[2] .

وقال ﷺ : ((إن أهل النار ليتأذون من نتن فروج الزناة ، وإن الغسلين لما يسيل من فروجهم)) .

ويروى أن الزانية تأتي يوم القيامة وقد تدلى فرجها حتى يكون كالدلو ، وإن الزاني بها يلحسه وقد غشيهما من الهوان والخزي ما لم يغش أحداً من أهل الكبائر .

ويروى أن الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض فَدحاها من تحت البيت قال : انا الله ذو بكة ، لأغنين الحاج ولو بعد حين ، ولأفقرن الزاني ولو بعد حين .

وقال رسول الله ﷺ : ((أبغض الرجال إلى الله ثلاثة : الشيخ الزاني ، والفقير المتكبر، والغني البخيل))[3] .

ويروى أن الرجل إذا أزال الستر بينه وبين امرأة لاتحل له نادت ملائكة السماء: ألا إن فلاناً قد أزال الستر بينه وبين ربه ألا فالعنوه، لعنه الله .

ويروى أنه لايملأ بصره من النظر إلى امرأة لاتحل له إلا نكتت في قلبه نكتة سوداء فَلا يزايلها إلا الإقلاع والتوبة النصوح.

وكان سبب هلاك بَرصيص الراهب بعد طول عبادته وزهده الزنى.

قال ﷺ: ((باعدوا بين أنفاس الرجل والنساء؛ فإنه لايخلو رجل بامرأة لاتحل له إلاوضع

---

(١) حديث « العين تزني واليد تزني الخ... » متفق على صحته رواه الشيخان البخاري (٨١/٥) ومسلم (٢٦٥٧) ، كما أخرجه أبو داود .

ولفظ مسلم أتم واشمل، وأوله: « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى .. الخ » والله أعلم .

(٢) حديث « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » جزء من حديث متفق على صحتـه رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه ، وآخر الحديث عند البخاري: « ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصـارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن » ، وهو عنده في كتاب الأشربة ، والله أعلم .

(٣) حديث « ابغض الرجال إلى الله ثلاثة الخ.. » رواه النسائي والترمذي بلفظ : =

عليهما الشيطان كنفَه ونفخ في إحليل الرجل وفرج المرأة حتى يوقعهما في الفاحشة))[1] .

ويروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: ما كثر الزنى في بلدة إلا وجرّ عليها السيف، ولا منع قوم الزكاة إلا ومنع اللهعنهم قطر السماء، وما طفَّفَ قوم المكيال والميزا إلا وابتلاهم اللهبغلاء أسعارهم، ولا ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا وعمه اللهبعقاب من عنده.

وقيل لرسول الله ﷺ : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: ((نعم إذا كثر الخبث)).

والزنى، بالكسر والقصر، أما الزناء، بالفتح والمد: فهو عبارة عن احتقان الأخبثين.

قال علي رضي الله عنه: (من بحر الطويل)

ولا تمسك الفضلات عند هياجها ... ولو كنت بين المرهفات الصوارم
وفي كل أسبوع عليك بفيئة ... لعلك تنجو من شرور البلاغم

قال ﷺ : ((لايصلينَّ أحدُكم وهو يدافع الأخبثين))[2] .

وقد اتفق حذاق الأطباء وجهابذتُهم أن احتقان الأخبثين يورث المليلة والخفقان ووج المثانة والحصا. وربما أدى إلى السدد وهو عسر البول.

واتفقت العلماء المالكية على بطلان الصلاة به حيث كان مشوشاً للفكر.

وأما الشافعي فإنه قد أوجب بطلانها بمجرد الاحتقان؛ إذ مدافعتهما عنده كحملهم وحمل نهي النبي ﷺ على التحريم؛ إذ حمله على غير ذلك يخرج بنا عن حمل الحديث ع ظاهره؛ وذلك يؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه؛ إذ سبيل السنة عنده كسبيل الكتاب.

= « إن اللهيبغض ثلاثاً: الشيخ الزاني، والبخيل المنان، والفقير المختال » وفيه (الغني الظلوم) بدل (البخيل المنان) .

وأورده الغزالي باللفظ المتقدم (٢٤٧/٣) ، والله أعلم .

(١) حديث «باعدوا بين انفاس الرجال والنساء» هذا القدر من الحديث غير ثابت عن النبي ﷺ، أورد صاحب الكشف تحت رقم ٨٧٥ وقال: قال القاري: غير ثابت، وإنما ذكره ابن الحاج في المدخل في صلا العيدين، وذكره ابن جماعة في منسكه في طواف النساء من غير سند (٣٢٩/١).

(٢) حديث « لايصلين أحدكم وهو يدافع الأخبثين » صحيح رواه ابن حبان بهذا اللفظ إلا أنه قال: يصلي بدل يصلين، كما رواه مسلم بلفظ: « لاصلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافع الأخبثين ». وأورده ابن حجر في التلخيص تحت رقم ٥٦٦ .

وأما المالكية فقد فصلوا في ذلك، وخصصوا عموم الحديث، فقالوا: إنها تَبطل الصلاة حيث كان الاحتقان يشغل عن فرض. واختلف في ذلك الفرض؛ فقيل: الخشوع، وقيل: الحضور، وقيل: الطمأنينة. واستدلوا على الجميع بأدلة: منها قوله ﷺ : ((مالك من صلاتك إلا ما عقلتَ)). وقوله تعالى: ﴿ **ويَخِرُّونَ للأذقَان يبكون ويَزيدهم خشوعاً** ﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وقال ﷺ : ((صلوا كما رأيتموني أصلي))[١] .

وكان ﷺ إذا قام يصلي يسمعون لصدره أزيزاً كأزيز المرجل من شدة البكاء[٢].

واتفق أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يسمعون وجيف صدر عمر رضي الله عنه من البكاء إذا قام في الصلاة وهم في مؤخر الصفوف. وعلى مثل ذلك مضى السلف، وكان زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه إذا قام إلى الصلاة اصفر حتى كأنه نزف منه الدم، حتى قيل له في ذلك، فيقول لهم: أتدرون بين يدي مَنْ أقوم ومن أناجي ؟ فلا أدري أيقبلها مني فأُهَنَّأ أم يردُّها علي فأُعَزَّى ؟.

ويروى أنه كان لايلبي فقيل له: لم لا تُلبي ؟ قال: لا أستطيع التلبية؛ فقالوا له: لا بد من التلبية، فلما ألحوا عليه لَبَّى، فلما لبى خرَّ مغشيّاً عليه؛ فالتزموه حتى أفاق، فلما أفاق قالوا له: ما بالك ؟ فقال لهم: لما قُلت: لبيك خفت أن يقال لي: لالبيك ولا سعديك؛ فحلَّ بي ما قدر رأيتم.

وكان السيد أبو العباس السبتي من شدة خوفه لله وتألهه لايسمع أحداً أنشد شعراً في الغزل إلا قال لقائله: دعنا من هذا، وخذ في مدح الله،والتشوق إليه والتحذير من أليم عذابه، ثم ينشد بديهة ما يُناقضه. وسمع منشداً ينشد أبياتاً قال: (من بحر الكامل)

رفعوا الهوادج للرحيل وأسلموا

فقال هو: (من بحر الكامل)

رفعوا الأنامل للصلاة فكبروا	**فبدا الخشوع بحزنهم فَترنَّمُوا**
وبدت سواكبُ دمعهم مسبولةً	**خوفاً لما قد أخروا أو قدموا**
هذي صلاة المتقين وغيرهم	**نائي الفؤاد وألْسُنٌ تتكلم**

---

(١) حديث « صلوا كما رأيتموني أصلي » جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان بألفاظ مختلفة، وهذا لفظ البخاري، وهو عنده في كتاب الأذان، وهو في التلخيص تحت رقم ٢٨٤ .

(٢) حديث « كان ﷺ إذا قام يصلي الخ.. تقدم تخريجه (في ص ٢٨١)

وسمع منشداً ينشد من أبيات: (من بحر الخفيف)

يـا أخي قـم تـر السـليم عـليـلا

فعارضه بهذه الأبيات: (من بحر الخفيف)

يـا أخي قـم تـر الكتـاب دليـلا　　واجعـل الذكر والسجـود سبيـلا

واطـلبـنَّ الإلهَ جنـة خـلده　　بخضـوع يـراك فيـه ذليـلا

إن رب العبـاد يـدعـوك ليـلاً　　إن فضـلي لمـن يكـون سـؤولا

أسـعف العبـد بـالإجـابـة مني　　ليس فضـلي عـليك عبدي قليـلا

وكان أبو العباس يلهج بهذه الأبيات التي لشيخه أبي عبد الله العجار: (من بحر الكامل)

عقـدت عـليك مكـمّنـاتُ خواطر　　عقـد الرجـاء فـألزمتك حقـوقـا

إن الزمـان عـدا عـليَّ فـزادني　　عـلمـاً بـأنك خـالقي تحقيـقـا

مـا نـالني دهـرٌ بـوجـه مسـاءةٍ　　إلا عـبرت بـه إليـك طـريقـا

أمضِ القـضـاء على الرضى مني به　　إني وجـدتك بـالعبـاد رفيـقـا

فإذا سمعها يخر ساجداً لله ، وأنشده إياها حفيده أبو زكرياء وهو في النزع. فأخذ يد

فقبلها، فقال: قل: لا إله إلا الله ، فأخذ بيده إلى موضع قلبه، كأنه يقول له: هو في قلبي،

وأنشد عبد الله ابنه لأبيه رحمه الله فقال: (من بحر الطويل)

إلا يـا مُـنيبـاً بـات يدعـو إلهـه　　لقَـد هـاج لي شـوق إلى ذلك الورد

تبيتَ على قطع المـراحـل بـالتقى　　سبـوقاً إلى الخيرات في جنـة الخلد

ومثْـلي عـلى فـرش البطـالةِ غـافـلٌ　　فيـا أسفي من قرب غيري ومن بعدي

أأنفـى من الفـردوس في جنـة العلى　　ويحظى بها ذو الدمع سكباً على الخدْ

وقالت المالكية: وليس حمل النهي على التحريم بأولى من حمله على الكراهة: إذ لا دليل

يخصصه بالحمل على المنع؛ إذ النهي منه جازم وغير جازم كما أن الأمر كذلك.

وتفصيل المالكية يقتضي الوجهين اللذين يقتضيهما ظاهر الحديث، إذ جعلوا المدافعة

حيث أفضت إلى الشغل عن واجب من سجود أو قيام أو طمأنينة، أو خيف منه مبادر

إحدى الفضيلتين فيصير حينئذ وجهُ نهي الشارع على جهة التحريم، وإن كانت المدافعةُ إنما

تشوش الفكر أو يدافعها مدافعة دون تلك فَوجهُ نهي الشارع حينئذ إنما هو من باب خلاف

الأولى؛ فلا يأثم المرتكب ولا تبطل الصلاة.

قال ابن الحاجب في مختصره: وبطلت صلاة حاقن[1] وحازق وحاقب وذي قرقرة وغثيان إن شغل الكل عن فرض.

قوله: بطهره: عبارة عن الطهارة المجازية، أي مره بإفراغ أخبثيه لأنه إذا أفرغهما فقد طهر من حملهما ومدافعتهما: حقيقةً على مذهب الشافعي، ومجازاً حملاً على مذهب مالك؛ لقوله تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿ **أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ [النمل: ٥٦]، أي يتطهرون من إتْيان الرجال في أدبارهم، فلما لم يفعلوا ذلك الفعل القبيح صاروا وكأنهم قد تطهروا منه.

قوله: ولش: أي أكل. القضى، بالكسر والقصر: جمع قضية، وهو ضرب من الحمض.

وتركيب معنى البيت: ذد أيها المريد عن زنى نفسك أو من أراده بالفعل إن قدرت، فإن لم تقدر بالفعل فبالقول، فإن لم تقدر فاكره ذلك بقلبك، وأمُرْ شخصاً حاقناً للخبث بطهارته، واختر أكل مالا يتغالى الناس فيه زهداً وتخفيفاً وتعففاً كالقضى مثلا إن دعاه، أي اقتضى أكله، قضاء أي حكم؛ تعريض بأن لم تجد شيئاً سواه تأكله بدله أو شرعي بأن لم تجد معه إلا حراماً أو شبهة.

والمعنى: مر بالمعروف، وَانْهَ عن المنكر، وتَوَّرع؛ فهذه معظم أحوال الإرادة؛ إذ أهل الإرادة يُنزهون أنفسهم عن تتبع الرخص لكونه من باب الانتصار للنفس وتتبع شهواتها.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ [الاسراء: ٣٢] جعلنا الله ممن جعل أساس بنيانه على تقوى من الله، آمين آمين.

ثم قال رحمه الله :

٩١ ــ وأكلَ الرِّبا احْذَرْ ذَا رِبَاءٍ وإنْ جزىً ... وُلِيتَ فَـوالِ الْعَـدْلَ يُسْـنَ جَـزَاءُ

قوله: (وأكل الربا احذر): فأكل: منصوب بفعل مقدَّر قبله يفسره احذر. الربا: مضاف إليه ما قبله، وهو بالكسر والقصر: الزيادة في المال على وجه لا يرتضيه الشارع، قال الله تعالى: ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات** ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فالمعنى: أن الربا ولو زاد المال فيا يرى الناس ظاهراً إن الله يمحقه، ويمحق الأموال التي خالطها بذهاب بركتها أولاً، وقطع شأفتها واجتثاثها من أصلها آخراً.

---

(١) الحازق: المتقبض أو المتحفز. الحاقب: واضح الحزام على بطنه بشد.

قال ﷺ : ((الحرام أصل الخراب)).

قال ﷺ : ((ما من بناء دخلته حَجرةٌ أو مدرة من حرام إلا كانت سبباً لخرابه)).

ويروى: ما اتَّخذَ رجل استعمال الربا في صفقة فمات وهو غني.

وما أوعد الله تبارك وتعالى بالحرب في عمل من الأعمال المحظورة إلا في الربا ومعاداة الأولياء . قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ [البقرة:٢٧٨]. وأما معاداة الأولياء فقد قال رسول الله ﷺ في حديث قدسي يرويه عن ربه: ((من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب))[١] .

ومن عظيم أمره أن الله تبارك وتعالى لم يكتف بالنهي عنه حتى أوعد فاعله بالمحاربة، ولم يكتفِ بوعده إياهم بالمحاربة حتى بين سوء حالهم يوم القيامة؛ فقال تعالى: ﴿ **الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال ﷺ : ((لعن الله آكل الربا وموكله والشاهد عليه والقاضي به وبائعه ومشتريه))[٢] .

---

(١) حديث « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » جزء من حديث طويل. رواه البخاري من إفراده، وأوله: « إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»، وآخره: « وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ».

قلت: هذا الحديث لم يروه بسند صحيح غير البخاري في صحيحه. ومع ذلك حاول بعضهم الكلام فيه؛ لأن شيخ البخاري فيه هو خالد بن محمد العطواني رمي بالتشيع، وقيل: له مناكير. كما ان شيخ شيخه وهو شريك بن عبد الله تكلم فيه.

قال الحافظ ابن حجر: قال الذهبي في الميزان: خالد بن مخلد له مناكير. وقال أبو حاتم: لايحتج به.وأخرج ابن عدي عشرة أحاديث من حديثه استنكرها.. إلى أن قال ــ يعني الذهبي ــ: هذا الحديث غريب جداً، ولولا هيبة البخاري لعدوه من منكرات خالد بن مخلد، فإن هذا المتن لم يرو إلا بهذا الإسناد، ولا أخرجه ما عدا البخاري. (انتهى كلام الذهبي).

قال ابن حجر: وإطلاق انه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود، ومع ذلك فشريك شيخ خالد فيه، وقال أيضاً : وهو راوي حديث المعراج الذي زاد فيه ونقص وقدم وأخر .

وللحديث طرق اخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً. اهـ (٣٤١/١١) فتح، والله أعلم.

(٢) حديث « لعن رسول الله ﷺ آكل الربا... الخ » صحيح رواه مسلم بلفظ: « لعن رسول الله ﷺ =

وقال ﷺ : رأيتُ ليلة أُسري بي أقواماً بطونهم كالبيوت، كلما نهضوا سقطوا؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال: أكلة الربا والسحت. ورأيت رجالاً بإزائهم لحم نضج طيب وهم يأكلون لحماً خبيثاً منتناً؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: أولئك رجال يقومون من الليل عن نسائهم من الحلال الطيب فيذهبون إلى نساء خبيثات فيبيتون معهن، ثم رأيت رجالاً لهم أظافر من حديد يخمشون بها جنوبهم ثم يأكلون من لحومهم؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال: هؤلاء المغتابون. ثم رأيت رجلاً ورجلٌ قائم عليه بفهر[1] يشدخ به رأسه، فإذا تدهده الفهر فذهب الرجل ليأخذه رجع الرأس إلى هيئته؛ فيرجع إليه فيشدخه به، فهما كذلك؛ فقلت له: من هذا ياجبريل ؟ قال: ذلك الرجل يقرأ القرآن ولايقوم به من الليل فإنه يفعل به كذلك إلى يوم القيامة. ورأيت نساء معلقات بثديهن وهن يضربن بسياط من نار؛ فقلت: ما بالهن يا جبريل ؟ فقال: تلك نساء يوطئن فُرش أزواجهن من يكرهون، وفي رواية: يدخلن على أزواجهن ما ليس من أهلهم ». إلى غير ذلك من تجليات الملكوت مما أُريه ليلة الإسراء.

ولما حرم الله الربا قال مشركو مكة: لِمَ حرّم محمد الربا وإنما البيع مثله ؟ فأنزل الله تكذيباً لهم ورداً عليهم فقال تعالى: ﴿ قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فالربا من حيث هو ربا. والربا على قسمين: جاهلي وإسلامي:

أما الجاهلي: فكان الرجل يسلم للرجل أو يداينه، فإذا حل الأجل يلزمه فيقول له: إما أن يقضيه ناجزاً، وإما أن يزيد له في الثمن إلى أجل آخر يصطلحان عليه، وكانا قد علما قدر الزيادة.

وأما الربا الإسلامي*: فهو على قسمين: ربا فضل، وربا نساء، وكل ذلك يشمله الحديث الصحيح المخرج في الصحاح كلها بأسانيد جمة وروايات مختلفة، وهو قوله ﷺ : ((الذهب بالذهب ربا إلا يداً بيد مثلاً بمثل، والورق بالورق ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد، والبرُّ

آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء ». (٥/٥٠) مسلم، كما رواه الطبراني بلفظ آخر، وعنه السيوطي في جامعه ورمز له بالحسن وزاد فيه، قال المناوي شارحه: قال الحاكم: على شرط مسلم، وأقره الذهبي وقال: إسناده صحيح (٥/٢٦٩)، والله أعلم.

(١) الفهر: الحجر.

* كل الربا محرم في الاسلام ـ ولاينسب شيء منه إلى الاسلام إلا أن كثيراً من الناس قديماً وحديثاً استعمل كلمة الربا الاسلامي في مقابلة مايعرف بالربا الجاهلي: على اعتبار أن هذا النوع عرف في الإسلام أما الجاهلي فلم يعرف إلا في الجاهلية والله أعلم .

بالبر ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد، والتمر بالتمر ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد ، واللحم باللحم ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد ، والملح بالملح ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد)).

وفي رواية: ((الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء، والورق بالورق ربا إلا هاء وهاء، والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء، واللحم باللحم ربا إلا هاء وهاء، والملح بالملح ربا إلا هاء وهاء، فمن زاد أو استزاد فقد أربى))[1].

ويشمل قوله ﷺ : ((الذهب بالذهب والورق بالورق)) المعادن النفيسة كلها كالرصاص والنحاس والقزدير والحديد. ويشمل قوله: ((البر بالبر)) جميع أنواع الحبوب والقطاني مما يقتات ويدخر. ويشمل قوله: ((التمر بالتمر)) جميع الثمار والعسول. ويشمل قوله: ((اللحم باللحم)) جميع الدسومات، ويدخل في ذلك الزيت بأنواعه والسمن والأقط واللبن والودك وإن اختلفت أجناسه، ويدخل في ذلك الجلد والعظم والمخ والنخاع. ويشمل قوله: ((الملح)) جميع المعادن المتغيرة من جنس التراب بملوحة أو مرارة أو حموضة كالشب والزرنيخ والنطرون والكبريت[2].

فالفضل: الزيادة عدداً أو حالاً بين الأجناس المتحدة، فإذا اختلفت الأجناس فلا بأس بالزيادة كإسلامك مُدَّي دخن بمد شعير لا مدي شعير بمد قمح لاتحاد الجنس ولو كان القمح أجود، لكن الطعام وإن اختلفت أجناسه فإنه لابد فيه من المناجزه، وإذا تباينت الأجناس جاز الفضل والنسيئة كسلمك جملاً أو ثوباً بعشرين ديناراً إلى أجل، أو بيعك طعاماً بمائة دينار إلى شهر أو نحوه.

والنسيئة: التأخير.

ومن البيوع ما هو فاسد من غير أن يكون ربويّاً، وقد نص الشارع عليه بقوله: « لايجوز البيع إلا بأجل معلوم وثمن معلوم وقَدر معلوم ». فيدخل في ذلك وجوب العلم بالمثْمُون والقدرة عليه؛ فلا يكون مجهول العين ولا العدد كالجنين والمغيب في سلة ونحوها، والثوب الذي لاينشر، وبيع الليل إلا ما يعلم من اللمس أو الذوق، وبيع العربان، أو على منتهى الحصاة،

---

(١) حديث « الذهب بالذهب ربا... الخ » حديث متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما، وهو كما قال الشيخ مروي بأسانيد جمة وروايات كثيرة، وليس اللحم من المتفق على صحته، والله أعلم.

(٢) قول النبي ﷺ لايجوز أن يُحَمَّلُ أكثر مما يتحمل فالذهب مثلاً لايطلق إلا على المعدن المعروف وكذلك باقي الأصناف والله أعلم.

سعر لم يعلمه، أو على ما باع به فلان كالمضامين والملاقيح والآبق والشارد وحيتان نهر وقدوم
يد لا الجذاذ وقدوم الحاج وطلوع الثريا، بخلاف رجوع العسكر وإبان المطر، وباقي مسائل
بيع موكول إلى كتب الفقه المستقلة، وقد تركناها مخافة التطويل الممل.

قوله: ذاربَاء، بالمد والفتح: أي حالة كونك صاحب فضل أي غنى والجِزى، بالكسر
القصر: جمع جزية، وهو ما تأخذه الولاة على الرعية من زكاة أموال المسلمين والمغرم وخمس
ركاز وما يؤخذ على أهل الذمة. والجزاء، بالمد والفتح: ثواب الأعمال خيراً كان أو شرّاً، قال
عالى: ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة
حريرا** ﴾ [الإنسان:١٢] وقال: ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن: ٦٠]،
قال: ﴿ **وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [سبأ: ١٧].

وتركيب معنى البيت فكأنه يقول: اجتنب أكل الربا في حال كونك ذا فضل أي غنى،
ل تعالى: ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا إولي القربى** ﴾ [النور: ٢٢]،
هذا مما يفهمه قوله في البيت الذي قبله:

((ولَشّ القضى اختر إن دعاك قضاء))

فيكون هذا تأكيد لذلك المفهوم، ويسمى مفهومه تذييلاً.

قوله: وإن وليت جزى: أي جعلت والياً على قبضها ممن تجب عليه، أو على جعلها في
واضعها فوالِ العدل، أي تابعه والزمه ولا تحد عنه: بأن لا تأخذها إلا ممن تجب عليه بحسب
حال، ولا تدفعها إلا لمن يستحقها. قال ﷺ : ((العدل إذا دام عمر، والجور إذا دام
مر)).

وليس للجباة والمفرقين إلا أجرة أمثالهم أو ما وضح لهم الإمام، كما فعل الرسول ﷺ
ذي جعله على زكاة قوم، وكان يهدى إليه لمكانه من رسول الله ﷺ ، فلما قدم على رسول
ه ﷺ عزل جزءاً من المال فقال: هذا لي، وهذا من عملكم، فأخذ منه رسول الله ﷺ ما
ل ثم قال له: ليقعد أحدكم في بيت أمه فلينظر هل يهدى له بشيء ؟!

ومعنى البيت بديهة: تورع في مأكلك فلا تأكل إلا طيباً، واعدل فيما وليته يعظم جزاء
مالك على قدر ذلك في الدار الآخرة. وقوله: يُسْنَ: مضارع أسناه أي رفعه، وهو مبني لما لم
م فاعله مجزوم بحذف آخره لكونه جواب الأمر.

ثم قال رحمه الله :

٩٢ ـ وحِجْلَى وحَجْلاَءَ اجْتَنِبْ لَعِباً بِهَا فَمُـعْـطِـي الإلَى إنْ أبْطَـرَتْـهُ ألاَ

فالحِجلى، بالكسر والقصر: جمع حجلة، وهو طائر مرقم جميل يتخذه المترفون للهو وهو من أضعف الطير طيراناً وألينه عريكة لكونه لايتسبع ولا يمتنع لضعفه. قال الشاعر: (من بحر الكامل)

ارحمـوا صبيـتي الذين كأنهـم حجـلى تدرج في المدكة أو تقع[1]

وهي التي مثل الرواة بِزِرِّهَا خاتم رسول الله ﷺ ، وهو قُرطهما،والقرطم شيء يعلو خياشيمها كأنه رقم وفيه نفط دقيقة كأنها وخز الإبر. والحجلاء، بالمد والفتح: الدابة البيضاء القوائم وسائر جسدها بخلاف ذلك. والإلى، بالكسر والقصر: مفرد النعمة، وجمعها آلاء والآلاء، بالفتح والمد: كل ما حسن منظره ومطعمه كشجرالدفلى[2] . والبطر: استعمال النعم فيما يجر النقمة، أو التطاول بها على القرناء على وجه الفخر والازدراء والفرح بها بدون أداء واجبها، أو التكبر بها عن اتباع من أوجب الشرع اتباعه: من نبي أو ولي أو عالم عامل أو وال للحق موال. وحقيقة البطر الكبر والأشر، يقَال: أبطرته النعم: إذا أطغته.

فكأنه يقول اجتَنب اللعب بما يلهيك من الطير كالحجلى مثلاً، ومن النعم كالحجلاء مثلاً، فإن ذلك لايجتمع مع شكر ما أنعم الله به عليك مما لايحصى بل هو محض بطر بسببها إذ لولاها لم يكن له لعب البتَّة؛ فالأولى به شغل خاطره بأداء شكرها الواجب عليه، المقتضي لدفع العذاب عنه، وإدمانها عليه، مع المزيد الموجب لزيادة الشكر وسرمدة الذكر، ولايستطيع أداء شكرها إلا باستمداده من الله أن يتولى شكر ذلك عنه؛ إذ لم يكن في وسع الإنسان أداء ما هنالك؛ إذ توفيقك للشكر نعمَة تقتضى منك مزيد الشكر، ولذلك قال: ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ [سبأ: ١٣]، فإذا كنا لانقوم بشكر نعمة واحدة فكيف نقوم بشكر نعم لاتحصى ؟! قال الله تعالى: ﴿ **وإن تَعدوا نعمة الله لاتحصوها** ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فإذا عجزنا عن مجرد الإحصاء فكيف نقوم بشكر الآلاء ؟ تول الله عنا ما هنالك، إذ هو القادر على ذلك.

ثم استعمل نشاطك الذي ربما دعاك إلى اللعب في العمل بطاعة الله ونفع إخوانك من المسلمين، وتحصيل ما عسى أن يكون لك عوناً على طاعته وشكر نعمه الجسيمة؛ فإن النفس

---

(١) البيت فيه خلل.

(٢) الدفلى، بالفاء: شجر زهره كالورد الأحمر وحمله كالخروب.

لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. ولذلك خلق الله الحرف وجعلها في طوق البشر ليتنافسوا تحصيلها وتكون شاغلة لهم عن الباطل.

قال الرسول ﷺ : ((إن الله يحب العبد المحترف))[1].

وفي المثل: (قيمة الإنسان فيما يحسن).

ثم أنعم الله عليهم بالفاقات داعية لاستعمالهم الحرف في تحصيل ضروريات الطبع؛ لأن ه خلق الإنســان مضطراً إلى القوت، مفتقراً إلى اللباس، محتاجاً إلى النسـاء، محبّاً للمال بنين، ولا يمكن تحصيل شيء من ذلك إلا باستعمال الحرف، قال الله تعالى: ﴿ **ولو بسط ه الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء** ﴾ [الشورى: ٢٧]؛ إذ من باده من يسوقه إليه بسلاسل الامتنان، ومنهم من يسوقه إليه بسلاسل الامتحان.

وتشبيه أهل اللعب بشجر الدفلى لحسن ظواهرهم برونق النعم وقبح بواطنهم بشين طر الذي هو من أعظم النقم.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **أفأَمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهم بأسنا بَيَاتاً وهم نائمون. أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحى وهم يلعبون** ﴾ [الأعراف : ٩٧ ـــ ٩٨] ، جعل الله اللعب سبباً لإتيان العذاب ، أو لأن أحوال من استوجب العذاب اللعب .

وقال تعالى في ذم الدنيا وأهلها : ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم تكاثر في الأموال والأولاد** ﴾ [الحديد: ٢٠] فَصَدَّرَ تعالى باللعب لأنه داعية تلك الخصال مذمومة: من اللهو والزينـة والتفـاخر والتكـاثر، فيكونون باللعب والبطر كالبهـائم في المروج خضر، عرفنا الله نعمه بدوامها ولا عرفنا إياها بزوالها، آمين.

---

(١) حديث: « إن الله يحب العبد المحترف » ضعيف جداً رواه الطبراني بلفظ: « إن الله يحب العبد المؤمن رف »، وعنه السيوطي تحت رقم ١٨٧٣ والحكيم، ورمز له بالضعف.

قال المناوي: قال الهيثمي: ضعيف. وقال ابن الجوزي: حديث لايصح. وقال في الميزان: أبو الربيع السمان رواية ـــ مضطرب الحديث. وقال الدارقطني: متروك. وقال هشيم: كان يكذب. وقال السخاوي: لكن له شاهد ٢٩١/٢) فيض. قلت: فبان من هذه النقول ان أقل درجات هذا الحديث الضعف الشديد، والله أعلم.

بـاب

مايقصر فيكسر ويمد باختلاف المعنى[1]

أي هذا الباب الذي يكسر أوله ويختلف آخره بالقصر والمد كما يختلف معناه فيجتمعان

في الكسر ويختلفان في المعنى .

ثم قال رحمه الله :

٩٤ ــ ورُبَّ حِمىً ضاق الحِماءُ به عِفاً   فـأقفـرَ حـتَّى ليسَ فِيـهِ عِفَـا

قوله : رب : قد تقدم بيانه . حِمىً ، بالكسر والقصر : المكان المحمي ؛ ومنه قول

ﷺ : ((ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كان كالراعي

يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه[2])) .

والحماء ، بالكسر والمد : المحاماة والممانعة . قال أبو طالب بن عبد المطلب : (من بحـ

الطويل)

ونحمـي حمـاهـا يـومَ كل كريهـة   ونضرب عن أحجـارهـا من يرومهـا

والعفا بالقصر : جمع عفوة ، بكسر العين ، وهي الخيار من كل شيء ، والعفوة الذ

هو مفرد هذا الجمع جمع أيضاً مفرده : عفو ، قال تعالى : ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون قُ**

العفو ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، والعفاء ، بالكسر والمد: كل ماطال وكثف من الوبر والشع

وريش النعام . قال زهير : (من بحر الوافر)

أذلكَ أم أقب البـطـن جـأب   عـليـه من عقيـقتـه عِفَـاءُ

فكأن الناظم يقول : رب مكان محمي عن الناس ضاقت المحاماة والممانعة فيه لأجـ

---

(١) قبل هذا الباب ترك الشيخ رحمه الله بيتاً لم يشرحه وهو :

٩٣ ــ وَلاَ تهـلك المِـعـزى بمعـزاءَ واعتَـبر   بـذي فـرىً وذا فـراء فَـذَاك وَفـاَء

(٢) حديث : «ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه الخ» جزء من حديث متفق على صحته رواه الستة

وأوله عندهم : «الحلال بَيّن والحرام بين وبينهما امور مشتبهة» وآخره : «يوشك أن يواقعه» ، وهذا لفظ البخار

وهو عنده في كتاب البيوع ، والله أعلم .

خيـار أمواله لكثرتها ، أي لم تسمع المحاماة جميعها لإفراط كثرتها ؛ فأقْفَر بعد ذلك المكان
المحمي ، أي صار خلاء من جميع ماكان فيه من دثر حتىً من الشعر والوبر .

فحمي : مجرور برب لفظاً مرفوع بالابتداء ، وجملة (ضاق) صفة له ، وجملة (فأقفر)
خبر عنه ، وصدرت بالفاء لإبهام المبتدأ لكثرة دخول الفَاء عليه ؛ فأشبه الشرط لذلك .

وأتى بالبيت تنبيهاً على أن الدنيـا وإن كثر حطـامهـا فإنها سريعة الانقلاب وشيكة
الذهاب مهيأة للخراب .

يروى أن سعد بن أبي وقَّاص الزهري أدرك الخرقة[1] بنت النعمان بن المنذر ملك الحيرة
وهي عجوز كالشن البالي وذلك مدة ولايته في العراق، فقال لها: ماأعجب الأشياء إليك أيام
دولتكم ؟ فقالت له : كثرة أصوات المجيبين إذا دعونا ، وكثرة الثناء علينا إذا منحنا أو عفونا ،
وكنت كلما جلست تقوم حولي ألف وصيفة عليهن الحلي والديباج ، وأرسـل إلى ابني يوم
الضحى ألف ثور واثني عشر ألف كبش ، فظللت غَضبى عليه حتى أعددته عاقاً لقلة مابعث به
إلي من الأضاحي ، فصاح بنا صائح الدهر ، فأصبح يرحمنا من كان يغبطنا . فأجزل لها في
العطية ، فقالت له : لاجعل الله لك حاجة إلى لئيم ، وإذا سلب من ذي نعمة جعلك الله
سبب ردها عليه .

ثم قال رحمه الله :

٩٥ ــ وَكَمْ بـاللِّوَى مِنْ ذِي لِوَاءٍ وَذي بِنًى عَـلَيْـهِ لأَيْـدي الْحَـادِثـاتِ بنَـاءُ

فاللوى : يقال لما بين رمال عالج وبلاد نجد ، وهو منقطع الرمال ، ورمال عالج متصلة بأرض
وبار التي سكنتها الجن بعد عاد ، فلم يهتد إليها بعدهم أحد إلا دُعَيْميصُ ، فتركته الجن حتى توسط
رمالها ، فطمست عينيه ، فهلك وهلك جميع من معه من العسـاكر والنجوع . ومن هذه الرمال
مايمتد حتى يدنو من الشام عن يمين السالك إلى إيلياء[2] ، وأما من قصد البلقاء والتخوم فلا بد من
قطع بعض هذه الرمـال ، وهذا الذي كان رسـول الله ﷺ يضـرب بـه المثـل في قوله :

---

(١) لعل صاحبة القصة هند الكبرى بنت النعمان ، والمحاورة التي كانت معها تمت بشكل آخر مغاير لهذه
الرواية . ومع المغيرة بن شعبـه أيام ولايتـه على العراق ، والقصـة التي أورد الشيخ تروي كذلك عن أم جعفر
البرمكي ، والله أعلم .

(٢) إيلياء : بيت المقدس .

((من سبح بعد كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله كتب له من الأجر عدد رمال عالج[1])) .

ومنه قول حسان : (من بحر الطويل)

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ... ضِرابٌ كأفواه المخاض العوارِك[2]

بأيدي رجال هاجروا نَحْوَ ربِّهم ... وأنصَاره حقاً وأيدي الملائك

إذا سلكت للغور من بطن عالج ... فقولا لها ليس الطريق هنالك

أقمنا على رأس النجود كائناً ... بأرعن جرار عظيم المبارك[3]

بكلِّ كُمَيْتٍ جوزه نصف خلقه ... وقُبٍّ طوال مشرفات الحوارك[4]

ترى العرفج العامي تذري أصوله ... مناسم أخفاف المطي الدواتك[5]

فإن نَلق في تطوافنا والتماسنا ... فرات بن حيانٍ يكن رهن هالك

وإن نلق قَيْسَ بن امرىء القيس بعده ... يُزَدْ في سوادٍ لونه لون حالك

وأبلغ أبا سفيان عني رسالة ... فإنك من غر الرجال الصعالك

واللواء ، بالمد والكسر : كل ماستطال من الأعلام ، وإذا كان مربعاً يقال له الراية . ولم تكن في قديم الزمان ، وإنما ابتدأها شداد بن عاد ، فهو أول من اتخذ الرايات والألوية ، فإذا بلغ الجيش ألفاً اتخذ اللواء ، وإذا كان الألف إنما يتخذ رئيسهم الراية ، وإنما يحمل اللواء السيد الكريم المقدام الشجاع البطل ، ولا يكون إلا في معظم الجيش ، فهو الذي يقودهم إلى الحرب ، ويفيئون إليه عند الكر والفر ، وقلما قتل صاحب الراية إلا انهزم جيشه إلا ما كان من يوم أحد ويوم اليمامة : أما يوم أحد فإنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ طلباً للغنيمة ، فأدبهم الله

---

(١) حديث : «من سبح بعد كل صلاة الخ» صحيح رواه مسلم بلفظ : «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد ثلاث وثلاثين وكبر ثلاثاً وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»، كما رواه غيره بالفاظ آخر والله علم

(٢) العوارك : جمع عارك : المرأة الحائض . ولايتم المعنى بهذه الرواية ، وفي السيرة لابن هشام : (المخاض الأوارك) بدل العوارك ، وهو الصحيح ، ومعنى الأوراك جمع أورك وهو العظيم .

(٣) البيت حسب رواية ابن هشام هو :

اقمنا على الرس النزوع ثمانياً ... بأرعن جرار عريض المبارك

والأرعن: الجمل الطويل، والرس: البئر القديمة. والنزوع القريبة القعر .

(٤) الحوارك : جمع حارك ، وهو أعلى الكاهل . وجوزه : وسطه .

(٥) العرفج : نبت معروف ، والعامي منه الذي له سنة أو هو الطويل .

تلك الهزيمة حتى أصابهم ماأصابهم من التمحيص . وأما يوم اليمامة فإن البلاء كان يأتي الناس من قبل الأعراب ، وكانوا معظم الجيش ، وكانوا ينهزمون ؛ فينهزم أهل السوابق والنيات ، ويثبت أهل الرايات ؛ فيقتلون .

فلما طال ذلك على أصحاب محمد ﷺ تنادوا : أخلصونا ؛ فأخلصوا لايخالطهم غيرهم . وانعزلت الأعراب جانباً ، فباشروا الموت الناقع رضي الله عنهم مخافة أن يؤتى الإسلام من قبلهم ، فاستشهد من المسلمين ألف ومائتان ، سبعمائة منهم حملة القرآن ، واستؤصل أصحاب الألوية رضي الله عنهم ، فمات زيد بن الخطاب ، وكان صاحب لواء المهاجرين ، ثم أخذه سالم مولى أبي حذيفة ، فقيل له : لايؤتى الجيش من قبلك فإن هلاك الجيش وفلاحه إنما هو بلوائه ، فقال لهم : بئس حامل القرآن أنا إن أتي المسلمون من قبلي ، فحفر لرجليه إلى أنصاف ساقيه ، فلم يبرح مكانه حتى قتل رضي الله عنه . وكذلك بشر بن الحارث الأنصاري وأبو دجانة وقيس بن شماس في سبعين رجلاً من الأنصار .

وأول لواء عقَده رسول الله ﷺ في الإسلام عقده لأبي عبيدة بن الجراح ، وبعض العلماء يزعم أنه بعثه حين قدم من غزوة الأبواء قبل بلوغه المدينة ، وأنه بعث في مقدمة المدينة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص[1] في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا جهل بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجزى بن عمرو الجهني ، وكان موادعاً للفريقين ، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال . وبعض الناس يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين ، وذلك أنّ بعثه وبعث أبي عبيدة كانا معاً ؛ فاشتبه ذلك على الناس ، وقد زعموا أن حمزة قال في ذلك شعراً يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله ﷺ ، فإن كان حمزة قال ذلك فقد صدق إن شاء الله ، إذ لم يكن له أن يقول إلا حقاً ، والشعر المروي عنه هو : (من بحر الطويل)

ألا يـالقـومي للحـلم والجهـل ... وللنـقص من رأي الرجـال وللعقـل[2]
وللراكبـين بـالمظـالم لم تطـأ ... لهـم حرمـات من سـوام ولا أهلِ
كأنـا نبلـناهـم ولانبـل عنـدنَـا ... لهـم غـير أمر بـالعفـاف وبـالعدل
وأمـر بـإسـلام فـلا يقبـلونـه ... ويـنزل منهـم مِثْـل منزلة الهزلِ

(١) العيص : قرية صغيرة قرب ينبع النخل .

(٢) الشطر الأول من هذا البيت لايستقيم وزنه هكذا ولعله للتحلم بدل الحلم .

فمـــا برحـوا حتى انتـدبت بغـــارة ... لهـم حيث حلوا أبتغي راحة الفصـلِ
بـــأمـــر رســـول الله أول خَـــافق ... عـــليـــه لواء لم يكـن لاح من قبـلي
لواء لديـــه النـصر من ذي كرامـــة ... إله عـــزيـز فعـــله أفضـــل الفعـــلِ
عشـيـــة ســـاروا حاشـدين وكلنـــا ... مـراجـله من غـيظ أصحــابـه تغلي
فـــلمـــا تـراءينـــا أنـــاخوا وعقـــلوا ... مطـــايا وعقـلنـــا مدى عرض النَّبـلْ
فقـــلنـــا لهـم حبـل الإله نصـيرنـا ... وليس لكـم إلا الضـــلالة من حَبْـل
فثـــار أبـو جهـــلٍ هنـــالك بـــاغيـــاً ... فَخـــاب ورد الله كيـــد أبي جَهْـــلِ
ومـــا نحن إلا في ثـــلاثـــين راكبـــاً ... وهـــم مـــائتـــان بعد واحدة فَضْـــلِ
فيـــالقـصي لا تطـيعـوا غـواتكـــم ... وفيئـوا إلى الإســـلام والمنهج السـهْـلِ
فـــإني أخـــاف أن يصبَّ عـــليكـــمُ ... عـذابٌ فتـدعوا بالنـدامة والثُكْـلِ

واللواء من حيث هو لواء لابد له من حامل ، وحماة يماثلون حامله أو يدانونه ، وفي ذلك يقول ضرار بن الخطاب : (من الخفيف)

يـــانبـــيَّ الهـــدى إليـــك لجـــاجي ... لقـــريش ولاتَ حـــينَ لجـــاءِ
حـــين ضـــاقت عليهـم وسعـــة الأرْ ... ضِ وعـــــاداهـــــمُ إله السماءِ
والتقت حَـلْقتـــا البطـــان على القو ... م ونـودوا بـــالصيـــلم الصـــلعـــاءِ
إن ســـعـداً يريد قَـاصـمـــة الظهـــ ... ـــر بـــأهـــل الحَجـون والبَطْحَـــاءِ
خـزرجيٌّ لو يستطيـع من الغيـــ ... ـــظ رمـــانـــا بـــالنســـر والعَـــوَّاءِ
فـــلئـــن أقحـــم اللواءَ ونَـــادى ... يـــاحمـــاة اللواءِ أهـــلَ اللوَاءِ
لتـكـــونَنَّ بـــالبطـحـــاء قـريشٌ ... فقـعـــة القـــاع في أكف الإمـــاءِ

وكان لايوصف بحمل اللواء حقيقة أو مجازاً إلا الكريم المنتخب ، قال الرسول ﷺ : «حامل القرآن حامل لواء المسلمين ؛ فلا ينبغي له أن يغفل مع من يغفل ، ولا أن يجهل مع من يجهل[1] » .

---

(١) حديث : «حامل القرآن حامل لواء المسلمين الخ» لم أجده بهذا اللفظ ، غير أن الديلمي في مسنده أخرج قريباً منه بلفظ : «حامل القرآن حامل راية الإسلام ، من أكرمه فقد أكرم الله ومن أهانه فعليه لعنة الله» . وعنه السيوطي في جامعه ورمز له بالضعيف ، قال المناوي : وفيه محمد بن يوسف ، قال الذهبي في الضعفاء له : قال ابن عدي : اتهم بالوضع (٣٦٨/٣) فيض .
كما أخرجه السيوطي في الأحاديث الموضوعة له ص ٢٣ ورقم ١١٦ ، والله أعلم .

وفي المسانيد المعتبرة عنه ﷺ أنه قال : ((أنا قائد الأنبياء والرسل يوم القيامة ، ولواء الحمد بيدي ، آدمُ ومن دونه من الأنبياء في ظل لوائي يوم القيامة . فقيل له : مامعنى لواء الحمد يارسول الله ؟ قال : أقوم مقاماً يوم القيامة يحمدني فيه الأولون والآخرون ويغبطني به الأنبياء والمرسلون ، فإذا قمته أتاني جبريل في ملأ من الملائكة يحمل لواء الحمد بيده ، فيجعل قائمه بيدي ، ثم ينشره على رأسي ، ثم ينادي مناد في عرصات المحشر : أن هلموا معاشر الأنبياء والشهداء والصديقين فاستظلوا بظل لواء سيدكم وسيد الملائكة المقربين ، فتخفق له سبعون ألف ذؤابة تحت كل ذؤابة أمة من الصالحين ، وقد نصب لي كرسي من النور ، ونصب للأنبياء حولي كراسي بعضها من ياقوت وبعضها من زمرد وبعضها من ذهب ، وأبو بكر عن يميني ، وعمر عن شمالي ، وعلي بن أبي طالب بين يدي ، وابن عفان بين كتفي ، ثم يأمرني ربي فأخطبَ فيهم ، فيلهمني ويفتح علي من الثناء الجميل عليه والحمد له ما لم يفتح عليَّ قبل ذلك وما لم يفتح على أحد من قبلي ولا من بعدي ، ثم بعد ذلك تكثر الألوية ، فيؤتى كل رسول وكل نبي بلواء ، ثم يؤتى كل إمام من أئمة هذه الأمة بلواء ، فإن كان من أئمة الحق والعدل والهدى أوتي لواء من سندس الجنة أبيض يغشاه نور الهداية ، فيذهب به حتى يقوم بين يدي الله ، فيخاطبه ، ويبشره ، ثم يأمر ملائكته فيتوجونه بتاج الكرامة ، ثم ينادى على رأسه : ألا إن فلاناً سعد سعادة لاشقاوة بعدها ، ثم يبشره الله برضوانه ، ويقول له : ارجع إلى أصحابك وبشرهم بأن لكل واحد منهم مثل مالك من الأجر والثواب وعلو المنزلة ، وإني عنهم راض ، فينصرف إلى أصحابه وقد صار وجهه كالكوكب الدري ، فيقولون : اللهم بارك لنا في القادم علينا ، يعنونه ، فيقول لهم : أبشروا إن الله يقول لكم ، إن لكل واحد منكم مالي من الأجر والثواب وعلو المنزلة ، وإنه عنكم راض ، فتكسي وجوههم نضرة وسروراً ، ويزدادون بقوله فرحاً وحبوراً ، وأما أئمة الضلالة فيعطون ألوية سوداً من مسوح النار ، ثم يقادون إلى حضرة الله تارة تأخذ الزبانية بنواصيهم وتارة تأخذ بأقدامهم ، حتى إذا أوقفوهم بين يدي الله فيقول تبارك وتعالى للزبانية : قفوهم إنهم مسؤولون ، ويوقفون مدة بغير جواب ، فلهم أذل من الذر [١] ، ثم يسألون سؤال توبيخ وتعنيت يتتعتعون [٢] ، ويتتلتلون [٣] ثم ينادى على كل واحد منهم : ألا إن

---

(١) الذر : النمل الصغير جداً ، أو هو كائنات اصغر لاتكاد العين تراها .

(٢) يتتعتعون : يتلجلجون ويترددون في الكلام .

(٣) يتتلتلون : كذا في الأصلين ، وهو قريب من معنى الأول .

فلاناً شقي شقاوة لاسعادة بعدها ؛ فيسوَّد وجهه ، وتزرق عيناه ، ويطمس أنفه ، ثم يجعل على رأسه تاج الخذلان والخزي والهوان ، ثم يقول الله : ارجع إلى أصحابك وأتباعك ، فسحقاً لك ولهم ، وبشرهم أني عليهم غضبان ، وأن لهم من العذاب الأليم والهوان المقيم مالك ؛ فيرجع إليهم ، فإذا رأوه مقبلاً قالوا : اللهم لاتبارك في هذا المقبل ، فلبئسما حملنا عليه ، ولبئسما أتانا به ؛ فيقول لهم : بعداً وسحقاً ؛ فإن لكل واحد منكم مثل مالي من العذاب الأليم والهوان المقيم)) .

أنظر البحر المحيط عند قوله تعالى : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ [الإسراء : ٧١] .

والبنى ، بالقصر والكسر : جمع بنية ، بكسر الباء وقد يضم : مابنيته ، والبناء ، بالمد : المبني .

فكأنه يقول : كثير من صاحب راية كالأمير في منقطع الرمل ، أي مدفون في التراب ، وكثير من صاحب أبنية ومصانع كالقصور والمنارات في حال كونه عليهَ بناء بأيدي الحادثات ، أي هالك مع الهالكين ، غير ممتنع بما بناه مما صار لسواه من بعد رداه .

فكم : مبتدأ ، وباللوى : خبره ، والباء بمعنى (في) . و (من ذي لواء) : نَعْتٌ لكم . وذي بِنًى : معطوف . وجملة (عليه بأيدي الحادثات) : حال من الضمير المستتر في الخبر ، أي : كم من شريف كان مولى اللواء في حال كونه عليه بأيدي الحادثات بناء .

فكأنه يقول : لو أغنت العساكر والحشود والمصانع والنهود في دفع الموت عن حيٍّ موجود لدفعتها عن المنذر بن عاد صاحب القصر المشيد ، فلما ولي وطغى وتجبر ، ونسي الموت ، ودوخ الأرض مشارقها ومغاربها ، ولم يعارضه أحد إلا غلبه ، حتى ملك مابين الصين إلى البحر المحيط من جهة المغرب ، فأقام بالمغرب عشرين عاماً مشتغلاً ببناء المدائن والقصور ، ثم توجه راجعاً إلى اليمن ، فكره أن يرجع إلى العمران من غير أن يبني بناء بأرض فيحاء يمنعه من الموت ويحرسه من الفوت ، فحشر المهندسين وأرباب التنجيم وحذَّاق الدهاقين ، وأمر وزراءه في أطراف البلاد وجميع المعمور أن يجبوا إليه أنواع اليواقيت والدرر والأحجار النفسية والعقيان والزمرد والبلور وحجر المها ، فبنى القصر المشيد وأكمله ، فلم يدع دُراً ولا ياقوتاً ولا ذهباً إلا وأفرش به أرضه وجدره ، ورصعه كله بأنواعه الجواهر والعقيان ، وبسط أرضه بالمرمر والرخام الملون والبلّور ، وكان قد أعطي قوة أربعين رجلاً ، فكان يلوي الحديد ، ويصيح بالأسد فيقع

بيتاً ، وطال عمره حتى كثرت ذريته ، وتمردت في الأرض ، وطغت ، وبغت . فلما كبرت سنه أراد أن يمتنع من الموت في القصر المشيد ؛ فبنى خارجه كله بالحديد المصقول وحجر لها المصقول ، فكان ذلك الحديد المصقول يرمي بشرر النار في النهار ، والحجر يرمي بشرر النار في الليل ؛ فيحرق كل ماقرب منه على أربعين ميلاً ، واتخذ له مدخلاً تحت الأرض ، وأجرى فيه الماء بلا حركات ، فلا يدخله أحد حتى تزول حركاته ويجف ماؤه ، وقال هو ووزراؤه : من أشد منا قوة ؟ فأجابهم القضاء والقدر[1] بقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة** ﴾ [فصلت : ١٥] ، وكتب على بابه : أنا الملك الأخضر ، أنا المنذر الذي لاأخشى الموت ولا أخاف الفوت ، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ؛ فأصبحت ديارهم خالية ، وقصورهم خاوية ، لايسمع فيها غير أصوات الجن المنكرة بعد القوة الراسية .

قال الشاعر : (من بحر البسيط)

هو الحمام فلا تبعد زيارته ... ولا تقل ليتني منه على حذرِ
ياويح من غره دهر فَسُرَّ به ... لم يخلص الصفو إلا شيبَ بالكدرِ
فانظر لمن باد تنظر آيةً عجباً ... وعبرةً لذوي الأفْهام والفكرِ
بادروا فعادوا حديثاً إن ذا عجب ... ما أوضح الرشد لولا سيء النظرِ
تنافس النّاسُ في الدنيا وقد علموا ... أن الُمقَام بها كاللمح بالبصرِ
فخل عن زَمن تُخْشَى عواقبه ... إن الزمان إذا فكرتَ ذو غيرِ
واعمل لأخراك لا تبخل بمكرمة ... ومهد العذر ليس العين كالأثرِ

انتهى .

فالمشيد هو المجصص المعلى المزخرف .

وفي البيت من البديع الاقتباس ، وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **أتبنُون بكل ريع آيةً تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾ [الشعراء : ١٢٨] .

ثم قال رحمه الله :

٩٦ ــ وكَانَ ثِناً يَثْنِي الثِناءُ بِسَيْبِهِ ... قِناً وَلديْهِ في الحُروبِ قِناءُ

(١) قصة هذه البناية العجيبة لاصحة لها إطلاقاً ؛ لعدم ثبوتها نقلاً مع أن كثيراً من المفسرين أوردها ، ويسمونها إرم ذات العماد مع أن ارم قبيلة وليست مدينه ولاقصراً والله علم .

قوله : وكان ، أي ذلك الذي باللوى، وعليه بأيدي الحادثات بناء مشيد عظيم المنزلة موالياً للسيد الأعلى كالخليفة مثلاً، وصفة الثنا أنه يثني أي يرد الثناء ، أي عقال العدم . والثناء : عقل البعير من يديه جميعاً عن قصده . بسيبه : أي عطائه، وكان أيضاً قِناً: أي مرضي الأحوال. وكأن هذا البيت متضمن معنى البيت الذي قبله وهو نوع من البديع .

قوله : ولديه : أي عنده رماح في الحروب لكثرة أعوانه وأنصاره وأتباعه، أي أهل قِناء يحمدونه ، فلم ينفعه شيء من ذلك في دفع الحادثات التي بنت عليه بناء بأيديها. فجملة (وكان ثنا): حال كجملة (ولديه في الحروب قناء)، الأولى حال من ضمير الجملة التي قبلها وهو ضمير الاستقرار محذوف ، ويصح أن يكون من الضمير الذي اشتملت عليه وهو مجرور بعلي ، والثانية من (ثِناً)، وأما قِناً فيصح أن يكون خبراً بعد خبر، ويصح فيه أن يكون حالاً من الخبر، فالثِنا، بالكسر والقصر: السيد الذي يلي السيد الأعلى. والثناء، بالمد والكسر: العقَال من اليدين. والقنا، بالقصر: مصدر قنى الرجل: إذا ارتضيت أحواله وأقواله. والقناء، بالمد: جمع قناة، وهي العوالي التي تُجعل عليها الألوية ، ويقال لها أيضاً: الحراب. قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فمـا منعت دار ولا عز أهـلهـا ... من النَّـاس إلا بـالقـنـا والقـنـابـل[1]

وهي التي يجعلون على جرابها أغشية وعلى أواخرها الزجاج[2] .

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ومن يعـص أطراف الزجـاج فـإنـه ... يطـيـع العـوالي ركبت كل لهـزم

وكان من عادة العرب إذا لقيت خيل خيلاً وأرادوا الصلح قلبوا عنهم الحراب ومدوا الزجاج ، وإن أبوا قلبوا إليهم رؤوس العوالي فوقعت المناجرة أو المحاجزة . وفي المثل : (المناجزة تورث المحاجزة) .

وفي البيت تلميح بالحث على إكساب المعدم وسد الفاقة ، وذلك يقتضي التلويح إلى قول خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ لما فاجأه الوحي فأقبل إليها ترجف بوادره من الجزع، فقال لها : زَملوني زَملوني؛ فقالت: مالك؟ فقال: إني أخاف أن يكون قد أصابني لمم من الجن فقالت له: كلا، لا يخزيك الله؛ إنك لتصل الرحم، وتكرم الضيف، وتحمل الكل[3]، وتكسب

---

(١) القنابل: الطائفة من الناس أو الخيل. (٢) الزجاج: بالكسر الحديدة التي في أسفل الرمح.

(٣) الكل: المشقة.

المعدوم ــ وفي رواية: المعدم ــ وتعين على نوائب الحق. تعني أن من جعله الله على هذه الخصال الكريمة لم يكن الله ليخزيه بلمم الجن، وإنما تتنزل الشياطين على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون .

ثم قالت له: انظر، هل تراه الآن؟ فرفع طرفه إلى السماء فإذا جبريل عليه السلام بين السماء والأرض على كرسي من نور، فقال له: ﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر** ﴾ [المدثر:١] الآية . فأماطت الخمار عن رأسها فقالت له: انظر هل تنحى أم هو في مكانه؟ فقال: قد غاب، فقالت له: أبشر يابن عمي فإنه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران .

وكانت امرأة حازمة ذات عقل وذكاء، وكان عمها ورقة بن نوفل قد تنصر وقرأ الكتب القديمة، وكانت تسمع منه بعض مايقول، ثم ذهبت به خديجة بنت خويلد إلى ورقة بن نوفل فقالت له: أي عم، اسمع من ابن أخيك مايقول، فأخبره ﷺ بما رأى وما سمع، فقال له: اثبت يابن أخي والله إنه الناموس الأكبر الذي كان يأتي عيسى بن مريم، ياليتني كنت فيها جذعاً، ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً، ياليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك. فقال له رسول الله ﷺ : أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأتِ رجل بمثل ماجئت به إلا عودي، ثم جعل يقول[1]: (من بحر الوافر)

لججت وكنت في الذكرى لجوجا	**لِهَمٍ طالما بعث النشيجا**
ووصف من خديجة بعد وصف	**فقد طال انتظاري ياخديجا**
ببطن المكتبين على رجاء	**حديثك أن أرى منهُ خُروجا**
بما خبرتنا من قول قِس	**من الرهبان أكره أن يعوجا**
بأن محمداً سيسود يوماً	**ويَخْصُمُ من يكون له حجيجا**
ويظهر في البلاد ضياءَ نورٍ	**يقيم به البرية أن تعوجا**
فيلقى من يحاربه خساراً	**ويلقى من يسالمه فلوجا[2]**
فَيالَيْتى إذا ما كان ذاكُمْ	**ولجت وكنت أولهم ولوجا**
ولو جا في الذي كرهت قريش	**ولو عجت بمكتها عجيجا**

---

(١) هذه القصة ثابتة في الصحيحين وغيرهما، إلى هذا الحد مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) الفلوج: الفوز والنصر.

وأرجو بالذي كرهوا جميعاً — إلى ذي العرش إن سفلوا عروجا
وهل أمر السفاهة غير كفر — بمن يختار من سَمَكَ البروجا
فإن يبقوا أَوَابْقَ تكن أمور — يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتىً سيلقى — من الأقدار مُتْلِفَةً خجوجا[1]

وقال ورقة بن نوفل أيضاً في ذلك، وهو مما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق: (من بحر الطويل)

أَتُبْكِرُ أم أنت العشيةَ رائح — وفي الصدر من إضمارك الحزن قادحُ
لفرقة قوم لاأحب فراقهم — كأنك عنهم بعد يومين نازحُ
وأخبار صدق خَبَّرَتْ عن محمد — يخبرها عنهُ إذا غاب نَاصحُ
فتلك التي وجهتِ ياخير حرة — بغدر وبالبحرين حيث الصحاصحُ
إلى سوق بصرى فالركاب التي غدتْ — وهيَّ من الأحمال قُعْسٌ دوالحُ
يخبرنا عن كل خير بعلمه — وللحق أنوار بهن مفاتحُ
بأن ابن عبد الله أحمد مرسلٌ — إلى كل من ضمت عليه الأباطحُ
وظني به أن سوف يبعث صادقاً — كما أرسل العبدان هودٌ وصالحُ
وموسى وإبراهيم حتى يرى له — بهاء ومنشورٌ من الذكر واضحُ
ويتبعه حيا لؤيٍّ بن غالبٍ — شبابهم والأشيبون الجحاجحُ
فإن أبقَ حتى يدرك الناس يومَه — فإني به مستبشر اللب فارحُ
وإلا فإني ياخديجة فاعلمي — عن ارضك في الأرض العريضة سائحُ

فبان من هذا وغيره أن في قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : ١] نبوته ، وفي قوله تعالى : ﴿ ياأيها المدثر ﴾ [المدثر : ١] رسالته .

ثم قال رضي الله عنه :

٩٧ ــ بَهِيجُ الرِّدَى عَضْبُ الرِّداءِ مؤمَّلاً — مِلاَهُ مِنَ الفِعْلِ الجَميلِ مِلاَءُ

قوله : بهيج ، أي الحسن . الردى ، بالقصر : جمع رِدْية ، بالكسر : وهي هيئة المرتدي ، أي اللابس . الردى والرداء ، بالمد هنا : السيف . قالت الخنساء : (من بحر المتقارب)

وداهيةٍ جرها حازمٌ — جعلتَ رداءك فيها خمارا

(١) الخجوج : الرياح الشديدة الملتفة في مرورها .

أي علوت رأسها بسيفك ، كذا ذكره الناظم في تفسير الأزهري . والملى ، بالقصر : جمع ملاة ، بالكسر : وهي المدة ، ويجوز فيها ضم الميم ، فَجمعها حينئذ ملا ، بالضم . والمؤمل : المرجو . والملاء ، بالمد هنا : جمع ملأى مذكرها ملآن كغضبى وغضبان ، فكأنه يقول : كأن من ذكر حسَّن هيئته لبسُه الردى . عضب الرداء : أي السيف مرجو الفضل ، أوقاته مملوءة من الفعل الحسن ، فبهيج الردى كعضب الرداء : أخبار متعددة ، متعددة ، وهكذا مؤملاً ، ويصح فيه أن يكون حالاً من ضمير آخر بتقدير (هو) .

فالبيت يقتضي التشمير وعمارة الأوقات بأفعال الخيرات : من ذكر وصلاة وجهاد وبذل وتحسين هيئة وإرشاد . قال الله تعالى : ﴿ **إن لك في النهار سبحا طويلاً** ﴾ [المزمل : ٧] أي تقلباً في أفعال الخيرات : من تعليم جاهل ، ورفعة خامل ، وإرشاد ضال ، ونفع معدم ، ومواساة مغرم ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، ونوم ينشط للعبادة ، وأكل ليتقوى عليها ، وصوم ليكف نفسه عن مألوفاتها ، وإفطار ليستجم[1] . فينبغي للإنسان أن يأتي من كل طاعة الله ؛ لأن الله تبارك وتعالى خبأ رضوانه ، فلعله يصادف رضوانه في بعضها فيسعد السعادة الأبدية ، كما خبأ اسمه الأعظم في أسمائه ، وكما خبأ الصلاة الوسطى[1] في الصلوات ، وساعة الإجابة في الجمعة ، والأولياء في عباده ، وليلة القدر في الليالي ، وذلك كله بحسن النية وتصحيح العقد .

قال الرسول ﷺ : ((لنوم العالم خير من عبادة الجاهل[2]))؛ لأن العالم يعلم كيف ينام؛ فلا ينام إلا على طهارة ، واستقبال قبلة ، واستفراغ ، وخفة ، وذكر ، وإقبال على الله بالكلية قائلاً : اللهم إني وجهت وجهي إليك ، وأسلمت أمري بين يديك ، وأسندت ظهري إليك ، لاملجأ ولامنجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت ، اللهم إن توفيتني من نومي هذا فتوفني على الإسلام ، وإن أبْقيتني فأبقني على الإيمان .

---

(١) الظاهر أن الكلمة ليستجم اي ليستريح .

(٢)الصلاة الوسطى : هي صلاة العصر كما أُخبر بذلك نبينا ﷺ يوم الخندق بقوله : «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر الخ» وهذا الحديث ثابت لامطعن فيه ؛ وعلى ذلك فالصلاة الوسطى لم تخبأ .

(٣) حديث : «لنوم العالم خير من عبادة الجاهل ... الخ» ضعيف جداً ، رواه البيهقي بلفظ : «نوم العالم عبادة ، وصمته تسبيح ، وعمله مضاعف ودعاؤه مستجاب» ، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٨٣٩ ، أما لفظ الشيخ فلم أجده .

وفي رواية : «وإن أحييتني» .

وفي رواية : ((اللهم اجعل نفسي نفساً طيبة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتحب أهل طاعتك من أنبيائك وأوليائك . ثم يقرأ القلائل[1] ، وآية الكرسي ، ولقد جاءكم)) .

فإن فعلت بعث الله إليك ملائكة يحرسونك ويكتبون لك من الأجر والثواب مالا يحيط بعلمه إلا الله حتى تنتبه ، فإذا انتبهت فليكن أول ماتقول : ((الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور)) . ثم لتقل : ((اللهم اهدني لصالح الأعمال ، واهد صالح الأعمال إلي ، ووفقني له ، وأعني عليه ، ويسر علي أسبابه ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وأنت بكل شيء عليم ، لايهدي للخير إلا أنت ، ياأرحم الراحمين ، ويارب الطيبين ، اللهم أغنني بفضلك ، ولاتقابلني بعدلك ، فإن الفضل بيدك ، وأنا البائس الضرير الفقير الخانع ، من ذلت لك رقبته ، وخضعت لعزتك نفسه ، وانقادت لطاعتك ناصيته ، وهملتْ من خوفك عبرته ، فلا تطرده من واسع فضلك وأنت بغيته ، ياأرحم الراحمين ، ياذا الجلال والإكرام .

ثم قال رحمه الله :

٩٨ ــ وَكَمْ مِنْ حِذىً نَالَ العُفَاةُ حِذَاءَهُ وَبَيْنَ العِدَى مِنْهُ استَمَرَّ عِدَاءُ

الحذى ، بالقصر : جمع حِذوة ، وهو مايهبه الغانم من الغنيمة لمن احتذاه ، وكانت العرب تعد عدم احتذاء المحتذي من الغنيمة لؤماً ، وفي ذلك يقول الشاعر : (من بحر البسيط)

لايحتذي منهم الحاذي إذا قدموا من غزو ناحيةٍ ولا يواسوه

والحذى ايضاً جمع حذية ، بالياء ، وهي قطعة من لحم تقطع طولاً ، والحذاء ، بالمد : الإزاء ، وهو من ظروف المكان . والعدى ، بالكسر والقصر : جمع عدو ، والعدى جمع الجمع ، والعداء ، بالمد : الموالاة في الطعن والضرب والرشق بالسهام . والعفاة : جمع عاف ، وهم طلاب المعروف كغاز وغزاة . فكم معناه الإخبار بالكثرة ، وهي مبتدأ ، خبره نال العفاة ، ومن حذى تميز لكم . وحذاءه : ظرف لنال . وجملة (وبين العدى منه .. إلى آخره) حال من ضمير حذاءه وإن كان مضافاً إليه ؛ لأن المضاف وهو حذاء مثل الجزء من المضاف إليه في عدم الانفكاك منه .

---

(١) القلائل : لعل المراد : السور قليلة الآيات كالمعوذتين وقل هو الله أحد والله أعلم .

فكأنه يقول : كَثُر من المواهب من مغانمه حتى نال ، أي استفاد طلاب المعروف
اءه ، والحالة أنه استمر أي ثبت واتصل ، موالاة الطعن بين أعدائه في حالِ كونه ذلك كائناً
نه .

ثم قال رحمه الله :

٩٩ ــ فَأَفْنَى الإنَى ، مِلْءُ الأواني إناؤهُ فَمَــات ولم يَنْفَـعْ غِنَىً وغِنــاءُ

الإنى ، بالقصر هنا : أحد آناء الليل ، وهي ساعته ، فيقال لساعات الليل : آناء ، كما
ل لساعات النهار أطراف، وتسمى أيضاً ساعات الليل زُلَفاً. والإناء، بالمد: واحد الأواني.
غنى، بالقصر والكسر: ضد الفقر. والغناء، بالمد والكسر: رفع الصوت بالألحان. والفناء:
عدام، تقول: فني الشيء كرضي، وأفناه غيره، تقول: شيخ فانٍ: أي متغير لشدة هرمه. وملء
يء، بالكسر: القدر الذي يملؤه كالشِّبْع، بالكسر: المقدار الذي يشبع، والشِّرب: مقدار
روي من الماء. قال الله تعالى : ﴿ **لها شِرْبٌ ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ [الشعراء:١٥٥]
فاء في قوله: فَأَفْنَى للترتيب اللفظي لا المعنوي .

وإناؤه : مبتدأ ، وملء الأواني : خبره ، والجملة في موضع نصب على الحال من فاعل
ى ، وهو ضمير (ذي لواء وذي بناً) المعبر عنه على قصد التزهيد في الدنيا وترك التنافس فيها ؛
ن صيرورتها للفناء ،ولايفْلح فيها إلا الزهاد .

كأنه يقول : فأفنى مَنْ ذكر أزمنة ، أي : أتى على آخرها ، وإناؤه ملء الأواني كلها ، أي :
م ينفعه غناه ولاغناؤه ، أي رفع الأصوات عنده بالألحان لتطريبه ، وذلك من شأن الرفاهية ؛
هم هم الذين يفتنون بالقيان الملهيات من الجواري المغنيات ، مع أنها ليست في شيء من
دى والفناء بمغنيات ، ولا قدر من الأقدار بمنجيات ، بل هي حقيقة عين المرديات ونفس
صيبات . وأما قوله : (فأفنى الإنى) قال الأخفش عند قوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هو قانت آناء**
يل ﴾ [الزمر : ٩] أي طائع في جميع ساعات الليل ، واحدها : أنا وأنوا وأنا . والزُّلف :
ع زلفة ، وهي إحدى ساعات الليل ؛ لأن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، في كل ساعة
ف نفس بالنفس المتوسط :

فأول ساعات النهار الشروق ، ثم البكور ، ثم الغداة ، ثم الضحى ، ثم الهاجرة ، ثم
ظهيرة ، ثم الزوال ، ثم القصر ، ثم العصر ، ثم الأصيل ، ثم العشي ، ثم الغروب ، فهذه اثنتا
شرة ساعة للنهار .

وأما ساعات الليل : فأولها الشفقُ ، ثم الغاسق ، ثم العتمة ، ثم السدفَةُ ، ثم الجهمة ، ثم الزلة ، ثم الزلفـة ، وهي عند السحور وهي أفضـل السـاعات ، ثم النزهة ، ثم السحر ، ثم الفجر ، ثم الصبح ، ثم الصبـاح ، فهذه اثنتا عشرة سـاعة لليل بالاستواء ، فإذا زاد الليل نقصت من النهـار ، وإذا زاد النهـار نقصت من الليـل ؛ فتنتهي الزيادة إلى خمس عشـرة والنقصان إلى تسع ساعات .

وتختص الزلف في الحقيقة دون الشريعة بثلاث ساعات قبل الفجر ؛ ففيها يتجلى الحق سبحانه لقلوب عباده ، فمن وجده نائماً فهو محروم ، ومن وجده يقظان فهو مكروم .

وفي الأسانيد المعتبرة أن رسول الله ﷺ قال : ((إذا نام أحدكم فإن الشيطان يعقد على ناصيته ثلاث عقد ، كلما أراد أن يستيقظ إلى الصلاة لوى الشيطان إحدى العقد ثم قال له ، نم إث عليك ليلاً طويلاً ، فإن ذكر الله انحلت عقدة ، وإذا توضأ انحلت عقدة ، وإذا قام إلى الصـلاة انحلت عقده كلها ؛ فأصبح نشطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان[1])) .

ويروى أن النبي ﷺ قيـل له : إن فلاناً نام إلى الصبح ، فقـال : ذاك رجل بال الشيطان في أذنه[2] .

لاجعل الله للشيطان إلينا سبيلاً .

ثم قال رحمه الله تعالى ، آمين :

١٠٠ ـ وَأَهْلَ الحِبَى زَانَ الحِبَاءُ وَلَمْ تَزِنْ لِحىً يَزْدَهِي أَحْلاَ مَهُنَّ لِحَـاءُ

قوله : أهل الحبى : أرباب الحبى ، بالقصر : جمع حِبوة ، بالكسر : وهي هيئة المحتبي ، وهو المدير على ظهره وساقيه عمامة أو ثوباً ، واسم تلك الشملة المدارة حُبوة ، بالضم ، وهي من الهيئات التي قد نهى عنها رسول الله ﷺ في الصـلاة . وقيل : نهى عنها مطلقا خوفَ التعري ، وإذا كان ﷺ نهى عنها خوفَ التعري فإذا كان تحتها قميص أو إزارٌ أو سروايل انتفت الحرمة وبقي النظر في الكراهة . والحباءُ ، بالمد : العطاء بلا مَنٍّ . والحىً ، بالقصر

---

(١) حديث«إذا نام أحدكم .. الخ» متفق على صحته ، رواه الشيخان والنسائي خ (٢٠/٣) و م (٧٧٦) ن (٢٠٣/٣) .وأوله «يعقد الشيطان على قافية أحدكم» والله أعلم .

(٢) حديث : «ذاك رجل بال الشيطـان في أذنه» حديث متفق على صحتـه رواه الشيخـان والنسائي (٣١/٣) و م (١١٥٩) و ن (٢٥٣/٣) ، والله أعلم .

ع لِحية ، بالكسر . واللحاء ، بالمد : الملاحّة ، أي : المسابَبَة . والأحلام ، جمع حلم ، كسر ، هي الأناة والعقل ، ويجمع على حلوم أيضاً . والازدهاء هنا : الاستخفاف . وأهل ى : مفعول به لزان أي حَسَّن[1] .

والمعنى : زان العطاء بلا مَنٍّ أهل الهيئات ، وهم الذين يحتبون في مجالسهم في الأندية ى هيئة مخصوصة ، ولم تزن لحىً طويلة تستخف أناة أهلها وعقولهم ملاحة ومشاتمة .

ومفعول تزن محذوف أي أهلها ؛ دل عليه (أهل الحباء) ، أو هو مفعول له مقدر لتنزيله زلة القاصر .

والمعنى : لم ينفع زين لِلحى موصوفة بما ذكر . والمقصود أنَّ الفضل يزين صاحبه من ر حلية وبدون جمال صورة ، وحلية الجمال بطول اللحية وطول القامة وحسن الرونق وبياض سم مع عدم الأناة والعقل لايجدي ؛ فكن مِنْ أهل الحبى والحلم لا من أهل اللحى الذين تخفهم اللحاء ، حتى تظفر بالزين وتأمَن من الشين .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

فكم لحيةٍ طالت على ذقن جاهلٍ ... وما تحتها إلا الغباوةُ والجهلُ
وكم راكبٍ بغلاً عليه عِمامةٌ ... تأمَّلْ ترَى بغلاً على ظهره بَغْلُ

قال علي كرم الله وجهه : جمال الرجل فصاحة لسانه ، وكماله ثبات جنانه وشرفه حسن اله ، لاكثرة جماله ، وحسبه كثرة أحبائه ، لاحسب آبائه ، وكرمه التقوى ، لا التيه وى .

ثم قال رحمه الله :

١ ـ فَأَحْسِنْ بِمُهْدىً زَانَ مِهْدَاءَ فِتْيَةً ... وَمِقْرىً عَلاَ الْمِقْرَاءَ مِنْهُ بَهَاءُ

أحسن : أفعل تفضيل جيء به للتعجب منصوبه بمهدىً ، فهو في قوة ماأحسن اً ، تقع فيه الهدايا زين فتى كثير الإهداء من فتية ، وما أحسن مِقرى أي ظرفا معدّاً لقرى سياف .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

لنا الجفنات البيض يشرقن بالضحى ... وأسيافنا يقطران من نجدة دمَا

---

(١) في النسختين بياض بعد حسنَ

ولم تزل سادات العرب وأشرافها وملوكها تتباهى وتتنافس بعظم الجفان وحسنها جاهلية وإسلاماً . قال لبيد بن الأعصم العامري : (من مشطور الرجز)

نحن بــني أم البــنــين الأربعــةْ
ونحن خــير عــامــر وصــعــصــعــه
المــالكــين الجفــنــة المــقــزعــة
والضــاربــين الهــام تحت الخيــضــعــة[1]
يــاواهب الخــير الكثــير من سـعــه
نحن أتيــنــاك من أرضٍ مسبــعــه

ولقد مدح الله سليمان بعظم جفانه وقدوره فقال : ﴿ **يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي**[2] **وقدور راسيات** ﴾ [سبأ : ١٣] ، فلما رأى سليمان ماآتاه الله من تسخير الرياح والطير والجن والإنس والشياطين والوحوش والدواب ، وما هيأ له من الزروع والبساتين ، وخرق الأنهار واستنباط المياه من الأرض والعيون ، وكثرة من يجلس على موائده وجفانه ، تاقت نفسه عليه السلام إلى ماهو أعظم وأشرف مما هو فيه رغبة في الأجر وإخلاداً للذكر ولتحصل له مزية لَمْ يعطها غيره من جميع ملوك البشر ، وإنما حمله على ذلك توهم أنه لما سأل الله أن يعطيه ملكاً لاينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه طلب منه أن يجعل رزق خلقه على يديه سنة تامة ظناً منه أن هذا من جنس ماسأل ، فأوحى الله إليه ، أنك لاتستطيع ذلك ، فطلب أن يجعله إليه شهراً ؛ فأوحى الله إليه أنك لن تستطيع ذلك ، ولكني أجعل ذلك إليك يوماً واحداً ، فإن استطعته فإنك قد أعطيت ما لم يعطه أحد قبلك ولن يعطه أحد بعدك ، وقد أمهلتك سنة كاملة تجمع قوت ذلك اليوم .

فجدَّ سليمان عليه السلام ؛ فأمر الجن والإنس بالبذر ، وأمر الله السماء فأرخت ذيولها بالغيث ، وأمر سليمان الطير والوحش والدواب بنقل الزروع والثمار والفواكه والبقول إلى الشطوط ، وأمر العفاريت والسعالي والغيلان بصنعة القدور والجفان من غير تعطيل ، وأمر من لايصلح للزراعة بالطبخ والتخبيز والثرد ، حتى جمع من ذلك مالا يدخل تحت حصر حتى صار وكأنه الجبال الشامخات ، فلما كان ذلك اليوم أخرج الله إلى تلك الزروع والثمار والفواكه والتين دابة

---

(١) الخيضعة : أصوات القتال ، أو الغبار في المعركة .

(٢) الجوابي : البرك .

البحر ، فلحست جميع ذلك بلسانها من غير أن يشبعها ، فقالت له : يغفر الله لك
سليمان ، جعل الله إليك رزقي يوماً واحداً فلم تشبعني وأنت ملك الدنيا ؟! وبقي سائر الخلق
ئذ بغير قوت . فسجد سليمان عليه السلام ، فقال : رب تبت إليك من طلبي ماليس من
سعي ولا تبلغه طاقتي ، أنت الملك الحق ، وأنا عبدك الضعيف المضطر إلى رحمتك ، المُلْك
لكك ، والعبد عبدك، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا بك .

فأوحى الله إلى سليمان أنه لايقدر على رزق خلقي غيري ، إذ لو كان في الوجود رازق
ري لكان شريكاً لي في ملكي ، تعاليت عن ذلك علوّاً كبيراً ، أحيي الإنسان برزقه وأميته
جله[1] .

قوله : (علا المقراء منه بهاء) : فعلا : فعل ماض . المقراء : مفعول به ، وهو الكثير
قرى . وبهاء : فاعل علا ، والضمير المجرور عائد على المقرى ، بالقصر : متعلق بعلا .
لمهدى : الطبق الذي يهدى فيه إلى الملوك عند تزويج بناتهم وأخواتهم ، ولايقال له مهدى إلا
ا كانت فيه الهدية ، وكثر استعماله حتى سمي به كل طبق يهدي فيه مطلقاً .

وفي كتاب الأغاني في حكايات الأجواد وترجمة الدولة البرمكية أن رجلاً من الأزد قعد
دهره ؛ فارتحل بأهله إلى الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك ، فلما دنا من مدينته التي هو بها
ك أهله خارجها وأقبل إليه وعليه أطمار رثة ، وإنما قصده ليكسوه ويعطيه مايتقوت به هو
عياله، فوجده في دَسْكَرَةٍ[2] له وقد زوجت إحدى بناته في ذلك اليوم وهو ينظر الهدايا على
ادة الملوك ، فالتفت إليه فقال له : ءأنك غريب ؟ قال : أجل ، وإنما أخرجني من بلدي
عشيرتي رجاء سيب الأمير ، فتحملت بأهلي وعيالي حتى نزلت ساحته وبنا من الفاقة مايمنعني
ن بيانه الحياء وإجلال الأمير .

فقال له الفضل بن يحيى بن خالد : حسبك ياأعرابي ، فلقد أحسنت ، وستكفي مؤونة
ابينت .

فبينما هو يخاطبه إذا أتي الفضل بن يحيى بن خالد بطبق من در وياقوت ، فقال : خذه
أعرابي ؛ فأراد القيام وقد أدهشه السرور ، فقال له : على رسلك ، ثم جيء بطبق من المسك

(١) هذه القصة من الإسرائيليات ، ولم تصلنا بسند يوثق به .

(٢) الدسكرة: القرية الصغيرة وسبق تعريفها .

الأذفر ، فقال له : خذ ياأعرابي ، فرام القيام ، فقال له : على رسلك ، ثم جيء بطبق م
كافور ، فقال له : دونك يابدوي ، فذهب لينوء فقال له : على رسلك ، فجيء بأطباقٍ م
ذهب وورق ، فقال له : ضم الأطباق إليك ياأزدي ، ثم جيء بأسفاطٍ من فاخر الثياب
فقال له : ضم إليك جميع ماترى يامذحجي .

فقال له الفضل بن يحيي بن خالد: هل لك من أعوان على حمل هذه الأموال؟ قال: لا
أصلح الله الأمير، إنما هم صبية صغار؛ فأمر بعدد من العبيد، وأمرهم بحمل الأموال على الحم
والبغال إلى حومة من مدينته بها دور عالية وزروع وثمار وذخائرٌ ، وجعل يسايره حتى دخل
وحط بها ما معه من الأموال، فقال له الفضل بن يحيي بن خالد: إن جميع ماترى قد أمس
ملكـاً من أملاكك، وإن جميع مافيه من العبيد والإماء والدواب والمواشي تابع لذلك فهذ
الصلة وأنا العائذ، فهل وجدتني عند ظنك ؟

فقال: لو كان يتعاظم الملك بشيء لقلت: تقصر دون بذل هذا جميع قوى البشر، وإ
أملي ليقصر دون النزر مما أسديت لكن الأمير عاملني على قدر منصبه وهمته لا على قدر أملي
ولقد دهشت عند أول الأطباق فضلاً عن سائر النوال، ولولا هيبة الأمير وما أنعشني به الله م
همته لصعقت، وحقيق بمن وجد في دركات لظى ثم نقل في ساعة زمنية إلى درجات جنة المأو
أن يصعق .

فقال له الفضـل بن يحيي بن خالد وقد هَزَّهُ ما سمع: لله أبوك من عربي! ما أحسن
خطـابك وأكثر صوابك وأغزر آدابك !! والله لقد استوجبت علينا بحسن ثنائك مالا تقو
بقيمته العطايا وإن جلت .

ولما وقع للرشيد ما أوغر صدره على البرامكة، خصوصاً الفضل بن يحيي بن خالد، فدبَّ
لهم من المكائد ما قتل منهم بسببه ثلاثة آلاف من أشرافهم في ليلة واحدة، ومن جملة المقتولين
الفضل بن يحيي بن خالد، وكانوا قد سادوا الناس جوداً وكرماً وبسالة وذكاء ودولة حتى كادو
يغلبون على الدولة العباسية، وقد عظموا في قلوب العامة واستمالوها، فأوعد الرشيد من ذكره
بخير، وقد وكلّ الرشيد أناساً يستمعون ثناء الناس عليهم وما يقولون في شأنهم، ووكّل بقبر
الفضل بن يحيي بن خالد أمناء يَرون ولايُرون .

فجاء الرجل المذكور بوهن من الليل إلى قبره، فبكى وانتحب، ثم أنشد يقول: (من بحر
الوافر)

ألا يـــا نخــــلةً من ذات عـــرق ... عـــليـــك ورحمـــة الله الســـلامُ
أمـــــا والله لولا خـــوفُ واشٍ ... وعـــينٌ للخـــليـــفـــة لا تَنَـــامُ
لطـفـنــا حـول جـذعك واسـتلمنـا ... كما للنـــاسِ بـــالحجـــر استـــلامُ
ولم أرَ قبـــل مـوتكَ يـابن يحـــي ... حســـامـــاً فَـلَّهُ السـيفُ الحســـامُ
عـــلى اللذات والدنيـــا جميـــعـــاً ... ودولةُ آل بـــرمكٍ الســـلامُ

فأخذه الوكلاء، فأتوا به الرشيد؛ فقال له: أما بلغك نهيي عن أن يذكر البرامك بخير؟! ل: بلى أيَّد الله أمير المؤمنين. قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: إحسانه إلي، وجودة سي، وكرم آبائي. فقال له الرشيد: مابلغ من إحسانه إليك حتى خاطرت بنفسك؟ فأخبره ميع ماجرى له معه؛ فقال: إني أعطيك مثل ذلك ولاتعد إلى ذكرهم. ففعل الرشيد.

ثم أخذه الحراس بعد ذلك عند قبره يبكيه بقصيدة أخرى، فأتوا به إلى الرشيد، فقال : ألم أحسن إليك مثل إحسانه ونهيتك عن ذكر الفضل بن يحي وأهل بيته بخير ؟! قال: قد لت يا أمير المؤمنين، ولكن إحسانك ذكرني إحسانهم، فليقتلني أمير المؤمنين؛ فما أراني لع عن ثنائهم؛ فأكون أول قتيل قتل على شكر النعمة؛ فقال له الرشيد: لله أبوك! فإنك ليق أن تصطنع فولاَّه على ناحية، وأَبَاحَ للناس ذكر البرامك بجميل صنيعهم.

وتركيب البيت هو أن هذا المُهدى يزين المهداء، والمقرى يصير المقراء أبهى؛ فهو جب منه قصد منه بالهدية والقرى وكثرتهما الإغراء.

كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((إذا تهادى الجيران وتواصلوا بورك عليهم وكانوا بعين ، فنمت أموالهم، وحسنت أحوالهم، وذهبت الشحناء من صدورهم)).

وقال ﷺ : ((تهادوا تزدادوا حبّاً))[1].

قال الشاعر: (بحر الوافر)

إذا أتت الهـــديـــةُ بيتَ قـــومٍ ... تطـــايرت الفظـــاظـــةُ من كُوَاهَـــا

ي حديث قدسي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه: ((وَجبت محبتي للمتباذلين فيَّ، والمتواصلين ، والمتحابين فيَّ)).

---

(١) حديث: « تهادوا تزدادوا حبّاً » رواه العسكري بزيادة: « وهاجروا تورثوا أبناءكم مجدا وأقيلوا الكرام راتهم ».

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٠٢٣ وله طرق وألفاظ كثيرة.

يروى أن سليمان عليه السلام جلس يوماً بشاطىء الفرات لتعرض عليه جنوده مِن الجـ
والإنس والشياطين، وَأقبل الخلق إليه بالهدايا والتحف، فإذا هو بهدهدة تحمل جرادة بفيهـ
حتى إذا أقامت على رأسه ألقتها في الماء، فقالت له: يا نبي الله أتيتك بهدية على قدري لا عـ
قدرك، فمن فاته اللحم لم تفته المرقة ! فضحك سليمان من قولها، وفي ذلك أنشدوا فقالوا: (مـ
بحر البسيط)

أتت سـليمان يوم العـرض هـدهـدةٌ ... أهـدت إليـه جـرادا كان في فِيهـا
فـأنشـدت بـلسـان الحال قائلةً ... إن الهـدايـا عـلى مقـدار مُهـديهـا
لو كان يُهـدى إلى الإنسـان قيمتُـه ... مـا كان قيـمتَـك الدنيـا ومـا فيهـا

ولم يزل التهادي شأن الكرام، ومن عوائد الملوك وسادات الأنام، وحكايات ذلـ
وأشعاره لاتحتمله هذه العجالة؛ فأعرضنا عنها مِن أجل ذلك طلباً للاختصار .

ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٢ ــ وَمِقْلى لِذِي الْمِقلاَءِ يُبْدِي حَسِيسَهُ ... رِضىً وَيَسُـرُّ الْمُحْسِـنِينَ رِضَـاءُ

قوله: ومقلى: الواو: للعطف على مُهْدىً ، وَالمِقلى، بالكسر والقصر: إناء القلـ
والمقلاء، بالمد: العود الذي يضرب به الصبي. والرضى، بالقصر: ضد الغضب. والرضاء، بالمد
المراضاة وهي المعاملة بالرضى. والحسيس صوت يختص بالنار وما في معناها. قال الله تعالى
﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ [الأنبياء:١٠٢] بخلاف الحِس ، والحِسُّ بالكسر والفتح
فالحَس بالفتح خاص بالحيوان الحساس، والحس يطلق على كل ماله حس أي صوت، قال الله
تعالى : ﴿ **هل تُحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً** ﴾ [مريم:٩٨] . وإنما عطفه على
مهدى ليفهم من ذلك الإغراء به، فكأنه يقول: ما أحسن إناء قلي يظهر أُزيزه ملهياً به لأجل
إرضائه بذلك الصبيان ففي ذلك إحسان بالصبي، وملاطفة له، ومعاملة له على الرضى ، ويسـ
المحسنين المعاملة بالرضى في عقباهم؛ ففي الكلام إغراء بملاطفة الصبيان الصغار وتفريحهـ
والإحسان بذلك إليهم .

قال رسول الله ﷺ : ((إن في الجنة باباً يقال له باب الفرح لايدخله إلا مَن يفرحـ
الصبيان)) .

وقال ﷺ : ((من كان له صبي فليتصابى معه)) .

وقال ﷺ : ((ليس منا مَن لم يرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويرق للبهيمة والمملوك))[1] .

يروى أنَّ النبي ﷺ قال : ((لما شُرح صدري وغُسل رجعت وقد وجدت على الصغير مِن الرقة وعلى الكبير من الشفقة والتوقير ما لم أعهده قبل)) .

ويروى أن عيينة بن حصن الفزاري دخل على النبي ﷺ فوجده يقبِّل صبياً ، فقال له: أتقبل هذا يامحمد؟! لقد ولدت اثني عشر ولداً ذكراً فما قبلت منهم واحداً، فقال له رسول الله ﷺ : تلك رحمة نزعها الله من قلبك[2] .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: ((يا أبا عمير ما فعل النغير))[3] أعظم شاهد على ذلك. ولقد كان يرتحل الحسن وهو في الصلاة، فيثبت ساجداً، حتى ينزل. وحمل يوماً وهو في الصلاة أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وهو خَتنُ رسول الله ﷺ ، فكان كلما سجد وضعها، وكلما قام حملها، كما في الصحيحين .

قال رحمه الله تعالى :

١٠٣ ــ وَحَاسِي الْقِرَى مِثْلُ الْقِرَاءِ حِيَاضُـهُ فَيَـأْبَى الرِّوَى مِنْهَـا ظَمىً وَرِوَاءُ

فالقِرى ، بالكسر والقصر : الماء المقروُّ أي المجموع في الحياض ، ماضيه قريت الماءَ أقريه قرى . وَحَاسيه الذي يشربه شيئاً بعد شيء يتحساهُ . والقراء ، بالمد والكسر: جمع قروة ، وهي ميلغة الكلب . والروى ، بالقصر: مصدر روي بالكسر: إذا شرب فأخذ حاجته . والرواء ،

---

(١) حديث: « ليس منا من لم يرحم الصغير الخ » رواه الترمذي وأبو يعلى والعسكري بدون ذكر البهيمة والمملوك، وأورده السخاوي تحت رقم ٩٢٥ في المقاصد له بلفظ: « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ومن لم يعرف لعالمنا حقه » وأورد له الفاظا غير هذا، والله أعلم .

(٢) حديث: « تلك رحمة نزعها الله من قلبك » صحيح رواه البخاري بلفظ: « من لايرحم لايرحم » ورواه غيره بلفظ قريب من لفظ الشيخ، أما قصة عيينة بن حصن الفزاري وكونه دخل على النبي ﷺ وهو يقبل ولداً ... إلى آخر القصة فأعتقد أن الصحيح ــ إن شاء الله ــ ان القصة كانت مع الأقرع بن حابس لما رأى النبي ﷺ يقبل ولده الحسن فقال: إني لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم. هكذا روى البخاري في كتاب الأدب.

أما قصة عيينة فهي انه دخل على النبي ﷺ وعنده عائشة فقال: من هذه؟ وذلك قبل أن ينزل الحجاب، فقال: هذه عائشة، فقال: الا أنزل لك عن أم البنين؟! فغضبت عائشة وقالت: من هذا؟ فقال ﷺ : هذا الأحمق المطاع . أورده ابن حجر في الإصابة (٣/٥٥) ، والله أعلم .

(٣) حديث: « يا أبا عمير ما فعل النغير ... الخ » صحيح، وتقدم تخريجه في ص ٢٣٦ .

بالمد هنا: جمع ريان، والظمأ، مهموز محرك: مصدر ظمىء كفرح فهو ظمىء كفرح، فالذي في البيت يحتمل أن يكون مصدراً أو اسم فاعِل مسهل الهمز فيهمل، إلاَّ أنَّه على المصدرية يحتاج إلى تقدير مضاف أي: ذو ظمأ .

والمعنى: أن الذي يتحسى ماء الحياض شيئاً فشيئاً لؤماً منه حياضُه مثل ميالغ الكلاب في الاستقذار؛ فيعاف الارتواء منها استقذاراً لها أصحاب العطش وأصحاب الري . والمقصود التحذير من الانتفاع بما في أيدي اللئام، وذوي الهمم الدنيئة ، والنفوس الساقطة الخسيسة، ورفع الهمة عن ذلك وإن دعت إليه الحاجة ، وعلى حسب رفع الهمم عَن الدنايا تعظم المزايا، وتتفاوت المقامات، وتتضح العلامات ، وتنقشع الغمامات ؛ فتتجلى الكرامات . وفي مثل هذا يقول الشاعر الأديب الكيِّس الأريب الحاذق الأديب : (من بحر الطويل)

وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل مَنْ في الأرض أرضاه منعما
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظما
أنهنها عن بعض ما لا يشينها ... مخافةَ أقوال العدى فيمَ أولِمَا

وقال غيره : (من بحر الطويل)

دعوني ورأيي واختياري فإنني ... جعلت عفافي في البرية ديدني
وأعظم مِن قطع اليدين على الفتى ... صنيعة برٍّ نالها مِن يدي دَني

وفي المثل : (صلة الكريم مغنم ، وصلة اللئيم مغرم) ، ومِن ثم قال السيد المختار بن السيد محمد الأمين الرقادي : (من بحر الكامل)

والمال درعٌ للفتى ومهابةٌ ... ورِداً لعرض الحرِّ إن لم يرتدي
والمال سيف صارم ومجنةٌ ... وأسنة مهما تقاتل تسعدي
والمال في أيدي الأفاضل روضةٌ ... كُلْ وارْع وانْظرْ وافْترِشْ لَكَ واحصدي
وإذا تراه لدى اللئام فميتةٌ ... بَيْنَ الكلاب متى تقارَب تبعدي

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٠٤ ـ هِدَاهُ أصَارَتْهُ هِدَاءً فَرَأْيُهُ ... جِرىً في مَسَاعٍ قُبِّحَتْ وَجِرَاءُ

الهدى، بالقصر: جمع هِدية ، بالكسر: وهي السيرة القبيحة، بخلاف الحسنة فإنها يقال لها هَدْي . قال الرسول ﷺ : ((أفضل الهَدي هَدي محمد ﷺ ، وأفضل الحديث كتاب الله

وأفضل ماقلت أنا والنبيّون مِن قبلي : لا إله إلا الله))[1] .

والهداء : بالمد هنا، الرجل الهداء أي الأحمق الثقيل. والجرى ، بالقصر والكسر: جمع جرية ، وهي هيئة الجاري، وتطلق ويراد بها دم الحروب قال الشاعر : من الوافر

تخال جَـرِيَّـةَ الأبطـال فيهـا غـداة الروع جـاريـاً مـذوبـا

والجرية أيضا: السفينة الصغيرة، والجرى أيضاً جمع جرو ، وقد يمد . والجراء ، بالمد : المجاراة ، يقال: فرس لايجاري، وزيد لايجارى كرماً، والمجاراة هنا إنما قصد بها المصنف مجاراة اللئيم اللؤماء .

فكأنه يقول : هِدى مَن ذكر ، وهو الحاسي لؤماً ، أي سيرته الخبيثة السيئة هي التي صيرته بيّن الناس هداء ؛ فتزدريه وتتحاماهُ ، فرأيه أن يجري جري ذوي خساسة ونذالة، فيكون ذلك في مساع قبيحة، وهو من باب تسمية الشيء باسم ملازمه؛ لأنه لما كثر على أذنيه وعلى آذان من يصحبه أو يلازمه ويرتضي سيرته أو يطلب الانتفاع منه سميت قبيحة لملازمتها سماع الأفعال القبيحة والشيم السمجة ، أي القبيحة ، التي تمجها الأسماع الكريمة التي لم تتعود سماع القبيح ، كما قال الشاعر: (من بحر المتقارب)

وسَمْعَك صُنْ عن سماع القبيح كصـون اللسـان عنِ النطقِ بِـهْ
فـإنك عنـد سمـاع القبيـح شـريك لقـائلـه فـانْتبـهْ

وإن من يجاري مَنْ جرى فيها وركض فقد صار معدوداً مِن جملة اللؤماء الحمقى لمجاراته إياهم في ميادين السخف والجهل ، كما قال الشاعر : (من بحر الوافر)

---

(١) حديث: « أفضل الهدي هدي محمد ﷺ ... الخ » مؤلف من حديثين : الأول : « أفضل الهدي » ، وهو جزء من حديث طويل متفق على صحته ، رواه الشيخان وابن ماجه وأوله : « كان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته ...الخ » خ (٨/٥٣٠) و م (٨٦٧) وابن ماجه (٤٥) كما أورده النووي في الرياض تحت رقم (١٧٠) وعزاه لمسلم فقط، وفيه: « وخير الهدي هدي محمد ﷺ » بدل (افضل) .

والثاني: « أفضل ما قلت أنا والنبيون... الخ » وهو جزء من حديث آخر رواه مالك مرسلاً والترمذي وحسنه، عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده، وأوله:

« افضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون... الخ » . واورده صاحب الكشف تحت رقم ٤٥٦ بهذا اللفظ ، والله أعلم .

إذا جــاريت في خُــلُقٍ دنيءٍ فــأنت ومَن تجاريــه ســواءُ
رأيتُ الحــرَّ يجتــنب المخــازي ويحـمــيــهِ عن الغـدر الوَفــاءُ

ثم إن جريْه وَجراءه فيما ذكر مِن جملة هداه التي صرفته عن طريق هداه ، فعطفه عليه مِن عطف مفصَّلٍ على مجمل ، فالفاء فيه لمجرد الترتيب الذكري . فهداه : مبتدأ ، أُصارته : خبره ، وضمير المفعول في أُصارته عائدٌ إلى حاسي القرى ، وهو مفعول أصار . وهداء : مفعولها الثاني ؛ فتصير بسبب دخول همزة التعدية عليها مِن باب كسا وأعطى ، غير أنها باقية على كونها ناقصة ، وعملت بوصفيها ، كما قاله الزجّاج ، وابن جني ؛ فرأيه : مبتدأ ومضاف إليه ، وجرى : خبره ، في مساع : خبر بعد خبر ، قبّحت : نعت لمساعٍ . وجراء : عطف على رأيه ، وهو عطف مجازي ذكري ، والفاء في (فرأيه) حرف ترتيبي عطف به على (حَاسي) ، وضمير المضاف إليه عائد عليه .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٠٥ ــ وَصاري الْكِرَى بَعْدَ الْكِرَاءِ كَذي لِوىً
وَيُجْــنَــى لِمَشْــهُــورِ الْوَفَــاءِ لِوَاءُ

قوله : وصاري : اسم للحاسب ، ويطلق ويراد به عمود السفينة الذي تعقد على رأسه القلوع ، فيقال : صاري السفينة ، كما يقال : صاري الكرى ، ويطلق ويراد به زمن الصير ، يقال : زمن صارٍ : أي يصيب الأشجار فيه الجليد . والكرى ، بالكسر والقصر : مضاف إليه ماقبله : جمع كروة ، بالكسر : وهي أجْرة الشيء المستأجر ، وقد تسمى المؤاجرة بالكراء ، وتمد ، فهي بمعنى المكاراة ، وهو من باب تسمية الشيء باسم محله وفعله ، أي فعل اسم الفاعل الذي هو صــارَ في افتتاح البيت ، صرى يصري فهو صــار . والكراء ، بالمد : المؤاجَرة . واللوى ، بالقصر هنا : التواء الحية ، واللواء ، بالمد : من قولهم : جاء فلان باللواء أي : بكل شيءٍ . ويجنى ، بضم الياء مضارع أجنى الروض أو النخيل ، إذا أدرك ثمرةُ وبلغ أوان الجنى .

فكأنه يقول : والذي يحبس الأجرة عن أربابها بعد المكاراة كصاحب انْطواء مِن الحيات في كونه ليِّن اللمس ، قاتل السم ، خفي الإذاية ، ظاهر النكاية ، ويتيسر للشخص الذي شهر وفاؤه بين النـاسِ كل شيء يحاوله ، وينجح له كل أمل ، ويظفر بكل مرغوب ، والمقصود التحذير من منع أهل الحق حقوقهم ومطلهم به بعد استحقاقهم إياه ، والإغراء بالوفاء حتى يقع الاشتهار بذلك .

والبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **ومَنْ أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ [الفتح : ١٠] فالوفاء ركن عظيم من أركان الإسلام نَصَّ عليه الشارع في كتابه العزيز في غير ما موضع واحد فقال : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ [المائدة: ١] ، وقال تعالى : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] وقال : ﴿ **ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثَوْا في الأرض مفسدين** ﴾ [هود : ٨٥] ، وقال : ﴿ **ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا** ﴾ [النحل: ٩١] ، وقال : ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ [النساء : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانةً فانبذْ إليهم على سواء** ﴾ [الأنفال :٥٨] .

وذلك أن النبي ﷺ قد كان وادع أقواماً من المشركين ، منهم : جهينة وبنو ضمرة وطوائف من سليم وغفار وأسلم ، ثم بلغه عنهم بعد ذلك ﷺ أنهم يريدون التجمع والغدر به ، فأتاه جلةُ أصحابه وقالوا له : يارسول الله ، إنه بلغنا أن هذه الطوائف التي قد عاقدتها ووادعتها أنهم قد هموا بالتجمع والغدر بنا ؛ فهلم فلنبادئهم بالحرب قبل تجمعهم ، ويمنعهم ذلك من الاجتماع فيخاف كل منهم على مائه وأرضه ؛ فأمسك النبي ﷺ عنهم فلم يجبهم ؛ فأنزل الله قوله : ﴿ **وإما تخافنَّ من قوم خيانةً** ﴾ الآية . وبعث إليهم رسول الله ﷺ : ((أنه قد بلغنا أنه قد بدا لكم في حربنا ، وأنكم تريدون التجمع في ذلك فإن كان ما بلغنا عنكم حقّاً فقد نبذت إليكم عهودكم وعقودكم على سواء ، فإني لاأغدر ولا يحل ذلك في ديني ، فاستعدوا لحربنا)) . فلما بلغهم كتاب رسول الله ﷺ رعبوا ؛ فوفدوا إليه ، فجددوا العقود والعهود فيما بينه وبينهم ، فلم يزالوا عليها حتى هداهم الله إلى الإسلام وأكرمهم به .

فكل من نقض عهداً من العهود أو تهاون بعقد من العقود فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه لكونه قد غدر وخان .

قال رسول الله ﷺ : ((كل شيء يطبع عليه المؤمن ليس الكذب والخيانة[1])) .

---

(١) حديث : «كل شيء يطبع عليه المؤمن .. الخ» ليس بالقوي ، رواه البزار وأبو يعلى بلفظ : «يطبع =

وقال ﷺ : ((المؤمن لايغدر)) .
وقال ﷺ : ((المؤمن إذا عاهدو فى)) .
وفي المثل : (الوفاء مِن شيم الحنفاء) .
وقال ﷺ : ((مطل الغني ظلم ، والظالم أحق أن يحمل عليه[1])) .
وقال ﷺ : ((أعط الأجير حقة قبل أن يجف عرقه[2])) .

واختلف في الأيمان ، فقيل : من العهود ، وقيل : مِن العقودِ ، وقيل : منها ؛ فينبغي للإنسان أن لايحلف بالله إلا إجلالاً له وإعظاماً فإن حَلف فلا يتهاون ؛ فإنه قد وقع في ورطة عظيمة ، فليف لله على ماحلف سواء كان منعقداً على بر أو حنث ، فإن اضْطُرَّ فليكفر ، وإن كان قد حال بينه وبين أعمال البر فالأفضل له أن يكفر ويرتكب ماحال دونه من أعمال البر ، كما كان يفعل رسول الله ﷺ ، ولنا فيه أسوة حسنة .

وقد نهى الشارع سبحانه في متن كتابه العزيز عن التحبس عن البر بسبب يمين فقال : ﴿ **ولاتجعلوا الله عرضةً لأيمانكم** ﴾ [البقرة : ٢٢٤] الآية .

وأما تعمد الحلفِ بالكذب فلم يكن من أخلاق المؤمنين ، وهو اليمين الغموس ، وسمي غموساً لأنه يغمس صاحبه في النار .

وقد يجب الحلف بالكذب إذا لم يخلص إلى إنقاذ نفس مسلم أو ماله إلاَّ به ، فيجب عليه ويلزمه .

وكان أكثر حلف النبي ﷺ : لا والذي نفس محمد بيده . أو والذي نفس محمد بيده .

ولغو اليمين هو مالا إثم فيه ولاكفارة ، وهو ماوقع على يقين فخولف .
ثم قال رحمه الله تعالى :

= المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب» ، قال السخاوي في المقاصد : وفي الباب أحاديث أمثلها هذا الحديث ، لكن ضعف البيهقي رفعه ، وقال الدارقطني : الموقوف أشبه بالصواب أ هـ (١/٣١٥) مقاصد .
وروى مالك في موطئه قال : قيل : يارسول الله ، المؤمن يكون جباناً ؟ قال : نعم ، قيل ، ويكون بخيلاً ؟ قال : نعم ، قيل : يكون كذاباً ؟ قال : لا . أ هـ . إلا أنه مرسل أو معضل ، والله أعلم .
(١ و ٢) تقدم تخريجهما . في ص (٢٨٩) و (٣٠١) .

١٠٦ـ وَنُجْحُ الْمِنَى يُنْسِي الْمِنَاء وَكَمْ مِعىً بِـهِ أَيْنَعَتْ بَعْـدَ الْجُـدُوبِ مِعَـاءُ

قوله : ونجح يضم النون وقد تفتح : الظفر بالشيء ، مبتدأ ، خبره ينسي . المنى ، بالقصر والكسر : المدة التي تستبرأ فيها الناقة ، أي تختبر فيها : أهي لاقحٌ أم لا ، يقال : ناقة على منى أو هي مَانية . والمناء ، بالمد : الانتظار ، يقال : مانيت الشيء : انتظرته . والمعى ، بالقصر : مجرى المياه وما تَجْرفُهُ من الأرض ، وتطلق ويراد بها مجاري الطعام .

قال الرسول ﷺ : ((المؤمن يأكل في معىً واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء[1])) . والمِعَى : الرجل الذي لايستقلُّ بنفسه ولا يرتجل الأمور . والمعاء ، بالمد : رطب جُذت قبل النضج فنضجت وقد ييس بعضها ، وما ييس بالكلية يقال له : حشف .

قال رسول الله ﷺ : ((تعشوا ولو بكف من حشف : فإن تركَ العشاء مهرمة[2])) .

وإضافة النجح إلى المنى من باب إضافة الشيء إلى زمنه الكائن فيه . قال الله تعالى : ﴿ بَل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ : ٣٣] أي مكر بالليل ومكر بالنهار على صيغة المجاز العادي .

والمعنى : أن النُّجح الكائن في المدة التي يختبر فيها لقاح الناقة ، وذلك باجتلاء تلك المدة عن كون الناقة لاقحاً ، ينسي ذلك النجح صاحبه انتظاره لذلك ، وارتقابه إياه ، ومؤونة صبره على ذلك ، ومعالجته لطلب العلم به ، حتى كأن لم يكن شيء من ذلك ، وهكذا شأن العواقب المحمودة أن تنسي كلَّ مصيبة تقدمتها ، كما أن من انتظر لقاح نفسه بعد ضراب فحل الإيمان ، ووقوع مائة في أرحامِ القلوب من يعسوب ماء الغيوب ، فانعقد فيها جنين الإيقان ، بعد مكابدته دليل العرفان مدة المنى ، حتى نال المنى ، بظنون حمل الهنا فحصل الغنى ،

(١) حديث : «المؤمن يأكل في معىً .. الخ» حديث متفق على صحته رواه الشيخاني وأبو داود ، وهذا الذي أورد الشيخ لفظ البخاري ، وهو عنده في كتاب الأطعمة .

(٢) حديث : «تعشوا ولو بكف من حشف .. الخ» ضعيف جداً ، أخرجه الترمذي (١٠٠/٣) والقضاعي (٦٣/١) والخطيب (٣٩٦/٣) . وأورده صاحب الكشف تحت رقم (٩٩٥) .

قال الترمذي راويه : هذا حديث منكر لانعرفه من هذا الوجه ، وعنبسة يضعف في الحديث ، وعبد الملك بن علاق مجهول .

قلت : عنبسة هذا راوي الحديث قال فيه أبو حاتم : كان يضع الحديث ، كما في الميزان ، والله أعلم .

واضمحلت مدة العنا ، فوقع على لذته بالمشاهدة ، بعد عنائه بألم المكابدة ، فحمد عواقب الصبر ، إذ أفضى به إلى الظفر . قال الشاعر : (البسيط)

أخْلِقْ بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

فكنى بالناقة ولقاحها عن النفس وفلاحها ، وذلك من أشرف فصول البديع لو وجد مجارياً أو نحريراً مبارياً ، ومراده الحض على مجاهدتها ، حتى تَظفر بمشاهدتها ، بالصبر على محاولة المطالب ، والمضي في تحصيلها وإن استصعبت ، فرب مستصعب يسهل بعد حين ، ورب مستسهل يصعب بعد لين ؛ فإياك والاستعجال ؛ فإنه حيضُ الرجال ، والقنوط فإنه سبب السقوط ، ومثل لذلك بمسيل الماء الذي بعد عهده عن جريان المياه ، يرسل الله إليه الأمطار فتمده الأنهار ، فتتلاطم حافتاه بالفيض ، فيسقى الغياض والرياض ، ويروي البساتين والنخيل ، وتلقح الأشجار ؛ فينسي ذلك ماكان قبله من المصاب بالجدوب ذوات الإتعاب والإنصاب والأوصاب . وهكذا كل مرغوب تتعرض دون حصوله الخطوب ، حتى يصير وجْهُ الطالب ذا نكوب ، فإنه إذا زال مانعه وبدا طالعه أنْسَت لذةُ الظفر به ماتقدم من آلام الكد في طلبه ، وهذا أيضاً نوع آخر من أنواع الكناية ؛ فمجاري السيول كناية عن القلوب ؛ لأنها مجاري العلوم ، ومحل الفهوم ، وإن أصابتها الجدوب مدة ، لعارض هوائي ، أو مانع نفساني ، أو نازع شهواني ، أو نازع شيطاني ، فإنها مؤهلة ومهيأة للنفحات الربانية ، فتصيبها بعد المحول دفقات الذبول ، فتحدث هوامع السيول بالحكمة والعلوم ، وإلهام الغيوم الواردة مِن حضرة الحي القيوم ، فتثمر حدائقها إذ هي حقائقها ، وترهف شوارعها إذ هي شرائعها ، وتفرك زروعها إذ هي فروعها ، ويثمر نخيلها اذ هو دليلها ، وتزكو فواكهها إذ هي مداركها . ويكثر عشبها إذ هو كتبها ، ويبتسم زهرها إذ هو دهرها ، ويزهو نورها ، ويلذ للقاطفين فحوها إذ هو نحوها ، ويحلو مكيثها إذ هو حديثها ، وتسكر خمرة خطابها إذ هو منزل كتابها ، ويدهش سجع نغماتها إذ هو بحر لغاتها، ويعجبه حسن بيانها إذ هو فن تبيانها، وتلهيه الحجال بنطقها إذ ذلك فن منطقها ، وتفتنه الضفادعُ بنقيقها إذ ذلك فن بديعها ، وتفجعك الفحول بصريفها وذلك نوع تصريفها ، وتخبرك الهداهدُ بمكنون تعرفها إذ ذلك فن تصوفها ، ويغريك بلبل الأسماء من مكنون عزفه وذلك سر حرفه ، ويسر إليك الصرد من تغريده وذلك فن توحيده*.

* هذا السرد الجمالي سبق التعليق على مماثل له في ص ٣٧ و ص ١٥٥ فراجعه إن شئت

قال الرسول ﷺ : ((إنَّ الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كَمَا يحيي الأرض الميتة
بل المطر)) .
ثم قال رَحمه الله تعالى :

١٠ ــ وَكَمْ إشْفىً[1] الإشفَاءَ مَلكَ رَبَّهُ فَـدَامَ له مِنْـــهُ فِحـىً وَفِحَـــاءُ

قوله : وكم : الواو للاستئناف ، وكم : تكثيرية من الأدوات التي تلازم الإضافة والابتداء غالباً .
لاشفى ، بالقصر والكسر : واحد الأشافي ، وهي معروفة يتخذها الخرَّاز والرقاعُ والخصاف لشعب[2]
تروق وجلم الشقوق . والإشفاء ، بالمد : مصدر أشفى فلان فلاناً : إذا أزال ألمه بمعالجة أو
ءٍ ، ويطلقُ ويراد به الإشرافُ على الشيء ، وهذا الأخير هو اللائق بحال الإشفى مِن جهة
نى ، ونسبة الأول إليه إنما هو بالدلالة على مابه الإشفاء مجازاً ؛ لأن الاستشفاء يكون بفعل
شفى لا بدلالتـه على مابه يكون . والفحى ، بالقصر ويفتح كَمَـا يكسـر : التـابل[3] .
فحاء ، بالمد والكسر خاصية جمع فَحية ، بالفتح وهي الحريره ، ونظيرة ظبية وظباء ، ويقال
: فحية .

فكأنه يقول : كثير مما يؤ لم كالأشافي مثلاً يجعل صاحبه مالكاً للإشراف على بغيته وما
ه جلب صحته بسبب استعماله كخصف نعله مثلاً ، فيدوم له بسبب ذلك ماذكره مما
اج إليه الصحيح كالتابل الذي يصلحِ به طعامه وكالحريرة التي يتغذى بِهَا ، ولولا الإشفى
ردى به الحفا ؛ فلم يدم له فِحاءٌ ولا فَحى ، وكثيراً مَا يقع الاستشفاء بالإشفى أيضاً كبط[4]
روح وفَصْدِ العروق ، فبهذا الاعتبار يكون صاحب الإشفى دَالاً على مَا يستشفى به ؛ لأنه
تشفى بالفصد وباستخراج المواد التي في البدن ، وذلك متوقف على الإشفى ومَا في معناها ؛
جوده مؤثر في ذلِكَ ومعين عليه ؛ فاستعير له بالدلالة ، فإذا استعملته فيما ذكر لمن احتاج
، دامت له حياته ويدوم مالابد منه في حياته كالمذكور مثلا .
وفاعل ملك ضمير الإشفى ، وربه : مفعول به ، وملك : خبر (كم) ، والإشفاء أيضاً :

---

(١) باظهار التنوين في اشفى مع نقل الحركة .
(٢) الشعب : موصل قطع الرأس ، والمراد به هنا جمع الشق بسلك .
(٣) التَّابل : مايصلح الطعام ، وجمعه توابل .
(٤) بط القروح : شقها .

مفعول مقدم لأن ملك من باب كسا وأعطى . والفاء من (فدام) سببية . وفَحىً : فاعِلُ دَامَ
إذ لا تكون ناقصة إلا بدخول مَا المصدرية عليها . وفحاء : معطوف على فحى . وله : متعل
بدام ، وضميره عائد على صاحب الإشفى ، وضمير منه عائد على الإشفى ، والمجرور متعل
بدام ، وإن شئت جعلته متعلقاً بملك .

وأشار المؤلف بهذا إلى أن المطلوب المحبوب قد لاينال إلا بما فيه مشقة ؛ فإنه لأحَبُ
للنفوس مِن الشفاء مِن الأمراضِ والإبراء مِن الأدواءِ ، وكثيراً مايتوقف ذلك على استعما
مافيه ألم فادح وعناء ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر : (من بحر الطويل)

تـريـدين إدراكَ المعــالي رخيصــةً ... ولا بُدَّ دون الشـهـد مِن إبر النحـل

وقَال غيره : (بسيط)

إن ابتغيت المعــالي فـازددنْ تعبــا ... أو أرض بــالذل واخــتر راحـة البـدنِ

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٠٨ ــ وَهذَا الْكِبَى عُقْبَى الْكِبَاءِ ولِلْحِجَى ... غَوَائِــلُ مِنْهَا أَنْ يُطَالَ حِجَاءُ

قوله : (وهذا الكبى) : الواو : للاستئنافِ ، وهذا : اسم إشارة مبتدأ ، والكبى خبره
جمع كِبَة ، بالكسر : وهي كناسة البيت ، ونظيره لِثَةٌ ولِثًى . والكِباء ، بالمد : نوع م
الطيب ، وفي ذلك يقول البوصيري برَّد الله ضريحه في همزيته :

فــإذا شمت أو شممت ريّــاهــا ... لاَحَ منهــا بــرق وفــاحَ كبــاء

والحجى ، بالقصر : العقل . والحجاء ، بالمد : مصدر حَاجيته إذا غالطته .

فكأنه يقول : وهذه الكناسات عاقبة الأشياء النفيسة التي يتنافس الناس فيها كالعو
الذي يتبخر به ويرغب الناس في اغتنامه وللعقل غوائل تغتاله حتى لايدرك مآل مايرغب فيه
يرد عليه من تلك الغوائل بإطالته مغالطة نفسه في الحقائق وما يطرقها من الطوارق التي يشيب
أدناها المفارق ، وهذه المغالطة من أسبابها صفاء العيش ، ومنها الجهل بعواقب الأمور ، ومن
الغفلة عن ذلك ، وقد جمعها المتنبي في بيتين فقال : (من بحر الكامل)

تصـفُـو الحيـاةُ لجاهـلٍ أو غـافـلٍ ... عمــا مضى منهــا ومَــا يُتَــوقَّعُ
ولِمَنْ يغــالط في الحقــائق نفســه ... ويَســومهــا طـلبَ المحالِ فتَطْمَعُ

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٠٩ ــ وَأَهْلَ الفِرىَ انْسُبْ لِلْفِراءِ ومِنْ مِرىً ... تَبَــرَّأ وَلاَ يَخْدَعْ حِجَــاكَ مِرَاءُ

فقوله : (وأهل الفرى انسب) : فأهل : مفعول لانسب . والفرى : مضاف إليه
بله ، وهو بالقصر جمع فرية . والفراء ، بالمد : حمر الوحش ، واحدها فرى ، بالتحريك ،
جمل ، والمرى ، بالقصر ، جمع مرية ، بالكسر ، وهو الشك ، والمراء ، بالمد : الجدال .
فكأنه يقول : انسب أهل الافتراء لحمر الوحش وألحقهم بها حيث لم ينتفعوا بعقولهم
امتازوا بِهَا عن الحمر ؛ إذ لو كان لهم عقول ينتفعون بها لحجزتهم عن الافتراء لإدراكهم
حه، وتبرأ من الكذب. ولايخدع عقلك جدال مُجادل مزين الباطل لابس للحق به، كاتم
بعيد بمرائه مِن الصدق .
ثم قال رحمه الله تعالى :

١ ــ وَإِجْلى الْعُلى إِجْلاَءَ ذي الْبَغي فَاعْتَمِدْ وغَوْلَ الْعِشا احْذَرْ مَا أَجَنَّ عِشاءُ

فقوله : إجلى ، بالقصر : بمعنى مِن أجْلك ، على مَا حكَاه الفراء عن الكسائي أن
رب تقول : فعلت مِن إجلاك، بكسر الهمزة والقصر وبفتح الهمزة أيضاً، أي : مِن أجلك .
جلاء ، بالمد ، الحمل على الجلاء ، وهو مفارقة الوطن . والغول : مصدر غال الشيء
تاله : إذا أهلكه على وجه الغدر والاختفاء ، ومنه القتل غيلة . والعشى ، بالقصر : الأمور
تبسة ، الواحدة عشوة ، بالكسر ، ومنه قولهم : أَوْ طأني عَشوى ، وخبط عَشوى ،
عشاء ، بالمد : مابعد غيبوبة الشفق إلى نصف الليل .
وفي الأثر قال رسول الله ﷺ : ((كفوا صبيانكم عند فحمة العشاء فإن للجن في
الساعة انتشاراً[1])) .
فإجلى العلا : مفعول لأجله . وإجلاء ذي البغى : مفعول به ، وفعلهما اعتمد .
ل العشا ، بالنصب : مفعول من أجله .
والمعنى : فاعتمد إجلاء أصحاب البغى مِن أجل نيل العلم ، واحذر ماأجنَّه ظلام ، أي
ه لأجل غول العشا ، وهو على حذفِ مضافٍ أي : مخافة اغتيال الأمور الملتبسة عليك
تقع فيها وأنت لاتشعر .
ثم إن قوله : (وغول العشا .. إلى آخره) تمثيل لحالة التباسِ الأمور واشتباِهها بحالة

---

(١) حديث : «كفوا صبيانكم .. الخ» صحيح رواه أبو داود والعسكري ، وأورده السيوطي تحت رقم
٦٢) ورمز له بالصحة ، والله أعلم .

الأشياء المشتملة بظلام العشاء ، فكأنّه يقول : إذا اشتبهتْ عليك الأشياءُ ولم يتبين لك أنـ
مأمور بها أم منهي عنها فأمسك عنها حتى تعلم حكم الله فيها : فتتقدم إن أمرتَ ، وتحجمُ
زُجِرْتَ ، كالمتوضيء يشك هل غسل العضو ثلاثاً أم أربعاً فلا يغسل ، بخلاف ماإذا شـ
أصلى ثلاثاً أم أربعاً فإنه يحتاط ؛ فيأتي بالرابعة ويسجد بعد السلام ؛ إذ الغسل يُكْتَفَى
بالواحدة فضلاً عن الثالثة ، والرابعة توقع في المحذور ؛ ففررنا إلى جانب السلامةِ كما فررنا إ
جانب الاحتياطِ في الصلاة ؛ إذ لاتصح الصلاة بدون تمام الأربع ، فالفرار إلى ترقيعها أولى
الاعتماد على مَاعسى أن يكون مفسداً لها ، وكذلك مَن حرم واحدة مِن أربع فإنهن يحرمن عـ
مالم يعين الواحدة المبتوتة ، وكذلك لو وقعت مضغة لحم ميتة في لحم فإنَّ الجميع يحرم
التبست به .   وانتهى الكلام على مايكسر فيمد ويقصر باختلاف المعنى

☆☆☆

ثم شرع يبيِّن:

ما يضم فيقصر ويفتح فيمد باختلاف المعنى

فإنما يتفقانِ في المادة خاصة ويختلفان في الضم والفتح كما يختلفان في المعنى ، فالمقصـ
مضموم ولا غير، والممدود مفتوح ولا غير .

ثم قال الناظم رحمه الله تعالى :

١١١ ـ غُدَاكَ ارْعَ وَاغْتَضْ مِنْ غَدَاءٍ تَسَحُّراً   وَلاَ يُنْسِكَ الذِّكْرَى حُسىً وَحَسَاءُ

الغُـدى ، بالضم والقصر: جمع غُدوة، بالضم. قال النبي ﷺ : ((عليكـم بالغد
والروحة وشيء مِن الدلجة، وإياكم والمنبت فإنه لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى))[1] .

يعني أنَّ المؤمن ينبغي له ان يعبدَ الله بنشاط، وذلك ان يتخذ أوراداً في أول النهار بعد
يصلي الصبح في جماعة لأنه قد روي أنَّ المدمن على صلاة الصبح في جماعة لايصيبه عظ
بلاء ، وقد بلغ بعض السجانين هذا الأثر الجليل، وكان كلما أخذ إنساناً ليسجنه يسأله : هـ
صلى الصبح في جماعة يومَه ذلك ؟ فيخبره أن لا ، فمكث على ذلك أربعين عاماً ولم يقع
يده مَن صلى الصبح في جماعة يومه؛ فثبت عنده صحة الخبر؛ فتاب ولزم المسجد وصـ
الجماعة .

---

(١) حديث: « عليكم بالغدوة والروحة ... الخ » الجزء الأخير منه رواه البزار بلفظ: « إن هذا الدين متـ
فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لاظهراً أبقى ولاأرضاً قطع » ، وأورده في الكشف تحت رقم (٧٩٤) .

قال رسول الله ﷺ : ((يختلفون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاتين: صلاة الصبح وصلاة العصر، فإذا رجعوا إلى الله سألهم وهو أعلم فيقول لهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون))[1] .

والمراد بقوله ﷺ : (والروحة) صلاة العصر والمغرب . قال الله تعالى : ﴿ **وقرآن الفجر إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ [الإسراء:٧٨] فالمراد بقرآن الفجر صلاة الصبح، والمراد بقوله: مشهوداً أنَّ حفظة الليل وحفظة النهار يجتمعون في صلاتين: صلاة الصبح وصلاة العصر .

والدعوات المأثورة بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وبعد العصر إلى الغروب: قال رسول ﷺ : ((مَن صلى الصبح في جماعة، ثم جلس في مَوضع مصلاه، وأخذ في ذكر الله والقراءة والدعاءِ حتى طلعت عليه الشمس فصلى ركعتين كان له بذلك ثواب حجة وعمرة تامتين تامتين تامتين)) .

وفي حديث قدسي يرويه عن ربه: ((مَن حفظني في أول النهار وآخره حفظته فيما بينهما)) .

قوله: (وشيء مِن الدلجة) يعني صلاة العشاء في جماعة ومِن ثلثي الليل الأخير إلى الصبح، وإلا فمن السحر إلى الصبح .

وفي رواية: ((مَن صلى العشاء الأخيرة والصبح في جماعة فقد أخذ بحظه مِن قيام الليل)) ، لكنه ينبغي له إحياء ليلته ولو بركعتين، وكلما زاد فهو خير ما لم يؤد إلى الملل .

قال الشاعِرُ : (من بحر البسيط)

مَن يبتغي جنة الفردوس يدخلها ... بركعة في ظَلامِ الليل يُخفِيهَا

قال الرسول ﷺ : ((ائتوا مِن العمل مَا تطيقون ولاتبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله ؛ فإنَ أحبَّ الأعمال إلى الله ما كانَ ديمة ولو قل ، وإن الله لايمل حتى تملوا))[2] .

قال ابن عباس رضي الله عنه : باكروا في طلب الرزق فإنَّ البكورَ بركة مقلوبة .

---

(١) حديث: « يختلفون فيكم ملائكة... الخ » حديث متفق على صحته رواه الشيخان والنسائي، وهو عند البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، وأوله: يتعاقبون بدل يختلفون، والله أعلم .

(٢) حديث: « ائتوا من العمل... الخ » تقدم تخريجه في ص (٢٣٨)

قال الرسول ﷺ : ((باكِرُوا بالصدقة فإنَّ البلاء لايتعداها))[1] .

وقال ﷺ لفاطمة : ((إياك والتصبح فإنها تمنع الرزق وتمحق بركة العمر))[2] .

وقال علي كرم الله وجهه : إياكم والصبيحة فإنها مجأرة مجْفَرَةٌ مَبخَرةٌ[3] .

وقال ﷺ : ((لغدوة أو روحة في سبيل الله أحب إلى الله من عبادة سنة)) .

والغداء ، بالفتح والمد : ما يتغدى به . والحُسى، بالضم والقصر: جمع حُسوة ، بالضم وهو القدر الذي يتحسى منه . والحساء ، بالفتح والمد : الحسو ، وهو شراب رقيق فيه حموض يستعمل في زمن الحر للتبريد، ويطلق ويراد به الرغوة ، وهي الثمالة . قال الشاعر: (من بح الطويل)

أحسـواً تُسـر اليـوم لي في ارتقـائـه ... وَمَنْ سَرَّ لي حسـواً فسـوفَ أُعارض

بَنِي عمنـــا لاتجعـلوا الشعرَ بيننـا ... وصـــالاً فـألسـن القريض مَقـارضُ

فكـأنه يقول: ارعِ أزمنتك وحافظ عليهـا ولاتضيعهـا فيما لايعود منـه نفع؛ وذلك بأ

---

(١) حديث: « باكروا بالصدقة... الخ » موضوع رواه أبو الشيخ وابن أبي الدنيا قال السخاوي: قال ابن حجر: لايتعين عندي أن هذا الحديث موضوع لاسيما وفي معناه ماأورده الديلمي من حديث عمرو بن قيس « الصدقات بالغدوات تذهب العاهات » ، وفي حديث آخر : « تداركوا الهموم والغموم بالصدقات » (١٤٢/١ مقاصد، واللفظ عندهم: « فإن البلاء لايتخطاها» بدل «لايتعداها» .

وأورد الحديث ابن الجوزي بلفظ: «فإن البلاء لايتخطى الصدقة» وقال: هذا حديث لايصح عن رسول الله ﷺ رواه عن المختار بن فلفل أربعة: أبو يوسف، وسليمان بن عمرو، وعبد الأعلى بن أبي المساور، وابن إدريس: فأما ابو يوسف فلا يعرف وبشير الراوي عنه منكر الحديث. وأما سليمان فقد اجمع العلماء على أنه كان يضع الحديث وأما عبد الأعلى فقال يحيى: هو كذاب، وقال علي: ليس بشيء. وأما ابن إدريس فالذي رواه عنه الصفر وكان يضع الحديث (١٥٤/٢) موضوعات .

قلت: الذي يظهر لي مع جلالة رأي ابن حجر أن الحديث موضوع، والله أعلم .

(٢) حديث: « إياك والتصبح فإنها تمنع الرزق... الخ » ضعيف جداً أو موضوع، أورده ابن الجوزي في موضوعاته بلفظ: « الصبحة تمنع الرزق » ، وقال: هذا حديث لايصح عن رسول الله ﷺ ، وابن أبي مروة راوية قال أحمد: لاتحل الرواية عنه. وقال يحيى: ليس بشيء. وقال الدارقطني: متروك (٦٨/٢) .

والحديث رواه القضـاعي وعبد الله بن أحمد في زوائده ، وأورده السخاوي عنه تحت رقم ٦١٥ وقال: ضعيف، وقال الصغاني: موضوع، والله أعلم .

(٣) هذا من كلام عمر على الصحيح، ومعنى مجأرة: مظنة لمرض الحلق . مجفرة: تسبب الجفر الذي هو عدم الرغبة في النساء . مبخرة : أي تسبب الرائحة الكريهة في الفم . وفي رواية: مجعرة أي: تسبب يبوس المعدة .

علم مايلزمك في كل وقت فاشتغل به؛ إذ ما مِن وقت يمضي إلاّ و لله عليك فيه حقٌ لايقضى غيره؛ لأنه لايصلح لقضائه لِمَا تعلق به هو بخصوصيته. ومن هنا يقولون: الفقير ابن وقته. عتض من غدائك تسحراً: أي اجعل التسحر وهو الأكل من آخر الليل لأجل الصوم في نهار عوضاً من الغداء وهو مايؤكل في أول النهار أو وسطه، وأما بالذال المعجمة فهو مايتقوت وتقوم به البنية كان بليل أو نهار. وهذا أمر منه بالمواظبة على الصوم، إذ هو سياحة هذه أمة . قوله: ولا ينسك الذكرى : أي التذكر واستعمال الفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلك، فإن ذلك من أعظم باعث على الاجتهاد في الاستعداد للمعاد، فلايشغلك عنه ما ضمن لك الذي من جملته ماذكره لك من الحُسى والحِساء والعشاء والغداء .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١١٢ ــ فَمَن خَشِيَ السُّوءَى لِسَوْءَاءَ هَاجِراً يَفُـزْ وَهُنَـا أَيْضـاً لَدَيْهِ هَنَـاءُ

قوله: (فمن خشي السوءى) : فالفاء استئنافية. مَن : اسم شرط بمعنى الذي . خشي: فعلُ الشرط، وجوابه يفز، وفاعله مستتر. والسُّوءَى : مفعول خشي، وهو في الأصل أنثى الأسوأ أفعل) تفضيل مِن السوء . والسوءاء ، بالفتح والمد: القبيحة مِن الفَعَلات وغيرها. وهنا: اسم إشارة يشار به إلى المكان القريب. والهناء، بالفتح والمد: ضد التنغيص . قوله: هاجراً : حال من فاعل خشي، وهو ضمير، ولسوءاء : مفعول هاجراً واللام فيه لتقوية العامل الضعيف عن العمل بالفرعية والتأخر . وهذه الحال لازمة لأن الخوف من سوء العاقبة السيئة في حال كونه تاركاً لكل فعلة قبيحة . يفز بها أي: بتأديته إلى المأمَنِ مما يخاف ، وذلك بأن تحسن عاقبته، لأجل طلب الهناء العاجل عنده هنا صار ذلك سبباً لصفاء معيشته العاجلة مما ينغصها عليه ؛ لأن تنغيص العيش أيضاً يكون بفوات المرجو من حصول المعدوم وعمد فقد الموجود ، ومن يخَفْ عاقبة أمره لم يأملْ سوى الأمن من سوئها، ويخلي قلبه من كل شيء سوى ذلك؛ فلا يحزن على مافات، ولايتعلق له غرض بما هو آتٍ ؛ فيصفو عيشه من الأكدار، وتقل في حقه الأخطار. وصـورة الكلام صورة الخبر، والمقصود منه الحث على الخوف من عاقبة السوء، وتذكر هادم اللذات وفجأة الفوات ، جعلنا الله من المتذكرين لذلك، الخائفين مما هنالك .

قال الرسـول ﷺ : ((من خافَ أدلج ، ومن أدلج بلغ المـنزل))[1] . والمراد بالمنزل

(١) حديث « من خاف أدلج.. إلخ » ضعيف جداً رواه الترمذي والحاكم ، قال الحاكم : صحيح، وأقره =

اليقين في الدنيا المُحِل في حضرة القدس وجنة المأوى في الآخرة التي قد جمع الله فيها ما تشته
الأنفس .

وفي المثل : (مَن خافَ هرب، وَمَن هَرَبَ وَجَدَ ما طلب) .

وفي المثل أيضاً : (مَن خاف فَر ، وَمَن فَر في جنة الخلد استقر) .

وقوله : يفز : أي ينجح ويفلح ؛ فالبيت مقتبس من قوله الله تعالى : ﴿ **فَمَن زُحزِ
عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ [آل عمران:١٨٥] ، جعلنا الله ممن فاز بقربه وجواره
آمين .

قال رحمه الله تعالى :

١١٣ ــ وما ضَرَّ ذا طُرْفَى بِطَرْفَاءَ لائِذاً ضُحىً إنْ رَمَاهُ بِالأُوَارِ ضَحَاءُ

قوله : (وما ضر ذا طُرفى) : الواو: للاستئناف ، وما: نافية. ضر: **فعل ماضٍ** . ذ
طرفى: مفعول به ومضاف إليه. طُرفى ، بالضم والقصر : المنتخب من كل شيءٍ ، وقد يطلق
ويراد به كثرة الأنساب بين المنسوب والأب الأعلى حيث كانوا في حسب وشرفٍ وهو ضد
الأقعد . والطرفاء ، بالفتح والمد : شجر الأثل، ومن العرب من يقول في الواحدة: طرفة، ومنه
من يقول: طرفاء في الإفراد والجمع . والضحى، بالضم والقصر: ما قرب من طلوع الشمس
وقيل: صدر النهار . والضحاء بالفتح والمد: البروز للشمس، قال الناظم: وقصره أقيس وهو ك
قال؛ لأن قيـاس مصدر الفعل المكسور العين (فعلى) بالتحريك والقصر لا (فعلاء) بالمد
والأُوار ، بضم الهمزة وتخفيف الواو على وزن غراب: حر الشمس أو النار أو العطش ؛ إذ كل
ذلك صالح هنا ولايصح غيرهما من معانيه. وما: للاستفهام المراد به النفي. ذا طُرْقَى . مفعول
به لضر، وفاعله ضمير (مَا) الاستفهامية. ولائذاً: حال من ذا طُرفى . وبطرفاء : متعلق به. و
(ان) : يصح ضبطه بكسر الهمزة وبفتحها : فبالكسر على أنها شرطية، ورماهُ: شرطه، وجزاؤه
محذوفٌ بدلالةِ ما قبله عليه . والفتح على أنها مصدرية مجرورة بلام التعليل محذوفة أي: لأجل
أن رماه .

فكأنه يقول: أي شيء ضر رجلاً صاحب طرفى في نفسه أي بينه وبين أبيه الأعلى

الذهبي، وأورده السيوطي تحت رقم ٨٦٥٣ قال المناوي: وفيه يزيد بن سنان ضعفه أحمد وابن المديني، وقال ابن
طاهر: يزيد متروك، والحديث لايصح مسنداً، وإنما هو من كلام أبي ذر (١٢٣/٦) .

قلت: وفي الحديث مع ضعفه زيادة على رواية الشيخ، والله أعلم .

وهو آدم ــ عليه الصلاة والسلام وعلى أفضل بَنِيه أشرف العالم بأسره ــ كثير من الآباء لا يعلم عددهم لكثرتهم إلا الله تعالى ، وكلهم قد هلكوا ؛ فهو كذلك من أجل أنه عريق في الهالكين . قال الشاعر : (من بحر الطويل)

وما المرءُ إلاَّ ميتٌ وابنُ مَيِّتٍ　　وذُو نَسبٍ في الهالكين عَريق

فلا يضره شيء إذا كان كذلك في حال كونه عائذاً بطرفاء يأوي إلى ظلها إذا رمته أوارها الشمس، أي بحرها، أو بعطش، ولا يضره شيء لأجل أن رَمَى الضحاء بحر أو بعطش؛ لأن ذلك لايجلب له مالم يقدر عليه من الهلاك ؛ لأنه عريق النَسَب في الهالكين كما تقدم، ولايعجله له قبل أوانه ، كما أن الثواء بالقصور والغرف لا يدفعه عنه إذا حان وقته، بل له في الانفراد النفع المحض حيث استراح من إذايتهم له ، ومن إذايته لهم .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١١٤ ــ وَسَارِعْ إلى الْحُسْنَى وَحَسْنَاءَ لا تُطِعْ　　هَوَاهَا فَفِي التُّقَى غِنىً وَغَنَاءُ

قوله : (وسارع إلى الحسنى) : فالمسارعة المسابقة إلى الحسنى . والحسنى، بالضم والقصر: العاقبة الحسنة، وهي في الأصل أنثى الأحسن (أفعل) تفضيل من الحسن. والحسناء ، بالفتح والمد : المرأة الجميلة البيضاء . قال رسول الله ﷺ : ((سوداء ولود خير من حسناء لاتلد))[1] .

قال الشاعر، وهو ملك غسان لما أسلم ودعاه قيصر إلى الرجوع عن دينه إلى النصرانية أبى قال : لاأفارق دين محمد ؛ فأمر به فصلب على جذع نخلة، فلما حملوه على الجذع ليصلبوه أنشد يقول : (من بحر الطويل)

ألا أبلغ الحسناء أن حليلها　　على الباب يَرقى فوق إحدى الرواحل
على ناقة لم يطرق الفحل أمها　　مجذبةٌ أطرافُهَا بالمناجل

ثم التفت على قيصر فقال له: والله يا قيصر إنك لتعلم من أمر محمد مثل ما أعلم، لكن جحدت وضننت بملكك. قال قيصر: صدقت والمسيح، ولكن لم أجد بُدّاً من هذا .

---

(١) « سوداء ولود خير من حسناء لاتلد » لايصح عن رسول الله ﷺ ، أخرجه ابن حبان في الضعفاء ، وعنه الغزالي، قال العراقي : لايصح عن رسول الله ﷺ (٢٧/٢) إحياء .

واورده صاحب الكشف تحت رقم ١٤٩٩ وقال: ذكره ابن الأثير في (النهاية) ، ورفعه الأزهري ، وأخرجه غيره عن عمر مرفوعاً ، والله أعلم .

فلما دنوا منه ليصلبوه التفت إلى رجل من بني عمه ، فقال له : (من بحر الكامل)

أبلغ سراة المسلمين بأنني ... سلم لربي أسْلُمِي وعظامي

والغُنى ، بالقصر والضم: جمع غُنية ، بالضم وهو مايستغنى به . والغَنَاء ، بالفتح والمد: الكفاية، وهو الذي يقوم بكل ما تولاه من الحروب وغيرها أحسن قيام .

فكأنه يقول : بادر إلى فعل ما تحصل لك به العاقبة الحسنة، ولاتطع امرأة حسنة في أمر دين أو دنيا من أجل هواك لها ؛ فإنهن ناقصات عقل ودين ؛ فإشارتها على حسب عقلها ؛ فطاعتها مضرَّةٌ لك في الدين والدنيا ، وذلك يسلبك من التقوى التي هي عين مخالفتها ، وفي التزام التقوى غنية لك وكفاية عن متابعة هواها . وقال الرسول ﷺ : ((شاوروهن وخالفوهن ؛ فإن في خلافهن البركة))[1] .

فلما بلغه ﷺ عن قوم أن امرأة تسودهم قال: ((لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة))[2] .

وقال ((كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربعة : آسية بنت مزاحم، ومريم بنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد))[3] .

والبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ [الحديد:٢١] .

ثم قال رحمه الله تعالى :

---

(١) حديث « شاوروهن ... الخ » لا أصل له مرفوعاً ، رواه ابن الجعد، وأورده السخاوي تحت رقن ٥٨٥ وقال: لم أره مرفوعاً ، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم (٤٣٠) وقال: لا أصل له مرفوعاً ، وكلاهما بدون زيادة « فإن في خلافهن البركة » ، وهذه الجملة أوردها العسكري في الأمثال عن عمر قال: خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة، والله أعلم .

(٢) حديث « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » حديث صحيح رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب المغازي .

وسببه أن النبي ﷺ بلغه أن أهل فارس ملَّكوا عليهم بنت كسرى لعدم من يتولى الملك من البنين؛ لأن الله ابادهم بدعائه ﷺ لما مزق كسرى كتابه ، فقال... الحديث، والله أعلم .

(٣) حديث « كمل من الرجال كثير ... الخ » متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه ، ولفظه عند البخاري : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » كتاب الأنبياء ، والله أعلم ..

١١ ـ وَلِلْغَايَةِ الْقُصْوَى بِقَصْوَاءَ شَمِّرَنْ فَمَا بِكُسَى زَهْوٍ يُنَالُ كَسَاءُ

قوله: (وللغاية القصوى) : كأنه يقول: شمِّر ، أي جِدَّ وأسرع ، لنَيل الغاية العالية
رتفعة بناقة قصواء ، أي: نجيبة مقطوعة طرف الأذن ؛ فما ينال الشرفُ بِكُسىً ، وهي بالضم
قصر : جمع كُسوة ، بالضم، على وجه التكبر بها والزهو والإعجاب والخيلاء ، بل إنما ينال
لجد والاجتهاد وارتكاب مشاق تكاليف الشرع التي تشق في أول الأمر على الطبع .
كَساء ، بالمد والفتح : الشرفُ والزهو ، وهنا الكبر والتيه والفخر .

وفي المثل: (ليس مِن شيم الأشراف النظر إلى الأعطافِ) . وفيها أيضاً : (ليس مِن شأن
ي الأحساب الزهو بفاخر الثياب) .

يروى أنَّ النعمان بن المنذر خرج على العرب مِن أيَّامه وعليه حلة مِن الوشي لم ير
ؤون مثلها ، منسوجة بالذهب الإبريز واليواقيت ، فجعلت سادات العرب تهنئه بها وتعجب
ي شأنها وفيهم أكثم بن صيفي ساكت لم يهنئه ولم يذكرها بشيء؛ فقال له النعمان : مالك لم
ني بهذهِ الحلة ولم تعبأ بشأنها ؟! فقال له: أيها الملك أبيت اللعن، لو كانت هذه الحلة على
ر أو دلال لأعجبتني كما أعجبتهم، لكن الملك أعجب إلي منها؛ لأنَّ الأشرافَ تتعزز بهم
شياء لاهم يتعززون بها. فقال له الملك: لله أبوك : مَا أوسع باعكَ في العقل والذكاءِ !
ل : إني اعطيها غداً سيد العرب. فلما كان الغد أقبلت إليه سادات العرب كلٌّ يرجو أن
طاها، إلا أكثم بن صيفي فإنه لم يذهب إليه ولم يطمع ؛ فقال له قومه: هلاّ ذهبت إلى الملك
لله يعطيك الحلة؟! فقال لهم: إنَّ ذلك ليس من الكيس ؛ فإنَّما الحلة واحدة وسادات العرب
يرون ، فإن كان يريدني فإنه يسأل عني ويرسل إليَّ ؛ فيكون ذلك أحفظ للمروءة ، وأتم
رف وابقى لماءِ الوجه ، وإن يكن لايريدني ففي ذهابي إليه هضم المروءة ، وهدم الشرف ،
ع علي مِن الخجل ما أخاف أن يكون سبباً للتلف، وفي تخلفي إبقاء التهمة[1] . فأحدث
ي أني لو أتيته لأعطاها لي ، وكذلك يقول كل مَن له بي حسن الظن . فلما اجتمعت على
مان اشرافُ العرب سأل عن أكثم بن صيفي ، فقيل له : إنه تخلف ولم يات ، فما أربك
؟ قال: إني أريد أن اعطيه هذهِ الحلة، فقيل له: إنَّ معكَ من اشرافِ العرب وساداتها ما فيه
ء عن أكثم بن صيفي، قال : لا والله ، إنه لحكيم العرب وفارسُها ومن بيت مكرمتها . فبعث

(١) كذا في الأصلين: التهمة، والمعنى: إني أتهم نفسي بالتخلف عن شيء لو حضرته لفزت به، وهذا الاتهام
النفس والغير فيه شرف لي .

إليه، فلما جاء خلعها وناولها إياه، ثم نظر إلى وجهه ليرى هل ظهر السرور عليه أم لا، فلم ي
علامة السرور على وجهه، فقال له: مالي لا أرى السرور على وجهك وقد حبوتك بغنى الده
وعز الأبد؟! فقال له: أيها الملك، إنَّ همتك بي شغلتني عن السرور بالحباء فلا أدري أأقو
بشكر نعمتك فأكون كريماً أم لا فأكون لئيماً؛ ففي هذا مايمنع الكريم مِن السرور ويحول بين
وبين الحبور؛ فقامَ إليه النعمان فالتزمَه فقال له: لله درك، إنك لاتزيد في كُل مقام إلا شرف
وظرفاً؛ فتمن عليّ فإنَّ لك ماتمنيت؛ فقال له إنك قد حَصَرْتَ الغنى أيها الملك حيث خلعت
عليّ حلتك هذه، وقد تاقت إليها نفوسُ جميع السادات، وجعلتني لها أهلاً مع غيبتي
وحضورهم؛ فالتفت النعمان إلى سادات العرب فقال لهم: هذه السيادة وأبيكم، أفيكم مَن
أقول له يتمنى علي فيقول: لا؟ قالوا له: ليس فينا مَن يمتنع مِن ذلك، فقال له، إذا امتنعت مِن
التمني فلأتمنى لك، فأعطاه عطايا جسيمة لاتدخل تحت حصر، ثم أعطى بعد ذلك جمي
الساداتِ ووصلهم، فانصرفَ. وانصرفوا .

وكانت معدٌّ لشرفها لاتعبأ بزخرفة الثياب ، ولا تكترث بها، وإنما تتنافس في الكرم
والإحسان، وفصاحة اللسان، وشجاعة الجنان، ومقارعة الأقران، والتروي مِن العلم والقران .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١١٦ ــ وَعُذْرَاكَ لِلْعَذْرَاءِ لاتَكْتَرِثْ بِهَا فَمَا لِثُوىً يُثْنِي الْمُجِدَّ ثَوَاءُ

قوله: العُذرى ، بالضم، والقصر : العذر على وجه الجمع ، وقد يجمع على معاذير وهو
القياس، قال الله تعالى: ﴿ **ولو القى معاذيره** ﴾ [القيامة: ١٠] ، يقال: سمعت عذراك
ومعاذيرك وأعذارك فقبلتها ، إلاَّ أنَّ عُذراك لغة شاذة لم تقع إلا سماعاً . والعذراء ، بالفتح والمد
البكر. والاكتراث بالشيء: المبالاة به . والثوى ، بالمثلثة والضم والقصر : خرقة تزال به
العذرات ويوقى بها الوطب[1] ، وهو وعاء اللبن ، أو يفعل بها ما يناسب ذلك . والحاصل أنه
خرْقة ممتهنة مستقذرة . والثواءُ ، بالمد والفتح : الإقامة . والمجد: المسرع ، وهو بالنصب مفعول
يثني أي : يرد، والثواء فاعِله .

والبيت في المعنى كالذي قبله ، أي: لاتبالِ بعذرك للعذراء ولا تهتم به ، فما تريد إلا
إقامة على حبها ، أي: إن الشخص المجد في رحيله ونقلته لأجل اشياء حقيرة ممتهنة كالثوى
مثلاً ونظيرها ما يحب لأجله الحياة والبقاء في الدنيا مِن متاعها الفاني قليل حقير لا قيم

---

(١) الوطب: الثدي العظيم وسقاء اللبن .

ـه بالنسبة إلى ما أعد الله للمؤمنين ورغبهم في طلبه مِن الجنة ونعيمها .

قال رحمه الله تعالى :

١١١ ـ وَلَنْ تُذْعَرَ الْحُمَّى بِحَمَّاءِ نَهْدَةٍ وَلاَ بِكُـرَى اللاَّهِي تُـرَامُ كَرَاءُ

قوله : (ولن تذعر الحمى) الواو : للاستئنافِ ، ولن تذعر : ناصب ومنصوب مبني للمجهول، والحمى : نائبه ، وهي الحرارة العرقية التي تختص ببعض الأماكن . قال ﷺ : ((الحمى مِن فيح جهنم فأبردُوها بالماء))[1] . وهو أن ينغمس المصاب في نهر جارٍ قبل أن تطلع الشمس .

ومما كان يفعل رسول الله ﷺ ما روي عنه أنه كان يجلس في مخضب فيقول لهم: ((صبوا علي مِن سبع قرب لم تحل أوكيتها لعلي أعهد إلى الناس))[2] .

وقد بحث في هذا الباب ابن الخطيب في تفسير هذا الأثر الشريف حتى قال : يحتمل أن يكون قول رسول الله ﷺ : ((أبردوها بالماء)) التصدق به ليبرد الله عنه حرَّ الحمى وتلهبها كما أبرد عن أخيه المسلم حر العطش وتلهبه ؛ إذ قد شوهد مراراً لأناسٍ أصابتهم الحمى فانغمسوا في الماءِ واغتسلوا به فانعكست إلى بواطنهم الحرارة فأتلفتهم . وقيل: إنما ينتفع بالاغتسال والانغماس مَن لم تكن حمّاه صفراوية أو بلغمية ، بل كان بإقليم تغلب عليه الحرارة الملتهبة مِن شدة الحر والسموم كالحجاز وتهامة .

وقال ﷺ : ((حمى يوم كفارة سنة)) .

وقال ﷺ : ((الحُمى حظ كل مؤمن مِن النار)) .

---

(١) حديث: « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما بهذا اللفظ ، وهو عند البخاري في كتاب (بدء الخلق) .

(٢) حديث: « ان النبي ﷺ أمر أن يغسل بسبع قرب من سبعة آبار ... الخ » رواه الدارمي في مسنده ، قال العراقي في تخريج (الإحياء) : فيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة (٤/٤٥٤) .

قلت : وهو حديث طويل ، أوله : « امرنا رسول الله ﷺ أن نُغسله بسبع قرب من سبعة آبار ، ففعلنا ذلك ، فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس ، واستغفر لأهل أحد ... الخ » .

وأصل الحديث في الصحيحين ، ولفظ البخاري : « هريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس . فأجلس في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده ان قد فعلتن . فخرج إلى الناس، وصلى بهم وخطبهم » . كما أخرجه الترمذي والنسائي، والله أعلم .

ويروى عَن النبي ﷺ : ((أنه دخل على عَائشــة متوعكـة تسب الحمى ، فقال
لاتسبيها فإنها مأمورة ، ولكن أعلمك كلمات إن قلتهن برئت، فقال لها: قولي: اللهم ارح
جلدي الرقيق وعظمي الدقيق مِن شدة الحريق، يا أم ملدم إن كنت آمنت بالله العظيم فلا
تصدعي الرأس ولا تنتني الفم ولاَ تشربي الدم ولا تأكلي اللحم ، وتحولي عني إلى مَن اتخذ مع
الله إلهاً آخر)) . فلما قالتهن برئت . والحماء ، بالفتح والمد: أنثى الأحم أي : الأسود من كل
شيء. والكرى ، بالضم والقصر : جمع كرة ، بضم الكافِ وتخفيف الراء بوزن بُرَة : وهي على
ضربين : ضرب تتخذه الفرس مِن الغزل، ويجعلون له شركَاتٍ، ثم يرمون به إلى الهواء، ثم
يتخذونه هدفاً ، ثم يرمونه بالنبل والقسي وهم يعدون تحته ، فمن أصابه مراراً متكررة فقد تعلم
الخطو ، ومن لم يصبه ذهبوا به إلى معلم القذفِ ، وَمَن أصابَ وَأخطأ لم يكن عندهم براع
حاذقٍ فيتعلم بقدر ذلك ، وأمَا كرة العرب فيملؤونها بالكتانِ والقطن ونحوهما ، فيجعلون عليه
جلداً ، فيكونون طائفتين يضربونها بالعصي ، فمن أوصلها حَيَّه فقد غلب وكان أحذق في
معرفة المضارب .

ويروى أنّ أول مَن لعب بها فتية الكهفِ فبسببها نَجوا مِن كيد دغيانوس الجبار .

والكراء ، بالفتح والمد: ثنية بقرب الطائف لاتكاد تسلك لارتفاعها في الهواء وصعوبة
مسلكها . فكأنه يقول: ولن تذعر الحمى فتفارق صاحبها بعدوِ فرس سوداء عالية الصهوة .
والذعر شدة الفزع ، تقول : ذعر ذعراً وإذعاراً فهو مذعور ، ورجل مذعار إذا كان كثير
الفزع شديده . قال رسول الله ﷺ : ((لعن الله المذعرين مِن أمتي)) . وفي رواية : ((ذوو
الذعر مِن أمتي)) .

قال الشاعر :

ضَــرِّم لنـــار الفجــر إذْ عَرَى دُعْرُ وأعــارهُ الوجـد الفــؤاد إذ عــرا[2]

قوله : لاترم : أي لا تحاول الثنية المسماة بكراء أي : صعودها باللعب بكرى الشخص

---

(١) حديث: « الحمى حظ كل مؤمن من النار » ضعيف رواه البزار ، وعنه السيوطي تحت رقم ٣٨٤٦ ،
قال المناوي : قال المنذري : إسناده حسن ، وقال الهيثمي : فيه عثمان بن مخلدة ولم أجد من ذكره (٣/٤٢١)
مجمع .

قلت: قد رمز له السيوطي بالضعف، وفي الباب أحاديث كثيرة بالفاظ مختلفة ضعيفة كلها ، والله أعلم .

(٢) هذا البيت غير مستقيم في النسختين لا من حيث الوزن ولا المعنى .

الملاعب ، وهذا تمثيل بعدم النجاة مِن المخاوِف والأعراض اللاحقة بما يتنافس فيه الأحياء كالمراكب الحسان مثلاً ، وعدم إدراك المعالي بالتقصير واللعب ، وفي ضمنه الحث على الجد والتشمير وتركِ اللعب والفتور ، وعدم الاعتداد بالحاصل مِن أمور الدنيا .

قال رحمه الله تعالى :

١١٨ ــ وَمَا ذُو قُوىً أَمَّ الْقَواءَ بقَـاهِرٍ عُـدَاهُ إذَا لَمْ يَنْـأً عَنْـهُ عَـدَاءُ

قوله : (وَمَا ذو قوى) : الواو : للاستئناف . ومَا : حجازية عاملة عمل ليس . ذو قوى : اسم ما ومضاف إليه . بقاهر : خبره . أَمَّ : فعل ماض . القواء : مفعول به . والجملة نعت لذي قوى . والقوى ، بالضم والقصر : جمع قوة ، قال الله تعالى : ﴿ **علَّمه شديد القوى** ﴾ [النجم:٥] . والقواء ، بالفتح والمد : القفر . والعُدى ، بالضم : لغة في العِدَى ، بالكسرِ ، والعَداء ، بالفتح والمد : الظلم .

والمعنى : ليس صَاحب قدر ــ جمع قُدَرٍ ــ متعددة مِن متانةٍ الجسم ووفور ذاتِ اليد مِن صفته أنه قصد القهر ليس هو بغالب أعداءه إذا لم يبعد عنه الظلم والتعدي . والمقصود منه بهذا التحذيرُ مِن الظلم ؛ فإنه ظلمات يوم القيامة ، ، ووعد على الظالم في الدنيا . قال الشاعر : (طويل)

وَمَـا مِنْ يـدٍ إلاَّ يـدُ اللهِ فـوقَهـا وَمَـا ظـالمٌ إلا سـيبـلَى بِظَـالِمِ

كما تقتضي ذلك عادة العزيز الجبار المنتقم مِن الظالمين والفجار .

والبيت مقتبس مِن قوله تعالى : ﴿ **،سيعلم الذي ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون** ﴾ [الشعراء:٢٢٧] .

وفي الحديث القدسي : ((حَلف الله أن لاَ يميت الظالم حتى يريه الهوانَ)) .

قال الشاعر : (من بحر الرجز)

عِـدىً وللظـلم سـهـام تُنْتَـظَـرْ في سـيرهـا أسـرعُ مِن لمح البصرْ

تـرمي بهـا أيـدي القضـاء والقـدر

ثم قال رحمه الله تعالى :

١١٩ ــ الَمْ تَهْلِكِ الْعُزَّى بِعَزَّاءِ حِزْبِهَا وَلِلْحـقِّ في هَـذَا سُـمـىً وَسَـمَـاءُ

العزى ، بالضم والقصر : سَمُرَةٌ بالمجلل بَنَتْ غطفانُ عليها بيتاً وجعلت له سدنة، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيت وحرق السمرة . وأصل العزى أنثى الأعز .

والعزاء ، بالفتح والمد : الشدة، وهي أيضاً الأرض الصلبة . والسُّمى ، بالضم والقصر : لغة في الاسم ، تقول حمير : ما سُماك . وحزب العُزَّى : الطائفة التي عبدتها من غطفان ، وهي سبب هلاكهم ، وإسناد ذلك للعزى إسناد مجازي لاكسْبيّ ؛ لأنها سبب في هلاكهم ، والاستفهام هنا للإنكار ، وإنكار النفي نفي ، ونفي النفي إثبات ، أي قد أهلكت العزى قومها ، أي كانت عبادتهم إياها سبباً في هلاكهم بشدة أو في أرض صلبة ، وهذا المعنى يراد بالاستفهام فيه التقرير ؛ بأن يحمل المخاطب أن يقرَّ بما يعمله من هذا الكلام ، وهو الإثبات لا النفي ، والمراد بذلك الاستظهار ونصب الدليل على ما ادعاه في البيت قبله من أن ذا القوى لا يقهر عداه إذا لم ينأ عنه الاعتداء ، فإن حزب العُزَّى مع قواهم حيث اعتدوا بعبادتهم غير الله سبحانه وهو العزى أهلكهم أعداؤهم بعزاء ولم تنفعهم قواهم ولا العزى ، والحق بهذا واضح، فله سمو وارتفاع، وعلو وامتناع، بمعنى أن كون ماذكر حق لاريب فيه ولاخفاء له ، وقد صار كناية عن غاية الوضوح وشهرة الطموح ، لأن لازم كونه ذا سماء أن يكون ظاهراً ظهوراً لامرية معه ؛ فلا يحتاج حينئذ إلى مايحتاج إليه غيره من الطوح ، وذلك غاية الظهور، ولازم كونه ذا اسم أن يكون معروفاً ، به مشهوراً بتخصيصه .

فالبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوْا إلى ذي العرش سبيلا** ﴾ [الإسراء:٤٢] . وفي مثل هذا يقول علي رضي الله عنه في بعض وصاياه لولده : اعلم يابني أنه لو كان له شريك لأتَتْكَ به رسله ، ولرأينا آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفنا أفعاله وصفاته ، ولكنه إلهٌ واحدٌ لايضاده في ملكه أحد ، منزهٌ عن أن يحده زمان ، مقدس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار في دار القرار، على مادلت عليه الآيات والأخبار ، حي قادر مقتدر جبار قاهر، لايعتريه عجز ولاقصور، ولاتأخذه سنة ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر ارزاقهم وآجالهم ، لاتحصر مقْدُوراته ، ولاتتناهى معلوماته ، عالم بجميع المعلومات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، يعلم السر وأخفى ، فيطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر ، مريدٌ للكائنات ، مدبر للحادثات ، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير ، جليلٌ ولا حقيرٌ ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إلا بقضائه وقدره ، وحكمه ومشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو المبدىء المعيد، الفعال لما يريد، لا معقب لحكمه ، ولاراد لقضائه ، ولا مهرب لعبده من معصيته إلا بعصمته

حمته ، ولا حول ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته ، لو اجتمعت الإنسُ والجن
لائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرةً أو يسكنوها دون إرادته سبحانه وتعالى
جزوا ، سميع بصير ، متكلم بكلام لايشبهُه كلام خلقه . كل ما سواه سبحانه وتعالى فهو
دث وُجد بقدرته ، فما من حركة ولاسكون إلا وله في ذلك حكمة دلت على وحدانيته .
ي ذلك يقول ابو العتاهية : (من بحر المتقارب)

فيا عجبا كيفَ يُعْصَى الإلـ ـه أم كيف يَجْحَدُهُ الجاحِدُ
وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ
ولله في كل تحريكةٍ وتسكينة في الورى شاهِدُ

وقال غيره : (من بحر الخفيف)

كلُّ ما ترتقي إليه بوهمٍ مِن جَلال وقدرة وسناءِ
فالذي أبدع البريةَ أعلى منه سبحان مبدع الأشياءِ

وقال رحمه الله تعالى :

١١ ـ وَكَمْ مِنْ طُخىً زَالَ الطَّخَاءُ بِوَدْقِهَا فَفَاضَتْ هُوىً مِنْهُ وَضَاقَ هَوَاءُ

قوله: الطُخى ، بالضم: جمع طخية ، وهي قطعة من السحاب، وقد تفتح الطاء ويراد
حينئذ الظلام ، ويطلق ويراد به الكثافة .

قال البوصيري (من بحر الخفيف)

شمس فضل تحقق الظنُّ فيه أنه الشمس رفعة والضياءُ
فإذا ما ضحى محا نوره الظـ ـل وقد أثْبَتَ الظلال الطخاء[1]

ولابن حجر رضي الله عنه في شرحه للهمزية عند هذين البيتين من التفسير البديع ما
د فيه وافاد ، وأتى بما يشفي الغليل وزاد ، فقال: إنما لم يكن لشخص النبي ﷺ ظل لأنه
خص نوراني ، بل هو النور الذي تنورت من مضاعفة أنواره النيرات ، فكيف يثبت له
ل ؟! والأنوار المكتسبة من نوره تمحو الظلال فما ظنك بنور استنارت من أدنى جزء من نوره
رات ؟ قال الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا
شمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ [الفرقان : ٤٥ـ٤٦] .

فبهذا الاعتبار يكون الظل على ثلاثة أقسام : ظل مستقل ، وظل ممدود ، وظل

---

(١) الطخاء : الوسخ .

موصوفٌ بالسجود للملك المعبود ، قال الله تعالى : ﴿ **يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله** ﴾ [النحل : ٤٨] .

فالظل المستقل هو سواد الليل في مقابلة بياض النهار ، فكما أن النهار ينفي الظلال إلا ماأبقاه الله من ظلال الأجرام الكثيفة ، فتطرده الشمس يميناً وشمالاً ، وهو الظل الموصوف بالسجود للملك المعبود ، قال الله تعالى : ﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ [الرعد : ١٥] ، فالليل لايمحو الظلال حقيقة و[لكن] يغطيها ويسترها بكثافة إلا ماأظهره القمر بنوره .

وأما الظل الممدود فما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ [**ألم**] **تر إلى ربك** ﴾ [الفرقان : ٤٥] ألم تر إلى قدرة ربك ونفوذ أمره وبارع حكمته كيف [مد] الظل فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ؟! جعله ممدوداً لأنه ظل لاشمس معه كظل الجنة ، ولو شاء لجعله ساكناً ثابتاً لايزول ولاتذهبه الشمس ، ﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾ [الفرقان : ٤٥] ، معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ، ول[ولا] النور لما عرفت الظلمة ، والأشياء تعرُف بأضدادها ، ﴿ **ثم قبضناه إلينا قبضاً** ﴾ [الفرقان : ٤٦] ، يعني الظل إلينا قبضاً يسيراًبالشمس التي تأتي عليه . والمعنى أن الظل يعم جميع الأر[ض] قبل طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءاً جزءاً قبضاً خفياً .

وفي ذلك يقول الفاضل النحرير الجامع بين الحقيقة والشريعة السيد محمد الأمين [بن] السيد المختار بن أعمر إذ يقول : (من بحر الكامل)

كالظـل يظهر جرمهُ من شخصه	**متقلصاً باللطف عند إيابه**
إن قلت فرقاً فهو فرقٌ ظَاهرٌ	**أو قلت جمعاً فهو عينُ صوابه**
فَلِقَبْضِهِ وللطفه وبيانه	**سِرٌّ يُوَصِّلُهُ إلى أربَابه**
فدَع اللآلىء في خَفَا أصدافها	**في لجها والسِّرُّ خَلْفَ حِجَابِهِ**
فعبارة العلم المصون إشارةٌ	**لأولي النهى يبديه من جلبابِهِ**
عَبرٌ وأمثال وأسرارٌ بدتْ	**من نَصِّها في حكمها المتشابِهِ**

والطخاء بوزن السماء : كرب يعلو القلب . والودق : المطر الشديد الوقع ، تقول [ودق] ودَق كوعد يعد . والهُوى ، بالضم والقصر : جمع هوة ، وهي كُل حفرة بعيدة القعر . والهواء ، بالفتح والمد : مابين السماء والأرض .

وكأنه يقول : كثيراً ماأزال الله كربَ القلوب والضرر النازل بأهلها بسبب مايتزل من قطع السحاب من المطر ؛ فيتسبب عن ذلك الودق بكثرته فيضان الحفر البعيدة القعر ، ويضيق مابين السماء والأرض بتراكم المزن وهيجان الأنواء ، وهذا من معنى قولهم : (بلغ السيل الزبى) جمع زبية ، وهي الهوى . ومن شأنهم أن يحفروها في الأمكنة المرتفعة التي لاينالها السيل ، فإذا بلغها السيل كان شديد القُوى وبطلت الحيلة في دفعه ؛ فيضرب مثلاً لشدة الأمر .

قال الشاعر : (الرمل)

بلغ السيل الزبى ياسادتي وغدا السيفُ على متنِ الودجْ
فانهضوا نهضة حام للحمى طال ذا الليل ولا بدرَ يلجْ

وقد يقال : إن في هذا الكلام إرشاداً لأن الله سبحانه هو الرزاق ، وإن رزق العباد في السماء ؛ فلا يتأتى أنْ يُتَوَصَّلَ إليه بقوة ولاحيلة لكن بمحض فضل الله وسابق ضمانه ، كما قال سبحانه : ﴿ **وفي السماء رزقكم وماتوعدون** ﴾ [الذاريات : ٢٢] ، وهو المطرُ فهو تعالى يرسل الرياح بحكمته ؛ فتثير سحاباً برحمته ﴿ **فسقناه إلى بلد ميت** ﴾ [فاطر : ٩] لفاقته ، فأحيينا به الأرض بعد موتها إظهاراً لقدرته ﴿ **فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ [البقرة : ٢٢] تصديقاً لوعده ، ودليلاً على صحة بعثه . وفيها أيضاً الإشارة إلى أنه لاينبغي أن يقنط بتأخير الرزق وبطئه ؛ فإنه سبحانه قد وعد بأنه ﴿ **ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته** ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وكثيراً ما يكون الأمر كذلك ليعظم موقع منة الله سبحانه بالمطر ونشر الرحمة في القلوب ليعظم شكرها ؛ فتتضاعف الزيادة ، قال الله تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنَّكم** ﴾ [إبراهيم : ٧] ، ﴿ **والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل** ﴾ [الأحزاب : ٤] .

ولما انتهى الكلام على مايضم فيقصر ويفتح فيمد عقبه :

بما يفتح فيقصر ويضم فيمد باختلاف المعنى

عكس ماقبله ، فالمفتوح هنا مقصور وفيما تقدم ممدود ، والمضموم هنا ممدودٌ وفيما قبله مقصور .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٢ ـ حَلى بِحُلاءِ ذي الدُّنا فَعَزِيزُهَا يَصِيرُ لَقىً أَوْ يَعْتَرِيهِ لُقَاءُ

حلى ، بالفتح والقصر : مصدر حَلِي بالشيء ، بالكسر : ظفر به . والحُلاء ، بالضم والمد : جمع حلاءة ، وهي القشرة التي تحلى من الجلد ، وهي بضم الحاء والمد ، بوزن ثُمامة يقال : حلأ الجلدُ ، كمنع : زال قشره وبشره . ولقىً ، بالفتح والقصر : الشيء الملقى غير معبوء به . واللُّقاء ، بالضم والمد : اللَّقوة ، بفتح اللام : وهي استرخاء أحد شقي الوجه يقال : لقي الرجل كعني ، فهو مُلقى وملقاء ولقاء .

فكأنه يقول : إن هذه الدنيا وما فيها من المتاع حقير ، نظير القشرة التي تخرج من الجلد عند زوال قشره وبشرته ، وذلك أجلى مايكون وأهونه في العيون ، فالظافر بأعْراضها وإن عظمت في عينه نظير الظافر بقشور الجلد المنشور في كونها لاتسمن ولاتغني من جوع الآخرة ، ولاترد عن صاحبها قلامة ظفر مما يصيبه ويأتي به القدر ، فعزيزها بكثرة جاهه بحسب ماجمع من أعراضها يصير مطروحاً في حفرة من الأرض غير معبوء به ، أو يعتريه قبل ذلك من الأعراض والأمراض مايصير به عبرة لمن اعتبر ، وذلك كاللُّقوة التي تشين الخلقة بتشيينها أشرف أعضائه وهو الوجه ؛ فهي كالفالج في التعطيل .

والمعنى : أن عزيز الدنيا لابُدَّ أن يذل بأن يسلب العز الذي اكتسبه في الدنيا بما جمع بالموت حساً ومعنى ، وذلك بأن تطرأ عليه المعطلات والعلل المزمنات التي يستهون صاحبها الموت ، والعياذ بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وشماته الأعداء ..

قال رسول الله ﷺ في بعض مواعظه : ((كثير الدنيا يقل ، وعزيزها يذل ، وجديدها يبلى ، وشديدها يفنى)) . لاجعلها الله أكبر همنا ، ولامبلغ علمنا .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٢٢ — رِوىً وَصَدىً لاقَتْ[1] صداءٌ وَلِلْمَدَى

يَـدَاء صَحِـيـحٌ أَوْ يَصِـحُّ مُـدَاءُ

الصَّدى ، بالفتح والقصر : مصدر صدي الرجل : إذا عطش ، ضد روي . وصُداء ، بالضم والمد : حيٌّ من حمير ، منهم الصُّدائي صاحب رسول الله ﷺ الذي قد ترجم له في الإصابة . والمدى ، بالفتح والقصر : الغاية هنا . وَيَدَاءُ ، بالفتح والمد : مضارع دَاءَ الرجلُ ، بوزن جاءَ : أصابه داء أي : مرضٌ والمُداءَ ، بالضم والمد : اسم مفعول من أدأته : أصبته بداء :

(١) جرى الشرح على رواية : روى وصدى قَضَّت .

فباعتبار المَداء يصح أن يكون بضم الياء مضارع أدأتَه مبنيّاً لما لم يسم فاعله ، وباعتبار اللفظ المناسب له أن يكون فعل فاعل مفتوح الياء كما تقدم ، وعلى الثاني يكون مفعولاً ناب عن الفاعل . وقضَّت بتشديد الضاء المعجمة كقَضَتْ بالتخفيف ، يقال قَضَّى وَطره وَقضاه ، بالتخفيف والتشديد ، وقِضَّاء بكسر القاف وتشديد الضَّاد ككِذابٍ : أتَمَّه وبلغه . ورِوىً ، بالكسر : مصدر رَوي من الماء وغيره كَرِيان ورَيَّانَ ، بالكسر والفتح .

والمعنى : أن هذه القبيلة نالت مع طلوع المدى الذي لايدوم على حال ارتواء من اللبن ، وعطشاً مما ذكر ، أي نالت نعيماً وبؤساً ، وشدة ورخاء ، وسعة وضيقاً ، وللمدى ـــ أي الغاية ـــ التي يعمر الإنسان من الزمان ، فلا بد له أن يصح فيه بعد المرض ، ويمرض فيه بعد الصحة لعدم دوامه على حال فإن ذلك منْ قضائه ، كما قال المعتمد بن عباد : (من بحر الطويل)

نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخٌ　　　وبعدهما نَسْخ الأماني الأمانيا

فاعتبر بحال أخي صداء يامن ليس أخا الصُّدَاءِ، والقوم أمثالكم لهم شعر في الرأس، وما جاز على المثل يجوز على مماثلة . فروى وصدَىً مفعولان لقضت مقدمان عليه ، يعني أن الأول مفعول والثاني معطوف عليه .

ونظم هذه الأعراض الجارية بعض الأدباء ، فقال : (من بحر الطويل)

ثمانية تجري على المرء دَائماً　　　ولاَ بد للمرء أن يلقى الثمانيا[1]

سرور وحزن واجتماع وفرقة　　　وعسر ويسر ثم سقم وعَافيا

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٢٢ ـــ وَمَاذُو مَكىً أو ذو مُكَاءٍ بِمُهْمَلٍ　　　فَكَمْ عِبْرَةٌ أَجدَى رَنىً ورَنَاءُ

المَكى ، بالفتح والقصر : مأوى الثعلب . والمكاء ، بالضم والمد : الصفير ، قال الله تعالى حكاية عن أحوال المشركين : ﴿ **وماكان صلاتهم عند البيت إلاّ مُكَاءً وَتَصْدِية** ﴾ [الأنفال : ٣٥] . والرنى ، بالفتح والقصرِ : المنظور إليه لحسنه . الُّرناء ، بالضم والمد : الصوت ، يقال : رنَّ النبل : إذا صوت ، ويقال : ارتفعت الرنَّة على الميت . قال الشاعرُ الشنفري : (من بحر الطويل)

---

(١) هذا العجز لايستقيم وزنه هكذا إلا إذا كان :

ولابد للإنسان يلقى الثمانيا

إذا زل عنها السهم رَنَّت كأنَّها   مُرَزَّأَةٌ ثكلى ترنُّ وتُعْوِلُ

وأجدى : أي أفاد . والعبرة ، بالكسر : العجب ، بالتحريك : ماعتبر منه ، أي تعجب .

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً مِن خلقه عبثاً مهملاً مِن الحكم والفوائد ، بل جميعه مشتمل على المصالح العظيمة ، حتى ذو المَكى كَالثعلب وصاحب الصفير لما هو عليه مِن اللؤم ، فإنه يفيد اعتباراً لمن نظر إليه أو سمع صوته ، يدل على أن له صانعاً فاعلاً مختاراً عالماً حيّاً ، إلى غير ذلك ، وهذا معنى قوله : (فكم عبرة .. إلى آخره) أي : فكم من العبر أفاد منظور إليه لحسنه أو صوت حسن كالطيور مثلاً . والمقصود الأمر بالنظر في مخلوقات الله ، واعتبار أشكالها وألوانها وأصواتها ؛ فإنها تفيد الناظر فيها عبراً كثيرة جليلة بأنها لم تخلق عبثاً ، ومن أجلِّ ماخلقت له النظر فيها ، ولذلك أمر الله سبحانه بذلك فقال : ﴿ **أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء** ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، ولقد قدمنا في صدر هذا الكتاب مِن أنواعِ النظر والاعتبارات مَا فيه كفاية .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٢٤ ــ وَيُبْهِي النَّقَى ذَا الْعِلْمِ حَازَ نُقَاءَهُ   وَمِثْلُ الْمَهى قَلْبٌ لِذَاكَ مُهَاءُ

ويبهي ، بضم الياء : مضارع أبهى الشيء : جعله ذا بهاء . والنقى ، بالفتح والقصر : دقة القصب ، والنحافة هنا ، رجل أنقى ، وامرأة نقواء . والنقاء ، بالضم والمد : جمع نقاوة وهي الخيار مِن كُلِّ شيءٍ . ومِن أسمائه ﷺ المنتقى أي : المنتخب مِن كل شيءٍ لأن الله انتقاه واختاره مِن جميع خلقه . والمهى ، بالفتح والقصر هنا : البلور ، وهو نوع مِن أنواع الأحجار النفيسة . والمهاء بالضم والمد : المهيأ للشيء المؤهل لَهُ .

والنقى : فاعِلُ يُبْهي . وذَا العلم : مفعوله . وحاز نُقاءه : حال مِن المفعول . ومثل المهى : مبتدأ ، وقلب لذاك مهاء : خبره .

والمعنى أنَّ دقة القصب وَالنَّحافة يصيران صاحب العلم ذا بهاء في حال كونه حائزاً خيار العلم ، قلبه مهيأ لحوز نقاء الأحوال المقتضيها صفاء القلب ، حتى يصير مثل البلور الذي لاشيء يدانيه في الصفاء ؛ ففي هذا إغراء بتعليم نفيس العلم وَخياره وَحث صاحبه على ألإقلال مِن الأكل والشرب الذي يتسبب من قلتهما نَحافته التي تلين القلب . قال ﷺ : ((لايصح العلم لمن يأكل حتى يشبع)) .

وقال ﷺ : ((إن الله يبغض الحبر السمين[1])) .

وقال ﷺ : ((مَن كَثر شحم بطنه قل (فقهه) فقه قلبه)) .

وقال علي رضي الله عنـه : السمن تجارة النســاء ، وحرفة اللئام ، وعيب في الرجال
ماء ؛ لأنه ثقل في الحياة ، ونتن بعد الممات .

وفي الحكم : البطنة تذهب الفطنة .

* * *

---

(١) : «إن الله يبغض الحبر السمين» رواه البيهقي في الشعب وحسنه ، وزاد : «وأهل البيت اللحميين» ،
ه صاحب الكشف تحت رقم ٧٦١ ، وأورده أبو نعيم من قول أحد الحكماء ، وعزاه الغزالي في الإحياء إلى
ة .

وقال بعض المفسرين عند قوله تعالى : ﴿ **وماقدروا الله حق قدره** ﴾ أن مالك بن الصيف أحد أحبار اليهود
له رسول الله ﷺ : انشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان
سميناً ــ فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء . أخرجه الطبراني مرسلاً ، وكذا الواحدي في أسباب النزول ،
ه القرطبي الى الحسن البصري ، والله أعلم .

باب
مايضم فيقصر ويمد باختلاف المعنى

يعني أن المقصور والممدود كما اتفقا في المادة اتفقا أيضاً في الحركة وهي الضمة، و
اختلاف فيهما إلا من المعنى .

ثم قال رحمه الله :

١٢٥ ـ نُهَى الأَمْرِ لاحِظْ والنُّهَـاءَ اعْتَبِرْ بِـهِ وَأَلْغِ مُنَىً عَنْـهَـا اللَّبِيبُ مُنَـاءُ

النُّهى، بالقصر هنا: النهايات. والنهاء، بالمد: ارتفاع النهار. والمُنى، بالقصر: جمع مني
وهو مايتمنى. والمُناء، بالمد: المُبْعَد، اسم مفعول مِن أناه: أبعده فناء.

فكأنه يقول: اعتبر نهاياتِ الأمور، وارع عَواقبها قبل أن تأتيها، فإنْ كان خيراً فبادر
وإن كانت غيراً فاترك، وإن اشتبهت عليك فأمسك، وارقب ارتفـاعَ النهـار فاعتبر به، و
تتصرف في الظلام مخافة أن تقع فيما يرديك، وهذا تمثيل للإمساكِ عند اشتباه الأمور؛ فإن ذل
بمثابة الظلام الذي لايرى السـالك فيه ماتحته، وتبين العواقب بمثابة ارتفاع النهار، واترك
تتمناه نفسُك وتشتهيه مِن الأشياءِ التي تصير اللبيب مبعداً عن سَاحةِ بحر الفتوة والمروءة .

وحاصل ماذكر أنه يأمرك بالعمل على يقين، ولاتقدم حالة الشك والالتباس، واتر
هوى النفس فإنه يلقي صَاحبه في الهوى .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٢٦ ـ وَلَوْ كُنْتَ في قُرىً فَقُرَاءً اثْبُتَنْ فَمَـا الأُرَبى رِيعَتْ بِهَـا الأَربَاءُ[1]

قوله : (ولو كنت في قرى) : فلو للإغياء . كنت : كان واسمها ، في قرى خبرها
فقرى ، بالضم والقصر : موضع في بادية العراق . والقراء ، بالضم والمد : الرجل الناسكُ هنا
والأرَبى بالقصر : الداهية . والأرباء ، بالمد : العقلاء ، احدهم : أريب . وريع بكذا : أ
حصل له روع بسببه ، والروع : الفزع .

والمعنى : كن عابداً ناسكاً حيثما كنت ، ولو كنت في البادية المسماة بقرى : فبذلك
تدخل في حزب العقلاء الذين لايروعهم الأربى ولايبالون بالداهية النكراء .

---

(١) هذا البيت فيه خلل في الوزن

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٢٧ ــ وَصِدْقُ الرُّؤَى زَانَ الْرُّؤاءَ وللنُّهى ... دَلِيــلٌ إِذَا رَاقَ الْعُيُــونَ نُهَــاءُ

قوله : (وصدق الرؤى) : الواو : للاستئناف . والصدق : ضُد الكذب ، هو اسم مصدر ، تقول : صدق يصدق صدقاً . الرُّؤي : مضاف إليه ماقبله ، وهو بالقصر : جمع رؤيا على غير قياس ، وهو مَايراه النائم . والرؤاء ، بالمد : المنظر الحسن . والنهى ، بالقصر : العقل التام . ولعل الناظم رَحمه الله أشار بهذا الكلام إلى الحديث ، وهو قوله ﷺ : ((أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً)) . ولا ريب أنَّ الصدق يزين صاحبه. والنهاء، بالمد: الزجاج. والرؤاء، بالنصب: مفعول زَانَ ، وفاعله صدق الرؤى .

والمعنى أنَّ صدق المنامات يزين الصور الحسانَ المنظرِ ؛ لأن ذلك دليل على صدقهم في الحديث ، وبذلك يقع الزين الحقيقي ، وما يدل على مابه الزين يزين ، وصدق الحديث مِن كَمال العقل ، وبه يقع التفاوت في الدين ، وهذا أدل دليل على كمال العقول ، يعني صدق الحديث الذي يدل على صدق الرُّؤى ، وهو معنى قوله : وللنهى دليل على أكْمل العقول ؛ فيستدل بِهَا على وُجوده ، وهو صدق المنامات التي تدل على صدق الحديث الدال على وفور العقل ، جعلنا الله مِن أصدق الناسِ حديثاً ، حتى نكون مِن أكملهم عقولاً ، فنظفر بخير الدارين .

ويحتمل ــ وهو الأولى إن شاء الله ــ أن تكون اللام في (وَللنهى) دليلاً على بابها لابمعنى (على) ، وجعل الدليل للعقل ، بمعنى أنه يدرك بمعونته حسن الأشياء بأنْ يدرك حسن الرؤاء بحسن رؤاها ؛ فيستدل بذلك على صدق الحديث ، وهو صفة كمال ، وهذا هو الحُسْنُ العقلِّي : يمدحُ فاعله عاجلاً ، ويثاب عليه آجلاً ، فهو مِن أجل هذا حُسْن شرعي أيضاً ، ويدل على أنَّ المراد بقوله :

(كما راق العيون نهاء) هذا المعنى ؛ فهذا تقرير معنى البيت ، وليس هو ماعليه السلف من المحدثين ؛ لأن المَرائي نوع من الوحي لاتؤثر فيه العقول ولا النُّهى ، بل لايكون إلا بموهبة ربانية ومنقبة رحمانية اقتضتها وراثة الأنبياء ، وصفاء زجاجة القلب مِن كدر الذنوب ورين العيوب ، وصدق اللسان والتخلق بالتقوى والإحسان ؛ إذ الأقلام التي في أيدي الملائكة اليوم اثنا عشر قلماً ؛ منهم قلم رؤى المنام ، فإذا نام الإنسان الصالح فبمجرد ماتنام عين رأسه تنفتح عينا قلبه، وبقدر ماتغيب أذناه عن ادراك المحسوسات تنفتح أذنا قلبه، فيبعث الله الملائكة

الموكلين بالرؤيا ، فيصورون له في لوح من نور مالا يراه بعينيه ، ويسمعونه مالا يَسْمَعُ من غير شك ولا مراء ، فهذا أدنى مراتب الصديقين ، ومنهم مَن إذا نام أخذت الملائكة روحه فجالت بها في الملكوت ، فيرى مالا يدركه التعبير ولا يحيط به التخبير .

وأما عامة المؤمنين فلاعتبار مرائيهم شروط : أن يكون صادقَ اللسان ، غير ممتلىء بطنه من الطعام ، متكئاً على شقه الأيمن ، مستغرقاً في النوم ، نام على طُهر ، أخذه النوم على ذكر ، غير مفتون بالدنيا ، ولامغرم بأمر ، ولامتعلق قلبه بالكشوفات ؛ فهذا تعتبر رؤياهُ وتفسر ويعتنى بها . وأقرب المرائي وأصدقها ماكان في الثلثْ الأخير من الليل ، والليليات أصدق مِن النهاريات . وأصدق النهاريات ماكانت مِن الهاجرة إلى خروج وقت الظهر ، وأبعدها وأكذبها مَارئي من الشروق إلى الضحى الأعلى ، ومارُئي بعد صلاة العَصْرِ إلى المغرب ، ومرائي الصيف أصدقُ المرائي ، ويليها في الصدق الربيع ، وأكذب المرائي مرائي الخريف ، ويليها في الكذب الشتاء .

وأما الكاذب والفاسق فإنما يريان الحلم ، قال ﷺ : ((الرؤيا من الله ، والحلم مِن الشيطان[1])) .

وقال ﷺ : ((مَن رأى منكم في منامِه مايكره فليتعوذ بالله، ولينفث على يساره ثلاث مرات ، وليقل : اللهم إني أعوذ بك من شر مارأيت في منامي هذا أن يضرني في ديني ودنياي ، ولا يحدث بها أحداً فإنها لاتضره[2]))

وقال ﷺ : ((إذا تلاعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يخبر بذلك أحداً ، وليتعوذ بالله من شرها)).

وفي (المواهب الدنية) مانصه : قال : إذا نام الإنسان فإن كان صالحاً خرجت روحُهُ ولها شعاعٌ متصل بالعرش ، والحفظة حافون من حولها ، فلا يدنو منها شيطان إلا نفحته الحفظة نفحة تبلغه أحد الخافقين ، فلا يرى إلا حَقّاً ، ولا يسمعُ إلا صدقاً ، وذلك حقيقة الرؤيَا .

(١ و ٢) حديث : «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» وحديث : «من رأى منكم في منامه مايكره ... الخ» حديث واحد متفق على صحته ، رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه بألفاظ مختلفة ، ولفظ البخاري : «الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لاتضره». وهو عنده في كتاب (بدء الخلق) ، والله أعلم .

قال الرسول ﷺ : ((لم يبق من النبوءة إلا المبشرات ، قالوا : ومَا المبشرات يارسول [الله] ؟ قال : الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح يراها أو ترى له[1])) .

وأما الفاسق والمنافق فإنه إذا نام احتوشت الشياطين نفسه ؛ فلا يزالون يتلاعبون بها ؛ [ف]لا يرى إلا كذباً أو لعباً ، وربما صدق نادراً ، فيكون ذلك من بابِ صدقِ الكاهن ؛ لأنَ [ال]شياطين ربما القوا إلى الكَاهِنِ الكلمة ونحوها مما يسترقونه من الاستماع من الملائكة ؛ [في]ضيفون إليه مائة كذبة ولافرق بين اليقظة والمنام في ذلك ، وربما رأى الكافر الرؤيا فصدقت [كم]ا صدقت رؤيا الريان بن الوليد العملقي ، فيجاب عن تلك أنَّ الله تبارك وتعالى أراه تلك [ال]رؤيا الدنيوية ليخرج بسببها يوسف عليه السلام ، أجراها له على قلب الريان بن الوليد . [و]كذلك رؤيا بختنصر فإن الله جعلها سبباً لنجاة عُزير وإخراج دانيال من الجب ورجعة بني [إ]سرائيل إلى بيت المقدس ، ولتكون لهم الكرة عليهم ، فبان من هذا أن الكافر والمنافق في [ظ]لمات الإشراك والارتباك ، يقع من صدقِ مرائيهم نادراً مما يدل على مناقضة الحديث [ال]صحيح ومخالفته فمؤول بما ذكر، فليتأمل، وفي هذا كفاية لمن نور الله بصيرته ؛ إذْ لسنا [ب]صدد التطويل ، والله الموفق لارب غيره ، ولاخير إلا خيره .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٢[؟] ـ وَكَرُّ الْمُلَى يُفْنِي الْمُلاَءَ مَعَ اللَّقَى ۝ كَنَارِ ذُكيِّ لَمْ تَغْدُهُنَّ ذُكَاءُ

قوله : (كرُّ الْمُلَى) : الكرُّ : بمعنى التكرار كما يقال : كرُّ الجديدين ، الملى ، بالقصر [وبا]لضم : جمع ملوة ، وهي الملوة ، بالضم ، أو جمع مُلْوِ : أحد الملوين ، وهما الملوان . قال [ال]شاعر : (من بحر الرجز)

إن الجديدين إذا ما استوليا ۝ على جديد أدنياه للبلى

والملاء ، بالضم ولمد : جمع ملاءة : وهي الريطة ، والريطة : الرقيق المنتخب من الكتان [ور]بما نسج بذهب ، وربما نسج بفضة ، وهو من أجود الثياب بعد الوشي ، كما قال حسان : [(]من بحر الطويل)

أتفخر بالكتّانِ لَمَّا لبسته ۝ وقد يلبس الأنباط رَيطاً مقصراً

---

(١) حديث : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات .. الخ» صحيح رواه البخاري بدون «من الرجل الصالح يراها [أو] ترى له» ورواه مسلم بالمعنى ، وهو عند البخاري في كتاب (التعبير) والله أعلم .

فـلا تك كالوسـنـان يحـلم أنـه بقَـرْيـة كسـرى أو بقـريـة قيصرا
ولاتك كالشـكـلى وكانت بمعـزل عن الشكـل لو كان الفـؤاد تفكـر
ولاتك كالشـاة التي كان حتفـهـا بحفـر ذراعيهـا فـلم تـرض محفـراً
ولاتك كالعـاوي عـوى قبـل نحره ولم يغشـه سهـم من الموت مضمراً
فـإنـا ومَن يهدي القصـائد نحونا كمستبـضـع تمـراً إلى أرض خيـبراً

واللقى ، بزنة فتى : ماطرح من ثياب وغيرها استهانة له ورغبة عنه . والذكى ، بالضم
والقصر : جمع ذكيـة ، بالضم : وهو ماتلتهب به النـار من حطب وغيره . وذكاء ، بالضم
والمد : اسم للشمس .

فتركيب البيت هو أن كر الملى أي: مضي المُدد ومرورها، يفني الثياب الحسان، الجدد
في حال كونها مصاحبة لِمَا ألقي غير معبوء به بعدما كان يزهو به لابسه كما صار يزهو اليوم
بهذه الجدد؛ فإنها سيبليها مرور المُلى كما أبلى الخلقان والدراسة التي صـارت بين يديه لقى؛
فالثياب ولابسوها يفنيها مرور الملوين كما يفني الحطب الجزل ضرام النار عليه بسبب إلقائه فيها .

يروى أن النبي ﷺ قال : ((إياكم والجلوس في الشمس ؛ فإنها تبلي الثوب ، وتغير
اللون ، وتنتن الرائحة ، وتثير الداء الدفين[1])) .

فنسبة النار إلى الأحطاب كنسبة الشمس إلى الثياب ، فكما أن النار تحرق الحطب
فكذلك تفني الشمس الثوب ، فهذا تمثيل منه أنه لابقاء لزرجون الدنيا لأنه إلى العدم يؤول
وكما وجد يزول ؛ فلا يغتر به إلا جاهل مفتون أو خاسر مغبون . وقد تقدم في هذا الباب مافيه
كفاية لمن له حظ وعناية ، جعلنا الله ممن جعل له واعظاً من نفسه ؛ فإن من لاواعظ له من
نفسه لاواعظ له .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٢٩ ـ وَجَذْبُ البُري يبرى البُراءَ وفي الرُّغَى لِذَاتِ رُغَـاءٍ لاتَشـحُّ بقَـاءُ

(١) حديث «إياكم والجلوس في الشمس» موضوع أخرجه الحاكم في المستدرك (٤١١/٤)، قال الذهبي:
قلت: هذا من وضع الطحان، وسكت عليه الحاكم، وتعقبه الذهبي بالجملة السابقة.
وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ١٨٩ وقال: موضوع، وأورده السيوطي في جامعه فقال المناوي:
فكان ينبغي للمصنف حذفه (١٣٠/٣)، والله أعلم.

قوله : (وَجَذْبُ البُرى) الجذب : هو الأخذ بقوة . والبرى ، بالضم والقصر : جمع رة ، بالتخفيف : وهي الخِزامة ، وإنما تجعل في أنف البعير القوي الصعب الشكس . قال لرسول محمد ﷺ : ((المؤمن هين كالجمل المخشوش — (أي الذي في أنفه خزامة) — أينما قيد انقاد، ولو أنيخ على صخرة لأناخ. والمنافق صعب شرود كأد كنود)) .

يروى أن النبي ﷺ لما حُصر عام الحديبية عن الحج بعث إلى البيت ستين بدنة تنحر ، وبعث في جملتها جملاً لأبي جهل في أنفه برة من ذهب ينكأ بذلك قريشاً . والبراء ، بالضم والمد هنا : جمع براية ، بالضم : وهو قوة البعير على السير ، تقول : لي فرس أو جمل يباري الريح ، أي يجاريها فيغلبها ، أو يماثلها ، مع أن المباراة المغالبة في كل شيء ، وإنما يقال : البراء لمن عرف بذلك ونسب إليه . والرغى : جمع رغوة ، وهو مايعلو اللبن عند الحلاب ، ولقد وردت فيه آثار واهية ، وهو قوله ﷺ : سيهلك من أمتي أهل اللبن ، قيل له : ومن أهل اللبن يارسول الله ؟ قال : قوم يميتون الإسلام ويتبعون الشهوات ، ولا أخاف عليهم إلا من اللبن ، لأن الشيطان بين الضرع والرغوة[1] .

ويناسبه قوله ﷺ : على سنام كل بعير شيطانان[2] .

وقال ﷺ : ((إذا تبايعت أمتي بالعينة واتبعت أذناب البقر صب الله عليها ذلاً لايفارقها حتى تراجع دينها وهو الجهاد[3])) .

والرغاء ، بالضم والمد : صوت البعير إذا عولجَ ، وإلا فحنين ، وإن صوت في صدره فرزام ، يقال : أرزمت الناقة : إذا صوتت في صدرها من غير أن تفتح فاهاً ، وحنت إذا فتحت فاها ورفعت صوتها طلباً لإلف أو ماءٍ أو مرعىً ، و رغت : إذا عوجلت ، والرغاء بمنزلة التحنن والثناء ، وفي المثل : (حنت ولاتأنت) ، وله حكاية طويلة أعرضنا عن ذكرها .

حديث (١ و ٢) يكفي أن الشيخ قال: إنهما واهيان.

(٣) أما حديث «إذا تبايعت أمتي بالعينة.. الخ» فيه مقال أيضاً، رواه ابو داود، وأخرجه السيوطي تحت رقم ٥١٤ ورمز له بالحسن .

قال المناوي: وفيه أبو عبد الرحمن الخراساني واسمه إسحاق عدَّ في الميزان من مناكره خبر أبي داود هذا .

العينة، بكسر العين المثناة تحت ونون: وهو أن يبيع سلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه بأقل، وهذه الصفة مكروهة عند الشافعية، والبيع صحيح. وحرمها غيرهم تمسكاً بظاهر الخبر، وهو الأولى، والله أعلم .

فكأنه يقول : إن جذب الحِلَق التي في أنوف الإبل الصعاب تذللها وتظهر ماعندها من
القوة على السير ، وهذا تمثيل لإظهار ماعند النفس من الجلد والتجلد عند أخذ صاحبها لها
بالمجاهدة وحملها على ماليس من مألوف طبعها ، فإن كانت كريمة منورة هانت ولانت ثم
انقادت وكادت[1] ، كما قال الشاعر :

هي النـفس مـاحمـلتهـا تَحمـل

فهي بمنزلة الجمل الصعب الذي يراض بالخزامة التي ربما تجمَّل بها بعد ذلك ، فمن رآه
ورأى الخزامة في أنفه علم أنه راحلة . فمن راض نفسه على الاجتزاء باليسير والاكتفاء
بالكفاف قبلت ذلك وتحملته .

قوله : وفي الرغى : معناه أن في الاجتزاء بشرب اللبن رغاء الإبل التي لاتشح باللبن
بقاء لنفس الإنسان وكفاية لها ، يقال : ارتغى : إذا شرب رغوة اللبن ، ومنه المثل وهو قولهم
(يُسر حسواً في ارتغاء[2]) .

فبقاء : مبتدأ مؤخر ، وفي الرغى : خبر مقدم . ولذات رغاء : حال من الرغى
ولاتشح : صفة لذات رغاء ، والتقدير : بقاء الإنسان كائن في الرغى حال كونه لإبل صاحبة
رغاء غير شحيحة باللبن . والمقصود من هذا الخبر الحث على رياضة النفس حتى تكتفي بما فيه
الكفاف .

قال رحمه الله تعالى :

١٣٠ ــ ولَوْ ذُو الرُّشَى اعْتاضَ الرُّشاءَ اتَّقَى لَظَىً
فَمَـا لِلُّهـَى تُجْـرِي الْعَـذَابَ لُهَـاءُ

قوله : ولو : حرف إغياء . ذو : بمعنى صاحب ، اسم كان المحذوفة بعد (لو) .
الرُّشى : مضاف إليه ماقبله : جمع رشوة ، وهي مايأخذه الحكام على الأحكام ، والقضاة على
الميل والاستكتام ، وهو حرام بالكتاب والسنة والاجماع :

أما الكتاب : فقوله تعالى ذماً لأرباب الرشى على جهة الزجر والتحريم والمنع والتحتيم :
﴿ **سماعون للكذب أكالون للسحت** ﴾ [المائدة : ٤٢] ، أي سماعون لدعوى الكاذب

---

(١) في النسختين : وكادت ، ولعلها أو كادت

(٢) هذا مثل يضرب لمن يتظاهر بأمر ويخفي سواه، ولاحتساء الشراب شيئاً فشيئاً والارتغاء: ترك الرغوة .

لأجل مايعطيهم من السحت أي : الرشى ومن اعتناء الله تعالى باستقامة الحكام على الحق ودعواهم إليه أن قال لداود عليه السلام مع عصمته وعلو منزلته : ﴿ **ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق** ﴾ [ص : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ [المائدة : ٤٥] .

وقال رسول الله ﷺ : ((من حكم بين اثنين تحاكما عليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله)) .

وعن أبي حاتم قال : دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما ، فسلَّم عليه . فلم يرد عليه السلام ؛ فقال لعبد الرحمن بن عوف : أخاف أن يكون وَجد عليَّ خليفة رسول الله ﷺ ؛ فكلَّم عبد الرحمن أبا بكر ، فقال له : أتاني وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري ، فعلمت أن الله سائلي عنهما وعما قالا .

قلت : وادعى رجل على علي عند عمر رضي الله عنهما وعلي جالس ، فالتفت عمر إليه وقال : ياأبا حسن ، قم فجالس خصمك ، فقام فجلس مع خصمه ، فناظره وانصرف الرجل ، ورجع علي إلى مجلسه ، فتبين لعمر التغيير في وجه علي ؛ فقال : ياأبا حسن مالي أراك متغيراً ؟ أكرهت ماكان ؟ قال : نعم ، قال : وماذا: قال : كنيتني بحضرة خصمي ، هلا قلت ياعليُّ اجلس مع خصمك ؟! فأخذ عمر برأس علي فقبل بين عينيه ، فقال : بأبي أنتم ، فبكم هدانا الله ، وبكم يخرجنا من الظلمات إلى النور .

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه قال : القاضي كالغريق في البحر الأخضر ، ماعسى ، أن يبلغ بنسبحه وإن كان سابحاً ؟! وقد أراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء ، فأبي ، فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه ، فضربه حتى انتفخ وجهه ورأسه ، فقال : الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليَّ من مقامع الحديد يوم القيامة . فلما يئس منه تركه.

وعن عبد الملك بن عمير ، عن رجل من أهل اليمن قال : أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، فكشف عن باب مغلق ، فظنناه كنزاً ، فكتبنا إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فكتب : لاتحركوه حتى يقدم إليكم رسولي ، ففتح ، فإذا برجل على سرير ، عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب ، وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه : (من بحر الوافر)

إذا خان الأمير وكاتباه … وقاضي الأرض داهن في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل … لقاضي الأرض من قاضي السماء

وقال ﷺ : ((إن الله مع القاضي مالم يَجُر ، فإذا جار برىء الله منه وألزمه الشيطان)) .

وقال محمد بن حريث : بلغني أن نصر بن علي راودوه على، القضاء بالبصرة، اجتمع إليه الناس، وكان لايجيبهم، فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره ، وألقى ملاءته على وجهه ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك ، فقبض ، وانصرفوا .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ((القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة)) .

وقيل : إن أول من أظهر الجور من القضاة في الإسلام بلال بن أبي بردة بن ابي موسى الأشعري .

وقال عمر بن الخطاب : لاتولوا اليهود والنصارى فإنهم يقبلون الرشى ولا يحلون دين الله .

وقال بعض المتأخرين لما بلغه قول عمر رضي الله عنه : أصحابنا اليوم أقبل للرشى منهم .

وعن أبي مسعود رضي الله عنه : من شفع شفاعة ليرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً ، فأهدي له؛ فقبل، فقد أخذ بحظه من السحت، فقيل له: كنا لانرى السحت إلا إذا أخذ الرشوة على الحكم، فقال: أما مستحل الرشوة على الحكم فهو كافر بإجماع الأئمة .

وفي الرشوة يقول الشاعر : (من بحر الطويل)

وكنت إذا خاصَمتُ خصماً كببتـه على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعن الخصومة غَلَّبَتْ عليَّ وقالت قم فإنك ظالم

وفي الخبر : مابيعت أحكام الله بقرية إلا رماها الله بالهوان .

والرشاء ، بالمد : جمع رشاءة ، وهو نبت تدبغ به الجلود تسمِّية العامة الجداري يشبه القرنفل ، وهي التي تسميها العامة الزوايا . واللُّهى ، بالقصر ، جمع لهوة : وهي العطية . واللهاء بالمد : المقدار ، تقول : منحته مقدار لهية أي : قدرها .

وتركيب البيت هو أنه لو اجتزأ ، أي اكتفى ، بالنبت المسمى بالرشاء الشخص الذي
ثى على الحيف ، واقتصر على ذلك عوضاً عما يأخذه من الرُّشى لكان متقياً بذلك حر لظى
هي لاخير بعده بخير ولا شر بعده الجنة بشر .

فالبيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **كلا إنها لظى نزاعةً للشوى تدعوى من أدبر وتولى**
مع فأوعى ﴾ [المعارج : ١٦] .

*　*　*

ولما انتهى كلامه على مايضم أوله في حالتي المد والقصر مع اختلاف المعنى شرع يتكلم
:

باب
مايكسر فيقصر ويضم فيمد باختلاف المعنى

فقال :

١٣١ ـ وَكَلُّ بِغىً تُرْدِي اصْطَبِرْ عَنْ بُغَائِهَا فَكَـمْ في مِنىً بِـالصَّبْـرِ فَازَ مُنَـاءُ

وكل : الواو : للاستئناف ، وَكُلُّ : كلمة شمول تلازم الإضافة غالباً إما إلى مفردٍ و
جملة كقوله تعالى : ﴿ كلٌ إلينا راجعون ﴾ [الأنبياء : ٩٣] . بِغىً ، بالكسر والقصر : ج
بِغية ، بالكسر : وهي مايبْتَغى . والبُغَاء ، بالضم والمد : مصدر بغيت الشيء : إذا طلبت
ومنى ، بالكسر : قرية بإزَاءِ عرفة يقيم فيها الحجاج ثلاثة أيام لِرَمْي الجِمار ، وهي التي يقول
في شـأنها : ﴿ فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليـه ومَن تأخر فلا إثم عليه ﴾ [البقر
٢٠٣] . والمُناء بالضم والمد : المُنْهَضُ ، يقال : ناءَ بمعنى نهض . وأناءه بمعنى أنهضه ، وأنا
بمعنى أبعده وأقصاه ، وأناءه أيضاً بمعنى أثقله ، وأناء أضيافه إذا سامرهم لآخِرِ الليل . وتُردي
بضم التاء : مضارع أرديته : أي أوقعته في الردى وهو الهلاك .

فكأنه يقول : كل بغية ، أي طلبة ، مهلكة باغيها اصطبر عن طلبها ، وجاهد نفس
في صرفها عن هواها ، فإنما يفوز من فاز بالصبر على الطاعة وعن الهوى والمعصية ، فكثير
بظفره بمنى بعدما ارتكب الكلف ومشاق السفر وتكاليف الإحرام : من التجريد من المخيط
وترك الطيب والنساء ،والكف عن قتل الهوام ، إلى غير ذلك . فالمراد الأمر بالصبر عن
مايردي ، والترغيب في كل مايؤدي إلى الفوز بالمطلوب بحيث يذكر نفسه ويعللها بفوز الح
في منى بقبول حجة ورضى ربه . قال ﷺ : ((الحج والعمرة ينفيان الذنوب كما ينفي الك
خبث الحديد))[1] .

وفي روايـة : ((إن الله ليبـاهي مـلائكـة السموات السبع يوم عرفة فيقول : انظ
ياملائكتي إلى عبيدي وإمائي أقبلوا إلى زيارتي من كل فج عميق ، قد فارقوا الأوطان وهاج
الإخوان ، ولازموا السـرى وحرموا جفونهم لذة الكرى ، يضجون لي بالتـلبيـة ضجيجـ

(١) حديث : «تابعوا بين الحج والعمرة الخ» رواه ابن ماجه وأحمد أبو يعلى ، وأورده السيوطي ورمز
بالضعف ، وسكت عليه المناوي (٣/٢٢٦) ، والله أعلم .

يعجون بالذكر في مرضاتي عجيجاً وَيَثُجُّون الدماء تقرباً إلي ثجيجاً ، وقد أصبحوا في كنافي ، وصاروا أضيافي ، وأنا أحقُّ من أكرمَ الضيف ، وأزال الحيف ، وأمَّنَ الخوف ، أشهدكم بأني أمنتهم مِنْ ناري ، وأبحت لهم بحبوحة الجنة في جواري ، فرحمتي عليهم مسبولة ، كرامتي لهم مبذولة ، فهم وفدي ، ولنعم الوفدُ وفدي)) وقد قدمت في هذا النمط صدر الكتاب مافيه غنية .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٣ـ وَفِي ذِي مِعىً مِثْلَ المُعَاءِ احْتَسِبْ ثِنَيً فَضِعْف جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ ثَنَاءُ

قوله : وفي : الواو للاستئناف ، وإن شئت جعلتها حرف عطفٍ ، وفي البيت تقديم وتأخيرٌ حتى صيره من نوع التعقيد ، والفاء : ظرفية بمعنى عند ، فكأنه يقول : احتسب ثنى عند ذي معىً ، بالكسر والقصر ، وهو واحد الأمعاء ، فكأنه يلمح بذلك إلى قوله ﷺ : ((في كُل ذِي كبدٍ أجر)) . وفي رواية : ((رَطْبَةٍ[1])) .

والمعاء ، بالضم وبالعين المهملة والغين المعجبة أيضاً: صوت الهر ، يقال : مغا يمغو : إذا صاح ، وهو اسم صوت حيث لم يصنع منه فعل . والثِّنَى ، بالكسر والقصر : المعاودة مرة بعد مرة . والثُّناء ، بالضم والمد : معدول عن اثنين كمثنى . وضعف الشيء : مثله خاصة ، بخلاف أضعافه أو ضعفيه ، يقال : لك ضعفه أي : مثله ، وثلاثة أمثاله ، والمعنى الثاني هو المراد هنا . فكأنه يقول : احتسب في صاحب مغا ضعيف له صوت نحيل مثل صوت الهر في الضعف العادة إلى الإحسان إليه كسقيه وإطعامه المرة بعد المرة ، أي : يعتد بأجر ذلك : وجزاؤه على الله سبحانه ، والله يضاعف أجر المحسنين ، وضعف جزائه ، أي كثرة ذلك اثنان اثنان ، لا يعلم كمه ولا كيفه إلا الله ، فإنهم يجزون بأضعافِ ماعملوا وبأضعافِ مايجزون به ، ومع ذلك قد وعدهم الله تبارك وتعالى بالخلف عَاجلاً بقوله : ﴿ **وَمَا أنفقتم مِن شيءٍ فهو يخلفه** ﴾ [سبأ : ٣٩] عاجلاً ، ويضعف الأجر عليه آجلاً ، مع امتنانه عليهم بالحياة الطيبة التي ليس مَعَهَا تنغيص ، وهي المقرونة بالمعرفة والإيقان والتقوى والإحسان ، قال الله تعالى : ﴿ **مَنْ عمل صالحاً مِن ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾ [النحل : ٩٧] ، ثم قال في حق الجاهل الأهوج المتكاسل

---

(١) حديث : «في كل كبد رطبة أجر» صحيح رواه البخاري والبيهقي .

العاصي المتغافل ، قال تعالى : ﴿ وَمَن أعرضَ عن ذكري فإنه له معيشة ضنكاً ونَحشره يو
القيامةِ أعمىَ ﴾ [طه : ١٢٤] ؛ لاَ حرمنا الله ذكره وَلاَ أعوزنا شكرهُ ، آمين .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٣٣ ــ وَخُذْ مِنْ برِىَ الْعِلْمِ الْبِراءَ تَيَمُّناً وَسُـوءَ الْمِشْى اهْجُرْ ولْيُجِدْكَ مُشَـاءُ

قوله : وخذ : الواو حرف عطف ، وهو من باب عطف الجمل . خذ : فعل أمر مِ
أخذ . من بِرَى : مِن : حرف جر ، إن شئتَ جعلته للجنس ، وَإن شئتَ جعلته للتبعيض
والبرى : عبارة عما يكتب به ، سواء كان مِمَّا يبرى أي يرقق لتهيأُ به الكتابةُ فيقال له : مُبْرِ
على غير القياسِ ، فتقول : بريت القلم أبريه ، بالضم : تسبب في بريه ، وَأبراني الوجد : أدق
جسمي ، وبَريت الخبر : أتيت بِه أولاً ، وأبريته لغة فيه ، فتقول: أخذت قلماً مُبْرىً ، وقلم
برية . وقد يتهيأ الشيء للكتابة من غير بَرْي كَالمتخذ مِن نُحَاس أو حديد أو صفر . واختلف
في اتخاذ الأقلام من الذهب والورق : فأجازه أبو حنيفة ، ومَنعه مالك وأصحابه ، ووجه إباح
أبي حنيفة لهُ حملاً على أن ذلك مِن باب الإكرام للعلم والقرآن ، ووجه منع مالك وأصحابه
حملاً على أنه مِن باب الإسرافِ ؛ إذ لم يأت عن السلفِ من ذلك أثارة من علم ، ولأن القرآ
والسنة تتشرف بهما الأشياء لاهما يتشرفان بها ، ولو كان ذلك كذلك لما نهى ﷺ فقال
((إذا غضب الله على قوم زخرفوا مساجدهم وفضضوا مَصَاحفهم)) .

وإنما أضيف العلم إلى البرى لأنه سبب لتحصيله وحفظه وصيانته ، وهو القلم ، قال
الله تعالى : ﴿ **علَّم بالقلم** ﴾ [العلق : ٤] واختلف في باء (بالقلم) فقيل : سببية ، وقيل
استعانية : فعلى تأويل السُّدي : علم الله الإنسان من لدنه بالوحي والإلهام، وأعانه على تحصي
وحفظه وصيانته بالقلم ، ولذلك اتخذ رسول الله ﷺ كتَّاباً يكتبون له الوحي ، منهم : زي
ومعاوية ، وهم جم غفير .

وَعَلى تأويلِ الضَحاك وابن مَاجه مما رفعا اسناده إلى ابن عباسٍ أنها سببية ، فيكون معن
قوله تعالى : ﴿ **علَّم بالقلم** ﴾ سبب تعليم خلقه من العالم الروحاني والإنساني بالقلم[1] ، إ
هو ترجمان الحق أولاً عند النشأة الأولى ، وآخراً باستنساخ الفروع به أو منه .

والأقلام اثنا عشر قلماً كما في (المواهب) ، أولها وَأجلها قلم القدرة السَّابِقُ . الثاني قل
الرسالة وتوابعها . الثالث قلم رؤيا المنام وأنواعها . الرابع قلم الدول وتواقيعها . الخامسُ قل

(١) هكذا العبارة في النسختين ، وهي غير مترابطة .

التواريخ وتفاصيلها . السادسُ قلم الحساب وضروبه إذ به تستخرج الحقوق إلى أماكنها . السابع قلم القضاءِ ، وبه يقام قسطاسُ العدلِ ، ويفرق بين الحق والباطل بفيصل الفصل . يمتاز به بين ذوي الحلم وفريق الجهل . القلم الثامن في أسماء الملوك وأيامها وسيرها في حلها وإبرامها . التاسع في الوفيات وتفاصيل الخواتم والكيفيات . والقلم العاشر في المناكح وأسبابها وذكر رباتها وأربابها . القلم الحادي عشر في اللغات وتراجيمها مِن عربها وأعاجيمها . القلم الثاني عشر في البيوعات وأبوابها والنهي عن ربوياتها وفاسدها عند ارتكابِهَا . القلم الثالث عشر وهو مِن أجل الأقلام قدراً بعد قلم الرسالة ، قلم الولاية فإنه مشتمل على استحقاق الوراثة ومراتبهـا ، وأنواع الكشـوفات وتنوعاتها ، ومشـارب الذوق وتفـاوتها ، وأنواع المكـالمات وتضوعاتها ، وفَجآتِ الوارداتِ وروعاتها ، والفَنَا عن الفنا وتناهي الفنا ، قال بعض السادات في بيان هذا المقامِ : فيفنى ثم يفنى ثم يفنى ، وكان فَناؤهُ عَيْنَ البَقاءِ والمعرفة وغمراتها ، والوجد والوجود والغيبـة والشهود ، والحد وَالحدود ، والوصـول والذبول وَالذهول ، والبواح والبراح والكفاح ، وَالدنف والكلف والشغف ، بعد الميل والركون ، والحب والعشق وَالغرام* .

فالأبدال ثلاثون رَجلاً وثلاثون امرأة ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة ، وهم أساس الدولب وأفضل أهله ، وهم الملأ في هذا النوع من العالم ، كل رجل منهم على قلب نبي وَمقرب . منهم الغوث ، ويكون في جميع الأقاليم غير أنه حيثما كَان لاتغيب الكعبة عن منظره ، وَإذَا قال : السلام عليك أيها النبي قال له النبي : وعليك السـلام ، فإذا وقع الأمر من أمور العـامة ابتهـل فيـه النجبـاء ، فإن تم وإلا ابتهل السياحُون ، فإن تم وإلا ابتهل الصديقون ، فإن تم وإلا ابتهل الأخيار ، فإن تم وإلا ابتهل النقباء وهم الأقطاب الاثنا عشر ، فإن تم وإلا ابتهل الغوث ؛ فتنتهي إليه ؛ فيرفع الأمر إلى مَن له الأمر مَن قبل ومِن بعد ؛ إذ هو الذي انتهت إليه الوراثة بالقعدد[1] ، فيخاطب النبي ﷺ كفاحاً؛ إذ هو على قلبـه فيشفعان لما لهما من القربِ الخاص ورتبة التداني؛ فترفع البلوى وتَضمحل الشكوى[2] .

---

* سبق التعليق على كلام مماثل لهذا الكلام في ١٥٤ وتم شرح جميع الكلمات والعبارات الغامضة هناك أما قوله هنا ــ العشق والغرام ــ فهذا الكلام لايجوز إطلاقه على الله عز وجل لعدم ورود النص به والله أعلم .

(١) القعدد الأصل أو النسب آو الوراثة .

(٢) وردت احاديث عن الأبدال أغلبها إن لم يكن كلها ضعيف ومن أمثالها ماوراه أبو داود (١١جـ ٣٧٥ص) عون =

وأما قول العامة: (إنه لايكون إلا في البيت) فكذب وَافتراء على الشارع، وَمجازفة في القول؛ فقد كان النبي ﷺ بالمدينة وهو رأس الغوثية، وَالسيد عبد القادر الجيلي الذي لا يختلف اثنانِ في غوثيته في العراق ببغداد، وَالشاذلي بتونس، والجنبد بالمدائن، والغزالي بطوس وَأويس القرني بالكُوفة، وأبو مدين الغوث بالمغرب.. إلى مالا يحيط به الحصرُ؛ مما يدل عَلى بطلان ذلك القول الفاسد، بل لايمتنع أن يسكنها قطب أو غوث مدة، أوْ يكون مِن أهلها أوْ ساكنيها كأبي طالب المكي وعلي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين. وإنما الممتنع التخصيص، بل ينتقل ذلك بانتقال الملة وتَفحلها في إقليمَ أو أقاليم، فلو قُدِّر خلاء مِن الإسلام إلا إقلياً واحداً لكان الجميع في ذلك الإقليم، إلاَّ أنَّ السياحين أهل الخطوات يسلكون الأقاليم كلها، فالله يختص برحمته مَن يشاء، وعلى قدر توجُّهات جلالاته ورحمته، لاَ معقب لحكمه، ولاَ رَادَّ لقضائه .

وَالقلم له حرمة حتى قيل: إنه لاينْبغي وضْعه بالأرضِ إجلالاً لما هيىء لَه مِن مباشرة كتابة العلم والقرآن والأسماء الحسنى، ولِنسْبَتِهِ للقلم الأعلى . بل يروى أنَّ الصحابة كَانوا إذا فرغ أحدهم مِن الكتابةِ جَعل قلمه على أذنِهِ ، فقيل: إن سبب ذلك ليكون أذكر له. وقيل: للإجلال، حتى روي عن محمد بن العربي أنه قال في بعض مصنفاته: ينبغي إجلال النباتات التي تتخذ منها الأقلام؛ فلا تختلى إلا لحاجة، كما روي ذلك للسدر لنسبتها إلى سدرة المنتهى .

والقلم أجل من سدرة المنتهى، ونسبة الأقلام الدنيوية إلى قلم القدر السابق أتم مِن نسبة سدرة الدنيا إلى سدرة المنْتَهى؛ فكما ينبغي أن يتبركَ بورق سدر الدنيا في أشد الحالات وهي غسل الميت فمن باب أحرى أن يتبرك بنخالة الأقلام على وجه التيمن ؛ ولذلك قال الناظم :

وَخُـذْ مِنَ برا العـلـم البُـراءَ تيمنـاً

أي خذ نخالة القـلم المبري حالة كونك متيمناً ، أي متبركاً بها ، فضـلاً عن القلم نفسه ، عن مداده ، فضلاً عن العلم عينه ، فضلاً عن الكتاب والسنة اللذين عنهما تفنن الجميعُ، وبنورهما تجهبذ العالم وَعبد المطيع .

= من حديث أم سلمة وفيه أتاه أبدال الشام وعصائب العراق إلخ ورواه الحاكم (جـ ٤ ص ٤٣١) مستدرك وفيه وأبدال الشام قال الذهبي أبو العوام ضعفه غير واحد وكان خارجيا اهـ قال صاحب عون المعبود: وفي الأبدال أحاديث منها مارواه أحمد وعنه السيوطي وصحح إسناده العزيزي والمناوي ومنها ماروواه الطبراني وصحح إسناده العزيزي والمناوي (١١جـ ٣٧٧) عون

قلت لم يسـلم حديث واحد عن الأبدال من مقال: أما الغوث والقطب والنجباء وما إلى ذلك من الأسماء فلم أجد لها تصحيحاً مع البحث الشديد والله أعلم .

قال الرسول ﷺ : ((لآية من كتاب الله خيرٌ من محمد ومِن آلِ محمد)) .
فلما كان التيمن بقلامةِ القلم مما ينبغي فالتيمن بتحقق مسائله ، وتدقيق معانيه ، وتصحيح مبانيه ، والاعتناء بالكيفيات التي يتحصل بها ، ومحاولة تحصيله بسببها ؛ كالمدارسة والممارسةِ والمذاكرة ، وإدمان السهر وَالجوع ، والتملق وَالخضوع ، وَبذل الكلِّ ، وترك الملل ، وتحمل الكل ، والعناء والكلل ، من باب أولى ؛ فإنه صعب التحصيل سريع التَّعْطيل ، لا يناله غير صبر ولا ملول ، ولاَ مستحيي ولاَ جهول ، بَل هو حرفة الفحول ومطرة المحول وجرعة المسئول ، وليكن ذلك على سبيل التيمن والتبرك لاَ على سبيل الرياء والسمعة وطلب الجاه والحظوة . وفيه نَوع استعارة : وهي استعارته بحتات القلمِ عما يتحصل مِن متشابه العلم ودقائقه ورقائقه ، ومشكله واستنباطه بآلاته ، كَالنحو واللغة والتصريف وفنون البلاغة والأمثال والعبر ولحن القول وفحواه ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره .
قوله : ﴿ وسوءَ المشى اهجر ﴾ لأنها المُطيطَا ولأنها الهيئة التي تدل على جهل صاحبها وسوء طويته . قال رسول الله ﷺ : ((إذا مشت أمتي المطيطَا واستخدمت أبناء الملوكِ كَانت الدولة للعدو[1])) .
وقال لأبي دجانة ـــ وكَان يختال عند الحرب ـــ سجية لاَيستطيع غيرها ـــ : «تلك مشية يبغضها الله ورسوله إلا في مثل هذا الموضع» .
والمشاء ، بالضم والمد : الالتجاء إلى الله في السراء والضَّرَّاءِ ، وهي مِن نوادر اللغات ، وذلك بأن تتصف بالاضطرار إلى الله والالتجاء إليه ؛ بأن تنزل نفسك منزلة الغريق في السعة والضيق ، وإلا كان الالتجاء في طريقٍ وأنت في طريقٍ ، وكنت بمعزل عن خير رفيق، وذَلك بأن تُسقط التدبيرَ والاختيار، وتحقق بأن الله يفعل مَايشاء ويختار ، فتكون بذلك في جنات مِن الرضى والتسليم تجري مِن تحتها الأنهار ، قال الله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ [الرحمن : ٦٢] : جنة الإحسان ، وجنة الإيقان، جعلنا الله مِمن قدمها له ، فمن لم يظفر بهما فقد فاته طيب الحياة .

* * *

(١) حديث : «إذا مشت أمتي المطيطا .. الخ» ضعيف رواه الترمذي وقال : غريب ، وعنه السيوطي في جامعه ورمز له بالحسن ، وقال الهيثمي : وإسناده حسن ، قال المناوي : وفيه زيد بن الحباب ، قال في الكاشف : يهم ، وموسى بن عبيد ضعفوه ، وعبد الله بن دينار غير قوي (١/٤٤٥) .
قلت : رواية الترمذي «سلط شرارها على خيارها» بدل «كانت الدولة للعدو» ؛ والله أعلم .

ولما انتهى كلامه على ما يكسر فيقصر ويضم فيمد شرع يتكلم على

باب

ما يضم فيقصر ويكسر فيمد باختلاف المعنى

عكس الباب الذي قبله.

فقال رحمه الله تعالى:

١٣٤ ـ بِمُؤتَاكَ لِلْمِئتَاءِ فُقْ مُؤْثِقاً عُرىً   مَحَامِدَ عَنْهَا الْبَاخِلُونَ عِرَاءُ

قوله: بمؤتاك: الباء سببية. مُؤْتاك، بالضم والقصر: المعطى مِن الأشياء. والمئتاء، بالمد والكسر: المعطاء، مبالغة في كثرة العَطاءِ، وهو اسم فاعل دال ببنيته على كثرة العطاء، مصروف لزيادة الوصفِ وقصدَ المبالغة عن مُعْطٍ، تقول: معطاء، بكسر الميم، في كونه اسم فاعل، وَتض حيث كان اسم مفعول. واليد المِعطاة خير مِن اليد المُعْطاة، وهو معنى قوله ﷺ : ((اليد العل خير مِن اليد السفلى))[1] كما روي: ((اليد المنطية خير من اليد المنطاة)).

وقوله ﷺ : المنطاة: لغة حميرية. خاطب بها حمير ملاطفة بهم، لتوسعه ﷺ في لغاب العرب حتى كَان يخاطب كل قوم بلغتهم، فيكون أفصح منهم في لغتهم لما خصه الله به مِن مزي الفصاحة والبلاغة.

يقال: رجل معطاء، وامرأة معطاءة. والعُرى، بالضم والقصر: جمع عروة، بالضم: وه عبارة عما يتوصل به إلى أخذ الأشياء التي لولاَ هي لم يقدر عليها كعروة الدلو والسقاء وعرو المعراج، ومنهن المعنويات، وَأتى بما ذكر كناية عن عرى الإسلام الخمسة وأصوله الثلاثة، قا الله تعالى: ﴿ **فقد استمسك بالعروة الوثقى لاَ انفصام لها** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. والعراء بالكسر: جمع عِرْوَى على وزن عِكْلَى بمعنى خِلو. فباء بمؤتاك تتعلق بفق. والمئتاء: مفعول فق واللام فيه لتقوية العامل. وموَثِّقا وهو مضاف إلى محامد[2]. وَجملة (عنها الباخلون عراء): ف

---

(١) حديث: « اليد العليا خير من اليد السفلى » حديث متفق على صحته رواه البخاري بهذا اللف وزيادة: « وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله (كتاب الزكاة)، كما رواه مسلم بإيجاز، والله أعلم.

(٢) ليس موثقاً مضافاً إلى محامد، والأولى أن يكون حالاً.

موضع خفض صفة لمحامد، والمحامد: جمع محمدة، والمحمدة بمعنى الحمد، وَهو الشكر. حمِده كسمعه.

فكأنه يقوك: فق الشخص الكثير العطاء بما تعطيه، أي غالبه في ذلك حتى تفوقه في حال كونك محكماً على محامد خلى عنها الذين يبخلون، أي لم يظفروا منها بشيء لفقدهم أسباب الظفر بها مِن المكارم وَالجود.

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٣٥ ــ وَدَعْ ذَا القُلَى يُجْرِي القِلاء وَمِنْ لُهىً
تَعَــوَّضْ ثَنَــاءً تَشْتَــهيــه لِهــاءُ

قوله: ودع: فعل أمر بمعنى اترك، أي: صاحب القُلى، بالضم والقصر: جمع قلة، وهي لعبة للصبيان، بل دع كل لهو. والقِلاء، بالمد والكسر: الحمر الخفاف، واحدها قلو. واللهى، بالضم والقصر: ما يضعه الطَّاحِنُ في فم الرحى. واللهاء، بالمد والكسر: جمع لهاة، وهي اللحمة الرقيقة الممتدة من منتهى اللثة إلى منتهى الحلق، ويجمع أيضاً على لهوات. كما روي أنه ﷺ كان يُدخِلُ السواك إلى لهواته عند الاستياك حتى يقول: هَقْ.

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

يـا لك مِن تمـر ومِن شـيشـاء ينشب في المسـعـل واللهــاء

فكأنه يقول: اترك صاحب اللعب بالقلى يجري الحمر الخفاف، واتخذ عوضاً مما يجعل في فم الرحى مِن القوت ثناء عليك جميلا تستلذه اللهاء لاشتهاء اللهاء له، المراد منه لازمه لكونه جميلاً باقياً محمود العواقب. وفي المثل: (خير المال ما أفاد شكراً واقتنى ذخراً).

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

ومـا عـلى مشـتـر حمداً بموهبـة غَبْنٌ ولو كان مـا أعطـاه يـاقوتـا

وفي مثل هذا يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

ذهـاب المـال في خـير وحمـد ذهـابٌ لايقـال له ذهـابٌ

ويروى أن ابنة هرم بن سنان وفدت على عمر رضي الله عنه في خلافته، فقال لها: ما أعطى أبوك هرم لزهير ؟ فقالت له: خيلاً لاتجارى، وإبلاً لاتبارى، وثياباً فاخرة، وسيوفاً تنتضى. فقال لها: إن كان أبوك أعطاه ما يبلى فقد ألبسه ثناء لايفنى.

وفي هذا البيت من بديع الكناية. وهي كناية عن اللهاء باشتهائها باستماع الثناء الجميل،

فتمنى بذلك أن تكون سمعاً لأنها موضع إدراك الذوق، فتمنت بحبها الثناء ذهاب حاسته التي هي الذوق، فتستل منها حاسة الأذن التي هي سماع الثناء الجميل لفتوتها وعلو همة صاحبها؛ إذ عودًها اختيار تلك على هذه؛ إذ ليس من شأنه حب الطعام واغتناء الحطام، بل دأبه الشغف بجميل الثناء لما يجري على راحتيه من سني العطاء، فأيامه بين اكتساب ذخر واستجلاب فخر، حتى صارت جوارحه لذلك يغار بعضها من بعض، حيث لم تهيأ لما هيئت له صاحبتها من اكتساب المعالي، والثناء الغالي، الذي هو أعلى رتبة من الذهب واللآلىء فتصير بذلك الثناء تحسد الأسماع.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

سلام كما أحيا أزاهير عَرْفِهِ ... فلا سمعٌ الا وَدَّ لو أنه أنفُ

وقال آخر: (من بحر المنسرح)

بَعْضي يَغَارُ عَلَيْكِ من بعضي ... وفيك يحسد ناظري سمعي

وقال آخر: (من بحر الكامل)

وتمنت الأعضاء لو كانت معاً ... أذناً فتسعد مثله بالمُسْعِدِ

وقال غيره: (من بحر الكامل)

في جنة ماكان ألطف نشرها ... حسدَتْ عليه أنوفَها الأفواه

فالبيت مشتمل على قول الشاعر: (من بحر الطويل)

وشتان مابين اليزيدين في الندى ... يزيد سُلَيْمٍ والأغَرٌّ بن حاتم

يزيد سليم سالم المال والفتى ... فتى الأَزد للأموال غير مسَالمِ

فهمٌّ الفتى الأزدي تفريق ماله ... وهمٌّ الفتى القيسي جمع الدراهمِ

أيحسبني القيسي أني هجوته ... ولكنني فضلت فعل المكارم

وأبلغ ما قيل في هذا الباب قول طرفة بن العبد (من بحر البسيط)

قالت طريفة لاتبقى دراهمنا ... ومالنا سرف فيها ولا خَرَقُ

لكن إذا اجتمعت يوماً دراهمنا ... ظلت إلى طرقِ الخيرات تستبق

لايسكن الدرهم المنقوش صرتنا ... لكن يمر عليها وَهْوَ مُنْطَلِقُ

ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٦ ـ فَكَمْ فِي الْعُدى تَحْتَ الْعِدَاءِ فَتًى لَهُ ... ذُرىً كَان فِيهَا لِلْعُفَاةِ ذِرَاءُ

قوله: (فكم في العدى): الفاء: ترتيبية. وكم: تكثيرية. في العدى: جار ومجرور، وهي بالضم والقصر: جمع عدوة أي: ما علا وارتفع من جانبي الوادي وغيره، قال الله تعالى: ﴿ **إذ أنتم بالعُدْوَة الدنيا وهم بالعدوة القصوى** ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وربما سمي بالعدوة الإقليم؛ فإن الأندلس والغرب يسميان بالعدوتين، كما في (النفح). والعداء، بالمد والكسر: ما يوضع على الميت من حجارة وخشب. والذرى، بالضم والقصر: جمع ذُروة ، والذروة، بالضم والكسر: ما علا كل شيء: والذراء بالمد والكسر : جمع ذرى، وهي الحصون التي يلجأ إليها ويتمنع بها. والمنعة حيث كانت يقال لها ذراء، وإذا فتح فإنما هو ذَرى الشجرة مما يُتَرَفَّق به للدفء ونحوه.

فكأنه يقول: كانوا ذوي حصون تأوي إليها العفاة، أي طلابُ المعروف، فتجد بها ما ينتفع به من أمن الخائف وإشباع الجائع.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ومن يـأتـه من خـائف ينس خـوفـه　　　ومن يـأتـه من جـائع البـطـن يشبع

ومع ذلك فإنه ذكر لايغني من دهماء الموت شيئاً، إذ الموت لايبقي على ذي فضيلة لفضله، ولا يمهل صاحب معروف لمعروفه، وإنما قصارى صنائع المعروف أن تقي مصارع السوء دنيا وأخرى، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: ((عليكم بصنائع المعروف فإنها تقي مصارع السوء))[1] .

كما وقع كثيراً حتى صار كالعادة: فمن ذلك قضية محمد بن حمير مع الحية، وكان رجلاً صالحاً ساكناً في البيداء، وكان يتصيد لذلك، فبينما هو يسير ذات يوم وقد رجع من قنصه إذا بحية تهوي نحوه وتخاطبه بلسان فصيح: أن أجرني من عدوٍ لي جَدَّ في طلبي؛ فإنه بلغني عنك أنك ذو معروف ! فقال لها: هَلُم فادخلي في كمي، فقالت له: إن ذلك لاينجيني من عدوي، فقال لها: وما ينجيك ؟ قالت: لاينجيني إلا أن أدخل بطنك، فقال لها: أخاف على نفسي، فقاسمته وأعطته المواثيق أن لاتضره، وقالت له: كيف أتسبب في هلاكك وقد صرت سبباً لنجاتي ؟! ففغر لها فاه، فانسابت، فدخلت بطنه، فلم ينشب أن جاء الطالب، فقال له: يا محمد بن حمير إن عدوي عندك فأعطنيه أقتله بأخي، فقال له: إني لم أر لك عدواً، فإن لم تستيقن بقولي فهلم ففتشني، ففتشه، فلما لم يجد الحية انصرف، فلما بعد قال لها: اخرجي إن

---

(١) حديث: « عليكم بصنائع المعروف » تقدم تخريجه في ١٠٨　٢٠٣

عدوك قد بعد، فأخرجت رأسها من فيه لتسبر ما قال لها، فلما استيقنت أنه قد بعد انكمشت إلى جوفه فقالت له: اختر إما أن فتت قلبك أو كبدك أو كليتك، فقال لها: سبحان الله ما على هذا عاهدتني ولا عاقدتني، فقالت له: إن العداوة القديمة لا تزيلها الصداقة الحادثة، فقال لها إن كنت ولابد فاعلة فاتركيني حتى أصلي ركعتين وأهيىء لنفسي مكاناً أموت فيه، قالت له افعل، فصلى ركعتين، ثم رفع بصره إلى السماء وقال: يا أرحم الراحمين، ثلاث مرات، أجرني أجرني من عدوي، فلم يستتم قوله حتى نزل عليه من السماء فارس، عليه ثياب خضر، وتحته جواد أبلق، وإذا بيده ثلاث ورقات خضر يقطر منهن الماء، فناوله واحدة وقال له: ابتلعها فابتلعها، فما هي إلا أن استقرت في بطنه حتى عربدت الحية فتقطعت إرباً إرباً، ثم ناوله الثانية فأخرجت أجزاءها ودماءها من دبره، ثم ناوله الثالثة، فأذهبت ألم سمها ووجد لها برداً، فلما استراح من سمها قال له الفارس: أتعرفني يا محمد ؟ قال: لا، ولكني علمت أنك من ملائكة الله أو من عباد الله الصالحين، فقال له: أنا المعروف، وفي رواية: الإحسان، وكنت في السماء السابعة، فلما قلت: يا أرحم الراحمين أول مرة أمرني الله بإغاثتك، فلما قلتها المرة الثانية بلغت سماء الدنيا، فلما قلتها الثالثة أتيتك؛ فلا تترك صنائع المعروف؛ فإنها إن ضاعت عند الخلق لا تضع عند الخالق[1].

وحيث فعل صانع المعروف فينبغي له أن يقصد بها وجه الله ليأتي بها على وجهها النافع فإن كل شيء هالك إلا وجهه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٧ ــ ثَوى في رُبىً يَنْفِي الرِّباءُ انْتِيَابَهَا　　　بِهَـــا لِمُـــوَافِيهَا كُفىً وَكِفَـــاءُ

قوله: ثوى، أي: أقام. في ربى: جار ومجرور، والرُّبى، بالضم والقصر: جمع رَبوة، وهو ما ارتفع من الأرض. قال الله تعـالى: ﴿ **وآويناهما إلى رَبوة ذات قرار ومعين** ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وذلك أن عمران أبا مريم كان إمام بني إسرائيل وعالمها ومِن أفضلها مكاناً وأعبدها، وكانت زوجته حمنة امرأة صـالحة، وكانت بنو إسرائيل حينئذ على الحق، ومِن أفضـل عالَم زمانهم، فلمـا أحسَّت حمنة بالحمل قالت: ﴿**ربِّ إني نذرت لك مافي بطني محرراً**﴾ أي

---

(١) ما أشبه هذه القصة بالقصص الخرافية !!

حبيساً محرراً مِن طلب الدنيا والاشتغال بها، موقوفاً على خدمة بيت المقدس، وقمه، والاشتغال
بصالحه، والعبادة فيه.

ثم لم ينشب عمران أن مات وحمنة حبلى بمريم، وكانت تظن أن ما نَمَا في بطنها ذكر، فلما وضعتها نظرت إليها رجاء منها أن تكون ذكراً: إذ هو الذي يصلح لخدمة المسجد لخلوه من الحيض المانع لدخول المسجد مدة ومِن العادة حيناً، ولأن الذكر أقوى على الخدمة مِن الأنثى، وأسلم من الحياء المانع من مزاحمة الرجال، فلما وجدتها أنثى قالت: ﴿ **رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم** ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: العابدة في لغتهم، ﴿ **وإني أعيذها بك وذريتها مِن الشيطان الرجيم** ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال رسول الله ﷺ : ((ما من مولود يولد إلا ونخس الشيطان في خاصرته حين وضع، وذلك حين يستهل صارخاً، إلا ما كان مِن مريم وابنها عيسى فإنه أتى ليطعن، فطعن في الحجاب))[1] لدعوة أم مريم، ﴿ **فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً** ﴾ [آل عمران: ٣٧]: بأن نشأت في النسك والعبادة.

وذلك أنها لما ولدت تنافست في كفالتها رؤساء بني إسرائيل؛ فأخذوا أقلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم، فكتبوا عليها أسماءهم وألقوها في بحيرة الأردن، فرسبت أقلامهم وطفا قلم زكرياء؛ فعلموا أنه أحق بكفالتها، فبنى لها بيتاً في بحبوحة المسجد، وجعل مِن دونها ثلاثة أبواب، وكان رجلاً مقلاً، فضاق ذرعاً بكفالتها لضيق حاله وقلة ماله، ولم يكن له بد مِن كفالتها لمكانة خالتها منه، وعلم أن الله لم يرتضِ لكفالتها غيره؛ فكان كلما دخل عليها وجد عندها رزقاً، فيقول لها: يا مريم أنى لك هذا والأبواب مغلقة ولا يدخل عليك غيري ؟! فتقول له: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فطابت نفسه، واتسع لكفالتها صدرُه لما رأى ما آتاها الله مِن الكرامة، وعلم أنه معان عليها، وأنَّها مِن إماء الله الصالحاتِ القانتات. وكانت تقوم حتى تتورم قدماها مِن القيام.

---

(١) حديث: « ما من مولود.. الخ » صحيح أخرجه البخاري وغيره، ولفظه عند البخاري: « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد؛ فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها. ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، وهو عنده في كتاب التفسير وأحاديث الأنبياء، ولا عبرة في طعن صاحب الكشاف في معنى هذا الحديث وتوقفه في صحته، والله أعلم.

واختلف في الرزق الذي كان يأتيها؛ فقيل: هو مِن الجنة، وقيل: هو مِن الكون.

يروى أن النبي ﷺ دخل على ابنته فاطمة يوماً وقد وقعت في المدينة مجاعة عظيمة، فوجد عندها طعاماً زكي الرائحة؛ فقال لها: من أين لك هذا الطعام ؟ فقالت له: هو مِن عند الله، رزقنيه رزقاً؛ فاستبشر ﷺ حتى أضاء جبينه الجدران، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمتي مَن يأتيه الرزق من عند الله كمريم ابنة عمران[1].

وكانت مريم رضي الله عنها رائعة الجمال لم يكن في زمنها مَن يماثلها جمالاً ولا كمالاً، وكانت تشب شباباً لا يشبه غيرُها، وكانت تحتطب كل يوم لبيت المقدس حتى بلغت. فخرجت يوماً تحتطب على عادتها، فتمثل لها جبريل على صورة فتى جميل، فعارضها، فلما رأته انصرفت فإذا هو أمامها، ثم انصرفت يميناً فإذا هو أمامها، ثم انصرفت شمالاً فإذا هو أمامها، فلما تيقنت أنها لاتفوته وقفت وقد ذعرت وطاش لبها، فلما رأته يقصدها قالت له: ﴿ **إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً** ﴾ [مريم: ١٨]، فقال لها جبريل ليذهب روعهاويسكن جأشها: ﴿ **إنما أنا رسول ربِّكِ لأهبَ لك غلاماً زكيّا** ﴾ [مريم: ١٩]، فكَان بيده كفٌّ مِن التربة التي خلق منها آدم عليه السلام، وكَان الله قد استودعَها رضوان خازن الجنان، فلما أرسل الله جبريل إلى مريم أخذها مِن رضوان ليلقيها في رحم مريم، فلما خاطبها وسكن جأشها قالت مجيبة لجبريل: ﴿ **أنى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشر ولم أك بغيّاً** ﴾ [مريم: ٢٠]، فقيل: إنما قالت ذلك استبعاداً، وقيل: إنما قالته حملاً على العادة البشرية ولتختبر مَا عند جبريل من الأمر الخارق، فقال: ﴿ **كذلك قال ربك** ﴾ [مريم: ٢٢]، فألقى التربة في رَحِمها، وَنفخَ؛ فعلقت بعيسى عليه السلام.

وكانت بعد ذلك إذا ذهبت إلى الحطب تذهب معها أختها زَوجة زكرياء أم يحيى ، وكانت حبلى بيحيى، وكانت تقول لمريم كلما انصرفتا إلى الحطب: يا أختاه ، هل رأيت زرعاً مِن غير زارع؟ فتقول لها : إنَّ الله يفعل مايشاء ، فلما أكثرت عليها مِن السؤال قالت لها : إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك ، فأخبرتها بقصتها ، واستكتمتها .

فلما أخذها المخاض فرت من المدينة حياءً من قومها وخوفاً منهم أن يرمُوها بالزنى؛ فبعث الله إليها قوابل مِن الحور العين ليتولين ولادتها وملكاً يهديها إلى بيت لحم ، وكان يومئذ

(١) كون النبي ﷺ دخل على فاطمة ابنته... الخ، هذه القصة لم أجدها بهذا السياق، والله أعلم .

ربوة ذات ماء ونخيل، فآوت إلى جذع نخلة مِن تلك النخيل فولدت تحتها، فأمرها الله تبارك وتعالى أن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب؛ ففعلت، فأمرها الله تبارك وتعالى بأكله عَلى وجه التداوي وليذهب عنها ما تجده النفساء مِن المغص.

قَال رسول الله ﷺ : ((لو علم الله أن شيئاً أنفع للنفساء مِن الرطب لأمر مريم بأكله))[1].

فمن يومئذٍ اتخذت النفساء الرطب في دواء المغص.

واختلف في المدة التي مكثت مريم وابنها عند بيت لحم، وهو الذي عناه الله بقوله: ﴿ **وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾ [المؤمنون: ٥٠] وإنما وصفها الله بالقرار والمعين لارتفاعها وبهجتها وكثرة ثمارها وفواكهها، مع كون مَائها معيناً يُرى بالعين ويؤخذ باليد من غير مؤونة، مع كونه عذباً زلالاً. وقيل: مكثت ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعين يوماً.

فآتاه الله العلم والحكمة وهو في المهد والقماط، كما علم آدم عليه السلام الأسماء كلها وهو بين الطين والماء؛ لما بينهما مِن المناسبة. قال الله تعالى: ﴿ **إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فلما انقضت المدة التي أمرها الله فيها بالصوم، وهو ترك الكلام، أمرها الله تبارك وتعالى بالرجوع إلى قومها؛ فرجعت إليهم تحمله، فأقبلت عليها بنو إسرائيل، فمنهم من يلومُها، ومنهم من يتعجب، ومنهم من يشتمها، ومنهم من يقول: ارحموها، ومنهم من يقول: حرِّقوها بالنار، وهي ثابتة لم تكترث ولم تجبهم بشيء. فلما سكتوا أمرتهم أن يسألوه؛ فقالوا لها: ﴿ **كيف نكلم من كان في المهد صبيا** ﴾ [مريم: ٢٩]، فترك الثديَ، وَكَان في فِيه، ثم أقبل عليهم بوجهه وقال لهم: ﴿ **إني عبد الله آتانيَ الكتاب وجعلني نبيّاً. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني**

---

(١) حديث: « لو علم الله أن شيئاً أنفع للنفساء... الخ » موضوع أورده ابن الجوزي في موضوعاته، وأوله: « أطعموا نفساءكم في نفاسهن التمر »، وآخره: « ولو علم الله طعاماً كان خيراً من التمر أطعمها إياه » اهـ

وقال: هذا حديث لايصح عن رسول الله ﷺ ، وسليمان روايه قال فيه أحمد ابن حنبل: يضع الحديث، وقال يزيد بن هارون: لايحل لأحد أن يروي عنه، وقال النسائي والدارقطني: متروك، وقال يحيي بن معين: سليمان وداود بن سليمان كذابان (٣/ ٢٧).

وأورد أوله صاحب الكشف تحت رقم ٣٩٠ وقال فيه: قال ابن حجر: رواه عبد الله بن المنذر بسند فيه كذاب (١/ ١٤٩)، والله أعلم.

بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً. وبَرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيّاً. والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً ﴾ [مريم: ٣٠ ــ ٣٣]؛ فكفَّ عنها بعض الناسِ، وشقي مَن شقي فنسبه للسحرِ.

وهو من جملة الأربعة الذين تكلموا في المهد: منهم: شاهد يوسف وزليخا، وهو عيسى، وصــاحب جريج، والصبي الإسرائيلي الذي مرت عليه امرأة تُسحَبُ وَتُضرَب وقد اتهموها بالسرقة، فقالت أمّه: اللهم لاتجعل ابني مثلها؛ فترك الثديَ وقال: اللهم اجعلني مثلها؛ فإنهم يسبونها ويتهمونها ويضربونها وهي بريئة. ثم مرَّ عليها رجل ذو هيئة وهو في غاشيته؛ فأعجبها زيه ومَن معه من أعوانه؛ فقالت: اللهم اجعل ابني مثله؛ فترك الثدي وقال: اللهم لاتجعلني مثله؛ فإنه جبار شقي.

ومنهم مبارك اليمامة فإنه أتي به رسول الله ﷺ، فقال له: منْ أنا ؟ قال: أنت رسول الله،فقال رسول الله ﷺ : صدقت بارك الله فيك؛ فسمي مِن يومئذ: مباركَ اليمامة.

قوله: (ينفي الرباء)، أي يزيل ويذهب، مضارع نفى. الرِّباء، بالكسر والمد: مفعوله، وهو الحذر والخوف، وهو مصدر ربأت. وانتيابها: النزول به المرة بعد المرة، وهو بالرَّفْع فاعل ينفي. والرباء، بالكسر والمد: مفعوله. والكُفى، بالضم والقصر: جمع كفيه، وهو الكافي مِن الأقوات. والكفاء، بالكسر والمد: الطاقة، يقال: لا كفاء له بذلك، أي: لاطاقة له، وموافيها: الذي يأتيها.

فكأنه يقول: أقام ذلك الفتى الذي تحت العداء في العدى في أمكنة مرتفعة مِن الأرض حصينة لاخوف على من ثوى بها؛ لأنه بمجرد نزوله فيها المرة بعد المرة يزول حذرها، وكذلك كل من يوافيها وعنده مِن القوت ما يكفيه وما يطيقه، ومع ذلك فقد انتقل عنه إلى القبور؛ فصار مقيماً تحت الخشب والصخور، فاعتبر أيها الموفق بمثله ومثاله، ولا تغترْ بمآله ولا حاله، فإنه إلى الزَّوال يؤول، ولو لابَسَهُ الطول.

ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٨ ــ وَذَاتَ العُجَى يَحْمي العِجَاءَ بِهَا الألى وَفُتْ عَــزَمَــاتٍ منْــهُــمْ وإلاءُ

قوله: العجى، بالضم والقصر: جمع عجاية، وهو عصب سوق الخيل وأذرعتها مما يلي السنابك. والعجاء، بالكسر والمد: جمع عَجْوٍ، بالفتح: وهو ضرب مِن ثمار المدينة رطب أحمر،

ورد الأثر الشريف عن رسول الله ﷺ قال: ((من أكل في يوم سبع تمرات مِن العجوة من القولَنْج))[1]. ويليه في الجودة البرني.

وفي كتاب (الدرر) أن أجودَ التمر نوع بالبصرة يقال له: الرب، إذا أكله الإنسان د له لذة في جميع جسدهِ.

وقال ﷺ : ((بيت لاتمر فيه جياع أهله))[2].

وكان إذا أتي بباكورة مِن التمر مسحها على وجهه ثم ناولها من يليه.

وكان يقول: ((أكرموا عمتكم النخلة ولو بدفن نواها))[3].

وسأل يوماً أصحابه عن شجرة هي مثل المؤمن ، فوقع أُصحابه في شجر البادية، فلما عرفُوها قال لهم: « هي النخلة » . فلما انصرفوا قال ابن عمر لأبيه عمر: والله لقد وقع في ي أنها النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فاستحييت أن أخبر بها رسول الله ﷺ ، فقال : لو أخبرته بها لكان ذلك أحب إليَّ مِن حمر النعم[4].

الألى ، بالضم والقصر: اسم موصول بمعنى الذين . وإلاءٌ ، بالمد والكسر: جمع إلوة ، لوة ، مثلث الهمزة : اليمين، وهي لغة رديئة جيء بها على غير القياسِ ، والقياس فيها ألية ، ل الواو ياء كما قال علي رضي الله عنه : (من بحر الكامل)

آلى ابن عبدٍ حين شدَّ ألية ... وحلفت فاستمعوا من الكذاب
أن لا يفر ولاَ يهلل فالتقى ... أسدان يتقيان كل ضرابِ[5]
نصر الحجارة مِنْ سفاهة رأيه ... ونصرتُ رب محمد بصوابِ

---

(١) حديث: « من أكل في يوم سبع تمرات.. الخ » متفق على صحته بدون « من القولنج ». ولفظ ري: « من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر » اهـ وهو عنده في كتاب مة.

(٢) حديث: « بيت لا تمر فيه جياع أهله » صحيح رواه مسلم وأحمد والترمذي وأبو داود في كتاب مة. وأورده السيوطي تحت رقم ،٣١٦٥ والله أعلم.

(٣) حديث : « أكرموا عمتكم النخلة ... الخ » موضوع أخرجه العقيلي في الضعفاء (٤٣٠) وابن عدي هذا حديث عن الأوزاعي منكر وعروة بن رويم عن علي ليس بالمتصل ومسرور بن سعيد غير معروف لم أسمعه الا في هذا الحديث (٦/٢٤٢٤) كامل .

(٤) قصة ابن عمر مع النخلة صحيحة .

(٥) هذا الشطر غير واضح بهذه الرواية، والرواية الصحيحة:

أسدان يضطربان كلَّ ضراب

وهي قصيدة طويلة جدّاً ضربت عن عزوها للاستغناء عن جلب سائِرهَا .
والعزمات : جمع عَزْمة ، بالفتح وسكون الزاي : وهو مصدر عزَم على الأمر : ار
فعله، وصمم عليه، أوجد فيه .

يعني أنَّ الذين وفت عزائمهم على الأمور ، وبرت أيمانهم أن لايفرطُوا في أموالهم ، بل دأب
أن يعالجوا في تنميتها، ويسعوا في إصلاحها، ويباشروا ذلك بأنفسهم؛ فيحيوا ثمار نخيله
وأشجارهم بسقياهَا بالنواضح القوية ذات العجى من خيل وإبل وبغال ، وذلك لا ينا
توكلهم ، ولا يحط مِن مراتبهم العلية قدر نَواة ، بل ذلك مما يزيد فيه، بل هو عين التوكل ع
الله تعالى ، فإن الله تعالى قد شرع الأسباب ، وجعل لكل شيء سبباً يكون عنده لاَ به .

ومباشرة الأموال وحفظها كان دأب الأنصار رضوان الله عليهم ؛ فقد كانت لهم ضي
يسنون إليها بالإبل النواضح، وهم ممن قد ثبت أجرهم على الله وفضلهم على الناس على لس
رسوله الصادق المصدوق ، يقول : ((لو أن أحداً أنفق ملء الأرض ذهباً ما بلغ مد أحده
ولا نصفه))[1] .

ولقد صدَّق الله نبيه بقوله: ﴿ **لايستوي منكم من أنفق مِن قبل الفتح وقاتل أولئ
أعظم درجة من الذين أنفقوا مِن بعد وقاتلوا وكلاًّ وعد الله الحسنى** ﴾ [الحديد: ١٠] .

وفي بيان قيامهم بإصلاحهم على أموالهم مع ماهم عليه مِن الفضل والجهاد والأثرة
حديث أبي هريرة المشهور المخرج في جميع المسانيد[2] وهو قوله: قالوا: أكثر أبو هريرة ؛ ووالله
أكثرت؛ فقد أخذتُ عن رسول الله ﷺ جرابي علم: أما أحدهما فقد بثثته ، وأما الآخ
فوالذي نفس أبي هريرة بيده لو قلت لكم منه كلمة لقطعتم هذا البلعوم قبل أن أتمها ، أ
إخواننا مِن الأنصار فقد أشغلهم عن حضور بعض مجالس رسول الله ﷺ إصلاح أموالهم
وأمَّا المهاجرون فقد شغلهم الصفق بالأسواق ، وأما أنا فكنت ألازم رسول ﷺ على مل
بطني، فكنت أُشهد مِن الأمور ما لم يشهدوا ، وأعي مِن أحاديثه ما لم يعوا ، ولقد شكوت إل
النسيان ، فقال: انشر ثوبك، فنشرته، فقال ما شاء الله أن يقول، ثم قال لي: ضم إليك ثوبك

(١) حديث: « لو أن أحداً أنفق ... الخ » متفق على صحته ، رواه الجماعة ، ولفظه عند البخاري
« لاتسبوا اصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولانصيفه » (كتاب المندب) .
(٢) في الأصل الأسانيد ولعل الصواب المسانيد .

سممته إليَّ ، فما نسيت بعدها شيئاً أُريد ذِكرَه[1] .

وكان عمر رضي الله عنه إذا أتاه الوفد تفطن لأيدي مصافحيه؛ فولى عليهم أخشنهم يداً
أثر العمل .

وفي الخبر أن الله يبغض الشاب الفارغ .

وقال ﷺ : ليس المتوكل مَن فعل هكذا ــ وقبض يديه ــ ولكن المتوكل من وضع
ره في الأرض وتوكل على الله في إخراجه ليغني بذلك نفسه عن التكفف .

وأتى بهذا البيت تنبيهاً على أن العزلة وترك التسبب والكد في تحصيل المال الحلال
فضل فاعله على من فعل ذلك تعففاً وتعطفاً على العيال، كما يوهمه ما تقدم مِن قوله :
مردىً بمرداء لدى متوكل ... الخ) ، فإنهما طريقتان توصلان إلى الله ، جعل لكل منهما
الاً ، فهذا مجتهد صابر ، وهذا محسنٌ شاكِرٌ ، وكل منهما مجاهد مصابر ؛ لأنَّ الله قسم بين
س أعمالهم كما قسم بينهم أرزاقهم ﴿ **قل كلٌّ يعمل على شاكلته** ﴾ [الإسراء:٨٤] ، فإن
عباداً لايصلحون إلا للغنى، فلو أفقرهم لهلكوا ، ومنهم من لايصلح إلا على الفقر، فلو

---

(١) حديث: « قالوا: أكثر أبو هريرة... الخ » مؤلف من حديثين صحيحين:

الأول رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد، وأوله : « إنكم تزعمون أن ابا هريرة يكثر الحديث عن رسول
ﷺ ، والله الموعد ، إني كنت امرأ مسكيناً أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطني ... إلى آخر الحديث » ،
روايات كثيرة .

والثاني حديث: « اخذت من رسول الله ﷺ جرابي علم ... الخ » فهو صحيح كذلك رواه البخاري
ظ : « حفظت من رسول الله ﷺ وعائين، فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم » ، وفي
ة لأحمد : « لو حدثتكم بما سمعت لرميتموني بالقشع » .

والذي يظهر لي ــ والله أعلم ــ ان الجراب الثاني إنما هو اسماء الملوك الذين أخبر ﷺ بأن هلاك الأمة على
هم ، ويخاف إن ذكر اسماءهم أن يؤذى .

أما كون هذا الحديث دليلاً على العلم الباطن فلا يتأتى ذلك لاعتبارين .

الأول : أنه لو كان هذا الجراب علم الباطن لكان النبي ﷺ كتم شيئاً مما أمر بتبليغه ؛ وهذا محال، وإن لم
بتبليغه فمن أين علمه أبو هريرة ؟! وإن قلنا بالخصوصة فهذا علي رضي الله عنه يقسم وهو على المنبر بعدم
صوصية .

الثاني: ان هذا الجراب لو كان علم الباطن فأبو هريرة لم يقله لأحد خوفاً على نفسه كما قال ، فمن اين وصل
القائلين به ؟! والله أعلم .

أغناهم أهلكهم الغنى، ومنهم مَن لايصلح إلا على الدؤوب على العمل، فلو منعهم من العم
لهلكوا ، ومنهم لايصلحه إلا الكف عن العمل والمنع فلو خلى بينه وبين العمل لهلك ؛ فه
أعلم بمصالح عباده .

والحاصل أن الطرق إلى الله بعدد النجوم في السماء ، وكلها موصلة إلى الله تعالى
اجتنب الشرك والمعاصي : (من بحر الطويل)

عباراتنا شتى ومعناك واحد وكل إلى ذاكَ الجمال يُشيرُ

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٣٩ ـ وَيَحْمِي الْمُهَى ضَرْبُ الْمِهَاءِ طُلَى العِدَا إذَا لَمْ تُوَاصَلْ قَيْنَةٌ وطِلاَءُ

قوله : (ويحمي المُهَى) : مضارع حمى . والمُهى ، بالضم والقصر : مفعوله
وضربُ : فاعله ، وهو ماء الفحل في حَيَاء الناقة . والمهاء ، بالكسر والمد : السيوف الرقائق
واحدها مهوى؛ وسمي بذلك لكثرة هويه إلى الضرب ، وَهوي : صاحبه حينئذ . والطُّلى
بالضم والقصر : الأعناق ، وإحداها طلية ، مبالغة في الطول ؛ لأنَّ العرب تمدحُ بطول العنق
فيقولون : فلان طويل النجاد عبارة عن طُول العنق والصدر . والنجاد ، علاقة السيف
ويقولون : كأن عنقه جيد دمية وإبريق فضة .

وقال الشاعِرُ : (من بحر الوافر)

ورب أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وَجيدُ

أي فرع كَحيل وجيد طويل .

وقال الشاعر : (من بحر الطويل)

طوال النجاد طيِّبٌ حجزاتُهم يُحَيَّوْن بالريحان يوم السباسِبِ

والطلاء، بالمد والكسر: من أسماء الخمر، وبالفتح: الخلوق، والقطران أيضاً . والقينة
الأمة المغنية . ومواصلة الشيء: المواظبة عليه .

وَكأنَّهُ يقول: لا يحمي الماء الذي في أُرحام الإبل، وهو أتفه تافهٍ فضلاً عن كَرا
الأموال، إلا أن تضرب دونها أعناقَ العدوِ بالسيوف الجياد المعدات للمهوي إلى ضرب
الأجياد الرقاقِ المتون، بشرط العدلِ والتقى المعبر عنهما بقوله: (إذا لم تُواصَلْ قيْنَة وطلاء)
أي : إذا لم يواظَب على الخمر والغناء ، فإن فعل لم ينفعه سيفٌ ولاَ سنان ، كما رفع النصر عن
أهل الأندلس لما اشتغلوا بالشرب، وانهمكوا في سماع الشعر والضرب، فسلط الله عليه

بيدَهم من الروم؛ فأبَادوا خضراءهم بعد العز الباذخ والعلو الشامخ؛ فأصبحوا أحاديث بعدما كانوا وجوه النـاسِ ؛ ففيهم كَانت الفرسان والأنجاد ، والعلماء الأمجاد، والكرماء الأجواد، لأولياء الأطواد ، فصاروا كالأمسِ الذاهب ، واستوى في العبرة بهم الحاضر مع الغائب؛ فإنا ه وإنا إليه راجعون .

ومما يفتت الأكباد بكاء بعض علمائها يبكي ملة الإسلام وأهلها ، والأندلس وفلها ، لم يبق في حفظي منها إلا القليل، فمطلعها : (من بحر البسيط)

لكـل شـيء إذا مَـا تمَّ نُقصـانُ	فـلا يغـر بطيب العيش إنسـانُ
وهـذه الدار لاَ تـدوم عـلى حـال	ولاَ تبـقـي عـلى أحـدٍ لَهُ شـانُ[1]
أمـا لكـم نبـأ بـأهـل أندلسٍ	فقـد مضى بِحـديث القـوم رُكْبَانُ
مـاذا التقـاطعُ والإسـلام ملتكُمْ	وأنـتمُ يَـاعِبـادَ الله إخْـوانُ
يـا أيهـا الملك البيضـاءُ رايتُـه	أدْرِكِ بسيفك أهْلَ الكفرِ ما كانوا
يـا راكبـين جيـاد الخيـل ضـامرةً	كأنهـا في مجال السبـق عقبـان
وحـاملينَ سيـوفَ الهنـدِ مرهفـةً	كأنهـا في ظـلامِ الليـلِ شُـهبـان
تبـكي الحنيفيـةُ البيضـاءُ مِن أسفٍ	عـلى فـوارس في المـيـدان أرْكان
حتى المسـاجدُ تبكي وهي جامدةٌ	حـتى المنـابرُ تَبـكي وهي عيـدانُ
فـلو رأيت بكـاهـم عنـد بيعهـم	لهـالك الأمـرُ واستـولتْـكَ أحزانُ
وطفـلة مـا رأتهـا العـين جمالاً	كأنهـا هي يـاقـوتـة ومـرجـان[1]
يقـودهـا العـلجُ للمكـروه مكرهـة	فـالعـين بـاكيـةٌ والقـلبُ ولهـان
وفـرقـوا بـين أبنـاء ووالدةٍ	كَمـا تفـرق أرواحٌ وأبْـدَان
لمثـل هـذا يذوب القـلبُ مِن أسفٍ	إن كانَ في القـلبِ إيمانٌ وَإحْسـان
فـأين حمصٌ ومـا تحويـه مِن نـزه	ونهـرهـا العـذبُ فيـاضٌ ومـلآنُ
وأين قـرطبـةٌ دارُ العـلوم بهـا	وأين مـالقـةٌ وأين جِيـانُ

---

(١) هذا البيت هو هكذا في النسختين ، ووزنه لايستقيم ولعله :

وهـذه الدار لاتبـقـي عـلى أحـد ولا يـدوم عـلى حـال لهـا شـان

والله أعلم .

(٢) هذا البيت لايستقيم وزنُه إلا أنه بتحريف بسيط يستقيم ليصبح :

وطفـلة مـا رأت عيـني مماثـلهـا كأنمـا هي يـاقـوت ومـرجـان

ثم جعل يعدُّ مدنها ومرافقها وحصونها وحدائقها؛ إذ ليس في معمور الدنيا مثلها بهجة ولا مثل أهلها ظرفاً وفطنة ، فلما غيروا غير الله بهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الله لاَ يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له** ﴾ [الرعد: ١١] .

ويروى أن الإسكندر سأل علماء بابل أيهما أبلغ في دفع العدو عنكم الشجاعة أم العدلُ ؟ قالوا : إذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة .

ويقال : عدل السلطان أنفع مِن خصب الزمان .

وفي الحكم: إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طَاعته .

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو خراب مدينة باليمن ويسأله عما يَرمُّها(١) به ؛ فكتب إليه عمر : قد فهمت كلامك ، فإذا قرأت كتابي فحَصِّنْ مدينتك بالعدل ، ونَقِّ طرقها مِن الظلم ؛ فإنه مرمتها ، والسلام .

ويروى أن الله رخص في كل شيء إلا في ثلاثة : العدل ، والذكر ، وأداء الأمانة . فقال في العدل : ﴿ **ولايجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ [المائدة :٨] .

وقال في الذكر : ﴿ **فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم** ﴾ [النساء : ١٠٣] ولم يرخص في تركه بحال ؛ فهو ملازم للمؤمنين ملازمة الروح للبدن ، فيلقن الذكر وروحه تنتزع بين لحمه ودمه وسكرات الموت تغشاه ، بل يطالب به بعد مفارقة الروح للجسد ، فقد صار تحت أطباق الثرى ، وذلك كله عناية من الله تعالى لعبده المؤمن ؛ ليري ملائكته الذين قالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾ [البقرة : ٣٠] ملازمته ذكره ، وثباته على توحيده ، ومدافعته جنود الغواية عند النَّزع بالثبات ، وإلا لما قام بهذا الخطب الجليل وقد ثُل عرشُ حياته بحلول طود مماته ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وأما أداء الأمانة فإن الله يقول في شأنه : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ [النساء : ٥٨] . قال ﷺ : ((أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن مَن خانَكَ)) .

يُروى أن الصحابة لما فتحوا الأقاليم واستولوا على العراق وخراسان وكرمان وسجستان

---

(١) يَرمُّها : يصلحها .

رق واصطخر وفارس وبابل وما وراء النهر استغاث كسرى بخاقان بعدما خرج من جميع
لكته .

فلما جاءه رسول كِسْرَى قال له : قد علمت أن صاحبك لم يُرسلك إليَّ حتى اختبر
لك وذكَاءَكَ واختارك على جميع من معه ، ولقد بعثك في أمر عظيم نزل به ، وإني مما نزل به
ي وجل آن ينزل بي مثله ، ونصرة الملوك على الملوك واجبة ، وإني سائلك عن هؤلاء القوم
ذين استولوا على هذه الأمم العظيمة بالقهر والغلبة ، ودخول هذه المماليك الواسعة في هذه
دة القصيرة : أكثيرون هم ؟ قال: لا ، بل قليلون ؛ فقال له : فكيف عدتهم وخيولهم ؟
ـال : أما عدتهم فإن أكثرهم حُسَّرٌ أي : لادروع لهم ، ومنهم من لاسـلاح له ، قال :
حضرت قتالهم ؟ قال : حضرته مِراراً ، قال : صف لي قتالهم ، قال : إذا شدوا صدقوا ، وإذا
دنا عليهم صـبروا ، ولايكترثون بعدد ولا بِعُدَد ، يذكرون ربهم على كل حالة ، ويتلون
ـابهم في غمرات القتـال ، لايغدرون ولاينقضـون ، صفوفهم في صـلاتهم كصفوفهم في
تالهم ، رهبـان بالليـل أسد بالنهار ، وكلمتهم واحدة ، وأمرهم سواء لايتكبر شريفهم على
شروفهم ، ولايحيف قويهم على ضعيفهم ، ولو سرق أميرهم قطعوه، ولو زنى لرجموه. ثم قال
: أيحرِّمون شيئاً ثم يأتونه ؟ قال : لا ، إذا حرَّموا شيئاً اجتنبوه ، فقال له الخاقان : أما هؤلاء
يس لأحد بهم قبل ، ولو حاولوا زوال جبل لأزالوه مالم يغيرّهم الدهر ، ولكن ارجع إلى
صاحبك ، وأخبره بأني ممده بالجنود بعد الجنود ، مع أني أعلم أني لاأغني عنه شيئاً ، وإني
خـافهـم على ماتحت قدمي ، ولكني أغيثك إذْ استغثت بي ، والقوم قد حصنوا أنفسهـم
تمسك بدينهم ، فلن يُغْلبوا ماتمسكوا به ، ولاحيلة لأحد في قهرهم ؛ لأني سألتك : هل كانوا
ذي عدد ؟ وَذكرت مِن قلتهم ، فلو كانوا قد غلبوكم بالعدد غلبنَاهم بهِ حتى نظهر عليهم أو
غدر في أمرهم ، ولو كانوا قد غلبوكم بتضاعفِ العدد لفتحنا خزائننا حتى لايقاومنا في ذَلك
حدٌ ؛ فنحن الملوك وأربابُ الحصون وأهل الحلقة والسلاح والبيض والنطاح .

ثم أخذ في الأهبة والتهيؤ والتسيير ، ثم قال له : ارجع إلى صاحبك ، وأخبره أن موعدنا
جلوْلاء ؛ فرجع إليه وقد رأى من العساكر مالا قبل لأحد به إلا الله تعالى .

فلمـا أتاه رسـوله حشد فارس ومن تجمع إليه من أهل الجبال (وما أمدته به أطراف
روم) . وقصد جلولاء على ميعاد خاقان .

وبلغ الخبرُ الصحابة برجوع كسرى وإمداد خَاقان ؛ فاجتمعوا وتأهبوا للقاء مع قلتهم

وقد أرسـلوا يزيد إلى عمر رضي الله عنه ليخبره بما توجه إليهم من أمداد خَاقان ، ورجوع

كسرى بعد الهزيمة ، وانضواء فارس إليه وأهل الجبال ، وما أمدت به أطراف الروم ، وقد أقبل

معهم على الصعب والذلول .

فلما بلغ ذلك أهل المدينة جعلوا كلما صـلُّوا يرفعون أيديهم بالضراعة إلى الله تعالى

يستنصرونه لأصحاب رسول الله ﷺ .

ثم إن جنود خَاقان سبقت جنود كسرى ، فعسكرت بين البحر وجلولاء .

وكَان مِن عادتهم إذا أرادوا السير إلى أحد أن يقدموا ثلاثة مِن أشرافهم مع كل واحد

منهم دُفّ ، ويتفاوتون على قدر شرفهم ، فيأتي الأول ويضرب دفه ضربات ، ثم يقف على ربوة

مشرفة ، ثم يأتي الثاني فيفعل مثل ذلك ، ثم يأتي الثالث فيفعل مثل ذلك ، ثم يأتي العسكر بعد

ذلك فيسيرون إلى عدوهم .

وكان في عسكر المسلمين الأحنف بن قيس وقد بلغهُ ذَلك مِن عادتهم ، فذهب وحده

بليل يرصد الفَوارس ليقتلهم ، فلما ضَرب الأول دفه حمل عليه الأحنف فتطاعنا ، فلم يلبث

أن قتله ، فغيَّب فرسه . وأخذ دفه بيده ، ثم قام مكانه حتى أقبل الثاني ، فحمل عليه ، فلم

يلبث كذلك أن قتـله ، ثم جاء الثـالث ، ففعـل به مثل مافعل بصـاحبيه ، فأخذ خيولهم

وأسلحتهم ، وكسر الدفوف وشققها ، وغَادر كل واحد عند رأس صاحبه .

فأقبلت عسـاكر العجم بغلس ، فلم يفاجئهم إلا أصحابهم وهم بالدماء مضرجون

ودفُوفهم عند رؤوسهم مخرقة ؛ فذعروا وتشاءموا ، فبعثوا فَوارسَ منهم لتقتص الأثر ، فوجدوا

فارساً واحداً ، فازدادوا رُعباً لذلك ؛ فرجعوا إلى خاقان وأخبروه بما رأوا ، فأمرهم بالانْصراف

فقال لهم : هذا مالم يقع قط ، فأمرهم بالانصراف ، فانصرفوا راجعين .

فقـال له بعض وزرائه : أترجع من غير قتال ؟ قال له : السـلامة ظفر ، فإن القوم

مصنوع لهم ، تقاتل معهم الملائكة ، وينْصرهم إله السماء ، وقد علمتم من قول صاحب فارس

أن لاقبـل لنـا بهم . وقد بلغني أن نبيهم أمرهم بترك الترك ، فقـال لهم : ((اتركوا الترك

ماتركوكم[1])) . ولن يغلبوا ماتحصنوا بدينهم وأقاموا شريعتهم .

---

(١) حديث : «اتركوا الترك ... الخ» ضعيف جداً أورده ابن الجوزي في موضوعاته ، وقال : موضوع ع

فبعدما انصرف خاقان بيوم أقبل كسرى في عساكره من فارس والروم وأُهل الجبال ، وأمر الأحنف الصحابة بالمسير إليهم ليلاً ، وأن يجعل كل واحد منهم على سنان رمحه شعلة نار ومصباحاً ؛ ففعلوا ، فلما دنوا من عساكر كسرى ورأوا ما دبَّر لهم الأحنف ظنّوا أنها عساكر الجن ؛ فذعروا ، فوطىء الصحابة أكنافهم يقتلون ويأسرون ، وانحاز كسرى إلى ديْر خراب ، فرآه بعض فارس ممن عاهد المسلمين وعاقدهم ، فقتله ، واجتز رأسه ، وأتى به أمير العسكر ؛ فسجد لله شكراً ، وظهر مصداق قول رسول الله ﷺ : ((إذا مات كسرى فلا كسرى بعده[1])) .

فالبيت مقتبس من حديث قدسي يرويه ﷺ عن ربه : ((إذا عصَاني مَن يعرفني سلَّطت عليه مَن لايعرفني)) .

يروى أن الله تعالى لما سلط بختنصر وأهل بابل على بني إسرائيل ، فجاسوا خلال الديار ، فقتلوا ، وسبوا ، ودمروا ، وخربوا بَيْتَ المقدس ، وردموه بالتراب ، وحرقوا أستاره ؛ فقال أرمياء : يارب لِمَ سلطت علينا بختنصر وجنوده وقد قابلت بين ذنوب أعصانا لك وأطوعهم ، وأقلهم معصية لك أكثر ذنوباً من أعظمنا جُرْماً ؟

فأوحىَ الله إليه أنَّ بني إسرائيل عصوني وهم يعرفون جلالي ؛ فضربتهم بسوطٍ من سياطي وهم كفرة بابل ، فأنتقم منهم ، ثم أنتقم بهم ، يَاأرمياء ، كيف أنصر قوماً أتودد إليهم بالنعماء والإحسان ويقابلونني بالذنب والعصيان ؟! أنصرُ عبدي مَا أطاعني واستنصرني وَخضع لجلالي ، فإذا طغى وبغى ونسب إلى نفسه ماهو مني إليه سلبت منه أمْداد نصرتي ،

أحمد بن محمد بن الأزهر وسلمة بن حفص ، وعنه صاحب تنزيه الشريعة ، وقال : تعقب بأن ابن الأزهر ـــ وهو المتهم ـــ تابعه إسحاق ابن أيوب الواسطي ، أخرجه أبو الشيخ ؛ فزالت تهمته (٢/٣٢) .

والحديث رواه الطبراني وعنه السيوطي في جامعه تحت رقم ١١٠ ولم يرمز له ، وفيه زيادة على رواية الشيخ .

قال المناوي : قال الهيثمي : فيه مروان بن سالم متروك ، وذكره في موضع آخر وقال : فيه عثمان بن يحيى الفرقابي لم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح . وقال السمهودي : المقال إنما هو في سند الكبير ، أما الأوسط والصغير فإسنادهما حسن ؛ إلى أن قال : وكيفما كان لم يصب ابن الجوزي حيث حكم بوضعه ، والله أعلم .

(١) حديث : «إذا مات كسرى ... الخ» متفق على صحته ، اخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس وكتاب علامات النبوة ، ومسلم في كتاب العين ، ولفظ البخاري : «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتُنفِقُنَّ كنوزهما في سبيل الله» ، والله أعلم .

ونزعت عنه جلباب نعمتي ، وضربته بسوط نقمتي ، فأنا القاهر فوق عبادي ، أعزُّ مَن شئت بطاعتي ، وأذلُّ مَن خذلت بمعصيتي .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٤٠ ــ وَصَوْنَ الْخُطَى عَنْ ذي الخِطَاءِ الْتَزِمْ وَهَبْ
صُــفَــاكَ لِمُــهْــدى مَنْ لَدَيْــهِ صِــفَــاءُ

قوله : الخُطى ، بـالضم والقصر : جمع خُطـوة ، وهو مـابين القدمين في التخطي ، والخِطاء ، بالكسر والمد : الأثر وصوته أو خشخشة الماشي. والصُّفى ، بالضم والقصر : جمع صَفْوة ، وهي خيار كل شيء .

قال الله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ [آل عمران : ٣٣] أي : اختارهم واصطفاهم ، وإنما ذُكِرَ آدمُ ونوحُ فقط دون ذكر مابينهما لأن الرسالة والنبوة لم تكثر فيا بينهما ، أما آدم عليه السلام فلم ينبأ من بنيه سوى أخنوخ وهو إدريس ، وأما شيث فإنما هو وصي آدم عليه السلام ووارث علمه ، وكان رجلاً صالحاً في أمة مؤمنة ، وكان له خمسة من البنين كلهم صلحاء ، وهم : وُد وسواعٌ ويغوث ويعوق ونسر ، وكانوا علمـاء ، وكانت بنو آدم تأتيهم من الأقاليم لأخذ العلوم عليهم ونشر التوحيد وطلب الزيارة ، إلا ماكان من بني قابيل فإنهم اعتزلوا بقعر عدن ، فلما مات هؤلاء الصلحاء عبدوا النـار ، وذلك أول منشـأ دين المجوسية ، فغزوهم فأبادوهم قتلاً ، إلا من فاتهم منهم فتمنع برؤوس شواهق الجبال .

وكان إذ ذاك لكـل إنســان خليـل من المـلائكة يأتيه جهاراً ، ولايزال يعلِّمه العلم والحكمة ، ويريه مطالع البروج والمنازل ، ويعظه ، ويخبره بما حدث في الجنة من النعيم . ويبشره بمنزله فيها ، فإذا كان وقت العصر صعدت الملائكة إلى السماء ليعبدوا الله فيها .

فلما ذهب ذلك القرن الصالح وطال الأمد أتاهم إبليس في صورة حكيم وقد اجتمعوا عند قبور الصــالحين الخمســة ، فقـال لهم : إنكم تأتون من شقة بعيدة وقد مات هؤلاء الصلحاء ، الذين كنتم تأخذون منهم العلم ، فإنكم اليوم لاتأتونهم إلا لمجرد الزيارة والتبرك ، فهلمَّ أصوِّر لكم صورهم كأنكم تنظرون إليهم ، فيذهب كل إقليم بصورة ؛ فتستريحون من التعب ومعاناة الأسفار وقطع الشقة البعيدة ، ويحصل لكم ماتريدون ، فأجابوه إلى ذلك ، فصنع تلك الصور ، وسمى كل صورة باسم صاحبها .

فلما فني ذلك القرن جعلت الشياطين تخاطبهم في أجواف تلك الصور فيقولون لهم : إنما كان آباؤكم الآقدمون يعبدوننا ونحن آلهتهم ، فأصفقت[1] حينئذ بنو آدم على عبادة الأصنام ، وذلك أول ماعبدت ؛ فاعتزلتهم الملائكة والتزمتهم الشياطين ؛ فصاروا يعلمونهم السحر والغناء والشعر والمزامير والرقص والنياحة والسرقة والغَصْب والتعدي وغير ذلك من أنواع المعاصي .

فبعث الله إدريس عليه السلام ، فجعل يدعوهم سرّاً خوفاً من أن يصيبوه بالسحر ، فأنزل الله عليه الأربعين المقدسة التي يقال لها الآن : الإدريسية ، وعلمه الخياطة ، وهو أول من خاط ، وكان لايفتر عن ذكر الله حتى قيل : إنه ليدخل الإبرة بالذكر ويخرجها به ، وكان يقوم الليل كله ، ويصوم الدهر جميعه ، وكان يصعد له من العمل الصالح مايصعد لجميع أهل الأرض ، وكان يكسو من أسلم مخيط الثياب ، ويفطر (على الريق) من عمل يده ؛ فآتاه الله علم الأفلاك والتنجيم والخط في مقابلة ماكانت تتعلم الكفرة من السحر وأكاذيب علم الغيب والشعوذة ؛ فغلبهم بذلك معجزة له وتأييداً عليهم .

فلما رفع ارتد كثير ممن آمن به واتّبعه ، وبقيت صحفه بيد بنيه ، فتغلب الفساد ، وشاع العناد ، وعبدت من دون الله الأنداد . وسد مابين السماء والأرض السواد ، مما اجترحه من الذنوب والمعاصي العباد . فشكت إلى الله من كثرة ذنوب بني آدم الأرض والأشجار والأطواد ، فتصلبت الحجارة ومرت وشاكت الأشجار[2] ، فذلك أول ماظهرت المرارة والشوك .

فلما رأت الملائكة ذلك طعنت على بني آدم ، فقال الله تبارك وتعالى : ولا تطعنوا على بني آدم ؛ فإنهم صفوتي من خلقي ، لو أني ركبت فيكم ماركبت فيهم من الشهوات والأغراض لكنتم أكثر منهم مخالفة ، فاختاروا ثلاثة منكم ، فلينزلوا إلى الأرض ، فأركب فيهم ماركبت في بني آدم من الشهوات والأغراض وضروريات الطبع ؛ فاختاروا هاروت وماروت وعزرائيل ، فأما عزرائيل فإنه لما أحس بما ركب فيه من الطبع والشهوة استقال الله ؛ فأقاله . وأما هاروت وماروت فأنزلهما الله إلى الأرض على صور بني آدم ، وركب فيهما ماركب في بني آدم ، ولم يحرم عليهما إلا الشرك وقتل النفس والزنى وشرب الخمر ، وكانا يقضيان بين الناس النهار كله ، فإذا كان الليل ذكرا اسماً من أسماء الله وصعدا إلى السماء فيبيتان يعبدان الله ، حتى إذا أصبحا

---

(١) أصفقت بنو آدم : أي اجتمعوا على عبادة الأصنام .
(٢) مرت وشاكت : أي صارت مرة ونبت فيها الشوك .

يرجعان إلى الأرض ، فيحكمان بين الناس ، فلم تمض عليهما أربعة أشهر حتى افتتنا بالزهرة وهي امرأة من بنات الملوك ، وقد تحاكمت إليهما مع زوجها ، فغلَّباها عليه شغفاً بها واتباع للهوى ، فوقعا في جميع مانهاهما الله عنه ؛ فسجدا للصنم ، وقتلا النفس ، وزنيا ، وشربا فمسخت هي كوكباً ، وهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا فهما معلقان في بئر منكسان مغللان ، يعذبان بالجوع والعطش ، وقد وكل الله بهم ملائكة من زبانية العذاب يضربونهما بسياط من نار إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة غفر لهما فقيل : يدخلان الجنة مع بني آدم مكان ماعذبا ، ولِمَا ركب فيهما مما يقتضي ذلك ، وهو الأولى . وقيل : يرجعان إلى ماعليه جنسهما من الملائكة ، فيكون التسبيح والتقديس قوتهما[1] .

فبعث الله نوحاً ، وكان من أمره ماقص الله في كتابه ، وكان له من البنين أربعة : سام وهو أفضلهم ، وحام / ويافث ، وكنعان .

فمن ذرية سام جميع الأنبياء والمرسلين ، وهو أبو العرب والروم وفارس وبني إسرائيل .

فتنبأ من أبناء نوح عليه السلام : هود وصالح وشعيب ولوط وعلقمة بن صفوان وأربعة عشر نبياً أرسلهم الله إلى أصحاب الرس فلم يسلموا . وأكثر الأنبياء كان من بني إسرائيل .

وجملة الأنبياء والمرسلين مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، وعدد المرسلين ثلاثمائة وثلاثة عشر على المختار المرتضى ، وأولو العزم خمسة على المشهور : محمد ﷺ ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى . وقيل تسعة ، فيكون منهم : داود وسليمان وهود وصالح . وزاد بعضهم إسماعيل لصبره على الذبح .

وأما حام فهو أبو القبط والحبشة والزنج والزط والنوبة والهند وجميع أنواع السودان .

وأما يافث فهو أبو الترك والخزر والصقالبة والروس والتتار ويأجوج ومأجوج .

---

(١) هذا الكلام المتقدم عن الملكين ، واختيار الملائكة لهما ، وأن الشهوة ركبت فيهما ، وأنهما عملا كل شيء من المحرمات . وانهما الآن يعذبان الخ ، لايصح منه شيء ، قال القرطبي رحمه الله بعد أن أورد القصة : هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، ولايصح منه شيء ؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه (٢/٥٢) قرطبي .

وأما كنعان فإن نسله قد انقرض ، وقيل : ترك ولداً أسلم مع نوح ، ومن ولده كانت العمالقة والديلم والأكراد والبرابرة .

قوله : والصفاء ، بالكسر والمد : المصافاة . ومهدى ، بضم الميم : السيد ، اسم مفعول من أهدى إليك هدية . والصفاء : نائب عن الفاعل .

فكأنه يقول : احفظ خطاك من السعي بها إلى الإثم والمأثم ، بل وعن صاحب الإثم ، والتزم ذلك ، وأهلك خيار ماعندك بلا عوض ، وهو أصل عظيم من أصول الدين ، قال الله تعالى : ﴿ **ونكتب ماقدموا وآثارهم** ﴾ [يس : ١٢] فجعل الآثار في مقابلة جميع أفعال البدن ؛ لأنها الواسطة والسبب الموصل إلى ذلك ؛ ولذلك سميت جميع الأعمال بالسعي لأنه معظمها والسبب في تحصيلها ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها** ﴾ [الإسراء : ١٩] ، أي : عمل الأعمال التي تقضي تحصيل الثواب والنجاة من أليم العذاب بالامتثال والاجتناب .

قال ﷺ : ((من اغبرت قدماه في سبيل الله دخل الجنة[1])) .

وقال أيضاً : ((مامن عبد مؤمن يخرج من بيته إلى مسجد من مساجد الله لايخرجه إلا الصلاة واحتساب الأجر إلا رفع له بكل خطوة يخطوها درجة في الجنة ، وكتبت له بها حسنة ، وحطت عنه بها سيئة . وكان كالمجاهد في سبيل الله)) .

ويروى أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال له : أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : ((تكثير الخطى إلى المساجد ، والصلاة في الجماعة ، وإسباغ الوضوء في المكاره ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، ثلاث مرات ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط[2])) .

وقال ﷺ : «بشِّر المشَّائين في الظلمات إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[3] .

وقال أيضاً لوفد قدموا من اليمن لَمَّا قالوا له : أتيناك يارسول الله رغبة لارهبة من غير أن

---

(١) حديث «من اغبرت قدماه الخ» صحيح أخرجه البخاري والترمذي والنسائي ، ولفظه عند البخاري : «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار» وهو عنده في كتاب الجمعه .

(٢) حديث «أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى .. الخ» صحيح رواه مسلم . وأوله عنده : «ألا أدلكم على مايمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ... الخ» (٢/٢٥١) .

(٣) حديث: «بشر المشائين... الخ» صحيح رواه الترمذي وأبو داود (٢٤٣/١) و (٥٦١) .

تبعث إلينا بعثاً ولا رسولاً ، ولله المنة ولرسوله علينا ، فقال : «أما إنكم لم يصبكم ظم
ولامخمصة ، ولم تقطعوا وادياً ولاجبلاً ، إلا كتب لكم بذلك عمل صالح ، وما خطا أحدٌ
خطوة إلا رفعت له بها في الجنة درجة وحطت عنه بها سيئة وكتبت له بها حسنة ، فلم
أتيتموني خرجتم من ذنوبكم كيوم ولدتكم أمهاتكم » .

وكان بعض السلف لاينتعلون في ذهابهم إلى المساجد وزيارة الإخوان في الله وعياد
المرضى وتشييع الجنائز والمشي في حوائج الأرامل عملاً بقول رسول الله ﷺ : «من اغبرّت
قدماه في سبيل الله دخل الجنة» . وفي رواية : «لم تمسه النار إلا تحلة القسم» وفي رواية : «غفر
له» .

ويروى أن الحسن رضي الله عنه حج أربعين حجة والنجائب تقاد معه وهو يسعى على
رجليه . فتارة يمشي حافياً فإذا أدلقه ألم الحر انتعل رغبة في الأجر .

وحجَّ الرشيد بعد قتله البرامكة حجات ماشياً ، وهو خليفة الوقت ، رغبة في الأجر
وإظهاراً للضراعة مع الإقلاع والتوبة ، وكان يصلي كل ليلة مائة ركعة ، ويتصدق كل يوم بمائة
دينار من خالص ماله الذي لم تخالطه شبهة ولاشوب حرام . فكان ذلك دأبه حتى مات رحمه
الله .

وقيل : الآثار عبارة عن الآجال ، والأول أولى وأقرب إلى معنى التنزيل وأكثر أدلة
وقيل : المراد بقوله : (وآثارهم) أي : ونكتب ماسنوا من سنة حسنة وسيئة .

وعن جرير بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : ((من سَنَّ في الإسلام سنة
حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه
وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)) . وفي رواية : ((من غير أن ينقص من أوزارهم
شيئاً[1])) .

وهذه الآثار هي الآثار المجازية العلمية ، فكأنه ترك في الإسلام أثراً يقتفى ويتبع فيه كما
يقتفى ، آثار القدم حقيقة .

عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة ، فأرادوا النقلة إلى قرب
المسجد ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **إنا نحن نحي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم** ﴾ [يس :

---

(١) حديث «من سن في الإسلام سنة حسنة ... الخ» صحيح رواه مسلم واحمد والنسائي ، وله ألفاظ
كثيرة ، والله أعلم .

١٢] ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «إن آثاركم تكتب» ؛ فلم ينتقلوا . أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . وأخرجه البخاري عن أنس قال : أراد بنو سلمة أن يتحوّلوا إلى قرب المسجد ، فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة ؛ فقال : يابني سلمة ، ألا تحتسبون آثاركم ؟ فأقاموا . قوله : تعرى : يعني : تخلى فتترك عارية ، وهو الفضاء من الأرض الخالي الذي لايستره شيء .

وأخرج مسلم عن جابر قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد ، فبلغ ذلك النبي ﷺ . فقال لهم : بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ؟ قالوا : نعم يارسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال : بني سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، فقالوا : ماكان يسرنا أنا كنا تحولنا بعد[1] .

قوله : بني سلمة : أي يابني سلمة . وقوله : دياركم : أي : الزموا دياركم .

وأخرج الترمذي في الألقاب عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ((أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى ، والذي ينتظر الصلاة حتى يصلي مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام)) .

قوله : وهب : أي التزم ذلك ، ومَلِّك خيار ماعندك بلا عوض شخصاً أهدى إليك على وجه المصافاة لاجَرَّاء البذل والمكافأة .

قال الرسول ﷺ : ((من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ولو بالدعاء[2])) .

بل من الواجب في حق الفتوة أن تصل من صافاك وأحبك مجاناً . قال الشاعر : من بحر الطويل :

لمن تجمع الدنيا إذا لم تُرِدْ بها	سرور محب أو إساءة مجرم

وقال غيره : (من بحر البسيط)

ومَن أطاعَك فانفعه بطاعته	كما أطاعك وادْلُلْه على الرشدِ
ومن عصاك فعاقبه معاقبة	تنهى الظلومَ ولاتقعد على الضمد

---

(١) حديث «يابني سلمة ... الخ» متفق على صحته رواه الشيخان ، وهذا لفظ مسلم (٢/١٣١) .

(٢) حديث «من أسدى إليكم معروفاً .. الخ» صحيح رواه أبو داود والنسائي بلفظ : «من صنع» وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٣٦٨ بلفظ الشيخ إلا أنه قال في آخره : «فإن لم تسطيعوا فادعوا له» بدل «ولو بالدعاء» والله أعلم .

ومن شيم الكرام المكافأة على الهمة بدون العطية والشكر عليها .

يروى أن بعض الفضلاء دخل على المنصور ، فأقبل عليه ثم قال له : ياأبا فلان ، لقد هممت بوصلتك مراراً فتدافع الأمر فلم يقدر الله شيئاً من ذلك ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، من لم يشكر على الهمة لم يشكر على العطية ، وإن شئت أنشدتك من ذلك مابلغني ، فقال له : افعل فقال : (من بحر البسيط)

لأشكرنك معروفاً هممت به إن اهتمامك بالمعروف معروف

ولاألومك إن لم يمضه قدرٌ فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

فاستحسنها المنصور حتى كتبها بيده ، ثم خلع عليه ، وأمر له بصلة سنية ، فانصرف .

ثم قال رحمه الله :

١٤١ـ وَسَامِ السُّهَى وَاحْمِلْ سِهاءً عَلَى سُرىً تُخَالُ بِطِيَّاتٍ لَدَيْهِ سِرَاءُ

قوله : (وسَامِ السُّهى) : المساماة : المباراة والمفاخرة ، تقول : ساميت الرجل : إذا طاولته في المجد والعلا . والسُّهى ، بالضم والقصر : نجم خفي يختبر الناس به أبصارهم بإزاءِ بنات نعشٍ ، وكثيراً ماتضرب العرب به الأمثال ، كما قال الشاعر : (من بحر الطويل)

فإن أخا دنياك أعمى يرى السُّهَى سميع بصيرٌ جاهلٌ يترقب

وقال غيره من المتأخرين : (من بحر الوافر)

عليك تحية من خل صدق حبيب غابط منك السريرهْ

جزاك الله عنا أي خير لحلك للعويصات العسيره

سعيت لها على التحقيق حتى تركت سَهِيها[1] شمساً منيرهْ

فمن تكُ أرضه منَّا سباخاً بقوا جدبا مَعَ السُّحب الغزيرهْ

ومن يك مُنبتاً قد آض روضاً وجاوز في مراتبه نظيرهْ

وقال المتنبي :[2] (من بحر الطويل)

فوا أسفاً كم يدَّعي الفضل ناقصٌ ووا أسفاً كم يَدَّعي النقص فاضلُ

وقال السُّهى للشمس أنت خفيةٌ وقال الدُّجى ياصبحُ لونُكَ حائلُ

وطاولت الأرضُ السماءَ تفاخُراً وطاولت الشهبَ الحصى والجنادلُ

فقلت لدنيا إنَّ عيشَك باطلٌ وقلت لنفسي إنَّ دهرك هازلُ

---

(١) السهي : الليل أو قطعة منه

(٢) هذه الأبيات ليست للمتنبي وإنما هي من شعر ابي العلاء المعري .

والسِهاء ، بالكسر والمد ، جمع سهوة ، بالفتح ، وهي الناقة الرقيقة للسير والحمل فلا
كلفها السير وحمله عليها . والسهواء : بين السهاوة ، وتقول : نَاقة سهواء : إذا كانت وطيَّة لينة
سير غير قطوف . والسهاوة : مصدر سهت الناقة سهوة وإسهاء أو سهاوة فهي سهواء وسهوانة
ى وزن سلوانة . والسُّرى ، بالضم والقصر : سير الليل . والسِّراء ، بالمد والكسر : جمع
روة ، مثلثة السين ، كَما في القاموس : السهم الصغير القصير ، أو عريض النصل طويله .
خال ، بضم التاء : مضارع خال أي : ظن ، مبني لما لم يسم فاعله ، مسند للمفعول الثاني
و سراء : فلأجل ذَلِك رفع .

فكَأنه يقول : اربأ بنفسك عَن سفسافِ الأمور ، واجنح إلى معاليها حتى تكون في
سمو نظير السُّهى الذي هو أشد الكواكب خفاءً من أجل ارتفاعه في الأفلاكِ ، فالأمر
ساماة السهى أي : مغالبتها في السموِ ، تمثيل لما ذكرناهُ ، واستعمل أيضاً السير في الليل
وق السهلة السير ، واحملها على ذلك حتى تضمر وتظن بطاناتها مع ضخامة أجسامها شبهاً
دة نحافتها وفرط ضمورها بالسُرى سهاماً حنايا ؛ فإن في الحركة ـــ كما قيل ـــ بركة أي :
ة في الجسم بما يعيده السير من صحته ، لخروج فضلاته ، وتحلل مواده التي تسترخيه وتذبله
يده غَرضاً لِلْمرَضِ ، وفيه أيضاً البركة في العلم بما يستفيده المسافر برؤية ما لم يره في الإقامة
الأشجار والأنهار والجبال والبحار وغير ذلك ؛ مما يقوي علمه بأن الله على كل شيء قدير ،
الفعال لِمَا يريدُ ، وأنه بكل شيء عليم ، وأنه الحي القيوم . وفيه أيضاً البركة بالتخلق بما
سه المسافر مما يلقاه من أهل الفضل وذوي النفوس الزكية ؛ لأنَّ الطباع ـــ كَمَا قيل ـــ
ق مِن الطباع . وفيه أيضا البركة المطوية في الذكَاء والفطنة ؛ فإنَّ مايراه مما ذكرنا ، وما
به مِن المياه المختلفة الطعم ، ومايلهم به مِن الهواء المختلف باختلافِ ما جاوره مِن رطب
س وحجر وماءٍ ، كله مُوقد لنار فطنته ، ومنبه لذكائه مِن نومته ، إلى غير ذَلك من بركاتِ
كَات ، ولو لم يكن فيها مِن الفوائد إلا أنّ فراق الوطن والاعتياد به يسهل له مِن نفسه فراق
الدنيا لكَان كَافياً ، فكيف وفيه أنه يُعَرّف بقدر نعمة الراحة الكائنةِ في الإقامة مِن المأكل
رب والملبس والمنكح مثلاً ؛ فيعظم قدرها عنده ، والاعتراف بِهَا ، والتحدث عنها . وكُل
نعم جليلة ، وشكر جليل يقتضي المزيد فهذهِ أيضاً بركة في الشكر ، وبركة في النعم .

ومِن فوائد السفر العظيمة أن يذكر عذاب الآخرة كَمَا في الحديث المشهور مِن قوله

ﷺ : ((السفر قطعة مِن العذاب[1])) . وقالت عائشة رضي الله عنها : لولاَ أن أزيد ع
رسول الله ﷺ لقلت : العذاب قطعة مِنَ السفر .

فيحذر منه ، ويتعوذ بالله مِن شره ، فيعمل على حسب النجاة منه . فيكون مِن مفات
السعادة ، ويرجع هذا إلى البركَةِ في العمر ؛ لأنها عندهم بكثرة الأمداد لا بكثرة الآما
فكم من أمدٍ طويل قلت أمداده ؛ فلا بركة لعمرِ صاحبه ، ورب أمد قصير كثرت إمداداته
فبورك لصاحبه ؛ والبركة في العمر والبركة في العَمل هُمَا شيءٌ وَاحِدٌ .

كَما روي أن ذا القرنين الذي ذكر الله في كتابه ملك جميع المعمور ، وأدرك ماأد
مِن العلوم والحكمة ، حتى صار الخضر عليه السلام وزيره* ، توفي وهو ابن ثلاثين سنة .

ولما مات النبي ﷺ جعل عمر يبكيه ويقول : بأبي أنت وأمي يارسول الله أدركت
قليل مدتك ما لم يدركه نوح عليه السلام في طول مدته ؛ فآمن بك الكثير وما آمن به
القليل . جعلنا الله ممن بارك الله علمه وعمله وعمره آمين . ثم قال رحمه الله تعالى :

١٤٢ــ وَحَاذِرْ ظُبًى عِندَ الظِّبَاءِ فلَنْ تَرَى   دُمىً فَتَكَتْ إلاَّ تُطَلُّ دِمَاءُ

قوله : وحَاذر : فعلُ أمر مِن حذِر ، بالكسر ، والمحاذرة مفاعلة مِن الحذر ، بالكسر
والحَذَر ، بالتحريك ، والاحتذار ، والمحذرة ، جميع ذلك مِن الاحتذار، فهو حاذر وَحذر
وَحذرون ، يجمع على حَذارَى أي متيقظ شديد الحذْر ، بكسر الحاء وَسكون الذ
المعجمة . قال الله تعالى : ﴿ **خذوا حِذْركم** ﴾ [النساء : ٧١] . والظُّبى ، بالقصر والضم
جمع ظُبَة ، بالظاء المشالة وفتح الباء مخففة بوزن ثبة : وهو حدُّ السيف أو السيف نفسه
والظباء ، بالكسر والمد : جمع ظبي . والدُّمى ، بالقصر والضم : جمع دمية ، وهي صورة
الرخَام أو المرمر . قال الشاعر : (من بحر الطويل)

كأن دمى شغف على ظَهر مرمرٍ   كَسَا مُربدَ الساجوم وشياً مصوراً

ويعبر بها عن النساء وهو المراد هنا . يقال : طُلَّ دَمٌ ، بالبناء لما لم يسم فاعله : أي
يقتل قاتله ولا أخذت فيه دِيَة ، ومثله هُدر وَسُفح وبطل ، وناحَ عليه الذئب ، ولم ينتطح

(١) حديث : «السفر قطعة من العذاب» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والثلاثة د
أبي داود . وهو عند البخاري في كتاب الحج ، ولفظه : «السفر قطعة من العذاب ؛ يمنع أحدكم طعامه وش
ونومه ، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله» ، والله أعلم .

* لم يكن الخضر عليه السلام وزيراً لذي القرنين ــ ولم يكونا في زمن بل ولم يثبت أنهما اجتمعا والله أعلم .

نتزان ، وكدم فعيس . والفرق بين الإهدار والطل أنَّ الإهدارَ يَكوُن القاتل فيه آمناً مِن المطالبة
لثأر ، كَإبَاحة دَم المقتول مِن جهة سلطان أو غيره . والفتك ، مثلث الفاء ، كالفتوك :
كوب مَاهم به مِن أمرٍ دعت إليه النفس مع القدرة عليه والإتيان به على وجه يُعْجَزُ عنه حتى
كون ذلك الأمر كأنه طوع يده .

وفُتَّاك العرب كثيرون ، ومن أشدهم فتكاً البراض الكناني ، وفيه يقول الشاعر : (من
ر الخفيف)

والفـــتى مَن تَعَـــارَقتْـــهُ الليـــالي   والقيـــان كالحيـــة النضنـــاضِ
كلُّ يـــوم له بصرفِ الليـــالي   فـتـكـــة مثـــل فتـكـــة البَرَّاضِ

ومنهم تأبَّطَ شراً القيسيُّ ، والشنفرى الأزدي ، وسليك المغانب التيمي .

يقال : فتك ، بالفتح ، يفتك ، بالضم والكسر ، كبتك يبتك ويبتك .

وكأنه يقول : خذ حذرك مِن ظبيٍ أي : عيون تشبه ظُبى السيوفِ بالفعل ؛ وهي
ستعارة تحقيقية . وقوله : عند الظباء صفة للظبى ، كنيَّ بتلك الظُّبى عن النساء الحسان
شبيهاتِ بالغزلان في الحسن ، فلست ترى حسناء فتكت بشخصٍ ، أي : قتلته بحبها ، إلا
قتولها لم يطلب له بثأر ولم تؤخذ فيه دية ، وهذا علة الأمر ، وبيان لعاقبة ظُبَى الظِّبَاءِ ؛ فإن
نتولها مطلول الدماء ، وهو في الحقيقة أمر بغض البصر ، والتحذير مِن غوائل النظر ، كما قال
و محمد بن عبد البرّ بن عمر : (من مجزوء الكامل)

لا تكـــثرن تـــأمُّـــلاً   واحبس عـــليـــك عنـــانك

وجملة قوله : (إلا تطل دماء) : في موضع نصب على الحال مِن فاعل فتكت ، وهو
ضمير دُمى . وتُطل بضم التاء : مبني لما لم يسم فاعله ، مرفوعُهُ : دماء ، ولايبنى للفاعل أبداً
اضيه ، وهو طُلَّ كما تقدم .

ومن مات حبّاً ووجداً مِن فتيان العرب يحتاج إلى مجلد ، منهم : نصر بن الحجاج الذي
فاه عمر رضي الله عنه مِن المدينة إلى البصرة . وذلك أن عمر رضي الله عنه كان مِن كُل ليلةٍ
طوف بالمدينة يستمع مايقال ويرى مايفعل صيانةً للدين وحياطة لجنابه ، فبينما هو في ليلة
طوف بالمدينة إذ سمع فتاة في بيتها وقد رفعت عقيرتها بهذا البيت : (من بحر البسيط)

هـــل مِن سبيـــل إلى خمر فـأشـربهـا   أم مِن سبيـــل إلى نصر بن حجـــاجِ

فحفظ عمر البيت . فلما كان مِن الغد واجتمع عليه وجوهُ الناس فقال : من المُتَمنَّى

البارحة واسمه نصر بن حجاج ؟ فقالوا : هو ياأمير المؤمنين ، فتى مِن بني سليم ، فقال : عل
به ، فلما رآه عمر بهره حسنه وجماله ؛ فقال : واللهِ لأزيلنّ جمالك ؛ فبعث إلى الحجا
فحلقه ، ثم نظر إليه بعد الحلق فإذا بحلق رأسه قد زاده حسناً وجمالاً ؛ فقال : سبحان الل
مازاده إلا حسناً وجمالاً ، فقال الفتى لعمر : لاذنب لي ، قال : صدقت ، والله لاسكنت مع
في المدينة بعدما فتنت المخدرات في حجالهِنّ ؛ فحمله ، وزوده ، ونفاه إلى البصرة .

فقدم البصرة وأميرها من قبل عمر رجل مِن بني سليم قريب النسب منه ؛ فأدناه وقرب
حتى جعل زوجته هي التي تخدمه على عادة الأعراب . فأتته يوماً بغدائه فلما وضعته كتب
بالأرضِ : إنّ بي من هواكِ مالو كان فوقي لأظلني ، أو كان تحتي لأقلني . ولقد هوته ك
هواها ، فلم تتمالك أن كتبت تحت كتابته : وأنا كذلك . فقال لهما . ماكتبت لها وماكتبت
لك ؟ فسكت الفتى وأجابته زوجته ـــ وكانت ابنة عمه ـــ قالت له : كتب لي انه قد أثم
نخيلنا ، فكتبت تحت كتابته : وأنا . فقال لها : لامناسبة بين اللفظين ؛ فإنَّ قولهَ : أثمر نخيلن
أجنبي مِن قولك : وأنا ، فكفأ على الخَط قدحاً ، ثم أرسل لمن يقرأ ؛ فأتاه ، فلما قرأ علي
الكتابة التفت على ابن عمه فقال : ارجع أدراجك فما وراءك أوسع ، مَا نفاكَ أمير المؤمنين
وفيك خيرٌ ، فأفرش له فراشاً في بيته ، وجعل يجري عليه النفقة ، فلم ينشب أن دنف وَجْد
بهَا، فمر به ابن عمه فإذا هو كفرخ الطير قد أشرف على المنية ، فرقَّ له ، وأتى زوجته سمي
وقال : أنشدك الله إلا ماذهبت إليه وضممته إلى صدرك لعله يثوب ثائبٌ مِن صحته ؛ فأتت
ووجدته لاينقلب إلا أن يقلب ، فأخذته وضمته إلى صدرها ، وأشمته قلادتها ، فقام ، وكأنم
نشط مِن عقال ، فبقي كذلك يوماً أو يومين ، ثم عاوده الكمد : فمات .

وأكثر مايكون الموت مِن العشق في بني عُذْرة من قضاعة ، وفي بني جذيمة مِن كنانة .

وحدثنا ابن أبي حَدْرَدَ الأسلمي قال : كنت في خيل خالد بن الوليد حين وجه
رسول الله ﷺ إلى دعاء كنانة إلى الإسلام وقتالها ، فظفرنا ، فلما جمعنا السبي قال لي فتى مر
بني جذيمة ، وقد جمعت يداه إلى عنقه برمةٍ[1] ، ونسوة مجتمعات غير بعيدات منه : يافتى
قلت : ماتشاء ؟ قال : هل أنت آخذ بهذه الرمةِ فقائدي إلى هذه النسوة حتى أفضي إليهن
حاجة ثم تردني بعد فتصنع بي ما بدا لكم ؟ قلت : والله ليسير ماطلبت ، فأخذت بالرم
فقدته بها حتى وقفته عليهن ، فقال : اسلمي ياحبيش على نفاد العيش :

---

(١) الرمة : القطعة من الحبل .

رَأيْتُكَ إن طَلبْتُكُمْ وَجدتكم بحلبة وألفيتكم بالخوانق[1]

ألم يك أهلاً أن تَأوَّهَ عاشقٌ تكلف إدلاجَ السرى والوَدائق

فلا ذنب لي قد قلت إنْ ذهلنا معاً أثيبي بود قبل إحدى الصفائق

أثيبي بودٍّ قبل أن يَشْحَطَ النوى وَينْأى الأمير بالحبيب المفارقِ

فقالت: (حييت سبعاً وعشراً أثراً أو ثمانياً تترى) ، قال : ثم انصرفت به ، فضربت عنقه ، فحدث مَن حضرها أنها قامت عليه حين ضُربت عنقه ، فما زالت تقبله حتى ماتت عنده .

وأخرج النسائي هذه القصة في مصنفه في باب (قتل الأسارى) مِن حديث ابن عباسٍ أنّ النبي ﷺ بعث سرية ، فغنموا ، فإذا في السبي رجلٌ ، فقال : إني لست مِن القوم ، عشقت امرأة فلحقتها ، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي مابدا لكم ، قال : فإذا امرأة طويلة أدماءُ ، قال لها : اسلمي حبيش قبل نفاد العيش ، قالت : بلى ، فديتك . فقدمُوه ، فضربوا عنقه ، فوقفت عليه ، فشهقت شهقة أو شهقتين ، ثم ماتت .

فلما قدمُوا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر ، فقال رسول الله ﷺ : ((أما كان فيكم رجل رحيم))؟!

ثم بعث إليهم عليّاً رضي الله عنه بمال ، فودى لهم الدماء ومَا أصيب مِن الأموال حتى إنه ليودي لهم ميلغة الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء مِن دَمٍ ولا مالٍ إلا وداه وبقيت معه بقية من المال ، وقال لهم حين فرغ منه : هل بقي دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإني أعطيكم هذهِ البلالة ، أي البقية ، احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لايعلم ولاتعلمون ، ففعل .

ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال : أصبت وأحسنت . ثم قال رسول الله ﷺ ، فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يده حتى إنه ليرى ماتحت منكبيه فقال : ((اللهم إني أبرأ إليك مّما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات[2])) .

---

(١) هذا البيت مختل وزنه وما بعده كذلك .

(٢) حديث : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ثلاث مرات» صحيح رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب (المغازي) ، وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل خالد بن الوليد إلى بني حذيفة فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا ، فجعل يقتل منهم ويأسر ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ؛ فقال : الحديث ، والله أعلم .

وقد قال بعض من يعذر خالداً : إنه قال : ماقتلت حتى آمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي .

قال رسول الله ﷺ : أُمرتَ أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٤٣ـ وَوَالِ الْهُدَى تُرْزَقْ هِدَاءَ كَوَاعِبٍ وُلَى نِسْوَةٍ يُصْفَى لَهُنَّ وِلاَءُ

قوله : ووال : فعل أمر من والى الأمر : إذا باشره بنفسه . الهدى : مفعوله ، وهو عكس الضلال ، والهدى هو الحق ، ويعبر به أيضاً عن الاستقامة . قال الله تعالى : ﴿ **فبهداهم اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام : ٩٠] وقال : ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ [يونس : ٣٢] وقال : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ [هود : ١١٢] وقال : ﴿ **ديناً قيماً مِلَّة إبراهيم حنيفاً** ﴾ [الأنعام : ١٦١] وقال ﷺ : ((من كان هواه تبعاً لما جئت به أو تابعاً لدينه فهو مهتدٍ ، ومن كان دينه تابعاً لهواه فهو ضال)). وفي رواية : «ناج» بدل «مهتد» و «هالك» بدل «ضال» .

والهداء بالكسر والمد : مصدر هديت العروس إلى زوجها أي : زففتها . وولى ، بالضم والقصر : جمع وُلى ، بالضم والقصر : أنثى الأَوْلى ، يقال : هو أولى بهذا ، وهم الأَوْلى والأَوْلونَ . وفي المؤنث : الوُلْيا والوُلْيَيَان والوُلَى والوُلْيَيَات كما في القاموس . ووِلاء ، بالكسر والمد : مصدر واليته ، كالموالاة ، أي : اتخذته ولياً أي : صديقاً هنا . والإصفاء : الإخلاص . والكواعب : الجواري اللاتي نهدن ، الواحدة ، كاعب ، ويقال : كعب ثدي الجارية ، بالفتح ، يكعب ويكعب ، بالكسر والضم ، كعوباً ، وكعب ثديها أيضاً تكعيباً ، فهي كاعب ، ومكعب كمحدث ، وكَعاب كسحاب . وقوله : (وُلى نسوة): مخفوض على أنه نعت كواعب ، وَجملة (يصفى لهن ولاء) : صفة للنسوة ، وهي في محل خفض .

والمعنى : تابع الهدى يرزقك الله نكاح نساء كواعب أبكار ، فتزف إلى منزلك تلك الكواعب أحق نسوة موصوفة بإخلاص الصداقة والحب لهن بذلك ؛ لكونهن عُرباً أتراباً لايبغين ببعولتهن بدلاً ، ولايلتفتن إلى غيرهم ؛ فإن موالاة الهدى أساسها لزوم التقى . قال الله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب** ﴾ [الطلاق : ٢] .

فالمغنجة والتربة والعروبة ألفاظ مترادفة بمعنى واحد ، وهي عبارة عن الحسناء الكاملة
لق . فأهل تهامة يسمونها الغنجة ، وأهل الحجاز يسمونها التربة ، وأهل العراق يسمونها
روبة . وحقيقتها البيضاء البضة الهيفاء الشكلة اللعساء الغانية وإنما عنى المؤلف هذا وكنى به
ن حور الخلد والإنسيات الأنيسات .

قال الرسول ﷺ : لو أن حوراء أبدت معصمها لأضاء له مابين الخافقين ولغطى نور
صمها نورَ الشمس والقمر ، ولبنات آدم في الجنة أشرف منهن وأتم حسناً وجمالاً . لأن
صورة البشرية أتم الصور وأشرفُها ، ولذلك خلق الله الحور على شكل بنات آدم ؛ إذ لو كان
الوجود صورة أتم من الصورة البشرية لجعل عليها الحور العين .

* * *

ثم قال رحمه الله تعالى :

باب

ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد والمعنى واحد

وهذا شروع من الناظم رحمه الله في الكلام على ماتفق في المعنى من المقصور والممد
كما في قوله رحمه الله تعالى :

١٤٤ـ سَيَفْنى الْغَمَى وَالْجَذْرُ بعدَ غِمَائِهِ ويَبْقَى الْفَدَى لَوْ يُسْتَطَاعُ فِدَاءُ

قوله : (سيفنى الغمى) يعني : أن البنيـان سيفنى ولو بعد حين ، فيسقط سقف
وحجراته ، وتتهدم وتفنى جدرانه . فالغَمَى ، بفتح الغين المعجمة والقصر : كالغِماء بالكس
والمد . ويبقى : أي يدوم . الفَدى ، بالفتح والقصر : كالفِداء ، بالكسر والمد : وهو مايُفْتد
به فيهما معاً ، وحقيقته مايفْتدى به من عذاب الله من الأعمال الصالحات لو كان مايفتدى
من ذلك مستطاع للشخص أي : تتعلق به قدرته الحادثة ؛ فلو هنا متضمنة معنى التمني ؛
حقيقة التمني أن تعلق الرجاء بمستبعد عادة أو طبعاً ؛ فأفادت بذلك أن استطاعة الفداء ؛ أي
كونه في الطوق ، متمنى ، ومن حق المتمنى أن يكون مستبعد الحصول ، ولا شك أن استطاع
الأعمال الخالصة مما يستبعد حصوله لعدم الثقة بالقبول : إما من جهة العامل ، وإما من جه
الآفات المبطلة لها كالرياء والسمعة والعجب وما في معنى ذلك ؛ لكون النفس لها فيه حظ ، أ
من جهة العامل لما يتعرض له دونها من الكسل والموانع والمبطلات الشرعية .

قال ابن عطاء الله : المعصية في المخالفات ظاهرة جلية ، وفي الطاعات كامنة خفية
فإذا كان ذلك كذلك فالاعتماد على غير فضل الله مجرد عناء من غير غناء . قال الله تعالى
﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس : ٥٨] من مال
أو عمل .

يروى أن عابداً عَبَدَ الله سبعين سنة فقال في بعض مناجاته : يارب ، ألستُ ق
استوجبتُ عليك الجنة لطول خدمتي وانقطاعي إليك ؟ فقال له : برحمتي ، فقال : رب بل
بعملي ؛ فرماه الله بصداع شغله عن كل شيء ، فقال له الله : إن عافيتك من صداعك تترك

لي ثواب أعمالك سبعين سنة ؟ قال : نعم ؛ فنودي : إذا كانت أعمال سبعين سنة تعطي في صداع فما ظنك بغير ذلك من البلايا العظام ؟ اذْهَبْ فقد رددت عليك عملك ومنحتك الجنة برحمتي .

وكان علي رحمه الله تعالى يقول : ليس العجب لمن هلك كيف هلك ، إنما العجب لمن نجا كيف نجا! .

والبيت مقتبس من قوله : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً** ﴾ [الكهف : ٤٦] ، وفيه تلميح إلى قوله ﷺ : ((كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أوموبقها[1])) أعتقنا الله بواسع فضله ، آمين .

ثم قال رحمه الله :

١٤٥ ــ وَيُنْبَذ سَهْمٌ ذُو غرىً بِغِرَائِهِ وَيَذْهَبُ وُرَّادُ الأَضَا وَإِضَاءُ

قوله : ويُنْبَذُ : أي يطرح ، والغَرى ، بالفتح والقصر ، والغراء ، بالكسر والمد : الذي يلصق به الريش على السهم . والأضا ، بالفتح والقصر ، كالإضاء ، بالمد والكسر : جمع إضاءة ، وهي الغدير . فقوله : ينبذ معطوف على قوله : سيفنى أي : سيفنى ماذكر من البنيان ويؤول أمره إلى الخراب ، وسيطرح سهم عليه ريش ملصق بغرى مع غرائه أيضاً ، أي يفنى الذين يردون الغدر من أهل البادية أهل العمود والمسافرين .

فالبيت في قوة قوله تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ [القصص : ٨٨] فلا يبقى أهل بنيان ، ولاأهل عمود ، ولاتعول على شيء من ذلك ؛ فإن النعيم يذهب كما يذهب المتنعم به ؛ فتنبذ الإضاء ووردها ، وتموتُ المرضى وعوادها ، وتضمحل الجيوش وقوادها ، وتبدل الأرض غير الأرض ، وتنسف أطوارها ، وتيبس أنهارها ، وينعدم أطوادها ، وتجف البساتين ويحول سوادها ؛ فالأحوال تحول ، والمماليك تزول ، ويخلف العز الخمول ، ويحل محل النضارة الذبول ، ويعقب الفطنة الخوف والذهول ، ويزيل البياض القحول[2] ، ويطرد نعومة البدن النحولُ ، ويبقى العز والبقاء للملك الذي لايزول ، فله الجمال والبهاء ، والمرجع والمنتهى ، وبيده مقاليد المخوف والمشتهى ، فعليه فليعتمد المعتمدون ، وإلى جنابه فليصمد الملتجئون ، وكل ماسواه باطل .

---

(١) حديث : كل الناس يغدو .. الخ» حديث صحيح ، وقد تقدم (في ص ١٦٧)
(٢) القحول : يبوسة الجلد من الكبر .

ثم قال رحمه الله :

١٤٦ــ ومَأْوَى السَّحَى فُقْدَ السَّحَاءِ خَرابُه وَكَمْ ذِي دَلاً لَمْ تُغْنِ عنـه دِلاَءُ

قوله : (ومأوى السَّحى) : يعني أن مسكن السَّحَى الذي هو الخفاش الحصون المشيدة في الخراب وانعدام ساكنها وهوانهما على الله تعالى سواء . وإنما مثل بالسَّحى دون سائر الطير لأنه أوهنها عشّاً ، وأخفها منعة ، وأقلها مؤونة ، وهو أتم الطير خلقاً مع صغر حجمه وقبح منظره ، فله أسنان دون سائر الطير ، وله ثدي كثدي المرأة ، وأجنحتها تباين أجنحة سائر الطير إذ لا ريش لها ، وفي خلقتها كأنها علم ، ومع ذلك تقدر على الطيران ، وتلازم الكهوف والبيوت الخربة والآبار المعطلة غالباً ، ومع ذلك تخالف الطير ؛ فإن سائر الطير يطير بالنهار ويسكن بالليل ، وهي تَطير بالليل وتسكن بالنهار ، وهو الذي كان عيسى بن مريم عليه السلام يخلق على هيئته ، فينفخ فيه فيصير طيراً بإذن الله ، فيطير حتى إذا توارى عن أعين الناس سقط ومات .

ويروى أنه قال : يارب ، لم أَعَشْتَ ماخلقتَ ولم تعش ماخلقت ؟ قال : ياعيسى ، خلقت خلقي وجعلته مقروناً برزقه وأجله ، وخلقت خلقك فلم أجعل له رزقاً ولا أجلاً ؛ فكيف يعيش خلق بلا رزق ولا أجل ؟! أتريد ياعيسى أن تكون شريكاً لي في ملكي تخلق كما أخلق وترزق كما أرزق ؟! ذلك مما لايكون ، إنما أظهر على يديْ من أكرمته من خلقي خارقاً فأظهره على يديه ؛ لأظهر كرامتي عليه ، وأؤيده بآثار قُدرتي ، فأنا الخالق في الحالتين ؛ فسجد لله شكراً ، وسأل منه غفراناً وستراً .

والسِّحاء بالكسر والمد : الخفاش أيضاً .

والدَّلى ، بالفتح والقصر : كالدلاء ، بالكسـر والمد : وهو في الحالتين جمع دلو وإن شئت قلت : الدَّلى ، بالفتح والقصر : جمع دلوة ، وهي الأعنـاب إذا نضجت ، فتقول : عندي دلا ودوالي ودلاء بالمد ودوالي ، كما في الصحاح : العنبة .

فكأنه يقول : إن عش الخفاش يخرب ، وخرابه بفقد الطائر الذي كان يعمره ، وكثير من صاحب دلو كان يستقي به الماء من الآبار لم تغن عنه شيئاً في نفي الفناء ؛ ففنى وبقى دلوه وراءه زماناً ، ثم فنيت ، وفي ذلك يقول المتنبي : (من بحر الكامل)

تتخـلف الآثـارُ عن أصحـابهـا حيـنـاً ويـدركهـا الفـنـاء فتتبعُ

ثم قال رحمه الله :

١٤ ــ وَذَاتَ الجَرَى لاتَفْتَتِنْ بِجِرائِها حِذَارَ الصَّــلَى لايُستطاعُ صِــلاءُ

قوله : وذات الجرى : أي صاحبة الجرى ، بالفتح والقصر : كالجراء ، بالمد والكسر : ة الجارية ، يقال : جارية بينة الجراء ، فيقصر مع الفتح ويكسر مع المد في معنى الجارية .

صلى ، بالفتح والقصر : كالصــلاء ، بالكسر والمد : وقود النار ، أو عود معوج يعرض يها ، ليَلين حتى يقوِّمه الثقَّاف ، والمراد هنا نفس النار . والافتتان : إصابةُ الفتنة ، وهي هنا عجاب بالشيء .

يروى أن النبي ﷺ أتي بخميصة ، وهي الكساء الجديد ذات الأعلام ، فلما انفتل من ـلاته ألقاها وقال : ائتوني[1] بأنبجانيـة[2] فإن هذه فتنتني في صــلاتي بحسنها ؛ فجيء نبجانية ، فلبسها ، فقال : البذاذة[3] من الإيمان[4] .

ولامنافاة بين هذا وقوله ﷺ : ((إن الله جميل يحب الجمال ؛ فتجملوا[5])) .

وقوله تعــالى : ﴿ **خذوا زينتكــم عنــد كل مسجــد** ﴾ [الأعراف : ٣١] ؛ فـإن ستعمـال البذاذة من باب التواضع لله ، والخضـوع تحت جلاله ، والتحقـير لأمر الدنيـا ، لاستغناء عن زينتها بالباقيات الصـالحات ، لأن النبي ﷺ أدرك الناس جاهلية جهلاء ؛ يرجون ثواباً ولايخافون عقاباً ، بل هممهم مقصورة على التنافس بالدنيا وزينتها ؛ فخالفهم

---

(١) حديث «أن النبي ﷺ أتي بخميصة .. الخ» متفق على صحته رواه الشيخان ، وهو عند مسلم بلفظ : ام رسول الله ﷺ يصلي في خميصـة ذات أعلام ، فنظر إلى علمها ، فلما قضى صـلاته قال : اذهبوا بهذه خميصة إلى أبي جهم ، وائتوني بانبجانية فإنها الهتني آنفاً عن صلاتي» ، وهو عند البخاري في كتاب الصلاة تاب المساجد وكتاب اللباس ، والله أعلم .

(٢) الانبجانية : كساء بلا أعلام .

(٣) البذاذة : رداءة الهيئة ..

(٤) حديث «البذاذة من الإيمان» صحيح رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وأبو داود ، وأورده السيوطي تحت م ٣١٩٦ وقال المناوي : قال العراقي في أماليه : حديث حسن ، وقال الديلمي : هو صحيح ، وقال ابن حجر حيح ، والله أعلم .

(٥) حديث «إن الله جميل يحب الجمال .. الخ» جزء من حديث صحيح رواه مسلم (١/٦٥) والترمذي لحاكم ، وأوله عند مسلم : «لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ؛ قال رجل : إن الرجل يحب أن كون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، فقاله ....» بدون «فتجملوا» والله أعلم .

بلبس الانبجانيات والمرقعات تحقيراً لما هم عليه ، وربما لبس الثياب الفاخرة لأمور منها : لق
الوفود ، والتأهب للحروب ، والجمع .

والحاصل أنها ليست من همه ، ولا مما تتعلق به همته ، لكنه كيفما وجده لبسه ، ف
يرغب عن الخشن لبذاذته ، ولا يرغب في النفيس لنفاسته ، إلا مابلغ حد السرف فيتركه و
يدانيه كالحرير البحت والخز والجوخ ، وكان لايحب الأحمر القاني .

فلما ذهب الصدر الأول واتخذ الناس التقشف زياً حباً للدنيا وانكباباً عليها انعكس
الأمر فصار المطلوب من الشرع تحسين الهيئات .

ويجب تجمل القلب بالاعتقادات الكاملة ، والظن الجميل ، والحب الخالص . وتجم
الروح باليقين الثابت ، والمعرفة التامة . وتجمل اللسان وتحسينه بالذكر والفصاحة ، والأم
بالمعروف والنهي عن المنكر . وتحسين البدن بالختان ، والإخفاض ، وحلق الشارب ، وتوف
اللحية ، وتقليم الأظافر ، وتحسين الوفرة[1] إن كانت بالدهن والخلوق والغسل والفرق[2] وإ
فالحلق .

قال أبو الحسن : الشعر على الرأس زينة ، وتركه سنة ، وحلقه بدعة .

ويروى أنه ﷺ ماحلق إلا ثلاث مرات .

وقيل : إنه ماحلق إلا في حج أو عمرة . فلما اتخذ ذلك أهل الأهواء زياً صار ترك
أولى ؛ لأن الشرائع تنتقل بانتقال الأحوال وتتغير بتغيرها :

فإن نكاح الأخت كان حلالا في عهد آدم حيث دعت الحاجة إليه ، فلما استغني ع
حرم .

ثم كان للرجل أن يتزوج ماشاء من النساء ، فلما هرمت الدنيا وضعفت حرم عل
الرجل مازاد على الأربع ، ووسع عليهم في التسري ؛ لخفة مؤونته ، ولكون ذلك أدعى إلى تم
العفاف . وأبيح نكاح المتعة صدر الإسلام لما دعت الحاجة إليه ، فلما استغني عنه حرم .

وكان الواجب على النبي ﷺ وأصحابه الصبر على أذى المشركين والإعراض عنه
حيث لايدلهم بدفعهم ، فلما طال البلاء عليهم وأدركتهم غيرة الحق بوّأ لهم محلاً يجتمعو

(١) الوفرة : ماسال من الشعر على الأذنين .

(٢) الفرق : الطريق في شعر الرأس .

ليه ، فلما اجتمعوا نسخ وجوب الكف والإعراض ، وأوجب الجهاد والغلظة على الكفار المنافقين .

ولما أتم نعمته على الأحرار بالحرية جعل حد الحر العزب مائة جلدة ، وحد العبد على نصف من ذلك لنقص نعمته بالاسترقاق .

وإذا قطعت يد المسلم كانت ديتها خمسين ناقة حيث ظلمت ، فإذا سرقت قطعت في ربع دينار .

قال الشاعر : (من بحر البسيط)

يدٌ بخمسمائين عسجداً وُدِيَتْ ... ما بالها قُطِعَتْ في رُبع دينار

فأجابه آخر بقوله :

هناك إذ ظُلِمَتْ فاعتز جانبها ... هنا لما ظلَمَتْ هانت على الباري

والكذب حرام إجماعا ، فإذا تعينت فيه المصلحة الدينية وجب ، وقد قسَّمه الفقهاء على أقسام الشرع الخمسة ، فنظم ذلك بعض الأدباء فقال : (من بحر الرجز)

للخمسة الأقسام قسموا الكذب ... فمنه منْدوب ومنه مايجب

واجبه لفك مال مسلم ... أو مال نفسه حقيق في الدم

مندوبه للحرب والإرهاب ... لكافر يخدع بالكِذاب

مباحه ياصاح للإصلاح ... بين الورى مافيه من جناح

مكروهه لزوجة تطبيباً ... لنفسها ولا بنه تحبيبا

حرامه هو الذي لغير ما ... منفعةٍ شرعية قَدْ علما

وقال قوم كله قبيح ... وَهْوَ في مذهبنا الصحيح

وكذلك الميتة حرام إجماعاً ، وقد يباح أكلها للمضطر ، ويتعين عند تحقيق الهلكة أكلها .

والفرار من الزحف حرام إجماعاً ، وقد يباح للتحرف والتحيز .

والحرير حرام لبسه في مذهبنا ، وقد أباحه النبي ﷺ للزبير بحكة به .

وأخذ الرشوة على الحكم حرام إجماعاً ، وقد أباحها بعض الفقهاء حيث لاإمام ولابيت مال حيث أرض سيبة وخيف دوام الفتنة بتعطيل الأحكام الشرعية ؛ فيجب عليهم نصب قاض ، ويجعل له على من يختصم إليه قدراً معلوماً يسد به خلته ؛ إذ قد شغلوه عن التكسب ،

فإن لم يقم ذلك بمؤونته المقتصدة التي هي دون الإسراف وفوق الإقتار وجب عليهم أن يعطو
من زكواتهم مايسد به تلك الخلة وإن أحاطت بزكاة أموالهم ؛ لأنه قام بمنفعة عامة وهو أح
بأخذها حينئذ ، ولو لم يكن من الأصناف الثمانية التي ذكر الله في كتابه ، بل يدخل
جملتها ؛ لأن الله يقول : ﴿ وفي الرقاب ﴾ [التوبة : ٦٠] وقد أحرز به الله رقاباً كثير
لتسكينه بأحكامه الفتنة التي تؤدي إلى الهرْج[1] وسفك الدماء ؛ فهو من باب أخف
الضررين ؛ فصار أخذه ماصورته صورة الرشى أولى من تركه الأمة سدى يعدو بعضها ع
بعض ، من غير قاض يفصل بينها ؛ فيؤدي ذلك إلى الهرْج ، وتعطيل الأحكام الشرعية
وترك ماجاءت به الرسل ، ومضى عليه السلف والخلف ، فلو قيل بوجوب ذلك لكان وجهاً

وكذلك يجب تغيير المنكر ، فإذا أدى تغييره إلى منكر أعظم منه وجب تركه والإعراض
عنه ، وفي مثل ذلك قال الصادق المصدوق : ((إذا رأيت شحّاً مطاعاً ، وهوى متبعاً
وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع أمر العامة))[2] .

ويروى أن الحسن البصري رضي الله عنه لما وقعت تلك الحروب التي وقعت بين
الصحابة رضي الله عنهم وامتدت إلى زمن التابعين قيل له : هلا أمرت بالمعروف ونهيت عن
المنكر وأنت المشار إليه بالأصابع ؟ قال : أرأيتم البحر إذا انفتق أيردُّه شيء ؟ قالوا : لا ، قال
كذلك الأمة اليوم : كانت على الحق فأقبلت على الباطل ، فمن أراد كفها عنه فقد ضرب في
حديد بارد ، ولقد رأيت رجالاً حاولوا ذلك وتصدُّوا له فما زادوا على أن افتتنوا وأهلكوا أنفسهم
في غير طائل ، وإنما يمكن الأمر بالمعروف اليوم والنهي عن المنكر لإمام صالح قاهر ، قد وضع
الناس بيده أزمة القيادة ، وأذعنوا له بالطواعية ، وذلك اليوم كالكبريت الأحمر .

وقد اتفق علماء الأمة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بأمر العامة
قد سقط وجوبه من القرن التاسع ؛ لأن الأمة قد انتحلت لنفسها مذاهب وعوائد اتخذتها ديناً
قويماً وسبيلاً مستقيماً ، فمن دعاهم إلى الحق اتخذوه هزءاً ؛ لما قد توغلوا فيه من الضلال وما
تعودوه من ارتكاب المحال[3] . وبذلك أخبر الصادق المصدوق إذ يقول: «بدأ الإسلام غريباً،

---

(١) الهرج : بسكون الراء : القتل .

(٢) حديث: «إذا رأيت شحّاً مطاعاً » تقدم في ص (٦٢)

(٣) يظل الأمر بالمعروف قائماً مادامت الأمة الإسلامية ، وهو على الدرجات التي حدد النبي ﷺ : باليد
واللسان ، وحتى بالقلب ، والله أعلم .

وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء»[1] .

وإنما يجب على المؤمن في عصرنا هذا أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في حيه خاصة ، فإن عجز عن ذلك ففصيلته ، فإن عجز عن ذلك فعشيرته ، فإن عجز عن ذلك فرهطه ، فإن عجز عن ذلك فأهل بيته ، فإن عجز عن ذلك فزوجته وبنيه وأعبده وإخوته ، وإن أعجزوه فعليه الفرار حينئذ ، ولايحل له أن يقيم في الفتنة ومالا يطيق دفعهُ ؛ فلا يكون واجباً عليه إلا صلاح نفسه وتقويم أوده .

وفي هذا المجال أصول اقتصرنا على هذا القدر منها للإمتاع به ومس الحاجة إليه ، جمح بنا إليه عنان القلم ولو لم نكن بصدده ، لكن جلب بعضه بعضاً كنيل الذهب ؛ لأنها يلذ تتبعها ولو لم يقْصد إليها رغبة في التغني بها .

ثم اعلم أن من تَمام جمال البدن نتف الإبط ، وحلق العانة . ومما ينبغي جمال ظاهره بالثياب الحسنة والوضوء والغسل ، وتحسين رائحته بالتطيب والاستياك وزوال عين الخبث وحكمه ، وجمال أحواله بالأخلاق الحسنة .

قال رسول الله ﷺ : ((أول مايوضع في الميزان الخلق الحسن[2])) .

وتَجميل شمائله بالآداب المستحسنة ، وتحسين طبائعه بالكرم والجود والشجاعة ، فإذا اجتمعت في الإنسان هذه الخصال فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنه ، وقد أدرك السعادة دنيا وآخرة ، وقد تحلى بالجمالين : جمال الظاهر والباطن ، وقد فاز بالحبين : حب الله وحب رسوله ﷺ ؛ لأن المتجلي بالمحبوب محبوب ؛ لأن الله جميل ويحب الجمال ، كامل يحب الكمال ؛ نظيف يحب النظافة .

ولذلك كانت القادرية والشاذلية تجمل هيئاتها . يروى أن متقشفاً مَرَّ على الشاذلي رضي الله عنه وهو يصلي ، فرأى صلاة كاملة ، وسمة حسنة ؛ فأنكر حسن ثيابه مع ذلك ، فوقف عليه وقال : ماهذه الصلاة التامة والسمة الحسنة مع هذه الثياب التي لاينبغي لبسها إلا لأهل الشهوات من أرباب الدنيا ؟! فقال ياهذا إن ثيابي هذه تحمد الله وتشكره ، وثيابك هذه تقول

---

(١) حديث : «بدأ الإسلام غريباً ... الخ» صحيح رواه مسلم (١/ ٩٠) والبيهقي في الشعب .

(٢) حديث : «أول مايوضع في الميزان الخلق الحسن» رواه الطبراني وأبو الشيخ بهذا اللفظ ، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٨٢٩ ، والله أعلم .

بلسان حالها : أعطوني أعطوني ، أين قولك هذا من قول رسول الله ﷺ : ((إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده[1])) ؟! وقوله ﷺ : ((إن الله يبغض من عبده أن يكون حسابه حساب غَني وحاله حال فقير)) وقوله تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ [الأعراف : ٣٢] ؟! وقوله ﷺ : ((إن الله جميل يحب الجمال[2]))؟! فقال له : ألستَ بالشاذلي ؟ فقال : يقال ذلك ، فانكبَّ عليه يقبِّل يديه ، فقال له : إنك تكلمت بحق ، ونطقت بحقيقة ، فبمثلك فَلْيَقْتَدِ المقْتَدون ، وعلى سبيلك فليسر المهتدون .

وتطلق الفتنة ويراد بها الضلال ؛ قال الله تعالى : ﴿ **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً** ﴾ [المائدة : ٤١] ، أي لضلاله .

فكأنه يقول : احذر الجارية ذات الفتاء ، فلا تعجب لفتائها ، أي لاتكن معجباً به ، ولاتضل به عن سبيل الله ، وهذا الثاني أولى ، ويؤيد ذلك قول الناظم : (حذار الصلى) أي : مخافة النار .

ويجيء الإعجاب بدون الضلال ؛ فلا يخاف منه حينئذ النار ، بل ربما كان ذلك مؤدياً لدخول الجنة إذا عشق فعف ؛ لأن قتيل الحب مع العفة معدود من جملة الشهداء ، كما جاء ذلك في غير حديث واحد[3] .

وهذه النار المحذَّر منها هي نار الآخرة التي تزيد عن نار الدنيا بتسعة وتسعين جزءاً ؛ لأن النبي ﷺ سئل عما تقول النار في أزيزها ، فقال : ((إنها تتعوذ بالله من نار جهنم)) فقالوا : كيف تستعيذ النار من النار ؟ قال : ((إن حَرَّ نار جهنم يزيد على حر ناركم هذه بتسعة وتسعين جزءاً)) ، فقالوا : إنها لكافية ، فقال ﷺ : ((ثلاثة في النار أشد من النار : النتن ، والظلمة ، وغضب الجبار)) .

---

(١) حديث : «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته ... الخ» حسن رواه البيهقي والترمذي وحسنه إلا أنه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٧٥٢ .

(٢) حديث : «إن الله جميل يحب الجمال» تقدم في ص **٥٣١** .

(٣) الحديث الذي أشار إليه الشيخ وهو: «من عشق وكتم وعف فمات فهو شهيد» موضوع رواه الخطيب والثعالبي وابن عساكر .

قلت : قد تكلم كثير من العلماء في هذا الحديث : فمنهم من ضعفه فقط ، ومنهم من قال : إنه موضوع ، وحاول بعض المتأخرين تقويته بمجيئه من طرق أخر ، إلَا أن جميع الطرق لاتخلو منها واحدة من قدح شديد، لذا فإني أميل إلى ترجيح قول من قال بوضعه ، والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ **لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ [الحجر : ٤٤]
ـاب الأول جهنم ، وهو باب الطبقة العليا ، وسكانها العصاة من أمة محمد ﷺ . ولظى ،
ـكانها الوثنيون . والحطمة ، وسكانها النصارى . والسعير ، وسكانها اليهود . والزمهرير ،
ـكانها فرعون وقومه ، وسقر ، وسكانها قوم عاد . والهاوية ، وسكانها المنافقون وقوم لوط ،
ـ الله تعالى : ﴿ **إن المنافقين في الدّركِ الأسفل من النار** ﴾ [النساء : ١٤٥] ، وفيها من
ـع الوبال والنكال مالا يحيط به الوصف .

يروى أن النبي ﷺ ليلة أسري به مَرَّ على النار فسمع أصواتاً منكرة ؛ فقال :
ـبريل ، ماهذه الأصوات المنكرة التي يقشعرُّ منها الجلد ؟ فقال : تلك النار تسأل ربها ،
: وما تسأله ؟ قال : إنها تقول : اشتدَّ حري ، وبعد قعري ، وأكل بعضي بعضاً ، وقد كثر
ـيعي وغسليني وغسيقي وزقومي وحميمي وعقاربي وحيّاتي وقيودي ونكالي ؛ فآتني
ـعدتني .

فقال ﷺ : ((أيما مسلم يقول كلما أصبح وأمسى : اللهم أجرني من النار ، سبع
ـت ، إلا قالت النار : اللهم أجره مني ، فكتب الله له جوازاً من النار. أيما مسلم قال كلما
ـح وأمسى : اللهم ارزقني دار الفردوس ، سبع مرات ، إلا وقالت الجنة : اللهم ارزقه إياي ،
ـه الله في ديوان أهل السعادة)) .

ثم قال رحمه الله :

١ــ وَكُنْ قَائِلاً خَيراً أَوِ اصْمُتْ وَذَرْ حَجاً   فَمَــا لاَقَ إِلاَّ بِالْمُجُوسِ حِجَاءُ

قوله : (وكن قائلاً خيراً أو اصمت) : أي : كن أيها المريد الطالب النجاة لنفسه
ـلاً خيراً : من تعليم علم ، أو قراءة قرآن ، أوذكر ، أو نصح لأخ في الله ، أو أمر بمعروف ،
ـهي عن منكر ، وهو واحد من الأحاديث الأربعة لأزمة الخير ، قال ﷺ : «من كان يؤمن
ـ واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[1] .

---

(١) حديث : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» جزء من حديث متفق على
ـه رواه الشيخان وابن ماجه .
وأوله عند البخاري : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر
ـم ضيفه» وباقيه مأأورد الشيخ ، وهو عنده في كتاب الآداب .

والثاني : «من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه»[1] .

الثالث : قوله ﷺ : ((لايبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه المؤمن مايحب لنفسه[2])) .

الرابع : ((لايخطبن أحدكم على خطبة أخيه ، ولايَسُمْ على سومه[3])) .

فالحديث الأول مشتمل على ربع المعاملات النفسية ، والثاني على ربع المناصفات والأخوة والمعاضدات ، والثالث على ربع المسالمات والاحترازات والتورع وترك الشبهات والمناصحات ، والحديث الرابع مشتمل على ربع المعاملات الشرعية كالأنكحة والبيوعات والأجرات والجعول والمغارسات والشفعة والتشفيع والأقضية والقضاء وحكم التركات والوصايا إلى غير ذلك .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: من أراد الكلام فعليه أن يفكر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة فليتكلم، وإن شكَّ فلا حتَّى تظهر المصلحة .

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال قلت : يارسول الله ، أي المسلمين أفضل ؟ قال : ((من سلم الناس من لسانه)) . وفي رواية : «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده[4]» .

---

(١) حديث : «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه» حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجه ، وأورده السيوطي تحت رقم ٨٢٤٣ ورمز له بالصحة ، قال المناوى : حسنه النووي في الأذكار ، بل وصححه ابن عبد البر ، وقال الهيثمي : رجال أحمد والطبراني ثقات ، وقال مرة : فيه محمد بن كثير بن مروان ، وهو ضعيف . وقال آخرون : لايصح إلا مرسلاً (٦/ ١٣) فيض ، والله أعلم .

(٢) حديث : «لايبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه» متفق عليه بلفظ : «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه» ، وهوعند البخاري في كتاب الإيمان .

(٣) حديث : «لايخطبن احدكم على خطبة أخيه ... الخ» متفق عليه رواه مسلم بهذا اللفظ (٤/ ١٣٨) ورواه البخاري بلفظ : «نهى ﷺ أن يبيع بعضكم على بيع بعض ، ولايخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب» (كتاب النكاح) والله أعلم .

(٤) حديث : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» متفق على صحته ، رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم .

ولفظ البخاري : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه» كتاب الإيمان .

وفي كتاب الترمذي : عن عقبة بن عامر قال : قلنا : يارسول الله ، فيم النجاة ؟ قال : ((أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك)) ، وهذا حديث حسن .

وفي كتاب الترمذي أيضاً وابن ماجه : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه[1])) .

والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة ، وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفق .

وأما الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لاحصر لها ، لكني أنتخب من ذلك روائع الحكم النفيسة .

منها : مابلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا ، فقال أحدهما لصاحبه : كم وجدت في ابن آدم من العيوب ؟ قال : أكثر من أن تحصى ، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها ؛ قال : ماهي ؟ قال ؟ حفظ اللسان .

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع : ياربيع ، لاتتكلم فيما لايعنيك ؛ إنك تَملك الكلمة ما لم تتكلم بها ، فَإذا تكلمتَ بها ملكتك .

وقال بعضهم : مثل اللسان مثل السبع : إن لم توثقه أهلكك أو كاد .

وفي ذلك يقول الشاعر : (من بحر الكامل)

احفظ لسانك إيها الإنسانُ ... لايلدغنَّكَ إنه ثعبانُ

كم في المقابر من قتيل لسانِهِ ... قد كان هاب لقاءه الشجعانُ

وقال الفارسي رضي الله عنه : (من بحر الوافر)

لعمرك إن في ذنبي لشغلاً ... لنفسي عن ذنوب بني أميَّهْ

على ربي حسابهم إليه ... تناهى علم ذلك لا إليَّهْ

وقال رضي الله عنه: إذا تَم العقل نقص الكلام .

وقال أعرابي : رب منطق صدَّع جمعاً ، وسكوت شعب صدعا .

وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، والعاشر في العزلة عن الناس .

قال الشاعر : (من بحر الطويل)

---

(١) حديث : «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه» تقدم في الصفحة السابقة

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله   وما الحلم إلا عادة وتَحَلُّمُ
إذا لم يكن نطق الفتى عينَ حكمة   وعلم فإن الصمت أولى وأسلَمُ

وقال ابن عيينة : من حرم النطق بالخير فليصمت ، فإن حرمها فالموت خير له من الحياة .

وقال ﷺ لأبي ذر : ((عليك بالصمت إلا من خير ؛ فإنه مطردة للشيطان ، وعون على أمر دينك)) .

ومن كلام الحكماء : من نطق في غير خير فقد لغا ، ومن نظر في غير اعتبار فقد سها ، ومن سكت في غير فكر فقد لها .

وقيل : لو قرأتَ صحيفتك لأغمدتَ صفيحتك ، ولو رأيت مافي ميزانك لختمت على لسانك .

ولما خرج يونس من بطن الحوت طال صمته ؛ فقيل له : ألا تتكلم ؟ فقال : الكلام هو الذي صيرني في بطن الحوت .

وقال حكيم : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم .

وكان يقال : من السكوت ماهو أبلغ من الكلام ؛ لأن السفيه إذا سكت عنه كان في اغتمام . وفي ذلك يقول الشاعر : (من بحر الوافر) .

إذا نطق السفيه فلا تجبه   فخير من تَحاوره السكوت

وقيل لرجل : بم سادكم الأحنف فوالله ماكان بأكبركم سنّاً ولا بأكثركم مالاً ؟ فقال : بقُوة سلطانه على نفسه .

ويروى أنه اجتمع أربعة ملوك ، فقال ملك الفرس : ماندمتُ على مالم أقل مرة واحدة ، وندمت على ما قُلتِ مراراً ، . وقال قيصر : أنا على رد مالم أقل أقدر مني على رد ماقلت . وقال ملك الصين : مالم أتكلم بكلمة ملكتها فإذا تكلمت بها ملكتني . وقال ملك الهند : العجب ممن يتكلم كلمة إن رفعت ضرت وإن لم ترفع لم تنفع .

وكان بهرام جالساً ليلة تحت شجرة ، فسمع منها صوتاً ، فرماه ، فأصابه ، فقال : مأأحسن حفظ اللسان ، ماهو إلا طائر ، ولو حفظ لسانه ماهلك .

وقال ﷺ : «بكثرة الصمت تكون الهيبة» .

وقال عمرو بن العاص : الكلام كالدواء ؛ فإن أقللت منه نفع ، وإن أكثرت ثقل .

وقال لقمان : يابني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك .

ويروى أن اللسان يقول كل صباح ومساء للجوارح : كيف أنتن ؟ فيقلن : بخير إن تركتنا .

ومن غوائله الغيبة ، وهي من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً في الناس ، حتى إنه لم يسلم منها إلا قليل ، وهي ذكر الإنسان بما فيه مما يكرهه ، سواء كان في دينه أو في بدنه أو نسبه او خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو ثوبه او مشيته أو حركته أو بشاشته أو غير ذلك، مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كنايتك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك .

أما الغيبة البدنية فقولك : هو أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود ما لم يقصد بذلك تعريفاً فلا بأس به .

وأما الدينية فقولك : سارق ، ظالم خائن متهاون بالصلاة متساهل بالنجاسات ليس باراً بوالديه أو لايضع الزكاة موضعها ما لم ترد بذلك التحذير والزجر عن مثل ذلك فيكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأما الدنيوية فكقولك : فلان متهاون بالناس لايرى لأحد عليه حقاً ، وهو كثير الكلام ، قليل الأدب ، كثير الأكل والنوم ، ومأأشبه ذلك .

وأما النسبية فكقولك : فلان أبوه نجار أو إسكافي أو حداد أو حائك أو حجام أو دباغ أو جزار على وجه التنقيص .

وأما الخلقية فكقولك : فلان سيء الخلق متكبر مراءٍ معجب عجول جبار ونحو ذلك .

وأما الهيئة فكقولك : فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب ونحو ذلك .

وفي صحيح مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((أتدرون ماالغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك في غيبته بما يكره . قيل : وإن كان في أخي ما اقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » [1] .

وفي سنن ابي داود : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا ـــ قال في بعض الروايات : يعني قصيرة ـــ قال : « قلت كلمة لو مزجت

---

(١) حديث « أتدرون ما الغيبة . . الخ » حديث صحيح رواه مسلم كما قال الشيخ .

بماء البحر لمزجته »[1] أي : خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه .

وروي عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : ((إياكم والغيبة ؛ فإنها أشدُّ من الزنى)) . ثم قال رسول الله ﷺ : ((إن الرجل ليزني ، فيتوب ؛ فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه[2])) .

وعن أنس رضي الله عنه : من اغتاب المسلمين بغير حق أو سعى بهم إلى السلطان جيء به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادي بالويل والثبور ويعرف أهله ولا يعرفوه .

وقال معاوية رضي الله عنه : أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً وأقلهم غيبة .

وقال الأحنف بن قيس : فيَّ خصلتان : لا أغتاب جليسي إذا غاب عني ، ولا أدخل في أمر قوم لم يدخلوني فيه .

وقيل للربيع بن خيثم : ما لنا لانراك تغتاب أحداً ؟ فقال : لست لنفسي راضياً فأتفرّغ لذم الناس ، وانشد : (من بحر الطويل)

لنفسيَ ابكي لست أبكي لغيرها لنفسي من نفسي عن الناس شاغلُ

وقال كثير : (من بحر الكامل)

وسعى إليَّ بعيب عَزَّةَ نسوةٌ جعل الإلهُ خدودهن نِعَالاَ

قال محمد بن حرب : أول من اغتاب إبليس ، اغتاب آدم عليه السلام .

ويروى أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة ، وإن أصرَّ فهو أول من يدخل النار .

وفي الحكم : لاتأمن من كذب لك أن يكذب عليك ، ولا من اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك .

وقيل للحسن البصري رحمه الله : إن فلاناً اغتابك ؛ فأهدى له طبقاً من الرطب ، فأتاه

---

(١) حديث « حسبك من صفية كذا وكذا . . الخ » أخرجه أبو داود (٢٢١/١٣) عون ، كما أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والله أعلم .

وفي أبي داود زيادة : « قالت : وحكيت له إنساناً ، فقال : ما أحب أني حكيت إنساناً وان لي كذا وكذا » .

(٢) حديث « إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنى . . . الخ » رواه ابن أبي الدنيا وابن حبان في الضعفاء ، وعنهم الغزالي في الإحياء بهذا اللفظ ، وسكت عليه العراقي (١٣٨/٣) .

جل فقال : اغتبتك فأهديت إلي ؟! فقال الحسن : أهديت إلي حسناتك فأردت أن
فئك .

وعن ابن المبارك رحمه الله : لو كنتُ مغتاباً أحداً لاغتبتُ والدي لأنهما أحق
سناتي .

وكان بعض المتفقهين يعرضون بالغيبة تعريضاً يفهم به كما يفهم بالتصريح ، فيقال
حدهم : كيف حال فلان ؟ فيقول : الله يصلحنا ، الله يغفر لنا ، الله يصلحه ، أسأل الله
فية ، الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة ، نعوذ بالله من الشدة ، ويعافينا الله من
الحياء ، الله يتوب علينا ، وماأشبه ذلك مما يفهم به تنقيصه إياه ؛ وكل ذلك غيبة محرمة .

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها ، فيجب
ى من سمع إنساناً يبتدىء بغيبة أحد أن ينهاه إن لم يخف ضرراً ، فإن خافه وجب عليه
نكار بقلبه ، أو مفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته ، فإن قال بلسانه : اسكت ، وقلبه
تهي سماع ذلك فإنه قد جمع بين الغيبة والنفاق ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا رأيت الذين**
وضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ [الأنعام :٦٨] .

وأنشدوا في المعنى: (من بحر المتقارب)

وسمعك صُنْ عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه
ولم أر أعجز من طالب ... فوافى المنية في مطلبه[١]

ومن غوائل الكلام أيضاً النميمة، وهي من الكبائر. وفي الصحيحين: عن حذيفة رضي
. عنه عن النبي ﷺ قال: ((لا يدخل الجنة نمَّام)).[٢]

وفي رواية: ((لايدخل الجنة قتات[٢] ولا نمام ولا لحم ربا من حرام[٣])).

---

(١) في النسخة (ب): وكم أزعج الحرص من طالب.

(٢) القتات: النقال للحديث على وجه الإفساد.

(٣) حديث « لايدخل الجنة قتات.. الخ » متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي
يرهم.
وهو عند البخاري بلفظ: « لايدخل الجنة قتات » في كتاب الأدب. وفي إحدى روايات مسلم نمام.

وروي أن النبي ﷺ مرَّ على قبرين، فقال: ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لايستبريء من بوله))[1]

وفيه يقول الشاعر:

كم خـرب النمـام من قصر مشيـد	**بشـفتيـه لابفـأس من حـديد**
فـأبعـد النمـام من بعيـد[2]	**. . . . .**

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لاينبغي أن يكون النمام إلا ولد بغي.

وروي أن النبي ﷺ قال: ((ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: أشرا المشَّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوب))[3].

ويروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنـه قال: ((ملعون ذو الوجهـين، ملعون اللسانين، ملعون كل شقَّار، ملعون كل قتات، ملعون كل نمام،ملعون كل فتانٍ)) .

والشقَّار: هو المحرش بين الناس حتى يوقع القتال بينهم أو يكاد، وهو من خطباء الفتن والقتات: من جعل شغله وعادته النميمة. والمنان:الذي يعمل الخير ويمن به.

وأما السعاية إلى السلطان أو إلى كل ذي قوة فهي المهلكة والحارقة؛ إنها تجمع الخص الذميمة من الغيبة والنميمة والتغرير بالنفوس والأموال بالنوازل والأهوال، وتسلب العزيز عز وتحط المكين عن مكانته، والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعي ساع، وكم حريم استبي بنميمة باغ، وكم من صفيين تقاطعا، ومن متواصلين تباعدا، ومن متحابين افترقا، ومن لبيب تهاجرا، وكم من زوجين تطالقا؛ فليتق الله ربه رجل ساعدته الأيام أو تساعدت عليه الأقدار أ يصيخ لساع أو يستمع لنمام.

ووجد في حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعي: هو الرجل الذ يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه.

وقال بعض الحكماء: احذروا أعداء العقول، ولصوص المودات، وهم السعاة والنمامو إذا سرق اللصوص المال سرقوا هم المودات.

---

(١) حديث « أن النبي ﷺ مر على قبرين فقال إنهما ليعذبان.. الخ ». حديث متفق على صحته رو الشيخان (١٠/٣٩٤) خ و (١٠٥) م، كما أخرجه أبو داود والترمذي. وفي إحدى روايات مسلم: « لايستنز من بوله ».

(٢) هذا الشطر مختل وزنه.

(٣) حديث « ألا أخبركم بشراركم.. الخ » رواه أحمد، وعنه الغزالي (٣/١٥١)

وفي المثل السائر: من أطاع الواشي ضيع الصديق. وقد تقطع الشجرة وتنبت ويقطع اللحم بالسيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه.

ورفع إنسان إلى الصاحب بن عباد براءة يحثه فيها على أخذ مال يتيم، وكان مالا كثيراً، فكتب إليه على ظهرها: النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والساعي لعنه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله: (وكن قائلاً خيراً): كن: فعل أمر ناقص. قائلاً: خبرها، واسمها مستتر وجوباً مفعول اسم الفاعل. أو اصمت: عاطف ومعطوف. وذر: فعل أمر. حجا: مفعول به، وهو بالفتح والقصر: كالحجاء، بالكسر والمد: زمزمة المجوس على الطعام، وهو صوت يخرجونه من خياشيمهم يتفاهمون به لحرمة الكلام عليهم إذ ذاك بزعمهم.

ولذلك رغب الشارع في الكلام على الطعام مخالفة لهم، ويحصل مقصود الشارع بالترغيب في الكلام بدون المبالغة فيه والإكثار منه، لا كما يفعله الجهلة حيث استشعروا هذا الحكم من مجاوزة الحد فيه والتغالي؛ فيؤدي إلى ما لا يليق من ضجر الجليس وإدخال الفتنة عليه من غير فائدة، فربما حمل المؤاكل له على سرعة الجواب، والحال أن الطعام في فيه، وربما حمله ذلك على سرعة جوابه بدون إنعامه المضغ؛ فأدى إلى البشم وضرر المعدة، وربما أورثت كثرته العطش، وسببه أن آلة الكلام والنفَس، وهي الرئة، من شأنها أن تروح على الباطن بإخراج النفس منه وإدخال الهواء إليه، وذلك الترويح موقد للحرارة الغريزية، فكلما كثر الكلام كثر النفس، فتشتد لذلك الإيقاد الحاجة إلى الماء فيشربه، وشرب الماء في أثناء الأكل أو بعده بيسير مضر بالبدن عند أهل الطب مفسد لقوة الطعام مؤد إلى استرخاء الأمعاء وتكثير الرطوبات.

وقد خرج الناظم عن عادته في هذا البيت؛ فاقتصر فيه على ذكر كلمتين، وهما الحجا والحجاء؛ لعدم وجود كلمتين يكمل بهما العدد الذي التزمه في غيره من الأبيات.

وزمزمة المجوس وما في معناها مما لايفهمه جميع الناس كالعجمية فإن ذلك من التناجي المنهي عنه؛ لقوله ﷺ : ((لايتناجى اثنان دون ثالث))[1]. وقوله تعالى ﴿ **إنما النجوى من الشيطان لِيَحْزنَ الذين آمنوا** ﴾ [المجادلة: ١٠].

وإلى ذلك يشير الناظم في قوله: (فما لاق إلا بالمجوس حجاء).

---

(١) حديث « لايتناجى اثنان دون الثالث » متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ: « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الاخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يُحزنه »، البخاري كتاب الاستئذان، ومسلم في كتاب السلام، والله أعلم.

ولما انتهى كلامه على ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد والمعنى واحد شرع في الكلام على:

باب

ما يكسر فيقصر ويفتح فيمد والمعنى واحد

وهذا الباب على العكس من الذي قبله.

ثم قال رحمه الله:

١٤٩ــ سِوَى الْحَقِّ فَارفُضْ والضَّلالُ سَواؤُهُ ... وَدَعْ ذَا قِلى يُنْمَى لَدَيْهِ قَلاَءُ

سوى الشيء، بالكسر والقصر، وسَواؤه، بالفتح والمد: غيره. والقِلَى، بالكسر والقصر، والقَلاء، بالفتح والمد: البغض. والرفض: الترك، رفضه يرفضُه ويرفِضه، بالكسر والضم في المضارع. وينمى، بضم الياء وفتح الميم: مضارع نمى، مبني لما لم يسم فاعله: أي يرفع وينقل ويذاع على وجه الفساد كإنماء الحديث. وقد أخرج الناظم (سوى) عن الحرفية فجعلها مفعولاً به في قوله: (سوى الحق فارفض)، وخبراً في قوله: (فالضلال سواؤه) جرياً على مذهب الكوفيين، خلافاً للبصريين فإنها لا تخرج عندهم عن الحرفية إلا في ضرورة الشعر. وقد صحح الناظم مذهب الكوفيين بكثرة ورودها متصرفة في الأشعار من غير اضطرار: فمن ورودها فاعلاً قول الشاعر: (من مجزوء الهجز)

ولم يبق سوى العُدوا ... ن دنّاهم كما دانوا

ومن شواهد صَرْفها عن الحرفية للمفعولية قول الشاعر: (من بحر الطويل)

تجانفُ عن جو اليمامة ناقتي ... فما قَصدتْ من أهلها لسوائكا

فاللام زائدة وسوائك مفعول به.

ومن شواهد كونها مبتدأ قول الشاعر: (من بحر الكامل)

وإذا تُباعُ كريمةٌ أو تُشترى ... فسواك بائعها وأنت المشتري

فكأن الناظم يقول: اترك غير الحق، فالضلال غيره، والضلال يجب رفضه؛ فارفضه، واترك أيضاً شخصاً صاحب بغض لأخوانه المؤمنين، أي: اهجره في الله، ودعه، وابغضه في حال كونه يضاعف عنده البغض؛ أو يذاع ويفشى على وجه الفساد؛ مخافة أن يعديك بذلك؛ فتصير ذا بغض؛ فإن من المعلوم أن الطباع تسرق من الطباع، واتركه تنجُ من شره وما تكسبه

خلطته من الإثم لتعذر السلامة من ذلك؛ إذ لايؤمن على من خالطه من تقصير فيما يجب عليه من النهي له والذب عن أعراض المسلمين؛ لأن النبي ﷺ يقول: ((التحبب إلى الناس نصف الإيمان)). وفي رواية: ((التودد إلى الناس نصف الإيمان، والاقتصاد نصف العيش))[1].

فإذا تساهل من يصاحبه بذلك صار شريكاً له في بغضه؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه لما ظهروا على بغض المنافقين للمسلمين هجروهم وأغلظوا عليهم وأهانوهم من غير قتل، وفي رسول الله ﷺ وأصحابه أسوة حسنة. على أن من يخالطه يلقى منه البرح الثقيل لبغضه، وما يقتضيه طبعه؛ فيثقل ذلك عليه إن كان من المؤمنين المسلمين، فإن المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه. فإذا كان ذلك كذلك فلا يجوز ذلك إلا على من في إيمانه دخل، والعياذ بالله، فكما لايحتمل الإيمان حب الكافر لايحتمل بغض المؤمن مجاناً من غير فسق ولا عدوان، بل ولو كان فاسقاً؛ فإنه في تلك الحالة يجب إظهار البغضاء والغلظة مع إقامة قسطاس الشريعة عليه، وتجب الرحمة والرأفة عليه لأنه أخوك مقهور، ولا تكن عوناً للشيطان عليه؛ فلا يجمع عليه الحد والشتم، بحيث لو وجدتَ مندوحة إلى ارعوائه بالتلطف والقول اللين لكان ذلك أولى وأليقُ بالحال.

قال الرسول ﷺ : ((من نصح أخاه في العلانية فقد شانه، ومن نصحه في السر فقد زانه))

قال الله تعالى: ﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ [طه: ٤٤].

ثم قال رحمه الله :

١٥٠ ــ وَلَيْسَ مَعِيبــاً ذو الصِّبَـا لِصَبَــائِهِ
إذَا حُـــمَّ لِلْبَـــاغِي قِــراهُ قَــرَاءُ

قوله: (وليس معيباً ذو الصبا) : ليس:[2] حرف نفي ونسخ. معيباً: خبره. ذو الصبا: اسمه ومضاف إليه ما قبله. لِصبائه: جار ومجرور متعلق بمعيب، وضمير المضاف إليه عائد على ذو الصبا. إذا: ظرف لما يستقبل. حُمَّ: مبني للمجهول، قراهُ: نائبه. للباغي: جار ومجرور، متعلق بحم. وقِراهُ قَراءُ: عاطف ومعطوف، والضمير عائد على الباغي. فالمعيب: اسم مفعول من

(١) حديث « التودد إلى الناس... الخ » سبق. في ص (٢٠٤)

(٢) ليس فعل جامد وليس حرفاً كما قال المصنف رحمه الله.

عابه يعيبـه: إذا نسب إليـه عيباً. والصبا، بالكسر والقصر: كالصَّباء، بالفتح والمد: أصغر الأسنان، بل يقال: أول أسنان الإنسان وليد، ثم صبي، ثم سَبيع، ثم فطيم، ثم جفر، ثم غلام، ثم مراهق، ثم بالغ، ثم فتى، ثم شاب، ثم رجل إذا بلغ أشده، ثم كهل، ثم نصفٌ، ثم أشمط، ثم شيخ، ثم معمر، ثم هرم، ثم فان.

والقِرى، بالكسر والقصر: كالقَراء، بالفتح والمد: الضيافة. وحم الشيء، بالبناء للمفعول به: قدر، ويطلق ويراد به قرب. قال الشنفرى: (من بحر الطويل)

لقـد حمت الحـاجـاتُ والليـل مقمر وشـدت لِطيَّـاتٍ مطـايا وأرحـل

ومنه حم الأمر وجاء النصر.

فكـأنه يقول: إذا قُدمتْ الضيـافة لطـالبهـا لم يُعَبْ ذو صغر لصغره عيباً يمنعه من استحقاقها، بل الصغير في استحقاقها كالكبير، بل إنما يمنع من استحقاقها مخالفة المضيف وهو الله تعالى، فالقرى المراد به هنا ما يكرم الله به عباده من الحبور والنضرة والسرور والشرب من الماء الطهور والتمتع بالحور والقصور، مع أنهم متفاوتون في ذلك على حسب مسارعتهم لامتثال أوامره واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿ **والسـابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم** ﴾ [الواقعة: ١١]، فلا يضرهم في ذلك صغرهم، ولا يزيدهم به حظوة كبرهم، بل ذلك موكول إلى السابقة الحسنة والعمل الصالح الأسنى.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: وقفتُ على رهط من الملائكة وأنا بين النائم واليقظان فقال قائلهم: مثل الرجل، فقال بعضهم: مثاله رجل صنع مأدبة فيها من كل شيء ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فلمـا أكملها بعث رجلاً من خواصـه يدعو الناس إليها دعوة عامة فدعاهم، فمن أجابه أكل منهـا، ومن لم يجبـه بعث أعوانه في طلبـه فأخذوه، فعذبه بأنواع العذاب، فالملك هو الله، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ ، فمن أجابه دخل الجنة، ومن لم يجبه دخل النار، جعلنا الله ممن جعله في حزبه وأتحفه بقربه بجاه النبي وصحبه.

ثم قال:

١٥١ ـ وَمَـا ذُو إنـاً إلا بـإِثْرِ أَنـائِـهِ بِـلى وَلِكُـلٍّ جِـدَّةٌ وَبَـلاَءُ

قوله: (وما ذو إنا) أي: وليس صاحب غاية يراد لها إلا كائن بلاه على إثر أنائه أي بلوغه غايته، فبلاؤه يعقُب جدتَه، وضعفُه يعقب شدته، وفعله[1] يعقب حدته. فهو بالكسر

(١) الفل: ذهاب العقل، أو المال، والمعنى: ان الإنسان بعد حدة عقله يذهب عقله مع الكبر.

والقصر كالأناء، بالفتح والمد: عبارة عن بلوغ الحد والتناهي بعد الكد والجد. قال ابن دريد: (من بحر الرجز)

وإن أَمُت فقد تناهتْ لَذَّتي ... وكُلُّ شيءٍ بلغَ الْحدَّ انْتَهى

والبلى، بالكسر والقصر: والبَلاء، بالفتح والمد: ضد الجديد، بالكسر،وهو قرب العهد بزمان الشباب.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

أترجو أن تكون وأنتَ شيخٌ ... كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوبٌ ... جديد كالقديم من الثياب

فكأنه يقول: إن الجديد إذا اكتنفه الجديدان أكسباه بعد جدته بلاء وبعد جودته فناء من غير تراخ؛ إذ لامرتبة ثالثة تتوسط بين الجدة والجودة والبلى والبلاء.

قوله: ولكل جدة وبَلاء: أي لكل من الحوادث التي لها غاية وأناء وجدة وبلاء ورخاء غاية تنتهي إليها؛ فاسكن عند اشتدادها، وأرض بقضاء الله عند امتدادها، ولا تتعب نفسك بدفعها وعنادها، حتى تَنْقَضي مدتها، ففي الجزع عند تراكمها زيادة تعاظمها.

قال ﷺ: ((إن الإيمان يَخْلَقُ في الصدور فجددوه بالإكثار من قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)).

وقال علي كرم الله وجهه: إذا نزلت بكم الشدائد فنفِّسوا عنكم ألمها وخففوا عنكم أعباءها بانتظار الفرج من الله ؛ فإنه ما من شدة إلا بإثرها فَرج قريب.

وإن الحوادث تبلى وتجد كما يبلى الثوب ويجد؛ فما من رخاء إلا وبعده شدة، ولا من شدة إلا ويعقبها رخاء. فالكرام لايجزعون عند نزول الشدائد كما لايفرحون عند وجود الزوائد.

قال الله تعالى: ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ [الحديد: ٢٣].

ويروى أن تميماً الداري رضي الله عنه لما اختطفه العفريت الذي بلغ به منتهى المعمور أنشأ يقول: (من بحر الوافر)

إذا شاب الغراب أتيتُ أهلي ... وصار الغَار كاللبن الحليب

فأجابه هاتف: (من بحر الوافر أيضاً)

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

وتفريج كربة ويفك عانٍ ... ويبلغ أهله النَّائي الغريب

فبينما هو يطوف في جزائر البحر المحيط إذ عن له رجل وهو قائم يصلي في روضة خضراء، فقصده حتى أتاه، فسلم عليه، فتجوز في صلاته، ثم انفتل إليه فقال له: أأنت تميم الداري؟ قال : أجل بأبي أنت وأمي، من أين عرفتني ؟ قال له: عرفتك وأنت مع رسول الله ﷺ ، فقال: وأنّى لك بمعرفة رسول الله ﷺ وأنت في منقطع المعمور ؟ فقال له: إني لصاحبه كما أنك صاحبه، أو ما تعرفني ؟ قال له: كيف أعرفك ؟ قال: أنا الخضر[1].

فبينما هو عندي إذا بسحابة قد أقبلت من المشرق، فأشار إليها الخضر عليه السلام؛ فأقبلت تهوي حتى وقعت عليه والملائكة آخذون بأطرافها يسبحون الله ويهللونه ويقدسونه، فقال لهم الخضر عليه السلام: أي بلاد الله تؤمون ؟ فقالوا: مدينة رسول الله ﷺ ، قال: هلم فاحملوا صاحب رسول الله ﷺ إلى منزله بالمدينة، فركب السحابة، وأمره بإغماض عينيه، فغمض عينيه، فما ساروا إلا هنيهة فإذا هو بالمدينة وقد أمطرت، فوجد زوجته وقد تزوجت، إلا أنها لم يدخل بها، فتنازعا؛ فَأَمَرتْهُمَا المرأة بالاعتزال، فاعتزلا في بيت، فلما أصبحا أتيا عمر رضي الله عنه ليتحاكما إليه، فعرفه عمر والصحابة، فاستخبروه، فأخبرهم بما رأى من العجائب، وقد تغيرت هيئته لما رأى من الشدائد، فقال عمر: أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ليرين تميم هذا من العجائب ما لم يره أحد من أمتي))[2]، ففسخ عمر نكاح الرجل، وأمره بالذهاب إلى منزله وزوجته.

ثم قال رحمه الله :

١٥٢ ـ وقَبْـلَ إيَّـاً بَـادٍ أَيَاءٌ مُغَيَّبٌ وَبَيْنَـا رِوىً يحْـلُو أَمَرَّ رَوَاءُ

الإيا، بالكسر والقصر، كالأَياءِ، بالفتح والمد: ضوء الشمس. والرِّوى، بالكسر والقصر، والرَّواء، بالفتح والمد: الماء الرَّوي. وبينا، بالألف: لغة في بين، فيقال، بينا، بالألف، من غير ميم، وبينما بالميم. وحلا الشيء يحلو في الفم، وحلي كرضي يحلَى في العين، يقال: امرأة حلوة: إذا كانت العين تَرومها وتميل إلى حسنها وملاحتها.

---

(١) لم يثبت أن الخضر قدم على النبي ﷺ ولا صحبه ولا رآه، بل ولم يثبت أنه موجود على عهد النبي ﷺ وما بعده، والله أعلم.

(٢) قصة تميم هذه غير صحيحة بهذا السياق، وإنما صح عنه كما هو في مسلم انه هو وجماعة من قومه ركبوا البحر في سفينة، فتكسرت بهم، ووجدوا الدابة والدجال،وأن تميماً أخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فأمر أن يجتمع الناس، وقص عليهم حديث تميم (٢٠٧/٨)، أما كونه وجد الخضر فذلك لم يثبت والله أعلم.

قالت عائشة رضي الله عنها: كانت جويرية امرأة حلوة، ذات ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفســه، وقد كاتبت ثابت بن قيس بن شماس، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها في باب حجرتي كرهتُها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يارسول الله ﷺ ، أنا جويريةُ بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لا يخفى عليك، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسي؛ فجئتك أستعينك على كتابتي. قال: هل لك في خير من ذلك ؟ قالت: وما هو يا رسول الله ﷺ؟ قال: أقضي كتابك وأتزوجك . قالت: قد فعلت. فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية، فأرسلوا ماباًيديهم من السبي. قالت: فلقد أُعْتِق بتزوجه إياها مائةُ أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

وأمر الشيء، بالألف: صار مرّاً، وهو الصحيح المرتضى، وقد يقال: مَرَّ، بدون ألف، وهو على غير قياس. قال الشاعر: (من بحر الكامل)

ولئـــن أمـــر بكـــل آن ليـــلة فـلربمـا انجلى بـليـل مصبـح

فكأن الناظم يقول: إن قَابَل ضوءُ الشمس الذي يظهر ضـوءاً آخر متقدم عليه مغيب[1] ، وكما انقضى ذلك المغيب ينقضي هذا الظاهر ، إذ لولا انقضاء المغيب لم يكن للظاهر ظهور ، ولكل شيء تدعو إليه ضرورة الحياة ويوجب العيش فإن جلاءه كالماء المروي ينتقل من حالة حلاوته إلى حالة مرارته ؛ إما لكونه مراً زعاقاً ، أو ملحاً أجاجاً لطبعه ، أو لما يعرض للإنسان من العوارض التي تقتضي مرارة العذب الزلال في فيه كالحمى الصفراوية والسم الشديد . قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ومن يك ذا فـــم مـــرٍّ مـــريضٍ يجـــد مـــراً بـــه المـــاءَ الزلالا

وقال جساس لأبيه لما قتل كليباً سيد بني وائل: (من بحر الوافر)

تـأهب عنـك أهبـة ذي وشـــاح فـــإن الأمـــر جـــل عن التـــلاحي
فـــإني قـــد جنيت إليـك حـربـاً تُغِصُّ الشـيخَ بـالمـاءِ القـراح[2]

واعلم أن المرارة تعقب الحلاوة من غير تراخ إذ لا واسطة بينهما، فبينما الشيء حلو إذ

---

(١) هذه العبارة في النسختين غير واضحة، وفيها تفكك.

(٢) العجز في (ب) هو: (يقضي الشيء بالماء القراح)، وهو الصواب.

صار مراً، وليس المراد بهذا خصوص الماء بالمرارة، وإنما المراد بالمر كل ما لايوافق الطبع ولا يجلب النفع من حال أو مكان أو زمان. قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وكم من يدٍ قبلتها عن ضرورة وكان هوائي قطعها لو يُمَكَّنُ
ولكن على حلو الزمان ومره أدافع عني بالتي هي أحسنُ

وقال غيره:

إذا ما الدنيا احلولت أمرت وإنْ هي استلانت قست
وإن هي استقَامت تَولت

وهذا منه مبالغة في تقلب الزمان ومحاينة[1] الأحيان وتغير الأعيان. والمقصود التزهيد في الدنيا بالتنفير من متاعها لانتهاء غايتها إلى التنغيص، والمراد بعد النزهة والافتخار وبعد الحلاوة والبهاء يأتي العنقفير[2] الدهماء. وما زهد من زهد في الدنيا إلا بوجدان مرارتها. وفي الحديث: ((يا دنيا مري على أوليائي ولا تحلوي لهم فتفتنيهم))[3].

* * *

---

(١) المحاينة: انتظار وقت معين.

(٢) العنقفير: الداهية.

(٣) حديث « يا دنيا مري على أوليائي » تقدم. في ص ١٠١ ـــ ١٢١

بـاب

ما يكسر فيقصر ويضم فيمد وعكس ذلك والمعنى واحد

هذان نوعان من المقصور والممدود: الأول ما يقصر إذا كسر، وإنما جعلهما في ترجمة
[واح]دة لأنه لم يجد لكل منهما على حدته العدد الذي يتضمنه البيت من الكلمات حسبما التزم
[...]؛ إذ ليس للأول إلا كسر الفاء مع القصر وضمها مع المد، ولا للثاني إلا اللُّقَى بالضم
[والق]صر، واللقاء، بالكسر والمد، حسبما تضمن ذلك قول الناظم رحمه الله:

١ــ وَذُو الْقِرْفِصَى عَنْ قُرْفُصَاءَ مُحَاسَبٌ غَـداً في اللُّقَى فَلْيُخْشَيَنَّ لِقَـاءُ

قوله: (وذو القرفصى): يعني أن صاحب حلسة القِرفصى، بالقصر والكسر، وكذلك
[بالض]م والمد: هيئة المحتبي بيده لابثوبه، تقول: قرفصتُ فلاناً: إذا شددته جامعاً يديه تحت
[رجلي]ه. واللُّقى، بالضم والقصر، واللِّقاء، بالكسر والمد: مصدر لقيت. وفي شرح التسهيل قال:
[لا أع]لم مصدراً على فُعَل إلا اللقى والقُفى والهُدى والبُكا والسرى.

فكـأنه يقول: إن الشخص صـاحب الجلسـة المخصوصة المسماة بالقرفصى محاسب
[علي]ها؛ فيسأله الله عما قصد بها يوم القيامة، وهو يوم لقائه تعالى، فلا تخفى عليه خافية من
[أعمال] العبيد، فيسأله عما قَل وجل منها حتى جلسة القرفصاء مثلاً، ومن نوقش الحساب فقد
[هلك].

[و]يروى أنه ﷺ بينما هو جالس في حجرة عائشة رضي الله عنها إذ تذكر الحسـاب
[فقال] ﷺ: ((من حوسب عذب)) فقالت عائشة رضي الله عنها ــ وكانت كثيرة الغوص
[على الم]عاني ــ فقالت له: كيف ذلك يا رسول الله ؟ بعد أن قال الله في كتابه: ﴿ **فسوف [يحاس]ب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً** ﴾ [الانشقاق:٩] فقال رسول الله ﷺ:
[((إنما] ذلك العرض وأما من نوقش الحساب فإنه يعذب))[١].

(١) حديث: « من نوقش الحساب... الخ » متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ: « من نوقش الحساب
[عذب]». وفي الطبراني: « من نوقش المحاسبة هلك » والله أعلم.

وذلك أن العبد لامحالة محاسب عند اللقاء؛ فينبغي أن يكون أخوف شيء عنده اللقاء
فيقتضي فحو الكلام تخويف العبد من اللقاء لأجل ما يكابده من معاناة الحساب؛ وذ
المقصود من قول الناظم: (فليخشين لقاء): مركب للمجهول موصول بنون التوكيد ليك
ذلك أبلغ في التهويل، أي فليرهبن من اللقاء لأجل ما فيه من المحاسبة التي من حقها أن يش
من هولها العذارى النواهد لشدة بأسه وأليم تَعسه، وقَد ألجم الناس الفرق، وكثر الخوف والق
إذ صارت أفئدتُهم هواء، والجبال هباء، ولم يبق الله أرضاً ولا سماء، وأقبلت النار بزفراتها
دهم الناس هول غمراتها، فهم جاثون على الركب، فلم ينتفعوا بالمال ولا بالحسب، وهم يخا
أن يكونوا من جملة الحطب، وقد ذهلوا من رحبة اليحموم واللهب، وتيقنوا حلول المحا
والعطب، فلا شفيع يشفع، ولا حيمم ينفع، ولا حلية لما حم تَدفع، إلا من بعد أن يأذن
لمن يشاء ويرضى، فيشفع الحبيب المنتخب المرتضى، لجميع الخلق في الفصل بينَهم والقضا،
بعد ما ألهت كل نبي مرسل نفسه، ولم يبال ما فعل ابنه ولا عرسه، حتى إذا أذهب المخص
بحضرة القدس الغمرات، وأزال عن جميع السكارى السكرات، فنشر اللواء، وذهب اللأ
وانزاحت بظهور طلعته الغماء، وانقشعت الشدة واضمحل البلاء، فيشفع حينئذ الشفع
وتنشر الآلاء والنعماء، فمن أدخل الجنة فقد فاز، ونجا من جميع المكاره وفاز؛ جعلنا الله
أولئك، ومتعنا بقرة العين فيما هنالك، آمين.

* * *

قال رحمه الله :

باب

ما يضم فيقصر ويفتح فيمد والمعنى واحد

يعني أن المقصور مضموم لا مفتوح، والممدود مفتوح لامضموم

ثم قال رحمه الله :

١٥ ـ وإنْ كُنْتَ ذَا رُغْبَى فَرَغْبَاءَكَ صْرِفَنْ
لِدَارِ البُقَى مَا في دُنَاكَ بَقَاءُ

قوله: (وإن كنت ذا رُغبى): أي: وإن كنت أيها المؤمن أو المريد أو السالك صاحب ة أو لك رغبة لامحالة أو ميل لنفسك إلى شيء فاصرف رغبتها إلى ما هو أهل للرغبة، وردَّ ك إلى دار البقاء إن لم تكن لك همةٌ عالية تسمو بك إلى استفراغ رغبتك وقصور محبتك محبة الواحد القهار دون دار القرار، فكيف ترضى همةُ موحد عارف أو ولي مكاشف طاء ذرة من محبتك لهذه الدار المملوءة بالأكدار، لأنه لايرضى بمحبة مالا يبقى إلا الحمقى.

فالرُّغبى، بالضم والقصر، كالرَّغباء، بالمد والفتح: الرغبة في الشيء. والبُقى، بالضم صر: لغة في البقاء، بالفتح والمد.

يروى أن الله جعل لكل نبي دعوة مستجابة، فكل من الأنبياء قدمها في الدنيا إلا ﷺ ، فإنه ادخرها للعقبى اختياراً منه للدار الباقية على الدار الفانية، وذلك من علامة قدره، وعلو همته، وفخامة شرفه، وظهور فضله على جميع الرسل، كما اختار كونه نبيّاً عبداً ير بين أن يكون نبيّاً عبداً أو نبيّاً ملكاً ، فلما اختار العبودية المحضة رفعه بها إلى غاية لم ها نبي مرسل ولا ملك مقرب؛ فأسري به إلى حضرة القُدس ومحل الأنس، وحضرة اح ورؤية الملاح، فكع دون سيره جبريل، وقصر دون ما ناله الكليم والخليل، فأبهم الأمر وجه التعظيم، وضرب من دونه حجاباً ليدل ذلك على التفخيم، فقال: ﴿ **فأوحى إلى عبده حى** ﴾ [النجم: ١٠]، ثم وصفه بوصف خُص به دون السوى؛ إذ هو صاحب اللوا، : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾ [النجم: ١٧] وما تلجلج اللب وما بغى، ولاطاش ان ولا لغا، وما مال الحاضر ولاشَغا، بل تواطأ القلب والقالب، والحضرة والحضيرة،

والأدب والتـأديب، والقـربُـة والتقريب، والحب والتحبيب، والنسبـة والانتسـاب، والحظ والاكتساب، والطفو والرسوب، والحضرة والعزوب، إذ قَرب من حضرة الرب المربوب،قرب مكانة لاقرب مكان، وسير تحبب لاسير زمان، برمز قول الرسول ﷺ إذْ أفْتى: ((لاتفضلوني على يونس بن متَّى))[1]. وفي تنزيهه نفسه في قوله تعالى: ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده** ﴾ [الإسراء: ١] ما يدل على نفي قربه وبعده، فسبحان من ليس بالقريب وصلاً ولا بالبعيد فصــلاً، فهو أقربُ من حبـل الوريد في الهداية والتسديد، وأبعد من العرش المجيد في حد الخذلان والتبعيد. فشتـان ما بين من قيـل في حقـه: ﴿ **سبحـان الذي أسـرى بعبده** ﴾ [الإسراء: ١] وبين من قيل في حقه: ﴿ **فأسْرِ بأهلك بقطع منَ الليل** ﴾ [هود: ٨١] وبين من قيل حقه: ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطـاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾ [الفتح: ٣] وبـين من قال: ﴿ **إنه كان بي حفيّاً** ﴾ [مريم: ٤٧]،فمغفرته ﷺ على حد اليقين، ومغفرة غيره على حد الرجاء، وكذلك هدايته بالنسبة إلى هداية غيره، فليس قول الله له: ﴿ **ويهديك صراطاً مستقيما** ﴾ [الفتح: ٣] كقول غيره لنفسه: ﴿ **إني ذاهب إلى ربي سيهدين** ﴾ [الصافات: ٩٩]، و ﴿ **عسى ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾ [القصص: ٢٢].

ثم قال رحمه الله :

١٥٥ ــ وَنُعْمَى تَلِي نَعْمَـاءَ فَاشْكُرْ مُشَمِّراً لِجُـلَّى فَـذَا الْجَـلاَّءِ زَانَ عَزَاءُ

قوله: ونُعمى، بالضم والقصر، كنَعمـاء، بالفتح والمد: النعمـة في الحالتين. والجُلَّى، بالضم والقصر، والجَلاَّءُ، بالفتح: الحادثة العظيمة.

قال صاحب لامية العجم: (من بحر البسيط)

فقـلت أدعـوك للجُـلَّى لتنـصرني وأنت تخذُلني في الحـادث الجـللِ

وقال الحجاج بن يوسف: (من بحر الوافر)

أنـا ابن جَـلاَ وطـلاعُ الثنـايـا متى أضـعِ العمـامـةَ تعـرفوني

---

[1] حديث: « لاتفضلوني على يونس بن متى... الخ» متفق على صحته رواه الشيخان والنسائي بلفظ: « ما ينبغي لعبد أن يقول: انا خير من يونس بن متي ونسبه إلى أبيه » البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم كتاب الفضائل، والله أعلم.

والعزاء: الصبر، وقد قدمت في أجره ما يشفي ويكفي. ونعمى: مفعول فاشكر. وجملة
لي): صفة لنعمى. ومشمراً: حال من فاعل(اشكر)، والتشمير للأمر: التهيؤ له، والذي في
ناموس بهذا المعنى: التشمر، بفتح الشين المعجمة وضم الميم مشدداً، فالتشمير بمعنى التشمر.
لام الجُلى للتعليل. وذا الجَلاء، بالنصب: مفعول زان، وعزاء: فاعله.

فكأنه يقول: اشكر النُّعمى بعد النَّعْماء، وتهيأ لأجل حلول البلوى؛ فإن ذلك مما يعينك
لى الصبر عليها. والعزاء زين لصاحب الجلاء. والعزاء الصبر؛ فقد اشتمل البيت على مقصدين
ظيمين لا محيص لأحد عنهما: وهما الصبر على البلوى، والشكر على النعماء، فلا بد من
جمع بينهما لعدم قيام أحدهما مقام الآخر؛ فالشكر لايسقط الصبر، والصبر لايسقط
شكر، وقد قَدمتُ في صدر الكتاب في شأن الصبر والشكر مالا مزيد عليه، فالفقير تقتضي
حالته الصبرَ، كما أن الغني تقتضي حالته الشكرَ، فلا حالة إلا ويجب عليه الصبر على ما دونها
غضُّ البصر عنها.

قال رسول الله ﷺ : ((انظروا في الدنيا إلى من هو دونكم ليؤدين ذلك شكر ما أنتم
ه، ولاتنظروا إلى من هو فوقكم فتزدروا نعمة الله عليكم))[1] .

ثم قال رحمه الله :

١٥ ــ وبُؤْسَى اخش فَالْبَأْسَاءُ حَقُّ مُخَالِفٍ حُـلاَوَى قَفَـاهُ لِلْهَـوانِ مُبَـاءُ

والبُؤسى ، بالضم والقصر، كالبأساء، بالفتح والمد : ضد النعمى والنعماء ، وحق
خالف: مايقضى به له من سوء الجزاء. وحُلاوى القفا، بضم الحاء والقصر، ولامه مفتوحة
عدها ألف، ومثله حلاواؤه ، بفتح الحاء والمد، وهذه هي اللغة المتروكة من النظم. ومباء، بضم
ميم: اسم مفعول من أباء بالمكان: انقطع إليه، وحله ، وأقام به ، بمعنى تبوأه ، أي: اتخذه مبوأ .
الهوان : الذل مصدر هان أي : ذل، كالمهانة والهُون بضم الهاء .

فكأنه يقول : خف المكر والنقمة المؤديين إلى سلب النعمة بسبب ارتكاب المعاصي
حطها بطاعة ربك تَدم لك نعمته ، ولا تخالفه فتحيق بك نقمته وهي البأساء ، فإنها جزاء

---

(١) حديث: « انظروا في الدنيا إلى من هو دونكم ... الخ » متفق عليه بلفظ : « انظروا إلى من أسفل
كم ولاتنظروا إلى من فوقكم ؛ فإنه أجدر أن لاتزدروا نعمة الله عليكم » .
ولأحمد وابن حبان عن أبي ذر : « أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو
وقي » ، أما لفظ الشيخ فلم أجده ، ولعل كلمة في الدنيا زائدة من أحد النساخ ، والله أعلم .

المخالف لأمر ربه، فَإنّه يكون ذليلا لأجل ذلك عاجلا . وجعل نقرة قفاه ، أي: وسطه ، محا
للذل ؛ لأنه أول ما يظهر فيه، وخص القفا لكونه محلاً لما كان يظهر من آثار الذل والهوان م
الطأطأة والانكسار . قال الله تعالى : ﴿ **فظلت أعناقُهم لها خاضعين** ﴾ [الشعراء:٤]
وقال الشاعر : (من بحر البسيط)

ذلتْ رقاب بني النجار كلهم إذ غادروه جميعاً بينهم حسرا

ولأن الذمي من سنته أن يقَام فيصفع على رقَبته ثم تؤخذ الجزية منه، قال الله تعالى
﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ [التوبة:٢٩] ؛ ولذلك يوصفُ العزي
باستقامة العنق وبكونه أصْيَد[1] ، أي مرتفع العنق، إلى جهة قفاه مع اعتدال، وذلك من شد
رفعه إياه كبراً وخيلاء ، وهو من صفة الملوك والمتكبرين .

ويروى أنه لما ضُربتْ الذلة والمسكنة على بني إسرائيل وباؤوا بغضب من الله لاتجد أح
منهم إلا مُطأطىء العنق، يغشاه الذل والهوان وعلامة المسكنة، ولو كان من أكثر الناس أموالاً
ولذلك كان صفع قفا ذي المروءة في ملأ من الناس مما يبالغ فيه في تعزيره، وهو أشد مايعز
به .

وكون المعصية تورث العاصي ذلاً عاجلاً لكون الطاعة تورث المطيع عزّاً عاجلاً أم
محسوس؛ ولذلك قال النبي ﷺ : ((لاينبغي للمؤمن ان يذل نفسه))[2] . قيل: معنى ذلك
أنه لاينبغي له أن يرتكب معاصي الله فيذل عند الله وعند رسوله وحفظته وعند عباد الل
الصالحين، حتى يُفضي به ذلك إلى تهاون الجن به وازدراء البهائم له .

قال الحسن رضي الله عنه : إني لأفعل الفعلة فأجد ذلك قد أثر في خلق دابتي، فإ
اقلعت عنها ونَدمتُ عليها ورجعتُ إلى الله بالتذلل والضراعة استقام لي خلق دابتي كما كان .

واخرج السيوطي رضي الله عنه في كتاب (الخصائص الكبرى) : ومن المعجزات أ
حمار النبي ﷺ يعفور لما أتي به سجد بين يدي النبي ﷺ وقال : الحمد لله الذي خصن
بك ، كنت آخر حمار من نسل الحمير التي كانت تركبها أنبياء بني إسرائيل ، وكنت عن

(١) الأصيد: الرجل الذي يرفع راسه تكَبُّراً .

(٢) حديث: « لاينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » رواه أحمد والترمذي وصححه ، وابن ماجه بزيادة « قيل: كيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لايطيق » . وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٣١٣٦ ، والل أعلم .

دي ، وكان إذا ركبني تعثرتُ به عمداً لبغضي إياه ؛ بسبب كفره ومعصيته ، فلم يبق من
نبياء غيرك، ولم يبق من نسل الحمير التي كانت تركبها الأنبياء غيري[1] .
وكان ﷺ يرسله إلى من يشاء من أصحابه فيأتيه؛ فيقرع عليه بابه برأسه ، فإذا رآه
صحابي علم ان رسول الله ﷺ بعثه إليه لما يعلم من عادته ، فلما توفي رسول الله مكث
ه يومين لم يأكل ولم يشرب ، فلما كان اليوم الثالث تردى في بئر من آبار المدينة فمات .

اللهم اعزنا بطاعتك ، ولاتذلنا بمعصيتك، يامن لم تنفعه طاعة مطيع ولاتضره معصية
ص، ياذا الطول والحول، يا من بيده نواصينا ، وبِتوفيقه طاعتُنَا ، وبِعَدْله معاصينا .
ثم قال رحمه الله :

١٥ ــ وغُمَّى اجْلُ فَالْغَمَّاءَ مَنْ يَجْلِها يَفُزْ بعُـلْيَـا وذُو الْعَلْيَـاءِ ذَاكَ يَشَـاءُ

قوله : الغُمىَّ ، بالضم والقصر : كالغماء ، بالفتح والمد: الشدة التي يعسر الاهتداء إلى
شفها ، وقيل: هي التي تغم العقل حتى لايهتَدي صاحبها إلى حيلة يكشفها بها . والغماء :
الأغم .

قال رسول الله ﷺ ((اللهم فارج الغم، كاشف الهم، مجيب دعوة المضطرين، رحمان
نيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمني؛ فارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك، إنك على
شيء قدير)) ؛ تستعمل لقضاء الدين وتفريج الهموم والغموم .

ويروى أن جبريل عليه السلام لما أتى النبي ﷺ وهو في النزع قال: إن الله أرسلني
ك بخاصة وكرامة لم يرسلني بها إلى رسول قبلك، قال له: وماهي؟ قال له: إنه يقول لك وهو
لم بحالك: كيف تجدك يا محمد؟ قال له: أجدني مغموماً وأجدني مهموماً ، فقال له لا غم
يك بعد اليوم؛ فإن الملأ الأعلى قد استبشروا بقدومك ، وإن حضرة القدس قد هُيِّئت لقدوم
حك ، وإن الله قد اشتاق إلى لقائك ، فقال له: ليس عن ذلك أسالك ، وإنما اسألك عن
مّي وهمِّي وهو ما تصير إليه أمتي، من لها بعدي؟ فقال له: إن ربك يقول لك: أنا خليفتك
بعدك على أمتك ، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه ما حاسبت أمتك ، فقال: الآن
ابت نفسي للموت ياجبريل، فإذا عزرائيل يستأذن، وما استأذن على أحد قبله ولا يستأذن
أحد بعده إلى يوم القيامة، فأذن له فقال: السلام عليك يا محمد، إن الله أمرني بطاعتك،

(١) قصة الحمار التي أورد السيوطي وعنه الشيخ رحمه الله لم أجد لها سَنداً .

فإن أمرتني بقبض روحك قبضتها، وإن أمرتني بتركها تركتها . فالتفت النبي ﷺ إلى جبـ
كالمستشير ، فقال له : إن الله قد اشتاق إلى لقياك ، فقال النبي ﷺ لعزرائيل : افعل مـ
لك ، فانصرف جبريل ؛ فقال له :يا جبريل، تصاحبني في الرخاء وتفارقني في الشدة؟! فـ
له : يامحمد من يقدر أن ينظر إليك ونفسك تُنْزَع بين جنبيك؟! فانصرف[1] .

ويروى أن بعض الصحابة سمع بكاء في جو السماء وهو يقول: وامحمداه ! وفي ذ
يقول الشاعر : (الخفيف)

بكت الأرض والسماء عـــليـــــه وبكـــــاه خـــليــــله جـــبريــــل

والعُـليـا ، بالضم والقصر ، والعـلياء ، بالفتح والمد: المنزلة الرفيعة . والفوز : الظـ
ويطلق ويراد به النجاة .

ويروى أنه لما ضرب ابن ملجم ــ ألجمه الله بلجام من النار ــ علياً فلمس جبهته فـ
دماغه قد انتثر عليها قال: فُزتُ ورب الكعبة، فيحتمل أن يكون معنى قوله: فزت: نجوت
الدنيا وغمها وأهوالها كما كان دأبه الفرار منها ، ويحتمل أن يكون فزتُ بالشهادة والظفر بدخـ
الجنة .

فكأنه يقول: اكشف الشدة التي يعسر كشفها ، وفرج الضيق الذي يصعب تفريجـ
فإن من يفعل ذلك يظفر بمنزلة رفيعة، وصاحب المنزلة الرفيعة، أي مالكها ، من عادته تفر
الكروب على المكروبين رغبة فيما عند الله تعالى من الثواب الجزيل، والثناء الجميل، والدعـ
الصادق كما في قوله ﷺ : ((من فرَّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرَّج الله عنه كربة مـ
كرب الآخرة))[2] .

وفي حديث آخر: ((من دفع عن مؤمن كربة لاقدرة له على دفعها إلا به دفع الله عـ
سبعين كربة من كرب يوم القيامة)) .

وتفريج الغمة مما يثيب الله فاعله ثواباً جزيلا ويحبه ويصطفيه ، وناهيك بثواب يثيب ا
به سبحانه من فعل فعلا يحبه .

ويصح أن يفسر (ذو العلياء) بالشخص صاحب المنزلة الرفيعة بسبب ما اتصف به مـ

---

(١) قصة جبريل هذه لم أجد لها سنداً صحيحاً ، ولا أظنها ثابتة عنه ﷺ ، والله أعلم .

(٢) حديث « من فرج عن مؤمن كربة... الخ » صحيح، وتقدم تخريجه في ص (٣٠٢)

الأخلاق الجميلة: كعلو الهمة، ونزاهة النفس، ولين الجانب، وسهولة الخلق، وهو أجل مايكون عليه الإنسان صاحب المنزلة الرفيعة؛ فينشيء ذلك، أي يوجب، الفوز بالعلياء، ومن أحب شيئاً فعل ما يوصله إليه. وكشف الغمى عمن لايستطيع كشفها عن نفسه؛ فيكون مبالغة في الترغيب في كشف الشدائد وتفريج الغم على كلا التقديرين؛ فاعتبر ذلك .

وهذا هو المسمى بالإرقال : وهو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها« فالمعنى هنا الحث على كشف الغمى وقد تَم بقوله: (فالغماء من يجلها يفز بعليا) . فقوله: (وذو العليا ذاك يشاء) فيه زيادة مبالغة في ذلك لا تكميل له ، ويصح أن يكون تذييلاً : وبيان ذلك ان قوله: (يفز بعليا) أي : يحصل له الفوز بها من عند مالكها، فيفهم ذلك أن تفريج الغمى محبوب له وإلاَّ لم يفز المفرج بالعليا المملوكة؛ لأن الفوز بها تمليك منه ــ والتمليك منه، والتمليك فعلة باختيار من غير تكلف ولا تكليف ــ فلا يملك لعلياء الأمور الشاقة التي لايحبها كل أحد ولايجيب إليها إذا دعي لقلتها ومخالفتها لهوى النفس، كما في قول الشاعر: (من بحر الطويل)

ولن يكشف الغمــــاء إلا ابنُ حــرةٍ يــرى غمــرات المــوت ثم يــزورهــا

ويكون قوله: (وذو العلياء ذاك يشاء) مؤكداً لذلك المفهوم، وهذا هو التذييل .

* * *

باب

مايفتح فيقصر ويمد والمعنى واحد

يعني أنه قد وقع الاتفاق هنا في الحركة والمعنى كالمادة .

فقال رحمه الله :

١٥٨ ــ قَوىً وَحَزىً فَحْوَى وحَلْوَى بَها وَنَى وهَيْجَا مَعَ الدَّهْنَا قَصاً وَبَدَاءُ

قد ترك الناظم الأسلوب الذي كان عليه : من الازدواج ، والجناس الناقص، والتلويح ب والاقتباس، والتضمين، والاستطراد، فنفض هنا من جميع ذلك يديه، وعمد إلى جمع النظائر مجرداً عن تضمين المعاني بتلك المباني فقال:

قَوىً ، بالفتح والقصر ويمد : مصدر قَوِيتْ الأرض ، بكسر الواو: إذا اقفرت . والحزى ، بالحاء المهملة والزاي كما في القاموس، خلافاً لما في الجوهري فإنه ذكره بالخاء المعجمة، وهو بالقصر والمد : نبتٌ تزعم العرب أن الجن لا تدخل بيتاً يكون فيه . وفحوى ، مقصورة : ما يفهم من معنى الكلام . وفحاء ، ممدودة: جزالة الكلام وحسن تركيبه ومواطأة لفظه لمعناه ، يقال له: فحوى الكلام، بالقصر، وفحواؤه ، بالمد : مايظهر من معناه مما لايعلمه إلا اربابه من اذكياء العرب ومن تفحل في أنواع البلاغة ، وله أبواب: فحوى الخطاب، ولحن القول، والتلويح، والتلميح، والمنابذة، والتورية . والحلوى والحلواء، بالقصر والمد: كل طعام عولج بحلو .

وفي الخبر : ((كان ﷺ يحب الحلواء والعسل))[1] ولم يكن حبه ﷺ إياها تشهياً ، وإنما كان يأخذ منها أخذاً صالحاً إذا وجدها؛ إما لمعنى طبي يعلمه فيها، وإما أن تكون موافقة لطبعه .

---

(١) حديث « كان النبي ﷺ يحب الحلواء والعسل » متفق على صحته رواه الستة إلا الترمذي، وهو عند البخاري في كتاب الأطعمة .

واغلب الروايات تقدم العسل على الحلواء والله أعلم .

وفي حديث واه : أن الله يحب التمر ويحب من يحبها[1] .

وكان ﷺ كلّما أصبح اصطبح بعسل ممزوج بماء بارد، يسكن بذلك الحرارة الغريزية ، ويدفع بها حَرَّ الإقليم ، وهواء الحجاز ؛ لأنه أشد بلاد الله حرارة، وكان ﷺ يقول : ((الشفاء في ثلاث: كية من نار، أو جرعة من عسل، او آية من كتاب الله ، ولا أحب أن أكتوي))[2] .

ويروى أنه ﷺ أتاه رجل فقال له: يا رسول الله، إن أخي قد استطلقت بطنه ، فقال: اسقه عسلا، فذهب فسقاه ، ثم اتى النبي ﷺ فقال له : مازاده العسل إلا استطلاقاً ، فقال له: ارجع إليه فاسقه عسلا، فلا أدري أفي الثانية أم في الثالثة لما قال له: مازاده العسل إلا استطلاقا، قال له ﷺ : صدق الله وكذبت بطن أخيك[3] . يعني قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ [النحل:٦٩] .

والبَهَى كالبَهَاءِ : مصدر بهيَ البيت، بكسر الهاء : تخرق وتعطل، وقصره أقيس من مده؛ إذ قياس مصدر (فَعِلَ) بالتحريك كالجوى والفرح. والونى ، بالقصر: الفتور، حكي مده عن الفراء. والهيجا والهيجاء: الحرب. والدهنا والدهناء: بادية بني تميم، ويطلق ويراد بالدهناء كل مفازة واسعة كأن حصباءها مدهونة لتغيرها عن البياض. قال الشاعر: (من بحر الخفيف)

كل دهنـــاء يقْصر الطـرف عنهـــا أرْقَـلَتْـهـــا قِـلاصُـنـــا إرقَـالا

والقصى ، بالقصر ويمد: فناء الدار. والبذاء ، بالذال المعجمة والمد وقد يقصر: السفه وقلة الحياء .

فقوى: خبر مبتدأ محذوف، أي هو قوى وحزى وفحوى.. إلى آخره كذلك ..

ثم قال رحمه الله :

١٥٩ ــ وبِزْرُ قَطُونَى والكَثيرَى الجَفَا الرَّحَى وهِنْبَـاءُ أيْضـاً والضّحَى وَسَفَـاءُ

---

(١) حديث « إن الله يحب التمر لم اقف عليه ويكفي ان الشيخ قال: إنه واه . »

(٢) حديث « الشفاء في ثلاث.. الخ » صحيح رواه البخاري وابن ماجه ، وهو عند البخاري في كتاب الطب بلفظ : (الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، وشربة عسل، وكية نار، وانهى أمتي عن الكي) ، والله أعلم .

(٣) حديث « أنه ﷺ أتاه رجل فقال له يارسول الله إن أخي .. الخ » حديث متفق على صحته رواه الستة إلا أبا داود وابن ماجه ، وهو عند البخاري في كتاب الطب وفيه: يشتكي بدل استطلقت بطنه ، والله أعلم .

قوله: وبزر قطوني: مضاف ومضاف إليه والبزر، بالزاي والراء، وهو ما يكون من الحب في جوف البقول ونحوها. وقَطوني، بفتح القاف وضم الطاء المهملة: نباتٌ له بذر، ذكره ابن القوطية في الأسماء العجمية المعربة كالنانجي والقسطاس والبرسيم والدَّرنُوكِ وغير ذلك .وذكر الناظم جواز الوجهين فيه . والكثيراء : رطبة تخرج من أصول شجر يكون بِشرورَى وجبل لبنان . والجفاء ، بالمد والقصر : ضد الصلة . والرحى ، بالقَصر : آلة الطحن ، حكى الجوهري مدها . والهِنْبَا ، بتقديم النون على الباء مقصور وممدود : المرأة الشديدة البله، ولفظه في بيت الناظم ساكن النون ، وصوابه التحريك، ولعل الناظم إنما حمله على ذلك ضرورة الشعر، ونظير المقصور : أجَلَى : موضع ، وبردى : نهر بدمشق، وهو كثير . ونظير الممدود : حنفاء وقُدماء ، بالتحريك: موضعان، قال ابن القوطية : لم يأت غيرهما إلا ما تقدم مما اشترك مع فعلاء الساكن العين كثأداء وأأباء ، بتحريك الهمزة وتسكينها فيهما . ومن هذا الباب نُفْساء لغة في النُفَساء ، بضم النون وفتح الفاء ، وهي قريبة العهد بالولادة . ومنه السحناء ، والسحناء الهيئة ، وقيل : بياض ولين البشرة. والضحى في بيت الناظم بالقصر ويمد وقصره أقيس : وهي مصدر ضَحِيَ أي : برز للشمس . والسفَاء ، بالمد وقد يقصر : خفة الناصية .

ثم قال رحمه الله :

١٦٠ ــ وعَوَّى وَعَاشُورَى مَنَاةَ مَعَ الْغَرَى كَذَا زَكَرِيَّا وَالجَرَى وَوَحَاءُ

فَعَوَّى ، بوزن قضَّى بتشديد العين: نجم في برج السنبلة ، وهي العذراء ، وقصرها أكثر من مدها ، وقد تمد كما قال الشاعر: (من بحر الخفيف)

خزرجي لو يستطيع من الغيـ ـظ رمانا بالنسر والعَواءِ

وفي قصرها يقول الحطيئة : (من بحر الطويل)

ولو بلغت عوى السماء قبيلةٌ زادَتْ عليها نهشلٌ وتعلت

وقال الخَطْمي في المد : (من مجزوء الرجز)

وأنثرت هواءها تناثر العِقد انقطع

وعاشورى ، بالقصر وقد تُمد . ومناة، بالقصر: اسم صنم. والغرى ، بالقصر: مصدر غري بالشيء، بالكسر: أولع به، وحكي عن يونس وسيبويه مده. وزكريا، بالقصر والمد معلوم، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل. والجرى ، بالجيم والقصر وقد تمد: اسم الجارية والوحاء ، بالواو والحاء المهملة والمد وقد يقصر : السرعة .

ثم قال رحمه الله تعالى :

باب

ما يكسر فيقصر ويُمدُّ والمعنى واحد

وهو المتفق في الكسر والمعنى ، من المقصور والممدود متفقين في المادة ، فالاختلاف هنا كالذي قبله ، إنما هو بمجرد الكسر والمد .

ثم قال رحمه الله :

١٦١ ـ زِمكَّى صِناً مِشْفى زِمجَّى وَهِنْدَبَا ومِينَا وَخِصِّيصاً زِنىً وَشِراءُ

قوله: زمكى: بالزاي بوزن (فِعلَّى) بكسر الفاء والعين وفتح اللام المشددة: كالزمجى، بالجيم: أصل ذنب الطائر، وهو اليعصوص . والصِّنا بالكسر والقصر: الرماد وقد يمد. والمِشفَى ، بالكسر والقصر ، بدون همزة ، ومهموز مقصور ، ومهموز ممدود : المشط[1] . والهِنْدَبا ، بكسر الهاء وفتح الدال والقصر: بقلة من أحرار البقول، وقد قيل فيه بكسر الدال ويمد وسميت هندبا لتهدب ورقها، فظاهره أن المقصور ليس فيه إلا فتح العين، وأن الممدود ليس فيه إلا كسر العين، واحدة الهندَبا هندباة . ومِينا ، بالكسر والقصر وقد يمد: حجر الرخام، وموضع إرساء السفن. والخصيصى، بالكسر والقصر وقد يمد: خواص القوم، ويطلق ويراد به الاختصاص بالشيء . والزنى كالشرا وقد يمدان: وهما معلومان .

* * *

---

(١) عند هذا المحل في النسخة (ب) أورد المؤلف قصة سحر اليهود للنبي ﷺ بمناسبة المشط، وهذه القصة ليست في النسخة (أ)، وقد تركناها وهذا للتنبيه فقط .

باب

ما يضم فيقصر ويمد والمعنى واحد

فالحركة التي اتفقا فيها ضمة هنا .

ثم قال رحمه الله :

١٦٢ ــ صُلَيْمَى وَغُزَّى وَالجُلَنْدَى وَمَعْ أُولَى كُشُوثَى الرُّتَيْلَى اللُّوبِيَا وَبُكَاءُ

قوله : صليمى ، مضموم مقصور وقد يمد : بطن من الأزد ، وهم بنو كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن نبي الله هود بن عاد بن إرم بن سيم بن سام بن نوح عليه السلام، وهم قبيلة أبي هريرة رضي الله عنه ، والطفيل بن عمرو صاحب رسول الله ﷺ الملقب بذي النون، وكان سيداً شريفاً سريّاً[1] لبيباً مفوهاً ، وكان قد أتى مكة زمن شدة الأمر وتظاهر قريش على رسول الله ﷺ . فلما سمعت قريش بمقدمه تجمعت له ، فلما طاف البيت أقبل على أنديتهم فقالوا له: إنك يا طفيلُ سيد شريف في قومك ، وإن بين أظهرنا رجلا قد فرق جماعتنا ، وأفسد علينا النساء ، وإنما قوله الذي يقول كالسحر ، يفرق بين الرجل وابنه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنما نخشى عليك أن يصيب قومك من شره ما قد أصابنا ؛ فإياك أن تسمع من قوله حرفاً واحداً ، فلم يزالوا به حتى جعل في أذنيه كرسفاً[2] خشية أن يسمع من قول رسول الله ﷺ شيئاً .

فبينما هو في المسجد إذا رسول الله ﷺ قد دخل المسجد ، فطاف بالكعبة أسبوعاً ــ أي : سبع مرات ، يقال: سبعاً واسبوعاً ــ ثم أقبل على أندية قريش ، فدعا الله ، فأنذر، وبشر ، وتلا عليهم من كتاب الله ماتيسر .

قال الطفيلُ بن عمرو : فلما رأيت ذلك قلت في نفسي : أما يمنعني أن اسمع من قول هذا الرجل، والله إني لرجلٌ لبيب شاعر فلا يخفى عليّ القبيح من الحسن، فإن كان قوله الذي يقول حسناً قبلته واتبعته ، فلما دخل بيته جلست إليه فقلت له : يا محمد إن قومك قد

---

(١) السري : السيد والنهر الصغير ، وهو هنا السيد .

(٢) الكرسف: القطن .

حذروني أمرك وأن أسمع من قولك حتى سددت أذني بكرسف مخافة أن أسمع من قولك، فابى الله إلا ان يسمعنيه ، فسمعت قولاً حسناً ؛ فاعرض عليَّ أمرك ، فعرض عليَّ الإسلام ، وعلمنيه ، وتلا عليَّ من القرآن ، فما هو إلا أن سمعته أخذ بمجامع قلبي ، وهان علي كل ماسواه ، ووقع في قلبي من اليقين والثبات ما هو اقوى من الجبال الراسيات ، فقلت له ﷺ : ابعثني إلى قومي يارسول الله ، واجعل لي آية استعين بها عليهم ، فإني مطاع فيهم . فقال له رسول الله ﷺ ، إني قد أرسلتك إليهم، وسيجعل الله لك آية عليهم .

فانصرفت من عنده وقد أكرمني الله بالإسلام ، وامتحن قلبي بالإيمان ، فلما كنت بالثنية التي تخرجني على الحاضر خرج من ناصيتي نور كأنه المصباح؛ فقلت : اللهم في غير وجهي لئلا يقولوا: مثلة اصابتني لما فارقت دينهم، ثم انتقل ذلك النور إلى أصابعي، فقلت: اللهم في غير يدي، فانتقل إلى سوطي فخرجت على القوم، فلم يبق في القوم رجل ولا امرأة إلا قام كلهم ينظرون إلى ذلك النور الذي برأس سوطي ويعجبون منه .

فلما أتيت بيتي أنخت ، فأقبلت إلى أهلي فقلت لها : وجهي من وجهك حرام ، فقالت : لِمَ بأبي أنت وأمي ؟ فقلت لها : إن الاسلام فرَّق بيني وبينك . قالت لي : ديني دينك ، وكان عند صنم لنا وشل[1] ، فقلت لها : اذهبي إلى ذلك الوشل واغتسلي منه ، فقالت : ألا تخشى علي من الصنم ؟ فقلت لها : أنا ضامنٌ لك ؛ فإنما هو جماد لاينفع ولايضر ولا يغني من الله شيئاً ؛ فاغتسلت، ثم اسلمت . ثم اقبلت إلى أبوي، فقلت لهما مثل ذلك ، فقالا: وماذاك؟ قلت لهما: قد أسلمت ، وتابعت دين محمد ﷺ ، وآمنت بالله رب العالمين ؛ فقالا : ديننا دينك ؛ فأمرتهما بالاغتسال فاغتسلا ، فأسلما . ثم أقبلت إلى إخواني وأخواتي — وكانوا رهطاً — فقلت لهم مثلما قلت لأبوي ، وقالوا لي مثل ما قالا ، فلم يمس أحد من اقاربي إلا وقد اسلم .

ثم دعوتُ دوساً ، فاستصعبت علي . فركبت قلوصي ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ وقد هاجر إلى المدينة، فقلت له: يا رسول الله ، ادع على دوس فإنهم قد استصعبوا علي، فقال النبي ﷺ ، اللهم اهد دوساً وائت بهم تائبين ؛ فقلت: يارسول الله، أتيتك لتدعو على دوس فدعوت لهم؟! فتبسم ﷺ وقال: ارجع إلى قومك فارفق بهم، وادعهم إلى الإسلام ؛ فإن الله سيهديهم بك؛ فيكونون من خير قبائل المسلمين وأكثرها جهاداً في سبيل الله .

---

(١) الوشل : الماء القليل يتحلب من الصخر .

فرجعت إلى قومي، فدعوتهم إلى الله فرزقهم الله الإسلام ، فأتيت رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر بخمسمائة أهل بيت من دوس فرضخ لنا من المغنم[1] ، وعليهم دارت رحى الإسلام يوم اليرموك، فكانوا سبباً لفتح الشام وإبادة بطارقة الروم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ .

وغُزَّى كذلك ، جمع غاز ، و (فُعَّل) و (فعال) قد يرادان في جمع (فَاعل) معتل اللام ؛ فتقول : غُزى ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أو كانوا غُزّى** ﴾ [آل عمران :١٥٦] . وغزاة ، وقد يشدد ، وقد يؤتى فيه بهمزة المد ، فيقال : غزاء على وجه المبالغة في جمع فاعل معتل اللام . والجلندي أبو جيفر الذي أدركه الإسلام وهو جيفر بن الجلندي ملك عمان .

ذكر الواقدي بإسناد له إلى عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ بعث نفراً سماهم إلى جهات مختلفة برسم الدعاء إلى الإسلام . قال عمرو: فكنت أنا المبعوث إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، وكتب رسول الله ﷺ معي كتاباً ، قال: وأخرج عمرو الكتاب، فإذا صحيفته أقل من الشبر ، فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد بن الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد : فإني أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله للناس كافةً لأُنْذِرَ من كان حَّياً ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن اقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلي تَحل بساحتكما ، وتظهر نبوتي على ملككما » . وكتب أبي بن كعب ، وختم رسول الله ﷺ الكتاب .

ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ، وكان أحسن الرجلين خلقاً وألينهما وأسناهما خَلْقاً ، فقلت : إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكَ وإلى أخيك ، فقال : أخي هو المقدم علي بالسن والملك ، وإني أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك .

ثم قال لي: وما تدعو إليه؟ قلتُ : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وان تخلع ما عُبِدَ من دونه ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال: ياعمرو، إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة ؟ قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ،

---

(١) رضخ: أعطاهم.

د كنت على مثل رأيه حتى هداني الله إلى الإسلام . قال : فمتى اتبعته ؟ قلت : قريباً ، سألني : أين كان إسلامي ؟ فقلت له : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم . ل : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان اتبعوه ؟ ت : نعم . قال : احذر يا عمرو ماتقول ؛ إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من ذب . قلت : وما كذبت وما نستحله في ديننا .

ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي ؟ قلت : بلى ، قال : بأي شيء علمت ك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجاً ، فلما اسلم وصدق بمحمد ﷺ قال لي : والله سألني درهما واحداً ما أعطيته إياه ، فبلغ هرقلَ قوله . فقال له بناق[1] أخوه أتدع عبدك يخرج لك خرجاً ويدين ديناً محدثاً قال هرقل : رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما اصنع ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت مثل ماصنع .

قال : انظر ما تقول يا عمرو ، قلت : قد والله صدقْتُك . قال عبد : فاخبرني ما الذي مر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عزَّ وجلَّ وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة حم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وشرب الخمر ، وينهى عن عبادة الحجر والوثن صليب . فقال له : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه وأجمله ، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى من بمحمد ونصدق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً . قلت : إنه إن لم ملكه رسول الله ﷺ على قومه ؛ فأخذ الصدقة من غنيهم فردها إلى فقيرهم . قال : إن ا لخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات حتى انتهيت الإبل ، قال : يا عمرو تُؤخَذُ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ قلت : م ، قال : والله ماأرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذه .

قال : فمكثت ببابه اياماً وهو يصل إلى أخيه ويخبره كل خبري ، ثم إنه دعاني يوماً خلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي ، فقال : دعوه ؛ فأرسلوني ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن عوني أجلس ، فنظرت إليه ، فقال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوماً ، ففض تمه ، فقرأ حتى أنتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه ، فقرأ مثل قراءته ، إلا أني رأيت أخاه أرقَّ ، ثم قال : ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت ؟ قلت : اتبعوه، إما راغب في الدين، وإما

(١) في النسخه (ب) : يناو .

مقهور بالسيف. قالا: ومن اتبعه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة ، وأنت إن لم تُسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويُبيد خضراءك ، فاسلم تسلم ويستعملك على قومك ، وإلا تَدخل عليك الخيل والرجال . قال : دعني يومي هذا وارجع إلي غداً . فرجعت إلى أخيه ، فقال : ياعمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه .

حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لي ، فانصرفتُ إلى أخيه ، فأخبرته أني لم أصل إليه ، فأوصلني إليه ، فقال : إني فكرت فيما دعوتني إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما بيدي ، وهو لاتبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله لقيت قتالاً ليس كقتال من لقي قبلنا . قلت : فإني خارج غداً . فلما أيقن بخروجي خلا به أخوه فقال : ما نحن فيمن قد ظهر عليه إلاّ كأكلة شاة ، وكل من أرسل إليه أجابه .

فلما أصبح أرسل لي فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً وصدقا بالنبي ﷺ ، وخليا بيني وبين الصدقة والحكم فيما بينهم ، وكان لي عوناً على من خالفني[1] .

وفي حديث غير الواقدي أن عمراً قال له فيما دار بينهما من الكلام : إنك وإن كنت منا بعيداً فإنك من الله غير بعيد، إن الذي تفرد بخلقك أهل أن تفرده بعبادتك وأن لاتشرك من لم يشركه فيك ، واعلم أنه يميتك الذي أحياك ويعيدك الذي بداك ، فانظر إلى هذا النبي الأمي الذي جاء بالدنيا والآخرة ، فإن كان يريد أجراً فامنعه ، أو يميل به هوى فدعه ، ثم انظر فيما يجيء به : هل يشبه ماتجيء به الناس ؟ فإن كان يشبهه فاسأله العيان وتخير علمه الخبر ، وإن كان يشبهه فأقبل ما قال وخَفْ ما وعد .

قال ابن الجُلندي : إنه والله قد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولاينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وإنه يَغْلِبُ فلا يبطر ، ويُغْلَبُ فلا يضجر ، وإنه يفي بالعهد وينجز الموعود ، وإنه لايزال يطلع على سر لا يشاركه فيه غيره ، وإني لأشهد أنه نبي .

قوله : ومع أولى ، بالضم والقصر لا غير على وزن طولى ، قال الله تعالى : ﴿ **أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد** ﴾ [الإسراء:٥] . وأما عد الناظمَ إياها من ذوات

---

(١) من المعلوم أن الواقدي لا تقوم الحجة بحديث انفرد به ، وقد جرحه كثير من العلماء ، بل وعده الذهبي وغيره من رؤساء الوضاعين ، والله أعلم .

رجهين فلعله قصد به (أُلَى) التي بمعنى . (الذي) فتمد حينئذ وتقصر ، فتقول : ألى وألاء
ى لغة حمير ، وكذلك تُمد وتُقصر إذا كانت بمعنى جمع وال ؛ وكذلك إذا كانت بمعنى
استحقاق ، فتقول : رجال أولى اي : هم خليقون بكل خير ، فصوغت لهم العرب وصفاً
ى لك فأولى . وكذلك إذا كانت اسم إشارة . والكشوثى[1] ، بالمثلثة مضموم الأول مقصور
د : نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له في الأرض . والرُّتيلى ، بالضم والقصر : نوع من
ناكب ، وهي أنواع كما في القاموس ، وهي التي كانت تنسج على الأنبياء : فأول من نسجت
يه داود عليه السلام حين فر من طالوت ، وعلى رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة .

وذكر ابن هشام عن الحسن بن أبي الحسن[2] قال : انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى
ـار ليـلاً ، فدخل أبو بكر قبله ، فلمس الغار أفيه سبع أو حية ؟ يقي رسول الله ﷺ
سه ، ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها فبعثوا القافة يتبعون أثره
كل وجه ، فوجد الذي ذهب قِبَل ثور أثره هناك ، فلم يزل يتبعه حتى انقطع له لما انتهى إلى
، وشق على قريش خروج رسول الله ﷺ عنهم ، وجزعوا لذلك ، وطفقوا يطلبونه بأنفسهم
قرب منهم ، ويرسلون من يطلبه فيما بعد عنهم ، فجعلوا مائة ناقة لمن ردَّه عليهم .

ولما انتهوا إلى فم الغار وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه بِعِشاش بعضها على بعض
أن دخله رسـول الله ﷺ ، فقـال قائل منهـم : ادخلوا الغـار ، وقال أمية بن خلف :
أربكم إلى الغار إن عليه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد ؟!

قالوا : فنهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العنكبوت ، وقال : إنها جند من جنود الله ،
ذلك يقول لسان الدولة ابن الخطيب برَّد الله ضريحه : (من بحر الوافر)

ودودُ القـز قـد نسجت حـريـراً	يُجَـمِّـلُ لبســه في كل حَيٍّ
فـإن العـنكبـوت أجلُّ منـه	بمـا نسجت عـلى رأس النبـيِّ

فسدت الباب ، وأضلت الطلاب ؛ فإن الله يحمي من أراد حمايته بأضعف سبب؛ إذ
شيء أضعف ولا أوهى من بيت العنكبوت . وفي هذا يقول البوصيري رضي الله عنه : (من
البسيط)

(١) في النسخة (أ) : الكشوشي بالشين ، وفي (ب) : الكشوثي ، بالثاء المثلثة ، وهو الصحيح .
(٢) يعني الحسن البصري .

وقـايـةُ الله أغنت عن مضـاعفـةٍ ... من الدروع وعن عـال من الأطـم

وقال أيضا في همزيته : (بحر الخفيف)

أخـرجـوه منهـا وآواه غـارٌ ... وحمتـه حمـامـةٌ ورقـاءُ

وكفتـه بنسجـهـا عنكبـوتٌ ... مـا كفتـه الحمـامـةُ الحضراء

أخرج أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي مصعب المكي قال : أدركتُ زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبي ﷺ ، لما بات في الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة ، فنبتت على وجه الغار ، فسترت وجه النبي ﷺ ، وأمر العنكبوت فنسج على وجه الغار ، وأمر عز وجل حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار . وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم تقدَّم رجل منهم فنظر ، فرأى الحمامتين ، فرجع ، فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء ؛ رأيت حمامتين على فم الغار ، فعرفت أن ليس فيه أحد . وسمع قوله النبي ﷺ ، فعلم أن الله قد درأ بهما عنه ففرض ﷺ جزاءهما وأُسْكِنَتَا في حرم الله ، أحسبه قال : فأصل كل حمام في الحرم من فراخهما

وذكر قاسم بن ثابت ، فيما تولى شرحه من الحديث ، أن الله أنبت شجرة الراث على باب الغار لما دخله رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، وهي شجرة معروفة . وقال غيره تكون مثل قامة الإنسان ولها زهر أبيض تحشى به المخاد للينه وخفته .

وقال ابن الخطيب في (مواهبه) : هي شجرة أم غيلان : شجرة تشبه شجر القطن .

وحكى الواقدي أن النبي ﷺ لما دخل الغار دعا بشجرة كانت أمام الغار ؛ فأقبلت حتى وقفت على باب الغار ، فحجبت أعين الكفار وهم يطوفون في الجبل .

وقال أبو بكر لرسول الله ﷺ يومئذ : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا . فقال له : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

وأقام رسول الله ﷺ وأبو بكر معه في الغار ثلاثاً حتى سكن عنهم الناس ، أتاهما صاحبهما ببعيريهما ، واتتهما اسماء بنت ابي بكر الصديق بسفرتيهما ، ونسبت أن تجعل لها عصاماً ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام ، فحلت نطاقها فجعلته عصاماً ، ثم علقتها به ؛ فكان يقال لها : ذات النطاقين . انتهى .

---

(١) الأطم : الحصون .

والعنكبوت أنواع ، وجمعها عناكب ، كما في القاموس ، اشهرها التي تشبه الذباب الذي يطير حول السراج ، ومنها ما هي سوداء رقطاء ، فهذه مثل الحية في لدغها أو هي شر منها ، وربما اضرت بمجرد مشيها على البدن ، وربما اضرت بريقها ، ومنها صفراء زغباء ولسع جميعها بورم مؤلم .

واللوبيا ، بالقصر والمد : معلوم نوع من القطاني ، ومن لغاتها اللبياج بالجيم بعد الألف . والبكاء ، بالمد والقصر : معلوم . ومن الناس من يقول : البكا ، بالقصر : مجرد رفع الصوت .

واما قصة نسج العنكبوت على داود عليه السلام ، وهي انه لما كثرت الأحداث في بني إسرائيل بعد موسى وعزير سلط الله عليهم الجبابرة من بقية العماليق ، وهم قوم جالوت ، وقد سكنوا جزائر صقلية[1] وجبال الروم بعدما نفاهم يوشع بن نون، فخربوا أكثر مدائنهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، واستولوا على أكثر الشام ، وضربوا على بني إسرائيل الضرائب ، فصارت بنو إسرائيل بين مقهور بالجزية ومغلوب بالسبي ، فبعث الله شمويل نبياً ، فلما بعثه طمعت بنو إسرائيل بالنصر ؛ لأن صلاح أمر بني إسرائيل كان بسياسة الملوك وتسديد الأنبياء ؛ فالملك يسير العساكر ويقوم بسياسة الملك ، والنبي يسدده ويأتيه بخبر السماء ويدعو لهم بالنصر عند العظائم ؛ فمنزلةُ أنبياء بني إسرائيل مع ملوكهم كمنزلة علماء هذه الأمة مع سلاطينها .

قال النبي ﷺ : ((علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل علماً وحُكماً))[2]. وقال : الولي في قومه كالنبي في أمته[3] .

---

(١) صقلية ، بكسر الصاد : جزيرة في البحر المتوسط تابعة لإيطاليا ، احتلها الأغالبة العرب عام ٨٢٧ ولاتزال فيها آثار عربية حتى اليوم ، وقاعدتها (بالرمو) .

(٢) « علماء أمتي كانبياء بني إسرائيل . الخ » لاأصل له عن النبي ﷺ ، أورده صاحب الكشف تحت رقم ١١٧٤ وقال : قال السيوطي : لاأصل له ، وقال : قال ابن حجر : لاأصل له . وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٤٦٦ وقال : لاأصل له باتفاق العلماء . كما أورده السخاوي تحت رقم ٧٠٢ وقال : قال شيخنا ومن قبله الدميري والزركشي : إنه لاأصل له . زاد بعضهم : ولايعرف في كتاب معتبر (اهـ) . أما زيادة الشيخ فلم أجدها ، والله أعلم .

(٣) « الولي في قومه ... الخ » ليس بحديث والله أعلم .

وهي أحاديث واهية الإسناد إلا انه يؤيدها حديث صحيح الإسناد ، وهو قوله ﷺ ((بين العالم العامل والنبي فضْلُ درجتين))[1] .

فلما طال عليهم البلاء أتوا شمويل فقالوا له : إن بني إسرائيل قد طال عليهم البلاء والسباء ، فادع لنا ربك يبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . فقال لهم : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا لما جبلتم عليه من الفشل والجبن وحب السلامة ؟ فقالوا مجيبين له ﴿ **وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنَائنا** ﴾ [البقرة:٢٤٦] .

فسأل الله تبارك وتعالى بعد ما أخذ من بني إسرائيل المواثيق أن بعث لهم ملكاً ، فأتتا الملائكة بدهن القدس والحكمة في قرن من ورق ، فقالوا له : إن من نشَّ على رأسه هذا الدهن فهو ملك بني إسرائيل الذي قَد ارتضاه الله لها ملكاً وعلى يديه ينصرون ، فأخذه النبي ، ثم دعا من ظن فيه أهلية الملك من سبط الملك ، فلم ينشّ عليه الدهن ، ثم دعا من فيه قابلية ذلك من سبط النبوة فلم ينش على رأس أحد منهم ؛ فتحير .

فبينَما هو جالس في بيته إذ وقف عليه طالوت في طلب حمار أضله ، فنش الدهن في القرن ، فقال : ادن ، فدنا منه ، فجعل القَرنَ فوق رأسه فنش حتى صار على رأسه كالإكليل ؛ فدعا الملأ من بني إسرائيل، فلما اجتمعوا قَال لهم : ﴿ **إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً** ﴾[البقرة:٢٤٧] فقالوا مجيبين له : ﴿ **أَنَّى يكون له الملك علينا** ﴾ [البقرة:٢٤٧] وسبطه ليس من أحسن اسباط بني إسرائيل ، وكانوا دباغين ﴿ **ونحن أحق بالملك منه** ﴾ [البقرة:٢٤٧] ؛ لأننا من سبطي النبوة والملك بني يهود وبني لاوي ، وهم يعنون أن طالوت من سبط بنيامين الذين لم يبعث الله منهم نبيّاً ولم يجعل فيهم ملكاً، فأجابهم شمويل فقال : إن الله اصطفاه عليكم ولو كان سبطه كما ذكرتُم وسبطكم كما قلتم ؛ فالملك بيده يُؤتيه من يشاء ، فليس بالوراثة ولا بالحسب ، وزاده بسطة في العلم ، وكان أعلم بني إسرائيل ، والجسم ، وكان يفوت بني إسرائيل بالرأس والمنكب ، فقالوا له : إنا لانرضى بذلك ولا نقبله حتى يأتينا بآية تطمئن إليها أنفسنا ، وقال لهم شمويل : ﴿ **إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة** ﴾ [البقرة:٢٤٨] ،

---

(٢) حديث : « بين العالم العامل ... الخ » أورده ابن عبد البر في كتاب العلم له بلفظ : « للأنبياء على العلماء فضل درجتين ، وللعلماء على الشهداء فضل درجة » وسكت عليه (١/١٩) ، ولم اعثر على من صححه [illegible]

كانوا يستنصرون بها على الأمم قبل ان يحدثوا الأحداث ، فلما أحدثوا الأحداث سلَّط الله عليهم من أخذها من خزائنهم ، فلما فارقتهم فارقهم النصر .
وكان صندوقاً مربعاً فيه رضاض الألواح ورداء موسى وقميص هارون وعمامة إبراهيم ، وقيل : وعصا موسى ، وكانت السكينة تسير معها حيثما سارت ، فجاءت الملائكة تحملها ضُحىً حتى وضعتها في بيت طالوت ، وقيل : في بيت شمويل ؛ فانقادت حينئذ بنو إسرائيل ، ورضيت بولايته عليها ، وخضعت لطواعيته .
فأمرها بالتهيؤ لغزو عدوها ، وكانوا قد استولوا عل غوطة دمشق وحمص وقيسارية وسواحل الشام . فلما تَهيأوا للمسير ـــ وكانوا سبعين ألف مقَاتل وقيل: مائة ألف ـــ أتاهم نبيهم فقال لهم : ﴿ **إن الله مبتليكم بنهر** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] أي : يريد أن يختبر إيمانكم وطاعتكم بأن يمتحنكم بالعطش ويجري ذلك النهر أمامكم ، فمن شرب منه جبن ، ومن لم يطعمه ثبت الله جنانه وشجع قلبه وأتم إيمانه ، إلا من اغترف غرفة بيده فيكون دون من لم يطعم وفوق من شرب ، فَشربوا منه إلا قليلاً منهم ، وكانت عدتهم كعدة أصحاب بدر وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً .
واختلف في النهر الذي ابتَلاهم الله به : فقيل : هو نهر الأردن ، وقيل : بحيرة طبريه .
فلما سمع بهم جالوت عارضهم بجنوده ، فدعوا الله تبارك وتعالى لما رأوا قلة عددهم وكثرة جنود جالوت قالوا: ﴿**ربنا افرغْ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ . وكان جالوتُ يهزم العساكر وحده لقوته وشجاعته وإقدامه ، وكانت زنة بيضته سبعين قنطاراً من العين[1] .
فتقاولوا فيما بينهم أنه لاقدرة لنا على جالوت وجنوده إلا بقتل جالوت ، فردّوا أمرهم إلى نبيهم ، فاوحى الله إليه أنه يقتله رجلٌ من بني آش ، وأتوه بدهن القدس فقال : إنه من نش على رأسه من ولد آش فهو الذي يقتل جالوت ، وكانوا اثني عشر ولدا كلهم رجال ، وكانُوا طوالاً حساناً إلاّ داود عليه السلام فإنه كان قَصيراً أزرق ، فتركه في أغنامه ، فأرسل النَّبي إلى آش فقال له : إنه أوحي إلي أن رجلاً من بنيك هو الذي يقتل جالوت ؛ فأتاه ببنيه واحداً بعد واحد فلم ينش القرن على واحد منهم ؛ فقال له : أصدقني فإنه أوحي إليَّ أنه يقتله رجل من بنيك ، فقال له : ما بقي عندي ولد ينبغي لهذا الأمر ، فقال له : وإن كان كذلك فأتِ به .

(١) المراد بالعين عادة الذهب والفضة ، والمبالغة في القوة هنا من الإسرائيليات التي لم تثبت ، والله أعلم .

فذهب إلى داود ، فأتاه في أغنامه وإذا هو قد رفع صوته بالذكر والتسبيح وإذا الجبا
يسبحن معه ، ولم يسمع مثل صوته حسناً فقال له : إن الله أوحى إلى شمويل أن رجلاً م
ولدي يقتل جالوت ، وقد اختبرهم بدهن القدس فلم يجد فيهم من ذكر له ، فلم يبق غيرك
وكانت عيني تقتحمك[1] فهل تحس من نفسك شيئاً ؟ فإن الملك جعل لمن يقتل جالوت شط
ملكه وأن يزوجه ابنته ، فعسى الله أن يكرمك بقتل جالوت . فقال له : إن قلبي لايفز
شيء ، وكنت لأرمي بنبلي شيئاً إلا حظوته[2] ، ولا أحظوه إلا نفذته ، أي أنفذته السهم ح
يقع بالأرض ، ولي قوة ، وكان الأسد يأخذ الشاة فأفكُّ عنها حنكيه بيدي لايستطيع حراكاً
وربما قتلته .

وذهب مع أبيه ، فمر بحجر : فخاطبه ، قال له : خذني ياداود فإن الله سيقتل ب
جالوت على يديك ، ثم مر على حجر آخر فقال له مثل ذلك ؛ فجعلهما في مقلاعه[3] .

فما هو إلا أن اتى شمويل ، فنش الدهن في القرن ، فأخذ شمويل القرن فجعله على رأس
فنش حتى تكلل رأسه . فلما رأوا ذلك طابت أنفسهم للقتال .

فلما تراءت الفئتان قال الذين اغترفوا من النهر : لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده
فأجابهم الذين لم يطعموه وهم الذين عبر الله عنهم بقوله : ﴿ **قال الذين يظنون أنهم مُلاقو ال
كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

فقال طالوت لداود : ابرز إلى جالوت ، فلئن قتلته لأزوجنك ابنتي ولأشاطرنك
ملكي . فأعطاه فرساً من جياد الخيل ودرعاً وبيضة وسلاحاً وعدة ، فركب الفرس ، ولبس
الدرع ، وجعل البيضة على رأسه ، فأخذ العدة والسلاح .

فلما قرب من جالوت رجع إلى طالوت ، فنزل عن الفرس ، ووضع الدرع والبيضة
فقال له طالوت : أكرهت لقاء الرجل ؟! قال : لا ، ولكن خفت أن يكلني الله إلى فرسك
وعدتك ، فأتني بحماري ؛ فأتي به ، فأخذ مقلاعه ، وجعل فيه حجرين . فلما دنا من جالوت
ضحك إعجاباً منه فقال : أتريد أن ترميني بحجر كما يرمي الكلب ؟ فقال له : نعم ، أنت ش
من الكلب ؛ لأنك كافر بالله . فلما خاطبه داود عليه السلام ألقى الله الرعب في قلبه ، وجعل

(١) تقتحمك : تحتقرك .

(٢) حظوته : اصبته .

(٣) المقلاع : وعاء يكون فيه زاد الراعي ومتاعه .

الحجرين في المقلاع ، وسمى الله ، ورماه ، فصكته على ناصيته حتى خرجت من قفاه ، فمات ، وانهزمت عساكره .

فلما رجعوا إلى إيلياء وَفَى طالوت لداود على كره . ثم اتخذ الله داود نبياً رسولاً ، وآتاه الملك والحكمة . فلما رأى طالوت إقبال الناس على داود وعظمته في قلوبهم وما آتاه الله من النبوة والرسالة حسده ؛ فهم بغدره ، فأخبرته بذلك ابنة طالوت وكانت تحت داود ، فقالت له : إن أبي يريد غدرك الليلة فَما أنت صانع فاصنعه ؛ فعمد إلى زقٍّ فملأه خمراً ، ثم جعله على سريره ، وغطاه بالثياب .

فلما نامت العيون وانقطعت الأصوات قصد طالوت بيت داود عليه السلام وبيده سيف ، فلما دخل البيت ورأى الزق على السرير ظنه داود نائماً ؛ فضربه بالسيف ، فانشق الوعاء ، وسال الخمر ، فلما وجد طالوت رائحة الخمر قال : قاتل الله داود ماأكثر شربه للخمر!!

فرجع وقد تيقن أنه قَتَل داود ، فأتى أصحابه ، وأخبرهم بقتل داود .

فلما نام دخل عليه داود عليه السلام ، فأخذ أربعة أسهم من كنانته ، فوضع سهماً عند رأسه ، وسهماً عند رجليه ، وسهماً عند يمينه ، وسهماً عند شماله ، ثم قطع شيئاً من طرف ثوبه وشيئاً من شعره ، ثم رجع إلى بيته ليريه أنه لايريد قَتْله ، وأنه لو أراد قتله لقتله .

فلما أصبح ورأى السهام عرفها ، وعلم أنه لم يظفر بحاجته ، وأن داود إنما فعل ذلك ذلك ليريه أنه لو أراد قتله لقتله .

فلما رأى ذلك أظهر العداوة وجد في طلب داود عليه السلام ليقلته ؛ ففر داود إلى الجبل ، وتبعه طالوت في خيل ، فلما رآهم داود شد ليسبقهم إلى الجبل وقد أسرع هو وخيله ليدركوه قَبل صعوده الجبل ، فلما أرهقوه أوى إلى كهف ، فنسجتْ عليه العنكبوت ، فلما رأوا نسج العنكبوت لم يتفسخ علموا أنه لم يدخله ، فجعلوا يطوفون في الجبل حتى ردهم حر الظهيرة .

فلما فاته داود عليه السلام وضع يده في قتل الحكماء الذين أخذوا الحكمة على داود عليه السلام ، يقتل كل من ذكر داود بخير ، حتى ذكرت له امرأة من بني إسرائيل كانت عابدة صالحةً وعندها اسم الله الأعظم ، فأمر وزيره بقتلها ، فلما أتاها خاف من الله إن قتلها ومن

الملك إن تركها ؛ فأمرها بالتغيب ، فقال لها : إن الملك قتل الصالحين من بني إسرائيل والصالحات فتغيبي ؛ فإنه إن علم أني لم أقتلك قتلني ، ولئن قتلتك لأخافن عقاب ربي وعذابه ؛ فتغيبت ، وجعلت تعبد ربها .

ثم ألقى الله التوبة والخوفَ في قلب طالوت ؛ فجعل يصيح الليل والنهار من خشية الله حتى احمرت عيناه وكاد بصره يذوب ؛ فدعا وزيره فقال له : ويلك ، هل من عبد صالح في بني إسرائيل أشكو إليه مانزل بي فلعله يدلني على مايتقبل الله به توبتي ويمحو به حوبتي ؟ فقال له : إنك أفنيت صلحاء بني إسرائيل ، ونفيتَ داود من البلد ، ولم يبق أحد من العباد . فلما قال له ذلك صاح حتى ظن أنه قد انصدع صدره عن قلبه ، ثم أغمي عليه ، فلما أفاق ورأى وزيره منه الجد قال له : اربع على نفسك فإن الفرج منك قريب ؛ قال له : وكيف ذلك ؟ قال له : إن المرأة الصالحة التي أمرتني بقتلها فإني لم أقتلها ، وقد أعددتها لمثل هذا اليوم العسير ؛ قال له : فهلمَّ فاذهب بنا إليها .

فذهبا إليها ولما دنيا من الكهف الذي هي فيه تقدم إليها الوزير فقال لها : أيتها المرأة الصالحة ، إن طالوت قَد تاب ورجع إلى الله ، وإنه قد أتاك ليجعل الله له فرجاً ومخرجاً مما هو فيه . فذهبت معهما إلى قبر أورياء النبي عليه السلام ، فلما وقفوا عليه دعت الله باسمه الأعظم أن يرد إلى أورياء روحه فيخاطبهم ويسمعوا خطابه ، فكلمها أورياء عليه السلام فقال لها : ماتريدين ياأمة الله ؟ قالت : إني أريد أن تخبر طالوت بالسبب الذي يتقبل الله به توبته ؛ فقال لها وهما يسمعان : لاتوبة لطاولت حتى يرسل إلى داود ويمكنه من ملكه ؛ فإنه قد نفاه ظلماً ، وإنه أحق بالملك منه ، ثم يذهب ببنيه إلى البربر ، فيجاهدهم حتى يموتوا كلهم ، ثم يموت آخرهم ، فإنه إن فعل ذلك غفر الله له ورحمه وتقبل توبته .

فرجع إلى بنيه وقد تضاعف بكاؤه وحزنه مخافة آن لايقبلوا ذلك منه ، فجمعهم — وكانوا اثني عشر رجلاً — وقال : يابنيَّ ، كيف وجدتم تربيتي إياكم وشفقتي عليكم وإحساني إليكم ؟ قالوا : ربيتنا خير تربية ، وأحسنت إلينا كُلَّ الإحسان ، وكنت لنا نعم الأب . فقال لهم : إن كان ذلك كذلك فهي النار إلا أن تنقذوني بأنفسكم ، وإني ذاهب إلى البرابر حتى يقتلوني تَوبةً من الله ، وقد أخبرني الله على لسان أورياء أنه لاتوبةَ لي حتى تقتلوا كلكم أمامي ثم أموتُ آخركُمْ . فقالوا له : لاخير في العيش بعدك ، وإن هذا ليسير في طلب مرضاة الله ومرضاتك .

فأخذوا في التهيؤ للمسير ، وتهيأ إلى المسير معهم ، وقد أرسل إلى داود عليه السلام أن ارجع إلى ملكك فإني قد انخلعت منه ووهبته لك رجاء أن يتقبل الله توبتي .

ثم ذهبوا إلى الكفرة فقتلوا بنيه جميعاً ، ثم قتلوه آخرهم ، ثم رجع داود عليه السلام من الجبال ؛ فاجتمعت عليه بنو إسرائيل ، فجمع الله له بين الرسالة والملك ، ولم يجمع ذلك لنبي من أنبياء بني إسرائيل قبله .*

والبكاء ، بالمد : هو البكاء مع ذكر مناقب الميت ، والنياحة : الاجتماع للبكاء على الميت على وجه النوح على عادة العرب في الجاهلية .

قال محمد بن المسيب : لما حضرت عبد المطلب الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ستة : صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء وأميمة وأروى ، فقال لهن : ابكين عليَّ قبل أن أموت ؛ فقالت كل واحدة منهن شعراً ترثيه به وأنشدته إياه ، فأشار برأسه وقد أصمت أن كذلك فابكينني . وذكر ابن إسحاق تلك الأشعار ، قال ابن هشام : إنه لم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها .

قال ابن إسحاق : وقال حذيفة بن غانم أخو بني عدي بن كعب يبكي عبد المطلب بن هاشم ويذكر فضله وفضل قصي على قريش وفضل بنيه من بعده عليهم ، فقال : (من بحر الطويل)

أَعَيْنَيَّ جُودَا بالدموع على الصدر ... ولاتسأما أُسْقيتُما مُسْبلَ القَطْرِ
وجوداً بدمع واسفحا كلَّ شارقٍ ... بكاء امرىء لم يُشْوِهِ نَائبُ الدهرِ
وسحَّا وجمًّا واسْجُما مابقيتما ... على ذي خباء من قريش وذي سَترِ
على رجل جلد القوى ذي حفيظةٍ ... جميلِ المحيا غيرِ نكس ولاهَذْرِ
على خير حافٍ من معد ونَاعلٍ ... كريم المساعي طيِّبِ الخِيمِ والنَّحرِ
على شيبة الحمد الذي كان وجهُهُ ... يضيء سوادَ الليل كالقمر البدْرِ
وساقي الحجيج ثم الخير هاشم ... وعبد مناف ذلك السيد الفهري
طوى زمزماً عند المقام فأصبحت ... سقايتهُ فخراً على كل ذيْ فَخْرِ

---

* هذه القصص المتلاحقة التي لايقرها عقل ولانقل نقلت إلينا عن طريق أحبار اليهود الذين أسلموا أو عن طريق القصاصين الذين لايتورعون عن نقل شيء ويكفينا منها ماورد في القرآن الكريم ففيه العبرة الكاملة والبلاغة المعجزة والدلالة القطعية وما لم يثبت عن طريقه منها أو عن طريق السنة النبوية ـــ فالعقول تأباه وطباعنا تنفر منه إلا أن من تقدمنا من السلف تباروا ـــ مع الأسف ـــ في نقلها فواجبنا أن نبعدها بالكلية أو ننوه عن ضعفها وسخافتها إذا لم نستطع إبعادها والله الموفق .

لبيك عـليك كل عـانٍ بكـربـه … وآل قصي من مُقــلٍ وذي وَفْـرِ
بنـوه سـراة كلهـم وشبـابهـم … تفـلَّقُ عنهـم بيضـة الطـائر الصـقرِ
فصف للذي عـاذتْ كنـانه كلهـا … رابط بيت الله في اليســر والعسـرِ
فـإن تلك غـالتـه المنـايا وصرفهـا … فقـد عـاش ميمـونَ النقيـة والأمرِ
وأبقـى رجـالاً سـادةً غـير عـزل … مصـاليتَ أمثـال الرديْنِيَّـةِ السُّمْـرِ
أبـو عتبـة المـلقـى إلي حبـاؤه … أغـر هجـان اللون منْ نفـر غُـرِّ
وحمـزة مثـل البـدر يهتز للنـدى … نقـي الثيـاب والذمـام من الغَـدْرِ
وعبـدُ منـافٍ مـاجدٌ ذو حفيظـةٍ … ومولى لذي القربي رحيم بذي الصهر
كهـولهـمُ خير الكهول ونسـلهـم … كنســل المـلوك لايبـورُ ولايَجْـرِ
هُـم مـلكـو البـطحـاء مجداً وعزة … إذا أسبق الخيرات في سـالفِ العَصْـرِ
وهـم حضروا والنـاس بـاد فريقهـم … وليس بهـا إلا شـيـوخُ بني عمـرِو
بنـوهـا ديـاراً جمـةً وطـووا بهـا … بئـاراً تحج المـاء من ثبـج البَحْـرِ
لكي يشـرب الحجـاجُ منْها وغيرهمْ … إذا ابتكـروهـا صبح تَـابعـة النَّحْـرِ
ثـلاثــة أيـام تظـل ركابهـمْ … محبســة بـين الأخـاشب والحِجْـرِ
وقـدمـا غنينـا قَبـل ذلك حقبـة … ولانسـتـقـي إلا بخُمْـرٍ أو الحفُـرِ
هـمُ يغفـرون الذنب ينقـم دونـه … ويعفـون عن قول السفـاهةِ والهجْرِ
ولا تنس مـاأسـدى النبيُ فـإنـه … قد اسْـدى يداً محفوفة منك بالشكرِ
وأنتَ نبـيٌ من قُصي إذا انْتَـمـى … بحيث انتهى قصـدُ الفؤاد من الصـدْرَ
وأمك سـر من خـزاعـة جـوهـر … إذا فَصَّـل الأنســابَ يوماً ذوو خُبْرِ
إلى سبـأ الأبطـال تُنمـى وتنتمي … وأكرمْ بهـا منسـوبـةً في ذُرى الغُـرِّ

فأول من ناح إبليس لعنه الله . وأول من بكى آدم عليه السلام .

أخرج ابن الخطيب في مواهبه ، ان آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة بكى على خطيئته ثلاثمائة سنةً لم يرفع طرفه إلى السماء حياءً من الله تعالى ، حتى أنبتَ الله من دموعه العـود الرطب والقـرنفـل والأفَـاويـة[1] ، وبكت حواء حتى أنبت الله من دموعهـا الزعفران والسنبل[2] .

---

(١) الأفاوية : محسنات الطعام ، كالأبازير .

(٢) ماأظن قصة البكاء هذه والإنبات إلا من نسج خيال اليهود .

ويروى أنه لو اجتمعت دموع بني آدم كلهم لكانت دموع آدم أكثر منها حينَ أخرج من الجنة ، ولما بنى الكعبة وطاف بها جعل ينزلق في دموعه كأنها ضحضاح ؛ قيل : بذلك سميت بكة بكة .

ولما اقْترف داود عليه السلام الخطيئة سجد أربعين يوماً ودموعه تسيل على الأرض حتى نَبتَ بها العشبُ وغطى رأسه . فلما نُودي عليه بالتوبة زَفَرَ زَفْرةً أيبست العشب لحرها[1] .

وسمي نوح نوحاً لكثرة نوحه .

وبكى شعيب عليه السلام حتى ذابَتْ عيناه فردهما الله عليه ، ثم ذابتا فردهما الله عليه ، ثم ذابتا في الثالثة فردهما الله عليه ؛ فقال : ياشعيب ، إن كان يبكيك خوفُ النار فقد أمنتك منها ، وإن كنت إنما تبكي شوقاً إلى الجنة فقد أبحتها لك وأوجبت لك الخلود فيها . فقال له : فوعزتك مابكائي خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن شوقاً إلى لقائك . فقال له : فوعزتي وجلالي لأجعلن راعي غنيمتك نبيّاً أكلمه وفي كل يوم اثنتي عشرة مرة ؛ فساق الله إليه موسى ، وكان من أمرهما ماقصّ الله .

وكان يحيى عليه السلام مع كونه سيداً حصوراً[2] لايرقأ له دمع حتى أثر في خديه فصارتْ مواضع مجراه أخدوداً .

وكذلك إبراهيم عليه السلام وموسى وعيسى ومحمد ﷺ . إلا أنهم متفاوتون في ذلك بحسب التجليات .

فالحاصل أن البكاء خُلُقُ الأنبياء ودأب الأصفياء ، وعليه تفَانت جماهير الأتقياء ؛ فجمودُ العين علامة الشقاء وديوان الحمقَاء . والبكاء لايستغنى عنه بحال .

قال ﷺ : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا .

وهو سبعة أقسام : بكاء خوف ، وبكاء خشية ، وبكاء هيبة ، وبكاء حياء ، وبكاء ذَنْب ، وبكاء محبة ، وبكاء شوق .

فبكاء الخوف بكاء يقتضي منك الفرار والقلقَ والانكسارَ ، وهو الذي يقول فيه النبي

---

(١) هذه القصص الموغلة في الخيال مما أتى به الإسرائيليون وسربوه الينا ، ولا تصح عقلاً ولانقلاً ، والله أعلم .

(٢) الحصور : الذي لارغبة له في النساء .

ﷺ : ((ليس الخائف من بكى وسَحَّ الدموع إنما الخائف من ترك مانهى الله عنه[1])) وهو بكاء التائبين المقلعين .

وبكاء الخشية هو بكاء أهل التمكين ، وهو الذي يصاحبه خشوع وسكينة وخضوع بدون صوت وانتحاب ، يبكي متى شاء وكيف ومتى أراد .

وبكاء الهيبة هو بكاء يثيره الإجلال والعظمة ، وهو حظ العارفين أهل التمكين ، لم يبعثه خوف عقاب ولاطمع في ثواب ، بساطهم قوله تعالى : ﴿ **الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليَتْ عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ [الأنفال : ٢] .

الرابع : بكاء الحياء ، وهو الذي يثيره انكسار واحتقار ، انكساراً أن يكون أهلاً للإقبال ، واحتقاراً لعمله أن يكون أهلاً للقبول ، وهو مقام المراقبة ، وبساطهم قوله تعالى : ﴿ **الذين يُؤتون ماآتَوْا وقلوبُهم وَجِلَةٌ أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾ [المؤمنين : ٦٠] .

قال عليٌّ كرَّم الله وجهه : الحياء من الله كُلُّ الحياء أن تستحي من الله أن يفقدك حيث أمرك ، أو يراك حيث نهاك ، مع ملازمة الذبول ، ومخامرة الذهول ، تعرفهم بسيماهم .

واختلف في تلك السيما : فقيل هو نحول الجسم من غير مرض ، واصفرار اللون من غير عرض ، وظهور الخشوع ، وإسبال الدموع ، وقلة الهجوع . وقيل : هي آثار السجود ، واللهج بذكر الواحد المعبود ، والإعراض عن الكون بالعزلة والصدود .

الخامس : بكاء الذنب على مامر ، وهو البكاء السخن ، وهو الذي يثيره القلقُ والخوفُ والفَرقُ والحياءُ والملقُ ، وهو الذي عنى الشاعر بقوله : (من بحر الطويل)

فوليْتُ محزوناً بعيْنٍ سخينة ... أكفكف دمعي والفؤادُ قد انصدع

وأما بكاء الشوق فبخلاف ذلك ، فإنما تثيره قُرة العين ، وزوال البين ؛ فهو مأخوذ من القَر الذي هو ضد الحر ، فينبجس عن ثَلَجِ الصدر ، وبساطهم قوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [السجدة : ١٧] فهؤلاء بكاؤهم من جنس معناهم .

والسادس : بكاء محبة ، وهو الذي أثاره تجلي الجمال ، فلهيبه زمهريرٌ ، ومعين نهره غزيرٌ ، لايوازيه نهرٌ ولاغدير ، وهو بحر قد طمى ، وتلاطمت أمواجه فهمي ، وفيه يقال : بحر السريع

---

(١) حديث : «ليس الخائف من بكى.... الخ» لم أجده هكذا .

من لغـــمـرات البـــين قـــد رمى وللغـــرب قـــد نسب وانتَـــمـــى

وقال الشاعر .: (من بحر البسيط)

الله أكبر هـــذا البحـــر قـــد زخـرا وهيـج الريح مـوجـاً يقْـذِفُ الدُّرَرَا
فَـاخـلع ثِيـابك واغْـرقْ فيـه ودع عنك السبـاحةَ ليس السبحُ مفتخراً
ومتْ فمـيتُ حب الله في رغَـــد حيـــاتـــه بحيـــاة الله قَـد عَمَـرَا

السابع : بكاء قُرب ، وحقيقتهُ التهتك ، وإسقاط التمالك ، فهو بحر البحور ، ولجة الحبور ، للدخول في البيت المعمور ، والرق المنشـور ، والبحر المسجور ، فيعبر عن نفسه بنفسـه ، ويأخذ علم الشريعة من رمسـه ، وعلوم الحقيقة من حسه ، فيصير عين الكتاب المسطور ، فيخط فيه بقلم النور ، فبحره مداده ، وغيضته أعواده ، والأقدام كلها أمداده ، والملأ الأعلى عواده ، فتكلُّ دون بيان النزر من صفاته العبارة ، وتُستقل الإشارة ، فلايعرفه إلا من شـاكله ، أو من على عوائد الحق واكله ، فهو الأسـم المكتوم ، والسر المختوم ، والعلم المعلوم ، وقفت دون حده الرسوم ، وطاشت دون فَحواه الفهوم ، وخاطبته بحقائقها العلُومُ* .

يروى أن الجنيـد رضي الله عنـه كان يخرج كل يوم على أصحـابه فيقول لهم : هلم فلنخرج إلى الصحراء ، فلنبك على ذنوبنا وسوء أدبنا مع الله ؛ فيخرجون إلى الصحراء يبكون ، ويذكر كل واحد منهم ماألم به من سوء آدابه مع ربه ، ومن لم يجد منهم سوء أدب قال : إن كلي سوءُ أدب ، فإن من لم ير لنفسه سوء أدب فقد أساء الأدب .

وكان مالك رضي الله عنه إذا قيل له : مايبكيك ؟ يقول لهم : ليس العجب ممن بكى إنما العجب ممن لم يبك وهو في سجن الدنيا وإسار الغيوب .

ولقد بكى بشر الحافي حتى عمشت عيناه ، واتصل بكاؤه بموته ؛ فقيل له : إذا قطعت عمرك بالبكاء فما معنى بكائك عند اللقاء ؟! فقال لهم : كان بكائي على تفريطي في الأيام الخالية ، وقلة صبري على النار الحامية ، وعدم استعدادي للجنة العالية .

وقال بعض الحكماء : إذا أخصب القلب بالمعارف والأعمال الصالحات جرت أنهار الخشوع بمعين الدموع ، وإذا أجدب القلب وتمحل[1] جمد الدمع وتقلل .

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً أسيفاً[2] قلما تراه إلا باكياً . وكذلك علي كرم الله

---

(١) تمحل : قحط . (٢) أسيفاً : كثير الحزن .

* تقدم التعليق بإسهاب على كلام من هذا النوع في ص ٣٧ وص ١٥٥ فراجعه إن شئت .

وجهه. وكان عمر رضي الله عنه إذا مر على آية ما ورد فيها وعد أو وعيد تخنقه العبرة حتى يسقط ويلزم الفراش حتَّى يعاد ، يحسبه الجاهل مريضاً ومابه إلا الخوف والهيبة . وكذلك عثمان رضي الله عنه عند ذكر الموت .

وكان بكاؤه ﷺ مِنْ جنس ضحكه من غير رفع صوت ولانطق بمحذور، كما كان يقول : ((العين تدمع ، والقلب يخشع ، ولانقول إلا مايرضي الرب)) .

كما قال حامل لواء المدَّاحين سيدي محمد بن سعيد البوصيري في همزيته : (من بحر الخفيف)

سَيِّدٌ ضحْكُه التبسمُ والمشـ ـيُ الهوينا ونومه الإغفاءُ

إلا أن لسان الدولة ابن الخطيب قال في (مواهبه) : لما وقف النبي ﷺ على عمه حمزة يوم أحد فوجده وقد مُثِّلَ به وجد لما رأى وجداً شديداً، فبكى حتى كاد يبلغ به البكاء حد الغشي، وحتى سمع نشيج صدره، وربما نشغ من غلبة البكاء، وجعل يقول: ((رحمك الله ياحمزة ، يافاعل الخيرات ، رحمك الله ياعمي ، يا كاشف الكربات ، لم أقف موقفاً هو أغيظ لقلبي من هذا ، ولن أصاب بمثلك إلى يوم القيامة ، ولقد أخبرني جبريل أن اسمك في الملأ الأعلى : حمزة أسد الله وأسد رسوله ، ولئن أظهرنا الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بسبعين رجلاً منهم[1])) .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه مافعل قالوا : والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلةً لم يمثلها أحد من العرب ؛ فأنزل الله عز وجل فيما قاله من ذلك وماقالته صحابته : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعُوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تَحزن عليهم ولاتك في ضَيْقٍ مما يمكرون** ﴾ [النحل : ١٢٦ ــ ١٢٧] : فعفا رسول الله ﷺ ، وصبر ونهى عن المثلة .

ثم قال رحمه الله :

١٦٣ ــ وَذي تُحْفَةُ المَوْدُودِ تَمَّتْ مُحيطةً بِمَا اهْتَمَّ باسْتِقْصَائِهِ الأُدَبَاءُ

قوله : (وذي تحفة المودود) : فَذي : اسم إشارة للمفرد المؤنث مبني على السكون ، ويقال : ذی وذا بالاختلاس ، وذه بسكون الهاء . وتا بفتح التاء ، وتي بالإشباع ، وتِهْ

---

(١) في (أ) لأمثلن بستين .

سكون ، وتهِ بالإشباع ، وته بالاختلاس . وروى المبرد فيها أوجهاً أخر فتقول : تَهْ بفتح
ـاء وسكون الهاء ، وتَهي وتُهْ بضم التاء . وقيل : إنها لا تضم إلا للجمع . ويقال في لغة
ـحج : تَذْ وتَذِهْ وتذوك . ويضاف إلى الجميع فيقال : تيك وتيكم ، وذيك وذيكم وذاكم
لكم .

والتحفـة : الكرامة على المعسـر القريب على وجه التعظيم والإجلال بأنفس مايكون
رفعه ، وإن كان بدون ذلك يقال لها كرامة ، وإن كانت بدون ذلك يقال لها مأدبة ، وإن
انت بدون ذلك قيل لها دعوة .

قال النبي ﷺ : ((الموت تحفة كل مؤمن)) .

ولما احتضر رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال له : إن لكل قادم تحفة ، فما
فتي ؟ قال : تحفتك أن الله يغفر لكل مؤمن وكل مؤمنة تحت أديم الأرض قد فجع وتألم
صيبتك ؛ فسر رسول الله ﷺ بذلك ، ثم قال : ثم ماذا ؟ قال : يكون خليفتك في أمتك
ن بعدك حتى يظهرهم على من ناوأهم ، ثم لايجتمعون على ضلالة مابقوا ، ولايعمهم الله
ذاب من عنده ، ولايسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستأصلهم ، فطابت نفسه ﷺ حينئذ
موت[1] .

وفي كتاب (البِشْرِ بخير البَشَر) وكتاب (عمل اليوم والليلة) : أن العباس رضي الله عنه
خل على النبي ﷺ فوجده مستبشراً ، فقال : لأتحفنك ياعباس بتحفة هي خير لك من
مر النعم ، فقال : وماهي فديتك من مبشر بخير ؟ ودعا له ، فقال : ((إذا صليت العشاء أو
ظهر فصـل أربع ركعات تقرأ فيهن بالفاتحة وسورة الإخلاص ، فإذا أتممت القراءة فقل :
بحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبرولاحول ولاقوةإلا بالله العلي العظيم خمس عشرة
رة ، وإذا ركعت فقل ذلك في ركوعك عشراً ، وإذا رفعت فقله عشراً ، وإذا سجدت فقل
لك في سجودك عشراً ، ثم في رفعك عشراً ، تفعل ذلك إلى آخر صلاتك ، فإذا سلمت
صل على محمد مائة مرة ، ثم اسأل الله حاجتك فإنها تقضى كائنة ماكانت ، وليغفرن الله لك
نوبك ولو كانت مثل زبد البحر ؛ فصلها في كل يوم مائة مرة ، وإلا ففي كل جمعة ، وإلا

---

(١) مآأشبه أن يكون هذا الكلام موضوعاً ؛ فأمارات الوضع عليه بادية :
نعم صح في حديث آخر أن الأمة لاتجتمع على ضلالة ، وصح في حديث آخر أن الله لايسلط على
سلمين عدواً من سوى انفسهم فيستبيح بيضتهم وحديث ثالث أنه لايعمهم بعذاب والله أعلم .

ففي كل شهر ، وإلا ففي كل سنة ، وإلا ففي عمرك مرة واحدة ؛ فإنها صلاة التسبيح ، هي حجاب من الفقر والبلايا وعذاب القبر ، لايفعلها مكروب إلا فرج كربه ، ولاصاحب دين إلا قضي دينه[1])) .

والمودود : هو المحبوب . قال الله تعالى : ﴿ **سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ [مريم : ٩٦] ، أي : يُلقي لهم محبة في قلوب الخلق . تمت : أي كملت حالة كونها محيطة بالذي اهتم باستقصائه أي : بالإحاطة به الأدباءُ ، وواحد الأدباء أديب ، والأدب بالتحريك : الظرف وحسن تناول المعاني على الوجه اللائق وافتتاحها من المباني على وجه يأخذ بمجامع القلوب ، ويؤتى به على أحسن أسلوب ، حتى يحيط بالمرغوب المحبوب .

قال ﷺ : ((إنَّ من البيان لسحراً[2])). معناه : أن اللفظ الفصيح البديع له تأثير في القلوب والأرواح ، كما أن السحر له تاثير بذلك ؛ فيأخذ بمجامع القلوب والأرواح ، حتى تنقاد بذلك جميع الأشباح ، فربما أنقذ اللفظ البليغ صاحبه من حبائل الملوك ، فسلم على الشفا على الموت وتعين الهلاك والفوت .

---

(١) حديث : «لأتحفنك ياعباس... إلخ» هذه الصلاة تسمى صلاة التسبيح ، والحديث أورده ابن الجوزي في موضوعاته ، وقال بعد إيراد طرق الحديث : هذه الطرق كلها لاتثبت : الطريق الأول فيه صدقة بن يزيد الخراساني قال أحمد : حديثه ضعيف ، وقال البخاري : حديثه منكر .

والطريق الثاني فيه موسى بن عبد الله مجهول عندنا .

وأما الثالث ففيه موسى بن عبيدة قال أحمد : لاتحل عندي الرواية عنه ، وقال يحي : ليس بشيء .أهـ (١٤٥/٢) .

وأورده الشوكاني في موضاعاته تحت رقم ١٢٣ وقال : رواه الدارقطني عن ابن عباس والديلمي .

وقال السيوطي في اللآلىء ما حاصله : أنهأخرج حديث ابن عباس أبو داود وابن ماجه والحاكم إلى أن قال : وقال ابن حجر : لابأس بإسناد حديث ابن عباس ، وهو من شرط الحسن ؛ فإن له شواهد تقويه ، وقد أساء ابن الجوزي بذكره في الموضوعات إلى أن قال : وقال العقيلي : ليس في صلاة التسبيح حديث يثبت . وقال ابن العربي : ليس فيها حديث صحيح ولاحسن . انتهى كلام الشوكاني (٢٧/١) فوائد .

وقال في اللآلىء نقلاً عن ابن حجر : والحق ان طرقه كلها ضعيفة ، وأن حديث ابن عباس يقرب من درجة الحسن إلا أنه شاذ لشدة الفردية فيه وعدم المتابع والشاهد من وجه معتبر ، ومخالفة هيئتها لهيئة باقي الصلاة .

قلت : فالحديث لما ذكر لاتقوم به الحجة ، والله أعلم .

(٢) حديث : «إن من البيان لسحراً» صحيح ، وتقدم تخريجه في ص ٣٦١ .

ولما أتي بالحطيئة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما هجا الزبرقَان بن
ر ، فأمر بحبسه ؛ فجعل في السجن ، فمكث مدة ، ثم أمر به عمر رضي الله عنه فجيء
، وأنشد فذكر حال بنيه وعياله من بعده ، فلما سمع عمر ذلك من قوله بكى ؛ فقال عمرو
العاص : رحمك الله ياعمر ماأشفقك إذ تبكي لبكاء الحطيئة ؛ فكان ذلك سبباً لإطلاقه
الهَمِّ بقتله .

ولما بلغ عبد الملك بن مروان ماأوغر صدره على الحجاج حتى هم بقتله والانتقام منه
ب إليه :

أما بعد : فقد بلغني إسرافك في الدماء وتبذيرك في العطاء ، وقد حكمت عليك
ند ، أما في الخطأ فالدية ، وأما في العمد فالقَوَد ، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ، ثم
ل فيها برأي ؛ فإنما هو مال الله تعالى ، ونحن فيه أمناء ، فإن كنت أردت الناس لي فما
اني عنهم ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك مني أمران إن رشدت
ما فلا يؤمنك إلا الله ، ولايوحشك إلا المعصية ، فإن أعطاك الله تعالى الظفر فلا تقتل ذا
ى معصومة ولا أسيراً . وكتب له في أسفل الكتاب : (من بحر الطويل)

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها	وتطلب رضائي بالذي أنت طالبُهْ
فإن تَرَمِنِّي غفلةً قرشيةً	فيا ربما قَد غص بالماء شاربُهْ
وإن ترَمِنِّي وثبةً أمويةً	فهذا وهذا كله أنا صاحبُهْ
فلا تأمَنَنِّي والحوادث جمةٌ	فإنك مجزىً بالذي أنت كاسِبُهْ
ولا تعدُ مايأتيك مني وإن تَعُدْ	يقمن به يوماً عليك نوادبُهْ
فلا تمنعنَّ الناس جمّاً جمعتَه	ولا تعطينْ ماليس للناس واجبُه
فإنك إن تعطِ الحقوق فإنها	نوافل شيء أنت لاشك واهبُهْ

فلما ورد هذا الكتاب على الحجاج كتب :

أما بعد : فقد ورد كتاب أمير المؤمنين يذكر إسرافي في الدماء وتبذيري في الأموال ،
ري مابلغت الغاية في عقوبة أهل المعصية ، ولاقضيت حقوق أهل الطاعة ، فإن كان قتل
اة إسرافاً وإعطاء المطيعين تبذيراً فليغفر لي أمير المؤمنين ماسلف ، فوالله ماأصبت القوم
فأديهم ، ولا ظلمتهم فأقتاد بهم ، وماقتلت إلا لك ، وماأعطيتُ إلا فيك والسلام عليك
ة الله وبركاته .

وكتب أسفل الكتاب : (من بحر الطويل)

إذا أنــا لم أبقــي رضــاك وأتقــي … أذاك فيــومي لاتــوارى كواكبــهْ
ومـا لامرىءٍ بعـد الخـليفـة جُنـةٌ … تقيـه من الأمر الذي هو راكبـهْ
إذا اقـترف الحجـاج فيك خطيئـةً … فقـامت عـليـه بالصيـاح نوادبُهْ
إذا أنــا لم أدن الشـفيـق لنصحــه … وأُقصِ الذي تَسـري إليّ عقـاربـهْ
وأعط المـواسـي في البـلاء عطيــةً … لرد الذي ضــاقت عـلي مذاهبُـهْ
فمن يتـقي بـأسـي ويرجـو مودتي … ويخشـى غداً والدهر جم نوائبـه
والأمـر إليـك اليـوم مـاقـلتَ قلتـهُ … ومــا لم تقــله لم أقـل مـايقَـاربُـهْ
ومهـمــا أردتَ اليـوم مني أردتُـه … ومــا لم تـرده اليـوم إني مجانبـه
فقف بي عـلى حـد الرضـا لاأجـوزه … مـدى الدهر حتى يُرجعَ الدرَّ حـالبُـهْ
وإلا فـدعــني والأمـور فــإنـني … شـفـيـق رَفيق أحكمتـه تجاربُـه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صولتي ، ولن يعود إلى أ
كرهتُـه إن شـاء الله ، فمن يلمني على محبته ؟ اكتب إليه ياغلام : يرى الشـاهد مالا ير
الغائب ، وأنت أعلى عيناً بما هنالك .

وكان الحجاج مع إسرافه من فصحاء الرجال وبلغائها ومن أكرم الناس ، كان يقول
رسولي إلى الناس طلوع الشمس . وكان كلما طلعت الشمس يحشر الناس إليه فلا يُذاد ع
موائده أحد .

يروى أن الحسن بن الفضل بن العباس دخل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أه
العلم ، فأحب الحسن أن يتكلم ، فزجره ، وقال : صبي يتكلم في هذا المقام ؟! فقال : ياأ
المؤمنين ، وإن كنت صبياً فلستُ أصغر من هدهد سليمان ولا أنت أكبر من سليمان ، ق
له: ﴿ **أحطتُ بما لم تحط به** ﴾ [النمل : ٢٢] ، ثم قال : ألا ترى أن الله قد فَهَّمَ الحك
لسليمان عليه السلام ؟ ولو كان بالكبر لكان داود أولى .

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود فإذا فيهم وفدُ الحجاز ، فنظر
أصغرهم سنّاً يريد أن يتكلم ، فقال له : ليتكلم من هو أكبر منك فإنه أحق بالكلام ؛ فقال
ياأمير المؤمنين ، إنا قَد قدمنا من بلد يحمد الله الذي منَّ بك علينا ، ماأقدمنا عليك رغبة
رهبة ؛ أما الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا ، وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك ، فنحن و
الشكر والسلام .

فقال له عمر : عظني ياغلام ؛ فقال : يأمير المؤنين ، إن ناساً غرّهم حلم الله وثناء
الناس عليهم ؛ فلا تكن ممن غره حلم الله وثناء الناس عليه ؛ فتزل قدمك ؛ فتكون من الذين
قال الله فيهم : ﴿ **ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون** ﴾ [الأنفال : ٢١] .

فنظر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة ، فأنشد عمر رضي الله عنه : (من بحر الطويل)

تعلم فليس المرء يولدُ عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهِلُ
فإن كبير القوم لاعلم عنده صغيرٌ إذا التفتْ عليه المحافِلُ

حكي أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يسأله عن الشيء ولاشيء ،
وعن دين لايقبل الله غيره ، وعن غراس الجنة ، وعن مفتاح الصلاة ، وعن صلاة كل شيء ،
وعن خمسة فيها الروح ولم تركض في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وعن رجل لاأب له وعن
رجل لاقوم له ، وعن قبر سار بصاحبه ، وعن قوس قزح وماهو ؟ وعن بقعة طلعت الشمس
عليها مرة ، وعن الظاعن الذي ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، وعن شجرة نبتت
من غير ماء ، وعن شيء يتنفس ولا روح له ، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد ، وعن البرق
وضوئه ، والرعد وصوته ، وعن المحو الذي في القمر .

فقال بعض البلغاء لمعاوية : لست هناك ؛ إن هذا مما لاتهونه البلاغة ، فلو كان كذلك
لكفيتَهُ ، ولكنه لايروى إلا عن نبي ، ولا يطعم جناه إلا عن وصي ، ومتى أخطأت في شيء من
ذلك سقطت من عينه ، وكان سبة على الإسلام وأهله ، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه
المسائل . فكتب إليه فأجابه :

أما الشيء فالماء ؛ قال الله تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ [الأنبياء :
٣٠] . وأما لاشيء فإنها الدنيا ، تبيد وتفنى .

وأما دين لايقبل الله غيره فدين الإسلام . قال الله تعالى : ﴿ **ومَن يَبتغ غيرَ الإسلام
ديناً فلن يقْبل منه** ﴾ [آل عمران : ٨٥] . وأما مفتاح الصلاة فالله أكبر . وأما غراس الجنة
فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وأما صلاة كل شيء فسبحان الله وبحمده . وأما
الخمسة الذين لهم أرواح ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء فآدم وحواء وعصا
موسى وكبش إسماعيل وناقة صالح. وأما الرجل الذي لاأب له فالمسيح. وأما الرجل الذي
لاقوم له فآدم . وأما القبر الذي سار بصاحبه فالحوت سار بيونس في البحر . وأما قوس قزح

فأمان الله لعباده من الغرق . وكانت العرب في الجاهلية تسميه قوس قزح فسماه رسول الله ﷺ قوس الله ، وقال : لاتقولوا قوس قُزح ؛ فإن قزح الشيطان ، ولكن قولوا قوس الله[1] ، وأول ظهر زمن الطوفان لما شكا نوح عليه السلام إلى الله كثرة الطوفان أوحى الله إليه : إني مخر لك يداً ، فإذا رأيتها فأعلم أن الطوفان قد انقلع ، وهو أمان لك ولذريتك من الغرق والصواع إلى يوم القيامة . وأما البقعة التي خرجت عليها الشمس مرةً واحدة فالبحر حين انفلق لبن إسرائيل . وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها فجبل طور سيناء كان بي وبين الأرض المقدسة أربع ليال ، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله بجناحيْنِ ، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم ؛ فأخذوا التوراة مذعنين ؛ فرده الله إل موضعه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّةٌ وظنوا أنه واقع بهم** ﴾ [الأعراف : ١٧١] الآية . وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التي أنبتها الل على يونس . وأما الذي تنفس بلا روح فالصبح ، قال الله تعالى : ﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ [التكوير : ١٨] . وأما اليوم فعمل ، وأما أمس فمثل ، وأما غد فأجل ، وأما بعد غد فأمل وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة يضربون بها السحاب ، وأما الرعد فاسم الملك الذي يسوق السحاب ، وصوته وزجره هو ماتسمعون ، قال الله تعالى : ﴿ **ويسبح الرعد بحمده** ﴾ [الرعد : ١٣] . وأما المحو الذي في القمر فقال الله تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ [الإسراء : ١٢] ، ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل .

ودعا بعض الأدباء لصديق له فقال : تمم الله عليك ما فيه ، وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تَحتَسبه .

---

(١) حديث : «لاتقولوا قوس قزح.... الخ» موضوع ، أخرجه أبو نعيم والخطيب من طريق زكرياء من حكيم الحَبطي ، وعنهما ابن الجوزي في موضوعاته ، وقال : هذا حديث لم يرفعه غير زكريا ، قال أحمد ويحيى : ليس بشيء ، وقال يحيى مرة : ليس بثقة ، وكذلك النسائي ، وقال ابن المديني : هالك (١٤٤/١) .

وقد تعقب السيوطي في اللآلي ابن الجوزي فقال : أخرجه أبو نعيم في الحلية ، وقال النووي في الأذكار : يكره أن يقال : قوس قزح ، واستدل بهذا الحديث ، وهذا يدل على انه غير موضوع (٨٧/١) ، هذا هو دليل السيوطي رحمه الله على أن الحديث غير موضوع ، وهو ليس دليلاً .

قلت : وقد أورد الحديث السخاوي تحت رقم ١٢٩٧ وصاحب الكشف تحت رقم ٣٠٣٩ وسكتا عليه ، والله أعلم .

ويروى أن الغضبان بن القبعثري كان من أحذق الأدباء وأنجب النجباء ، وكان الحجاج قد وجد عليه فهم بقتله فبعث إليه ، وكان يسمع بذكائه وجودة أدبه . ولما مثُل بين يديه سأله عن مسائل يمتحنه بها ، من جملتها أن قال له : من أكرم الناس ؟ قال : أفقَههم في الدين ، وأصدقهم لليمين ، وأبذلهم للمسلمين ، وأكرمهم للفقير ، وأطعمهم للمسكين .

قال : فمن ألأم الناس ؟ قال : أطولهم جفوةً ، وأدومهم صبوة ، وأكثرهم خلوة ، وأشدهم قسوة .

قال : فمن أشجع الناس ؟ قال : أضربهم بالسيف ، وأكرمهم للضيف .

قال : فمن أجبن الناس ؟ قال : المستأخر عن الصفوف ، المنقبض عن الزحوف ، المرتعش عند الوقوف ، المحب لظلال السقوف ، الكاره لضرب السيوف .

قال : فمن أثقل الناس ؟ قال : المتعقد في الكلام ، الضنين بالسلام ، المهذار في الكلام ، المبقبق[1] على الطعام .

قال : فمن خير الناس ؟ قال : أكثرهم إحساناً ، وأقومهم ميزاناً ، وأدومهم غفراناً ، وأوسعهم ميداناً .

قال : لله أبوك ، فكيف يعرف الرجل الغريب أنه حسيب أو غير حسيب ؟ قال : أصلح الله الأمير ، إن الرجل الحسيب يدلك على حسبه أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشره وحسن مداراته على أصله ، فالعاقل البصير يعرف ذا الحسب بشمائله ، والنذل الجاهل بجهله ورذائله ، فالرجل الحسيب كالدرة النفيسة إذا وقعت عند من لايعرفها أرذلها ، وإذا نظر إليها العقلاء أكرموها وعرفوها ؛ فهي عندهم لمعرفتهم بها نفيسة .

قال الحجاج : لله أبوك ، فمن العاقل والجاهل ؟ قال : أصلح الله الأمير ، العاقل الذي لا يتكلم هذراً ، ولاينظر شزراً ، ولايضمر غدراً ، ولا يطلب عذراً ، والجاهل المهذار في كلامه ، المنان بطعامه ، الضنين بسلامه ، المتطاول على إمامه ، الفاحش على غلامه .

قال : لله أبوك ، فمن الحازم الكيِّس ؟ قال : المقبل على شأنه التارك لما لايعنيه .

قال : فمن العاجز ؟ قال : المعجب برأيه ، الملتفت إلى ورائه .

قال : هل عندك من النساء خبر ؟ قال : أصلح الله الأمير ، إني خبير بشأنهن إن شاء

---

(١) البقباق والمبقبق : كثير الكلام عند الطعام .

الله ، قال : أخبرني عن أمهات الأولاد . قال : أصلح الله الأمير ، إن النساء بمنزلة الأضلاع إن رمتَ تعديل إحداهن لانكسرت ، وكسرها طلاقها ، وإن تركتها انتفعت بها و اعوجاجها ، ولهن جور لايصلح إلا على المداراة ، فمن داراهن انتفع بهن وقَرّت عينه ، وم شارهن كدرهن ؛ فتكدر بذلك عيشه ، وتكدرت عليه حياته ، وتنغصت لذاته . فأكرمه أعفهن ، وأفخر أحسابهن العفة ، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة .

ثم أمر للغضبان بجائزة سنية ، وأتحفه بتحفة جليلة ، وخلع عليه ؛ فانصرف الغضبا سالماً من الحجاج وحبائله ، وزاد على ذلك أن أحسن إليه بأنواع الإحسان ، وماذلك إلا لأد وما أوتيه من سحر البيان .

وفي حديث الزبير قال : دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون ، وقد كانـ ضياعهم أخذت ، وكان أديباً شاعراً لبيباً ، فقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، محمد بـ عبد الملك بين يديك ، سليل نعمتك ، وغصن من أغصان دوحتك ، أتأذن له بالكلام فقال : تكلم ؛ فقال :

الحمد لله رب العالمين ، ولا إله إلا الله رب العرش العظيم ، وصلى الله والملائكة عل محمد خاتم النبيين ، ومتعنا الله بديننا ودنيانا ، ورعاية أقصانا وأدنانا ببقائك ياأمير المؤمنين ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا ، وأن يَقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، فإن الحق لايعف أثره ، ولايتهدم مناره ، ولاينبَتُّ حبله ، ولايزول أصله ، مادمت بين الله وبين عباده ، والأمير على بلاده . ياأمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بظلك ، الهارب إلى كنفك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك ، من انتابته النوائب وسهام المصائب ، وكَلَب الدهر وذهاب النعمة ، وفي نظر أمي المؤمنين مايفرج به كربة المكروب ، ويبرد غليل القلوب ، وقد نفذَ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نِعَمُ آبائه الطيبين ، ونوافل أسلافه الراشدين ، وقد قُمتُ مقامي هذ متوسلاً إليك بآبائك الطيبين ، بالرشيد خير الهداة الراسخين ، والمهدي ناصر المسلمين والمنصور منكل الظالمين ، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين ، مزدلفاً إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصني ، وحنكت بها سني ، وريش بها جناحي ، متعوذاً من شماتة الأعداء ، وحلول البلاء ، ومعاودة الشدة بعد الرخاء ، ياأمير المؤمنين ، قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ماعلمه أمير المؤمنين ، وقد أثْبَتَ الله الحق في قضائه

وأبرمه في قدره ، وأجراه على أربابه ، إن الدهر ذو اغتيال ، وقد ينقلب حالا بعد حال ؛ فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار ، والعجائز الكبار ، الذين سقاهم الدهر كدراً ومراً بعد حلو ، وهبْتَنَا ذلك نِعَمُ آلائك التي غذيتنا بها صغاراً وكباراً ، وشباناً وأشياخاً ، وأمشاجاً في الأصلاب ، ونطفاً في الأرحام ، فقدمنا في القرابة بحيث قدمنا الله منك في الرحم ، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك ، ووجوهنا قد عنت لطاعتك ، فأقلنا عثراتنا يا أمير المؤمنين إن الله قد سهل بك الوعور ، وجلا بك الديجور ، وملأ من خوفك القلوب والصدور ، بك يردع الفاسق ، ويقمع بك المنافق ، فارتبطتْ نعم الله عندك بالعفو والإحسان ، فإن كل راع مسؤول عن رعيته ، وإن النعم لاينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها . يا أمير المؤمنين ، إنه لاعفو أعظم من عفو إمام قادر على مذنب عاثر ، وقد قال جل جلاله : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تُحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ [النور : ٢٢] ، حفظ الله أمير المؤمنين بستره الضافي وصنعه الكافي ، ثم أنشد : (من بحر الوافر)

أمـير المـؤمنـين أتـاك ركبٌ ... لهـم قـربى وليس لهـم تـلادُ
هـم الصـدر المقـدم من قـريش ... وأنت الرأس تتبـعـهـا العبـاد
لقـد طـابت لك الدنيـا فـذلت ... وأرجـو أن يطـيب لك المَـعَـادُ
فكـيف تنـالكـم لحظـات عيـني ... وكيف يقـل عنـدكم السـهـاد

فاستحسن المأمون كلامه ، وأمر له بالخلع الفاخرة والجوائز السنية ، وأمر برد ضياعه ، وقرب منزلته وأدناه ، ودفع إليه من الأموال ماغناه .

وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يعجبه السمر ومنازعة الرجال في فنون الأدب ، وجلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته ، فقال : أيكم يأتيني بحروف الهجاء في بدنه وله ماتمنى ؟ .

فقام إليه سويد بن علقمة فقال : أنا يا أمير المؤمنين ؛ قال : هات : قال : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، حلق ، خد ، دماغ ، ذكر ، رقبة ، زند ، ساق ، شفة ، صدر ، ضلع ، طحال ، ظهر ، عين ، غببة[1] ، فم ، قفاء ، كف ، لسان ، منخر ، نغنوغ ، هامة ، وجه ، يد ، وهذا آخر حروف الهجاء ، والسلام على أمير المؤمنين .

---

(١) الغبب : اللحم المتدلي تحت الحنك ، هذا إذا كانت الكلمة بالغين .
أما إذا كانت بالعين المهملة فهي العيبة : الكرش .

فقال بعض أصحاب عبد الملك : ياأمير المؤمنين ، أنا أقولهم من جسد الإنسان مرتين ؛ فضحك عبد الملك وقال لسويد : أسمعت ماقال ؟ قال : أنا أقولها أصلح الله الأمير ثلاثاً ، فقال عبد الملك : هات ولك ماتتمناه ؛ فابتدأ يقول : أنف ، أسنان ، أذن ــ بطن ، بصر ، بز ــ ترقوة ، تمرة[1] ، تينة ــ ثمر ، ثنايا ، ثدي ــ جمجمة ، جنب ، جبهة ــ حلق ، حنك ، حاجب ــ خد ، خاصرة ، خاسر ، دبر ، دماغ ، دير[2] ــ ذكر ، ذقن ، ذراع ــ رقبة ، رأس ، ركبة ــ زند، زردمة[3] ، زب ــ ولما بلغ هناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على ظهره ، ثم قال : ساق ، سرة ، سبابة ــ شفه ، شعر ، شارب ــ صدغ ، صلعة ــ ضلع ، ضفير ، ضرس ــ طحال ــ طرة ، طيز ــ ظهر ، ظفر ، ظبح ــ عين ، عنق ، عاتق ــ غببة ، غلصمة ، غنة ــ فم ، فك ، فؤاد ــ قلب ، قفا ، قدم ــ كف ، كتف ، كعب ــ لسان ، لحية ، لوح ــ مرفق ، منخر ، منكب ــ نغنوغ ، ناب ، نثير ــ هامة ، هيئة ، هيف ــ وجه ، وجنة ، ورك ــ يمين ، يسار ، يافوخ . ثم نهض مسرعاً فقبل الأرض بين يدي عبد الملك ، فقال : والله لايزيدون عليها شيئاً ، أعطوه ماتمنى ، ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه .

ومن مآثر الأدب أنه يهيج على السلوك ، وتستفتح به خزائن الملوك :

أما إثارته على السلوك فأكثر من أن تُحصى وأوسع من أن تستقصى ، وفي كتب التصوف منه مايشفي ويكفي ؛ ولذلك اتخذوا السماع ليحركوا به الساكن وليثيروا به الكامن .

وأما استفتاح خزائن الملوك به فمنه ماحكاه صاحب المستطرف في (جامعه) ، وما حكاه أبو بكر الطرطوشي في (سراج الملوك) ، ولنأت منه بما يوافق الغرض للإمتاع من غير طول ممل ولا ترك مخل .

من ذلك أن معن بن زائدة ، وكان من الأجواد ، ومن السادة الأمجاد ، وكان عاملاً على العراق ، فحضر بابه شاعر أديب ، فأقام مدة يريد الدخول عليه ، فلم يتهيأ له ذلك ، فقال يوماً لبعض الخدم : إذا دخل الأمير البستان فعرفني ، فلما دخل أعلمه ، فكتب الشاعر بيتاً ،

---

(١) تمرة : تمرة اللسان : طرفه .

(٢) لم يثلث الدال في النسختين ، وكرر الدبر أو لعله يريد الدير بالياء .

(٣) الزردمة : موضع الابتلاع .

ثم نقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، وكان معن جالساً على القناة ، فلما رأى الخشبة أخذها ، فإذا فيها مكتوب : (من بحر الطويل)

أيا جودَ معنٍ ناج معْناً بحاجتي فليس إلى معنٍ سواك رسولُ

فقال : من الرجل صاحب هذه الخشبة ؟ فأتي به إليه ، فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشرة بدر ، فأخذها وانصرف ، ووضع معنٌ الخشبة تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثاني نظر إليها ودعا بالرجل فأمر له بمائة ألف درهم ، فلما كان اليوم الثالث فعل معه مثل ذلك ، فتفكر الرجل ، وخاف أن يأخذ منه ماأعطاه ، فخرج من البلد بما معه ، فلما كان اليوم الرابع طلب الرجل ليعطيه فلم يوجد ، فقال معن : لقد ساء ظنه ، ولقد هممت أن أعطيه حتى لايبقى في بيت مالي درهم ولا دينار ، وفيه يقول القائل : (من بحر الطويل)

يقولون معنٌ لازكاة لماله وكيف يزكي المال من هو باذله
إذا حال حول لم يجد في دياره من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جئته متهلِّلا كأنك تعطيه الذي أنت سائله
تَعَوَّدَ بسط الكف حتى لو انه أراد انْقباضاً لم تُطعه أنامِلُهْ
ولو أن مافي كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله

ومن كلامه (من بحر الوافر) :

دعيني أنهب الأموال حتى أُعف الأكرمين عن اللِّئامِ

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد ، وله أخبار في الجود عجيبة : من ذلك مارواه عقيل بن أبي طالب قال : لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته فقلت له : أيها الأمير إن أردت أن تأذن لي فأصحبك ، قال : إذا قدمت واسطَ فأتنا إن شاء الله ، فسار ، وأقمت ، فقال لي إخواني : اذهب إليه ، فقلت : كان في جوابه ضعف ، فقالوا : أتريد من يزيد جواباً أكثر من هذا ؟ قال : فسرت حتى قدمت عليه ، فلما كان الليل دعيت إلى السمر ، فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري ، فالتفت يزيد إلى فقال : إيه ياعقيل ، فقلت : أفاض القوم في ذكر الجواري فأما الأعزبون فلم يقولوا ، فقال : إنك لن تبقى عزباً ، فلما رجعت إلى منزلي إذا الخادم قد أتى ومعه جاريةٌ وبدرةٌ وعشرة آلاف درهم وفرش ست ، وفي الليلة الثانية كذلك ، فمكثت عشر ليالٍ أوتي كل ليلة بما أوتيت به الليلة الأولى والثانية ، حتى أخجلني كثرة العطاء والتحف ، فأتيته بعد الليلة العاشرة فقلت : أيها الأمير ، قد والله أغنيت وأوفيت ، فإن رأيت أن

تأذن لي في الرجوع فأكتب عدوي وأسر صديقي؛ فقال أخيرك بين خلتين : إما أن تقي
فنوليك ، أو ترجع فنغنيك ، فقلت : أو لم تغنني أيها الأمير ؟ فقال : إنما هذا أثاث المنز
وتحفة النازل. فنالني من فضله مالاأقدر على وصفه .

وقيل: إن الحجاج حبسه في خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له
وجاء الفرزدق يزوره في السجن، فقال للحاجب: استأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لايمكن
الدخول عليه، فقال الفرزدق: إنما أتيته متوجعاً لامادحاً؛ فأذن له، فأنشد: (من بحر الطويل)

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم ... وقال أولو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشام بعدك قطرة ... وما اخضرَّ بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزلك بهجة ... وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة الألف التي جمعت ودع الحجاج ولحمي يفعل ب
ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق: ومن هذا خفت، ثم دفعها إليه.

وقال مروان بن الجموح، وكان أديباً ماهراً: أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفاً وخمسين
ألفاً ورواحل كثيرة، فقلت أبياتاً في شكره، فلما بلغت قولي: (من بحر الطويل)

فأمسك مدى كفيك عني ولا تزد ... فقد خفت أن أطغى وأن أتكبرا

تلميحاً منه إلى قوله تعالى: ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ [العلق: ٦
— ٧] فقال له الأمير: والله لا أمسك حتى أعرفك بجودي، فأمر له بضياع تقوم بمائة ألف
ألف.

وقال أبو العيناء: تذاكر الناس السخاء، فاتفقوا على أن أسخى الناس بني المهلب في
الدولة الأموية، وعلى البرامكة في الدولة العباسية، وأن أحمد بن داود أسخى من الجميع
وأفضل.

وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد بن برمك فقال: أما الفضل
فيرضيك فعله، وأما جعفر فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد. وفي يحيى يقول
القائل: (من بحر الطويل)

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ... ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لابل وراثة ... توارثني عن والد بعد والد

في الفضل يقول القائل: (من بحر الطويل)

إذا نـزل الفضـل بن يحيي ببلدة رأيتَ بها زهر السماحة ينبت
فليس بسعال إذا سيل حاجة وليس بمُكِبٍّ ثرى الأرض ينكت

وفي محمد يقول القائل: (من بحر الطويل)

سألت الندى والجود مالي أراكما تبدلتما عزاً بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدماً فقالا أصبنا بابن يحيي محمد
فقلت فهلا مِتُّما بعد موته وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالوا أقمنا كي نُعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وقال علي كرم الله وجهه: من كانت له إليَّ حاجة فليرفعها إلي في كتاب لأصون وجهه من المسألة.

وجاءه أعرابي فقال له: يا أمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة الحياء يمنعني أن أذكرها، فقال له: خطها بالأرض، فكتب: إني فقير، فقال: يا قنبر أعطه حلتي، فقال الأعرابي: (من بحر البسيط)

كسوتني حلةً تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللاً
إن الثناء ليَحْيَا ذكرُ صاحبه كالغيث عم نداه السهلَ والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به كل امرىء سوف يجزى بالذي فعلا

فقال: يا قنْبُر، زده مائة دينار، فقال: يا أمير المؤمنين، لو فرقتها على المسلمين لأصلحت بها من شأنهم، فقال: مه ياقنبر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه))[1].

يروى أن أبا عطاء السُّدِّي وفد على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له، فأنزله وأكرمه، فقال له: ما عندك يا أبا عطاء ؟ قال: وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب ؟! غير أني قلت بيتين، قال: هات ما قلت، قال: (من بحر البسيط)

---

(١) حديث: « اشكروا لمن أثنى عليكم... الخ » لم أجد هذا الجزء منه، أما الجزء الأخير والذي هو « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » فهو ضعيف جداً، رواه ابن ماجه بسند ضعيف، والطبراني في الأوسط له وسنده كذلك ضعيف، والبزار وغيرهم، وعنهم صاحب الكشف تحت رقم (١٨٠)، والسخاوي في مقاصده تحت رقم (٥٠) وقال بعد أن أورد جميع طرق الحديث: وبهذه الطرق يقوى الحديث، وإن كانت مفرداتها كما أشرنا إليه ضعيفة، ولذا انتقد شيخنا ــ يعني ابن حجر ــ وشيخه ــ يعني العراقي ــ رحمهما الله الحكم عليه بالوضع (٣٤/١) مقاصد، والله أعلم.

يـاطـالب الجـود إمَّـا كنت تطـلبـه ... فـاطـلب على بـاب نصرٍ بن سيـار
الواهب الخيـل تَعـدو في أعنـتهـا ... مع القـيـان وفيهـا ألف دينـار

فأعطاه ألف دينار ووصائف، وكساه كسوة جليلة، فقسم ذلك بين صاحبيه ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً، فبلغ ذلك نصراً، فقال: قاتله الله من سُدّي ما أفخم قدره ! ثم أمر له بمثل ذلك.

ووقف أعرابي على ابن عمر فقال له: يا قمر البصرة وشمس الحجاز، يا بن ذروة العراق، ويا بن بطحاء مكة، برحت بي الحاجة؛ فلذت بآمال نعمائك، فامنحني على قدر الطاقة لا على قدر المجد والشرف والهمة؛ فأمر له بمائتي ألف دينار.

وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل: (من بحر الطويل)

أأتْـركُ إن قَـلَّتْ دراهـمُ خـالد ... زيـارتَـه إني إذاً لَلَئِـيمُ

فبلغ قوله المأمون فقال: أو قلت دراهم خالد ؟ فبعث المأمون إليه بأموال، فبعثها خالد ابن يحيي إلى عمارة، قال: هذه قطرة من بحارك .

ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى وقال: والله ما بكائي جزعاً من العزل، ولا أسفاً على الولاية، ولكن أخاف أن يلي هذه الوجوه من لايعرف لها حقاً.

وقال الغنوي: أشرف عمر بن هبيرة يوماً من قصره فإذا هو بأعرابي على قلوصه، فقال لحاجبه: إن أرادني هذا فأتِ به، فأتاه الحاجب فسأله، فقال له: قصدت الأمير، فدخل به عليه، فلما مثل بين يديه قال: ما حاجتك ؟ فقال الأعرابي: (مجتث)

أصـلحـك الله قَـلَّ مـا بيـدي ... ولا أطيـق العـيـالَ إذ كثروا
أنـاخ دهـرٌ عـلـيَّ كَلْكَـلَهُ ... فـأرسـلوني إليـك وانتـظـروا

فأخذته الأريحية فجعل يهتز ثم قال: (أرسلوني إليك وانتظروا)؟ إذاً والله لاتجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألفي دينار.

وقال أبو العيناء: ضقت ضائقة شديدة، فكتمتها عن الأصدقاء، فدخلت يوماً على يحيي ابن أكثم القاضي فقال:إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ في القصص، ولما قام قمت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء، بالألفة والمحبة، ما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟ فأنشدت: (من بحر البسيط)

لقد رجوتُك دون الناس كلهم ... وللرجاء حقوقٌ كلها تجب
إلا تكن لي أسبابٌ أعيش بها ... ففي العلا لك أخلاق هي السبب

فقال: ياسلامة انظر إلى شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال له: ادفع له مائة ألف درهم، وابعث له مثلها في كل شهر، فلما كان بعد اثني عشر شهراً مات المأمون؛ فبكى عليه أبو العيناء حتى قرحت عيناه، فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ما الذي ينفع البكاء ؟ فقال مجيباً له: (من بحر الكامل)

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناي حتى تؤذنا بذهاب
لم تبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال سلمة بن عياش، وكان أديباً لبيباً، في جعفر بن سليمان:

(من بحر الطويل)

فما شم أنفي ريح كف شممتها ... من الناس إلا ريح كفك أطيَبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

وكان عبد العزيز بن عبد الله مضيافاً جواداً ، فتغدى عنده أعرابي يوماً ، فلما كان من الغد مر على بابه فرآى الناس في الدخول على هيئاتهم بالأمس ، فقال: أكل يوم يطعم الأميرُ الناس ؟ قالوا: نعم ؛ فأنشأ يقول: (من بحر الخفيف)

كل يوم كأنه عيد أضحى ... عند عبد العزيز أو عيد فطر
وله ألف جفنة مترعات ... كل قدر تَعدها ألف قدر

فلما بلغه قوله بعث إليه فأجزل له في العطاء .

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص ، فلما خرجوا تركوا فتى من أهل الشام قاعداً ، فقال له سعيد : ألك حاجة ؟ واطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى ، فذكر أن أباه مات وخلف ديناً وعيالاً ، وسأله أن يكتب إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله ، فدفع له عشرة آلاف دينار ، وقال : لاأدعك تقاسي الذل على ابوابهم .

ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير فقال له : سألتك بالله العظيم ورسوله الكريم إلاّ أن أجرتني من خصمي ؛ قال : ومن خصمك حتى أجيرك منه ؟ قال : الفقر ، فأطرق الوزير ساعة ، وقال : قد أمرت لك بمائة ألف درهم ، فأخذها وانصرف فلما بلغ أثناء الطريق أمر

الوزير برده إليه ، فقال له : سألتك بالله العظيم وبرسوله الكريم أن تأتيني كلما جاءك خصمك معنفاً ، فأكون لك عليه معيناً ومشرفاً .

وحكى أبو قدامة القرشي قال : كنا مع يزيد بن مزيد يوماً ، فسمع صائحاً يصيح : يايزيد بن مزيد ، فأرسل إليه من يطلبه ، فاتى به إليه ، فقال : ماحملك على هذا الصياح ؟ فقال : : فقدتُ دابتي ونفدتْ نفقتي وسمعت قول الشاعر : (طويل)

إذا قيل من للجود والمجد والندى — فناد بأعلى الصوت يا بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به ومائة دينار وخلعة سنية ، فأخذها وانصرف .

واعلم أن الأدباء وإن كانت شعراء الجاهلية اذكر منهم واقوالهم في العربية حجة دون أقوال الأدباء فإن الأدباء أغوص منهم على المعاني النفيسة ، والحقائق الدقيقة ، وأكثر حكمة ، وأغزر معنى ، وأرق حاشية ، وأكثر في البديع غاشية . ومن الأدباء من أجمع أهل هذا الفن على الاحتجاج بقوله كالعجاج وأبي تمام وأبي الطيب المتنبي وأبي فراس ، وأما غير هؤلاء من الأدباء فلا يحكون قوله حجة .

ومن أحسن ما قاله الأدباء في الغوص على المعاني الدقيقة قول أبي الطيب المتنبي في ديوانه المشهور : (من بحر الخفيف)

عللاني فإن بيض الأماني — فنيت والظلام ليس بفاني

إن تناسيتما وداد أناس — فاجعلاني من بعض ماتذكران

ثم بعدها أبيات نسيتها .

ومن هذا القبيل أيضاً قوله : (من بحر البسيط)

الفاعل الفعل لم يفعل لشدته — والقائل القول لم يترك ولم يقل

والباعث الجيش قد غالت عجاجته — ضوء النهار فصار الظهر كالطفَلِ

الجو أضيق مالاقاه ساطعها — ومقلة الشمس فيه أحير المُقل

ينال ابعد منها وهي ناظرة — فما تقابله إلا على وجَلِ

قد عرض السيف دون النازلات به — وظاهر الحزم بين النفس والغيل

ووكَّل الظن بالأسرار فانكشفت — له ضمائر أهل السهل والجَبَلِ

هو الشجاع بُعَيْدَ البخل من جبن — وهو الجواد بعيد الجبن من بخل

يعود من كل فتح غيْرَ مفتخر — وقد أغذَّ إليه غير مُحْتَفِلِ

ولا يجير عليه الدهر بغيته — ولا تحصن درعٌ مهجةَ البَطَلِ

إذا خلعتَ على عرض له حللا — وجدتها منه في أبهى من الحُلَلِ
لذي الغباوة من إنشادها ضرر — كما تضر رياحُ الورد بالجُعَلِ

وللمتنبي أيضاً : (من بحر الطويل)

علينا لكَ الإسعادُ إن كان نافعاً — بِشَقٍّ قلوبٍ لا بشق جُيُوبِ
فرب كئيب ليس تَنْدَى جفُونُه — ورب كثير الدمع غيرُ كَئِيبِ
تسلَّ بفكر في أبَيْكَ فإنما — بكيت فكان الضِّحْكُ بعد قَرِيبِ[1]
إذا استقبلتْ نفس الكريم مصابَها — بخبث ثَنتْ فاسْتَدْبَرَتْهُ بطيب
وللواجدِ المكروبِ من زفَراتِه — سُكُونُ عزاءٍ أو سكون لُغوب[2]
وكم لكَ جَدّاً لم تر العينُ وجهَهُ — فلم تَجْرِ في آثارِهِ بغُرُوبِ
فَدَتْكَ نفوسُ الحاسدين فإنها — معذبةٌ في حضرةٍ ومغِيبِ
وفي تعب من يحسدُ الشمس نُورَها — ويجهد أن يأتي لَها بِضَرِيبِ

وقال أبو العتاهية من قصيدة أنشدها بين يدي أمير المؤمنين محمد المهدي بن أمير [المؤ]منين المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وذلك أن المهدي اذن في بعض [الأي]ام بالدخول عليه للخاصة والعامة ، فدخل جملة من أعيان الأجناد والأمراء ، وشرذمة من [العل]ماء والشعراء فيهم بشار بن برد العُقيلي ، وأشجع السلمي وزياد الأعجم وأبو العتاهية ، [فلم]ا دخل القوم وجلسوا على مراتبهم ، وأطمأن بهم المجلس ، واتفق أن جلس بشار بإزاء [أش]جع ، فقام ابو العتاهية متهيئاً للإنشاد ، فسمع بشار حسه فقال : يا اشجع ، من هذا ؟ [قال] : فقلت له : أبو العتاهية ، فقال : أتراه ينشد في هذا المحفل العظيم ؟ فقلت : أحسب أنه [سيف]عل ، فاستأذن في الإنشاد ، فاذن له المهدي ، فابتدأ قائلا : (ألا ما لسيدتي مالها) [فنخ]سني بشار بمرفقه ، فقال : ارأيت ويحك أجسر من هذا يبتدىء هذا الابتداء في مثل هذا [المحف]ل ؟! فلما انتهى إلى قوله : (من بحر المتقارب)

أتته الخلافة منقادةً — إليه تجرجر اذيالها
فلم تك تصلح إلا له — ولم يك يصلح إلاّ لها

(١) أبيك بفتح الباء وسكون الياء : يريد ابويك ، وهي لغة فصيحة .
والمعنى تسل عن هذا المفقود بالتفكير في مصابك بابويك ، فقد بكيت لفقدهما ثم ضحكت بعد ذلك [فال]حزن سيذهب عما قريب .

(٢) اللغوب : الإعياء ، والمعنى : لا بد للمحزون من سكون ، فاما أن يسكن عزاء وإما سكن إعياء

ولو رامهـــا أحــدٌ غـــيرهَ لَزُلْزِلَتِ الأرض زلزالهــــــا
ولو لم تطعــه بنــات القــلوب لمـــا قـــل الله أعمـــالهـــا

فقال بشار معجباً بإنشاده : انظر ويحك يا أشجع ، هل بقي الخليفة على فراشه ام ط
عنه طرباً ؟!

فانصرف الناس من ذلك المجلس ولم يحظ أحد بجائزة ولا فاز بعائدة غير ابي العاهية .

وأبو العتاهية هذا هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء ، وكا
جده من سبي عين التمر ، وهي بلدة من أعمال العراق فتحت في خلافة أبي بكر الصدي
رضي الله عنه ، وكان أمير الجيش الذي افتتحها عكرمة بن أبي جهل المخزومي ، ثم نزل الكوفة
وبها نشأ أبو العتاهية ، فلما كبر وتأدب وقرأ وتهذب انتقل إلى بغداد ، وكان مع كونه م
المتقين النجباء معدوداً من جملة الشعراء الخبثاء ، أكثر في الهجاء ، فاشتهر بين الناس ذكره
وسار في الخافقين مسير الشمس شعره ، فهو من شعراء الدولة العباسية المكثرين ومن نجبائ
المبرزين ، وإن عدَّ من المولدين ، ويقال : إنه لم يجتمع ديوانه عند أحد لكثرته ، وكان يتصرف
في أنواع الشعر من التشبيب والغزل والهجاء والمديح ، ثم تنسك في آخر عمره ، فتزهد
فانقطع عن غير الوعظ ، وعدل إلى القول بالزهد والوعظ ، فأجاد واربى على من تقدمه م
الزهاد .

ولأبي الحسن علي بن بسام البغدادي من قصيدة يرثي بها الأمير عبد الله بن سليما
الخزاعي قال : (سريع)

قــد استــوى النـــاس ومــات الكمــالْ وصـــاح صرف الدهر اين الرجــالْ
هــذا أبــو القــاســم في نعشــــه قو مــوا فــانظــروا كيف تــزول الجبــالْ

ثم قال أيضاً : (من بحر الكامل)

أودى محمــــد بعـــدمـــا ضربت بـــه في فضـــــله الآمــــال والأمثــــال
مـــلك تنـــافست العـــلا في عمــره وتنـــافست في يـــومـــه الآجـــال
من لم يعــــاين ســــير نعش محمـــد لم يـــدر كيف تُسَــيَّــرُ الأجبـــال

ومن هذا قول أبي الطيب المتنبي من قصيدة يرثي بها عبد الله بن محمد بن اسحاق
التنوخي : (من بحر الكامل)

مـاكنت أحسب قبـل دفنك في الثرى أن الكـــواكب في التراب تَغــورُ

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدي الرجال يسير[1]
خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور
والشمس في كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائك حوله وعيون أهل اللاذقية صورُ[2]

ومن مثل هذه القصائد أخذ بعض المحدثين يرثي القاضي أبا بكر بن محمد بن الباقلاني رحمه الله : (من بحر البسيط)

انظر إلى جبل تمشي الرجال به وانظر إلى القبر ما يحوي من الشرف
وانظر إلى صارم الإسلام منغمداً وانظر إلى درة الإسلام في الصدف

انتهى .

وفي وصفه إياها بالإحاطة بما اعتنى الأدباء بجمعه مدح لها بذلك ، وإغراء بتعاطيها وتحصيلها[3] .

ثم قال رحمه الله تعالى :

١٦ ـ وَلابُدَّ من حَمْدِ الإلهِ فَإنَّه لَدَى الْبَدْءِ والإنها سنَىً وَسَنَاءُ

قوله : ولا بد : أي لا محيد ولا محيص من حمد الله . والحمد حقيقةً تبليغ الثناء لمتفضل إجمالاً بلا علة وإلا فشكر . والانهاء ، بالمد : إبلاغ الشيء نهايته ، وهذا النوع في علم البديع يقال له براعة المختم : وهو أن ياتي المصنف أو الناظم بكلمة تدل على الختم من غير تكلف . والسنى : الضوء . والسناء : الرفعة .

فكأنه يقول : لا محالة ولا انفكاك من الثناء على الله بالجميل في بدء كل ذي بال وانتهائه ؛ تلميحاً إلى قوله ﷺ : ((كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم))[4]

(١) رضوى : اسم جبل قرب المدينة المنورة .

(٢) صور : جمع أصور ، وهو المائل .

(٣) يشير إلى منظومة ابن مالك هذه .

(٤) حديث ((كل أمر ذي بال ... الخ)) حسن رواه أبو داود وابن ماجه عن ابي هريرة مرفوعاً ، وفي رواية لأبي داود : « كل أمر ذي بال لايبدأ فيه ببسم اللهالرحمن الرحيم فهو أبتر » .

وقد أورده صاحب الكشف تحت رقم ١٩٦٤ وقال : قد ألف فيه السخاوي جزءاً .. إلى أن قال : رواه عبد القادر باللفظ الأول وزاد : « والصلاة علي فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة » ، والله أعلم .

أي : ناقص قليل البركة ، وكما لابد من البدء بالحمد على وجه الاقتداء كذلك لابد منه عند الختم على وجه الشكر والثناء ؛ فإنه ضوء ورفعة لما بدىء وختم به ، وما لابد منه واجب ، وحمد الله على نعمه التي من أجلها الإلهام للتأليف ، والإعانة عليه ، والتسديد فيه ، والتأهيل له ؛ وختمه كذلك شرعاً لا عقلاً خلافاً للمعتزلة .

فإن قيل : الإخبار بوجوب الحمد لا يكفي في تأدية ما وجب عليه من حمد الله على نعمة الانتهاء ، أي الثناء عليه بصفة من صفاته بأن يذكرها في مقابلة ما وجب عليه من ذلك .

فالجواب أن في ضمن الإخبار بوجوب حمد الله سبحانه الإعلام بأنه تعالى أهل للحمد ، وبأن له وصفاً جميلا يكون ذكره حمداً ، وأنه من أول البدء والانتهاء موصوف بذلك الوصف الجميل ، وذلك وصف بالجميل واعتراف بأنه المنعم بما ذكر ، والتحدث بالنعم شكر وإن كان بعده صمت .

وأول من قال ((الحمد لله)) بعد الحمد الذي مدح الله به نفسه أزلاً آدم عليه السلام ، وأول من نطق بكلمة الشهادة ودعا إليها نوح عليه السلام ، وأول من أظهر التكبير محمد ﷺ ؛ فتحت له بسببه جميع الأقاليم ، وأتي بمفاتيح خزائن الأرض ، فصار سنة المجاهدين إلى يوم القيامة ، وسبباً لدفع الجان والغيلان .

قال ﷺ للذي اشتكى له من العُمَّار : ((ارفع صوتك بالتكبير في أركان دارك فإنهم لن يعودوا إليها)) .

وقال ﷺ : ((إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن الله يطفئه))[1] .

وكذلك يشرع التكبير عند معاينة العدو ثلاثاً ، يقول : اللهم إني أدرأ بك في نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم ، اللهم اهزمهم وزلزلهم .

وفي رواية : اللهم منزل الكتاب ، هازم الأحزاب ، اهزمهم ، وانصرنا عليهم . وزاد بعض الحكماء قراءة (والشمس) و (إذا زلزلت) إلى (أشتاتاً) ثم يقول : ﴿ **وعنت الوجوه**

---

(١) « إذا رأيتم الحريق فكبروا .. الخ » رواه الطبراني عن عمرو بن شعيب ، ورواه البيهقي بلفظ : « استعينوا على إطفاء الحريق بالتكبير » .

كما أورده السخاوي تحت رقم ٦٣ في مقاصده ، وصاحب الكشف تحت رقم ٢٣٤ ، والله أعلم .

للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴾[طه:١١١] شاهت الوجوه ، ثلاثاً ، يد الله فوق أيديهم ، وسطوته على عاديهم ، اللهم انصر عبادك ، واصلح بغلبتنا على أهل الفساد بلادك ، واحفظنا لنبيك ودينك ، واحفظه فينا ، وارزقنا النصر على أعدائنا حتى تقر بذلك أعين اشياعنا ، أنت المستعان وعليك اتكالنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وعند التذكية والنحر يقال بعد التسمية ، تنوي بذلك ان الله أكبر من كل كبير ، يعظم بالنحر والذبح ؛ لأن الكفرة كانوا يعظمون أصنامهم وأوثانهم بالنَّحر والذبح ، فيلطخونها بالدماء والخلوق[١] تعظيماً وإجلالا ، وكانت قريش تلطخ البيت تعظيماً له على أنه بيت الله فلما جاء الإسلام نهى الله عن ذلك فقال : **﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾** [الحج:٣٧] ، أي يصعد إليه ويتقبله ، كما قال الرسول ﷺ : « إذا تصدق أحدكم بصدقة فأخذها الله بيمينه فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه »[٢] ومعنى تربيته إياها مضاعفتها أو زيادتها من فضله ، والله واسع عليم .

وتجب عند افتتاح الصلاة ، وهي تكبيرة الإحرام ، أي التي يدخل بها المصلي حرمة الصلاة ، أو التي يدخل بها المصلي في حرم الله ، أو التي يحرم بها على المصلي كل فعل ينافي الصلاة ؛ ومعناها أن كل من يعظم بركن من أركان الصلاة فالله أكبر منه ، بل هو المستحق لذلك لكونه أكبر، بل هو الحق وما سواه الباطل ، لأن الأمم منها من يعظم الملوك بالركوع ، ومنها من يعظمهم بالإشارة باليدن ومنها من يعظم بالإشارة بالرأس وبالسجود ، ومنها من يعظم بالقيام ، ومنها من يعظم بالجلوس ، وفي جميع الحالات يثنون عليهم ، ويطلبون الحوائج منهم ، فكأن المكَبِّر يقول : المستحق لذلك على الحقيقة هو الله الواحد القهار ، الذي لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا موجود إلا ما صنع ، ولا مرئي إلا ما اخترع ، فهو المعبود في كل زمان ، والمذكور بكل لسان ، والمشكور في كل حين ، وهو الذي خلق الكافر ، وخلق كفره فيه ، وجبله عليه ، وطبع عليه بطابع المنع ، وخلق المؤمن ، وخلق إيمانه فيه ، وزينه في قلبه ، وحببه إليه ، وطبع عليه بطابع الإقبال والنفع ، قال الله تعالى : **﴿ قل كل يعمل على**

---

(١) الخلوق : نوع من الطيب جيد الرائحة . والخلوف ، بالفاء : عكسه .

(٢) حديث « إذا تصدق أحدكم بصدقة .. الخ » صحيح رواه البخاري ومسلم ، ولفظ مسلم في إحدى رواياته : « ما تصدق أحد بصدقة من طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله » . (٨٥/٣)م

شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ [الإسراء:٨٤] ، جعلنا الله ممن تولاه ولم يكله إلى نفسه ولا سواه .

ثم قال رحمه الله :

١٦٥ ــ وَخَيْرَ صَلاةٍ أَسْتَدِيمُ عَلَى الَّذي هُــدَاهُ لأَدْوَاءِ الْقُــلُوبِ دَوَاءُ

وخيرَ صـلاة ، بالفتح : مفعول (أستديم) ، صـلاة : مضـاف إليه ما قبله . على الذي : جار ومجرور متعلق (بأستديم) والموصول محذوف صدر صلته أي : على الذي هو دَواء . وقال : (هُدَاهُ لأدواء القلوب) لأن النبي ﷺ سبب الهداية لا هو الهادي ولا هو عين الهداية ، وليس الهُدَى هداه ، وإنما الهُدَى هُدَى الله .

قال ﷺ : « إنما بعثتُ داعياً وليس إليّ من الهداية شيء » .

وقال الله تعالى : ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقال له في شأن عمه : ﴿ **إنك لاتهدي من أحببت** ﴾ [القصص:٥٦] وهو أبو طالب ﴿ **ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ [القصص:٥٦] وهو حمزة والعباس .

وقوله : أستديم اي : أطلب دوام صلاتي عليه ، أو مطلق الصلاة لدوامها بدوام بقاء أمته ، وأسأل الله أن يديم صلاته عليه .

لأنـه قد استُشْكِـلَ دعاؤنا للنبي ﷺ بالصـلاة ، وإنما يكون الدعاء من العلى إلى الأدنى ، بخلاف الطلب فإنه يكون من الأدنى إلى الأعلى .

فالجواب : أن الله تبارك وتعالى أمرنا بالصلاة عليه إكراماً لنا وإجلالاً لرسوله ، فلما أمرنا بذلك لم تكن صلاتنا من تلقاء أنفسنا كفئاً له ﷺ فأحلناها على الله ، لتكون الصلاة من رب قاهر على نبي طاهر ؛ فحصل مقصود الشارع ، وهو كرامتنا بان تكون صلاتُنا تبعاً لصلاة العلي الأعلى ، او مقتدين في ذلك برب الأرض والسماوات العلى ، إذ يقول : ﴿ **إن الله وملائكتــه يصلـون على النبي يـاايها الذين آمنـوا صــلوا عـليـه وسـلموا تسـليماً** ﴾ [الأحزاب:٥٦] ، فالصلاة عليه ﷺ من خواصه التي لا توازى ، ومزاياه التي لاتُنَازَى[1] ؛ إذ لم يعطها نبي قبله ، وإنما غايتهم وقصاراهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ **سلام على إلْيَاسِـين** ﴾ [الصـافات:١٣٠] ﴿ **سـلام على نوح في العالمين** ﴾ [الصـافات :٧٩] . ﴿ **سلام على موسى وهارون** ﴾ [الصافات:١٢٠] .

---

(١) لاتنازى : اي لاتنازع .

فإن قلت : فما معنى قوله ﷺ : « كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » . فالمراد ان الصلاة على إبراهيم ليست بصلاة مُتَعَاطَاةٍ ورد بها النص المحتوم ، يستوجبها الخصوص والعموم ، ولكنها صلاةُ رحمة وتشريف وتقرب وتعريف كما لسائر الصالحين من الأنبياء والمؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ [الأحزاب:٤٣] ، كما كان ﷺ يصلي على من أتاه بزكاة ، كما ورد انه ﷺ قال : « اللهم صلِّ على آل أبي أوفى »[1] ، فتكون حينئذ بمعنى عموم رحمة .

فإن قلت : فما معنى قولنا : « كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » وقد انعقد الإجماع وورد النص وانتفى الدفاع أنه ﷺ افضل من جميع العالمين ، وقد ثبت بالضرورة أن المشبه بالشيء لايقوى قوته ؟

فالجواب : أن التشيه منقلب اي منعكس ، فكأننا نقول : اللهم صل على إبراهيم وعلى آل إبراهيم صلاة مثل صلاتك التي خصصت بها محمداً وميزته بها من بين جميع أجناس العالمين ، أو لأن إبراهيم عليه السلام أكرم محمداً ﷺ بوراثة شرعته ومنهاجه ، فقال تعالى في ذلك ممتناً عليه ومادحاً له ومشرفاً لدينه على جميع الأديان : ﴿ **ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ [الأنعام:١٦١] . وقيل : إنه لما كان النبي ﷺ دعوتَه جازاه أن شركه معه في الصلاة عليه التي هي من أعظم الكرامات وأوضح المزايا والعلامات .

يروى أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً** ﴾ [الأحزاب: ٥٦] سأله أصحابه عن كيفية الصلاة التي أمرهم الله أن يصلوا بها عليه ، فقال لهم : ((قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، وارحم محمداً وآل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد))[2] .

فذكر ذلك اجتهاداً منه وتكرمة لوالده إبراهيم ، وشيخه وقدوته ، فاعتنى بإبراهيم آخراً كما اعتنى به إبراهيم أولا في قوله : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم**

---

(١) حديث « اللهم صل على آل أبي أوفى » صحيح رواه مسلم وغيره .

(٢) حديث « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .. الخ » متفق على صحته رواه الشيخان وباقي الستة . وهذا اللفظ الذي أورد الشيخ ليس من بين الألفاظ المتفق عليها ، والله أعلم .

الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة: ١٢٩] ، فبين الله تعالى ق
إبراهيم بقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [التوبة:١٢٨] ، فكأنه يقول:
الرسول الذي اختاره إبراهيم ودعا ان يكون من أنفسكم قد بعثت به إليكم ؛ فأكرموه واتبعو
لكونه حريصاً عليكم كافركم ومؤمنكم ، عزيز عليه مايعنتكم أيَ: يثقل عليه ما يشق علي
أو يغلبكم ، بالمؤمنين رؤوف شديد التعطف عليهم ، كثير الترحم بهم ، ثم التفت من خطا
القوم إلى خطابه ﷺ فقال : فإن تولوا بان لم يعزروك بما استوجبته من الصفات والأخلا
التي تستوجب ذلك منهم إليك ، ولم يتبعوك مع علمهم بصدقك وأمانتك وشرف موضع
وكرم آبائك مع ولادتهم إياك فَقل : حسبي الله ، أي : كفاني الله حافظاً ونصيراً ومؤي
وخبيراً ومانعاً ومجيراً ، وقد آتاني عليكم ملكاً كبيراً ، إذ أنزل عليَّ كتاباً منيراً ، وجعل رو
القدس لي صاحباً ووزيراً ، فستعلمون أينا أحسن منقلباً ومصيراً .

قوله : (لأدواء القلوب دواء) فالأدواء : جمع داء ، وهي الأمراض التي تخالط القلو
من الشكوك والشبه : والدواء: مايستشفى به ، وَلاَ شِفَاءَ إلا ما جاء من بينات كتابه الذ
هدى بـه ، قـال الله تعـالى : ﴿ ونـزل من القـرآن مـا هو شـفـاء ورحمة للمؤمنين
[الإسراء:٨٢] ، وقال : ﴿ وشفـاء لما في الصدور ﴾ [يونس: ٥٧] فهو ماحق لجمي
ذلك ، مزيل لما فيه من الدلائل الظاهرة ، والبراهين القاهرة ، والحجج المفحمة الملجمة
جعلنا الله ممن جعله حجةً له ولا جعلنا ممن جعله حجةً عليه ، آمين .

ثم تنوعت الصلاة ، وتنوعتْ رواياتها بحسب المنافع والحاجات :

فمنها ما أخرجه البيهقي من طريق أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : ((رغم أنف رج
ذكرت عنه فلم يصلِّ عليَّ ، رغم أنف رجل أدرك والديه فلم يدخل الجنة))[1] .

وأخرج أيضاً بإسناد لا بأس به أنه قال : ((من أصابه كرب أو غم أو ألمت به ملمة أ
أراد أن يسأل من الله حاجة فليقل: اللهم صلِّ صلاة تامة وسلّم سلاماً تامّاً على نبي تُفْرَجُ

(١) حديث : « رغم أنف رجل .. الخ » رواه مسلم بلفظ : « رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف م
أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما أو كليهما ولم يدخل الجنة » (٢٥٥١)م ، كما رواه بهذا اللفظ أحمد ، ورواه بلف
أطول الترمذي والحاكم ، وقال الترمذي : حسن غريب . واخرجه السيوطي تحت رقم ٤٤٥٩ ، ولفظ مسلم تح
رقم ٤٤٦٠ ، والله أعلم .

الكروب ، وتزال به الهموم ، وتدرك به الرغائب ، وتقضى به الحوائج ، وتنال به الآمال ، وسلَّم عليه وعلى آله)) .

وأخرج أبو داود في صحيحه أن المدمن على هذه الصلاة لايصيبه عظيم بلاء ، وهي : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات ، وتقضي لنا بها جميع الحاجات ، وتطهرنا بها من جميع السيئات ، وترفعنا بها عندك أعلى الدرجات ، وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات ، في الحياة وبعد الممات .

ومما جاء في عمل (اليوم والليلة) : اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي والرسول العربي وعلى آله وصحبه وسلم مائة مرة ، فإن قالَها في ليل كان في ضمان الله حتى يصبح ، أو في نهار كان في ضمان الله حتى يمسي ، ولم ترد له دعوة ، وكتب له الأجر والثواب حتى يمسي أو يصبح ، وصلى الله عليه بكل صلاة صلاها عشر مرات ولم يبق عليه من سيئاته إلا ما تكفره الأعمال الصالحات .

ومما روي بسند واهٍ ان السبعة منها تكون فدية لصاحبها من النار اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة لا نهاية لها كما لا نهاية لكمالك وعد كماله .

ويروى بأسانيد مستحسنة أن النبي ﷺ قال : ((من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشراً ، ومنْ صلى علي عشراً صلى الله عليه مائة ، ومن صلى علي مائة صلى الله عليه ألفاً ، ومن صلى علي الفاً حرم الله جسده على النار))[1] .

ومما قيل أن الواحدة منها تماثل الألف ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تستغرق العَدَّ وتحيط بالحد ، ثلاة لا نهاية لها ولا نفاد أبد الآباد ، وسلم عليه كما ينبغي له وكما هو أهله ، حبيبك محمد أشرف العالمين ذكراً ، واكثرهم لديك ذخراً ، وأكملهم يوم القيامة مجداً وفخراً ، وأعلاهم عندك سؤدداً وقدراً ، عيبة علمك ، ومدينة حلمك ، الناطق بالفضل ، والحاكم بالعدل ، والضارب في مرضاتك بالنصل ، أكرم الأنبياء مولداً وخيرهم

---

(١) حديث : « من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً » صحيح إلى هذا القدر ، وبهذا اللفظ رواه مسلم وابو داود والنسائي وأحمد ، وأخرجه السيوطي في جامعه تحت رقم ٨٨٠٩ وصاحب الكشف تحت رقم ٢٥١٧ .

اما باقيه فلم أجده ، وورد لفظ : « من صلى علي مرة لم يبق من ذنوبه ذرة » . وهو موضوع كما قال الصغاني ، والله أعلم .

محتداً ، من كرمتَه قبل الوجود ، وسميته بالمحمود ، واكرمت آدم من أجله بالسجود ، وقلبته في أصلاب الركَّع السجود ، حتى أخرجته من الوجود إلى الوجود ، فشققت في الصبا صدره ، ورفعت في العالمين ذكره ، ووضعت عنه وزره ، وهو أمينك المأمون ، وسرك المكنون ، وعلمك المخزون ، الذي فتحت به أعينـاً عميـاً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفا حتى أقاموا واستقاموا في مرضـاتك ، قد جدوا فَما خانوا ، اللهم ابلغه المقَام المحمود الذي وعدته ، وأتمم عليه نوره ودرجته ، واجعل في أعلى الوسيلة منزلته ، وارزقنا اتباعه واجعلنا من اشياعه ، وشفعه فينا ، وأغننا برحمتك عن شفاعته ، ومتعنا بقربه ، وأمتنا على محبته[1] ، واسقنا من حوضه المورود ، واجعلنا في ظل لوائه الممدود ، ياودود ، ياذا العرش المجيد ، يافعالُ لما يريد يا أرحم الراحمين ، ياذا الجلال والاكرام .

ومما روي عنه ﷺ أن من قاله حلت له شفاعته يوم القيامة وبعد الأذان خاصة : ((اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد))[2] .

ثم قال رحمه الله :

١٦٦ ــ وأزْكَى[3] سَــلامٍ أجْتَنِيـهِ لآلِه وأَصْحَـابِـه إذْ هُمْ بِذَاكَ حِجَاءُ

قوله : وازكى : الواو : حرف عطف ، وهو من باب عطف العام على الخاص ، وهو الإلحاق والاستحقاق بعكس عطف الخاص على العام ؛ فإنه لتاكيد الشرف وعلو المنزلة وزيادة التخصيص . أزكي : من أوزان المبـالغة ، وهو منصوب بالاشتغال . وللزكاء معان ، منها : الطهـارة ، ولعلهُ المقصود هنا ، ومنها الكثرة ، ومنها الحلْيَّة ، قال الله تعالى : ﴿ **فلينظر أيها**

---

(١) في النسخة (ب) : صحبته .

(٢) حديث : « اللهم رب هذه الدعوة ... الخ » متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما ، ولفظه عند البخاري : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة » (كتاب الأذان ــ باب الدعاء عند الأذان) .

وليس في شيء من طرقه (الدرجة الرفيعة) ، وهي عند مسلم ، والذي أورد الشيخ لفظ مسلم إلا كلمة (الشرف) فليست في شيء من طرقه ، والله أعلم .

(٣) في النسخة (ب) : وازكى ثناء بدل سلام وهي التي عليها الشرح .

أزكى طعاماً ﴾ [الكهف:١٩] ، ومنها نفي العيب والخلل تقول : رجل زكي : إذا كان سالم العرض والخيم ، ومنه تزيكة الشاهد ، ومنها زكا الشي : إذا بورك فيه ، ومنها زكا الرجل : إذا صلح ما بينه وبين الله قال الله تعالى : ﴿ ، **ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد ابدا** ﴾ [النور:٢١] ، فهو أفعل تفضيل من زكي ، بالكسر ، ورُوِي بالفتح ، وهي لغة القرآن وأهل الحجاز تقول : زكا يزكو زكاء وتزكية : إذا طهر وصفا ، ومنه الزاكيات لله : وهي الأعمال الطاهرة ، أو التي تضاعف الأجور عليه ، أو تتظاهر البركات من أجلها .

فإن قلت : ما معنى قوله : (وازكى ثناءٍ) ؟ فهل في الثناء ما ليس بزكي ؟

قلت : نعم ما بلغ حد الاطراء كثناء النصارى على عيسى ابن مريم حتى نسبوه إلى الربوبية والبنوة ، وكثناء الشيعة على علي رضي الله عنه حتى اشركوه مع النبي ﷺ في نُبُوَّتِه ، وقالوا : هو بمنزلة هارونَ من مُوسى[١] . ثم زادوا غلوّاً فقالوا : إنما قصد جبريلُ عليّاً ثم غلط في محمد ﷺ ؛ فافضى ذلك بهم إلى بطالات وجهالات وأكاذيب على الله ورسوله ، حتى كفروا اصحاب النبي ﷺ بِتَركهم استخلافه ، فمنهم من يقول : لا إله إلا الله علي فارس الله ، ولايذكرون للنبي ﷺ رسالة ؛ ولذلك قال النبي ﷺ لأصحابه : ((لا تطروني كما أُطرت النصارى المسيح بن مريم ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله))[٢] .

وقال لعلي رضي الله عنه : ((يهلك فيك رجلان : محب مفرط ، ومبغض مفرط ، وإنك في هذه الأمة بمنزلة عيسى بن مريم فإن اليهود نسبُوه إلى أنه ابن زِنًى))[٣] بغضاً له

---

(١) قوله : « هو بمنزلة هارون من موسى » ليس من كلام الشيعة ، وإنما هو من كلام رسول الله ﷺ في حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي وأحمد ، ولفظه عند البخاري : « قال النبي ﷺ لعلي : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي » (٧١/٧) فتح ــ كتاب فضائل الصحابة ، ورقم (٨/١١٢) .

(٢) حديث : « لا تطروني كما أطرت النصارى ... الخ » حديث صحيح رواه البخاري في كتاب (أحاديث الأنبياء ـــ باب واذكر في الكتاب مريم).

(٣) حديث: «يهلك فيك رجلان ... الخ» ضعيف رواه البزار وابو يعلى بأوسع من لفظ الشيخ ، واخرجه الهيثمي في مجمعه بلفظ : « قال دعاني رسول الله ﷺ فقال : إن فيك مثلاً من عيسى : ابغضه اليهود حتى بَهَتُوا أمَّهُ ، وأحبتْه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به ، ألا وإنَّه يهلك فيَّ اثنان : محب مفرط يقرظني بما ليس في ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني ... الخ » ، وقال : أخرجه البزار وابو يعلى وفي إسنادهما الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف ، وفي إسناد البزار محمد بن كثير القرشي الكوفي وهو ضعيف (٩/١٣٣) والله أعلم .

وحسداً ، والنصارى قالوا : ابن الله إفراطاً وغلوّاً ، تَعالى الله عن قولهم عُلواً كبيراً .

قَوله : أجتنيه أي : اقتطفه ، وهو من اجتناء الثمر ، وهو اقتطافه رطباً ، فكنى بذلك عن اجتنائه الحسنات بالثناء على آله .

واختلف في آله فقيل : هم كل من أسلم من بني هاشم والمطلب . وقيل : بل آله كل من أسلم من بني عبد مناف . وقيل كل من اسلم من قُصي وزهرة . وقيل : كل من أسلم من مرة . وقيل : كل من أسلم من بني كعب . وقيل : كل من أسلم من بني لؤي . وقيل : كل من أسلم من بني غالب . وقيل : آله سائر قريش . وقيل : آله جميع خندف . وقيل : بل جميع مضر . وقيل : كل نزار وقيل جميع بني معد ، فيدخل في ذلك قُضاعة وخثعم وانمار وبجيلة وخزاعة .

وقيل آله كل بني إسماعيل ؛ لخبر : أتى جبريلُ إبراهيم عليه السلام وهو بالحجر ، وبين يديه إسماعيلُ عليه السلام ، فمسح ظهره وبارك عليه ، ثم قال له : إن ابنك هذا أبو شعوب حتى يكون منهم النبيُّ الكريم الذي يبعثه الله من هذا الحرم ، ويتم به الكلمة ، ويقيم به الملة ، وهو أحب خلق الله إلى الله ، يصطفيه على العالمين ، يجتزىء[1] بالكسرة واللقمة ، ولا يبالي من لقي ، أكثر جنوده الملائكة ، فيسير النصر أمامه حيثما سار مسيرة شهر ، اسمه محمد ، وأمته الحمادون ؛ يحمدون الله على كل حال ، ويكبرونه على كل شرف ، يكتفون باليسير من الرزق ، ويدخلهم الله الجنة بالقليل من العمل ، أناجيلهم في صدورهم ، وقربانهم دماؤهم ، يجاهدون الأمم الضالة حتى يجاهدوا الأعورَ الدجالَ ، هم رعاة الشمس والقمر والظلال لإقامة الصلاة ، طوبى لتلك الوجوه والقلوب التي أخلصت دينها لله ، دويهم في مساجدهم بالذكر والتلاوة كدوي النحل يوحدون الله في جو السماء على الصوامع والمنارات ، اختارهم الله على الأمم كما اختار نبيهم على الأنبياء ، هم شهداء الله في أرضه ، والشهداء بينَ الأنبياء وأممهم يوم عرضه يَصِفُّونَ في الصلاة كصفوف الملائكة ، ويصفون في الجهاد كصفوفهم في الصلاة ، يدخلون قبورهم بذنوبهم ، ويخرجون وقد محيت بدعاء صلحائهم ، افتضحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا عندها ، على رؤوسهم تقوم الساعة ، وإليهم انتهت الأمانة . ((مثالهم في الأمم

(١) كذا في (ب) يجتزىء ، ومعناها : يكتفي .
أما في (أ) فلا توجد هذه الكلمة .

قبلهم كمثال رجل استأجر أجيراً ليعمل له النهار على أن يعطيه قيراطاً فعمل إلى الظهر ثم قال للمستأجر : إني سئمت العمل فلا حاجة لي بقيراطك ، ثم استأجر اجيراً ليعمل له فيما بقي من النهار على أن يعطيه قيراطاً ، فلما كان العصر قال للمستأجر : إني سئمت العمل فلاحاجة لي بقيراطك ، ثم استأجر أجيراً ليعمل له فيما بين العصر والمغرب على أن يعطيه قيراطين ، فعمل فيما بين العصر والمغرب فأعطاه قيراطين فذلك مثال أمة محمد ﷺ فيما تقدمها من الأمم ، فهم أقل عملاً ، وأكثر أجراً))[1] .

وقيل : كل من آمن به واتبعه من جميع أجناس بني آدم إلى يوم القيامة لقوله ﷺ : ((أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً، وأنا بريء من كل شقي ولو كان حرّاً قرشيّاً))[2] .

قوله : واصحابه : وهو كل من أدرك زمنه ﷺ ، وصاحبه ولو ساعة ، غزا معه أولم يغز، ومات على ذلك[3] .

وأفضلهم على الإطلاق أبو بكر الصديق على المختار المرتضى ، ثم عمر بن الخطاب وقد توقف مالك رضي الله عنه في تفضيل عثمان على علي : فقال : لايستبعد أن يكون علي أفضل من عثمان ، فمن فضله على عثمان أو فضل عثمان عليه بعد ان أقرَّ لكل واحد منهما بفضله وسابقته وأعطى لكل منهما ما يستحقه من توليه ومودته فما ظلم ولا جار .

وكان الصحابة على عهد النبي ﷺ يقولون والنَّبيُّ بين ظهرانيهم: أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر فيسمع ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكره .

وكان رسول الله ﷺ كثيراً مايقول: ((إن الله أيدني بوزيرين من أهل الأرض ووزيرين

---

(١) حديث : « مثالهم في الأمم قبلهم ... الخ » صحيح رواه البخاري وغيره في (كتاب الإيجار ـــ باب الإيجار من العصر إلى الليل) ، وأوله عنده : « مثل المسلمين واليهود والنصارى ... الخ » وفي آخره : « فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » .

(٢) حديث : « انا جد كل تقي ... الخ » لا اصل له ؛ سئل عنه الحافظ السيوطي : فقال لا أعرفه . ذكر ذلك في كتابه الحاوي للفتاوي (٨٩/٢) ، كما أورده الألباني في كتابه (سلسلة الأحاديث الضعيفة) وقال : لاأصل له (٢١/١) وأورده كذلك صاحب الكشف تحت رقم ٦١٥ وقال : لايعرف . وورد بلفظ : « آل محمد كل تقي » وفيه قال السيوطي أيضاً : لا أعرفه . وقال مرة : رواه الديلمي وتمام بأسانيد ضعيفة ، ولفظ تمام : « سئل رسول الله ﷺ : من آل محمد ؟ فقال : كل تقي من أمة محمد ، ثم قرأ (إنْ أولياؤه إلا المتقون) » .

قلت : ومع أن للحديث شواهد منها ماهو صحيح فلا يصح الاحتجاج به ، والله أعلم .

(٣) لابد من إضافة كلمة (مسلماً) ليتم تعريف الصحابي ، وبدونها فالتعريف ناقص .

من أهل السماء : أما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر ، وأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل))[1] .

وكان ﷺ يقول : ((أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر[2])) .

ويروى أنه بينما النبي ﷺ في ملأ من أصحابه يقُصُّ عليهم أنْبَاء ماقَد سلف إذ قال : ((بينما رجل على بقرة إذ ضربها ، فالتفتت عليه فقالت : ليس لهذا خلقني ربي إنما خلقني لإثَارة الأرض ، فقالوا : أبقرة تتكلم ؟ فقال النَّبي ﷺ : آمنت أنا وأبو بكر وعمر[3])). وما هما ثَمَّ . ومعنى ذلك أنهم آمنوا مع التعجب ، وأبو بكر وعمر يؤمنان من غير تعجب .

ولما افتتح أصحاب رسول الله ﷺ الشام والعراق ، فرأت اليهود والنصارى حسن سيرتهم وعدلهم ووفائهم وقيامهم بالدين ، وزهدهم فيما فتح على أيديهم من كنوز كسرى وقيصر ، وإنفَاقهم إياها في سبيل الله ، وحسن طاعتهم للقائم بالأمر بدون حُجَّاب ولا حجاب ، وتَعاطفهم فيما بينهم ، وإذلالهم للأمم الكافرة ، فقالوا : والله مالنقباء موسى ولا لحواريي عيسى من الفضل ماهؤلاء . وفي ذلك يقول البوصيري برد الله ضريحه : (من بحر الخفيف)

مالموسى ولا لعيسى حواريـ ـون في عدهم ولا نقباء

---

(١) حديث : « إن الله ايدني بوزيرين من أهل الأرض ... الخ » موضوع رواه الطبراني بلفظ : « إن الله ايدني باربعة وزراء نقباء ، قلنا : يارسول الله ، من هؤلاء الأربع ؟ قال : اثنين من أهل السماء ، واثنين من أهل الأرض ... الخ » كما رواه البزار بالمعنى ، وعنهما الهيثمي في مجمعه (٥١/٩) .

قلت : فيه عند الطبراني محمد بن مجيب الثقفي وهو كذاب ، وعند البزار فيه عبد الرحمن بن مالك بن مغول وهو كذاب ، والله أعلم .

(٢) حديث : «أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر.... الخ» رواه الطبراني بلفظ : «لاغنى لي عنهما إنما منزلتهما من الدين منزلة السمع والبصر» . وفي أخرى (إنما مثلهما) بدل (منزلتهما) ، وهو طرف من حديث طويل ، وفيه محمد مولى بني هاشم قال الهيثمي : لاأعرفه ، وفي الرواية الأخرى راوٍ لم يسم (٥٢ ــ ٩) هيثمي ، والله أعلم .

(٣) حديث : «بينما النبي ﷺ في ملأ من قومه.... الخ» متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي ، وأوله عند البخاري : «بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت : لم أخلق لهذا» ، وهو عنده (في كتاب المزارعة ــ باب استعمال البقر للحراثة) .

وقيل : إن تفاوتهم في الفضل على قَدر تفاوتهم في الخلافة ؛ لأنَّهم مسددون ومصدقُون[1] فيهم .

وفي (الصواعق المحرقة) مانصه : أن النبي ﷺ كان كلما انفتل منْ صلاة الصبح أقبل على أصحابه بوجهه الكريم فيقول لهم : من رأى منكم رؤيا فليقصها علي ؛ فيخبرونه ﷺ بمرائيهم ، فيعبر منها ماشاء الله أن يعبر ، حتى سألهم يوماً فقال له رجل من الأنصار : رأيت يارسول الله صلى الله عليك وسلم فيما يرى النائم كأن أبا بكر نيط بك ونيط عمر بأبي بكر ونيط عثمان بعمر ونيط علي بعثمان ؛ فتغير وجه رسول الله ﷺ ، فلم يعبرها كراهةً لإفشاء السر وكشف الغيب ، ثم جاءه رجل بعد ذلك فقال له : إني رأيت يارسول الله فيما يرى النائم أن دلواً نزل من السماء ، فلما دنا من رأسك نضح عليك حتَّى أخضل ثيابك ، ثم انتقل فنضح على أبي بكر ، ثم نضح على عمر ، ثم نضح على عثمان ، فلما نضح على عثمان انتشط فرفع إلى السماء ، فمازلت أنظر إليه وهو يرتفع حتى حالت السماء دونه ؛ فما سأل رسول الله بعد ذلك أحداً عن رؤيا رآها إلا أن يكون هو الذي يخبره بها .

فإن قلت : فما وجه سؤال رسول الله ﷺ أصحابه عن مرائيهم وهو غني عن ذلك بما أوتيه من الوحي والإلهام والكشوفات ؟

فالمراد ، والله أعلم ، أن الرؤيا نوع من النبوة ، وهو الباقي بعده ، وأحب ﷺ أن يترك في أمته من التأويلات الواردة عنه والتعابير مايبنون عليه أساس تأويل الرؤيا ، لما يمدون به من مشكاة نوره ﷺ ، ولأن زمن الأنبياء زمن التجليات صالح لخوارق العادات ، لتوجه أمداد الحق حينئذ لما سرى في ذواتهم من نور طلعته ﷺ وبركات صحبته ، ولتخصيص الله إياهم بمواجهة خطابه وإنزال كتابه ، فورثَه ﷺ في تعبير الرؤيا أبو بكر رضي الله عنه ، فكان في ذلك الفن لايجارى ولا يمارى ، ثم ورثه حذيفة بن اليمان وهو صاحب السر ، وكان لعلي من ذلك الحظ الأوفر ، بل له ذلك في جميع العلوم .

قال الصادق المصدوق ﷺ : ((علي ابن عمي حامل علمي ، وإنه ليقاتل المارقين

---

(١) هذه العبارة غير واضحة في النسختين ، واقرب شيء إلى المكتوب : ومصدقون فيهم ؛ لذا اثبتناها مع أنها غير مناسبة تماماً .

على تأويله كما قاتل المشركين على تنزيله ، وهو خاتم الخلفاء كما أني خاتم الأنبياء[1])) . كما روي بسند واه وقيل : إنه من وضع الشيعة . وله رضي الله عنه من المآثر والمناقب مافيه غنى عن وضع الشيعة .

ثم أفضل الصحابة بعد الخلفاء الأربعة الستة الباقون من العشرة ، وذكر مناقب كل واحد منهم لاتحتمله الدفاتر ، وتجف دون إحصاء النزر منه المحابر .

يروى أن الله تبارك وتعالى لما أمر نوحاً عليه السلام أن يصنع الفلك كان معه جبريل عليه السلام ، فقال له : ومن لي بصنعة الفلك ولا علم لي به ؟ فقال له : عليك بنَحت الألواح ، ولتكن على عدد الأنبياء والمرسلين ؛ فقال له : ومن لي بأسمائهم ؟ فقال له : عليك النحت فإنك تجد على كل لوح اسم صاحبه مكتوباً ، فلما تمت أسماء الأنبياء بقيت في السفينة أربع ثلمات ، فقال له ؛ إن السفينة لم تتم على أسماء الأنبياء ، فقال : تلك ألواح الخلفاء من أمة محمد ﷺ ؛ فإنها لاتتم الكلمة ولا تستقيم الملة العوجاء إلا باستخلافهم ؛ فانحت أربعة ألواح فإنك تجد على كل لوح اسم صاحبه ؛ فنحت اللوح الأول مكتوب عليه اسم أبي بكر ، وعلى الثاني اسم عمر ، وعلى الثالث اسم عثمان ، وعلى الرابع علي ، فلما جعلوا في السفينة تَم حسنها وزادت بهجتها ، فأمر الله حينئذ أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين[2] .

ويروى أن معاوية لما تم له الأمر بعث أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ إلى قيصر ملك الروم في أمر ، فلما أتَوه أكرمهم وبجلهم وأمر لهم بمنزل كريم ، فلما جن الليل بعث إليهم وأدخلهم بيته ، فإذا بالشموع تزهر ، وإذا بالمكان قد فرش بأنواع البسط ، وضمخت جدران الدسكرة[3] بأنواع الطيب ، ثم أمر بهم فطيبوا .

فلما جلسوا واطمأنوا قال لهم : إنما أريد أن أتحفكم بتحفة لم أتحف بها أحداً قبلكم ؛ لأنه بلغني أنكم من أصحاب محمد المبعوث في العرب فهل تحققون معرفته ؟ فبكوا ، ثم قالوا : كيف لانحقق معرفته ونحن أصحابه وهو قرة أعيننا ؟!

---

(١) هذا الحديث يدل لفظه على وضعه ، وقد أشار الشيخ إلى أنه قد يكون من وضع الشيعة ، وأراه كذلك ، والله أعلم .

(٢) أول هذه القصة كما هو واضح من الإسرائيليات ، وآخرها الذي فيه الخلفاء الأربعة من وضع الكذابين ، والله أعلم .

(٣) الدسكرة : القرية العظيمة ، فارسية ، أو صومعة أو بيوت يكون فيها اللهو والشراب .

فأرسل بعض أصحابه ، فأتوا بصندوق على هيئة الرقعة حتى وضعه بين يديه ، فأخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة آدم ، فإذا هو رجل له ذؤابتان ، طويل العنق ، خفيف العارضين ، كأن وجهه قطعة قمر ، وإذا هو أحسن مايرى من الرجال ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هو آدم عليه السلام .

ثم رده وعمد إلى بيت آخر تحته ، فأخرج منه حريرة سوداء ، فإذا فيها صورة بيضاء ، وإذا هو رجل عظيم الهامة مدور الوجه عظيم المنكبين واسع الصدر أحمر العينين ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : إنه نوح عليه السلام .

ثم عمد إلى بيت آخر ، وأخرج منه حريرة خَضراء ، فإذا فيها صورة بيضاء ، وإذا رجل جمة ، عبل[1] الذراعين ، مهفهف[2] القد ، صلت[3] الجبين ، أقنى[4] الأنف ، براق الثنايا ، كأنه يبتسم[5] ، وكأن النور يخرج من ثناياه فيغشي وجهه ، وهو أشبه الخلق بآدم ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : ذاك يوسف عليه السلام .

ثم عمد إلى بيت ليس تحت إلا أربعة بيوت ، فَأستخرج منه حريرة سوداء ، ثم استخرج صورة بيضاء ، فإذا هو رسول الله ﷺ كأنك تنظر إليه ، فبكينا ؛ فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعرفه هذا نبينا ورسولنا محمد ﷺ ، فقام قائماً وقد اسود وجهه ثم جلس ، ثم قام ، ثم جلس ، فقال : ياليتني أدركته وكنت عبداً من عبيده أغسل الرغام[6] عن قدميه ، ولو أعلم أني أخلص من الروم لوددت أن أكون عبداً لأسوئكم مَلَكَةً .

ثم فتح البيت الذي تحته ، فاستخرج منه صورة أبي بكر ، وقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، هو صاحبه أبو بكر ، ثم فتح بيتاً تحته ، فاستخرج من الحريرة صورة عمر فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، عمر بن الخطاب .

---

(١) عبل الذراعين : ضخمهما .

(٢) المهفهف : الضامر البطن الدقيق الخصر .

(٣) أصلت الجبين : الواضح المستوي البارز .

(٤) اقنى الأنف : ارتفع وسط قصبته .

(٥) في (أ) : وكأنه يبتسم عن لؤلؤ .

(٦) الرغام : التراب ، المخاط .

فقال لنا : أما إن بيتَ محمد ﷺ آخر البيوت ، ولكن قدمته لأختبركم بذلك ، فقالو
له : أخبرنا عن هذه الصور وقد علمنا بحقيقتها لما رأينا صورة محمدﷺ .

فقال لهم : إن الله تبارك وتعالى لما أنزل آدم عليه السلام من الجنة استَوحش فأنزل الله
عليه صور الأنبياء من ذريته ليستأنس بهم ، فكانت في خزانة آدم عليه السلام . ثم توارثه
الأنبياء من بعده ، فلما كان زمن الطوفان فقدت ؛ فاستخرجها دانيال ، فلما تغلب الروم على
بني إسرائيل واستولوا على بيت المقدس أخذوها من أيديهم ؛ فتوارثَها ملوكهم حتى وصلت
إليَّ . فقالوا له : فما بال صور الصحابة في هذه المربعة وليسوا من الأنبياء ؟ فقال لهم : لما كان
لهم من المزية ما للأنبياء ألحقوا بالأنبياء وليسوا أنبياء .

ثم أفضلهم بعد ذلك السابقون من المهاجرين والأنصار ، قال الله تعالى ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار** ﴾ [التوبة : ١٠٠] . ثم أصحاب بدر
فأحد ، فالحديبية ، فخيبر ، فالفتح ، فسائر الصحابة ، فالوافدون ، فالمخضرمون ، فالأقيال[١]
فالتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وأفضلهم على الأجمال القُرون الثلاثة ، جعلنا الله من جملتهم ، وحشرنا في زُمرتهم مع
الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وختم لنا ولجميع المسلمين
بحسن الختم والخاتمة في الدنيا وعند الموت وفي القبر ومعاينة الملكين[٢] آمين، إنه الخليق بذلك
والقادر عليه ومولى الإحسان ومالك الفضل والامتنان ، آمين ياأرحم الراحمين ، يارب
العالمين ، وصلى الله على خاتم النبيين وخير المرسلين ونخبة جميع العالمين ونبي الأميين وأشفع
الشافعين وأقرب المقربين صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

ثم قال رحمه الله على وجه الدعاء لنفسه :

١٦٧ ــ وَسَلْ لِيَ عَفْواً ثُمَّ نَيْلَ جِوَارِهِمْ   غَداً فَإِلَى ذَا سَارَعَ السُّعَدَاءُ

وقد ترك رحمه الله الأَوْلَى : وهو الإتْيان بالدعاء على وجه العموم لنفع الإجابة ؛ لخبر :
الدعاء إذا عم نفع ، وإذا خص ارتفع . ولأن دعاء المؤمن لأخيه عن ظهر الغيب مستجاب .

يروى عنه ﷺ أنه قال : ((إن الله وكل بكل مؤمن ومؤمنة ملكاً ، فإذا دعا لنفسه
ولم يشرك معه أحداً أمسك ، وإذا أشرك معه أحداً من المسلمين قال له : ولك مثل ذلك)) .

---

(١) الأقيال : جمع قَيل : لقب لملوك حمير ، ويطلق على الرئيس ، والمراد من أسلم من ملوك حمير ، أو من
لرؤساء غيرهم .
(٢) في النسختين : ومعاينة الفانين ، ولامعنى لها .

ولقد أرشد الله تبارك وتعالى إلى ذلك في محكم تنزيله ، فجاء به على وجه التمدح فقال : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا** ﴾ [الحشر : ١٠] حتى يكون من الغل عدم الدعاء لهم والترحم عليهم .

يروى أنه ﷺ لما بلغ المستوى حياه الله بأن قال له : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته ، فلم يرضَ أن يكون السلام خاصّاً دون أمته ، فقال مجيباً : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

فلو أنه قال : ونسأله عفواً ونيل جوارهم لكان أولى ؛ فإن النون تُدخل معه المسلمين ؛ إذ هي للمتكلم المعظم نفسه أو معه غيرُه ، فتعظيمه نفسه لاينبغي له ولا لمثله ؛ إذ من بلغ درجة التأليف يستحيل[1] في حقه أن يعظم نفسه لانتفاء الجهل المؤدي إلى ذلك ؛ بانتفاء السبب الذي هو الجهل ينتفي المسبَّب الذي هو تعظيم النفس ، فَلا يبقى إلا أن يكون معه غيره ، وقد قصده بالدعاء فينتفي حينئذ المحذور ؛ فيقع الانتفاع ، ويتحصل السرور .

وفي ذلك فائدة أخرى ، وهي الإتيان بالضمير المشتمل على اسم الجلالة المشار به إلى الاسم الأعظم ؛ إذ لو ساغ حذفه لما كان من الأدب تركه ؛ لأنه لم يرد في طلب العفو حذف اسم الجلالة في كتاب ولا سنة ؛ لأن ذكر الاسم والثناء على مسماه مما لايستغنى عنه شرعاً ولاعقلاً ولاعادة ؛ فإن الله يقول : ﴿ **قُل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ماتدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ [الإسراء : ١١٠] وقال : ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ [النساء : ٣٢] . ولما علمهم كيفية الدعاء أمرهم بتكرار ذكره مع كل دعاء معلماً لهم فقال : ﴿ **ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وقال ﷺ في سؤال العفو : ((اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة))[2] .

---

(١) لايستحيل ذلك مطلقاً ؛ إذ العلم لايمنع من الوقوع في الزلل .

(٢) حديث : «اللهم إني أسألك العفو والعافية... الخ» صحيح أخرجه النسائي وأحمد والبيهقي بألفاظ يزيد بعضها على بعض ، وعنهما الغزالي في الأحياء (١ ــ ٣٢٣) .

وحقيقة العفو المجاوزة عن الذنوب بعد التنبيه عليها . والغفران المجاوزة عن الذنوب من غير تنبيه عليها . والصفح المؤاخذة ببعضها دون بعض أو التنبيه على بعضها دون بعض .

قوله : ونيل جوارهم : أي الظفر بجوارهم ، أي : الموت في أحد الحرمين ، كما كان عمر رضي الله عنه يقول : اللهم إني أسألك الموت في سبيلك ، وفي بلد رسولك .

كما أنه ﷺ قال : ((أولُ من تنشق عنه الأرضُ أنا ، فأبعث ، فإذا أبو بكر عن يميني ، وعمر عن شمالي ، ثم أذهب بهما إلى أهل البقيع ، فيبعث جميع من مات بالمدينة فيغفر الله لهم بسبب جوارهم إياي ، ثم أذهب إلى الحرم ، فيحشر إليَّ أهله فأشفع فيهم[1])) .

ويحتمل أن يريد بذلك جواره إياهم في الدار الباقية دار المقامة إن لم يحصل له جوارهم بالحرمين . فإلى هذا الذي هو سؤال العفو من الله وسؤال نيل جوار النبي ﷺ وآله وأصحابه سارع السعداء ، ومسارعتهم هي مسابقتهم إلى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، والتشبث بأذيالهم ، والسير على منوالهم ، أو التطبع بأحوالهم ، والاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم .

والسعداء : جمع سعيد (فعيل) بمعنى (مفعول) . قال الرسول ﷺ : ((إذا سمعت بمسعود أخذ عوداً فأثمر في يده فلا تكذب ، وإذا سمعت بمحروم أتى عين ماء ليشرب منها فغارت فلا تكذب[2])) . ويشبه هذا قوله ﷺ : ((إذا سمعت بطبع زال من صاحبه فكذب ، وإذا سمعت بجبل زال عن محله فلا تكذب[3])) .

وحقيقة السعيد من ساعدته الأقدار ، وصاحبته الأنوار ، وكلأ العزيز الجبار ، جعلنا الله ممن تولاه الله بكلاءته ، ورعاه بعين عنايته ، وقواه بكنف كفالته ، وجعلنا ممن يباهي بـ

---

(١) حديث : «أول من تنشق عنه الأرض أنا» صحيح إلى هذا القدر ، وهو جزء من حديث رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، وأوله : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» وفيه «وأنا أول من تنشق عنه الأرض» ، أما باقية من قوله : «فأبعث فإذا أبو بكر عن يميني ... إلخ» فلا أعرفه ولم أر من أخرجه ، ولا أظنه يَصح عن النبي ﷺ ، بل أكاد أجزم بأن أمارات الوضع عليه بادية ، والله أعلم .

(٢) لم أجد هذا الكلام المنسوب إلى النبي ﷺ في شيء من كتب الحديث .

(٣) حديث : «إذا سمعت بطبع زال ... الخ» ضعيف أخرجه أحمد (٦ ــ ٤٤٣) ، وعنه العجلوني تحت رقم ٢٣٣ ورقم ٢٠٠ وقال : رواه أحمد بسند صحيح ، والسيوطي تحت رقم ٦٩٦ قال شارحه المناوي : قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح إلا أن الزهري لم يدرك أبا الدرداء .

النبي الكريم الأنبياء من أهل ولايته ، وممن يكاثر به الأمم ممن استنار بنور هدايته ، وصلى الله على محمد وآله وأزواجه وذريته وصحابته .

وكان الفراغ من شرح هذه المنظومة المباركة غرة المحرم لستة أيام مضين منه ضحوة الاثنين من عام إحدى ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية ، صلى الله وسلم على صاحبها ، والحمد لله على ماألهم ، وعلى مامن فضله علم ، وللمقصود تمم ، وأسأل الله أن يجعله بوجهه خالصاً ، وعن الرياء والسمعة قالصاً ، وأن ينفع به قارئه وسامعه وكاتبه ومن سعى في تحصيله كما رأيتُ مخايل ذلك[1] ، جعل الله ذلك كذلك ، وتمم ماهنالك ، آمين ، آمين . انتهى .

* * *

(١) هذه العبارة وردت في النسخة (أ) وهي غير موجودة في النسخة (ب) إذ انتهى عند قوله (وأزواجه وذريته وصحابته) .

تم الفراغ من إعداد هذا الكتاب للطبعة الثانية
في اليوم السادس من شهر شوال عام ١٤١١
في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم
على يد الفقير إلى ربه/مأمون محمد أحمد
غفر الله له ولوالديه آمين آمين

الفهـرس

الموضوع | الصفحة

باب مايفتح فيقصر ويكسر فيمد والمعنى واحد

باب مايكسر فيقصر ويفتح فيمد والمعنى واحد